

رواية

مكتبة

ميخائيل شيشكين

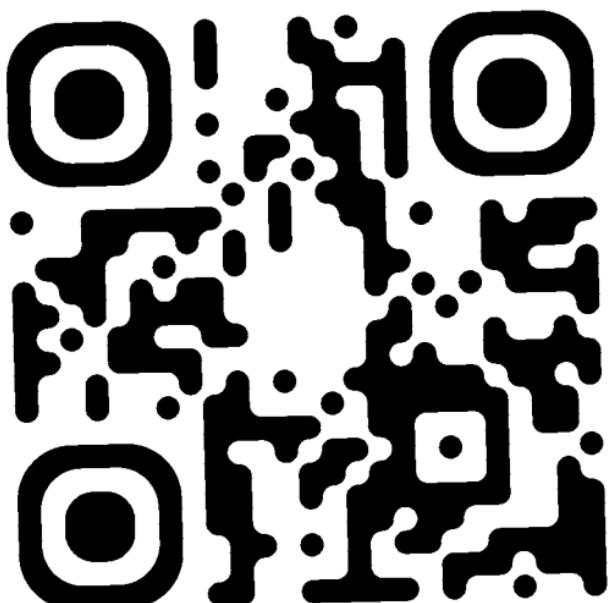
# رسالة فنوس



ترجمة: د. إبراهيم استنبولي

انضم لمكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط



telegram @soramnqraa

رسالة فينوس

Author: **Михаил Шишкин**

اسم المؤلف: ميخائيل شيشكين

Title: **Венерин волос**

عنوان الكتاب: رسالة فينوس

Translated by: **Dr. Ibrahim Istanbuli**

ترجمة: د. إبراهيم إستنبولي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada**

الناشر: دار المدى

First Edition: **2020**

الطبعة الأولى: **2020**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

**Венерин волос**

Copyright © Mikhail CHICHKINE, 2005.

© Librairie Arthème Fayard, 2007.



للإعلام والثقافة والفنون

*Al-mada for media, culture and arts*

✉ + 964 (0) 770 2799 999  
+ 964 (0) 770 8080 800  
+ 964 (0) 790 1919 290

بغداد: حي أبو نواس - محله 102 - شارع 13 - بناية 141  
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141  
✉ www.almada-group.com ✉ email: info@almada-group.com

✉ + 961 706 15017  
+ 961 175 2616  
+ 961 175 2617

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول  
✉ dar@almada-group.com

✉ + 963 11 232 2276  
+ 963 11 232 2275  
+ 963 11 232 2289

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار  
✉ al-madahouse@net.sy  
ص.ب: 8272

11 4 2025

مكتبة  
[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

ميخائيل شيشكين

مكتبة

t.me/soramnqraa

# رسالة فينوس

ترجمة عن الروسية

د. إبراهيم استنبولي



يشمل مسرح الأحداث في رواية ميخائيل شيشكين الحائزة على جائزة البوكر فترات زمنية مختلفة وبلدانًا مختلفة: إبان الحرب الأهلية، وأوروبا الحالية، وحتى بلاد فارس القديمة. تتقاطع مصائر أبطال السرد، تحدث عملية استحالة متبادلة فيما بينهم، ويقودهم الحب في دروب حياتهم - حب سعيد ودرامي ومختلف. «في حال كان ثمة حب، فلن يستطيع أحد أن يجعله غير موجود» - هذا هي الفكرة الرئيسية للرواية التي نالت جائزة «الرواية الوطنية الأكثر رواجا National bestseller».



## تعريف بالمؤلف

ولد ميخائيل بافلوفيتش شيشكين عام 1961 في موسكو. أنهى كلية اللغات الرومانية والألمانية في المعهد التربوي الاجتماعي في موسكو. عمل معلّماً للغة الإنكليزية في المدرسة. نشر أول أعماله النثرية بعنوان «درس في فن الخط» في مجلة «زناميا - الرأي» (العدد 1 لعام 1993) ليصبح أحد كتاب المجلة الدائمين. كانت مجلة «زناميا» أول من نشر روايته «الجميع تنتظرونهم ليلة واحدة»، والقصة الطويلة «الموسيقي الأعمى» وأيضاً رواية «الاستيلاء على إسماعيل» التي حازت على جائزة البوكر للرواية في عام 1999.

يعيش في زيوريخ، حيث قام بإصدار دليل أدبي تاريخي «سويسرا الروسية».



سوف يبعث الرفات ويُقال له: «هيا أَعِد ما ليس ملْكًا لك؛  
أَظْهِر ما قمت بحفظه لبعض الوقت». لأنَّه تمَّ خلق الكون  
بكلمة، وبكلمة سوف نبعثه.

• نبوءة باروخ بن نيريا.

السفر الرابع. الإصلاح XLII



كان لدى داريوس<sup>(1)</sup> وزوجته باريستيس ولدان، البكر أردشير والصغرى فورش.

تبدأ المقابلة في الثامنة صباحاً. كان الجميع ما زالوا نعس وحاملين ومتوجهين - الخدم والمترجمون، رجال البوليس والمهاجرون. الأصح، ينبغي على واحدهم أن يصبح مهاجراً. أما الآن فما زالوا GS. هكذا يُدعى هنا هؤلاء الناس. *Gesuchsteller*.<sup>(2)</sup>

يدخلونه. الاسم والكنية. تاريخ الولادة. شفاته غليظتان. بوجه مليء بالثبور. من الواضح أن عمره أكثر من ست عشرة سنة.

سؤال: اشرح باختصار الأسباب التي دفعتك لتقديم طلب لجوء إلى سويسرا.

جواب: كنت أعيش في مأوى للأطفال منذ أن كان عمري عشر سنوات. وقد قام مدير المأوى باغتصابي. فهربت من هناك. تعرفت في المحطة على السائقين الذين يقودون عربات مغلقة لتهريب الناس عبر الحدود. وقد أفلّني أحدهم.

سؤال: لماذا لم تقدم بشكوى إلى الشرطة ضد مديرك؟

جواب: كانوا سيقتلوني.

سؤال: من الذي كان سيقتلوك؟

---

- دارا الأول، داريوس الأول يسميه الفرس بداريوش الكبير هو الملك الأخميمي الثالث..  
المترجم

- الشخص الذي تقدم بطلب منحه اللجوء (بالألمانية). المؤلف.

جواب: جميعهم أوباش هناك. حملنا مدير المأوى أنا وصبياً آخر، وفتاتين صغيرتين في سيارته إلى فيلا كبيرة. إلى فيلا ليست له، ولكنني لا أعرف صاحبها. وهناك اجتمعوا كلهم، رؤساؤه ومعهم قائد الشرطة أيضاً. شربوا الكثير من الخمر وقاموا بإرغامنا على الشرب أيضاً. ثم وزّعونا على الغرف. كانت متزلاً فاخراً وضخماً جداً.

سؤال: هل ذكرت جميع الأسباب التي تجعلك تطلب اللجوء؟  
جواب: نعم.

سؤال: قم بتوضيح الطريق الذي سلكته. من أي بلد وفي أية نقطة اجتزت الحدود السويسرية؟

جواب: لا أعرف. كنت أركب عربة مغلقة، وقد أحاطوني بعلب كرتونية من كل الجهات. أعطوني قارورتين بلاستيكتين: واحدة مملوءة بالماء، والثانية من أجل التبول، ولم يطلقوا سراحني إلا ليلاً. وقد أنزلوني هنا، في مكان ليس بعيد، وحتى إني لا أعرف اسم المدينة، ثم أشاروا إلى كيف يجب عليَّ أن أذهب لكي أسلِّم نفسي.

سؤال: هل سبق أن مارست نشاطاً سياسياً أو دينياً؟  
جواب: كلا.

سؤال: هل سبق أن كنت محكوماً أو مطلوباً للعدالة؟  
جواب: كلا.

سؤال: هل تقدمت بطلب لجوء إلى بلدان أخرى؟  
جواب: كلا.

سؤال: هل لديك وكيل قانوني في سويسرا؟  
جواب: كلا.

سؤال: هل توافق على إجراء خبرة طبية لتحديد سنك عن طريق النسيج العظمي؟

جواب: ماذا؟

يمكن شرب القهوة أثناء الاستراحة في الغرفة المخصصة للمترجمين.

وهي عبارة عن غرفة بنوافذ تطل على بناء قيد الإنشاء - يتم تشييد مبني جديد لاستقبال المهاجرين.

كان الكأس البلاستيكي الأبيض يتوجه باستمرار بين الأيدي، كما أنَّ الغرفة بأكملها كانت تشرق بالللمعان الناتج عن عملية اللحام - ذلك لأنَّ عامل اللحام كان يقوم بعمله قرب النافذة مباشرة.

لم يكن هناك أحد، ولذلك كان يمكن للمرء أن يقرأ بهدوء لمدة عشر دقائق.

وهكذا، كان لدى داريوس وباريستيس ابنان، البكر أردشير والصغرى قورش. وعندما بدأ داريوس يمرض ويسمم مستشعرًا اقتراب أجله، دعا إليه ولديه الاثنين. في ذلك الوقت كان البكر إلى جانبه، وأما قورش فقد كان داريوس قد أرسله إلى تلك المنطقة التي سبق أن عينه مرزباناً<sup>(١)</sup> عليها. راحت صفحات الكتاب أيضًا تبرق بسبب لمعان اللحام. ما جعل القراءة مؤلمة - إذ كانت الصفحة تسودُ بعد كل لمعة.

تغمض عينيك - ولكن الللمعان كان يخترق الأجفان بقوه. أطلَّ بيته برأسه عبر الباب.<sup>(٢)</sup> المت Hickem برقاب العباد. يغمز بعينيه، أنه حان الوقت. وهو بدوره ينيره لمعان اللحام كما لو أنه لمعان آلة تصوير. بحيث إنه يبقى مرسومًا على هذه الحالة مع عين نصف مغمضة.

سؤال: هل تفهم على المترجم؟

جواب: نعم.

سؤال: ما هي كنيتك؟

جواب: \*\*\*

سؤال: ما هو اسمك؟

جواب: \*\*\*

سؤال: كم عمرك؟

-1- المرزبان - حاكم ولاية فارسية قديمة. المترجم

-2- سيد فيشر (الماني). المؤلف

جواب: ست عشرة سنة.

سؤال: هل لديك جواز سفر أو أية وثيقة أخرى تثبت شخصيتك؟

جواب: كلا.

سؤال: يجب أن يكون لديك شهادة ميلاد. أين هي؟

جواب: احترقت. لقد احترق كل شيء. فقد احترق بيتنا.

سؤال: ما هو اسم أبيك؟

جواب: \*\*\* مات منذ زمن بعيد، بحيث إنني لا أذكره نهائياً.

سؤال: ما هو سبب وفاة والدك؟

جواب: لا أعرف. لكنه كان سقيما طوال الوقت. وكان يشرب.

سؤال: اذكر اسم أمك وأسم والدها وكنيتها قبل الزواج.

جواب: \*\*\* لا أعرف كنيتها قبل الزواج. لقد قاموا بقتلها.

سؤال: من ذا الذي قتل والدتك، متى وفي أية ظروف؟

جواب: الشيشانيون.

سؤال: متى؟

جواب: في شهر آب من هذا الصيف.

سؤال: في تاريخ أي يوم؟

جواب: لا أعرف بالتحديد التاريخ. ربما، في التاسع عشر أو في العشرين من آب. لا أذكر.

سؤال: كيف قاموا بقتلها؟

جواب: أطلقوا عليها الرصاص.

سؤال: اذكر آخر مكان إقامة عشت فيه قبل مغادرتك.

جواب: \*\*\* تلك كانت قرية صغير بالقرب من مدينة شالي.

سؤال: اذكر العنوان بدقة: اسم الشارع ورقم المنزل.

جواب: لا عناءين هناك. ببساطة هناك شارع واحد والبيت الذي كنت

أسكن فيه. لم يعد بيتنا موجوداً. قاموا بإحراقه. بل ولم يبق شيء من القرية ككل.

سؤال: هل لديك أقارب في روسيا؟ إخوة؟ أخوات؟

جواب: كان لدى أخي آخر. البكر. لقد قتلوه.

سؤال: من الذي قتل أخيك، ومتى وفي أية ظروف؟

جواب: الشيشانيون. في ذلك اليوم أيضاً. فقد قتلواهم مع بعضهم.

سؤال: هل من أقرباء آخرين في روسيا؟

جواب: ما من أقرباء آخرين.

سؤال: هل لديك أقارب في بلدان أخرى؟

جواب: كلا.

سؤال: وفي سويسرا؟

جواب: لا.

سؤال: ما هي جنسيةك؟

جواب: روسي.

سؤال: ما هو معتقدك الديني؟

جواب: ماذا؟

سؤال: ما هي ديانتك؟

جواب: مؤمن.

سؤال: هل أنت أرثوذكسي؟

جواب: نعم. ببساطة لم أفهم على الفور.

سؤال: اشرح باختصار الأسباب التي تجعلك تطلب حق اللجوء في سويسرا.

جواب: كان الشيشانيون يأتون إلينا باستمرار ويطالعون بأن يخرج أخي معهم إلى الجبال لكي يقاتل إلى جانبهم ضد الروس. وإنما سوف يقتلونه. قامت أمي بإخفائه. كنت عائداً إلى البيت في ذلك اليوم وسمعت صراغاً من خلال النافذة المفتوحة. اختبأ بين الشجيرات ورأيت كيف كان

أحد الشيشان يضرب أخي بأخصاص البندقية. كانوا بضعة أشخاص وكل واحد منهم كان يحمل بندقية آلية. لم أكن أرى أخي - فقد كان ممدداً على الأرضية. عندئذ هاجمتهم أمي وهي تحمل سكيناً. سكيناً كنا نقشر بها البطاطس. دفعها أحدهم نحو الحائط ثم وضع فوهه البندقية في رأسها وأطلق النار عليها. ثم خرجنوا وصباوا البترزين على البيت من عبوات وبعد ذلك أحرقوه. كانوا يقفون حول البيت وقد راحوا يراقبون كيف يشتعل. كان أخي ما زال حياً، لأنني سمعته يصرخ. لكنني خفت أن يرونني وأنهم سوف يقتلونني عندئذ.

سؤال: لا تصمت، بل تابع الحديث عما كان فيما بعد.

جواب: ثم غادروا. أما أنا فيقيط جالساً هناك حتى حلول الظلام. لم أكن أعرف ما العمل وإلى أين يمكنني أن أذهب. ثم ذهبت إلى حاجز روسي على الطريق إلى شالي. ظننت أن الجنود هناك قد يساعدونني بطريقة ما. يبدأنّ هؤلاء كانوا يخافون من الجميع فراحوا يطردونني. حاولت أن أشرح لهم ما الذي حدث، لكنهم بدأوا بإطلاق الرصاص في الهواء لكي يرغمني على المغادرة. فاضطررت لأن أمضي الليل في بيت مهجور مدمّر في الشارع. ثم رحت أخوض طريقاً صعباً إلى روسيا. ومن هناك جئت إلى هنا. أنا لا أريد العيش هناك.

سؤال: هل ذكرت جميع الأسباب التي تدفعك للتقديم بطلب اللجوء؟

جواب: نعم.

سؤال: صِف لنا الطريق الذي سلكته. ما هي البلدان التي اجتزتها وما نوع واسطة النقل؟

جواب: تنقلت بطرق مختلفة. في قطارات كهربائية وفي قطارات عادية. عبر روسيا البيضاء وبولندا وألمانيا.

سؤال: هل كنت تحمل المال لشراء بطاقات السفر؟

جواب: من أين لي؟ كنت أهرّب من المراقبين في القطارات. وقد اكتشفوا أمري في القطار في روسيا البيضاء، فقاموا بإلقاءي من عربة القطار وهو يسير. من حسن حظي أنّ القطار كان بطيئاً في تلك اللحظة، حيث كان

يجتاز منحدراً. وقد حالفني الحظ بأنني سقطت بشكل موفق من دون أن ينكسر عندي شيء. جرحت ساقي فقط بسبب اصطدامي بزجاج مكسور. في هذا المكان. ثم أمضيت الليل في محطة القطار، حيث قامت امرأة بإعطائي لصاقة طبية.

سؤال: ما هي الأوراق الثبوتية التي استخدمتها عند اجتيازك للحدود؟

جواب: لم أستخدم أية أوراق ثبوتية. كنت أمشي ليلاً على قدمي عند اجتياز الحدود.

سؤال: في أي مكان وبأية طريقة قمت باجتياز حدود سويسرا؟

جواب: هنا، في هذا المكان الذي اسمه...

سؤال: كروزلينغن.

جواب: نعم. مررت ببساطة بمحاذة رجال الشرطة. فهم يفتشون السيارات فقط.

سؤال: كيف كنت تؤمن المال لشراء حاجتك من طعام وشراب؟

جواب: لم يكن لدي أي مال.

سؤال: ماذا يعني ذلك؟ هل كنت تسرق؟

جواب: حدث مثل ذلك أيضاً. وما العمل؟ لا بد أن أتناول بعض الطعام.

سؤال: هل سبق أن قمت بأي نشاط سياسي أو ديني؟

جواب: كلا.

سؤال: هل سبق أن كنت محكوماً أو مطلوباً للعدالة؟

جواب: كلا.

سؤال: هل تقدّمت بطلب لجوء إلى بلدان أخرى؟

جواب: كلا.

سؤال: هل لديك وكيل قانوني في سويسرا؟

جواب: كلا.

يلتزم الجميع بالصمت، بينما تقوم الطابعة بطباعة البروتوكول.

ينكش الفتى أظافره السوداء المقروضة. تفوح من سترته ومن بنطلون

الجينز رائحة السجائر والبول.

استند بيتر إلى ظهر الكرسي وهو يتارجح وينظر من خلال النافذة إلى البعيد. ثمة طيور تتجاوز طائرة.

رحت أرسم في المفكرة صلباناً ومربعات، ثم أقوم بتقسيمها إلى مثلثات بواسطة خطوط قطرية، بعد ذلك ألونها بطريقة تجعل الرسم يتحول إلى ما يشبه زخرفة نافرة.

ثمة صورة معلقة على الجدران من جميع الجهات - ذلك لأنّ المتحكم برقاب العباد مهووس بممارسة صيد السمك. في إحدى الصور يمسك سمكة كبيرة من خياشيمها في آلاسكا، وفي صورة أخرى شيء ما من منطقة بحر الكاريبي له كلاب كبير يبرز من بلعوم ضخم.

وهناك خريطة للعالم معلقة فوق رأسه. وقد تم غرزها بدبابيس لها رؤوس مختلفة اللون. دبابيس برؤوس سوداء غرست في القارة الأفريقية، ومع رؤوس صفراء - في آسيا. دبابيس برؤوس بيضاء - مغروسة في منطقة البلقان، وروسيا البيضاء وأوكرانيا، ومولدافيا وروسيا والقوقاز. وسوف يضاف دبوس جديد بعد هذه المقابلة.

أشبه بطريقة العلاج بالوخز بالإبر الصينية.

توقف الطابعة ويومض الضوء الأحمر فيها - لقد انتهى الورق.

نبوخذ نصر العزيز!

لقد استلمتم بطاقتي قبل أوانها مع وعد بالتفاصيل. إليكم تلك التفاصيل. بعد قضاء يوم في أمكنة غير بعيدة، جئت إلى البيت. أكلتُ معكرونة. أعدت طباعة رسالتكم التي أفرحتني كثيراً. ثم رحت أحدق عبر النافذة. كانت الرياح تستعجل المساء. بدأ هطول المطر. كانت ثمة مظلة حمراء مرمية على المرح الأخضر، أشبه بجرح في جلد العشب. ولكن، بالترتيب.

الحق يقال أنّ ساعي البريد لم يكن يدلّنا كل يوم برسائل أجنبية! وخصوصاً بمثل هذه! ذلك لأنّ رسالتكم تمثل فرحاً غير متوقع وسط مختلف الحسابات والدعایة، الرسالة التي تصفون فيها بالتفصيل دولتكم النبوخذ نصرية، وتشيرون إلى ماضيها الجغرافي المجيد، وإلى حالات المد والجزر

في التاريخ، حيث تصفون أخلاقاً فلورا<sup>(1)</sup> وعادات فاونا<sup>(2)</sup>، والبراكيين والقوانين، والمنجنيق والميول لأكل لحوم البشر عند السكان. فقد تبين أن لديكم أيضاً مصاصي دماء ودراكولا! وهذا يعني، أنكم تحكمون مثل الأباطرة. أشعر بالإطراء.

لكن الحقيقة هي أن كتابتكم مليئة بالأخطاء النحوية، ولكن ما الفرق، من حيث الجوهر، يا ترى! إذ يمكن للمرء أن يتعلم تصحيح الأخطاء النحوية، عدا أنكم قد لا ترسلون إلى بعد اليوم أبداً مثل هذه الرسالة. ذلك لأنّ الأباطرة يشيخون بسرعة ومن ثم ينسون إمبراطوريتهم.

لاأشبع من النظر إلى خريطة الوطن - الجزيرة المرفقة بالرسالة، وإلى ذلك الجهد الذي قام به رسامو الخرائط لدى الأباطرة. بالمناسبة، سوف أقوم بتعليقها، على الأرجح، هنا، على هذا الجدار. سوف أقوم بتأمل الخريطة وبالتالي تخمين عن المكان الذي أنتم فيه الآن، وسط تلك الجبال والصحاري والبحيرات، وسط تلك الأدغال والعواصم المرسومة بأقلام فلوماستر. ماذا تعملون وبماذا تلهون؟ هل انتقلتم من المقر الصيفي إلى القصر الخريفي؟ أم إنكم نائمون؟ وبحيث أنَّ أسطولاً ضخماً جباراً لا يقهري حرس نومكم - ها هي سفن ثلاثة المجاديف وغواصات تسير من حول الجزيرة على شكل قافلة متزمرة خط سير محدد.

وكم مجيد ذلك الاسم الذي منح للملك الفاضل، والذي كُتب بحروف ملونة! حتى إنه لدى بعض التخمينات بصدق كيف خطط على بالكم هذا الاسم، لكنني سوف أحتفظ بها لنفسي.

في آخر رسالة منكم تطلبون مني أن أخبركم بعض المعلومات عن دولتنا البعيدة التي لم يعرفها علماء الجغرافيا والمؤسسون الرواد بعد. كيف يمكنني ألا أجيب على طلبكم!

1- هنا فلورا *Floral* إلهة الورد وفصل الربيع في الميثولوجيا الرومانية، أصبحت كرمز للورد في الميثولوجيا الرومانية، وقد اشتقت منها كلمة فلاور الإنكليزية التي تعني الورد وقد تم تصويرها أيضاً كإلهة للخصوصية وتم ربطها بفصل الربيع وهي التي تظهر الخضار وتخصب المحاصيل، كما اعتبرت أيضاً إلهة الشباب. المترجم

2- هنا فاونا - إلهة الغابات والحقول، راعية قطعان الحيوانات. المترجم

ما الذي يمكنني أن أقوله بشأن إمبراطوريتنا؟ إنها أرض الميعاد، أرض الملاذ والمأوى، بلاد ناطحات السحاب. يمكنك أن تجري بعربتك في أرجاء الساحة لمدة ثلاثة سنوات من دون أن تجتاز الساحة كاملة. كما أنه لا مثيل لها من حيث عدد البعوض على جسد الفرد خلال ساعات الليلي المؤرقه. كما تجري السناجب على طول السياج.

تشتهر خارطتنا بكثرة البقع البيضاء عندما يهطل الثلج. والحدود بعيدة جدًا إلى درجة أنه غير معروفة تلك البلدان التي تحدها الإمبراطورية. البعض يقول إنها تحدُّ الأفق، وحسب مصادر أخرى - تشتهر في الحدود مع نغمة (كادنزا) الأنابيب الملائكة. في حين أنه معروف بشكل مؤكد أنها تقع في مكان ما إلى الشمال من بلاد الإغريق، على امتداد الخط الشاطئي للمحيط الهوائي الذي تسير فيه القافلة من سفن أسطولنا الغائم الذي لا يقهر. ما زالت فلوراهي القائد، في حين أنه لم يبقَ من الطبيعة الحية سوى قامات تلك الأشجار التي تشبه سربًا من الأسماك الصغيرة. تثير الرياح الرعب فيها. الراية - حرباء، والقوانيين على الورق فقط<sup>(1)</sup>، أما البراكين فأنا شخصياً لا أعرف عنها شيئاً.

المسألة الوحيدة التي تشغل عقول القادة في الإمبراطورية جيلاً بعد جيل - من نحن ولماذا؟ لا يمكن العثور على جواب على هذا السؤال، وذلك على الرغم من كل الأدلة الواضحة.

في الصورة الجانبيّة - Hyperborea<sup>(2)</sup>، وفي الصورة الكاملة الأمامية

---

- ورد في النص الأصلي قول متأثر روسي شعبي له ترجمات كثيرة لكن معناه باختصار: القانون مثل الحصان - يذهب حيثما تقوده أو هناك قانون للأثرياء وقانون للفقراء - دلالة غياب القانون. ويعادل القول في الانكليزية: one law for the rich, and another for the poor. المترجم.

- في الأساطير اليونانية - عرق من العمالة الذين عاشوا «وراء الريح الشمالية». كان اليونانيون يعتقدون أن بورياس، إله الريح الشمالية عاش في تراقيا، وبالتالي يشير Hyperborea إلى أنها منطقة خارج تراقيا. وللعلم، حاول الكثير من المثقفين الروس المتعصبين للقومية الروسية تبني هذا الرأي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في لحظة تاريخية كانت روسيا تخبط من ناحية الاتماء والهوية - المترجم

الخلفية – Sarmati<sup>(1)</sup>. باختصار، إما من الأقلية الأورتاشية<sup>(2)</sup> أو من التونغوس (إيفينيك)<sup>(3)</sup>. وكل واحد منهم – هراء، سقط متاع. كنت أريد أن أكتب «لغز».

كانت المعتقدات بدائية، من دون أن تكون خالية من بعض الشاعرية. البعض يؤمن بقوة في أنَّ العالم – أثني موظ<sup>(4)</sup> يشكّل صوفها غابات العالم، وأنَّ الطفيليّات التي تعيش في صوف الموظ هي تلك الوحوش التي تعيش في التايغا، وأنَّ الحشرات التي تحوم حولها – طيور. هكذا هي سيدة العالم ذات القرون. عندما تبدأ أثني الموظ بحك جسمها على جذع شجرة – يموت وينفرض كل ما هو حي في الكون.

باختصار، يرى البعض في تلك الإمبراطورية المكان الأفضل في العالم، حيث يعيش فيه عبدكم المطيع – لا بد أنكم تتساءلون عمَّ إذا كنت مسؤولاً كبيراً فيها؟ – لا، لستُ مسؤولاً. كيف يمكنني أن أوضح لك، يا نبوخذنصر الموقر، ما الذي نفعله هنا؟ سوف أحاول، على الأرجح، بالطريقة التالية: حتى هذه الأسماك خلف النافذة، التي تحتشد على شكل كومة من دون أن ترتاتب في نفسها أنها مجرد رياح، مقتنة: ثمة مَن يتظر ويذكر كل واحدة منها، ويعرف وجهه شخصياً – يعرف جميع عروقه وجميع تفاصيله. ومن المستحيل تغيير قناعتهم تلك. وهكذا يتدفق من كل مخلوق تافه على هذى الأرض ثنائي: حمقي ومتجمهمون، عشاق الحقيقة ومن أهل البيت، يستخدمون اليد اليسرى أو اليمنى، أخوة في الجريمة وخبراء في تحنيط

---

1- شعب عريق يتكون من قبائل ناطقة باللغة الإيرانية، من القرن الرابع قبل الميلاد وحتى القرون الميلادية الأولى. كان يسكن حزام السهوب من أوراسيا على نهر الدانوب وصولاً حتى بحر آرال (أراضي أوكرانيا الحديثة وروسيا وكازاخستان). المترجم

2- أقلية عرقية في روسيا كانت تنسب نفسها إلى المكان الذي تقطن فيه... المترجم  
3- إيفينيك أو إيفينيكي كانت تعرف سابقاً باسم تونغوس أو تونغوز - أحد الشعوب التونغوسية في شمال آسيا. يُعترف بالإيفينيك في روسيا كأحد الشعوب الأصلية في الشمال الروسي.

المترجم

4- الموظ أحد أنواع الأيتايل، وهو حيوان ثديي ضخم من عائلة فقاريات العنق ورتبة شفعيات الأصابع. المترجم

الحيوانات. من دون أن يفهم أحد الآخر.وها أنا أخدم مترجمًا في إدارة  
اللاجئين التابعة لنعيم وزارة الدفاع.

وكل واحد يحاول أن يشرح أمراً ما. على أقل منه بأنهم سوف يصغون  
إليه. وها أنا وبيتر هنا. أنا أقوم بترجمة الأسئلة والأجوبة، بينما يقوم بيتر  
بتسجيلها، يومئ برأسه بمعنى أنتي لا أصدق شيئاً مما تقوله. فهو لا يصدق  
أحداً. ها هي سيدة تأتي وتقول: «أنا مجرد راعية غنم بسيطة، لقيطة، لا أعرف  
والديّ، بل قام بتربية درياس<sup>(١)</sup> الفقير، راعي الأغنام العادي». وتبدأ سلسلة  
من الأخطاء<sup>(٢)</sup>. الأشجار تحمل ثمارها، والسهوب ممثلة بالقمع، وأشجار  
الكرمة تغطي التلال، القطعان في المروج، أزيز الجنادب اللطيف في كل  
مكان، ورائحة عابقة للثمار اللذيدة. اقتحام القراضنة وهجوم الأعداء.  
الأظافر المطلية تلمع على ضوء اشتعال القداحة. «ذلك أني ترعرعتُ  
في القرية ولم أسمع في حياتي قط ولا من أي إنسان كلمة «الحب». وأمّا  
اللولب فقد كنت أتصوره أشبه بنابض في أريكة. آه، يا عزيزي دافنيس<sup>(٣)</sup>. لقد  
فرّقا بيننا نحن البائسين، أصحاب الحظ العاثر! إهانة بعد أخرى. تارة تهجم  
 علينا جماعة من مدينة صور، وتارة ضيوف من ميثيمينا<sup>(٤)</sup> يطالبون بحقوقهم.  
كان دافنيس يرافقني كحارس وأنا ذاهبة إلى الزبائن. كانت تسرية الشعر  
تؤثر في نتيجة اليوم، وفي نهاية المطاف على الحياة أيضًا. أما هم، انظر، ماذا  
 فعلوا لي بأسنانِي؟ علمًا أنَّ أسنانِي بالأساس لم تكن جيدة. ولكن ذلك كان  
 بسبب ما كانت ماما تفعله بي. راحت تروي كيف كانت في طفولتها تنزع  
الجص عن الموقد وتأكله. كانت تعاني من نقص في الكالسيوم. كما أني  
 كنت، أثناء حمي بيانوتشكا، أخبي الطبشور عن المدرسين في المعهد ثم

---

-1 اسم علم لشخصية أسطورية... المترجم

-2 ورد في النص الأصلي قول مأثور روسي معناه: تلصق المسؤولية عن أي خطأ بشخص  
ما لا علاقة له بالأمر أو لا ذنب له فيما حدث.. المترجم

-3 شخصية في الأساطير اليونانية القديمة.. فتى جميل وبطل الشعر الصقلية. وهو ابن  
هرمس وحبيبة المحلية، أو ابن أبوبلو. وهو المفضل عند الآلهة خاصة في الموسيقى.

-4 في عام 2005 سمي أحد أقمار كوكب زحل تيمناً باسمه. المترجم  
مدينة يونانية قديمة جدًا... المترجم

أقوم بالتهمة. الحب - نفس ذلك القمر - ينحسر إذا لم يكن بحالة مد - لكنه يبقى هو ذاته كما كان في المرة الماضية، وهو واحد دائمًا وفي جميع الحالات». بيتر: «هذا كل شيء؟» هي: «كل شيء». «عندئذ تفضلي - يعلن هي ذي بصماتك، مدام». «وماذا يعني ذلك؟» - تسأل مندهشة. «هذا يعني أنك سبق أنك تركت أثراً عندنا في حافظة الملفات الخاصة بالإمبراطورية». فتخرج قبل أن يتم طردها. وإذا بها هناك، في المصعد، تصرخ: «أنتم لستم بشرًا بعد، إنكم مجرد طين بارد بلا مشاعر - لقد صنعواكم ولكن لم ينفخوا فيكم الروح بعد».

في حين أنّ شخصًا آخر ما كان ليستطيع أن يقول كلمتين مترابطتين. عدا أنَّ النطق عنده أقرب إلى صوت ماسورة الصرف الصحي. أتعذب وأحاول أن أفهم ما هذا الذي يقرقر به، في حين أن بيتر يقوم بتسوية الأغراض على طاولة مكتبه بحيث إنَّ كُلَّ شيء يبدو كما لو أنه في حالة استعراض، وباعتباره قائد الطاولة - يتلقى عرض أقلام الرصاص ونكاشات الأسنان. فالوقت وقت دوام رسمي. ما من أحد مستعجل. وبيتر يحب الانضباط. في حين أنَّ ذلك GS يغمغم عن «سمسم» ما ويصبح لكي يفتحوا له الباب. يهزر بخصوص دوائر بيضاء ما على بوابات ثم تصبح حمراء. يؤكّد أنه كان يجلس بمفرده في زقُّ جلدي للخمر من دون أن يزعج أحدًا ومن دون أن يسبِّب أية مشكلة لأحد، وإذا بهم يصيّبون عليه زيتًا مغليًا. «تفضلاً - يصرخ - انظروا، هل يجوز ذلك؟ زيت مغلي على إنسان حي؟». ولكي يتم رفض طلب قاطع الطريق هذا، يكفي العثور على تناقض ما في شهادته - يتناول بيتر من الرف خلف ظهره كتيّباً صغيرًا - وبدأت المقاطعة بالكتابة. قل لي، يا عزيزي، كم كيلومترًا تبعد بلدتك باغدادوفكا عن العواصم؟ ما هو سعر صرف «البياستر»<sup>(١)</sup> مقابل الدولار؟ ما هي الاحتفالات الوطنية التي تقام في البلاد التي غادرتك، باستثناء الجبل بلا دنس وعيد المرأة الثلوجية الأولى؟ ما هو لون الترامويات والدُّنَان (الزقاق) الجلدية المخصصة للخمر؟ وكم هو سعر رغيف خبز من ماركة بورودينو؟

- 1 - الوحدة النقدية لمستعمرة كوشينشينا الفرنسية في 1878-1886. المترجم

أو يعود، على سبيل المثال، يهود من الأسر البابلي، ثم تبدأ جوقة من المشهد الثالث من أوبيرا نابوكو<sup>(1)</sup>، وإذا رئيس المكتب يقول لهم: «ما هي اللغة التي يتحدثون بها في مملكة كلدو<sup>(2)</sup>? ويجيبونه: «باللغة الأكادية». وهو: «كيف يُدعى معبد الرب مردوح في بابل؟» هم: «إيساكيلا<sup>(3)</sup>». هو: «وماذا عن برج بابل؟» هم: «إيتيمينانكي<sup>(4)</sup>». هو: «إلى أيه إلهة كانت مكرسة البوابة الشمالية؟» هم: «عشتار<sup>(5)</sup>، آلهة كوكب الزهرة. أما الشمس فيمثلها شماش<sup>(6)</sup>، والقمر - سين<sup>(7)</sup>. وإله مارس فهو نرغال<sup>(8)</sup>. أما كوكب

- 1 أوبيرا إيطالية من تأليف جيوسيبي فيردي في سنة 1841، وسمّاها بهذا الاسم نسبةً للمك البابلي الكلداني نبوخذنصر الثاني. المترجم
- 2 كلدو (الكلديون) جماعة بشرية في العصور العتيقة من منطقة جنوب بلاد الرافدين، وتحمل نفس هذا الاسم تقريباً (كلدوي) جماعة آخر أورارية اللغة عاشت على ضفاف بحيرة فان في شرق الاناضول، وذلك نسبة للرب الذي عبده (خليدي)، وكثيراً ما خلّطت الكتابات القديمة بين هاتين المجموعتين مع أن تاريخ المجموعتين مختلف تماماً. المترجم
- 3 إيساكيلا هو اسم سومري معناه المعبد المدور، وهو المعبد الذي كان مركز الإله مردوح في مدينة بابل، والذي كان يقع جنوب زقورة إيتيمينانكي. بني هذا المعبد من قبل الملك الكلداني نبوخذنصر الثاني في حوالي 600 سنة ق.م.. المترجم
- 4 إيتيمينانكي بالسومرية إي تيمين أن كي ومعناه المعبد الذي بين الأرض والجنة وهو اسم الرزقورة التي كان يستقر فيها مردوح في مدينة بابل، والتي بنيت في حوالي 600 ق.م، في عصر الإمبراطورية البابلية الثانية، واعتبرت في ذلك الوقت سادس أطول بناء، وحسب بعض الألواح الأثرية التي اكتشفت في مدينة أوروك كان يبلغ طول هذا المعبد حوالي 91 م.. المترجم
- 5 عشتار هي إلهة الحب والحب والجمال والتضحية في الحروب في حضارات بلاد ما بين النهرين. أطلق عليها السومريون اسم ملكة الجنة، وكان معبدها يقع في مدينة أوروك، وهي نجمة الصباح والمساء (كوكب الزهرة) رمزها نجمة ذات ثمانية أشعة متتصبة على ظهرأسد، على جبهتها الزهرة، وبiederها باقة زهور.. المترجم
- 6 شمش أو شماش وهو الاسم الذي كان يطلق على إله الشمس عند البابليين والآشوريين. المترجم
- 7 إله القمر في الأساطير السومرية الأكادية - المترجم
- 8 نرغال أو نركال وهو أحد الآلهة التي عبدها البابليون والآشوريون في بلاد الرافدين وهو إله العالم السفلي والموت والوباء والأمراض، وكان لهذا الإله معبد في مدينة كوش، وبحسب المعتقد البابلي هذا الإله هو ابن الآلهين إنليل ونينيل وشقيق نينورتا وسين وزوجته هي الإلهة ارشكيجال، لديه بوابة تاريخية باسمه بوابة نركال في مدينة الموصل حالياً نبني قدماً.

رُحْلَ فِيْرِي فِيْ الْبَابْلِيُونَ الْأَشْرَارِ الْإِلَهَةِ نِينُورْتَا<sup>(1)</sup>، وَفِي كُوكَبِ عَطَارَدٍ - يَرُونَ نَابُو<sup>(2)</sup>، فِي حِينَ أَنَّ الْإِلَهَ مَرْدُوخَ بَحْدَ ذَاهِتِهِ يَقْابِلُهُ جُوبِيْتَرَ (كَبِيرُ الْإِلَهِ الْيُونَانِ). وَلِلْعِلْمِ، مِنْ هَذِهِ الْإِلَهَةِ السَّبْعَةِ الْأَسْطُورِيَّةِ يَنْتَلِقُ مِبْدَأُ السَّبْوَعِ الْمُؤْلَفِ مِنْ سَبْعَةِ أَيَّامٍ. هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ هُوَ: «أَنَا الَّذِي يَطْرُحُ الْأَسْئَلَةَ هُنَا. الْأَبْنَاءُ غَيْرُ الشَّرِيعَةِ لَنْبُو خَذْ نَصْرَ، الْحَرْفُ الثَّانِي بَاءُ، مِنْ ثَمَانِيَّةِ أَحْرَفٍ». هُمْ: «مَا لَكُ تَعْالَمْنَا كَأَنَّا حَمْقَى وَجَاهْلُونَ؟ آيِغَالٌ!»

كَانَتْ سَابِيْنَا هِيَ الَّتِي تَقْوِيمُ بِوَظِيفَةِ رَئِيسِ الْقَلْمِ قَبْلَ بَيْتَرَ. لَمْ تَكُنْ تَطْرُحُ أَسْئَلَةً مِنْ الْكِتَابِ الَّذِي يَعْرُفُ كُلَّ شَيْءٍ. وَلَمْ تَضُعْ أَبْدَأَ خَتْمَ «Priorit\_tsfall». وَلَذِلِكَ قَامُوا بِطَرْدِهَا. أَمَا بَيْتَرُ فَيَضْعُفُ مِثْلُ ذَلِكَ الْخَتْمِ لِكُلِّ شَخْصٍ تَقْرِيْبًا. وَفِي الصَّفَحَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَلْفِ. هَذَا يَعْنِي النَّظَرَ بِسُرْعَةٍ فِي الْقَضِيَّةِ بِسَبِيلِ الرَّفْضِ الْوَاضِعِ. هَا هُوَ GS يَوْقِعُ عَلَى الْبِرْوَتُوكُولِ، يَقُولُ وَدَاعًا، يَبْتَسِمُ بِتَمْلِقٍ لِكُلِّ مَنْ الْحَاكِمِ بِرِقَابِ الْعِبَادِ وَلِلْمُتَرْجِمِ، وَلِلْحَارِسِ الَّذِي جَاءَ مِنْ أَجْلِهِ وَهُوَ يَحْمِلُ الْمَطْرُدَ<sup>(3)</sup>، عَلَى أَمْلَأِ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بَاتَ الْآنَ عَلَى أَحْسَنِ مَا يَرَامُ، فِي حِينَ أَنَّ بَيْتَرَ يَضْعُفُ لِهِ الْخَتْمُ بِمَجْرِدِ أَنْ يَنْغُلُقَ الْبَابُ خَلْفَهُ.

لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الدُّخُلُ يَنْسَابُ سَابِيْنَا. عِنْدَمَا كَانَ الْمُتَرْجِمُ يَذْهَبُ مَعَهَا أَثْنَاءَ الْاسْتِرَاحَةِ إِلَى الْمَقْهَى الْوَاقِعِ فِي الْجَهَةِ الْمُقَابِلَةِ، كَانَتْ تَشْكُوُ لَهُ أَنَّهَا عِنْدَمَا تَعُودُ إِلَى بَيْتَهَا بَعْدِ اِنْتِهَاءِ يَوْمِ الْعَمَلِ، تَجْلِسُ لِتَنَاوِلِ الْعَشَاءِ وَإِذْ بِصُورَةِ الْمَرْأَةِ الَّتِي رَاحَتْ تَبْكِيُ الْيَوْمَ خَلَالِ الْمُقَابِلَةِ وَهِيَ تَقْصُّ عَلَيْهَا كَيْفَ أَنَّهُمْ قَامُوا بِقْلَعِ أَظَافِرِ ابْنَاهَا، وَأَنَّ ذَلِكَ الْفَتَنَى مِنْ دُونِ أَظَافِرِ كَانَ يَجْلِسُ فِي غُرْفَةِ مُجاوِرَةٍ لِلْلَّانْتِظَارِ. لِأَنَّهُمْ يَقْوِمُونَ بِاستِجْوَابِ الْأَطْفَالِ بِمَعْزُلٍ عَنْ أَهْالِيهِمْ.

مِنْ غَيْرِ الْمَسْمُوحِ بِأَنْ تَشْعُرَ بِالشَّفَقَةِ تَجَاهَ أَحَدِهَا - أَعْلَنَتْ سَابِيْنَا فِي إِحْدَى الْمَرَاتِ - وَأَمَا أَنَا فَأَشْعُرُ بِالشَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا. يَجْبُ بِكُلِّ بِسَاطَةٍ أَنْ

1- نِينُورْتَا، فِي الْدِيَانَةِ الرَّافِدِيَّةِ هِيَ رَبُّ الشَّعِيرِ كَانَ إِلَهُ الْقَانُونِ وَالْكِتَابِ وَالْزَرَاعَةِ وَالصَّيدِ. المُتَرْجِمُ

2- نَابُو - أَحَدُ الْمَعْبُودَاتِ الْعَرَاقِيَّةِ الْقَدِيمَةِ إِذْ عَدَ إِلَيْهَا لِلْكِتَابَةِ وَالْحُكْمَةِ، وَعِدَهُ الْبَابِلِيُونَ ابْنَا لِلْإِلَهِ مَرْدُوخٍ وَهُوَ حَفِيدُ إِلَهِ اِيَا. المُتَرْجِمُ

3- سَلاَحٌ قَدِيمٌ عَبَارَةٌ عَنْ رَمْعٍ وَفَأْسٍ. المُتَرْجِمُ

يجيد المرء كيف ينفصل ويتحول إلى إنسان آلي، سؤال - جواب، سؤال - جواب، حيث تقوم بملء السجل الشكلي، ثم توقع على البروتوكول وترسله إلى بيرن. دعهم يقررون هناك. كلا، يجب عليَّ أن أبحث عن عمل آخر.

كانت سابينا رئيسة قلم فتية جدًا. سافرت بعد فصلها من العمل، إلى الطرف المقابل من الإمبراطورية وأرسلت من هناك بطاقة غريبة للمترجم. بيَّدَ أنَّ هذا ليس مهمًا. ربما سأشرح كُلَّ شيء في وقت لاحق ذات يوم. وربما لن أشرح.

يبدو لي أننا شردا، يا عزيزي نبوخذنصر.

بماذا تشتهر إمبراطوريتنا؟ لدينا أيضًا، تخيل، غواصات وصحارٍ، وحتى دراكولا، ولكنه حقيقي وليس مصاص دماء.

وماذا أيضًا؟ لقد انكمش الجرح على العشب - هذا يعني أنَّ الظلام قد حلَّ.

نعم، لقد نسيت أن أقول إنَّ عادة أكل لحوم البشر لم تختفي عندنا أيضًا، مع العلم أنَّ الذي يلتهم الجميع ليس سوى الحاكم المستبد شخصيًّا، أو زوجة الحاكم المستبد، وقد مضى زمن طويل من دون أن ألقي نظرة في روزنامة العناوين للبلاط، إذ إنه من المعروف أنَّ السلالة ترتبط باللهجة المحلية، باختصار، سلالة واحدة مثل هيرودس الكبير<sup>(١)</sup>، ولكن في حال أن المرء لن

---

- ١ - هوردس أو هيرودس 73 قبل الميلاد - 4 قبل الميلاد - ابن الدبلوماسي أنتيباتر الإدومي من زوجته النبطية، عين حاكماً على الجليل ثم أصبح ملك اليهودية. وقد بسط نفوذه على المنطقة الممتدة من هضبة الجولان شمالاً إلى البحر الميت جنوباً، وكانت أيام حكمه تمثل ازدهاراً ثقافياً واقتصادياً، وقد كان حليفاً أميناً للإمبراطورية الرومانية، في المصادر اليهودية يذكر كملك مشكوك في شرعنته، كونه إدومي الأب ونبي الأم، على الرغم من تقدير هذه المصادر لأعماله الضخمة في معبد القدس. أما في المسيحية فيعتبر هيرودس طاغياً إذ يذكر إنجيل متى أنه أمر بذبح كل مواليد بيت لحم عندما علم أنَّ المسيح قد ولد فيها. ومن بعده جاء ابنه هيرودس أنتيباتر فأعدم الرسول يوحنا المعمدان، لأنَّه عارضه الملك معارضه شديدة لعلمه أنه تزوج من اخته هيرودية بعد تطليقها من زوجها فغارضه بحثي المعتسل يوحنا المعمدان بقوة وأمره بتطليقها وفي أحدى الحفلات التي كان ينظمها هيرودس في قصره طرب لغمات الموسيقى التي كانت تترافق عليها بنت اخته هيرودية سالومي فطلبت منه رأس يوحنا المعمدان يحيى بن زكريا وألحث في الطلب

يشغل باله بذلك، فسوف يعيش هنا بشكل لا بأس في الترامواي الشيق - ففي هذا اليوم خرج أحدهم على الموقف في المحطة وهو يصفر بفرح.

من المضحك - أنكم سوف تستلمون هذه الرسالة بعد مرور سنوات كثيرة، ولعلكم لن تذكروا أنكم كنتم أباطرة في هذه البلاد الرائعة والمقهورة.

مفكرة، وقلم، وكأس ماء. الشمس خلف النافذة. يمرّر الماء في الكأس شعاع الشمس - ليس بقعة صغيرة، بل بقعة كبيرة جدًا من شعاع الشمس - تنتشر على السقف وفجأة تصبح للحظة شبيهة بالأذن. ثم تصبح أشبه بجنين. يفتح الباب. يُدخلُون أحدًا ما.

سؤال: اشرح باختصار الأسباب التي دفعتك إلى التقدّم بطلب لجوء.

جواب: كنت أعمل في الجمارك على الحدود مع كازاخستان. كان عسكريون ينقلون مخدرات في سياراتهم، وكان رئيسي متواطئاً معهم، فكان مطلوبًا منا أن نغمض أعيننا وأن نملأ الوثائق كما يفترض. كتبت رسالة إلى إدارة الأمن الفدرالي (ФСБ). بعد بضعة أيام صدمت سيارة ابنتي الصغيرة في الشارع، ثم اتصلوا بي وقالوا إنّ هذا هو الإنذار الأول.

سؤال: اشرح باختصار الأسباب التي تدفعك إلى أن تطلب اللجوء.

جواب: كنت ناشطاً أثناء الانتخابات لمنصب محافظ المدينة في حملة المرشح المعارض، حيث شاركتُ في اجتماعات احتجاجية وفي جمع التوقيع. استدعوني إلى قسم الشرطة وطلبو مني التوقف عن النشاط المعارض لقيادة المنطقة وعن فضحها. كما قام رجال شرطة مموهون في لباس مدني بضربي أكثر من مرة. وقد أرفقت طلب اللجوء بتقارير طبية تثبت وجود كسر في الفك وفي اليد وعواقب أخرى للاعتداءات علىَّ. وأنا الآن كما تلاحظون معاق وغير قادر على العمل. وزوجتي التي جاءت معي مصابة بسرطان في المعدة.

---

حتى قام بتلية طلبها وهو كاره لخشيه من رد فعل الكهان والكتبة اليهود. إلا أنه نجا بفعلته لكون النبي يوحنا المعمدان يعارض الهيكل كثيراً فلم يعقب أحد من الكهان أو الكتبة اليهود على ما حدث وقدم لها رأس النبي على طبق وذهب الصوت الصارخ في البرية يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيَا شهيداً للدعوة الممهدة لدعوة يسوع. المترجم

سؤال: اشرح باختصار الأسباب التي جعلتك تتقدم بطلب اللجوء.

جواب: أنا مصاب بالإيدز. وقد هجرني جميع سكان البلدة وأداروا لي ظهورهم. بمن فيهم زوجتي وأولادي. علمًا أنهم نقلوا العدوى إلى أثناء وجودي في المستشفى عندما قاموا بنقل دم ملوث لي. أصبحت الآن بلا عمل وبلا أصدقاء أو معارف وبلا مأوى. سوف أموت قريباً. وقد قررت التالي: طالما أني سوف أفطس، فليكن هنا، عندكم في ظروف إنسانية. وأنا لا أظن أنكم سوف تطردوني.

سؤال: اشرح باختصار الأسباب التي دفعتك إلى طلب اللجوء.

جواب: كنتُ أخدم جندياً في الأرض الأرثوذكسية في مونتانياسك تحت إمرة قائد باسم دراكولا. وقد أرسل له الباشا التركي في أحد الأيام سفراء يطالبه من خلالهم بأن يتخلّى عن العقيدة الأرثوذكسية وأن يستسلم له. لم يتم السفراء أثناء مقابلتهم للقائد العسكري بتنز القبعات عن رؤوسهم، وعندما سئلوا لماذا يقومون بهذا التصرف بإهانة الأمير المعظم، أجابوا: «هكذا هي العادة في بلادنا، يا حضرة الأمير». عندئذ أعطى الأمير أوامر لخدمه بأن يقوموا بتشييت القبعات إلى رؤوس السفراء بالمسامير ثم أعاد جثثهم وطلب نقل رسالة مفادها أنه لدينا ربٌ واحد ولكن العادات مختلفة. جاء البasha المحتمد غضباً إلى الأرض الأرثوذكسية على رأس جيش ضخم وراحوا ينهبون ويقتلون. قام القائد دراكولا بتجميع قواته القليلة العدد وهجم على المسلمين ليلاً، فقتل عدداً كبيراً منهم ثم فر هارباً. وفي صباح اليوم التالي قام باستعراض المقاتلين الذين بقوا أحياء. قام بتكرييم وبتمجيد بطولات كل من كان جريحاً في صدره، داعياً إياه بالبطل وبالمحارب الشجاع. أمّا من كان مصاباً في ظهره فقد أمرَ بأن يوضع على الخازوق، قائلاً له: «أنت لستَ رجلاً، بل أنت امرأة». وعندما سمع البasha بذلك قام بجمع ما تبقى من قواته وغادر من دون أن يفكّر بمهاجمة تلك الأرض مرة أخرى. وهكذا عاش القائد دراكولا في أرضه مدةً أطول، وقد كان عدد كبير من المسؤولين والفقراء والمرضى والعاجزين في تلك الفترة في بلد مونتانياسك. وإذا رأى أن في بلاده كل ذلك العدد الكبير من النساء، طلب منهم أن يأتوا إليه.

اجتمع عدد لا يحصى من البائسين والتعساء، ومن المعاين واليتامى، الذين كانوا يأملون بأن ينالهم منه عطف وشفقة كبيرة، فراح كل واحد منهم يحكى له عن مصيّته وعن آلامه، هذا عن ساقه المبتورة، وذاك عن عينه المفقودة، هذا عن ابنه المتوفى وذاك عن حكم ظالم في المحكمة وعن أخيه الذي حكم عليه بالسجن. وحدث بسبب ذلك نحيب و بكاء عظيم، وملا الأئن أرض مونتيانسك بأكملها. عندئذ طلب دراكولا بجمع هؤلاء كلهم في بناء كبير جدًا تم تشييده خصيصاً لهذه الغاية، وأصدر أوامره بأن يقدم لهم كل ما لذ و طاب بما فيه الكفاية. راح هؤلاء يأكلون ويشربون ويمرحون. ثم جاء إليهم دراكولا وسألهم: «ماذا تريدون بعد؟» أجاب الجميع بصوت واحد: «ما يقرره الرب وأنت، يا أيها الأمير المعظم! افعل بنا ما يأمرك به الرب!». فقال لهم عندئذ: «هل تريدون أن أجعلكم خالين من الغم والحزن في هذه الدنيا، بحيث لا يكون لدى أي واحد منكم عوز أو نقص في شيء، وب بحيث لا يبكي أحدكم بسبب ساق مبتورة أو عين مفقودة، لوفاة ابن أو بسبب قرار محكمة ظالم؟». وقد أملوا أن تنا لهم منه معجزة عظيمة، فأجابوا جميعهم بصوت واحد: «نعم، نريد، أيها الأمير!». عندئذ أعطى أوامره بأن تغلق أبواب المبنى بإحكام وأن يحاط من جميع الجهات بالقش اليابس ومن ثم إحراقه. واندلعت نار عظيمة، حيث هلكوا فيها جميعاً.

عزيزي نبوخذ نصر!

أليست نظرة على صندوق البريد - لم يصل منك أي شيء. من المؤكد أنه لا وقت لديك لتتغرك بنا. هذا لا يعني أننا نتذمر - إذ إنَّ شؤوننا ذات أهمية بالغة للدولة بانتظارك. لا قدر الله أن تعلن الحرب على أحد أو لعل سكان الكواكب الأخرى يقررون الهجوم عليك. لذلك يجب أن تكون حذرًا وأن تراقب الجميع. لذلك لا وقت لديك لكتابة الرسائل. أما عندنا فكل شيء ما زال على حاله.

يتسع الكوكب. والمترجم يترجم.

تأتي إلى البيت وتحاول أن تنسى كل ما كان وما حدث معك في النهار - ولكن من دون جدوى. لذلك تحمل كل شيء معك إلى المنزل.

لا توجد أية طريقة للتخلص من أولئك الناس ومن تلك المفردات. وهناك كل شيء على حاله. وماذا عساه أن يكون جديداً في عمل المترجم؟ كل شيء يجري على درب مطروقة ومعبدة. كل شيء يجري وفق الشكل الذي يتم إقراره على أعلى المستويات. كل سؤال طبقاً لنموذج محدد سلفاً، وكل جواب أيضاً. حتى إن بيتر لا ينفق طاقة لكي يرد على التحية المعيارية المعتادة - بل يناول المترجم ورقة لكي يقرأ ما فيها لـ GS المضطرب والخائف. والمترجم يقرأ: مرحباً! إنه أمر حسن أنك أتيت! هيا ادخل، من فضلك، سوف نمرر هذا اليوم الطويل معًا! تفضل اجلس، إذ لا بد أنك قد تعبت من السفر. والحقيقة لا توجد في القدمين<sup>(١)</sup>. سوف نطلب الآن أن يعملوا لنا قليلاً من الشاي! هيا، انزع جزمتك وتعال إلى هنا، أقرب إلى المدفأة! كيف ترى، إذا، نقطتنا التي تعتبر الأفضل من بين النقط البيضاء على الخريطة، حيث الإنسان هو ما هو في حقيقة الأمر، ويقول ما يتكتم عليه؟ لم يسعفك الوقت لأن ترى بعد؟ سوف يكون ثمة وقت كاف! لعلك تريد أن تغيير مكانك وأن تجلس هنا، بعيداً عن النافذة لكي، لا سمح الله، لا تتعرض لييار هوائي؟ هل ستخبرني في حال صفعك الهواء؟ حسناً، إذا. آها، عمَّ أردت أن أسألك؟ يأتي إلينا أناس مختلفون، جميعكم مرهقون وضيقوا الأفق ومحدودون، بأسنان منخورة - ويذكرون. يؤكدون أنهم أضعوا أوراقهم الثبوتية - وهذا لكي لا يتم طردهم من حيث أتوا. ثم يقصون قصصاً رهيبة عن أنفسهم. وهنا بالمناسبة لا يرونون قصصاً غير رهيبة. ومع التفاصيل. يعرضون عظامهم العاجية ويؤكدون أنه تم حقنها بغازلين ذائب. قصصاً فظيعة ومرعبة. وقد يرونون قصصاً تصلح لأن يؤلف المرء منها قصصاً بوليسية. كما لو أنَّ ماما لم تعلمهم في الطفولة أن يقولوا الحقيقة فقط. يراهنون على الرأفة! فهم يريدون الوصول إلى النعيم! يدعون بأنهم ضحايا!

- 1- هذه العبارة هي قول مؤثر روسي قديم وقد ارتبط ظهوره بمعاقبة الشخص الذي استدان مالاً ولم يرد لصاحبه فكان القاضي يقرر معاقبته عن طريق ضربه عدداً من الضربات لمدة محددة على قدميه.. من دون أن يسقط هذا العقاب عن الشخص واجب إعادة الدين.

والمسألة لا تكمن في الشفقة. بل تكمن القضية في الوقوف على حقيقة الأمر والظروف. إنه مهم جدًا معرفة الأمور على حقيقتها، لكي لا يتم السماح لهم بالدخول إلى النعيم. ولكن كيف يمكن التتحقق من ذلك، طالما أن الناس يتحولون هنا إلى مجرد قصص قاموا بسردها. يستحيل استيضاح ذلك. هذا يعني أنَّ كُلَّ شيء بسيط: بما أنه لا يمكن معرفة الحقيقة، فلا بد عندئذ من معرفة ما هو غير صحيح على الأقل. فحسب التعليمات، يساعد ما هو بعيد عن الحقيقة على خلق الأساس الذي يسمح بوضع هذا الختم. لذلك، اخترع لنفسك حكاية غريبة دقيقة قدر الإمكان ولا تننس أن التفاصيل والأشياء الصغيرة هي الأكثر أهمية. من كان سيصدق حكاية القيامة، لو لم يكن هناك ذلك التفصيل الذي يتعلق بإدخال الإصبع في الجرح، أو كيف أنهم تناولوا معًا السمك المشوي؟ وعلى العموم، الختم - ختم، ولكن إذا ما طلبتُ منكم أن تكونوا صادقين، هل اللوحة على تلك الدرجة من السوء، كما ترسمونها بطريقة قاتمة؟ حاولوا أن تتأملوا الموقف! ثمة غيوم تزحف على بطنها. وهناك شخص أكل شيئاً ما ثم ترك الجريدة على المقعد، فراح عصفور دوري ينقر الأحرف. وهناك على سطح السد يلمع، كما ترون، عنق زجاجة مكسورة ويصبح الفضل لعجلة الطاحون أسود. أما أزهار الليلك فتعقب برائحة عطر رخيص وتومن بأنَّ كل شيء سوف يكون على ما يرام. وحتى الأحجار - وهي كائنات حية، تتکاثر عن طريق التفتت. ولكنكم لا تسمعون. الأمر أقرب إلى اصطدام حبات الحمص بالجدار. يعرفون ما يتعلق بهم فقط: هجموا علينا، أو ثقوبنا، وقدوتنا إلى الغابة حيث قاموا بضربنا ضرباً مبرحاً وتركونا هناك. لعلهم فعلوا الصواب لأنهم قاموا بضرركم! هل يجب تسديد الديون أم لا يجب؟ الأمر من هذا القبيل! أو مثلاً، جاء إلى هنا شابان في يوم واحد وقاما بتسلیم نفسيهما معًا: أحدهما كما لو أنه من بيت للأيتام في ضواحي موسكو، والثاني من جمهورية الشيشان. وبعد أسبوع أرسلوا لنا من قسم الشرطة جوازي سفرهما - كانوا قد خُبِّئاً أوراقهما الثبوتية في أنبوب أسمتي بالقرب من سكة الحديد، حيث عشر العمال عليها عن طريق الصدفة. تبين أنهما من ليتوانيا. جاءا إلى هنا في فترة العطلة. وبما أن الأجرا في الفندق

كبيرة، قررا أن يقضيا الفترة هنا - يوجد مكان للنوم والطعام. كما أظهرت نتائج الدراسة العظمية أن عمر كلّ منهما أكثر من ستة عشر عاماً. الختم. الختم. أو لذا نأخذ أسرة قامت بتسليم نفسها: بابا وماما وابنة من أورشليم. راحوا يؤكدون أنهم فرقاً من اليهودية - لم يعودوا قادرين على تحمل مضايقات الدريفليان<sup>(١)</sup>. هؤلاء ليسوا من الدريفليان، وإنما أسوأ من الفاشيين! لينقذ الرب اليهود، وفي حال لم يكن قادرًا أن يفعل، فلينقذ على الأقل الأغيار (الغويين)! راحوا يرون كيف أنّ الأرثوذكسيين اعتدوا عليهم بالضرب - بحيث إنهم كسروا الأسنان الأمامية للزوج والزوجة، وأما الابنة التي لم تكن قد بلغت العشرين، فقد قاموا باغتصابها. وكما هي العادة، قام بيتر باستجواب كل واحد منهم على حدة. قال كل من الأب والأم نفس الشيء تقريباً، كما لو أنهم كررا نصاً حفظاه عن ظهر قلب: كانت في البداية رسائل تهديد عبر البريد، اتصالات هاتفية أثناء الليل، اعتداءات في الشارع عند مدخل البناء، et cetera. بعد ذلك دعا الابنة للحديث. كان واضحاً من خلال الباب نصف المفتوح، كيف أنها التصقت بأمّها من دون أن ترغب بالدخول، ولكن الوالدة قالت لها: «إذهبي، لا تخافي!». دخلت وجلست على حافة الكرسي. قام بيتر ولكي يشجعها، بتقديم لوح من الشوكولاتة لها، فقد كان يحتفظ في الدرج الأمامي من مكتبه بالشوكولاتة خصيصاً لمثل هذه الحالات. لم يكن هذا مدرجاً في التعليمات، ولكن من ذا الذي سيعرض على ذلك؟ ثم سألها بيتر ما إذا كانت عائلتها متدينة، فأجبت الفتاة: «اقسم بالله! ونحن نذهب إلى الكنيسة». ولمزيد من الإقناع رسمت شارة الصليب. فقد اخترت عليها كل شيء بسبب الخوف. يجب أن يكون الأب تاجراً فاشلاً، ولا بد أنه مارس أعمالاً سيئة مع شركائه من الدريفليان. اعتمدوا حكاية معيارية عند تسليم أنفسهم، إذ من المؤكد - من ذا الذي يجرؤ على عدم التعاطف مع اليهود؟ لقد ظنوا أن الأمر سينجح: إذ لا يمكن تمثيل غياب الأسنان الأمامية، كما أن الكشف الطبي أثبت وجود عملية اغتصاب للطفلة. الختم. وكم طريف أن يرى المرء كيف راحوا يوقعون على البروتوكول! واحد - يومئ برأسه كما لو

- 1 - قبيلة سلافية شرقية عاشت في جيتومير وغرب كييف في أوكرانيا بشكل رئيسي. المترجم

أنه يريد أن يقول: نحن أناس أميون، وسوف نوقع على ما تطلبون منا أن نوقعه، أما آخر فسوف يدقق في صحة التسميات الجغرافية. والثالث الذي جاء يحمل رزمة كبيرة من التقارير من مختلف دوائر وبيوت العزاء والحزن، ومن المعالجين الشعبيين والزنزانات في السجون، راح يؤكّد أنه لم يعد يثق بأحد في هذا العالم، حتى أنه طالب بترجمة مكتوبة للبروتوكول - لأن النقل الشفهي لمضمون البروتوكول غير كاف بالنسبة إليه، وبالتالي فهو لن يضع توقيعه تحت ما لا يعرف من منطلق مبدئي بحث. قام بيتر بوضع الختم له على الفور. وإذا به يدعو إلى مسيرة هنا ويطالب بالتوسيع. اضطر بيتر أن يستدعي الحرس. حيث قاموا بتهديده بالمطرد. إن مصير مثل هذا الشخص حتى في بلادنا المحبة للقربيين من البشر، أن يذهب إلى المعالج اليدوي في أقرب وقت. أما الرابع فيطلب أن نذكر في البروتوكول مباشرةً أن كل شيء لدينا رائع، والجو معتدل غير بارد ولا حار، في حين أن عندهم أربعة فصول في السنة: شتاء وشتاء وشتاء وشتاء. نعرف حققتكم! تسلّمون أنفسكم باعتباركم ضحايا البرد والشتاء، ومن ثم تمارسون السرقة! كم مرة حدثت في البداية تتعارف أثناء المقابلة - مرحباً مرحباً، ومن ثم لقاء متظر في قسم البوليس بعد أن يقبض عليهم بسبب السرقة - فالمحترم يكسب في قسم الشرطة أيضاً - آ، معارف قدامي! زمن طويل مر من دون أن نلتقي! ومن جديد تبدأ مشاعر الخوف والرعب، وأن مدير المتجر «ميغرو»، على أساس، لم يكن يغضّ على الإطلاق في نقطة الخروج بالقرب من الصندوق، وفي حال أنه قام بالبعض، فقد فعل ذلك لأن ذلك الأخير راح يخنقه. والآن دعونا نعود إلى موضوعنا الرئيسي. انظروا إلى أنفسكم فقط! لقد أصبحتم في سن الشيخوخة وما زلتם تركضون في هذِي الحياة! أين جواز السفر؟ لا تعرف؟ ولتكنا نحن نعرف: إنه في صندوق الأمانات في محطة القطارات. أو في خيمة اللاجئين لدى صديق آخر سبق أن سلم نفسه. سوف نمنحكم وثيقة لضرورة رسمية بالكنية التي أعلنتما عنها، ومن ثم سوف تذهبان مباشرةً من أجل الأوراق الثبوتية. هل ثمة ما لا يعجبكم في ذلك؟ وبعد ذلك بجهوزية كاملة وإلى الأمام سرُّ: تقومون بالسرقة وتبيعون ما سرقتموه بسعر بخس.

يشكوا من المصيبة ويقوم في نفس الوقت بالسرقة<sup>(1)</sup>. ليس وغداً ولا مقاماً وإنما قاطع طريق! جائع، حتى أنه مستعد أن يسرق الأسقف. ولا داعي لأن تصدعوا رؤوسنا بصدق العمل! ثمَّ، من بحاجة إليكم هنا؟ إذ يوجد هنا راغبون كثيرون من دونكم. كثيرون مدعون، أيها الأسماء، ولكن يتم اختيار قليلين<sup>(2)</sup>. تسرقون هنا المتاجر، ثم تقومون ببيع ما سرقتموه في الأكشاك التي تملكونها عندكم - هذا هو عملكم. وماذا يعني أنَّ المحلات مربوطة بشبكة إنذار! ألا تعرفون كيف تصنعون حقائب؟ هذا سهل جدًا: تأخذ رقائق من الألومنيوم ثم تقومون بلصقها مقلوبة من الداخل، فتحصلون على كيس عاكس وبالتالي لن تعمل أية وسيلة إنذار. وتفضل احمل ما تريد وكم تريده. ومن ثم تقومون بإرسال ما سرقتموه إلى بلاذكم. كيف؟ حتى ولو عن طريق البريد. تكتبون أنها أشياء على سبيل الهدية، أو أشياء مستعملة ومختلف أنواع السفاسف. المهم هنا هو عنوان المرسل. تبحثون في دليل الهاتف عن اسم شخصية مرموقة أو الأفضل عن جمعية خيرية معينة. لن يدقق أحد عندئذ. واضح؟ ماذا تقصد - لن ينجح؟ قد تكون العينان تخافان، ولكن اليدين تقومان بذلك! وأنت لست الأول ولست الأخير! لذلك، قل لنا الحقيقة والحقيقة فقط. ولا تنسَ أنه لم يعد أحد يصدق قصصكم وحكاياتكم التي تجعل الدم يتجمد في العروق، ذلك لأن الحياة تتألف فوق ذلك من محبة ومن جمال، لأنني أنام ولكن قلبي متيقظ، ها هو صوت المعشوق يدق: هيا افتحي الباب لي، يا أختاه، يا حبيبتي، يا حمامتي، أيتها العفيفه! - لأن رأسي مغطى بالندى بأكمله، وشعرى المجدد - برطوبة الليل. هل عرفتكم حقوقكم وواجباتكم، وأنه لن يسمحوا لأحد بالدخول إلى النعيم؟ GS: «نعم». بيتر يأخذ الورقة التي تتضمن الترحيب من المترجم: «هل لديكم أية أسئلة؟» GS: «لعل المتكلمين زائفون، ولكن المنطوق حقيقي. الحقيقة هناك فقط، حيث يتسترون عليها. حسناً، الناس ليسوا حقيقين، ولكن

1- قول مأثور روسي - ربما يعادله عند العرب «شخاخ ويريد أن ينام في الوسط». المترجم

2- العبارة هي من إنجيل متى: «هكذا يُكُونُ الآخرون أَوَّلُينَ وَالْآوَّلُونَ آخِرِينَ، لَأَنَّ كَثِيرِينَ يُدْعَوْنَ وَقَلِيلِينَ يُنتَخَبُونَ» (متى 16:20) المترجم

القصص حقيقة، إنها قصص حقيقة! فقد اغتصبوا في بيت اليتامي ذاك، ببساطة، شخصا آخر غير هذا، صاحب الشفتين الغليظتين. وقصة الشقيق الذي تم إحراقه والأم التي تم قتلها فقد سمعها ذلك الشاب من ليتوانيا على لسان شخص آخر. وما هو الفرق، مع من حدث كل ذلك؟ سوف يكون ذلك أكيداً على الدوام. ليس ذنب الناس هنا، ولكن القصص تكون حقيقة وغير حقيقة. نحن نمثل ما ننطق به. ذلك أنّ المصير المحبوب للتو ممتلئ بأناس غير ضروريين لأحد، مثل سفينة نوح، وأما البقية الباقية - ف مجرد قلادة. نحن سنصبح ما سوف يكون مكتوباً في بروتوكول المقابلة. أي مجرد كلمات. افهموا. إن فكرة الإله عن النهر هي النهر بحد ذاته». بيتر: «هيا نبدأ، إذا». وهكذا: سؤال - جواب، سؤال - جواب. وتدخل ندف الثلج من خلال النافذة الصغيرة. كيف ذلك؟ للتو فقط كان الفصل صيفاً، وهذا هو الثلج الآن يتتساقط. الباحة مكسوفة من خلال النافذة، حيث يشاهد زنجي وهو يقوم بتعزييل الثلج عن الطريق بواسطة رفس معدني كبير تحت رقبة شرطي. كان واضحاً أن المعدن يخدش الأسفلت، مثلما يحدث في موسكو تماماً. وهذا قد أحضروا لل مقابلة الدفعـة الصباحـية الثانية من GS الذين جمدوا من البرد، فراحوا يلفون أنفسهم في ستراتهم وأوشحـتهم، وهم بشـكل خاص من الزنوج ومن آسيـيين، كما يـقومون بالرـقص في أماكنـهم على الثـلـجـ لـكيـ يـدـفـئـواـ، وـثـمـةـ طفلـ صـغـيرـ، عـربـيـ أوـ كـرـديـ، وـرـبـماـ إـيرـانـيـ، وـكـيـفـ يـمـكـنـ لـلـمـرـءـ أـنـ يـمـيـزـ الأـطـفـالـ فـيـ عـمـرـ خـمـسـ سـنـوـاتـ، يـقـومـ طـوـالـ الـوقـتـ بـالتـقـاطـ كـمـيـةـ مـنـ الثـلـجـ مـحـاوـلـاـ أـنـ يـصـنـعـ مـنـهـ كـرـةـ ثـلـجـيـةـ، بـيـنـمـاـ تـنـهـرـهـ أـمـهـ وـتـجـرـهـ مـنـ يـدـهـ. سـؤـالـ - جـوابـ، سـؤـالـ - جـوابـ. تـليـ ذـلـكـ اـسـتـراـحةـ، قـهـوةـ فـيـ كـوـوسـ بلاـستـيـكـيـةـ. وـفـيـ نـافـذـةـ أـخـرـ يـشـاهـدـ فـنـاءـ أـخـرـ، حـيـثـ الثـلـجـ أـيـضـاـ، وـحـيـثـ يـلـعـبـ أـطـفـالـ زـنـوـجـ فـيـ صـنـعـ كـرـاتـ ثـلـجـيـةـ. وـلـكـنـ، هـلـ بـدـأـ هـؤـلـاءـ أـطـفـالـ زـنـوـجـ اللـعـبـ بـالـثـلـجـ لـلـتوـ فـقـطـ، أـمـ أـنـهـ قـدـ مـضـىـ عـامـ عـلـىـ ذـلـكـ؟ وـمـنـ جـدـيدـ سـؤـالـ - جـوابـ، سـؤـالـ - جـوابـ. كـمـاـ لـوـ أـنـكـ تـطـرـحـ أـسـئـلـةـ عـلـىـ نـفـسـكـ. وـتـقـومـ بـنـفـسـكـ بـالـإـجـابـةـ عـنـهـ.

يحاول المترجم قبل النوم أن يقرأ لكي ينسى. يريد مرة أخرى، قبل

أن يطفئ الضوء وأن يضع الوسادة على أذنه، أن يسافر إلى الطرف الآخر من الإمبراطورية وأن يخوض مع قورش الكبير في الصحراء، جاعلين نهر الفرات على يمينهما، وأن يقطعوا خمس مراحل لمسافة 35 فرسخاً. هنا تصبح الأرض مستوية ومبسطة، كما هو البحر، وممتلئة بأعشاب الميرمية. والأعشاب الشائعة هناك - أجمة وأشجار القصب - تعقب بروائح رائعة كما لو أنها بخور بالضبط. ليس هناك حتى شجرة واحدة، وأما الحيوانات فمختلفة - تصادف هناك حميرًا بريًّا إفريقية ونعامات ضخمة. كما يمكن أن يصادف المرء دجاج الحُباري<sup>(١)</sup> والغزلان. وكثيرًا ما يقوم الفرسان بمطاردة هذه الحيوانات. والحمير البرية عندما يقومون بمطاردتها تركض إلى الأمام ثم تتوقف، لأنها تركض أسرع بكثير من الخيول. وعندما تقترب الخيول منها، تبدأ بالركض من جديد وتكرر الشيء نفسه بحيث يستحيل اللحاق بها، إلا إذا كان الفرسان يقفون في أماكن مختلفة بحيث يقومون بمحاولة اصطيادها بالتناوب. يشبه لحم الحمير البرية لحم الأياتل، ولكنه أكثر طرافة. لم يتقط أيٌ من الصياديّن نعامة واحدة، وأما الفرسان الذين ينطلقون في مطاردتها فسرعان ما يكفّون عن الاستمرار في ذلك. لأنَّ النعامة وهي تفرُّ هاربة، تبعد لمسافة كبيرة جدًا، نظرًا لكونها تستخدم أثواب الجري كلاً من الساقين والجناحين اللذين يرتفعان مثل شراعين.

تغلق الكتاب محاولاً أن تناهُم، وإذ من جديد يعمل الذهن: سؤال - جواب، سؤال - جواب. ومرة أخرى بشأن رجال شرطة بلباس مدنى، وهم يحاولون كسر الباب والدخول عنوة إلى الشقة، حيث يقلبون كل شيء أعلى أسفله، ويكلّيون الضربات إلى الكليتين أو يكسرون اليدين أو ضلعاً من الأضلاع. يطرح عليه بيتر سؤالاً: هل اجتررت في طفولتك البحر الأسود مع أهلك على مركب «روسيا» وقد رأيت في أماكن غير متوقعة نهائياً، على سبيل المثال، على المراوح المعلقة فوق رأسك، حروفاً قوطية نافرة «Adolf Hitler»؟ جواب: نعم، حدث مثل ذلك. سؤال: هل قام طفلكم، عندما جاء ضيف

- ١- طير كبير من عائلة البوستارد. تتوارد بشكل رئيسي في مناطق السهوب وشبه الصحراوية في أوراسيا المترجم

إليكم، ولأنه شعر بالملل، بالنزول إلى تحت المائدة حيث راح ينزع الخفَّ من أقدامهم، ثم راحت أرجلهم تبحث بشكل أعمى عنها على الأرضية؟ جواب: بلـي، حدث مثل ذلك. سؤال: عندما دفنا والدتك، وضعوا لها على جبينها شريطة ورقية كتبت عليها صلاة، فما كان منك إلـا أن تسأـلت: منـذ الذي سيقرأ ذلك ومـتـى؟ جواب: نـعـمـ، حدث مثل ذلك. سـؤـالـ: هلـ فيـ إـقـلـيمـ بـيرـ ماـ نـهـرـ باـسـمـ سـتـيـكـسـ؟ نـهـرـ تـجـمـدـ خـلالـ لـيلـةـ وـاحـدـةـ؟ وـقـدـ رـمـيـتـ عـصـاـ فـيهـ وـإـذـ بـالـعـصـاـ تـقـفـزـ عـلـىـ الجـلـيدـ، وـقـدـ رـاحـ الـجـلـيدـ يـخـشـخـ بـصـوـتـ أـجـوـفـ، وـفـارـغـ وـرـشـيقـ؟ جـوابـ: نـعـمـ، حدـثـ مـثـلـ ذـلـكـ. سـؤـالـ: وـإـلـىـ أـينـ رـاحـ تـلـكـ الفتـاةـ تـسـبـحـ، وـقـدـ مـدـتـ إـحـدـىـ يـدـيـهـ إـلـىـ الأـمـامـ، تـحـتـ الـوـسـادـةـ، بـيـنـمـاـ مـدـتـ الأـخـرـىـ إـلـىـ الـخـلـفـ، جـاعـلـةـ رـاحـةـ كـفـهـاـ نـحـوـ الـأـعـلـىـ، بـحـيـثـ نـشـأتـ لـدـيـكـمـ رـغـبـةـ عـارـمـةـ بـتـقـبـيلـ تـلـكـ الـرـاحـةـ، وـلـكـنـ خـفـتـ أـنـ توـقـظـهـاـ؟

استيقظ المترجم صباحاً وقد تعرّق كثيراً وكان قلبه يخفق بقوّة: فقد تراءـتـ لهـ فـيـ الـحـلـمـ الـمـدـرـسـةـ غالـبـيـتـراـ، وـرـاحـ كـلـ شـيـءـ يـتـكـرـرـ - درـسـ وـسـبـورـةـ، كـمـاـ لـوـ أـنـهـ لـمـ تـكـنـ كـلـ تـلـكـ العـقـودـ الـمـاضـيـةـ التـيـ عـاشـهـاـ. ظـلـلـ مـسـتـلـقـيـاـ وـقـدـ رـاحـ يـحـدـقـ فـيـ السـقـفـ الذـيـ رـاحـ يـصـبـحـ مـضـاءـ بـالـتـدـرـيـجـ، وـهـوـ يـسـتـعـيدـ وـعـيـهـ وـمـمـسـكـاـ بـنـاحـيـةـ الـقـلـبـ.

ما الداعي للخوف منها الآن، يا تُرى؟

ومـاـ الـذـيـ رـآـهـ فـيـ الـمـنـامـ بـالـتـحـدـيـدـ - يـنـسـىـ عـلـىـ الـفـورـ، بـحـيـثـ لـاـ يـبـقـىـ سـوـىـ إـحـسـاسـ بـالـرـعـبـ الـمـدـرـسـيـ.

وهـنـاكـ شـعـورـ آـخـرـ غـيرـ مـرـيحـ - لـاـ تـعـرـفـ أـبـدـاـ فـيـ أـيـةـ إـمـبـرـاطـورـيـةـ تـسـتـيقـظـ وـفـيـ أـيـ دـورـ.

كان المترجم قد أطفأ الكمبيوتر، وإذا به يقوم بتشغيله من جديد فوراً، لكي يدوّن كيف راح يتقلب من دون أن يتمكن من الإغفاء، وأنه تذكر لسبب ما كيف كانت غالينا بتروفنا تقودنا في رحلة إلى أوستانكينا، إلى متحف إيداعات الأقنان. كان الوقت شهر أيلول، ومع ذلك كان قد سقط أول ثلج،

وكان أبولو بلفيدير<sup>(1)</sup> واقفاً في وسط المرج العشبي المستدير والمغطى بالثلج. رحنا يومذاك نضربه بكرات الثلج. كان الجميع يسعون لأن يصيروا تحديداً ذلك المكان الذي فيه الورقة، ولكن أحداً لم ينجح في ذلك، ثم صرخت غالبيتنا علينا، وبعد ذلك تابعنا رحلتنا إلى المتحف. أتذكري الصدى في تلك الصالات الباردة والمظلمة التي علقت على جدرانها لوحات اكتست باللون الأسود بمرور الزمن. راحت انعكاسات النوافذ تسбег على سطح الأرضية المدهونة بالشمع، كما لو أنها قطع من الجليد. رحنا ننزلق على الأرضية كما لو أنها على مكان للتزلج، وقد كنا نرتدي شباشب لبادية كبيرة فوق الأحذية مباشرة، بحيث إننا كنا ندوس بعضنا على أعقاب بعض لكي يسقط ذاك الذي يسير في المقدمة. راحت غالبيتنا تهسهس طالبة منا التزام الهدوء وتوزع صفعات على قفا الرقبة. كأنني أراها الآن مع شاربين أسودين عند زاويتي الفم، في بدلة صوفية بنفسجية اللون، مع قبعة بيضاء مشغولة يدوياً من الموهير<sup>(2)</sup> على رأسها، وفي جزمة شتوية بسحاب نصف مفتوح لكي لا تتعرق القدمان كثيراً، وقد ارتدت فوق الجزمة خفافاً من المتحف شببها بالحذاء الثلجي من ماركة لا بلاند<sup>(3)</sup>. وقد علق في الذاكرة من حديث الدليل السياحي أنه في حال أدقّ راقصات الباليه في عصر الأقنان الرقص في المسرح بشكل سيء، كانوا يعاقبونهن برفع التنانير ويضربونهن في الإسطبل - ولا بد أنه بقي هذا المقطع من الحديث محفوظاً في الذاكرة بسبب العبارة: بعد رفع التنورة. كما أني أتذكري كيف عرضوا علينا الرعد: في حال تطلب الأمر تصوير عاصفة أثناء التمثيل، كانوا يقومون برمي كمية من الحمص أو البازلاء من خلال الفوهه العلوية لأنبوب خشبي ضخم. فقد كان هذا المشهد المثير جزءاً من الرحلة، وكان ثمة شخص غير مرئي يقوم برمي كمية من البازلاء من خلال فوهه الأنبوب. إلا أن السبب الرئيسي

- 1 نسخة رخامية للأصل البرونزي لعمل النحات اليوناني القديم ليوهار - نحات في بلاط الإسكندر المقدوني. النسخة الأصلية التي تعود لعام 330 ق. م. مفقودة. المترجم
- 2 الموهير mohair من صوف الماعز أنجورا - المترجم
- 3 منطقة جغرافية ثقافية تقطنها قومية السامي وهي في شمال أوروبا، مقسمة بين المناطق الشمالية لكل من النرويج، والسويد، وفنلندا، وشبه جزيرة كولا، وروسيا. المترجم

الذى جعلنى أذكر تلك الرحلة هو أن أحداً ما همس لي في أذنِي أنَّ غالبيترا - حامل! فقد خيل لي ذلك مستحيلاً وغير معقول آنذاك، وهو أن تكون مدرستنا التي يصعب تحديد عمرها ولها شارب، قادرة أن تحمل، إذ إن ذلك يتطلب أن يحدث ما يحدث بين الرجل والمرأة - تحديداً المرأة، وليس مدرستنا غالبيترا! رحت أحدق في بطن العانس العجوز التي كانت تحارب بذكاء استخدام الكحل للرموش والظل للأجفان، ولكنني لم أستطع أن أحظ شيئاً - فقد كانت غالبيترا بدينة كما كانت دائمًا. لم أرد ولم أتمكن من تصديق ذلك، لأنه لا يمكن أن يحصل حمل غير دنس خارج العلاقة الزوجية، بيدَ أنَّ كلمات قيلت لي أقتعنتي: «لقد أصبحت المدرسة بأكملها على علم بأنها سوف تذهب في إجازة أمومة». وهكذا رحنا نقف ونصغي كيف كانت حبات الحمّص تتتحول إلى قصف رعني بعيد، وإذا راح شيء ما يكبر فجأة لدى غالبيترا بطريقة غامضة؛ كان مرئياً من خلال النافذة وفي ظل هطول الثلج مبني التلفزيون في أوستانكينا، وقد كان أبو لو بيلفيدير متوجهًا إليه من دون أن يترك خلفه أية آثار.

يصادف أن يستيقظ المترجم في هذا الصباح التونغوسى مترجمًا في شقة بغرفة واحدة مقابل المقبرة. وربما، لهذا السبب لا يكون أجear الشقة مرتفعاً هناك. الخضراء مثل أية خضرة في أي مكان آخر. وافرة ومتألقة ورشيقة. وأما الراديو فيعلن منذ الصباح، وليس في الشقة المجاورة فحسب، بصوت متتعش عن عمليات قتل وسطو حدثت أثناء الليل. لن تتبه على الفور لوجود محرقه الجثث، كما لو أنها مجرد منزل فخم على سفح التل. والمحرقه لا تصدر دخاناً على الرغم من أنها تعمل، كما هو متعارف عليه في كلّ مكان هنا، بلا كلل ولا ملل. يكمن اللغز بأكمله في الفلتر. فقد تم تركيب فلاترات في الأنابيب لكي لا يتم تلويث المطر.

سبق أن كتبت بشأن السنجب الذي يجري على طول السياج.

لم أر أحداً من العجران خلال مدة طويلة، وحدهه غسيل بياضاتهم كان يظهر للعيان. يقومون بغسلها في القبو، حيث عدد من الغسالات الآلية. وآلات الغسيل تلك مشغولة دائمًا، وثمة جوارب منظفة وكلسات تم رتقها

تنتظر أصحابها على الحال الممدودة في غرف التجفيف، وهي تعود لعجائز وكلاسيين موديل ما قبل الحرب.

## قبل أية حرب؟

ثمة أمر ما أثار انتباه المترجم وبدا له غريباً وذلك عندما جاء إلى هنا قبل سنة، بل قبل سنة ونصف السنة. ولم يفهم على الفور ما الذي بدا له غريباً في ذلك البناء الضخم حيث كان الهدوء سائداً طوال الوقت. ولكنه لاحظ أنه لا تسمع فيه أصوات أطفال على الإطلاق. ثم لاحظ بعد ذلك أنه ليس في المبني سوى شقق بغرفة واحدة (استوديو)، وأن سكانها من العجائز. وقد بدوا له أشبه بجوارب وكلسات مغسلة تمشي.

كانت من حظ المترجم شقة بغرفة واحدة في الطابق الأرضي مع باب يؤدي إلى المرج العشبي، حيث كان هناك باستمرار شيء ما مرمي. وهذا هو الآن العشب يتمايل بسبب القطرات حيث يوجد تحت النافذة مباشرة أنبوب معجون أسنان ماركة «Colgate».

لم يكن يظهر أحد من الجيران سواء من اليمين أو من اليسار، ولكن أصواتهم كانت مسموعة. ذاك الذي في الجهة اليسرى راح يصفر بالتناغم مع صوت سلسلة معدنية للمفاتيح. وذاك الذي على اليمين، يحب الثرثرة. كان يكلّم نفسه على طريقة الطيور. يبقى شتاء وصيفاً في سروال تحتاني وفي تي-شيرت. كان المترجم عائداً في أحد الأيام في وقت متاخر فوجد جاره هذا يقوم بتنظيف المدخل.

أنبوب معجون الأسنان - من الطابق السابع. وقد راحت تسقط منذ الأيام الأولى بعد انتقاله للسكن هنا مختلف الأشياء من الطوابق العلوية لتسתר تحت النافذة مباشرة - بما في ذلك القمامات. في أحد المرات سقط جهاز هاتف، ثم طقم من الشرائف، ثم جهاز راديو صغير، ومأكولات، ومغرفة وفتحات وأشياء مكتبية ومختلف دفاتر الجيب الصغيرة وعلب مليئة بمشابك ورقية، وأغلفة. طبعاً ليس كل يوم. كان يمكن أن يمضي أسبوع كامل من دون أن يسقط شيء، وإذا فجأة يسقط مقص. كان المترجم يجمع كل تلك الأشياء في أكياس نايلون سوداء مخصصة للقمامات، وأما

الأشياء النافعة فكان يأخذها لنفسه ببساطة - يعتبر مفقوداً كل ما يسقط من السماء. وهكذا فإن لديه في درج الطاولة أقلاماً «سماوية» وعلبة صمع وذلك المقص. ولم يتمكن المترجم أن يعرف من ذا الذي يقوم برمي هذه الأشياء ولماذا. وفي يوم من الأيام العاصفة امتلاً المرج العشبي بأوراق بيضاء راحت تساقط كما لو أن شجرة من الورق قد حان خريفها. تبين أنها أوراق مخصصة للانتخابات. ذلك لأنه يتم إجراء استفتاء بخصوص كل شيء، حتى ولو كان احتفالاً بتركيب قناديل لإضاءة الشارع. وهكذا كانت تلك الأوراق تحمل العنوان والكلمة. إلى: أفضل العالم، لمن: السيدة إيفللي. ذهب المترجم ليقي نظرة على اللوحة التي عليها أسماء المقيمين، واكتشف أن كل شيء يتتطابق - السيدة إيفللي تقطن فوقه مباشرة في الطابق السابع. صعد إليها وقرع الجرس. من يدرى، ربما تيار هوائي شديد أدى إلى تطاير الأوراق عن حافة النافذة. كان ببساطة يريد أن يعيدها إليها. ولكن لم يفتح أحد الباب خلال برهة طويلة. قرر المترجم أن يعود أدراجه وإذ به يسمع خشخشة خلف الباب. وأخيراً فتح الباب. في البداية التقط أنفه رائحة ومن ثم رأى في العتمة امرأة عجوزاً في الثمانين من العمر. حتى إنه دُهِش كيف يمكن لمثل هكذا كائن ذايل تماماً أن يعقب بمثل هذه الرائحة. اعتذر منها وراح يشرح لها بشأن الأوراق، وأنها سقطت من نافذتها وأنه قد أعادها إليها. بقيت صامتة. سألها من جديد وهو ينظر إلى بطاقة التعريف قرب جرس الباب: «Sie ja Frau Eggle, oder?»<sup>(1)</sup> غمغمت: Nein, das! «bin i n̄qd!»<sup>(2)</sup> - وأغلقت الباب بقوة. كلا إذن كلا - ربما قاموا باستبدالها في طفولتها. ومن جديد راح شيء ما يسقط من الأعلى بين حين وآخر.

كان المترجم يسأل ابنه كل مرّة عبر الهاتف:

كيف الحال؟

وكان ذاك يجيب دائمًا:

كل شيء على ما يرام.

1- ألسنت السيدة إيفللي؟ (لغة ألمانية). المؤلف

2- كلا، لست أنا (باللغة السويسرية والألمانية). المؤلف

# مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

وفي يوم الميلاد عندما اتصل المترجم ليسأل ما إذا كان الابن أُعجِّب بمجموعة الساحر الفتى، قال له الابن:  
وحده بابا يقدّم هدايا دائمًا للجميع، أما أنا فألتلقى هدايا من اثنين! هذا  
رائع، أليس كذلك؟

نعم، رائع - أجاب المترجم  
كما يرسل الابن في بعض الأحيان رسائل مسلية تحتوي في داخلها على  
رسوم. وقد تخيل ذات مرة بلد وقام برسم خارطته.

قام المترجم بتثبيت تلك الخريطة على الحائط بواسطة دبابيس.

سؤال: هكذا، أنت تؤكّد أنك تبحث عن ملاذ لروحك المرهقة والمهانة  
التي تعبت من الإذلال والمحن، من الفظاظة والفقر، من الأوّلاد والحمقى،  
وأنك معرض في كلّ مكان لخطر داهم أن تتحول إلى ألعوبة في يد الشر، كما  
لو أن لعنة حتمية كتبت على سلالتكم بل وعلى جميع الباقيين، وكيف عانى  
أجدادك وجداتك، وكيف أنّ الجيل الحالي أيضًا يعاني، وأنه سوف يبقى  
تحت سيطرة الظلم والمعاناة أولئك الذين لم يولدوا بعد حتى الجيل السابع،  
وربما يستمر ذلك أبعد. وكبرهان مادي عرضت علينا تذكرة تم ثقبها من قبل  
مراقب لم ينم بما فيه الكفاية للسفر من رومانسهوتن<sup>(١)</sup> إلى كرويتزلينغن،  
وورقة من دفتر مدرسي مع كتابة غير مفهومة أشبه بشخبطات أطفال ومع  
جسم متهدّل مليء بالثقوب. ولكن، دعنا نرتّب الأمور كما يجب. كنت  
تكتسب قوت يومك - إذ لديك عائلة ومعها أيضًا على عاتقك والدتك العجوز  
وشقيقتك العانس - حيث كنت تعمل حارسًا لدى صحافي استطاع أن يحقق  
نجاحًا في مهنته، حاذق وشرير، يقدّم برنامجيًّا تلفزيونيًّا لا هيأها، تعيسًا ولكنه  
محبوب من قبل الناس البسطاء، لأنّه كان يجلب إلى بيتهما الحقيقة وإلى  
القصور على حد سواء أجزاءً صغيرة من الأمل والنور. لقد وقعت في أيدي  
الصحافي، الله أعلم من أين وكيف، مواد تفضح مصدر الشر. كان لبُّ  
المسألة يكمن في الإبرة. كانت الإبرة مخبأة في بيضة، والبيضة مخبأة في ذكر

بط، وذكر البط في أرنب، والأرنب في أحد آخر، وكلُّ هذا بدوره محشور في داخل حقيقة دبلوماسية. وهكذا أراد الصحفي الشجاع أن يخرج محتويات الحقيقة على الهواء مباشرة وعلى مرأى من الجمهور العريض، ولكنه قام بكسر رأس الإبرة وبذلك دمر الشر وحطمه. بطبيعة الحال لم تكن نائمة القوى والدوائر الشديدة الباس (ذلك لأنَّ الشَّرَّ يعتقد دائمًا أنه خير، والخير يحسب نفسه، بالعكس، شرًّا). بدأت تصل إلى الصحفي الجريء رسائل تهديد مغفلة، فراح الشجاع يقرأها على الملايين ليقوم بعد ذلك بتمزيقها فورًا كاشفًا لأعدائه المجهولين ولكنهم الموجودون في كلِّ مكان عن ازدرائه لهم. وفي أحد الأيام كان الثلوج يتتساقط، وبعد أن قمت بوداعه إلى يوم غد، ركب سيارته المغطاة بالثلج، مع زوجته الجديدة – فقد كان قد طلق زوجته القديمة قبل نصف سنة من تلويث الزجاج الأمامي بهذا الخليط السائل الذي يقوم عمال النظافة بكتشه، وقد قلت لنفسك حينذاك إنك إنما تراه لآخر مرة. للعلم، لم تكن أفكارك قط تشير اهتمام أي شخص في هذه الدنيا. جلسا في السيارة وأشعلا مكيف التدفئة، لأنهما أرادا أن يعيشَا حياة مديدة وسعيدة ريثما يصبح داخل السيارة دافئًا، وأن يموتا في يوم واحد وفي لحظة واحدة. قالت له: «اللعنة على تلك الحقيقة، لا داعي لأنَّ حقيقة، يا سلافيك<sup>(١)</sup>، يا حبيبي، فأنا خائفة عليك وعلى نفسي. من فضلك، أرجوك لا داعي لأنَّ شيء». وعندما أراد أن يجيبها – انفجرت السيارة. راح التحقيق يدقق في فرضية الخطأ: لقد تم وضع القنبلة الموقوتة في سيارة الصحفي عن طريق الغلط، إذ لم يكن هو المقصود، وقد قام المحققون بالتدقيق في المعلومات المتعلقة بأصحاب جميع السيارات البيضاء بسبب الثلوج الذي يغطيها من ماركة «BMW» الذين ركزوا سياراتهم في ذلك المساء الموحل بالقرب من المركز التلفزيوني في أوستانكينا، حيث تشكل تحت كل مصباح في موقف السيارات أهرامات حية من ندف الثلوج. كما أنهم بحثوا عن الحقيقة الدبلوماسية التي تحتوي على الحقيقة، ولكنهم لم يعثروا عليها. راحت الزوجة السابقة للقتيل، وقد أحست بالإهانة وبكرامتها المعروفة كأنثى،

---

- ١ - سلافيك - صيغة التحجب من سلافا وفتيسلاف.. المترجم

عندما كان حيًّا بعد، تحاول أن تطرد من عقلها الباطن ذاك الذي خان حبهما، وبدأت تتصل من حين لآخر من دون أن تقول شيئاً - أواه، كم هنّ متشابهات جميع النساء اللواتي تم التخلّي عنهنَّ، اللاتي يكتمن حقدهنّ وغضبهنّ بواسطة النحيب في سماعة الهاتف! وإذا خافت أن تفقد عقلها وأن تجنّ، قصدت طبيب أمراض نفسية حيث راحت تت Herb عنده لمدة ساعتين - ذلك أنهما كانا قد عاشا معاً مدة طويلة جدًا. بعد أن انتظر طبيب الأمراض النفسية ما يكفي من الوقت كما تقتضي الحالة، ولأنه كان لديه عين زجاجية كان يغطيها بإحدى يديه - اقترح عليها أن تخيل حياتها السعيدة السابقة كمال لو أنه فيلم سبق أن تمت مشاهدته ثم طلب منها أن تسترخي وأن تغمض عينيها، وأن تشاهد الفيلم مرة أخرى بسرعة زائدة، بحيث يبدو الأمر وكأنهما يترثان بشكل مضحك، وأن يقبلًا بعضهما كما لو أنهما ينقران واحدهما الآخر في أنفه، وأن يبدوا وكأنهما يمارسان الجنس برغبة وبمرح مثل حيوانات الهمستر، وبعد ذلك تقوم بإخراج الشريط من آلة العرض وترمييه في الفتحة المخصصة للزباله. «ليس لدينا في البيت فتحة خاصة برمي الزباله» - أجبت المرأة. وفي نهاية المطاف، وإذا علمت بما حدث، انتابتها نوبة نحيب من جديد، ولكن هذه المرة بطريقة معايرة تماماً - أصبحت قادرة الآن أن تسمع لنفسها بالتفكير في أنها مغفرة به وأنها تحبه وأنها تتذكر ما كان جيداً بينهما، وأن تستمتع بتلك الذكريات. لقد أصبحت تلك الدموع دموعاً مفعمة بالامتنان، تغسل الروح وتجلب الراحة وتخفّف من وقع الفراق والألم. ذلك أنها عندما كان لا يزال حيًّا، كانت إذا ما تذكرته فهي صيغة الماضي فحسب - كمال لو أنه مات، وهو قد حصل ذلك، لقد مات بالفعل، ولا داعي لأن تخيل مثل ذلك بعد الآن. وفي أحد الأيام، عندما عادت إلى شقتها الفارغة، أحست كما لو أن أحداً ما غيرها قد دخل إلى الغرفة. كانت جميع الأغراض في مكانها، ومع ذلك انتابها انقباض غامض وغريب. شعرت بساقيها متعثبين، فتمددت على السرير وإذا بها فجأة تشم رائحة عطر على الوسادة - رائحة عطره. هذا يعني أنه جاء إلى هنا. وهذا مفهوم - إن روح الرجل الذي سقط قتيلاً على أيدي المجرمين القتلة لا ت يريد مغادرة هذه الدنيا، لأنه بقيت فيها

تلك المرأة العاشرة له، ولذلك تحتاج روحه للحماية. ونحن بأمس الحاجة لأن نثق وأن نؤمن أنَّ الأشخاص العزيزين علينا وإذ يغادرون هذه الحياة، لا نفقدهم نهائياً إلى الأبد، وأنهم في مكان ما قريب منا ويمكنهم أن يأتوا لمساعدتنا ولنجدتنا في اللحظة الضرورية. لقد كُتب الكثير بخصوص اصطلاحية الموت وأنه أمر رمزي، إذ يتضح فجأة أن الميت حيٌ يرزق - بل وجميع الموتى والقتلى. فهذه جذور الأعشاب تبقى حية من دون أن تعرف أنَّ أحداً ما قام بمضغها. وفي مرة أخرى، عندما عادت إلى البيت، رأت على المرأة القديمة جداً التي تعود إلى الجدة بحيث كانت تعطيها آثار العجوز على شكل بقع، كتابةً بخط عريض وبقلم حمرة، قام هو نفسه بكتابتها. وقد أعلن القاتل في رسالته تلك أن القاتل - هو أنت. وهذا بصورة عامة أمر مفهوم: نبيع ما نقوم بسرقه<sup>(1)</sup>. وليس غريباً أو مثيراً للدهشة أن يتم تكليف الحراس بعملية الاغتيال. فالجميع يدرك أنَّ الأمر بهذه الطريقة يكون سهلاً ومضموناً أكثر. وأما أنت فقد وجدت نفسك بين المطرقة والسنдан. ومن الصعب أن توافق ومن غير السهل أن ترفض. كييفما قلبت الأمر - أنت خارج الشبهات. بالطبع، يمكن للموتى أيضاً أن يرتكبوا الأخطاء، ولكنك تفهم الوضع.وها هو التحقيق يتخذ منحي جديداً، ويتم اتهامك في عملية اغتيال الصحافي. تضطر لأن تتخفي. يكتسب الموضوع دينامية ما، بحيث إنك تصبح مضطراً أن تتعثر على القاتل الحقيقي وذلك لكي تبرئ نفسك، ويُفضل أن تتعثر على تلك الحقيقة التي اختفت. أي أنَّ الأمر يصبح أشبه برواية بوليسية تماماً. في تلك الأثناء ذهبت الزوجة السابقة للمتوفى لمقابلة إحدى المتنبهات (المبصرة)، التي كانت قد غادرتها للتو امرأة جاءت تطلب من المبصرة أن ترفع السحر الأسود عن أسرتها - فهي عام واحد توفي زوجها بشكل مباغت، كما قتلت ابنته مع صهرها وحفيدتها في حادث سير، وحفيدها يعاني منذ الولادة من مرض عضال، وقد أصبح يتيمًا، وفوق ذلك نشب حريق في الشقة. كانت غرفة المبصرة تعقب براءحة الراتنج المحترق، وأما الرسائل التي التهمها الجُعل بعد أن أخفيت في جذع شجرة قديمة خلف النافذة، تلك

1 - قول روسي مؤثر يقابلة بالعربي: حراميها - حراميها. المترجم

الرسائل التي وصف فيها حياته المريضة والتي لن يقرأها أحد أبداً. بعد أن استلمت البصرة المكافأة المالية المتفق عليها، وبعد أن تأكّدت من دقة المبلغ، وعلى سؤال المرأة كيف يمكنها أن تتصل بزوجها المتوفى ولكنه مع ذلك موجود، أعطتها عنوان دردشة معينة على الإنترن特 حيث سيزورها أون لاين مع ظهور أول نجمة في السماء. لم يكن في الدردشة في الوقت المحدد من قبل المستبصرة سوى زائر واحد. إنه هو. كان يشغل بالها أمر واحد فقط، ولذلك راحت طوال الوقت تنقر بسبابتها: «حبيبي، لماذا تخليت عنِي وتركتني؟». راح يحدّثها عن رقم سري لخزنة في قسم الأمانات في محطة بيلوروسكايا للقطارات، أما هي فراحت مرة بعد أخرى تسأل: «أنا أريد أن أفهم فقط: لماذا؟». ولكن، هيا بنا نتركهما وحدهما، ولننظر ماذا كان يحدث معك في تلك الأثناء. لا يمكنك أن تعود إلى بيتك، حيث لا بد أنهم كانوا قد نصبوا كميناً لك وييتظرون ظهورك. كنت خائفاً لأنهم كانوا قادرين أن يلحقوا الأذى بزوجتك أو بابنك، على الرغم من أن الطفل ليس ابنك الحقيقي، وقد كبر وتزعّع، ولكن هذا لا قيمة له على الإطلاق بالنسبة للحب ولتطور الحبكة، ولذلك قصدت صديقاً من أيام الخدمة في الجيش، لم يلعب في طفولته ألعاب الجنود وال العسكرية بما فيه الكفاية، وقد قام بتركيب بانوراما مصنوعة من النحاس لمعركة واترلو<sup>(١)</sup>. إنَّ صداقتَ الخدمة العسكرية - قلت في نفسك - مقدّسة. فالأشخاص الذين خدموا معاً وكانوا قريين بعضهم من بعض، يبحثون إذا ما التقوا بعد مضي سنوات طويلة عن ذلك القرب الذي كان قائماً ذات يوم، وذلك على الرغم من أنهم أصبحوا مختلفين تماماً، ويمكن مقارنة ذلك بالماء الذي كان في مزهرية ومن ثمَّ تحول إلى بخار أو إلى مطر. راحت تحكي، بينما راح صديقك يدخُّن بحيث تصيب حلقات الدخان المتدافعه عبر منخاره صحن المعكرونة. لقد أدرك أنَّ القضية خاسرة،

- 1 - معركة واترلو (Battle of Waterloo) معركة فاصلة وقعت في 18 حزيران من عام 1815 في قرية واترلو قرب بروكسل عاصمة بلجيكا، وهي آخر معارك الإمبراطور الفرنسي نابليون بونابرت وهُزم بها هزيمة كبيرة غير متوقعة لقائد بخبرته، وهذا ما جعل الإنجليز يصفون فيما بعد الشخص الذي يعاني من حظ سيء جداً بأنه صادف واترلو. المترجم

وأنه قد يُقتل إذا ما قرر مساعدتك، وهذا على وجه التحديد ما كان يستفزه ويحفزه. كان دستيفسكي، على الأرجح، قد قال إنَّ التضحية بالحياة هي الأكثر سهولة، ربما، من بين جميع التضحيات. في اليوم التالي ارتدى صديقك قميص البحارة المخطط، وانطلق إلى منزل الزوجة السابقة للصحافي لكي يحصل عن طريقها على اتصال مع روح المتوفى ومن ثم أن يعرف منه سرَّ الحقيقة الدبلوماسية المختفية. وإذا سمع العاملون في مصيغة الشياب التي تقوم في الجهة المقابلة أصوات إطلاق رصاص، قاموا باستدعاء الشرطة، وبما أنَّ الدورية المناوبة تأخرت في الوصول إلى المكان بسبب الازدحام الخانق للسيارات بحيث إنها لم تتمكن من بلوغ المكان إلا بعد انتهاء ساعة الازدحام، فقد ألقت القبض على الشجاع النبيل الذي دسوا له في جيده بطريقة خاطفة ملاعق فضية أثناء الاشتباك البائس، علمًا أنه حاول تبرئة نفسه مؤكداً أنه كان قد وجد في الغرفة جثة المرأة ممددة على السرير وهي تتنشق رائحة الوسادة وأنها قتلت عن طريق إطلاق النار عليها في ناحية القلب. ركض نحوها لكي يتتأكد ما إذا كان يمكن إعادة الوعي إليها - وهكذا تلطخ بدمائها. ثم انتزع المسدس من يدها بعد أن تم دسه في يدها من قبل شخص ما بحيث يبدو كما لو أنَّ الأمر مجرد عملية انتحار، وإذا بالمسدس يطلق رصاصة اختبار في ساقه، لأنَّ صمام الأمان كان مرفوعاً وأنه، أي صديقك، لا يجيد استخدام السلاح. بهذه الطريقة يتم تفسير وجود آثار دمائها على ثيابه وبقايا البارود وبصمات أصابعه على مقبض المسدس. ولكن ليس هذا المهم، بل المهم هو أنَّ رفيقك المخلص نجح بأن يقرأ على شاشة الكمبيوتر غير المطفأ وأن ينقل لك عن طريق الهاتف، قبل أن تعتقله الشرطة، الشيفرة ورقم حجرة الأمانات في محطة القطارات، حيث قمت بأخذ الحقيقة المنحوسة. إنَّ اعتقال شخص بريء غير مذنب في شيء، بسببك فقط، يضفي على الحدث ولو إلى حدٍ ما بعضًا من التوتر والدرامية. راحت تسير في الشارع حاملاً الشَّرَّ في الحقيقة وتفكَّر ما الذي يجب عليك أن تفعله. راح الجميع يتلفتون إلى مصدر الرنين والصرير الزجاجي المتكرر - كانت عجوز تجُّرُ على الطريق الأسفلي عربة تزلج مع حمام طفولي ممتليء بقوارير فارغة.

وفي المتنزه كانت الأمهات الشابات مع عربات أطفالهن، يتجاذلن بخصوص أفضل طريقة للفطام، حيث راحت إحداهن تروي كيف أنّ والدتها كانت تدهن حلمة الثدي عندما تقوم بإرضاع الطفل بالخردل، فما كان من الصبي الذي كان قد بدأ يتكلّم، أن قال: «الحلمة - كع!». وأنه إذا ما ظلَّ الطفل يررضع لمدة طويلة، فسوف يتأخّر في تعلم النطق وسوف يكون كلامه آخر. كان ثمة متقدعاً يراقبهن من النافذة، فذهب إلى المطبخ وانتزع ورقة الروزنامة وهو يتنهَّد قائلاً: سوف يقتلون بوشكين غداً. بحلول منتصف النهار أصبح الثلج مفتتاً بسهولة وإسفنجياً، بحيث أن الكثبيات الثلجية راحت تتآكل كما لو بواسطة الجراد، وأمّا القشرة الجليدية تحت الخمان<sup>(1)</sup> فقد ذابت وتغطّت بالبثور. وعند دخول المطعم كان زنجي يرقص في زيه الخاص بالخدمة وهو يفرح للشمس ويلمع بأزرار سترته الذهبية، وعلى الأرجح، كان قد جاء إلى هنا يوماً ما من أجل الدراسة. وفي روضة الأطفال، وبعد أن جلس الأطفال على «النوينيات»، قامت المربيّة بفتح النافذة لكي يصاب عدد أكبر من الأطفال بالتهاب المجاري التنفسية وبالتالي يقلّ عدد الحضور. وأمّا في متجر الحلويات فكانت تطلُّ لوحـة دعـاـية: «سـال لـعـابـك بـالـأـمـسـ، وـغـدـاـ أـنـتـ رـمـادـ». وفي حديقة الحيوان راحت تمرح أشبال الأسود التي تم تقديم كلب لها كطعم. وفي صالون الحلاقة راحت الحلاقة تتجسّأ بعد تناول الغداء، وهي تفكّر كيف ستتمكن مرة أخرى من التدرب على عزف الغيتار مساءً - فقد كانت قد دست تحت الأوّلار مطااطاً إسفنجياً وذلك لكي تتدرب على النغمات من دون أن تصدر صوتاً قوياً. وفي الجهة المقابلة، في معهد الفنون، كان الأصل يتّخذ وضعية وهو يضع جوربًا على قضيبه، حيث لم يكن لديه كيس خاص مع شريط للزينة. وكان الصليب في أعلى الكنيسة مربوطة بسلسل لكي لا يطير. كان القدّاس في الكنيسة قد انتهى، وراحـت النـسوـةـ في منـادـيلـ وقدـ فـصـلـنـ الطـرـيقـ إـلـىـ المـذـبـحـ بـوـاسـطـةـ حـبـلـ، يـنظـفـنـ الأـرـضـيـةـ منـ آـثـارـ الأـقـدـامـ وـهـنـ يـتـذـمـرـنـ. كانـ الـفـقـيرـ الـذـيـ يـجـلـسـ فـيـ روـاقـ الـكـنـيـسـةـ يـعـرـفـ أنـ

---

-1- الخمان اسمه العلمي (Sambucus) جنس نباتات طيبة يضم ما يصل إلى 30 نوعاً.

زوار الكنيسة لا يتصدقون على الصلعن بشكل كريم، لذلك كان يضع على رأسه قبعة دائمةً. وفي دار الأيتام للأطفال المعايقين راحت المريئة تتفض الفرشات في غرفة نوم الفتيات وهي تقلب الأسرة وتغتسل في الخزنات الصغيرة بحثاً عن كحول ممنوع للرموش، في حين أن العلبة المنشودة كانت معلقة في الخارج خلف النافذة بواسطة خيط. وفي السوق كانوا يبيعون في أحواض خاصة بالسمك خياراً مخللاً قليلاً الملوحة. كما راح بائع من القوقاز يمسح التفاح بخرقة متتسخة. وأما في المدرسة فكانوا يدرسون غوغول. حيث راح المعلم الشاب يشرح أن هروب الأنف هو هروب من الموت، وأن عودته هي عودة إلى النمط الطبيعي للحياة والموت. كان ثمة عاشقان يسافران في الحافلة لكي يمنحها الحياة لجنينهما، ما جعلهما يتتصاقان بعضهما البعض وسط الزحام وقد راحا مع بقية الركاب في الحافلة يرقصان في القسم الخلفي منها - لاحقاً، وقد جمدت مع طاحونة عابقة بالقهوة في يديها، راحت تفگر: «إلهي، كم من السهل أن تكون المرأة سعيدة» - أما هو فكان في ذلك الوقت يفتح علبة سردين وهو يلف غطاء العلبة على المفتاح، كما لو أنه كان يقوم بتبهنة العالم مثل ساعة. كما كان يجب على أحد ما أن يقوم بتفريغ جلود الغنم المعلقة على كلاليب وقد راحت تلمع بطبقة من الندى المثلج في العربة - الثلاجة، حيث ضباب صقيعي بينما كانت حلقة غامضة ومتلائمة تلمع حول لمبة الضوء. ولم يكن أحد في المدينة يعرف لغز السراويل البيضاء الخاصة بقوات الفرسان التي تلتتصق بالأفحاذ - إذ كان يجب ارتداوها وهي مبللة وبحيث تتجمد على الجسد العاري. وبعد أن شعرت بنفسك محبطاً وبائساً، توجهت إلى فاعل خير ومدافع عن حقوق الإنسان، وسوف ندعوه، جدلاً، السيد فيتر<sup>(1)</sup>، حيث سجلت اسمك وجلست تنتظر دورك في غرفة الانتظار، وأنت تنقر ببرؤوس أصابعك على الجلد الصناعي للحقيقة. السيد فيتر - هو الوحيد في العالم بأكمله، الذي يمكنه أن يساعدك في الكشف عن الحقيقة وبالتالي أن تعاقب الشر خلف النافذة بشكل احتفالي وبهيج. إذ كان لا بد أن يقوم شخص ما بكسر الرأس لإبرة الشر بصورة علنية وعلى الهواء

- وردت الكلمة هنا باسم علم مع أن الكلمة تعني حرفيًا الريح. فاقتضى التنويه. المترجم

مباشرة! يبدو أنَّ كثيرين فكروا على ذلك النحو، بدليل أن غرفة الانتظار كانت مزدحمة باللاجئين من آسيا الوسطى في أرديتهم الملونة والممزقة. كان ذلك المبني عبارة عن قصر قديم وقد وضع عينه عليه منذ مدة طويلة أحد البنوك النفطية. كانت الأسقف مطلية بنقش شبكي مرن، بحيث لم يعد يدهش أحداً لأن أبولو - إله الفنون، قام بقتل أطفال نيوبي<sup>(١)</sup> الواحد تلو الآخر، ومن ثم قام بتحويلها هي ذاتها إلى صخرة - وبهذه الطريقة تم وضع نهاية لآلام وعذابات الأم. بيد أنك انتظرت عثباً - لأن السيد فيتر اختفى بصورة غامضة من مكتبه، ثم عثروا على جثته في الحديقة المجاورة وقد كان معلقاً على غصن - هوذا اللغز المفضل من قبل الجميع للغرفة المغلقة. ول يكن أنَّ الصحافة اعتمدت واسترسلت في تخمينات يائسة بخصوص السحر والقوى الغيبية، بيد أنَّ الأمر كان أبسط بكثير: ثلاثة مشردين، بلا مأوى، ثلاثة أشخاص من خدموا في قوات المدرعات، وإذا شعروا بالإهانة بسب تحقيр الدولة، قرروا أن يتقموا من الليبراليين. وقد تذكروهم على أساس علامات معينة: كانت أسنانهم المنchorة تلمع في الظلام. كما أنهم كانوا يحبون أن يتذكروا كيف راحت تساقط على مدينة لينينغراد في بداية عام 1938 أكواخ من الموز. وقد أعلن أحدهم: لو أني أعرف أن الموت غير حقيقي، أنك لا تموت وإنما «تنقل» ببساطة إلى حياة أخرى، أي كما لو أنَّ المرء لا يموت عن جد، بل للتسلية، فإنَّ هذا كله يصبح لا يستحق وغير جدير بالاهتمام - لأنَّه يجب على المرء أن يموت بجدارة، بطريقة رجولية، عن جد وهو يدرك أنَّ الموت حقيقي. وإليك ما حدث. قام أحدهم بإطلاق النار وهو يمر في الشارع من مسدس قديم كان يستخدم للمبارزة، لأنَّه لاحظ أنَّ السيد فيتر كان يقف في تلك اللحظة قرب النافذة المفتوحة وهو يفكُّ لسبب ما بجزمة تورغينيف

- ١- نيوبي هي ابنة تانتالوس ملك فريجيَا وأخت بيلوبس ملك البيلوبونيز وزوجة أمفيون الطبيي وكان لديها سبعة أبناء وسبع بنات وكانت تفخر بجمالهم وسخرت من ليتو لأن لديها ابناً واحداً هو أبولو وابنة واحدة هي أرتميس فاستفزهم هذا وانتقموا من نيوبي بأن قتلوا أبناءها (قتل أبولو الأبناء وقتلت أرتميس البنات) وظللت جثثهم غير مدفونة لستة أيام ثم دفعتهم الآلهة، وعادت نيوبي إلى وطنها وظللت تبكي حتى تحولت إلى حجر حيث تبكي على خسارتها للأبد وهو ما تحدث عنه هوميروس في الإلياذة. المترجم

التي سبق له أن رآها منذ فترة طويلة في المتحف. كانت الجزمة خلف لوح زجاجي وكانت بالية ومية، بحيث إنه لم يكن معقولاً أنها كانت حية في يوم من الأيام وأنها كانت تفوح رائحة القدم والجلد، وأنهم كانوا يثرون الشوفان فيها بعد رحلة الصيد، وذلك لكي يتمتص الرطوبة ثم كانوا يحملونها لكي تتعرض للهواء وبعد ذلك يقومون بدهنها بالقطران. عندما سمع فيت صوت إطلاق الرصاص اقترب وألقى نظرة إلى الشارع، فقام المشرد الثاني - من قوات الدبابات بإلقاء جبل عليه من نافذة الطابق الذي فوق، ثم سحب العجوز إلى الأعلى وقدف به عبر نافذة أخرى تؤدي إلى الحديقة المخصبة بضوء المساء الساطع والموقع، مثل قرار حكم، بخط مزخرف بعناية، حيث قام الثالث من المتآمرين بتعليق جسد السيد فيت على غصن شجرة. حلَّ الظلام بسرعة. فانطلقت في قطار الضواحي إلى بلدة بودليكي، حيث كانت تعيش والدتك وشقيقتك، المعلمة التي كانت تعلم مادة الآداب. راحوا يعلنون في المحطة عبر مكبرات الصوت ويكررون أنَّ الحياة مجرد قوس مشدود، وأنَّ الموت - أشبه بطيران السهم المنطلق. وفي عربة قطار الضواحي التي كانت مليئة بالماء وبالهواء الفاسد وبرائحة العرق، راحت تشد الحقيقة إلى صدرك وتتخيل كيف أنَّ ماماً وشقيقتك تجلسان إلى المائدة، تشربان الشاي وتأكلان فطائر محسوسة بالعجبنة وهما تتابعان نشرة الأخبار - حيث كانوا يعرضون كيف أنَّ العائلة مع المختطفين في نازاران<sup>(1)</sup> انفجرت وتطايرت في الجو، وكيف أنَّ أشلاء الضحايا راحت تحلق وقد التقاطها التصوير السريع بمهارة كما لو أنها قطع من ثلج أحمر. كان كلَّ من في قطار الضواحي يقرأ قصصاً بوليسية. وهذا مفهوم. ففي السرد البوليسي يفترض أنَّ العالم كان يعيش في حالة من التناجم والهارمونيا الفطرية، وذلك قبل أن تُرتكب أول جريمة وقبل أن تظهر أول جثة. ومن ثم يحرى خرق لذلك التناجم وينجح المحقق في اكتشاف القاتل وفي إعادة النظام والانضباط إلى العالم. هذه هي وظيفة البطل الأدبي على مرِّ التاريخ. فهو محاط بالظلم من كلِّ الجهات، ومع ذلك يعرف بكلِّ وضوح أين الخير وأين الشر، وذلك لأنَّ

- 1 - مدينة كبيرة في جنوب روسيا - كانت عاصمة جمهورية إنغوشيتيا. المترجم

الخير يتصر دائمًا ولا يجوز الوقوع في الخطأ: في حال انتصر - هذا يعني أنه خير. والناس يقرؤون بصورة عامة لأنهم يخافون أن يتلمسوا الحياة مثل بعوضة - في الظلمة حيث لا يمكن رؤية أو سماع شيء. الأدب البولisi هو ذلك الرعب ذاته الموجود في الصحف، مع فارق واحد وهو أنه هنا يتنهى نهاية جيدة مع انتصار الخير والجمال. لأنه بكل بساطة لا يستطيع أن يتنهى بطريقة أخرى. ففي البداية تكون مشاعر القلق والاضطراب والفقدان، والدموع، وفي نهاية الأمر يصبح كل هذا من الماضي منسيًا. كما في الحكاية: اختطف وحش من الجحيم جزيرة وراح يتحكم بالبشر هناك الذين لم تكتمل الصورة عنهم ولم يتم توصيفهم بدرجة كافية. يقطع رؤوسهم. وهم مرعوبون ولكنهم يعيشون. لأنه لا بد للمرء أن يعيش بشكل ما. وهنا يظهر البطل الممتلىء بالشجاعة وبالحكمة الشرقية، ويوجه ركلة إلى خصيتي الوحش. وأما الجرائد - فمن الأفضل ألا يفتحها المرء نهائياً - إذ لا أخبار فيها، وإنما فيها نشرة عن الجرائم الفظيعة والقاسية بشكل خاص، التي تجعل الدم يتجمد في العروق، والتي تنفح في بوق الرأي العام: حسب آخر الاستطلاعات، يطالب الجميع من جديد باعتماد، أولاً، عقوبة الإعدام على جرائم اغتصاب بناتهم وأولادهم، وثانياً، اعتماد الشريعة لكي يتم قطع يد السارق - بحيث إنه إذا ما قرر أن يسرق مرة أخرى، لن يكون بإمكانه أن يتقطط ما يريد.

كانت تجلس إلى جانبك فتاة غير جميلة مع شعر ينمو في كل مكان عندها حيث لا يجب أن ينمو، وهي لا تستطيع أن تمضي الليل من دون غرام، وكانت تقرأ كتاباً حول الطائفة اليهودية «الصدوقين»<sup>(1)</sup>. قمت بإلقاء نظرة سريعة على الصفحة التي تقرأ فيها وقرأت بسرعة بضعة أسطر جاء فيها: كان الصدوقيون يؤكدون أنه لن يكون في المستقبل أي نعيم أبدى للمؤمنين، ولا نار خالدة لغير المؤمنين، كما كانوا ينكرون وجود الملائكة

1- الصدوقيون: حزب سياسي ديني نشأ ضمن المجتمع اليهودي وذكر في العهد الجديد؛ فمن المعروف أنه خلال القرن الأول قبل الميلاد ومن ثم خلال القرن الأول انقسم المجتمع الدينية اليهودي إلى عدد من الأحزاب والجماعات السياسية داخل المؤسسة الدينية، وقد كان أكبر حزبين هما الصدوقيون والفريسيون. وكان قيافاً عظيم الكهنة الذي حكم على يسوع صدوقياً. المترجم

والآرواح الشريرة، ويوم القيامة أيضًا. «هذا يعني أننا، في حقيقة الأمر، من الصدوقين» - قلت في نفسك وتنهدت. كان قطار الضواحي يقترب من بلدة بودليكي. لاح من خلال النافذة على تلة قرب سكة الحديد نصف كلب وقد قام أولاد بربطه إلى قضبان السكة. يمكن للراغب أن يذهب من المحطة إلى البلدة بواسطة الباص، ولكنك قررت أن تجتاز المسافة مشياً على الأقدام وأن تتنشق الهواء. عندما اقتربت من المبني المؤلف من خمسة طوابق أقيمت التحية على العجائز اللواتي كنَّ يجلسنَ على المقعد ورحت تقول في نفسك: يمكن أن يُقتل المرء ومع ذلك سوف يتابعنَ مناقشتهن لتفاصيل الدفن، كيف كان التابوت وهل راحت الأرملة تتربع بقوَّة أم لا. دخلت إلى المدخل وبدلًا من أن تصعد الدرج راكضًا، كما هي العادة، وذلك لكي تتحاشى الروائح المنبعثة من إحدى الزوايا، رحت تصعد الدرج ببطء وأنت تصيح السمع وتتلفت في العتمة وتخشخش بمسدس فارغ. وفجأة جمدت في مكانك. ففي الأعلى، على فسحة الدرج التالية، كان ثمة أشخاص واقفون هناك وقد راحوا يتهمسون، وعندما توقفت عن الصعود، انقطع الحديث. ثم قرع قفل باب يُفتح. وهنا أدركت أنهم إنما جاءوا بحثًا عنك، وبدأ عندئذ وصف الطبيعة. كان الوقت صباحاً صيفياً هادئاً. كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء الصافية، ولكن الحقول كانت ما تزال تلمع بالندى، كما راحت تفوح رطوبة عطرة من الوديان التي استيقظت للتو، وفي الغابة التي كانت رطبة وغير صاخبة بعد، راحت طلائع العصافير تغرد. وفي مياه السد راحت تجري حشرات طيارة على صور الغيم المنعكسة في الماء. وكان ثمة شجرة حور رجراج سقطت بفعل العاصفة، بلون السبوره السوداء. ومن حول يعسوب أحمرقه شعاع الشمس، تشكلت هالة زجاجية. وفي جذع شجرة بلوط كان يعيش قراد. وشجرة الدردار كانت قد أصبحت برونزية اللون. أما شجرة الصنوبر فقد كانت الريح قد مشطتها من متصرفها. الغابة، حسب دانتي - عبارة عن أشخاص آثمين تم تحويلهم إلى أشجار. والمرج الذي جفَّ راح يخشن تحت الأقدام. والأذان تصمُّها أصوات

الجناذب. كان النهر يجري زاحفًا وهو يسحب معه الطحالب من شعرها. لا يخطر على بال أحد أن يمنحك ألقاباً للسماء، على الرغم من أن هناك، كما في المحيطات، حالات مدهشة وبخاراً، منخفضات وحالات جزر. تبيّن أن صوت قرقعة القفل ليست سوى صوت ناتج عن رمي علبة بيرة معدنية فارغة. تجدد الحديث على فسحة السلم، وراح شخص ما يتبع حديثه عن كلبه الذي يمتلك عينين أشيبه بعيوني إنسان. وأن الكلب كان يفهم على صاحبه بالإشارة. بحيث خُلِّل له أن الكلب إنسان، ولكنه في جلد كلب وله قوائم كلب. ولكن بعد أن أصبح لديه جراء صغيرة، حدث تغير ما معه. وفي أحد الأيام عاد إلى البيت ليكتشف أن الكلب قام بقطع رؤوس الجراء. لا بد أن انقلاباً ما حدث في الطبيعة، إذ لم يكن معقولاً أن يحدث مثل ذلك، ولم يكن يجب أن يحصل مثل ذلك. كان مضطراً لأن يطلق النار عليه وأن يقتله.

«انقضت سلام» - تنهدت بارتياح وتابعت صعودك السلم. قمت بفتح الباب بمفتاحك وتراجعت للوراء أمام المشهد الذي ظهر أمامك وقد انتابك رعب وذهول. كما كشف التحقيق فيما بعد، لقد خرقت النوم الهدى لسكان الحي واعتباراً من الساعة الثالثة فجراً أصوات تقطع نيات القلب، يبدأ أن الجيران وقد أربعهم التوقيت الحاذق والإجرامي، حبسوا أنفاسهم ملتزمين الصمت. كان كل شيء في البيت مقلوباً أسفلاً أعلاه، كما كان الأثاث مكسراً ورمياً كيفرما كان. كانت على كرسي ماكينة حلقة مع شفرة ملطخة بالدماء. كما كانت هناك خصلتان - ثلاث خصلات من شعر أشيب طويل، تم انتزاعها غالباً من جذورها وملطخة أيضاً بالدماء، قد التصقت بشبكة الموقد. عشر على الأرضية على أربع قطع نقدية من فئة نابليون<sup>(1)</sup>، وعلى حلق يحتوي على حجر كريم من التوباز، وعلى كيسين يحتويان روبلات يوبيلية قديمة تعامل معها جميع الصرافات على أنها

---

-1- عملة ذهبية فرنسية من عيار 900 تعادل 20 فرنكاً وتحتوي من الذهب الخالص 5.801 غرام ذهب. وضعت قيد التداول في فرنسا من عام 1803 ولغاية 1914. وقد كان نابليون هو من اعتمد هذه العملة... المترجم

قطع نقدية من فئة خمسة فرنكات مع صورة لوليام تيل<sup>(١)</sup>. كما كان ثمة قطر ميز سعة 3 ليترات مكسور قرب النافذة يحتوي على فطر - وقد جفَّ وانكمش. ومن دون أن يكون ثمة أدنى أثر لشقيقتك ولوالدتك! وقد لاحظ أحدهم كمية كبيرة من الرماد في الموقد، فراحوا يفتشون بواسطة اللمس في المدخنة - ويا للهول! - سحبوا من هناك جثة الأخت: كانوا قد حشروا الجثة في أنبوب الموقد رأساً على عقب، ولمسافة عالية تماماً. كان الجسد ما يزال دافئاً. وكان الجلد، كما أظهرت المعاينة، ممزقاً في أكثر من مكان - وهذا دليل على نتيجة الجهود التي بذلت لكي يتم حشر الجثة في المدخنة، ومن ثم قاموا بسحبه من هناك. كان الوجه مليئاً بالخدوش والجروح، كما كانت على العنق كدمات زرقاء - بنفسجية وأثار عميقه لأظافر، كما لو أنهم قاموا بختن الضحية. والأكثر إثارة للانتباه هو أنهم اكتشفوا جثة شقيقتك في غرفة مغلقة من الداخل، وبحيث إن جميع المزاج على النوافذ كانت مغلقة. ومن جديد لغز الغرفة المغلقة! دعنا نرى كيف ستتجدد مخرجاً لنفسك من هذا الوضع.

بعد أن فتشوا المبنى بالكامل ومن أعلىه حتى أسفله، من دون أن يعثروا على شيء جديد، انطلق الجميع نحو الأسفل، إلى الفناء حيث كانت حفرة النفايات قد خمدت بعض الشيء، مصدرة في هذا الوقت الدافئ رائحة نتن، وهناك وجدت العجوز القتيلة - وقد أصابوها بالشفرة بمهارة كبيرة، بحيث إنه عندما حاولوا رفع جثة الضحية، انفصل الرأس عنها وسقط على الأرض. كان وجهها وجسدها مشوهين، خصوصاً الجسد، إذ لم يبق فيه ما يشبه جسد الأدمي. كان الجناء قد تركوا آثاراً لهم في كل مكان من الغرفة: فطائر محشوة

1- بطل شعبي سويسري وهو جزء من حكايات استقلال سويسرا عن الإمبراطورية النمساوية وتروي الحكايات أنه في عام 1307 وضع الحاكم النمساوي للمنطقة والمدعى غيسيلر قبته في متصف سوق البلدة وأمر الناس بالانحناء لها كرمز لطاعة الإمبراطورية، لكن تيل الذي كان فلاحاً مشهوراً بالرمادة رفض الانحناء فعاقبه غيسيلر بأن يرمي ابنه بهم ليصيب تفاحة فوق رأسه، فأخذ سهرين وأصاب التفاحة من الضربة الأولى وعندما سُئل عن سبب حمله سهرين قال انه سيصيب غيسيلر بالثاني لو أنه أخطأ ورمي ابنه بدلاً من التفاحة. المترجم

بالجنبة من دون أن تؤكل بالكامل، إذ يبدو كما لو أنَّ المجرمين أرادوا تجريبها فحسب، وهذا يعني أنهم تركوا العابهم عليها، وأعقاب سجائر عليها أثر لحمرة شفاه، وأعواد ثقاب محترقة في المنفحة، وكؤوس عليها بصمات أصابع، وأثار لفردة حداء يمنى قياس خمسة وأربعين، ما دفع للاعتقاد أن القتلة كانوا ذوي رجل واحدة، لكن لجنة التحقيق لم تتعثر على أية أدلة وذرائع، ولذلك راحوا يؤكدون في البيان الذي قاموا بتلاوته في المؤتمر الصحفي، أنَّ القاتل هو إنسان غابة (أورانج أوتان<sup>(١)</sup>) هائل ومتوهش وعنيف جداً، استطاع أن يدخل من النافذة التي أغلقت من تلقاء ذاتها عندما فرَّ الوحش عن طريقها. ولأنَّ وقت الغداء اقترب، وقد بدأت المعدة تترقق ونحن ما زلنا في البداية تماماً، أُسقطُ من حديثي، بهدف الاختصار، أنَّ التفاصيل في عمليات قتل البشر، التي لا نعرف عنها شيئاً محدداً، لا تسبِّب لا غمماً كبيراً ولا احتدام الغضب ولا الاحتجاج العنيف، ونحن جميعاً نحملن بأعيننا، ثم نتمدد في مزاجنا، وأتجاوز، أكرر مرة أخرى، الأحداث المأساوية للحقيقة، والرسالة المشفرة، والتؤمن المتشابهين مثل قطرتي ماء، والممرات السرية، والنافذة المكسورة من الخارج - طالما أنَّ ثمة شظايا في الداخل، والمكسورة من الداخل طالما أنه توجد شظايا في الخارج، وعلى الرغم من أن الكلب الذي نبح في غير أوانه، قد يدفع للتفكير بأنه يعرف القاتل، وأننتقل إلى اعترافاتك الختامية، إلى تلك المطاردة النهاية التي يبلغ فيها الموضوع المحبوك بطريقة ردئة، ذروته. رحت تركض وأنت تحمل الحقيقة التي تشكَّل سبب كل هذا الهرج والمرج، عبر الحقل، حيث ينمو نبات الحنطة الزهرية، والكتان الأزرق، ولكنك فقدت البوصلة هناك، ثم أدخلت بعض التعديلات في البروتوكول كما لو أنك تذكرت ذلك الطريق المغبر عبر حقل الفراولة - كان الجو عابقاً برائحة ثمار الفراولة بعد يوم حار. كانت خلفك مطاردة قاتلة - أجهزة حفظ الأمن، من جهة، ومن جهة أخرى - المافيا،

---

1- إنسان الغابة أو سعلاة أو سلاء أو أورانج أوتان والجمع سعالٍ (Orangutan) لأن وجهه تبدو عليه بعض التعبيرات البشرية كالتفكير مثلاً ويحرك شفتيه الرقيقين بأشكال مختلفة يعتقد أنها طريقة للاتصال. المترجم

بحيث إنك كنت تدرك أن الأمر سواء بالنسبة لك، وهنا يظهر أمامك نهر ممتلئ عند السطح بالأختila، وبالزمن في أعماقه. دخل جذمور في عمق الماء حتى الخصر وراح يلتقط فراشة الملفوف على المرفق الممدود. كان خلف الأجرة صبي يصطاد السمك. يرمي الصنارة وهو يشق الهواء بالنهاية المرنة لقصبة الصيد الطويلة. يقبل الطعام النهر، وتركض دوائر عبر الزمن. يسرج عليها السابع كرة بينغ - بونغ بطريقة رزينة وبطيئة. كان مسماً كيف راح ذئب يعوي في الأسفل باتجاه مجرى النهر، وكيف أنَّ عنزة راحت تشغله، كما يُسمَّع صرير مجداف. عند الشاطئ أدغال ممتلئة بالبعوض. وثمة عنكبوت يمتص الرطوبة في شبكته لأنَّه يستعد لاستقبال الخريف. لمسه بالإصبع فإذا به يزحف على طول الشبكة نحو الأعلى في الهواء. توقفت السحب الوقورة فوق النهر، وها هم سكان البيوت الريفية يحملون من حقل الملفوف أكياساً ممتلئة برؤوس الملفوف، وقد رضعوا مع حليب الأمهات: طالما أنهم لم يقيضوا علي - لا يمكن اتهامك بالسرقة. ثمة شخص ما صنع من السياج الخشبي غطاء للبيانو. وفي ظل ذلك الغطاء خرطوم مياه مختلف وثقيل لأنه يحتوي على الماء. وعلى الضفة الأخرى شخصان يجلسان على الرمل - لا يمكنك أن تميِّز من مسافة بعيدة ما الذي يجري هناك - قبلة أو تنفس اصطناعي، ولكن الوقت لا يسمح أبداً بالتفكير في ذلك، لأنَّ ثمة قوات خاصة تلاحقك، وقد بات مسماً كيف أنهم يصرخون: «الرب وحده يعرف إلى أين يقودنا، ونحن سنعرف ذلك في نهاية الطريق!». كما أنهم يهتفون بحناجر قوية: «ليس الغريب أنَّ الحياة تتنهى، وإنما الغريب هو أنها قد لا تبدأ أبداً الدهر!». نزعت حذاءك لكي تصبح السباحة أسهل عليك، ثم أزلتَ رجلك في المياه المعتمة، وإذا بها تغوص على الفور حتى الركبة. انزلقت جذور تحت العقب وراحت فقاعات تفجر، وفاحت رائحة عفونة. ثم أزلت الساق الثانية - فتارجحت على شكل دوائر وقفزت كرة بيضاء وقد سبحت حتى بلغت مكانك. ثم راحت تسبح، ولكن الشاطئ الذي بدا لك قريباً جداً، بدا كأنه راح يلعب معك لعبة المطاردة. سبحت مطولاً، من غير أن تبلغه مع أنه ظل يبدو قريباً. بدأت قواك تلاشى، ذلك لأنك كنت مضطراً

لأن تجذف بيد واحدة، في حين راحت الحقيقة تسحبك نحو القاع. رحت تتخطط وبلغت بعض الماء، ومن ثم انغلق فوقك سقف مائي. عندما فتحت عينيك رأيت جداراً أصفر مع بعض الطحالب وقرص الشمس من خلال عكر شعاعي. رحت تناضل إلى أن شعرت فجأة بسهولة غير معقوله. أصبحت خالياً من الهم ومبتهجاً. وفجأة ومضت فكرة في رأسك: «لماذا كافحْ طالما أنَّ الأمر على هذه الدرجة من السهولة والمتعة!». أنقذك الكابتن نيمو Nemo<sup>(1)</sup> الذي كان يبحر في غواصته «ناوتيلوس» وأوصلك إلى الشاطئ في بلدة رومانزهورن. وهناك اشتريت هذه التذكرة وركبت القطار المتوجه إلى كروزيزلينغن. وقد تدبرت أمرك وجلست إلى النافذة بحيث إنك كنت تشاهد بحيرة بودنسى<sup>(2)</sup>، ثم تحققت من المال الذي تحمله في محفظة نقودك، وإذا بك تشاهد الرسم الذي يعود لابنك، نفس تلك الشخصية التي كان قد رسمها بمناسبة عيد ميلادك، ومنذ ذلك العhin وأنت تحمل قطعة الورق تلك معك، ثم لاحت عبر النافذة أشجار عارية مائلة إلى جهة اليمين، مثل الأحرف التي كتبتها يدُّ أنثوية، وعندئذ عرفت أنَّ زوجتك كتبت لك رسالة وأنها تحبك وتنتظرك. ثم غفت وبعد ذلك حان وقت خروجك من القطار، فأسرعت وقفزت إلى الرصيف، ولكنك انتبهت إلى أنك نسيت الحقيقة ومعها جميع الأوراق الثبوتية التي ثبتت شخصيتك، بيدَ أنَّ الوقت كان قد فات، لأنَّ القطار غادر المحطة. أليس كذلك؟

جواب: بلـى. يبدو أنَّ الأمر كان كذلك. لا أعرف. لعلني أخطأـت في أمر ما. أرجو أن تغذرني، لأنـي مضطربـ.

- القبطان نيمو أو الكابتن نيمو (Captain Nemo) وتعني «لا أحد»، ويعرف أيضاً باسم أمير دكار. شخصية خيالية ابتكرها الفرنسي مؤلف الخيال العلمي جول فيرن 1828-1905 وقد ظهرت هذه الشخصية في روايتين من روايات فيرن، عشرون ألف فرسخ تحت الماء (1870) والجزيرة الغامضة (1874) ويعتبر نيمو بطلاً مخالفـاً للعرف في الخيال، فهو شخصية غامضةـ، ابن لمهراجـا هنـديـ، عالم عـقـريـ يطـوفـ في أعماقـ الـبـحـرـ في غواصـتهـ (نوـتـيلـوسـ)ـ التيـ بنـيـتـ بـقطـعـ منـ جـمـيعـ أـنـحـاءـ العـالـمـ.
- بحيرة كونستانس أو بحيرة بودنسى (Bodensee) بـحـيـرةـ تـرـتفـعـ 395ـ مـتـراـ فوقـ مـسـطـحـ الـبـحـرـ وـقـعـ فـيـ ثـلـاثـةـ دـوـلـ أـلـمـانـياـ وـسوـيـسـراـ وـالـنـمـسـاـ..ـ المـتـرـجمـ

سؤال: أهداً من فضلك. لقد أصبح كل شيء من الماضي. هل تريد أن تشرب ماء؟ أنا أدرك أنك في حالة صعبة.

جواب: شكرًا! كلمة صدق، لقد حاولت أن أخبركم كل شيء، ولكن انظر ما الذي حصل.

سؤال: لا بأس. كل واحد يروي كما يستطيع.

جواب: أنا لم أخترع شيئاً. لقد أخبرتكم ما كان. هل تصدقني؟

سؤال: وما أهمية أن أصدق أو لا أصدق.

جواب: ربما، خيل لك كما لو أن ذلك كان مختلفاً بشكل مبالغ به، ربما بخصوص الموقف أو بشأن الغيوم ورؤوس الملفوف المسروقة، يبدأ أن الأمر كان تماماً كما أخبرتك، ولماذا يجب عليّ أن أخترع كل هذه الأمور؟

سؤال: لا داعي لأن تقلق كثيراً! هنا يرونون لنا قصصاً أكثر غرابة من هذه بكثير. كل شيء على ما يرام. وما يشبه الحكاية البوليسية هو أنك نفسك قلت - ببساطة أريد أن يتتهي كل شيء نهاية سعيدة. هنا يكمن لب المسألة بالكامل.

جواب: نعم، هذا هو جوهر المسألة بأكملها. بالضبط. أتمنى كثيراً أن يتتهي كل شيء على أحسن ما يكون. أخبرني، هل سيكون كل شيء على ما يرام؟

سؤال: اسمع، ها أنت رجل ناضج. بدأ الشيب يغزو الفودين. لديك خبرة في الحياة. هل يعقل أنك لا تدرك، أن ما أخبرتنا به لا يشكل أدنى أهمية من أجل اتخاذ قرار نهائي؟

جواب: كيف هذا غير مهم؟ لماذا؟ وما هو المهم عندئذ؟

سؤال: ليس مهمًا، ونقطة على السطر. ما أهمية أن يكون أحد ما سرق الملفوف من الحقل وأين اختفت الحقيقة. اختفت ولتحتفظ. إذ إنك لا تؤمن في حقيقة الأمر في قصة ذكر البط، وفي الأرنب، وبشأن دبوس صدئ؟

جواب: كلا، بالطبع.

سؤال: ها أنت ترى.

جواب: ولكن ما هو المهم، إذا؟

سؤال: قل لي، وهل هي حقيقة تلك الشخبطة والأشجار المائلة مثل خط منحرف؟

جواب: بلى.

سؤال: هل تجدها؟

جواب: وهل هذا ضروري للبروتوكول؟

سؤال: كم أنتم، أيها الناس، سذج، مع ذلك! يأتون وهم يظنون أنهم حاجة ماسة للآخرين. ولذلك يتغفون، ويحتشدون بحيث إنك لا تستطيع أن تستجوب الجميع. ومن ذا الذي بحاجة إليكم؟ والأهم، يؤمنون بعض الحماقات. واحد منكم، حتى أنه يشبهك في جانب ما، أشيب تماماً، ومرهق، ومتسرع، مع عينين بريئهما، وتدمعن طوال الوقت، راح يؤكّد أنهقرأ في مكان ما، في صحيفة معينة، كما لو أننا جميعاً سبق أن عشنا فيحقيقة الأمر ثم متنا بعد ذلك. وأنهم يقومون بيعثنا في نفس يوم الحساب ذلك، ولذلك ينبغي علينا أن نحكى كيف عشنا في الماضي. أي أنّ حياتنا هي تلك الحكاية ذاتها، لأنّه لا يجب أن نقص كلّ شيء بالتفصيل فحسب، بل وأن نعرض بحيث يكون الأمر واضحاً ومفهوماً - لأنّ مهمّ كلّ تفصيل، يقع في جعبتنا، وكلّ كلمة التهمتها الريح وكلّ لحظة صمت. كما لو أنّ الأمر إعادة تمثيل يتم خلالها تكرار الأحداث السابقة بالتسلسل: أنا كنت واقفاً هنا، في المطبخ، قرب النافذة التي امتلأّت بالندى المثلج، ورحت أنظر من خلال فتحة كيف أنّ أحداً في الفناء راح يزيل الثلج الذي هطل أثناء الليل على سيارته بواسطة مجرفة بلاستيكية صفراء مخصصة للقمامة، خرجت هي من الحمام ملتفة بالبرنس، وقد غطّت شعرها المبلل بمنشفة، ثم قامت بتشغيل السhower، نزعـت المنشفة وراحت تجفّف شعرها وتفرق بين خصلاتها بأصابعها، وسألتها: «هل تريدين أن تلدي طفلاً مني؟». أعادت السؤال: «ماذا؟ فأنا لم أسمع شيئاً!». ومن المفترض أن أوضح كيف كنت واقفاً قرب النافذة وأحسّ بملمس الزجاج على جلدي، وأنا أسمع صوت السhower وأرى شعرها المبلل والمتشابك، الذي كانت أصابعها تخترقه،

وأن تخيل تلك المجرفة الصغيرة الصفراء مرمية على الثلوج. ما من أحد مستعجل في تلك المحاكمة، لأنه يجب التدقيق في كل شيء بتأنٍ، ولذلك يجب تقديم المساء بأكمله، والحياة - الحياة بأكملها أيضاً. وهكذا يعيدون كل ما حدث على مهل، من دون عجلة: سحب الفزع<sup>(١)</sup> اليوم، وغداً سجناً ركامية مكفهرة. والروائح، والأصوات - بدقة تامة. وتعرض كيف أنك وجدت في صحن العصيدة حجراً صغيراً وانكسرت السن - ها هي، شظية صفراء اللون منها. أو كيف أنك حددت عن طريق القيء الذي حدث لك على أرضية متوا الأتفاق، أن الرجل كان قد تناول المعكرونة الشخينة - تفوح بتلك الرائحة. كيف أنك أغترمت بينما كنت نائماً، وكيف أنك استيقظت بعد حلول الظلام سعيداً - ها، هل تسمع كيف أن عامل التنظيفات في الفناء يكشط الأسفلت؟

جواب: ولكن هذا يحدث في الفناء، انظر إلى ذلك الزنجي الذي تجمد من البرد وهو يزيل الثلوج برفش معدني ويجمعه في كثيب! وهناك أطفال زنوج يلعبون بكرات الثلوج!

سؤال: وهذا إنه عن نفس الموضوع، كما لو أن كل شيء حقيقي وواقعي، بما في ذلك الأصوات. باختصار، نفس الحكاية في كل مكان من حولك. بحيث يستحيل إخفاء أي شيء. هكذا أنا ولدتُ، وهكذا أنا أمضيت وعشت سنوات حياتي، وهكذا توفيتُ. بيد أن هذا مجرد هراء، لأن الأمر لم يكن على هذا النحو البطة. لا يجوز أن يكون المرء ساذجاً إلى هذه الدرجة لكي يعتقد أن ثمة من سيوافق أن يصغي لقصتك طيلة حياته! بالمناسبة، سامحني، فقد اختلط الأمر علىَّ، ورحتُ أتكلم عن أمر آخر تماماً.

جواب: هل هذا يعني أنَّ الأمر لن ينجح؟

سؤال: لا بدَّ أنك تعرف في قرارتك نفسك: من الأسهل على الجمل أن يمر من خلال ثقب إبرة.

جواب: هل هذا كل شيء؟ هل يجب عليَّ أن أرحل؟

---

1 - سحب بيضاء تكون على ارتفاع عال جداً - المترجم

سؤال: ومع ذلك، انتظر! اجلس.

جواب: وهأنذا ألاحظ أنّ عملك ممتع. كما لو أنك محقق تماماً. ماذا، أين، وإلى أين، لماذا ومن أجل ماذا. هات، ثم ضع هنا. سواء رغبت أو لم ترغب، يجب عليك أن تلتفق القضية.

سؤال: فقط لو كان ثمة ما يمكن أن نلفقه على أساسه. لدى المحقق جثة، وفاس، وأدلة، ومواجهة قضائية، واعترافات. بحيث لا تستطيع أن تعرف حتى اللحظة الأخيرة، من ذا الذي رمى في حوض السباح أسماكاً مسمومة. لغز! سرّ! أما هنا فأين اللغز؟

جواب: كيف - أين اللغز؟ ونحن؟ نحن الذين كنا نعيش بطريقة ما من قبل، وقد جئنا الآن؟ نحن - ألسنا لغزاً؟

سؤال: يكمن اللغز فقط في أنكم أبصراً تم النور في هذا العالم. الجميع يدهشون للحigel بلا دنس، ولا يؤمن أحد به، في حين أن الحمل الدنس لا يثير دهشة أحد. وأما السر فهو: لقد سبق أن حدث كل شيء، قبل أن ترى أنت النور،وها أنت هنا. ومن ثم لن يكون لك وجود مرة أخرى. أما الباقي معروف.

جواب: ما هو المعروف؟

سؤال: كل شيء. ما كان وما سوف يكون.

جواب: ولكنه معروف لمن؟

سؤال: كيف يمكنني أن أشرح لك ذلك... تصور، أنه تم دعوتك إلى جزيرة زنجية. فتشعر بفرح عارم. تتوقع شيئاً ما جميلاً وحسناً، وإنما لماذا قاموا بدعوتك بشكل عام. تسافر وأنت تحلم بالغرام. ولدى مرافقتك العابرة قرب النافذة المقابلة جلد بلون ثمرة الغيراء غير الناضجة في شهر تموز، بيد أنه من غير اللائق التدقّيق فيها مباشرة، ولذلك تشيح بعينيك وتتركز نظرك طوال الوقت عبر النافذة، حيث ترى أن السماء المسائية هي الأخرى تشتعل بلون ثمرة الغيراء غير الناضجة - إنه الغروب يسعى لكي يجعل لونه أقرب إلى لون جلدتها. بعد ذلك، على الشاطئ هذه المرة، يبدو البحر مزبداً، والهواء مكتظاً بصياح النوارس. وعند شط البحر تماماً تجري طيور الذُّغرة وهي تتهادى. تفوح رائحة الطمي البحري المتجمع عند الشاطئ.

ثمة مرسى صغير. تتلاطم الأمواج عند قاعدته، وتصيبك بطرابيش أشبه بحبات العنبر. تجلس النوارس على قضبان الحديد. تطير الرياح الطيور، فيرتفع واحد منها للحظة ثم يعود ويستقر في مكانه - وتصاصي النوارس بحزن. يتحد البحر مع السماء، كما لو أنهما زجاج متعرّق، ومن ثم يلوح الأفق من جديد بغتة، كما لو أنه تم رسمه بقلم رصاص بواسطة مسطرة. وهكذا تصل، وتتجد في غرفتك قصيدة شعرية<sup>(١)</sup> للتسلية معلقة على الحائط. حيث كل شيء مكتوب فيها يدور حول أولئك الأطفال الذين يلعبون بكرات الثلج حولك. ولأنك زنجي سوف تذهب للسباحة في البحر، حيث ستغرق وسيقوم بإيقاظك الكابتن نيمو. بعد ذلك يحملك إلى حجرة الرُّبَّان، حيث سيسمح لك بأن تدور جميع المقابض والعجلات، وأن تضغط على الدراع والمزاج والصممات والأزرار، وسوف يشرح لك أهمية وفائدة كل منها، كما سيضع على رأسك المجمعد قبعة الخاصة بالكابتن التي تعبق بالعرق وبماء البحر. هل تفهم عمّا أتحدث؟

جواب: لست صغيراً. لب المسألة في لعبة «العد». ولكنني فهمت ذلك فيما بعد. وأما في البداية فلم أكن أعرف.

سؤال: وبعد ذلك: جميع القصص تم سردها مئات المرات. في حين أنك تقول - إن تلك هي قصتك.

جواب: وأية قصة عندي في هذه الحالة؟

سؤال: أية واحدة ت يريد. دائمًا تنفع القصة البسيطة، العاطفية والرقيقة إلى درجة السذاجة، من صنف كيف كانت أميرة ومن ثم أصبحت سندريلا.

جواب: هل أصبحت سندريلا؟

سؤال: هذا مجرد صورة. استعارة!

جواب: كان يجب أن تقول لي ذلك منذ البداية، وإلا ما معنى أن أتحول إلى سندريلا ما.

---

- 1- في النص الأصلي حرفياً - نوع من العد - وهي جنس من الفلكلور المخصص للأطفال...  
عادة نصوص شعرية ذات بنية إيقاعية معينة للتسلية.. المترجم

سؤال: حسناً، لا ت يريد أن تكون سندريلا، هيا اختُر شيئاً ما آخر. ليكن، مثلاً، خدعة بسيطة تعمل على زيادة التوتر وحدّة الوضع - من نمط واحد ضد الجميع، أو واحد جيد وسط حشد سيئ. نوعاً ما فارس متوجول في مترو الأنفاق، ومناضل في سبيل العدالة، ومدافع عن المظلومين، ومعزّي اليتامي وبدرجة أكبر الأراميل، علماً أنه بحدّ ذاته مطارد ويتعاني بسبب أخطاء وأثام الآخرين. سرد رخيص، لكنه يترك أثراً جيّداً على الدوام وله نتائج طيبة: لا بدّ أن يتعاطف الناس مع مثل هكذا خير محمول على القوة وأن يتمّنوا له النصر.

جواب: أي فارس أنا، لا بدّ أنك تمزح ...

سؤال: وماذا في ذلك؟ إذ إنك كنت تحلم منذ الطفولة بأن تصبح باحثاً عن الحق لا يهاب شيئاً في سبيل ذلك! أردت أن تكبر وأن تصبح محققاً، وأن تصادر عند السياح تلك الثروة التي كسبوها بطريقة غير شريفة، مع العلم أنه ما من أحد جنى ثروة مشروعةً وبطريقة نظيفة حتى الآن، وأن تقدم ذلك كلّه إلى دار للأطفال. أو أن تكون مثل الكابتن نيمو الذي يقود غواصته بقصد الاقتحام وأن تغرق الأشرار وتقوم بإنقاذ الناس الطيبين.

جواب: لم أعد أذكر. ولكنني، كنت أحلم.

سؤال: بيد أنك تتذكرة كيف أنك جلست قرب حفرة ما، أو إلى جانب مقلع حجارة، أو وادٍ، وإذ يصرخ طفل هناك فجأة. اندفعت إلى هناك - واكتشفت أنه كان مواء قطة.

جواب: نعم، كنا نجلس أنا وبضعة فتيان بالقرب من موقد حطب. حيث كان هناك مكب نفايات كبير. إذ كانوا يجلبونها من جميع أنحاء المدينة. تلتقط أسطوانة قديمة وتتقذف بها في الهواء. أو تأخذ قطعاً من أكياس مطاطية لتسخين الماء - كنا نصنع من المطاط مقلاعاً رائعاً. أما اللumbas المحترقة فكانت تنفجر مثل قنابل يدوية. وهكذا إذن، كنا نجلس بقرب الموقد، وقد راح الكبار في العمر يرونون عن سجن الأحداث. وأن الدخول إلى هناك كان رهيباً، ورحنا نصغي عمّا يجوز وعمّا لا يجوز هناك. على سبيل المثال، في حال لم يكن لديك في المعزل سجائر لتدخنها، ومع ذلك تشتهي بقوه، ما العمل؟ كانوا يكشطون القشرة من قضبان البتولا في المكنسة ثم يجففونها.

ولكي يشعلوها - لم تكن معهم أعدوا ثقاب - كانوا يأخذون القطن من الفرشة أو الوسادة، ثم يضعونه على اللمة ويتظرون حتى يبدأ بالاحتراق. بيد أنَّ هذا على سبيل الدعاية، أشياء عادية، في حين أنَّ الرهيب، كما ذكر، كان سماع قصة «نظام الإقامة». يدور الحديث حول عملية ضربك بمنشفة مبللة بعد أن توضع في داخلها أحجار الدومينو. من دون أن يكون مسموحاً لك أن تصرخ. ومن ثم الاختبار الرئيس، كنوع من اللعب: مَنْ تَرِيدُ أَنْ تَصْبِحْ؟ يجب أن تختار: طياراً أو سائق دبابة. إذا اخترت أن تكون طياراً، اصعد إلى أعلى واقفز، طر ورأسك نحو الأسفل: فقد قلت إنك تريدين أن تصبح طياراً. ولا مفر. لقد قلت - طيار، هذا يعني أنه ينبغي عليك أن تتحمل مسؤولية خيالك. ما من أحد هناك يرمي الكلام على عواهنه. هل تريدين أن تكون سائق دبابة؟ عندئذ يجب أن تركض بكامل قوتك وأن تنطع الباب الحديدي برأسك. ولا يمكنك أن تراجع عن كلمتك. عندئذ يقومون بتخفيض منزلتك على الفور. أما إذا حميت وركضت - فهذا يعني أنك من جماعتهم، ويمكنهم في آخر ثانية أن يضعوا وسادة أمام رأسك. وبينما يجتاز كل ذلك، من دون أن تخاف، وأن تجري وأن تنطع برأسك الباب الحديدي.

سؤال: هل كنت في أفغانستان؟

جواب: لماذا تعتقد ذلك؟

سؤال: عن طريق الاستدلال. على طريقة شرلوك هولمز. يأتي إليه الدكتور واطسون، وإذا بشرلوك هولمز يخمن على الفور أنَّ الدكتور قد جاء للتو من عند الأفغان. يمكن للإنسان الذي يفكّر بشكل منطقي أن يتوصل من خلال قطرة ماء واحدة إلى نتيجة تشير إلى احتمال وجود المحيط الأطلسي أو شلالات نياغارا، حتى ولو أنه لم يرَ لا هذا ولا تلك، ولم يسمع بها في حياته. وقد كان ذلك واضحاً للعيان - من خلال أظافر الدكتور، وأكمامه، من خلال حذائه وطيات بنطلونه عند الركبتين، ومن خلال العقد الشixinة على الإصبع الكبير والسبابة، فضلاً عن تعبير الوجه و نهايات كمّي القميص. كما أنه كان مصاباً بجرح في يده اليسرى بواسطة سلاح قديم يعود إلى ما قبل الطوفان. حيث قام الحفيد بحشوته، ثم قاد الجدَّ بإطلاق النار منه. كل

هذا في متنها البساطة. إنها بكل بساطة قوانين الجنس الأدبي. الأفغان في البداية، ومن ثم أيام قاسية جداً للحياة السلم: محاربة الشر، ومكافحة الظلم والفساد. تم إدانته بشكل غير عادل. ومن ثم تورّط، استسلم وأخيراً أصبح قاتلاً مأجوراً. جيل ضائع، «أولاد» ثقيلون. أبطال وضحايا حروب الآخرين. تقول لهم: كيف ذلك، أنا من المحاربين القدامى، لقد ضحيت بدمي! وأمّا هم فقد أجابوا: لم نكن نحن الذين أرسلناك إلى هناك.

جواب: وما علاقة كل ذلك؟

سؤال: ثمة علاقة مباشرة، لأنك أنت بنفسك قلت أنَّ كُلَّ شيء مهم، كُلَّ كلمة. كل كلمة، إنه نفس ذلك الجمل. هل تذكر عندما كانوا ينقلونكم في قطار - طالت رحلة القافلة العسكرية، في جوٌّ حار، وعندما رأيت أول جمل، تذكرة والدك فجأة. كان يعمل سائق قطار وقد روى لك كيف أنه ذات يوم في الصباح الباكر، بينما كان يقود القطار عبر السهوب في آسيا الوسطى، شاهد أمامه على سكة الحديد مباشرة مجموعة من الجمال، التي كانت تلحس الندى عن قضبان السكة. راح والدك يزمر فانطلقت متفرقة، في حين أنَّ أحد الجمال لم يركض إلى أحد الجانيين وإنما على السكة مباشرة، هاربًا من القطار. لم يكن ممكناً إيقاف القطار، ما اضطر والدك لأن يصدم الجمل. هل تذكر؟

جواب: نعم، ولكن من أين لك أن تعرف ذلك؟

سؤال: من أين، من أين - من الجمل<sup>(1)</sup>. نفس ذاك الجمل. لم يستطع أن يعبر من خلال ثقب إبرة، لذلك راح يفترُّ من والدك على سكة الحديد.

جواب: لكن هذا لا يخصك. لا والدي. ولا ذلك الجمل.

سؤال: لا داعي - طالما أنك لا تريدين. لا - إذا، لا. لا معنى للجدال. وحده الله هو الذي يحكم. يجدر بك أن تلاحظ بنفسك أنه ما من أحد غيري في العالم كله وفي كامل هذه العتمة، يمكنه أن يكتثر بوالدك أو بذلك الجمل. هيَا تابع، سوف تروي بنفسك هذه المرة عن النخب الثالث.

جواب: وما علاقة النخب الثالث هنا؟

---

- 1- العبارة هنا في اللغة الروسية نوع من السجع «أنكودا، أنكودا - أوت فير بلودا»، وهي شائعة كجواب عندما يكون السؤال غبياً. فاقتضى التنويه. المترجم

سؤال: وكيف لا، نخب الشهداء. هيا أخبرني كيف أنه حين كتمت على وشك أن تشربوا النخب الثالث عن أرواح الشهداء، دوى إطلاق رصاص. نظرت من خلال جهاز الرؤية الليلية،لتعرف من ذا الذي يطلق النار هناك، وإذ به نفس ذلك الجد مع حفيده الذي كان قد جلب لكم بطيخة في الصباح، فقمت بإعطائه كمية كبيرة من المعلبات - العجوز يطلق النار، والحفيد يلقم - نفس ذلك السلاح الذي جرح بواسطته الدكتور واطسون. بيد أنكم أبطال وضحايا هناك فقط، في دياركم، وأما هنا - فأنتم محتلون وقتلة. وال الحرب ليست حرب الآخرين، وإنما حربكم.

جواب: هذا ليس صحيحاً. لم يكن هناك أي شيء خاص بي. في البداية، عندما وصلنا كان الوقت شتاء، من دون ثلج تماماً، وكانت الرياح تخترق عظامنا، بحيث إننا شعرنا ببرد شديد على الرغم من أنها كانت نلبس سترات محسنة بالقطن - في حين أنهم كانوا يسيرون حفاةً. كانت تلك المرة الأولى التي أرى كيف يبيعون الحطب بالكيلوغرام. يزنون، ويتشاتمون. أما البيوت في الكيشلاك<sup>(1)</sup> فكانت مصنوعة بالكامل من الرمل تقريباً. فلا حون في سراويل ممزقة، من دون نساء نهائياً، يجلسون القرفصاء بالقرب من الدكاين، بحيث لا يستطيع المرء أن يعرف ما إذا كانوا متسللين أم أصحاب تلك الحوانين. كانت رفوف الدكاين مزدحمة بمختلف السلع والبضائع: مسجلات أشرطة يابانية، وتلفزيونات، وساعات من مختلف الماركات، وعطور فرنسية. ولم يكن ثمة في البداية أي عداء خاص. ببساطة كل شيء غريب. أتذكر أنني شعرت بعدم الارتياح عندما شاهدنا الفلاح يقوم بالحراثة على الشيران، وقد راحت آلة تسجيل تتأرجح معلقة على قرون الثور، حيث يغنى الصوت شيئاً ما حزيناً. ومن ثم تدرك أن الأمر ليس على هذا النحو تماماً: أن الفتى - ليسوا فتياناً، وأن الفلاحين - ليسوا مجرد فلاحين. تركض مجموعة من الأولاد خلف ناقلة جند: «شورافي»<sup>(2)</sup>، اعطانا

-1- الكيشلاك - اسم القرية في بلدان آسيا الوسطى..

-2- شورافي - المقصود - سوفياتي، من الكلمة العربية - شوري = مجلس شوري. وقد أطلق هذا الاسم على المواطنين السوفيات في أفغانستان. ويعود ظهور التسمية إلى عشرنيات القرن العشرين مع تأسيس جمهورية بخارى السوفياتية. ومن ثم ترسخ في الخمسينيات مع وجود عدد كبير من الخبراء السوفيات في أفغانستان.المترجم

بخسيش!». في البداية كنا نرمي لهم علبة من اللحم (خنة) أو الحليب المكثف. بعد ذلك شاهدتُ أول شخص ميتاً: كان عمر الصبي 12 سنة، وعلى بندقيته الآلية تسعة تجاويف أو أنلام - هذا يعني أنه قام بقتل تسعة من جنودنا. وهكذا بدأ كل شيء، بعد أن راح رفاقي الذين أصبحوا أصدقاء لي، يقتلون. ظهرت لدى رغبة بالانتقام. كنت أريد أن أثأر بشكل خاص لجنودنا الذين وقعوا في الأسر، وبسبب معاملتهم لهم. كما أصبحت أخاف أن أصبح أنا نفسي أسيراً. في حين أنّ وجهه أسراهم كانت تبدو فرحة لأنهم سوف يلفظون أنفاسهم عمّا قريب. وأنا أتذكر أول أسير منهم بشكل جيد - يجلس، متسبحاً وجريحاً، يداه مكبلتان خلف ظهره بشريط شائك، ومن دون أن يشعر بأدنى خوف على الإطلاق. بل كان بكامل كينونته مستسلماً لقدرها. انفصالت تمام عن الواقع واستكانة. كان ذلك يترك أثراً ضاغطاً علينا. ولذلك كنا نفقد أعصابنا. تارة يركله أحدنا ببوطه وتارة يضربه آخر بأخصب البندقية، وهذا فعلٌ مُعدٌ - كان ينتقل إلى الآخرين. ثم لاحظنا أنهم لا يموتون بهدوء وبجدارة إلا بالرصاص، في حين أنهم يخافون إلى أقصى درجة أن يموت الواحد منهم من دون أن ينزف دمًا - لأنّ يموت غريقاً أو مخنوقاً أو مشنقاً. ولذلك كنا نقوم بوضعهم تحت العجلات أو بإغراقهم، أي ما كانوا يخافون منه بالتحديد. عندئذ بدأوا يعوون ويصرخون بكلام ما وهم يحاولون أن يفكوا قيودهم. وهذا كان يزيد من استفزازنا. لذلك كنا نقتل أياديهم ونجلسهم بطريقة «الستونو» - حيث نقوم بربط الواحد منهم بالعقل من ناحية الظهر بطريقة لا تسمح له بأن يحرك يده ورجله. وهكذا تعيش في حالة توتر دائم، بحيث إنك تشعر بالحاجة للاسترخاء. عندما لم نكن نقوم بعمليات قتالية، كنا نعيش ضمن وحدات module مؤقتة، وقد كانت الوحدة المجاورة بحاجة لأن تقوم كل يوم بمزحة ما. ففي إحدى المرات قمنا بطلبي السقف عندهم بالحليب المحلّى - وهناك أعداد لا حصر لها من الذباب... أمّا هم فقاموا بتعليق علبة مخصصة للغسيل على الباب فوق رؤوسنا - تفتح الباب ويسقط كل شيء عليك. أو اختبار رد الفعل: نلؤن قنبلة معدّة للدروس التعليمية باللون الأخضر ثم نرميها في غرفة يقطن فيها آخرون - نختبر ردود أفعالهم. أمر مثير للضحك وظريف جداً. هذا يختبيء تحت الشرشف، وآخر

خلف جريدة. لا يمكن هناك العيش من دون نكات. لأنهم يقومون بإيقاظك ليلاً ومن ثم تذهب من دون أن تعرف وجهتك. ففي إحدى المرات أقمنا حاجزاً في أحد الوديان، ورحا ننتظر. وإذا بقافلة حمير محمّلة بالتمر. رحنا نطلق علها الرصاص. تبيّن أنهم فلاحون من الكيشلاك كانوا يحملون تفاحهم إلى البazar. على الرغم من أنه تم تحذيرهم بحظر التجول في هذا الوقت، قرروا أن يذهبوا إلى البazar في وقت مبكر. وعندما اقتربنا ورأينا التفاح الناضج اللذيد والرائع، متشرّأ على الأرض، شعرنا بالأسف لحدوث مثل هكذا خطأ، وأنه تم قتل أناس مسالمين. لذلك لم يمدّ أي واحد منا يده ليلتقط ولو تفاحة واحدة. لم يلتقط أحد حتى تفاحة واحدة. وقد بقي التفاح مرميّاً هناك.

سؤال: لقد تهراً ذلك التفاح منذ زمن طويل، ولم يبق منه شيءٌ نهائياً!

جواب: أعرف ذلك. إنه ذلك التفاح هو الذي اهترأ، أما هنا فهو ملقى على الحجارة، وهو يشع من الداخل تماماً.

سؤال: أين هنا؟

جواب: لقد سبق أن قلت أنت بنفسك إننا وصلنا إلى الجزيرة الزنجية<sup>(١)</sup>. هناك، حيث لا وجود لنا، يكون للأشياء شكل ما، أما هنا - فللأشياء جوهر وماهية فحسب. لا بد أنني فهمت قصدك بشكل صحيح؟ هناك، في ذلك الوادي الجبلي، تهراً التفاح وتعفن، أما هنا، على هذه الجزيرة، فلا يمكن للتفاح أن يتعرّض. لن يحدث للتفاح هنا أي مكروه. ولذلك سوف يبقى التفاح مرميّاً في مكانه.

سؤال: كما أنت فهمت أنَّ الخير والشر - عبارة عن مستذئب. أليس كذلك؟

جواب: كلا. وكلا مرة أخرى. لم أفهم شيئاً من هذا القبيل حينذاك. فهمت فقط أن ثمة من يقودني ومن بإمكانه أن يقذني، على شاكلة الفأل أو الطلسman. كان شائعاً ذات يوم تقليد أن تقوم بارتداء ملابس داخلية نظيفة قبل المعركة، أما الآن فعلى العكس: لا يجوز الاغتسال أو حلقة

---

1- في إشارة إلى واحدة من أشهر روايات أغاثا كريستي... والتي تم نشرها أيضاً تحت عنوان «عشرة زنوج صغار».. المترجم

الذقن قبل المعارك، ولا تبديل الملابس الداخلية - وإنّا فسوف تُقتل. هناك بعض القيود والموانع التي تحديد ما الذي يمنع القيام به لكي يتمكن المرء من خداع الموت. لأنّ تعقد اتفاقاً معه: لن أفعل كذا وكذا، وأنت بدورك لا تلمسني اليوم ولا تقترب مني. إذا ما راح الجريح الذي يعاني من اضطراب وتشوّش في الوعي، يلمس ما بين فخذيه، فهذا يعني أنه سوف يموت. لا يجوز القيام بذلك بتاتاً. لذلك يجبربط يديه بطريقة تمنعه من لمس تلك المنطقة. كما لا يجوز ارتداء ثياب الشخص القتيل ولا يجوز شغل المكان الذي كان يشغلة. كما لا يجوز أن تشير على نفسك إلى المكان الذي أصيب فيه القتيل. وفوق ذلك، كان لدى كلّ واحد هناك طلسماً أو قاعدة وعرف ما، وكان يجب الاحتفاظ بكلّ ذلك على أنه سرّ خاص. وأنالمل أكن آخذ أي شيء من القتلى، بما في ذلك الساعة. وقد لاحظت أنَّ كلَّ من قام بخرق قاعدتي هذه - كان يقتل. بيدَ أنِي أدركتُ فيما بعد أنَّ كلَّ هذا مجرد هراء. بل سيحدث مع الشخص ما ورد بشأنه في النص الشعري «العد».

سؤال: وقد نجا الزنجي الصغير وعاش حتى التسرير من الخدمة، ثم عاد إلى ذلك القسم من الجزيرة، حيث كانت السماء شاحبة، وحيث كانت القطارات تسرع للوصول في الصباح الباكر، وأما الكنائس فقد تم تبخيرها وأصبحت جاهزة لإقامة الصلاة؟

جواب: قريباً من ذلك. في الأيام الأولى، كان كلَّ شيء رهيباً ومرعباً. تسير في الشارع، فتغفل عن كلَّ شيء وتزور تنظر إلى أسطح البيوت. وإذا ما دوى صوت تشغيل موتور سيارة - تفر إلى العشب المجاور للشارع. ثم بدأت أيام سلمية هادئة. حيث لم يكن ثمة شيء إنساني فيها. وقد نشأت رغبة كبيرة بإصلاحها. راح الجميع يسعون، كلَّ على طريقته، لإيجاد عمل ما يحقق لهم بعض الدخل. وقد عرضوا على مختلف أنواع العمل. ولكنني كنت شخصاً معتداً بنفسي، وشريفاً وساذجاً. عملت لبعض الوقت حارساً في البازار. ثم أدركت أنني لم أعد قادرًا على القيام بمثل ذلك العمل. فقد كان ثمة الكثير من النذالة والدناس من حولي، إلى درجة لا تحتمل. أدركتُ - لا بد من تطهير.

سؤال: وبدأت أيام عادية مسالمة، تحولت نوعاً ما إلى ساحة للمعارك، مثلما قالوا لك أثناء قبولك في الوظيفة، نور وظلام. وقد اعتدت في البداية أنك لست الوحيد، وأنَّ عدكم كبير جداً، أخوية كاملة من الفرسان - حملة الضوء، وقد راحوا يحاربون العتمة بالمصابيح. وتفضل، حاول أن تسيطر على تلك العتمة، طالما أنها على هذا النحو الثقيل، بحيث يستحيل رؤية شيء. أي كييفما بصفت - ثمة عجيبة يودو Чудо-юдо<sup>(١)</sup>. حتى أنَّ العلامة التي على كم سترتك تصور زنجيًّا صغيرًا، وهو يقوم بتمزيق شدق الوحش بواسطة شعاع من المصباح، فيضيء بذلك بلعومه. باختصار، ذهب الزنجي الصغير إلى قسم الشرطة وأصبح شرطياً. أليس كذلك؟

جواب: مالك تسأل، طالما أنك تعرف..

سؤال: أنا أعرف ما كان مكتوبًا في قصيدة «العد». أما أنت فتحكي لي قصتك الخاصة بك. حسب «العدادة»، قام الزنوج بشراء شقة من عجوزين وحيدين ثم قاموا بقتلهم. وقد كانت تلك أول قضية تكلَّف بالتحقيق فيها. ألا تذكر؟

جواب: بل أذكر جيداً. كنت أعتقد أنني رأيت في أفغانستان كل ما يمكن للمرء أن يراه، وإذأشهد هنا عملية قتل بسيطة في شقة: عندما وصلنا، كانت تفوح رائحة قاتلة، بحيث لا يكفي تهوية المكان. كانت حبة بطاطا في صحن وقد نما عليها طحلب. وكأس تستخدم لتناول اللبن مع كسر شعري فيها. وعلى أرضية الغرفة الممتلئة بالدماء تمدد امرأة عجوز في رداء من قماش الفلانييت، وفي سروال زهري وجوارب ممزقة. كانت ساقها مفتولة بطريقة غريبة. كان وجهها مليئاً بالتجاعيد وقد انطبعت عليه تعابير الألم. أحسست فجأة بالغثيان واضطررت إلى الخروج للحظة من الشقة. وقفت على فسحة الدرج ورحت أدخن إلى أن شعرتُ ببعض الهدوء.

سؤال: وفي طريق العودة، وقد دفنت نفسك في الأضواء الأمامية عبر

---

1- شخصية رئيسية في الملحم الروسية القديمة والأساطير السلافية.. وربما ما قبل السلافية. يختلف جنس الشخصية حسب الوقت. وتشبه الشخصيات إلى حدٍ ما الكائنات البحرية المرعبة التي وصلتنا من الثقافة اليونانية القديمة. المترجم

الضباب الليلي، الكثيف والأشعت، لأن ذلك كان عبارة عن صوف نفس ذلك الحيوان، حيث راح حملة الأضواء يناقشوون مقالة في جريدة بخصوص الموت الرحيم - هل يمكن مساعدة الميؤوس منهم لكي يموتو أبداً لا. وقرروا أن الأمور تسير، على الأغلب، نحو الأحسن - لأن العجوز السكيرة التي باعو الشقة لقاء ورقة عنب الثعلب، كانت بجميع الأحوال ستتجدد نفسها مرمية في الشارع، حيث ستموت من البرد الشديد عند مكب القمامات، وعلى العموم لا يحمل لنا المشردون سوى الأمراض.

جواب: فضلاً عن أنها كانت تقطن في فناء مجاور لمكان سكني. كان لدى عطلة في اليوم التالي، ذهبت إلى متجر الخبز ومررت بمحاذة مكب القمامات فشاهدت أنهم ألقوا هناك سريرها مع صرة تحتوي على ملابسها الداخلية. وعندما عدتُ أدرأجي رأيت كيف أن شخصاً ما في شبشب يقوم بفك أرجل السرير، وإلى جانبه تقف زوجته مع بكرة لربط الشعر، تقدم له التعليمات، أما الصرة مع الملابس الداخلية فقد اختفت.

سؤال: باختصار، يمكن القول إنك بعد أن انتسبت إلى سلك الشرطة، كما لو أنك حولت حياتك إلى قصة بوليسية، ورحت تقرأ كل يوم الصفحة التي قمت بكتابتها للتو. وفي الصباح تلقي أثناء الفطور نظرة على «العدادة» متسائلاً ما الذي سيكون لديكم لهذا اليوم - وبعد الغداء سيحدث كل ما هو مذكور.

جواب: عن أيِّ رجل تحرّي يمكن أن يجري الحديث! تلقي نظرة إلى «العدادة» وإذا بمسكارى يشاغبون في الشارع أو تحدث مشادات عائلية. أو يقوم الفتيان بأعمال شقاوة. وتلك هي القصة البوليسية بأكملها. خطط صبيان أشقياء ذات مرّة لتدبير عملية خروج قطار عن سكته، وذلك لكي يقوموا، كما شرحوا فيما بعد، بجمع الأشياء الثمينة والمجوهرات من الركاب. وهكذا راحوا يفكرون براغي التثبيت في السكة عند أطراف الغابة. كما أنهم خططوا من أجل فصل منظومة الإنذار - فقاموا بقطع الشريط تحت قضبان السكة. لكنهم لم يتمكنوا من فك الصمولات في مناطق الالتحام بأية وسيلة. عندئذ ذهبوا إلى ورشة والد أحد هم، وجلبوا من هناك مفتاحاً كبيراً وخاصاً. وفي هذه اللحظة اكتشفهم مراقب السكة. سألتُ الفتيان: ألم تكونوا تشعرون

بالأسف على مصير الناس الركاب؟ فراحوا يضحكون. وأنت تقول لي إنها قصة بوليسية.

سؤال: ولكنكم قمتم باعتقال بعض الأفراد؟

جواب: كنا نعتقد. أذكر أول اعتقال: اقتحمنا شقة ليلاً، أيقظنا الأطفال من نومهم، فراحوا يصرخون، كما راحت الزوجة المضطربة والمرعوبة تتناول عقاقير، وأما المجرم، فقد بدأ يتذمر ويتوتر، تارة يقصد خزانة الملابس في بيجامته لكي يرتدي ثيابه وعند حدود السجادة يترك خفّه المتزلّي قرب السجادة ومن ثم يعود إليه بعد أن يرجع عن السجادة.

سؤال: والوحش؟ أين كان الوحش؟ إذ كنت تنوي أن تصارع الوحش.

جواب: أين كان الوحش؟ لقد سبق أن قلت بنفسك إنّ الوحش كان من ضباب. وقد اقترب إلى النوافذ إلى درجة كبيرة وراح يفرك صوفه بشبك الشرفة. وقد أغروا عليه دفعه واحدة. طلبوها منا قصصاً مزيفة. كانوا يطلبون منها بعد كل غارة أو مداهمة أن نقدم تقارير وبروتوكولات. لكي يرى الجميع - أن الغارة لم تذهب سدى. وأما حقيقة الأمر فهي أنه لم يكن هناك سوى الضباب. لقد علمني الشريك - في الأيام العاديّة تماماً بروتوكولات بشأن أية خروقات للقانون، ولكن من دون أن تذكر التواريخ عليها. وعندما نذهب في غارة، نخرج البروتوكول من الخزنة ونضع عليه التاريخ المطلوب. بيد أن هذا كان يجري في البداية. ولكن فيما بعد تم ضمّي إلى مجموعة خاصة. لقد أخذني إليه بباباشكا. هكذا كان الجميع ينادونه.

سؤال: وهل كانت تلك المجموعة مكلفة بإغلاق الجرائم الأكثر خطورة؟

جواب: نعم. لكنني لم أدرك ذلك على الفور.

سؤال: هات، أخبرني عن بباباشكا.

جواب: وماذا يمكن أن يُحكي عنه. كان ثم اختفى.

سؤال: أخبرني لأنه كان يحبّك. لم يكن لديه سوى البنات. في حين أنه كان يحلم بابن ذكر. وهنا ظهرت أنت مع طبعك المشاكس والمخالف.

جواب: كان ذلك مجرد لقب لديه. لأنّه كان يصلح لأن يكون والدًا لجميع الأفراد في المجموعة. كانت ثمة شائعة منتشرة تقول كما لو أنّ العجوز كتب في حينه رسالة إلى السلطان التركي وأنه اصطاد غريشاً<sup>(1)</sup> أتربىيف، أو لص توشينسكي<sup>(2)</sup>. كما تناقلت حكاية عنه تقول إنه أنقذ في إحدى المرات عجوزاً بعد أن سحبها من فتحة في الجليد سقطت فيها. لكن العجوز عادت ونزلت في الفتحة من جديد. كانت العجوز من طائفه دينية وكانت تؤمن بأنّها إذا ما تعمدت مرة أخرى وسبحت في النهر تحت الجليد بواسطة حبل، لتنتقل من فتحة إلى أخرى، فإنّها سوف تصبح إنساناً جديداً تماماً، وأنّه ستبقى جميع ذنوبها في حياتها الماضية، وأما في حياتها الجديدة فسوف تكون مثل طفل وليد العهد. وهكذا، عندما فهمت الحكاية بدقة، راحت أفتّش في الأرشيف باحثاً عن موضوع منع محاكمة باباشكا. وعندما وصلت وقرأت - لم أصدق ما رأته عيناي بكل بساطة. تناولت الملف ورحت أقلب صفحاته - واكتشفت أنَّ كل ذلك كان أمراً مدروساً ومحوراً، ملعوباً، وبصورة واضحة لا لبس فيها! تفضّل، احكُم بنفسك: شخص مقيد اليدين بواسطة أغلال - وقد قام أحدهم بقطع رأسه. ولكن الجريمة قيدت على أنها عملية انتحار. مع العلم أنه توجد آثار لأصابع أحد ما على جميع الوثائق الموجودة في الملف. هذا يعني أنَّ الوحش نفسه، هو الذي فعل ذلك! خرجت عن طوري وذهبت إلى مكان الجريمة، فعثرت هناك على آثار دماء. كانت قد سقطت على الثلج للتو. راحت أتفّي الآثار وال بصمات، ثم سافرت إلى مكان الجريمة، وهناك وجدت أن خطوط الترامواي تقودني إلى

1- غريشا - اسم التصغير والتحبب م غريغوري.. والمقصود هنا - استعارة - غريغوري أوتربىيف Grigori Otrepiev 1581-1606 راهب وشمامس دير تشودوف (في كرملين موسكو).. فر من الدير ثم أعلن نفسه ولیاً للعهد باسم تسارييفيش ديميتري وباسم ديميتري الأول صعد إلى العرش. المترجم

2- كان هذا اللقب المهين «لص توشينو» يطلق على القيسير الروسي الدعي أو الكذاب False Dmitry II (Димитрий II Лжедмитрий) الذي كان مقر إقامته في بلدة توشينو التي كانت بالقرب من موسكو وأما اليوم فهي أحد أحياء موسكو المعاصرة... المترجم

البيت القائم في الساحة! أي هناك حيث جميع مؤسسات السلطة في المدينة - الشرطة والمحكمة، ومقر المحاكم، وصندوق التوفير، والبريد. وهكذا كان يسمى - البيت في الساحة، حيث يشربون القهوة السريعة الذوبان وحيث تختفي الطريق خلف النافذة. وها هي الآثار تقود إلى درجات السلم مباشرة. كما أن الجميع رأوا تلك الآثار في الشارع أيضاً. الجميع شهدوا. راحت أسألهم: ألا ترون؟ راحوا يومئون ببرؤوسهم: نعرف، إنه الوحش! كتبت تقريراً، بمعنى، أطلب إعادة فتح القضية لمزيد من التحقيق.

سؤال: هل شعرتَ بنفسك بطلاً؟

جواب: كلا. أو ربما، بعض الشيء وحسب. لكنني فيما بعد أدركتُ ما فعلته. أما من قبل فقد كان ثمة نوع ما من الحماس. كما لو أنني استيقظت بالفعل بطلاً في عمل بوليسي ما. أصبحت أشعر ببعض البهجة من الاستيقاظ المبكر صباحاً. لأن ذلك لم يكن يشبه في شيء غارة على حوانين بيع البيرة! منذ ذلك الحين وأنا أميل للاعتقاد بأن الحياة تتألف من أحداث.

سؤال: هل أعادوا فتح القضية؟

جواب: نعم، ولكن ليس على الفور. استدعاني باباشكا إليه. لم يسبق لي أن شاهدته مرعوباً إلى تلك الدرجة. إذ كان يتظره طبقاً لتوقعات «العدادة» احتضان الدب الأبيض. ولذلك أحسّ بربع شديد أن الوقت قد حان.

سؤال: ماذا قال؟

جواب: قال لي: «نحن نأكل لحم البقر، والبقرة تأكل العشب، والعشب - يلتهمنا». .

سؤال: هل هذا كله شيء؟

جواب: لا. بل قال أيضاً، لو أنَّ الحجر كان يمتلكوعياً، كان اعتقاد أنه يسقط على الأرض بشكل حر، وأنه كان سيسقط بتلك الطريقة حتى ولو أنه لم يفكَّر على ذلك النحو.

سؤال: ولكن، هل صرخ؟ هل قام بالتهديد؟

جواب: كلا، كان جالساً قرب النافذة وقد راح ينظر إلى الباحة ويتكلم

كما لو مع نفسه. قال: لقد ساعدتُ زوجتي يوم أمس - قمنا بقطع الملفوف إلى قطع صغيرة. ولم أستطع أن أغفو ليلًا. بقيتُ ممدداً طوال الليل بعينين مفتوحتين، بينما كانت الأغصان تقطع القمر عبر النافذة. وكنتُ طيلة الوقت أفكّر بشأنك - إذ إنك سوف تضيع وستخسر. تنهد ثم أضاف: «أنا، يا أناتولي باتكوفيتش، لعلني لا أستطيع أن أحشر نفسي بين السِّدَارَة وبين البوط. ولكن، طالما أنك تحيا هنا والآن، عليك أن تفهم أنه ينبغي أن تعيش كالنهر - يجري ولا يعرف أنه سوف يتجمد في فصل الشتاء. ومن ثم يحل فصل الشتاء، ويتجدد النهر. يجب أن تعيش، يا توليا<sup>(١)</sup>، بالتوازي مع الزمن من غير أن تفيف إلى خارج الصفا».

سؤال: وأنت؟

جواب: قلتُ له: «لا، يا بافل يفيميتش، يجب أن أعيش على قياسك وبالتوازي معك».

سؤال: لماذا فعلت ذلك مع العجوز. فقد كان يريد الخير لك.

جواب: أعرف ذلك. كاد يبكي في هذه اللحظة: «أنت بالنسبة إلى مثل ابني، وهل تظن أنني لا أفهمك؟ أنا أيضاً كنت فتىًّا وكانت أطمح لأن أكشف ملابسات الجرائم، الفظيعة والوحشية، يقودني في ذلك إحساس بالحق وتنق إلى العدل. وربما، أنا أيضاً كنت أتمنى أن أتعامل مع مزق محترقة من الوثائق، وأن أتحقق من كان وأين كان في تلك اللحظة الماطرة، عندما لاحت خلف النافذة ساعية البريد وهي تركب دراجتها وتضع كيساً بلاستيكياً على رأسها، وقد راحت تسأله ممّن قام بتكسير الأغصان على شجرة الفراولة القديمة، التي بدأت تزهر تحت نافذة المكتبة مباشرة! هل تعتقد أنني لم أكن أتمنى أن أقوم بتنظيف، ربما لا الجزيرة ككل، وإنما على الأقل مديتها تساريوف كوكشايسك<sup>(٢)</sup> من مختلف القدارات، وأن

1- اسم التصغير أو التعبير من أناتولي.. المترجم

2- هي نفسها يوشكار - يولا: مدينة في الاتحاد الروسي عاصمة جمهورية ماري ذات الحكم الذاتي. قام بتشييدها إيفان الراهب بعد أن أخضع فازان في عام 1552 وذلك لتكون قلعة عسكرية لقواته. وأطلق على المدينة الجديدة اسم تساريوف كوكشايسك. في عام 1928

ألقي القبض على الأوغاد وأن أقضى على المنحطين والفاشدين أخلاقياً؟ ولكنهم شرحوالي فيما بعد أن الحماس المفرط - أمر غير مستحب وضار. ثمَّ، ما الفرق من يكون القاتل؟ من يكتثر لذلك طالما أنَّ الجميع يدركون أنه شخص عادي ومحدود عقلياً، تافه وساقف! إنْ لم يكن بتزوف، فلا بد أن يكون سيدوروف. اسمع، يا أ Anatoli، لقد خدمت جندياً في الصحراء، ولأنه لم يكن لدينا ما نفعله، كنا نقوم باصطياد العقارب. نلتقطها ثم نقوم برميها في نار متأججة. كنا نريد، نحن الحمقى، أن نراقب كيف ستقوم بالانتحار - عن طريق غَرَّ السم ل نفسها في الناحية القفوية. وهكذا: لم يفَرَّ بذلك أَيُّ واحد منها، بل كانت جميعها تريد أن تعيش حتى آخر لحظة - إلى أن تحرق تماماً. هل فهمت؟ ومع ذلك لم أكن قد أدركت شيئاً حينئذ بعد. أجنبُه قائلاً: «لقد رأيتُ الدماء، والآلام، والموت. لقد قتلتُ بشرًا غير مذنبين ومذنبين. لذلك لا يمكنك بعد ذلك أن ترهبني. في أسوأ الحالات - سوف يقتلونني. ييدَ أنه لن تكون الحياة عاراً». عندئذ صرخ بقوة هائلة: «ما زلت جروًا صغيراً، وأما أنا فلدي زوجة وثلاث بنات! وليس في هذا الكون ما هو أغلى منهم بالنسبة إليَّ! بينما أنت تنظر علىَّ هنا بخصوص ما هو عيب وما هو غير عيب! يجب عليك في البداية أن تمسك بي طفلك الصغير، وبعد ذلك سوف تخبرني عن الخوف وعن الرعب!». أمسك بصدره في ناحية القلب. أسرعتُ إليه، ولكنه بدأ يسخر قائلاً: «اخْرُجْ من هنا، أيها المغفل!». اتصلت بزوجته، فجاءت إلينا ثم قمنا بنقله معاً إلى البيت. وصلنا وقمنا بتمديده على الأريكة. توجهت إلىَّ قائلة: «انتظر قليلاً، لا تذهب، سوف أقدم لك الشاي». لم يكن الأطفال في البيت - كانت البنت البكر في المعهد، حيث تدرس في كلية المعلوماتية، أما الصغيرتان فلم تعودا من المدرسة بعد. كانت لديهم على حافة النافذة شتلات طماطم مزروعة في علب حليب فارغة، وصور معلقة على الجدران. راحت تخبرني عن جميع أقاربهم. كان والده كاهناً، ثم أصيب بمرض ما وأصبح أعمى، وكان ابن مضطراً لأن

---

قامت سلطة البلاشفة بتغيير اسمها إلى يوشكار - أولًا أي المدينة الحمراء... وما زالت تحتفظ بهذا الاسم حتى اليوم. المترجم

يُخفي جذوره، لذلك كان يكتب في جميع الاستثمارات: الأب معاق، وكان يخاف على الدوام من أنَّ أمره قد ينكشف. أما جدته لأمِّه فقد قبرت أربعة أطفال - جميعهم صبيان - وكانت تقول له: أنت بالنسبة لي تعويض عن الأربعة. أثناء الحرب، خلال عملية الإجلاء، عندما كان ثمة جوع، أنقذته ماما - وجدت عملاً لها حلابةً وراحت تسرق الحليب، حيث كانت تحمل الحليب في كيس للتدفئة تربطه تحت ثيابها على بطنها. وقبل أن تموت بعد أن شاخت، قالت له: إياك أن تدفعني مع الخواتم والحلق، بل انزعها كلها، لأنهم سوف يسرقونها - والأفضل أن تبيعها! أما زوجة البابا شكا نفسها، عندما كانت ترضع طفلتها الصغرى، فكان لديها كمية زائدة من الحليب في ثديها، لذلك كانت تقوم بشفطه في كأس، ثم تغطيه بقطعة شاش وتنادي ابنته الكبيرة من خلال النافذة، بيدَ أنها لم تكون أبداً ترغبات بشربه، لأنَّه كان يبدو بالنسبة إليها دافعاً وشديداً للحلاوة ومثيراً للغثيان. لذلك كانت تقوم بشربه هي نفسها - لا يجوز أن يتلف الخير.

سؤال: وماذا كان مصير تلك القضية التي أعيد فتحها؟

جواب: صرفوا النظر عن فرضية الانتحار. ولكنهم قاموا بتوجيه اتهام لزوجة المغدور - أنه كان ينوي الطلاق، من دون أن يترك لها شيئاً. تستمرة المحاكمات عادة لأشهر طويلة - حيث يحتفظون الناس رهن العبس الاحتياطي لمدة طويلة، أما هذه القضية فقد نظر فيها بسرعة. ثم صدر حكم سجن مع الأشغال الشاقة.

سؤال: وماذا عن الشهود؟ ألم يكن هناك شهود؟

جواب: كان هناك شهود، ولكنهم أطلقوا سراحهم جميعاً. أما كنت ستُخاف أن تذهب لكي تشهد مع كل ما يحمل ذلك من نتائج؟

سؤال: لا أعرف.

جواب: هو ذا..

سؤال: ماذا حصل فيما بعد؟

جواب: ذهبت إلى بيتي.

سؤال: كانت تنتظرك هناك امرأة صغيرة وضعيفة، و كنت بحاجة، وأنت الكبير والقوى، لأن تقوم بمساندتك؟

جواب: على الأرجح، هذا ما كان. فقد قالت لي ذات مرة إنني رجل حقيقي: ملجاً محصن من الخارج، وأماماً من الداخل - طفل.

سؤال: كيف حدث ذلك أنه، وهي البنية الصغيرة تماماً، كانت تعامل معك، وأنت الرجل الناضج، كما لو أنها تعامل مع هر صغير؟

جواب: كانت تبدو كذلك في الظاهر فقط، كما لو أنها ثومبلينا<sup>(١)</sup>. فقد كنت التقطتها في قفص القردة، في القسم الملحق بمحطة القطارات. كانت ثملة تماماً. أراد شباننا أن يتسللوها معها قليلاً، ثم يطلقوا سراحها من دون كتابة بروتوكول - من منطلق شفقتهم على البنية الصغيرة. قلت لهم: «دعوها، هذه فتاتي». ثم أخذتها إلى بيتي. جئت بها ووضعتها تحت مياه «الدوش». وقفت بقربها ورحت أراقب كيف راحت قطرات الماء التي أصبحت سوداء بسبب

١- تبدأ القصة بامرأة متسولة بادلت زوجة فلاح حبة شعير مقابل طعام، وعندما زرعتها ظهرت فتاة صغيرة تدعى ثومبلينا من زهرة البنية. في إحدى الليالي، وبينما كانت ثومبلينا نائمة على فراشها من قشور الجوز، حملها وأخذها علجمون أرادها أن تكون عروسأ لأبنته. وبمساعدة سمسكة لطيفة وفراشة استطاعت ثومبلينا الهروب من العلجمون وابنه عبر أوراق الزنبق حتى أمسكت بها خنساء. حاولت ثومبلينا حماية نفسها وعندما أتى الشقاء، وعلى الرغم من إحباطها و Yasها، أضفت طيلة فصل الشتاء تعالج طائر السنونو حتى عادت إليه صحته. بعد فترة، عثرت ثومبلينا على مأوى عرضته لها فأرة حقل كبيرة في السن ويكل سرور أخبرتها أن تعيش معها. اقتربت الفأرة على ثومبلينا الزواج من جارها الخلد، لكن ثومبلينا اشمتزت من احتمالية الزواج من كائن مثله نظراً لكونه يبقى معظم وقته تحت الأرض ولا يرى الشمس ولا السماء استمرت الفأرة بدفع ثومبلينا للزواج وإخبارها بأن الخلد هو الشخص المناسب لها ولم تستمع إلى احتجاجات ثومبلينا. في آخر لحظة، ولكي تنجو ثومبلينا من هذا الوضع هربت إلى أرض بعيدة مع طائر السنونو الذي بقيت تعالجه طوال الشتاء ليستعيد عافيته. في حقل زهور مشمس قابلت ثومبلينا أمير جنيات الزهور الصغير بنفس حجمها وأعجبت به فتزوجا. تلقت زوجاً من الأجنحة لترافق زوجها في ترحاله من زهرة إلى زهرة وحصلت على اسم جديد مايا. في نسخة هائز أندرسن للحكاية، طائر أزرق شاهد كل ما حدث لثومبلينا من بداية القصة وكان واقعاً بعها. تحطم قلب الطائر الأزرق عند زواج ثومبلينا من الأمير وطار بعيداً ليصل بنهاية المطاف إلى بيت صغير. هناك قصص الطائر حكاية ثومبلينا إلى رجل قادر أن يكون هائز كريستيان أندرسن نفسه فقام بتسجيلها في كتاب. المترجم

كحل الرموش تنزل على صدرها وعلى بطنها. كان ثدياها صغيرين، بحجم وجنة منفوخة، وأما الحلمتان فكانتا قويتين متنسبتين، وقد بربطا مثل حبّي عنب الشعلب. رحنا نقبل بعضنا باشتاءه ويتعطش - ومع طقطقة الأسنان. وهكذا بقىت عندي.

سؤال: بيدَ أَنْكَ أَغْرِمْتَ بِهَا؟

جواب: نعم. لا أعرف. على الأرجح، كنت أعتقد أنني مغرم بها. إذ لم يكن عندي من قبلها أي علاقة جدية على الإطلاق. لقد علمتني كل شيء. وكانت في كل مرة تصرخ بطريقة تجعل الجيران يدقون بأيديهم على أنبوب الصرف الصحي. في إحدى المرات ذهبت إلى المغسلة لكي أغسل يدي - لأن أصابعي كانت في كل زاوية منها، في جميع فتحاتها - بينما كنت أنظر إلى مختلف القوارير الصغيرة قرب المرأة والتي تعود لها، رحت أفكّر أنها ليست مثل جميع النساء الآخريات. خُلِّ لي أنني تعلمت شيئاً ما بشأن النساء في أفغانستان. إذ كانت النسوة يسافرن إلى هناك برغبة كبيرة - إلى بلد أجنبي، حيث كانوا يدفعون لهن بالعملة الصعبة. كان يمكن جمع المال من أجل شراء شقة، أو أن يحملن معهن ثياباً أو تلفزيوناً - بيد أنه لم يكن ثمة شيء من هذا. كانت فترة الامتيازات - كل شيء لجماعتهم، ومن خلال شبكة المخازن المخصصة. وماذا يمكنك أن تفعل، طالما أنك لا أحد ولا اسم لك، ولكنك تريد أن تعيش بشكل لائق مثل بقية الناس؟ وهكذا رحن يسافرن إلى الحرب طلباً للعملة الصعبة والشيكات - كنّ يعملن في المشافي الميدانية، وفي المستودعات، وفي غرف الغسيل. كنّ يدبرن أمورهن مع العقيد. أو مع ملازم ثان - وهذا كانا قريبين بعضهما من بعض، لأنه كان لدى الملازم الثاني مستودع، والعقيد يمكنه أن يأمر الملازم الثاني بأن يجلب له شيئاً ما من المستودع. كنّ يعشن في سكن جماعي - «بيت الهررة». لكنهن لم يشأن أن يقمن معنا، نحن الجنود العاديين، أية علاقة - فمن نحن، في نهاية الأمر؟ ماذا كان بإمكان المرأة أن تحصل منها؟ قطعة قماش ممزقة؟ ولذلك، بدت لينكا<sup>(1)</sup> بالنسبة لي مختلفة تماماً. ومن أنا

---

- لينكا - اسم التحبب والدلع من إيلينا.. المترجم

بالفعل؟ لا أحد، مجرد شرطي براتب بائس. ولكنها تعلقت بي. أصبحت ملتصقة معي لا تبارحي بطريقة غير لافتة للأنظار. وكانت مرحة. راحت تحكي لي كيف أنها هربت من والديها الوثنين. ذهبت لتعمل في شركة للنسيج حيث كان العمل ضاراً - فهناك غبار بسبب الغزل - ولكنها ضمنت بذلك لنفسها مكاناً تعيش فيه في السكن. ثم تركت العمل هناك ودبّرت أمرها نادلة في مفهوى. راحت تروي لي كيف أنها كانت تنكس الأوساخ من تحت أظافرها وتضيقها إلى الآيس كريم ثم تنتابها نوبة ضحك شديد. كان يرproc لي كيف كانت تقلب شفتها السفلية ومن ثم تنفس على خصلة غرّتها التي نزلت على جبّتها. فيما بعد راحت تعمل في مكان للحلاقة - ولذلك كانت تقوم بقص شعرى باستمرار. بمجرد أن ينمو الشعر قليلاً - تقوم بقصه. كنت أحس بالسعادة وهي تقوم بقص شعرى. كما أني كنت أستمتع وأنا أراقب كيف تقوم بوضع الماكياج. كنت أسأّلها باستمرار: لماذا هذا، وهذا لأجل ماذا؟ كانت تصبح وتعرض علي قائلة: انظر، لكي تصبح الرموز الملونة أطول، يجب أن يخلط ذلك مع الصابون والبودرة. كانت نهايات رموشها تلتتصق بعضها على شكل أشعة. في أحد الأيام عدتُ من المناوبة متأخراً، دخلتُ إلى الغرفة فكانت نائمة وقد أخفت رأسها تحت البطانية - وحده شعرها كان متثوّراً على الوسادة. كان أصحابي في القسم قد حذّروني من أنَّ الأفكار عند مثل هذه الثومبلينا تكون ذكية ونشطة، مثل السحالى، ولكن مثل هذه تدخل إلى حياة الآخرين كالسكين، حتى مقبض السكين. يبدأ أني لم أصفع إليهم. كنت أظن أنهم يحسدوني. وبالفعل كانوا يحسدونني. ففي أحد الأيام ذهبت أنا وهي إلى ضواحي المدينة لكي نتنزه قليلاً في مركب في النهر. كانت ثمة درب تقود إلى البحيرة وسط أجمة من التوت الشوكى (الديس). كانت لينكا ترتدي تنورة بيضاء طويلة وواسعة، مصنوعة من نسيج خفيف ورقيق. علقت التنورة بغضن شجيرة علّيق وتمزقت قليلاً. اضطربت لينكا وانزعجت مثل طفل. قلت لها حينئذ: «ما لك، يا لينكا؟ فأنا أحُبك». لم أقل لها ذلك من قبل فقط.

سؤال: وهل كنتما تنويان الزواج؟

جواب: نعم. ولكن الوقت لم يسعفنا. تقدمنا بطلب إلى مكتب الزواج. وقامت باختيار فستان للعرس ودعنتي للذهاب معها إلى الخياط لكي أراه، ولكن وقتني لم يسمح لي، إذ كنت مشغولاً طوال الوقت.

سؤال: بيدَ أنْ ثومبلينا كان مكتوبًا عليها في «العدادة» أن تتزوج الخلد.

جواب: هذا ما حصل. ولكنني عرفت ذلك في وقت لاحق فقط.

سؤال: وجئت إلى البيت ذات يوم.

جواب: جئت إلى البيت. قفزت إلىّي واحتضنني. فجأة راحت تهمس لي بأشياء غريبة، وبلهجة جدية: «كم انتظرتك طويلاً» ثم جلسنا لتناول العشاء. خلعت الخفَّ من قدمها تحت المائدة ثم راحت تداعب ركبتي بأصابع قدمها. ثم سألتني: «توليك<sup>(١)</sup>، لقد حدث شيء ما». فابتسمت لها: «كل شيء على ما يرام. هيا، كلي!». نهضت، ثم دارت حول المائدة وجلست على ركبتي. أمسكتني من أذني - كانت تحب تلك الحركة وتقلد حركات مقود السيارة - وراحت تحدّق بي وتقول: «إني أشعر وكأن شيئاً ما قد حدث. هيا، أخبرني». فحكيت لها عنئذ كل شيء بالتفصيل: بخصوص الوحش، وبخصوص الدموع.

سؤال: وماذا كان رد فعلها؟

جواب: خافت. قلت لها إنه ينبغي علينا أن نتصرف وأن نفعل شيئاً ما. وإنّ فلن ينجو أحد. سوف يقطع ذلك الحيوان رؤوس الجميع. احتضنتها: «لينكا، قول لي ما الذي يجب عليّ أن أفعله». فالتصقت بي بقوة وبدرجة شديدة. «يا حبيبي، يا عزيزي! أنت قويٌّ، وأنت قادر على فعل كل شيء! اذهب إلى الساحة، واسجد على ركبتيك، اعمل شارة الصليب على الأجراس وقل إنك مجرد شعرة في جلده. وكل شيء سوف يكون على ما يرام».

سؤال: وأنت؟

جواب: فجأة أحسستُ بنفسي وحيداً جداً. لم يسبق لي قط أن شعرت بمثل هذه الحالة من قبل - أني وحيد. حتى ولو في أحضانها. وحيد.

---

1 - توليك - صيغة التحجب من أناتولي.. المترجم

سؤال: هل كنت تنتظر منها تصرفاً ما آخر؟

جواب: نعم. على الأرجح، كان هذا أمراً غبياً وغير منطقي، ولكنني كنت أتوقع منها أمراً ما. أما هي فهربت من المطبخ إلى الغرفة، وراحت تصرخ من هناك: «قد لا يكون عندي عقل، ولكن لدلي رحم، وأنا أريد أن ألد طفلًا من الأب الذي بجانبي والذي أحبه!». ثم بدأت تتحبب. خرجت وأمضيت الليلة في الفندق. رحت أقلب على مقعد خشبي. كنت طوال الوقت أفكر ما الذي يعجب عليّ أن أعمل. وفي صباح اليوم التالي استدعاني إليه باباشكا وأرسلني في مهمة عمل. عمل غير ضروري لأحد. اذهب إلى هناك، واجلب ذلك الشيء.

سؤال: كان ببساطة يريد أن ينفك عن الأعين، وأن تبقى بعيداً إلى أن تتم تسوية الأمر، وأن يهدأ كل شيء ويصبح من الماضي.

جواب: على الأغلب. وقد أصبحت الآن مقتنعاً بذلك. عندما عدت إلى البيت لم تكن لدينا موجودة. وكان ذلك أمراً حسناً - إذ لم أكن أرغب برؤيتها. بدأت بجمع أغراضي، من أجل السفر. رن جرس الباب. فتحت وإذا بأمرأة لم تعد شابة، من الصنف المثقف والمتعلم، في قبعة على رأسها وتحملت حقيبة في يدها. تبين أنها والدة تلك الفتاة التي تمت إدانتها والحكم عليها بعد أن أعيد فتح القضية. سألتها: «ماذا تريدين؟» فقالت: «لا شيء. ببساطة أردت أن أنظر في عينيك». فقمت بصفق الباب.

سؤال: رفضت الامتثال للأمر ولم تسافر في مهمة عمل، بل باشرت منفذاً بالتحقيق في القضية، لأنك كنت تخيل صورة تلك المرأة أمام عينيك باستمرار وهي تقف أمامك، وأنه يجب عليك أن تعيد لها ابنتها من السجن؟ وفق مبدأ واحد جيد مقابل جميع البقية السيئين؟ بطل واحد بمواجهة الضباب؟ بيد أن الوحش كان في داخلك.

جواب: كلا. بل على الأرجح، بلى. أي أن كل شيء كان بخلاف ما يجب أن يكون. ذهبت لا أعرف إلى أين، وبالفعل كانت صورة تلك المرأة ماثلة أمامي وكانت عيناهما حاضرتين. وهكذا سافرت في فصل الشتاء، وعدت في صباح يوم ربيعي. كنت مستلقياً على الرف العلوي في القطار

وقد رحت أنظر من خلال النافذة كيف أنَّ الأشجار تمارس الغرام. كانت أفكاري تعود باستمرار إلى غصن شجيرة التوت الشوكى ذاك. وفي صباح اليوم التالي لم يعد الوقت ربيعياً، بل كان صيفاً، والأدق، لا شيء. صحراء. ولكنها صحراء صخرية وليس رملية. وهكذا رحت أسيء على الصخور وأبحث عن شيء لا أدرك كنهه. وفي الليل شاهدت موائد نارية مشتعلة في بعيد، وتساءلت من يكون ذلك، يا ثُرى. ظنتُ في البداية أنه طابور غجري. ثم فكرت - أي غجر يمكن أن يكونوا هنا، لا بد أنهم لاجئون. كانت هناك عربات جر وأحصنة. مخيّم كبير. كان الوقت متاخراً، بحيث إن الجميع كانوا نيااماً على الأرجح. وكان ثمة من لا يزال جالساً بقرب موقد النار. اقتربت أكثر. وفي اللحظة التي اشتعلت فيها النار بقوة، أصبح الظلُّ الأسود للشخص أمام الموقد أقل حجماً. اقتربت لمسافة أكبر ودُهشتُ: كان الأشخاص يلبسون على طريقة اليونانيين القدماء. كما أنهم كانوا يتحدثون بلغة أجنبية. يفترض أنهم كانوا يقومون بتصوير فيلم سينمائي. فقد أصبح ذلك دارجاً اليوم - وبالنسبة إليهم فهذه الأشياء تتكلف كثيراً، أمّا هنا فالأمر أرخص بكثير. ولذلك يأتون إلى هنا.

سؤال: ييدَ أن الزمن والفضاء باليان وبلا ملامح وغير ثابتين. لعلهم يتقطون أمراً ما - على مثال غصن العليق ذاك؟ ويتمزق كل شيء. وعندئذ يمكن أن يتهاوى من خلال ذلك الصدع كل ما لا يخطر بالبال، بما في ذلك الإغريق.

جواب: يمكن ذلك. لا أعرف.

سؤال: هل اكتشفوا وجودك؟

جواب: انتقض أحدهم واقفاً عندما سمع خطوات، وراح يبحلق في اتجاهي، لكنه لم يستطع أن يراني في العتمة. ثم أكملتُ طريقي. وفي تلك الليلة أدركتُ ما الذي يجب عليَّ أن أفعله. كل القضية كانت تكمن في «العدادة». كان يجب عليَّ أن أوقف عملها. كيف يمكن التعبير عن ذلك... كان يجب عليَّ أن أقف في طريق عمل «العدادة».

سؤال: لكي لا يذهب صغار الزنوج للسباحة في البحر؟

جواب: نعم، كان ينبغي عليَّ أن أعيق وصول الزنوج الصغار. لكي يتوقف كل شيء. لكي يصبح كل شيء يبدو على نحو آخر. لكي أتمكن من النظر في عيني تلك المرأة. ولكي أعيد إليها ابتها. لكي لا يعود أحد يخاف أحدها أو شيئاً. لكي تصبح الحياة نقية ونبيلة.

سؤال: لكنك كنت تعرف عن طريق «العدادة» أن أحد الزنوج الصغار كان ينوي توقيف العدادة، فخضع للمحاكمة ومن ثم حكم عليه بالسجن مع الأعمال الشاقة، وهناك أطلقوا سراحه لأنَّه كان شرطياً.

جواب: نعم. ولذلك كان يجب إيقاف «العدادة».

سؤال: وكيف كنت تنوي تحقيق ذلك؟

جواب: بمنتهى البساطة. كان ينبغي أن أخرج إلى الساحة وأن أعلن: «أنا لستُ شعرة وبر!».

سؤال: حسناً، ولكن...

جواب: لا تقاطعني! وهكذا قفلت راجعاً في القطار. كان جيراني في المقصورة يأكلون طوال الوقت: يypressا مسلوقاً بقشور مكسورة على جريدة، وحبة طماطم متصدعة في قطعة خبز، وكان ثمة ملح في علبة كبريت. وقد راح أحدهم يقرأ بصوت عال مقالة في تلك الجريدة المبللة والملوثة بالدهون والتي تم نشرها على الطاولة، وتدور المقالة حول أنَّ جزيرتنا تشغل المركز الأول من حيث عدد الإجهاضات بالنسبة لعدد السكان، في حين أنَّه ما من امرأة من بين النساء في السجن تفكَّر أو تحاول أن تخلي عن طفلها - بل يسعين جمعيهن لكي يحملنَ حتى ولو كان من السجان أو من أي شخص آخر، وأن يحتفظن بالحمل غير الشرعي، كما يقال. وقد قال الرجل الذي كان يجلس بمواجهةي ويغمر حبة البطاطا في كومة الملح الطرف فوق تلك المقالة وأولاً النساء في الجريدة، يقول إنَّ الطفل بالنسبة لهنَّ يمثل مبرراً ووسيلة لكي يحصلن على كمية زائدة ومحسنة من الطعام، فضلاً عن أن ذلك يسمح لهنَّ بآلاً يعملن، والأهم من كل ذلك - هو انتظار العفو بسبب الأمومة. حيث كانوا يطلقون سراحهن في المقام الأول. ومن ثم كنَّ يغادرن المعتقل، حيث تقوم الأغلبية منهنَّ، حسب الإحصائيات، بالتخلُّ

عن الأطفال بعد أن ينلنَ حريّتهنَّ. ثم راح يحكى عن رفيقه، الكاهن، الذي كان لديه كلبة بعيدين بشريتين. بكل بساطة إنسان ولكنها في هيئة كلبة. وكيف أنَ تلك الكلبة قامت بقطع رؤوس أطفالها من الجراء. عندئذ قام القس بقتل الكلبة. ثم ارتشف الشاي وقال وهو ينظر من خلال النافذة: «ماذا يمكن أن تنتظر من بلد تقوم فيه الأمهات بقتل أطفالهن؟». كان القطار في تلك اللحظة يسير ببطء وهو يجتاز جسراً عبر النهر، وكان على النهر المتجمد اثنان، على الثلج تماماً - هو وهي - يقumen برسم أحرف كبيرة جداً بأرجلهما، أحروفاً هائلة بحيث تكون مرئية من بعيد، من نوافذ القطارات العابرة، وتحديداً من نافذة مقصورتنا.

سؤال: وماذا كانا يرسمان هناك؟ أية كلمات؟

جواب: لا أعرف. كانوا قد بدأا للتو، وكان القطار قد تجاوزهما.

سؤال: لكن ذلك مهمٌ!

جواب: بيَدِياني لم أكن قادرًا على إيقاف القطار!

سؤال: حسناً! وهكذا عدت وركبت الترامواي، وصلت إلى ذلك البيت القائم في الساحة.

جواب: رجعت وركبت الترامواي حتى وصلت إلى البيت في الساحة. كنت ذاهباً من موقف الترامواي. رأيت من بعيد ومن خلال النافذة كيف أنَ باباشكا يلوح لي بيده. كان يصرخ بصوت غير مسموع، وينقر برؤوس أصابعه على زجاج النافذة وهو يؤشر بيديه إلى شيء ما. لاحظ أنني عدت من دون موافقة وأدرك كلَ شيء. وهكذا خرجت إلى وسط الساحة، وإذا به يهرع راكضاً عبر الباب وراح يصرخ: «أناتولي! ماذا تفعل! اصمت! لا داعي! لن تغيِّر شيئاً، بل ستقضى على نفسك فحسب!». راح يهبط الدرجات مسرعاً، وقد كان المدخل تحت النافذة مباشرة، حيث تقوم المحكمة. وفي هذه اللحظة سقطت عليه من خلال النافذة ساعة جدارية ضخمة. عبارة عن دب أبيض من المرمر مع قرص الساعة على بطنه.

سؤال: ها هو ذا احتضان الدب الأبيض.

جواب: نعم. هرعتُ إليه. كان العجوز ما زال حياً يتنفس، الأدق كان

يُشخر، ويصفر تقربياً. راح يحدق في عيني. كما لو أنه كان يفهم كل شيء، من دون أن يكون ثمة معنى للكلام. لم تتم إجراءات الدفن إلا في يوم الثلاثاء - بسبب تشريح الجثة، ولأن يومي السبت والأحد - عطلة رسمية. حضر الجنازة عدد كبير من الناس، جميع المسؤولين عندنا، وعدد من المحاربين القدماء. وأيضاً الأرملاة مع بناتها الثلاث - وجميعهن في الأسود. كان الجو بارداً جداً، لذلك قمن في البداية بوضع قبعات على رؤوسهن، ومن ثم قمن بربط مناديل فوقها. كما أن جميع الرجال كانوا يلبسون قبعات لها آذان طويلة، أو كانوا يرقصون في أماكنهم لكي يشعروا ببعض الدفء. انزلق التابوت عن الحبال واتخذ وضعية شاقولية - ما اضطههم لأن يسحبوه من جديد ومن ثم يعيدوا إنزاله من جديد. كانوا قد حفروا القبر مسبقاً، وعشية الدفن انخفضت درجة الحرارة وأصبح الجو صقيعياً، ما جعل كل شيء يتجمد - لم يتمكنوا من حفر القبر إلا بصعوبة بالغة. راحوا يضربون التربة بالمعاول وبالرفوش - إذ لا يجوز أن تُترك القبر مكتشوفاً. تمدد باباشكا في القبر كما لو أنه أثناء العرض. تنهدت امرأة كانت تقف بجانبي - لا أعرف صلتها بالمتوفى - وقالت: «ها أنت جميل، يا باشا، حتى ولو في اللحد. كما لو أنك لست ميتاً وإنما عريس». أما أنا فكنت أنظر إليه ورحت أتذكر: تحدث أحدهم في التلفزيون ذات يوم أنه كانت ثمة عادة بأن يتم دفن الموتى في وضعية الجلوس - في وضعية الجنين، مع ساقين مضبومتين إلى الصدر، وذلك لكي يتمكن الميت، حسب الاعتقاد، من أن يولد من جديد. وكان القبر عبارة عن رحم. أي أن عملية لحد الميت في القبر تعادل الاتحاد مع الأرض، بمعنى أنها عملية تلقيح للتربة بالإنسان. تكون المخصلة كما لو أن باباشكا - عريس الأرض. من ناحية - بالنسبة إلينا جنازة ودفن، ومن ناحية أخرى، بالنسبة له - عرس. ولهذا السبب يقومون بغسل الميت، ويلبسونه شيئاً أنيقة كما في العرس. حتى إنهم وضعوا مكنسة صغيرة من الأغصان على رأس باباشكا - كما يفعلون مع الشخص الذي يتزوج - كرمز للإكليل. وقد كان الإغريق، في قديم الزمان، يعتقدون أن الموتى، بعد أن يتزوجوا، يتبعون حياتهم في القبور ويعيشون على ما يقدمونه لهم من طعام ويشربون

النبيذ الذي يسكب على قبورهم. ولدينا عملياً نفس الطقوس تقريباً: أُلقيت نظرة إلى القبور المجاورة، فلاحظت أنه يتم وضع كل شيء هناك إلى جانب الصليب - بما في ذلك التفاح والموز. ومن ثم استعدت صحوتي: يا إلهي، ما هذا الذي أفكّر به! ثمة ثلاثة بنات بقين بلا أب بسيبي ...

سؤال: وعندي؟

جواب: عندئذ شربت كأساً، مئة غرام، لراحة نفسه وأكلت مازاً فطيرة ثم ركبت الترامواي ... إلى هناك. خرجتُ عند الساحة وقلت ما كان يجب عليَّ أن أقوله. وقفت على موقف الترامواي وقلتُ: «أنا لست شعرة صوف!».

سؤال: وماذا بعد؟

جواب: لاحقاً جرى كل شيء وفق «العدادة».

سؤال: وهل كان القاضي مع بقعة من الطين الأحمر على جبينه، وفي رداء من ستارة قرمزية للروح وفي شعر مستعار من كبة من صوف رمادي؟

جواب: نعم. وكيف عرفت ذلك؟

سؤال: خمنتُ ذلك. وهل كانت المحكمة كما يفترض أن تكون؟ لم يحدث أي خلل؟

جواب: كان كُلُّ شيء نموذجيَاً.

سؤال: وماذا قال، إذن، ذاك الذي في قماش الستارة؟

جواب: وماذا يمكن للقاضي أن يقول؟ قال إنَّ ما جرى يظهر الروح، وإنَّ المصيبة التي لا تقتل تقوى وتشدَّ من بأس صاحبها، إنَّ إدراك الحقيقة مستحيل، إنَّ من يغمض عينيه - سوف يصاب بالعمى، وإنَّ الناس يتمنون الخير بعضهم لبعض، ولكنهم لا يجيدون فعل ذلك. وبعد ذلك صرخ بقوة: «كيف يمكنكم ألا تفهم - هذه ليست مجرد ألعوبات وتسالي أطفال، بل إنها طاقة الحياة! هل تريد أن تتعرض على إرادة القدر؟» قلتُ له: «لا ترفع صوتك عليَّ. أنا لم أعد شعرة صوف بالنسبة إليك. ولم أعد أعترف لا بمحكمتك ولا بالحياة طبقاً لهذه «العدادة» خاصتك. افعل بي ما تشاء». فاستشاط غضباً: «هذا بعض أولئك الذين يظنون أنفسهم أذكياء جداً قد تبدو المجرة أمراً

بسيطاً، كما لو أنها جزءة من اللباد: هذا هو الصوف فيها، وهذا هو الجلد، هذه هي آثار الدماء على سكة الترامواي، وهذا هو الذيل يبرز من أنبوب في الغروب الجليدي. بيدَ أنه لا يوجد بطل إيجابي! ومن أين له أن يظهر في هذا العالم؟ فهو في الروايات وحسب يقوم بركل الوحش في خصيته، ولكننا لسنا في رواية! ومنْ أنت لتكون ضد «العدادة»؟ فالكون قائم عليها! وهنا مكتوب بالأسود العريض: لقد عاند الزنجي الصغير، وقال للعدادة إنه لن يذهب إلى البحر، ولذلك أمسكت به من رقبته. سواء أعجبك الأمر أم لم يعجبك، سوف يذهب الجميع إلى البحر! ولن تذهب إلى البحر، بل سوف تطير إلى هناك، وسوف تقبل خصيتي الوحش! هل فهمت ذلك، أيها الحقير؟ وهكذا تم النطق بالحكم الذي يتالف من عبارة واحدة: «وحدهم المتواحشون يؤمنون بصراع الخير والشر». ثم أضاف من عنده، أنَّ الحديث مع شخص متواحش بهدف إثبات أنَّ الدمية الخشبية ليست إليها على الإطلاق، وإنما دمية بكل بساطة، لا معنى له وعبث. ومن ثم قال وهو يغادر: «سامحني، يا أخي، على هذا التمويه – بيدَ أنك تدرك بنفسك أنَّ المسألة لا تكمن في الشعر المستعار».

سؤال: وهذا كل المحاكمة؟

جواب: وهل هذا قليل؟

سؤال: هذا يعني، أنَّ العدالة تحققت.

جواب: سمحوا بأخر لقاء مع الأم ومع الأخت – ومن ثم قادوني إلى نقطة الانطلاق إلى معسكر الاعتقال.

سؤال: ألم تتمكن من مسامحتها على ذلك؟

جواب: في البداية لم أكن قادرًا، ولكن فيما بعد غفرت لها. كما أنَّ حياة أخرى مختلفة تماماً كانت قد بدأت. ها أنت طازج، تفوح منك رائحة الحرية، ولا تدرك بعد الشيء الكثير، ويجب عليك أن تعرف ذلك لاحقاً. من دون أن يقول لك أحد أو أن يشرح أيَّ شيء. دستُ الملعقة في العجيب العلوي للسترة – هذا لا يجوز، لأنها ميزة خاصة بالديوك. أو أنك جئت إلى المطعم وجلست على المقدع الخشبي – أيضًا لا يجوز، هذه مائدة حيث تأكل الديوك.

سؤال: ولكن ما الذي تبغيه؟ ألا يكون هناك ديوك؟ يرسلون إلى معسكر الأشغال الشاقة أشخاصاً حكم عليهم بسبب المشاركة في عملية اغتصاب جماعي للأطفال - هذا عنف واضطهاد، ولكن هذا تجسيد لانتصار العدالة. السن بالسن والعين وبالعين. إذ ليس الجميع يؤمنون بفكرة العقاب في يوم الحساب العظيم - القيامة. هذا يعني أنه يجب على المرء أن يتحمّل تبعات فعلته. وأنت كنت تعمل شرطياً. هذا يعني كما لو أنَّ جميع الأمور في نصابها الصحيح. والديوك أيضاً، هم أيضاً من البشر، وهم أيضاً يعيشون بطريقة ما. لكلٍ شيء نظامه وقوانينه. وأولئك الذين جرى «إسقاطهم» - مجرد جزء من ذلك النظام. ألم تكن الأمور عندكم على هذا النحو؟

جواب: بلـى. على سـبيل المـثال، كان عندـنا في معـسـكـر الـاعـتـقال حـوالـي ألفـ شخصـ، أما عـدد الـديـوكـ - فـكان خـمسـة عـشـر أو عـشـريـنـ. كانوا يـجلسـونـ إـلـى موـاـئـدـ خـاصـة بـهـمـ، ولـكـنـهـمـ كانوا يـنـامـونـ في مـهـجـعـ مشـترـكـ. كانـ النـظـامـ القـائـمـ صـارـماـ - لاـ يـمـكـنـكـ أـنـ تـتـقـلـلـ منـ مـهـجـعـكـ عـلـى الإـطـلاقـ، سـوـاءـ كـنـتـ دـيـكـاـ أوـ غـيرـ دـيـكـ. لكنـ الـديـوكـ كانوا يـنـامـونـ في رـكـنـ خـاصـ بـهـمـ، فيـ رـكـنـ الـديـوكـ. وـهـمـ، بـكـلـ تـأـكـيدـ، ضـرـورـيـونـ. يـقـومـونـ بـتـنـظـيفـ الـبـاحـةـ الرـئـيسـيةـ والـمـراـحـيـضـ. أـمـاـ هـمـ أـنـفـسـهـمـ فـكـانـواـ قـذـرـينـ جـداـ وـتـفـوحـ مـنـهـمـ رـائـحةـ عـفـنةـ كـرـيـهـةـ. كانـ كـلـ قـادـمـ جـديـدـ يـقـومـ بـرـكـلـهـمـ بـقـدـمـهـ مـنـ كـلـ بـدـ - وـلـهـذاـ كـانـواـ يـسـعـونـ لـكـيـ لاـ يـلـتـقـواـ بـأـحـدـ فـي طـرـيقـهـمـ. وـأـمـاـ أـنـهـمـ قـذـرـونـ - فـهـذـاـ أـمـرـ لـهـ تـفـسـيرـهـ. لـأـنـ دـيـكـ يـرـىـ مـشـكـلـةـ حـتـىـ فـيـ الـاغـتـسـالـ. إـذـ إـنـهـ لـنـ يـذـهـبـ إـلـىـ الـاسـتـحـمامـ بـصـحـبـةـ أـحـدـ الـمـعـتـقـلـينـ «ـزـيـكـ»<sup>(1)</sup>. كـماـ أـنـهـ لـيـسـ سـهـلـاـ بـالـنـسـبـةـ لـهـمـ أـنـ يـنـتـقـلـوـ فـيـ أـرـجـاءـ الـمـعـسـكـرـ. لـفـتـرـضـ، أـنـكـ دـيـكـ، وـهـاـ أـنـتـ تـصـعدـ سـلـمـاـ مـاـ يـقـودـ إـلـىـ الطـابـقـ الثـانـيـ فـيـ الـمـهـجـعـ، وـإـذـ بـشـخـصـ مـاـ يـهـبـطـ فـيـ هـذـهـ الـلحـظـةـ. عـنـدـمـاـ تـرـىـ شـخـصـاـ آخـرـ قـادـمـاـ يـجـبـ عـلـيـكـ أـنـ تـلـتـصـقـ بـظـهـرـكـ فـيـ زـاوـيـةـ السـلـمـ

- 1 وردت في النص الأصلي كلمة اشتقةية  $زِيَّكَ$  أو  $زَاكَ$  - وهذه الكلمة كانت تعني حرفيًا الشخص المعتقل في معسكر قناة بيلومورسك.. لكنها تحولت إلى مصطلح أو اسم لأئي سجين في معسكرات الاعتقال في الاتحاد السوفيتي السابق. وبعد أن كانت شائعة في ثلاثينيات القرن العشرين، أصبحت تستخدم في الأدب وفي الخطاب اليومي بين الناس، عاديين ورسميين - المترجم

وأن تنتظر ريثما يمر آخرؤن، بحيث إنه لا يجوز حتى ولو مصادفة أن تلامس سجينًا كامل الحقوق. وإذا ما خُيّل له أنك لا تلتزم بدقة بتلك القاعدة، فسوف يركلك بقدمه. لا يعتبر أمراً غير لائق الضرب والركل بالأقدام. أما أن يوجه السجين «راك» صفعات أو ضربات بالأيدي إلى الديك - فهذه إهانة له، أما بالأرجل - هذا هو المطلوب. ولا يجوز «للراك» أن يرفع أي شيء عن أرض الباحة. ففي حال أفلت منك شيء: انتهى، نقطة! لا يجوز القاطه. لا يجوز رفع شيء عن أرض الباحة، لأن الديوك هم الذين يقومون بتكتسيها وبيتنظيفها. في حال كنت ذاهبًا إلى المطعم، وسقطت منك ملعقتك - هذا يعني أنها لم تعد موجودة. والأكثر أهمية، انتبه، كي لا تفسدها. إذا سقطت القصعة في الزنزانة على الأرض - هذا يعني أنها أصبحت فاسدة. لا يجوز أن تأكل منها بعد ذلك. أو إذا كنت تأكل وسقط منك جزء من الطعام على الأرض - يجب عليك أن تقول على الفور: لقد «سقط على الجريدة» - على الرغم من أنه ليس هناك أي أثر لأية جريدة.

سؤال: ولكنك لم تعد صغيراً، ويجب عليك أن تدرك أن في كل ذلك مغزى عميقاً وخاصاً - بمعنى النظافة والوقاية الصحية! الحياة تتطلب نظافة ووقاية صحية. وفي الجزيرة حياة في كل مكان. لهذا كل شيء يبدو طبيعياً. جواب: وهذا ما كنت أقصده. ولهذا السبب يشغلونهم الأسرة الأقرب إلى الباب، كي لا يفسدوا أشياء كثيرة. علمًا أنه لا بد أن يتم إفساد شيء ما بشكل أو بآخر. على سبيل المثال، ينام الديوك على أسرتهم. ومن ثم لا يعود أولئك الديوك موجودين في الفضيل بسبب ما - ربما أطلقوا سراحهم أو قاموا بنقلهم إلى مكان آخر. ومع ذلك تبقى الطرارايخ المعدنية التي كانوا ينامون عليها خالية لا يشغلها أحد، ولفتره طويلة جداً. وحسب قولتين المعتقل يجب سحب تلك الأسرة وحملها إلى المستودع. والسؤال هو، هل تحتفظ بصفة الفاسدة بعد أن تم نقلها إلى المستودع؟ هذا هو السؤال! إذ يمكن أن يعطوها لأي سجين آخر. وهكذا يدور جدال - هل يفسد الحديد أم لا يفسد؟ حدث ذات يوم أن تقيأت. عثرت على أحد الديوك وطلبت منه أن ينظف المكان الذي تقيأت فيه. بعد ذلك قررت ببساطة أن أدعمه بطريقة

إنسانية، فأعطيته بعض الخبز وتبغاً. مع العلم، بصورة نظيفة تماماً: لم أسلمه يداً بيد بشكل مباشر. بل وضعت على الأرضية وقلت له: خذ هذا. وفجأة لمست في عينيه عرفاً بالجميل. عرفاناً أشبه بعرفان الكلب تماماً. لا يمكن التعبير عن ذلك بكلمات أخرى. بنفس الطريقة ينظر الكلب المضروب إذا ما راح صاحبه يلاطفه. فقال لي أحدهم: وجدت من تشفق عليه. الكلب يبقى كلباً ونقطة على السطر. إذا طلبوا منه أن يبصق عليك في المطعم - سوف يفعل. وهذا أيضاً صحيح. ما هو صحيح - صحيح. كما أن هناك تصنيفًا خاصًا بالديوك أيضًا - وهم يهابون الديك الرئيسي كثيراً: إذا ما كفَّ عن محبتك، سوف تحول في اليوم التالي إلى أحد الساقطين. يمكنه أن يأمر أيَّ واحد من الديوك التابعين له والساقطين أن يقبلك على مرأى من الجميع - وسوف تصبح منتهياً. بعد ذلك يمكن أن يتم ضرب ذلك الديك الساقط وأن يمرغوه وأن يكسروا له أضلاعه، لكن هذا لن يفيدك في شيء وسوف تصبح ساقطاً.

سؤال: قُلْ لِي، وَمَا هُوَ الشَّيْءُ الْمُهِمُ هُنَا؟

جواب: ماذا هناك مهم؟ ما هو مهم هنا أيضاً - الأسرة. فالناس هناك يعيشون مثلي ومثلثك. المهم أن يكون ثمة سلام وأمان، حيث يتظرك أحد ما ويكون فرحاً لمجيئك. وهناك أيضاً يعيش الناس ضمن عائلات، في سكن جماعي. وفي الأسرة يدافعون بعضهم عن بعض، ويقومون بمعالجتك في حال حدث مكروره، ويستقبلونك عندما تعود من جناح العقوبات<sup>(١)</sup> (شيزو SHIZO). يجب على الأسرة أن تحضر لك ثياباً نظيفة وجديدة، وأن تقدم لك الشاي. الإنسان بحاجة إلى الدفء. وأن يتسم له أحد ما. ففي معسكر الاعتقال لا يحق لأحد أن يتسم. لأنَّ الابتسامة - إشارة تملق ومداهنة من قبل الضعيف تجاه القوي. وإذا ما اقترب أحد ما وهو يتسم، فإن أول رد فعل هو النفور منه، لأنك تتلقى ذلك على أنه مكر ما ودناءة مستترة. وهل من المهم والضروري أن تبتسם لأحد ما! ففي الليل تتمدد وتتفكر وتتذكر كيف

1 - SHIZO - اختصار لكلمتين - ش (شترافتوي) - عقوبة، وإيزو (إيزولاتور) - معزل. مصطلح معروف وشائع في السجون ومعسكرات الاعتقال - المترجم

كنت في طفولتك، عندما لا تستطيع أن تغفو، كنت تلعب مع نفسك: تارة تدفع إحدى اليدين تحت البطانية، فتصبح دافئة ولكن الأخرى تبقى باردة. ومن ثم تتسلل كييف أن شخصين يسيران ويصعدان بالأصابع على الساقين والركبتين، وعلى ثنيات البطانية ومن ثم الوسادة. وكما لو أن أحدهما ضاع، في حين أن الثاني تاه وهو يبحث عن الصائع. ودوماً كانت اليد الدافئة تعاشر على الباردة، وإذا بالشخصين القزمين يفرحان لذلك ويتعانقان. اليد الدافئة تدفأ وأنقذت الباردة، حيث تقوم بجلبها لتمدد تحت البطانية قائلة لها - هيا تدفأي، تدفأي! كما أني كنت أتذكر «لينكا» طوال الوقت. كيف كانت تقلب شفتها السفلية وتنفس خصلة الغرّة التي نزلت على عينيها. كيف كانت أضعها في البانيو وأقوم بغسلها بالليفة مثل طفلة صغيرة، ثم ألفها وأمسيط لها شعرها، أحملها إلى السرير. حتى أني حلمت أكثر من مرة كما لو أني صرت حراً، وأني عدت إلى البيت، وكان الوقت متاخراً، ففتحت الباب بالمفتاح، ثم مشيت على رؤوس أصابعي إلى الغرفة وأنظر كيف كانت نائمة وقد خبات رأسها تحت اللحاف - وحدها خصلات شعرها تنتشر على الوسادة. ومن ثم كان رهيباً أن أستيقظ لأرى نفسي في المهجع.

سؤال: كيف كان الطعام؟

جواب: ليست المسألة في الطعام! هل تعرف ما الذي كان مهمّاً هناك أيضاً؟ الكلمة.

سؤال: أية كلمة؟

جواب: الكلمات، بصورة عامة. ما تنطق به. إذ كان على المرء أن يتحمل مسؤولية أية كلمة يقولها. لأنه لم تكن هناك أية قوانين باستثناء الكلمة التي تنطق بها والتي تتحمل مسؤوليتها وتبعاتها. مثلاً، أنت سجين جديد في الزنزانة. مزود الطعام صغير، والناس كثيرون ولذلك ينشأ ازدحام دائمًا على وجبتي الغداء والعشاء. ولأنك جديد قمت بدفع شخص آخر فقام هذا بدلق العصيدة السائلة. دفعته من دون قصد بكل تأكيد. ولكن ليس هناك كلمة «من دون قصد». هذا يعني أنك تركته من دون طعام. ثم عرضت عليه وجبتك، بمعنى أنا المذنب، تفضل كلّ. سوف يأتيك الجواب: «هل سأكل طعامك

الخاص بك؟». دعاك ساقطاً. وفي حال أنك لم تردد على ذلك، هذا يعني أنك رضيت ب موقعك هذا. لقد وجها إليك تهمة، وما لم تعترض وتحتج، بكل ما لحياتك من قدرة على الاحتجاج، هذا يعني أنَّ الاتهام صحيح. ولن يساعدك أحد. بل يجب عليك أن تدافع عن نفسك بنفسك. ويجب أن يبدأ عراك، ويجب عليك أن تذهب حتى النهاية. وفي حال أنك وافقت على كلمة ما - هذا يعني أنك تساوي تلك الكلمة. بات واجباً عليهم أن يخضوا من مرتبتك أو من قدرك. وعندئذ لن تنجو لتحيا. وأما أنت فتقول: مجرد كلمات.

سؤال: ولكن يجب أن يقوم أحد ما بتوضيح ما هو ممكн وما هو ممنوع للقادم الجديد؟

جواب: لن يشرح لك أحد شيئاً. بل إنه لا يمكن شرح ذلك. إنَّ ذلك أشبه بالهواء الذي تتنشهه. عندما تبدأ بالتنفس تبدأ تدرك. وإذا ما طرحت سؤالاً: «هل هذا ممكٌ؟» - يمكنك ألا تسأل بعد ذلك، لأنهم سوف يجيبونك «ممنوع». يجوز للمرء فقط ما يعتبر هو نفسه مسموحاً له. باختصار شديد، يحقُّ لك كل شيء. بشرط أنك يجب أن تتحمل مسؤولية ما تفعل وما تقول، وأن تتحمل مسؤولية كل خطوة تقوم بها وكل كلمة تنطق بها. هناك فقط أدركت معنى الحرية. الحرية لا تعني أبداً غياب الشرط الشائك. كلا. بل إنها غياب الخوف. الحرية تعني ألا يتمكن أحد من ضبطك والسيطرة عليك في شيء. عندما لا يكون لديك شيء تخاف أن تخسره. عندما تقول كلمتك ومن ثم تتمسك بها وتذهب خلفها حتى النهاية.

سؤال: هل شعرتَ بنفسك حرّاً هناك؟

جواب: مرة واحدة. بصورة حقيقة. كانت قيادة المعسكر تعرف عنني كلَّ شيء ومن أكون ومن أين. وفي أحد الأيام دعوني وقالوا لي إنه يجب عليَّ أن أقوم بدور مخبر. وفي حال رفضت أن أقوم بدور مخبر، فإنهم سوف يسلمواني على أنني أقوم بذلك. وفي تلك اللحظة بالتحديد شعرتُ بدرجة من الحرية لم يسبق لي طيلة حياتي أن أحسستُ بها. قلتُ لهم: أنا - لست شعرة صوف».

سؤال: ما لك سكتَ؟

جواب: وماذا يمكنني أن أضيف؟

سؤال: ما الذي حدث فيما بعد؟

جواب: أنت تعرف. فما الحاجة إلى مزيد من الأسئلة؟

سؤال: أنا أقدر أنك لا تريد أن تروي كيف حدث ذلك.

جواب: كلا.

سؤال: لا داعي، لا تقل طالما أنَّ ذلك صعب عليك. ببساطة سوف أنسخ في البروتوكول ما جاء ذكره في «العدادة».

جواب: اكتب ما تشاء.

سؤال: حسناً، سوف أكتب ما يلي: ليس من السهل تخفيض وإذلال رجل شديد البأس وقوى الشكيمة. وضعوك في جناح العزل للمعاقبين. أثناء الليل، بعد أن غفوت، قاموا بمحشر منشفة ملوثة بالحيوانات المنوية في وجهك. قفزت من نومك ولكنك لم تلحق لكي تعاشر على المغسلة التي أضعتَ مكان وجودها، لأنهم راحوا يضربونك على رأسك بأداة ثقيلة. يفصل الحمام في الزنزانة لوح معدني غير كبير، أرغموك على اتخاذ وضعية جسر - قاموا بشيك عبر اللوح ثمَّ راحوا يغتصبونك على التوالي. وبعد ذلك دسوا في مؤخرتك عصا المكنسة. أمضيت بضعة أيام في مستشفى السجن، إلى أن توقف النزيف من الشرج. أليس كذلك؟

جواب: وما الفرق!

سؤال: ومن ثم، قبل أن يرسلوك إلى المعسكر، حاولت أن تتحرر. هل هذا صحيح؟

جواب: وماذا أني فتحت أوردي! لم أرغب بالعودة. كنت أريد أن يقوموا بإحالتي إلى مستشفى الإقليم. فقد كان شخص ما قد فتح أوردته قبلي بأسبوعين، وقاموا بتحويله إلى هناك. جاء إلينا نائب قائد المعسكر لشؤون الانضباط والعمل - وهو الشخصية الثانية بعد قائد المعسكر - نظر إلىَّ وقال: «يمعن تحويله إلى أي مستشفى». طلبوا الطبيب حيث قام بخياطة الجرح في الممر مباشرة، ثم أعادوني إلى جناح العزل. قمت بفتح أوردي

مرة أخرى. دائمًا في الزنزانة شيء ما يمكن بواسطته فتح الأوردة. كسرت اللumba. وقامت بتمزيق بطني، وبالمناسبة، يجب تمزيق البطن بحيث تتدلى الأمعاء من كلّ بد، لأنه في هذه الحالة لا يجرؤ الطبيب المحلي على خياطة الجرح هنا. يأتي نائب الرئيس من جديد ويقول: «أنت بالتحديد، حتى لو أنك فطست هنا، لن نرسلك إلى أي مكان». وضعوا أصفاداً في يديّ ثم خاطوا لي البطن كيما كان وتركوني وحيداً بعد أن ربطوا الأغلال إلى أنبوب الصرف.

سؤال: هل كنت تريد أن تموت؟

جواب: لماذا؟ بل كنت أريد أن أحيا. رحت أستلقي شبه غائب عن الوعي وأشعر أثناء الليل بأنّ أحداً قد جاء إليّ. كان ذلك هو نائب الرئيس مرة أخرى. جلس على كرسي بلا مسند. بدأ يقول: «هل تظنين وحشًا؟ ولكن، ضع نفسك مكاني. هل تعتقد أني لا أشعر بالشفقة نحوك؟ بل أشفق بكل تأكيد! إذ يذهب المرء بنفسه لدرجة أنه يمسك مصراته بيديه. ولكن حاول أن تتصور: في حال أرسلناك إلى مستشفى المنطقة، سوف يقوم عشرون شخصاً آخرين بتمزيق بطونهم! لا يجدر بك أن تفكّر بنفسك فقط، وإنما بأولئك الذين من صنفك! كان من واجبي أن أثبت للجميع أنَّ هذا التصرف لن ينجح. كي لا يقوموا بعد ذلك بشق بطونهم وكي لا يشوهوا أنفسهم! أما أنت فتعتقد أني وحش؟ في حين أنتي في حقيقة الأمر، أعمل من أجل إنقاذهكم، أيها الحمقى!»

سؤال: هل أنقذك؟

الجواب: نعم.

سؤال: هل أرسلوك إلى المشفى؟

الجواب: كلا. لم تكن القضية تكمن في المستشفى. يجب أن يكون، على الأرجح، أني رحت أهذى أثناء الليل وبدأتُ أتذكر كلّ شيء، كيف رحت أنا وابني رومكا<sup>(١)</sup> نزّين شجرة عيد رأس السنة - كنت أحمله على كتفي،

---

- ١ - رومكا - اسم الدلع أو التحبب من رومان.. المترجم

وهو يقوم بتعليق الدمى والألعاب على الأغصان العلوية. أو كيف كنت أقوم بعد الحمام بلفه بالشرشف ثم أرميه على الأرضية، فوق الوسادات، وكيف كنت أقصُ له أظافره – كانت تصبح طرية بعد الاستحمام، وكانت نهايات الأصابع تنتفع قليلاً وتنكمش. وكيف أقوم فيما بعد، حين يغفو، بنقله إلى السرير الخاص به، أما هي فكانت تتظرني في سريرنا، حبيبي، الوحيدة والعاشقة، حيث تهمس لي: «هيا، تعال بسرعة».

سؤال: هذا يعني أنهم التقطوك في هذه النقطة، بسبب الشخصيات؟

الجواب: نعم.

سؤال: ألم تكن بحاجة إلى الحرية؟

الجواب: لا.

سؤال: ولذلك أطلقوا سراحك؟

جواب: نعم. كتبت طلب مغفرة: «شعرة الصوف. أنا أعترف بالعداوة. سوف أسافر عن طريق الجو إلى البحر. أقبلك». وهذا كل شيء.

سؤال: وماذا كان بعد ذلك؟

جواب: سار كل شيء كما كان مذكوراً في العداوة. انتظم الزنجي الصغير شعرة وبر في الجلد. أصبحت أكسب جيداً، ثم تزوجت.

سؤال: وماذا كانت طبيعة عملك؟

جواب: لعلمك، فيما مضى كانت ثمة عادة: عندما كانوا يدفنون القيصر، كانوا يقومون بخنق محظيته الأغلى على قلبه، وكبير الخدم المسؤول عن النبيذ، والقيم على الإسطبل الملكي، والمسؤول عن الباز أثناء الصيد، وحامل مفاتيح مستودع الأغذية، والطباخ وذلك إلى جانب التابوت الذي يكون فيه جثمانه. باختصار، جميع أولئك الذين كانوا مسؤولين عن حياته. يفسرون ذلك لتلامذة المدارس بالرغبة في تأمين كل ما يلزم للقيصر في الحياة الآخرة. في حين أنه لا حياة أخرى في حقيقة الأمر. وهذا ما يعرفه جميع طلاب المدارس. كان القيصر الحي الجديد يقتل بقرب التابوت القيصر المتوفى جميع أولئك الناس القريبين من المتوفى وليس منه. لكي

يدرك الخدم الشخصي للقيصر الأمور بصورة كاملة. يمكن القول، من باب الحيطة وضمان الأمن والاهتمام المناسب.

سؤال: هل كان أقرباؤك يعرفون طبيعة عملك؟

جواب: بمجرد أنني أصبحت أكسب، نشأت عندي رغبة بأن أقدم هدية لأمي. فهي لم تعرف شيئاً جميلاً وحسناً في حياتها. لقد جاءت أمي من دار اليتامي، وعملت طيلة حياتها في مصنع للمطاط. عندما بدأت في طفولتي أبكي مطالباً بدمية أو لعبة ما، كانت تروي لي على الدوام عن دار اليتامي. لم يكن لديهم دفاتر، لذلك كانوا يستخدمون أية مزقة ورق أبيض من أجل الكتابة - حتى المساحات الفارغة من جرائد قديمة. كما أنه لم يكن لديهم محابر - لذلك كانوا يمددون سخام الموقد بالماء. وفضلاً عن كل ذلك كان الأطفال يسرقون بعضهم بعضًا: كان الأقوباء يتذعنون ببساطة من الصغار ريش الكتابة وأقلام الرصاص والخبز. وراحت تتذكر، كيف أنها لم ترغب بأن تأكل الشوربا التي كانت تسبح فيها ذرينة من الذباب، فرفضت أن تأكلها. ولكن بعد ذلك بدأت تأكل كل ما يقدمونه لها، كانت تأكل وتلحس الصحن بلسانها، حتى ولو أن جارها يصدق في الصحن. لم يتم إجلاء دار الأيتام أثناء الحرب، وحدهم المسؤولون عنه هربوا ولم يبق سوى الممرضات وعاملات التنظيف. طالب الألمان بقوائم أسماء الأطفال، فأعطتهم الممرضات اللوائح ليتبين أنهم مكتوب مقابل كل اسم الانتماء العرقي. جاء الألمان وأخذوا الأطفال اليهود وفق اللوائح. اعتقد الجميع في البداية أنهم سوف يأخذونهم إلى الغيتو اليهودي - ولكننا فيما بعد عرفنا أن الألمان قاموا بإعدام جميع الأطفال اليهود رمياً بالرصاص. كانت حكاية أمي بالنسبة إلي أشبه بعهد القيصر غوروخ<sup>(1)</sup>. أما هي فكانت كما لو أنها تعيش تلك الفترة تماماً. ثم أخبرتني كيف عملت في مصنع الكاوتشو - كانت تقوم بتغطيس قوالب الأحذية في الكاوتشو لكي تحصل على أحذية مطاطية. عندما توفي والدي لم تتمكن من ضبط نفسها أثناء العمل وبدأت

-1- القيصر أو الملك غوروخ بالروسية (Царь Горох) شخصية من الفولكلور الروسي، قيسر خيالي يترجم اسمه حرفياً «البازلاء» لا يعرف الأصل الدقيق للاسم. المترجم

تنتحب، فراحت دموعها تسقط على القالب. كانت تعرف أن هذا سيؤدي إلى حدوث عيب ما في الأحذية، ولكنها لم تستطع أن تتوقف عن البكاء رغم ذلك. هناك، حيث تسقط الدمعة لن يلتصق الكاوتشو. كما كانت التهوية في المصنع سيئة جدًا، ولذلك ظهرت حالات تسمم، خصوصًا عند أولئك الذين يتعلق عملهم بالصمع. وإذا ما راحت إحدى العاملات تقهقه، فإن جميع من في الورشة يبدأ بالضحك. وهذا ما كان يضطرهم لأن يوقفوا الآلات - لكي يهدأ الناس ومن أجل دعوتهم للانضباط. وهكذا جئت إليها - كانت ما تزال تعيش وحيدة، لأنها لم تنتقل للعيش مع ابنتها الكبرى في بلدة بودليسيكي إلا في وقت لاحق. لدى اخت معلمة - ولا يمكن الحديث معها عن أي شيء - لأنها تبدأ على الفور بالحديث عن مدرستها وعن الرعب الذي يسيطر هناك بسبب انتشار المخدرات. تقول: «حتى إن الرغبة بولادة أطفال تختفي - لأن الطفل وبينما يكبر، قد يقع ضحية شخص حquier يدس له المخدرات في فناء البيت. يجب إعدام الأشخاص الذين ينشرون المخدرات بين أولادنا في الساحة العامة وعلى مرأى من جمهور الناس!» باختصار، وصلت إلى منزل والدتي وأنا أرتدي بدلة جميلة وأحمل في رصفي ساعة ثمينة، والحذاء وحده يعادل ثمنه كاملاً ما يتتجه خطُّ الإنتاج في مصنعهم، بحيث إنني ما كنت لأكسب ثمنه طيلة حياتي، فقلت: «ماما، لقد اشتريت لك بطاقة استجمام في مصر. سافري وتعرب في على العالم!». امتلأت عينها بالدموع. احتضنتها ورحت أمسح بيدي على رأسها، وكانت قد أصبحت ضئيلة الحجم في شيخوختها، فدفت وجهها في بطني. رحت أقول لها: «ما بالك، يا أمي؟!» وتجبني: «توليشكا، ابني الحبيب، أنا لا أريد شيئاً، لدى كل ما أريد. طالما أنَّ أمورك على ما يرام، فأنا لا أريد أيَّ شيء». قلت لها: «ماما، ما بك؟ تلك مصر! مهد الحضارة! الفراعنة! والأهرامات! والمومياء!». وهكذا لم تسافر إلى أي مكان. كان لديها على حافة النافذة فطر في علبة زجاجية فارغة سعة ثلاثة ليترات. راحت تقترح عليَّ أن أقتني واحدة مثلها، ولكنني لم أشاشة أن أشغل بمختلف العلب والأواني. كنت أمرّ عليها لدقائق ومن ثم أسرع للذهب. كنت أقول

لها باستمرار: «في المرة القادمة!». وأخرج مسرعاً. وهكذا كانت تقف عند عتبة البيت وهي تحمل في يدها علبة مع الفطر.

سؤال: لقد تزوجت امرأة كان لديها ولد من زواج آخر. هل تعرف قصة حياته؟

جواب: لا. لم أشاً أن أعرف أية قصة له. لقد انتظرتُ مدة طويلة ذلك الإنسان، تانيا الحبيبة، لدرجة أنَّ جميع القصص لم تكن تعنني. وهي بدورها انتظرتني مطولاً، بحيث إنَّ أيَّ شيء آخر لم يكن ذا أهمية. بل المهم هو أنْ أغفو وأدرك أنها إلى جانبي وتنظر إلىَّ، وقد استندت بمرفقها إلى الوسادة. أو أنْ أمسك يدها وأضعها على عينيَّ. وأنْ أستيقظ في الصباح على رائحة الكوي - كانت تكوي وكان ثمة بخار فواح ينطلق من لوح الكوي. أتصل بها من العمل وأسئلتها: «هل من خبر لدى؟» وتجيب: «نعم. أحبك بدرجة أكبر». عندما كنتُ أسافر إلى مكان ما، كانت ترتب لي أغراضي وتدسُّ لي رسائل. كانت تكتب ببساطة، بضع كلمات فقط، مجرد هراء: «أقبلك». أو «اشتقتُ لك، تعال بسرعة». أو «حافظ على ظهرك مستقيماً. لا تكون محدودباً». أو: «سوف آتي إليك اليوم في المنام». كانت تجيد الظهور في الحلم.

سؤال: وهل كان التعامل مع الابن صعباً؟

جواب: مع رومكا؟ لقد أحببته على الفور. بالطبع، كان في البداية متوجهماً. يجلس في إحدى الزوايا ويلتزم الصمت. حكت لي زوجتي كيف أنه في عمر خمس سنوات أعلن لها أنه يريد الزواج منها. لم يكن يطيق أن يراها تتحدث مع رجل آخر - على الفور، فضيحة وبكاء وهياج هستيري - يريد أن يلعب دور المدافع عنها. لن يسمح لأحد أن يزعجها. وفي إحدى المرات هجم في موقف للباس على رجل ثمل وراح يضربه. قلت له: هل تريد أن تساعدني لكي نصنع سفينه من الصابون؟ وهكذا رحنا نصنع أسطولنا: بوارج، مدمرات، وغواصات. تأخذ الصابونة وتقوم بتقسيمها إلى ألواح بسماكه إصبع. وبواسطة شفرة العلاقة تقوم بتأنٌّ بقص جسم السفينة والهيكل على سطحها، مع أبراج للمدفع، وقوارب. أما الصواري وقواعد الأسلحة - فمن أشرطة معدنية. والحبال من الخيوط. وبعد أن

تجف الصابونة، كنا نقوم بتلوين السفينة بالحبر الأسود. وهكذا راح أسطول كامل من السفن مع غواصات يسبح على الطاولة! بحيث لم يكن ممكناً لفت انتباهه عن عمله. كان يتنهد باستمرار: فقط لو أنه يتاح لي أن أكون في داخلها، في مقصورة القيادة! كان شعره أشقر، ولذلك كنت أمازحه وأدعوه بالأشقر - فكان يتذمر ويغضب. عندما ذهبنا لكي نسجّل زواجهنا، قمت بتبيئه. كان قد بدأ للتو فقط بفك الأحرف، ومع ذلك كان يقرأ كل شيء وكل اللوحات واللافتات. حتى إنه تناول قرار التبني وراح يقرأه بصوت عال كلمة كلمة. ثم قال: تول<sup>(١)</sup>، ما بك، هل أنت الآن أبي؟ قلت له: ولماذا الآن؟ فأنا كنت أباك من قبل أيضاً - وهذه مجرد وثيقة لا أكثر.

سؤال: ولكنها كانت تشعر بحاجة ماسة لأن تحكي لك ما حدث معها حينئذ؟

جواب: على الأرجح أعتقد أنَّ الأمر كذلك. وقد كانت تتالم لأنها لم تستطع أن تبوح بذلك. لذلك لم أطرح عليها أية أسئلة.

سؤال: هل تريد أن تعرف؟

جواب: نعم. فقد كانت تتمى أن أعرف. ببساطة لم يكن بوسع أحد آخر سواها أن يروي ما حدث. هل تعرف ما الذي حدث آنذاك؟

سؤال: كلا. لا أعرف أيَّ شيء عنها. أعرف ما يتعلق بالزنوج الصغار فقط. سافر الزنوج الصغار إلى البحر لكي يسبحوا. كانت بالقرب من البحر قرية يعيش فيها زنوج صغار آخرون. أندروا الزنوج القادمين بأن يكونوا على حذر وعلى أهبة الاستعداد. هذا يعني أنها كانت تفهم وتعرف كل شيء. ييدَ أنه كان في تلك القرية زنجي صغير، يدعى رُسلان، مختلف عن غيره كثيراً. عندما كان يلتقي بها، كان يسألها: تانيا، هل ثمة من يسيء إليك أو يضايقك بسبب أطفالنا؟ إذا ما أزعجك أحد ما، أخبريني، إذ هنا أناس مختلفون! كان يجلب لها الفواكه من بستانه. كما قال لها إن ثمة أحاديث

- 1- استخدم الكاتب صيغة تحبب لاسم أناستولي في إشارة إلى علاقة الطفل القرية واللطيفة منه. إذ من المفروض ألا يخاطب الطفل شخصاً أكبر منه بصيغة الاسم المصغر - المترجم.

مختلفة غير حميّدة تروي بخصوص الزنوج الصغار في قريته، وأنه يشعر بالألم وبالحزى، بيد أنهم ليسوا جمِيعاً على ذلك النحو. وفي اليوم الأخير قام بدعوتها إلى حفلة سمر على شاطئ البحر - حيث كان قد جاء صديقه العسكري، والزنوج يقدسون حسن الضيافة والصداقه الرجولية الحقيقة. وفجأة أدركت تانيا أنه ليس بوسعها أن ترفض الدعوة. كان هذا يعني أنها بذلك سوف تثبت له أنهم متواحشون ولا يمكن الوثوق بهم. وهكذا ذهبت إلى هناك مع صديقة لها كانت تدعى لوسيا. أُعجبت لوسيا برسلان كثيراً. كما أنه راق لتناولها أيضاً. قالت لنفسها إنه لا يجوز على الإطلاق أن أغرم به - وإذ بها تُغْرم به. أما صديقه العسكري فلم يعجبها نهائياً منذ اللحظة الأولى. كان أشقر، بعيدين ليمتين، وصوته غير لطيف. وفوق ذلك بدأت تعمل أجراس القلق في داخلها: راح رسلان يتحدث مع هذا الأشقر بلغة زنجية، ودون أن تفهم شيئاً. ذهب الجميع إلى النهر، حيث جلسوا قرب الموقد وراحوا يأكلون اللحم المشوي ويشربون النبيذ. بدأ رسلان يرفع الأنفاس، بحيث إنه كان لا بد مع كلّ نخب أن تشرب كأس النبيذ حتى الثمالة - تارة نخب الحبّ الأمومي، وتارة نخب الأطفال الأصحاء في المستقبل. بدأت تشعر بالخطورة تحوم حولها - ولكنها لم تجد من اللائق أن تنهض وترحل. جلسوا مثل خرفان بانتظار القرابان. كانت لوسيا قد بدأت تفقد إدراكيها فراحت تقهقه وتصرخ قائلة لها: «ما بك يا تانيا، تجلسين متوجهة؟ هيا استرخي!». وأخيراً عادوا أدراجهم ولكن الوقت كان متأخراً، ليلاً. أحست بعض الراحة لأنَّ الأمر اقترب من نهايته. فجأة استداروا باتجاه البحر، بدلاً من المضي والسير إلى الأمام. راحا يقناعنهما: «هيا بنا نجلس لبعض الوقت أيضاً، فالمساء رائع وساحر!». توقفوا قرب الشاطئ. فجأة ذهبت لوسيا مع رسلان إلى عمق الغابة، بحيث أنَّ صبحكها بقي مسماً في البداية ومن ثم اختفت قهقهتها. بقيت تانيا حبيبة ذلك الأشقر وحدهما. بدأ الزنجي الصغير يتحرّش بها محاولاً أن يقبلها ويعانقها، وراح يحاول نزع فستانها القطني عنها. دفعته عنها. ولكنه عاود تحرّشه بها، بحيث راح يدُسُّ يديه في كل مكان من جسدها. قالت له: «لا!». وإذا بالزنجي الصغير الأشقر يصفّعها

على وجهها ومن ثم يوجّه لها ضربة إلى أنفها. لم يسبق أن ضربها أحد بهذه القسوة. راح الدم يسيل ولكنها لم تشعر بالألم، حتى أنها لم تكن تشعر بأي شيء - كما لو أنها أصبحت مسلولة. أما هو فلم يفعل شيئاً آخر لكي يغتصبها، لم يحاول نزع ثيابها، بل راح يضرّبها بقسوة وحسب لكي يقول له إنها هي أيضاً تريده. لكن تانيا راحت تقول له: «لا!». عندئذ ركلها بقدمه بقوة في بطنها - فتكورت ولمعت في رأسها فكرة: «كيف يمكن ذلك؟ فقد كنا طوال المساء مثل البشر، وفجأة يضربني بقدمه في بطني! كم هذا مؤلم، يا ماما!». وأما هو فمن جديد يسأل: «ألا تريدين؟» تهُزُّ رأسها علامه الرفض. راح يقول لها بصوت خافت: «هل ستتسرّعين مني لمدة طويلة؟» التقط قنينة من رقبتها وكسرها على حجر، ثم اقترب منها وقال: «سوف أشوه وجهك الآن». هنا أحست تانيا بربع حقيقي وشديد. لقد كسر إرادتها بواسطة هذا الخوف. كفت عن أن تكون إنساناً، لم تعد موجودة - كان ثمة حيوان مرعوب يئن من الألم الفظيع ومن الخوف، بأنه سوف يكون ثمة ألم أشد وأقوى. قال ذلك الحيوان: «نعم، أريد!». وراح يتعامل مع جميع فتحات تانيا خاصتك. ثم زحفت حتى وصلت إلى جدول قريب لكي تغتسل. في هذه اللحظة عاد رسلان مع لوسيانا سعيدتين جداً. أما تانيا فكانت متتسخة ووجهها ممتلئاً بالخدمات. «ماذا جرى عندكم هنا؟». أجبت: «لم يحدث شيء. كل شيء على ما يرام».

جواب: لماذا أخبرتني بكل ذلك؟

سؤال: لكي تعرف ما الذي حدث بالفعل.

جواب: هل كانت تريد أن تقوم بعملية إجهاض؟

سؤال: لا. لكنها أخبرت أمّها أنها ببساطة كانت في الجنوب على البحر، وأنها حبت هناك، وتريد أن تلد طفلًا. كانتا واقفتين في المطبخ. راحت أمّها تدخن بصمت. لم يكن مسموحاً لها أن تدخن، فقد كانت مريضة ولكنها لم تخبر أحداً بذلك. ثم أطفأت سيجارتها تحت ماء الحنفية وقالت: «حسناً، إذن. سوف تلدين لنا طفلة وسوف نحبّها. الرب لا يحمل الناس فوق طاقتهم». وقد أتاحت لها الزمن أن تعتنى بحفيدها لبعض الوقت. ما بك؟

جواب: اعذرني، ببساطة، عيناي التصقتا. كنت أنظر إلى جهاز الهاتف وفجأة خطر بيالي: إذا ما اتصلت تانيا الآن إلى هنا - إذ يصادف أنها تحدث معجزات - وسألتني: «هل من أخبار؟» - فلاني أعرف بماذا سأجيبها. سوف أقول لها: «بلى. يوجد أخبار - أحبت أكثر وأكثر».

سؤال: هل كنتما تريدان أنت وهي أن يكون لكم طفل؟

جواب: بالتأكيد. هي وأنا. في البداية لم ينجح الأمر - لم تحبل نهايئاً، ما جعلني أخشى أن تكون العلة مني أنا، أن يكون ثمة خلل عندي، طالما أنه سبق لها أن حبلت وولدت طفلاً. ولكنها حبلت في وقت لاحق. حدث ذلك في نفس ذلك اليوم الذي راحت فيه تضمُّ إليها طاحونة القهوة الفواحة، بينما كنت أفتح علبة سرد़ين. اشترينا في الصيدلية جهازاً للكشف الحمل، ثم ذهبت إلى التواليت - كنا يومذاك نتسكع في بولفار غوغول. كان الفصل شتاءً، وقد هطل الثلج، بحيث إنَّ الدروب كانت جليدية في كلِّ مكان تقريباً. ركضت نحوِي واندفعَت إلَيَّ مثل بنية صغيرة. كانت تص户口 بصوت عالٍ فرحةً وتلوّح بيديها. وانزلقت إلى أحضاني مباشرةً. لم تقل شيئاً، ولكنني خمنت وفهمت الأمر كما يجب.

سؤال: هل كنت تعرف أنها تعاني من مشاكل في الكليتين؟

جواب: كيف لي أن أعرف؟ في البداية كان كلَّ شيء على ما يرام. أذكر أنها ذهبتا معاً لمراجعة طبيب الأمراض النسائية، وقد أصررتُ على الذهاب معها، من دون أن أعرف السبب. فجأة بدأت أشعر بالقلق عليها. وهناك أحستُ على الفور بأنَّ ثمة شيئاً ما غير حسن. نظموا استمارَة «قصة المرض» باسم تانيا - كما لو أنَّ العمل عبارة عن مرض. كان يجب عليها أن تأتي إلى الطبيب مع منشفتها الخاصة ومع خفَّها الخاص، وأن تلبس في قدميها كيسين من البلاستيك. عرضوا ذات يوم في التلفزيون برنامجاً عن ولادة في البحر. عرضوا كيف سافرت نسوة حوامل إلى البحر حيث ولدن هناك. وجهوا دعوة وعرضوا أرقام هاتف من أجل الأسئلة. سألتْ تانيا فيما بعد فجأة: ربما، يستحق الأمر أن أسافر وأن أذهب لكي ألدَّ في البحر؟ بيدَ أنَّ الأمر كان يتعلق بطائفة ما، بحيث إنه كان يجب على النساء الولادات

أن يأكلن المشيمات مثل الكلاب. قلت لها: لا تقلقي، سوف أدفع جميع التكاليف وسوف يكون كل شيء على ما يرام. أصيّبت تانيا بالتهاب في الكليتين وصار لازماً عليها أن تستلقي في الفراش، بحيث إنها أمضت أسبوعاً بأكملها في السرير، وراحت تشرب السوائل بكميات كبيرة، فتورمت، لدرجة بدا كما لو أنّ لديها توأمين. خُيل لها أنها أصبحت بلهاء، لذلك راحت تضع باستمرار على عينيها أكياس الشاي المستعملة، لأنها كانت تؤمن بأن ذلك يساعد في التخلص من الوذمة. أو كانت تضع نصفي خيارة. ولكنها كانت تقوم بذلك دوماً عندما لا تكون في البيت: كانت تخاف أنني قد أراها مع قطع خيار على العينين.

### سؤال: والصبي؟ هل كان يغار؟

جواب: بالعكس. كان رومكا مسروراً لأنه سوف يكون لديه آخر أو آخر. أتذكر أننا كنا نستلقي مساءً نحن الثلاثة، ونقوم بتمسيدها على بطنهما - أنا من جهة، ورومكا - من الجهة الأخرى. كنت أقول: «هيا، إكبري، أيتها الأخت!». ورومكا يقول: «هيا، إكبر، أيها الشقيق!». أنا كنت أريد أن تلد لنا بنتاً، أما هو فكان يريد صبياً. وعند إجراء فحص بالإيكو قالوا لنا إنها ستلد صبياً. راح رومكا يهتف فرحاً: «هورا! لقد ربحت!». قمنا بوضع صورة الإيكو على رف الكتب خلف الزجاج. عندما كنت أستيقظ صباحاً، قبل أن يرن المنبه ببعض دقائق، كنت أرى كما لو أنه من خلال البث الفضائي: هنا هو ذا الرأس، وهذا هي ذي يده. كما لو أنه ينقل لنا تحية من سفينة فضائية ما، أو كما لو أنه يطير إلينا من كوكب آخر لا نعرفه، حيث كان يعيش طوال تلك الآلاف والملايين من السنين، وهو يتظارنا. ثم قمنا بحفظ صورة الإيكو في الأرشيف عندنا. لم تكن تستطيع العيش من دون كتب، وحتى أنها أخذت معها عدداً من الكتب إلى المستشفى. حاولت أن تقرأ هناك، لكن ثرثرة النسوة هناك لم تسمح لها بالقراءة. كنت أزورها في المستشفى كل يوم، حيث كنا نتمشى في الممر وبعد ذلك كنت أهرع إلى رومكا الذي يلعب في حديقة المشفى. كانت تفتح الكتاب الذي تقرأ فيه وتسأل: «انظر، هنا مكتوب أنَّ جسم الإنسان متطاول في الزمن - وهو بذلك يملأ بذاته

الفضاء في كلّ مكان. أليس كذلك؟». أهُنْ كتفي - ومن أين لي أن أعرف؟ ولكن بما أنه مكتوب هكذا، فهذا يعني أنَّ الأمر لا بد أن يكون كذلك. إنهم أدرى. ثمَّ أسألهما: «وهل أنت تفهمين؟». تهز رأسها علامة النفي: «ليس بعد. لكنني سوف أفهم الأمر يوماً ما». أضحك وأقول: «في هذه الحالة وأنا سوف أفهم في يوم من الأيام». كانت عاملة النظافة يومذاك تمسح الأرضية وكانت طوال الوقت تعبر عن امتعاضها: «وهكذا نمضي حياتنا بأكملها في خوف دائم - في البداية نخاف أن نحب، ومن ثم أن نلد، ومن ثم نعيش بقية الحياة في حالة قلق على الطفل».

سؤال: هل عادت إلى البيت ولكن من دون طفل؟

جواب: نعم. لم تعد تشعر بحركاته في بطنهما. كان الجنين قد مات - في داخلها.

سؤال: هل شرحوا لك ما الذي حدث؟

جواب: نعم، شرحاً. لم أفهم الأمر بصورة كافية. كنت خائفاً وقلقاً على تانيا. كانت تشعر بالصدمة. والأهم من كل ذلك، لم أكن أعرف ما الذي يجب عليّ أن أقوله لها. كنت أريد أن أواسيها وأن أهدئها، ولكن هذا مستحيل في مثل هكذا ظرف. رحت أكرر طول الوقت: «نحن معًا، وهذا أهم شيء». كما أنه لدينا رومكا. كما أنه سوف يكون لنا طفل. سوف يكون من كلّ بد! سوف ترين ذلك!».

سؤال: لماذا قلت للصبي؟

جواب: وماذا كان بإمكانني أن أقول له؟ قلنا له إنَّ أخاك لم يولَد. لقد مات. راحت تانيا تأخذ رومكا إلى مدرسة تابعة للكنيسة في أيام الأحد. كان يعود ويعلن لنا عن حكمة أو قول مأثور معروف: «أن يقول أحدهنا إنه لا وجود للرب - أشبه بمحاولة إقناع الأطفال أنه ليس لهم ولم يكن لديهم قط والدان». وفي أحد الأيام جاء وأعلن: «لم يتم هو على الإطلاق! بل إنه ببساطة يتضررنا في مكان ما». كنت أشعر بالخوف على رومكا، أنه سوف يعاني من صعوبات - أو أن يعتدي عليه الأولاد الآخرون. فهو هنا، في البيت، قوي ومقاتل مع أمّه، أما مع الأولاد الآخرين فهو هادئ جدًا ومستكين. كان يخشى

من السباحة في بركة الماء - لعله ييلع صغار الصفادع، أو ربما تمتصُ دمه العلاقات (المحاجم). كما كان يشعر بالشفقة تجاه جميع الكائنات. في أحد الأيام، وكان فصل الشتاء بارداً جداً، حمل إلى البيت طيراً التقاطه في الشارع. كان يلعب مع نفسه - كما لو أنَّ إيريق شاي مع صنورين مرتقعين - يمثلان فيلين يتحدثان مع بعضهما، وأحدهما ضخم والثاني صغير. أخذته معه إلى حمام في المدينة، حيث الجو حار وصاحب. قال لي: «بابا، اعمل هكذا!». يقف ويغطي أذنيه براحتي يديه، ثم يرفع اليدين ليعود ويغطي الأذنين - تكون النتيجة إحساس كما لو أنَّ أحداً ما يتمطلق (يتلمظ) في الأذنين. وقبيل النوم أقوم بمرافقته إلى السرير حيث أقرأ له شيئاً ما. لقد قرأتنا معاً كل شيء، روبنسون كروز، وغوليفير، وميونخهاوزن، وجول فيرن. كما صنع سفينة الكابتن نيمو من الصابون بنفسه. كان لدينا أنا وهو الطقس التالي قبل النوم - أن نخمن من يريد وأين يريد أن يستيقظ في صباح اليوم التالي. في جزيرة غير مأهولة أو في مكان آخر. وفي إحدى المرات تمنى أن يستيقظ ليجد نفسه في سفينة الكابتن نيمو، حيث يتنتظره أخوه هناك. وغالباً ما كنت أغفو قبله. تأتي تانيا وتراني قد غفوت، بينما رومكا يجلس ويلعب لعبة «ليغو» أو يقرأ كتاباً. لطالما كنت خائفاً أن أخسر كل ذلك. كنت أخاف أن يحصل لهما مكره. إذ يمكن أن يحدث معهما أي شيء. أناأشعر بربع حقيقي لأجلهما.

سؤال: سوف يكون كل شيء على ما يرام.

جواب: حقاً؟

سؤال: كن على ثقة، سوف يمر كل شيء بسلام.

جواب: هذا ما تعتقد؟

سؤال: بل أنا أعرف.

جواب: من أين لك أن تعرف؟

سؤال: كل شيء ينتهي نهاية سعيدة بصورة دائمة. هذا ما يحدث في كل مرة: في البداية معاناة وقلق، ومخاوف ودموع وفقدان، وفي نهاية المطاف يصبح كل شيء من الماضي. وحتى أن المرأة لا يصدق أنه عاش ومر بكل ذلك. مثل كابوس فظيع. انتهى ولم يبق شيء.

## مكتبة

t.me/soramnqraa

جواب: لقد غفوْتُ هنا للحظة، وحلمت أَنَا نستلقي في سريرنا، وأنَّ رومكا انضمَّ إلينا ودفن نفسه معنا تحت اللحاف، ثم راحت أنا وهو نمسح على بطونها من الجهتين، وقد سألتُها: «كيف ذلك، ألم يمت الجنين؟». وتانيا تجيبني: «كلا، لم يمت، هيا أصفع!». مسحت بطونها بيدي وأردتُ أن أضع أذني عليه لكي أسمع، وفجأة أشعر بخوف شديد، أن هذا كله مجرد حلم، وأن ثمة موئلاً في داخلها،وها إنني استيقظت - في زنزانة باردة ومع قيد في يدي، وإنهم سوف يعيدوني بعد أن قاموا بخياطة بطنِي كيما كان، إلى المهجع العام.

سؤال: ما هذا الذي تقوله! ما من شيء يدعو إلى القلق، كُلُّ شيء على ما يرام، وقد بات كل شيء من الماضي. لا يوجد ما تخاف منه بعد الآن! كل ما كان شيئاً - لم يكن سوى كابوس فظيع، وسوف تستيقظ حالاً هناك حيث ضمرت في نفسك أن تستيقظ مع ابنك. إذ إذنك رغبت بأن تستيقظ معه في قمرة القبطان المصنوعة من الصابون! وسوف تكون هناك حبيبك تانيا ورومكا. وقد طال انتظاركم هناك من قبل أخيه. ووالدتك. وشقيقتك. وكل من هو قريب لك وعزيز عليك. وسوف يصبح كل شيء مفهوماً ومعروفاً ببساطة بشأن الجسد البشري الممدوود في الزمن وهذا ما يجعله يملأ الفضاء بالمحبة. وسيكون المكان رحباً ومرتفعاً بالنسبة لرومكا - غواصة بأكملها! بحيث سيكون بإمكانه أن يلمس أي شيء وأن يقوم بتدوير الأذرع والعجلات، وأن يضغط على المقابض والمزالج والصمامات والأزرار. وسوف يضع الكابتن نيمو بنفسه سدراته المبللة والدهنية والمحفظة بالدفء في داخلها على رأس رومكا.

تحركت القوات باتجاه بابل صباحاً. كانت ساعة الازدحام في البazar قد حانت، ولم تكن المحطة التي قرر قورش أن يتوقف فيها بعيدة، عندما ظهر باتسي<sup>(1)</sup>، ذلك الفارسي النبيل والثري من المقربين في حاشية قورش وهو يبحث حماره المُجَهَّد لكي يسرع بكمال طاقته وقد راح يصرخ لكل من

- 1 - لقب الكاهن الحاكم في ولايات سومر القديمة، وكذلك أحد المساهمين على الأرضي الملكية في بابل في عهد حمورابي. المترجم

يصادفه في طريقه باللغة اليونانية وبلغة البرابرة<sup>(1)</sup> معلنًا أنَّ الملك يقترب على رأس جيش ضخم وأنه مستعد للدخول في المعركة. وإذا سمعه قورش قال: «أيها المحاربون، إنَّ مملكتنا المتواترة عظيمة جدًا وهي تمتد نحو الجنوب إلى تلك المناطق حيث لا يمكن للناس أن يعيشوا بسبب الحرارة المرتفعة، وباتجاه الشمال وصولاً إلى تلك المناطق التي لا يمكن العيش فيها بسبب البرودة الشديدة. وفي حال انتصرا، سيكون من واجبي أن أمنع السلطة في تلك البلدان لأصدقائي. وأنا لا أخاف، في حال نجحنا، ألا يكون لدينا ما لا يكفي من الهدايا لجميع أصدقائي، بل إنني أخشى ألا يكون لدى عدد كافٍ من الأصدقاء الذين أستطيع تقديم العطايا والهدايا لهم».

نزل قورش من المركبة وارتدى الدرع، ثم امتنى حصانه وأخذ الرمح بيده وأصدر أوامره للجميع بأن يتسلّحوا بكمال عتادهم ثم يشغلوا أماكنهم في الصفوف. وقد اندفع قورش إلى المعركة برأس غير مكشوف.

كان النهار قد اتصف ولما ظهر العدو بعد. عند منتصف النهار فقط ظهر عمود من الغبار أشبه بسحابة خفيفة، وبعد مضي بعض الوقت لاح في السهل، على مسافة بعيدة، ما يشبه الغيمة السوداء. عندما اقترب الخصم راحت تلمع القطع النحاسية ورؤوس الرماح، بحيث بات بالإمكان تبيان الأفواج. كانت تقدم الجيوش مركبات ذات مناجل<sup>(2)</sup>. كانت المناجل مثبتة بطريقة منحرفة على محاور العجلات ومثبتة تحت العجلات بواسطة شفرة باتجاه الأرض وذلك لكي تتمكن من تمزيق كل ما تصادفه في طريقها. راحت قوات العدو البربرية تقترب بخطوة ثابتة بطئية، في حين أنَّ القوات اليونانية كانت ما تزال واقفة في مكانها وقد راحت تنظم صفوفها بعد أن تنضم إليها الأفواج القادمة للتو. راح قورش يتنقل أمام صفوف قواته راكبًا حماره وهو ينظر إلى تلك الجهة مراقبًا الأعداء والأصدقاء على حد سواء.

1- كان يطلق اسم البرابرة على الأشخاص من غير التابعية اليونانية أو الرومانية القديمة.. فاقضى التنبؤه. المترجم

2- عربات قتالية قديمة ذات شفرات مثبتة على عجلات من كل جانب. وقد كان الهدف منها توجيه ضربات إلى أرجل المشاة والخيول عند العدو بالإضافة لدبّ الذعر بين صفوفه. المترجم

اقترب منه كليرشوس<sup>(1)</sup> على حصانه وراح يقنعه بأن يبقى خلف صفوف المحاربين وألا يعرض نفسه للخطر. «ما هذا الذي تقوله، يا كليرشوس! - هتف قورش - أنا أبحث عن المملكة، بينما أنت تنصحني بأن أبدو غير جدير بأن أكون ملكاً». راحت قوات العدو تقترب بهدوء وببطء، من دون صراخ وفي صمت مطبق.

عزيزي نبوخذ نصر!

لدينا الآن توقيت البريد الليلي، ولذلك أنا مستعجل لكي أكتب لك بعض الكلمات.

لأعرف كيف الوضع عندكم، أما عندنا هنا فالكلمات تتشكل في الليالي متكتفة من سديم كلامي. يتحول الغبار الكلامي بطريقة ما - كانوا قد شرحا لنا ذلك ذات يوم في المدرسة، ولكنني نسيت كل ذلك، إما من دون مشاركة ثلاثة ليبيخ<sup>(2)</sup> أو تحت تأثير الاهتزازات المناخية - إلى بذور عباد شمس على اللسان.  
ولعله ببساطة قانون الأرق.

بالمناسبة، هل استلمتم رسالتي السابقة التي حكيت لكم فيها عن صيد دجاج الغاب، وعن عرس من دون عريس، وعن تلك الرسالة الممزقة على البيانو المغطى باللنك القمرى، وعن الحرب والحفل الراقص والمبرزة، عن بباب الجامعة الذى يلعب بطريقة رائعة في لعبة الداما بأغطية الأوانى الكيميائية؟ الحق يقال، هناك عتب كبير على البريد! ترسل الرسالة بالبريد المسجل، وتطلب توصيلها بأقصى سرعة، تقوم بمداعبة راحة الكف العظيمة لموظف البريد طويلاً القامة برأس سبابتك، بمعنى أنك بسبب المعرفة القديمة، لن نقصر تجاهه، لكنه بدلاً من أن يسرج خدمه الذين تم

- 1 - Clearchus أو Clearchus ولد في سبارتا حوالي عام 450 قبل الميلاد - توفي في بابل في 401 قبل الميلاد)، وكان ابن Rhamphias، قائد عسكري. أرسل من أجل مساعدة سكان بيزنطة. لكنه قام بانقلاب هناك ونصب نفسه دكتاتوراً. المترجم تكون ثلاثة Liebig من أبوين زجاجيين محكمين بعضهما ببعض. عن طريق تحريك الأنوب الداخلي، يكون السائل والمبرد الخارجي (الغلاف) (الماء البارد). المترجم

تلفعهم بشكل جيد بأسرع ما يمكن، يقوم بإرسال أشخاص منهكين وميؤوس منهم. علماً أنه بعد التندر<sup>(1)</sup> هناك تايغا<sup>(2)</sup>. هناك لن يعود ممكناً إلا عن طريق جليد نهر تونغوسكا المتجلد. وبشرط أن يكون هناك فرصة مناسبة.

فما هو المثير للدهشة أنك قد تستلم رسالتي هذه مع ما فيها من أخبار، بعد مرور سنوات طويلة جدًا. الساعة لدينا الآن الواحدة والنصف ليلاً. وبالمناسبة، سبق أن أخبرتك، كما أعتقد، أن عندنا خللاً ما بخصوص الزمن في اللانهاية.

في حين أنَّ توقيتي الخاص الواحدة والنصف محاط بواسطة علب فارغة للموز. حيث إنها بقية مربوطة حتى الآن بعد انتقالي. تقف قرب الحائط. كنت قد وضعتها هناك بكل بساطة لفترة مؤقتة، في الأيام الأولى، مع نية أن أقوم بفتحها لاحقاً، ولكن الأيام الأولى طالت وامتصت في ذاتها أوقات السنة بالكامل، ومن ثمة دورة الثلوج في الطبيعة وطنين بعوضة.

يا له من شيء مريع ومناسب للانتقال والهجرة. كنت قد أخذت في e' Denner بضع علب ممتازة. وأما هنا فقد أردتُ أن أغير على شيء ما، ولا أذكر أين كان يمكن لهذا أن يكون، لذلك كنت مضطراً لأن أقوم بتفكيك كل شيء. قمامنة مختلفة، ودفاتر يوميات قديمة، جرائد ومجلات، مسودات وقصاصات، خلاصات من سجلات، خريطة مصر ما قبل العصر الصحراوي، ختم سقط من مكانه، أول ظهور للجihad الأربع على الجسر، آثار لکعوب حادة ومدببة على الأرضية.

كما أني عثرتُ على أوراق تعود لمصر ما قبل العصر الصحراوي، عندما كان المترجم معلمَا فتىً لأبناء العرق الأوروبي والتونغوس، حيث كان يحصل على فرنكات، فكان مضطراً لأن يجري بعد انتهاء الدوام لإعطاء دروس في المنازل.

1- التندر أو التيندرا في الجغرافيا الطبيعية هي نوع من الحيوانات حيث يمتنع نمو الأشجار بسبب درجات الحرارة المنخفضة جداً وقصر طول مدة النمو. يأتي مصطلح التندر من اللغة الروسية *tundra* التي تعني المرتفعات أو المقطع الجبلي عديم الأشجار. المترجم

2- التايغا أو الغابات الشمالية منطقة بيوجغرافية شمالية تحت قطبية مميزة بغضاء نباتي متكون على الخصوص من أشجار الصنوبر وغيرها من الأشجار الصنوبرية المستديمة الخضراء والمتأقلمة مع المناخ البارد. المترجم

كان المعلم قد نشر أول قصة له في مجلة محلية، وهذا كان كافياً لأن يتغير العالم بشكل كامل، ولكنه لم ينقلب رغم التوقعات. ذلك أنه ما من شيء يمكنه أن يجعل هذا العالم ينقلب. ولكن، وكعزماء له، حدث في أحد الأيام الماطرة - وكان قد انقضى حوالي نصف فصل الشتاء، ولم يتتساقط الثلوج أو تحدث أيام صقيع، ما جعل أشجار عيد الميلاد التي رماها أصحابها في الفناء، تستلقي على العشب الجاف والذابل - اتصلوا بالمعلم الشاب من إحدى دور النشر التي بدأت تظهر هنا وهناك في مختلف الأقبية، واقتربوا عليه أن يكتب كتاباً من سلسلة السير الذاتية، عن مطربة مشهورة آنذاك تقوم بتأدية أغاني رومانسية.

عندما سمع اسمها، تذكر على الفور ذلك القبو في حي ستاروكونيوشنّي، وذلك الجهاز المعد لتشغيل الأسطوانات الموسيقية الذي يعود لما قبل الطوفان، مع ذراع مكسورة، والذي كان والده، الضابط في غواصة حربية سابقاً، قد قام بلفه بشرط عازل أزرق. راح الفتى الذي سيصبح معلماً يصغي باستمرار إلى تلك الأسطوانات التي تدور حول تشيبوللينو<sup>(1)</sup> والعم ستيبا<sup>(2)</sup>، أما والده فكان يسمع على ذلك الجهاز أسطوانات خاصة به، قديمة وسوداء وثقيلة، وعندئذ كان يجب نقل السرعة من 233 إلى 78. كان المخادع والمشاغب، بطبيعة الحال، يحب أن يسمع كل شيء بالمقلوب، وعندئذ كان السيد طمامط<sup>(3)</sup> يسقّق شيئاً ما على طريقة ليليبوت<sup>(4)</sup>، أما الأصوات النسائية على أسطوانات الوالد فكانت تصبح أقرب إلى صوت الخال فيتيا، جارهم في المبني، الذي تمزق حنكه أثناء الحرب، لذلك كان يمشي - كما كانوا يقولون - مع أنبوب فضي موضوع في حنجرته.

- 
- 1 Cipollino - من الأدب الإيطالي. صبي صغير، بطل قصص وحكايات خرافية من تأليف الكاتب جياني روداري. المترجم
  - 2 شخصية اختلقها الكاتب الروسي سيرغي ميخالكوف وهو بطل رواية شعرية للكاتب مؤلفة من خمسة أجزاء ومحضة للأطفال. والعم ستيبا شخصية إيجابية مرحّة، تساعد رجال الإطفاء ورجال الشرطة... المترجم
  - 3 الأدق - السيد بوميدور (بندوره) إحدى الشخصيات من مختلف الشخصيات والفواكه في الحكاية الخيالية تشيبوللينو.. وهناك السيد عنب والستيда ليمونة الخ. المترجم
  - 4 شعب الأقزام في رواية الكاتب الإنكليزي جوناثان سويفت «أسفار غولifer».... المترجم

كانت لدى ضابط الغواصة السابق أسطوانة واحدة لتلك المطربة. وعندما كان يعود ثملأ، كان يسمع هذه الأسطوانة بالتحديد. كانت ماما تذهب لزيارة الجيران أو تقوم بأعمال المطبخ، بينما يغلق بابا باب الغرفة، ثم يحمل الطفل الصغير الذي سيصبح معلمًا في المستقبل بين ذراعيه، ثم يجلس على الأريكة التي كانوا ينامون عليها ثلاثة - كانت المرأة تضع الطفل، على الرغم من أن ثمة سريرًا خاصًا به، في الوسط بينها وبين الرجل، كما لو أنها كانت تحمي نفسها بال طفل - ويروح يتحدث عن امرأة باسم زوسي أهدته تلك الأسطوانة عندما كانت غواصتهم ترسو بعد الحرب في قاعدتها في مدينة ليافا. لم يكن الحديث عن زوسي يثير اهتمام المعلم المستقبلي ولذلك كان يطلب من والده أن يحكى له عن البطيخ الأحمر. وعندئذ كان الوالد يتذكر كيف كان وأقرانه من الفتية يسرقون البطيخ الأحمر والأصفر على سكة الحديد. كان المعلم المستقبلي يتخيل كل شيء كما لو أنه مقطع سينمائي: ها هو القطار يبطئ من سرعته، وهو الأب - البطل وقد استعد ليفز إلى سلم العربة المحمولة بالبطيخ، ثم بدأ يزحف على حائط العربة المتقلقلة نحو النوافذ المطلوبة تحت سقف العربية مباشرة ومن ثم يبدأ بإلقاء البطيخ من العربة الممتلئة بالبطيخ الأحمر والأصفر على الأرض حيث يلتقطه رفاته. كان البطيخ أحياناً يتحطم وينفجر مثل قنابل يدوية. بعد ذلك يقفز بمهارة في المنتصف بين عمودين ويتشقلب إلى أسفل المنحدر. كان المعلم المستقبلي يعتز بأبيه كثيراً وبذلك البطيخ.

وحتى في هذه اللحظة، وبينما أكتب هذه الكلمات، شعرت بشهية كبيرة للبطيخ، كما لو يكن والدي هو الذي كان يقوم بذلك، وإنما أنا الذي كنت أزحف ممدداً على حائط العربة المهترئة باتجاه النافذة المفتوحة، وأنه كان ثمة عتمة، وأنني أصبحت أعرف أن العربية لا تحتوي بطيخاً، لأنها هبت على رائحة قشور لبطيخ أصفر من عمق تلك الظلمة الخانقة.

وهكذا، اقتروا على المعلم الشاب أن يكتب مقالة عن تلك المطربة التي تغنى في تلك الأسطوانة، بصوت أقرب إلى صوت الحال فيتيا مع

أنبوب فضي في حنجرته. تبيّن أنها ما زالت حية ترزق، على الرغم من أن الجميع اعتقدوا أنها توفيت منذ زمن بعيد. كانوا قد سلّموا هيئة تحرير المجلة مذكراتها ودفتر يومياتها. فكان يفترض به أن يلتقي بها وأن يقوم بتسجيل ما تقصّه عليه على شريط تسجيل.

بديهي أن المعلم الشاب والبائس وافق على الفور، خصوصاً أنهم وعدوا بإعطائه سلفة - مبلغ 300 دولار بالتمام والكمال. هذا ما كان ليكسبه في المدرسة خلال سنة كاملة. أذكر لسبب ما أنه كان خلف النافذة، في باحة البناء، فتاتان تلعبان لعبة رأس السنة في الوقت الذي كان يتحدث فيه بالهاتف، حيث قامت الفتاتان بنصب شجرة عيد الميلاد التي تعرّى نصفها مع ما تحمله من بقايا زينة فضية اللون في وسط تلة من القمامات بالقرب من المزبلة، ثم راحتا تتبادلان الهدايا وهما يمدّان أياديهما الفارغة للإيحاء بوجود أشياء لا يعلم أحد سواهما ما هي وماذا تعني.

وفي اليوم المحدد، عندما كان عليه أن يذهب من أجل توقيع العقد، انخفضت درجة الحرارة وأصبح الطقس صقيعياً - بات كل شيء قارضاً، زجاجياً، بما في ذلك في الشارع وفي الترامواي. أصبحت أفواه الناس بلون الشيب. كما اكتسبت شوارب ولحى الناس لوناً فضياً، وكان كل واحد يحمل أمامه بخار تنفسه مثل خيوط حلوي هوائية وهشة على قصبة. كان واضحاً من مسافة بعيدة كيف أنها تقف عند المدخل إلى مترو الأنفاق سحابة ضخمة وكثيفة من البخار. كان قد نما وتجمّع على الأبواب وعلى أسماء محطات المترو، وعلى واجهة مبنى المحطة وعلى الأعمدة جليد أشبه بالطحلب وبسماكه نصف متر.

في القبو، حيث دار النشر، كان الهواء البارد يهب من خلال جميع النوافذ التي تغطّت بطبقة سميكة من الجليد، فكان العاملون يجلسون في الغرف وهم يلبسون فرواتهم الصوفية. كانت المرأة المسؤولة عن تحرير ذلك الكتاب، واقفةً على كرسي وقد راحت تلصق الثقوب بين درف النافذة بشرط إسكتلندي عريض. كان خيط أبيض قد علق بتنورتها من الخلف، وهنا التقى المعلم الشاب نفسه يفكّر بأن يتزع ذلك الخيط بهدوء حذر وأن

يلفه على إصبعه: ألكسي، بوريس، فيكتور...<sup>(١)</sup> كانت السيدة قد لفت نفسها بشال صوفي وراحت تسعل وتمخط في منديل أمسكت به مضغوطاً إلى أنفها، وطلبت ألا يلقي بالاً وألا ينظر إليها.

أنا الآن فظيعة ومرعبة. من الأفضل لك أن تنظر إلى سيناء!

كانت ثمة تلال أحقرتها الشمس مصورة على روزنامة حائطية. وكانت عيناً السيدة المحرّرة قد بدأتا تلتهان بالفعل، ولذلك ارتبك المعلم الفتى فانصاع وراح ينظر إلى سيناء. كان النهار هناك قائطاً، بحيث إنَّ الهواء بدا ساخناً وقد راح يتبرج ويتسرب.

بينما راح المؤلف اللاحق للسيرة الذاتية يملأ استماراة الاتفاق، كانت السيدة تشير من أنفها وتمخط بلا توقف، وقد راحت تشكو من صعوبة العمل مع الناس العجزة، وتحكي له عن مخرج سينمائي سبق أن ألف عنه أيضاً كتاب من هذه السلسلة، حيث كان ينسى باستمرار أنَّ ابنه قد توفي، فكان يكرر سؤاله: «وأين فاسيا؟». كانوا يقولون له في كلّ مرة إنه ذهب إلى الدكان. فكان العجوز وقد أرضاه هذا الجواب، يتبع حديثه عن فترة شبابه مع جميع التفاصيل.

أما دفاتر اليوميات والمذكرات فلم يكونوا يسمحوا بحملها إلى البيت، لذلك لم يتمكن المعلم الفتى أن يأخذ سوى صورة عن الوثائق، كما أنه قام بالاطلاع على تلك الدفاتر في نفس ذلك اليوم وهو جالس على الأريكة الجلدية الباردة جداً في الممر المصقع للجريدة بالقرب من نبات قزم مريض لا يتجمد، على الأرجح، لأنه تأثر بدخان السجائر كما حولوا حوض النبتة إلى منفحة سجائر. شعر المعلم بأن أصابعه تجمدت من شدة البرودة، فاضطر إلى أن يلبس القفازات على الرغم من أنَّ تصفح الدفتر بها غير مريح، إذ راحت الصفحات تنزلق ولا تنوي أن تنقلب، لدرجة أنَّ الدفاتر الثمينة جداً قفزت مرتين من بين يديه وسقطت على الأرضية المتتسخة، ولكن لحسن حظه لم يكن في الممر أحد في تلك اللحظة.

1- طقس أو تقليد شعبي روسي يقوم بلف الخيط مع تعداد أسماء معينة للتخمين: في الحالة هنا - تخمين اسم الرجل الزوج أو الحبيب عند تلك السيدة... المترجم

كانت دفاتر اليوميات في أغلفة فنية ملونة قديمة تعود إلى ما قبل الطوفان، تفوح برائحة أعقاب السجائر من حوض النباتات، ومن خلال تلك العفونة كانت تنتشر رائحة الزمن المكتظ في الصفحات المكتوبة. كما كانت تفوح منها رائحة نسائية، الأدق، رائحة عجوز، ورائحة عطر قديم. كانت الأسطر قد أصبحت باهتة، وفي بعض الأماكن كانت قد كتبت بقلم رصاص. كانت بعض الكتابات مع تواريخ، وبعضها الآخر من دون تاريخ. كان الخطّ ردئاً في معظمها، ومختلفاً من مكان إلى آخر: تارة كانت الصفحات مطّرزة بشكل أملس وسلس، وتارة كما لو أنها شخطة. كما كانت بعض الأماكن ملطخة بطلاء أسود سميك. وفي بعض الأحيان كانت تتالي أوراق بيضاء - كما لو أنها كانت تنوي أن تملأها في وقت لاحق. ومن ثم كتابات فوضوية مرة أخرى. وكانت ثمة صفحات متزوعة. وحسب ترقيم الصفحات والدفاتر، تبين أنّ ثلاث صفحات مفقودة نهائياً.

بعد أن تجمّد نهائياً، عاد المعلم الفتى إلى مكتب المحرّر وراح ينظر من جديد إلى سيناء الممتلئة بالشمس الساطعة والحرقة. وقد خطر بباله: كم كان صائباً أنه هناك بالتحديد انتشرت سماء زرقاء بفعل السراب وأنه تم هناك منح الشعب المؤمن بالله لواح الشريعة، وليس في غيمة الأبخرة عند المدخل في مترو الأنفاق في موسكو الذي تعطّي بالجليد. أما رئيسة التحرير، فقد راحت تعطي تعليماتها وهي تعطس وتمخض، بأنه يجب عليه أن يذهب في أسرع وقت لمقابلة بطلة القصة، لأنّ عمرها تجاوز التسعين سنة، وأنها أصبحت هي الأخرى تخلط كل شيء، وأحياناً تنفصل عن الوعي ولكن ما زالت تمر بومضات وعي وأنه يجب التقاطها في مثل تلك اللحظات الواقعية ودعوتها للحديث عن نفسها. علمًا أنها كانت قد بدأت بكتابة مذكراتها منذ وقت طويل، ولكنها مع ذلك لم تنجع في الانتهاء من مرحلة الطفولة، ومن ثم تخلّت عن ذلك كله.

سوف تشكّل تلك المذكرات مساعدة بالنسبة إليك - قالت السيدة - ولكن لا تبالغ في التفاؤل، فقد حاولت أن أقرأ ما كتبته - ووُجدت أنه ليس هو المطلوب. المهم أن تحاول جرّها إلى الكلام. لذلك يجب عليك أن تومئ برأسك على الأقل باستمرار.

راح المعلم الفتى يومئ برأسه طائعاً، وهو يحشر الأوراق النقدية من فئة مئة دولار كيما كان، التي لم يسبق له في حياته أن رآها بأمّ عينه. كيف يمكنني أن أشرح لك ما أتمناه - تابعت كلامها - إنّ جوهر الكتاب - كما لو أنه قيامة من القبر - كما لو أنها توفيت، وأنّه لم يعد يتذكرها أحد، وإنّ ذكّرها تقول لها في هذه اللحظة: أغربي من هنا! هل فهمت؟ أوّما برأسه علامة الموافقة.

نعم - نعم، وما هو غير المفهوم هنا.

ومن ثم راح وهو في المترو في طريقه إلى البيت، يجسّ الأوراق النقدية الثلاث العزيزة لكي يتأكد أنها ما زالت في مكانها. كان يخيل له أنّ الجميع يعرفون ويرون ماذا كان يحمل، ولذلك كان يشعر بالخوف من أن يقوموا بانتزاعها منه في زحمة الممر تحت الأرض.

قام المؤلف اللاحق للسيرة الذاتية بالاطلاع على النسخة المصورة من اليوميات والمذكريات في نفس تلك الليلة. كانت العجوز فيما مضى تكتب بالفعل بالتفصيل الممل حول أناس غير معروفين وغير ضروريين، مهمين بالنسبة لها فقط، كما راحت تتذكر باستمرار تفاصيل تافهة، بحيث أنّ كل ذلك بدا له غير هام بالنسبة للكتاب الذي كلفوه بتأليفه.

في اليوم التالي، قام المعلم الفتى أثناء الاستراحة بين الدروس بالاتصال برقم الهاتف الذي حصل عليه من هيئة التحرير. أجابوا عليه قائلين إنّ بيلا ديميرييفنا تشعر بوعكة صحية الآن وهي غير قادرة على استقباله من أجل إجراء مقابلة صحفية. طلبو منه أن يعاود الاتصال في الأسبوع التالي. وفي الأسبوع التالي تكرر الأمر نفسه. وأخيراً، اتفقوا على موعد اللقاء وسافر إلى زفاف البحيرات الثلاث.

كان الوقت ربيعًا، وكان الفنان مزدحماً بسيارات صدئة من ماركة «جيغولي» وبسيارات ملطخة بالأوساخ من ماركات أجنبية، كما كانت القمامات التي تراكمت طوال فصل الشتاء قد بدأت تظهر من تحت الثلج. كانت لوحة رموز الباب عند المدخل مكسورة، كما كان المصعد معطلّاً، ما اضطره إلى أن يصعد الدرج الممتلي بشظايا من أحجار القرميد المتكسرة

بسبب تأخر عملية الترميم الموعودة، بالإضافة إلى الجرائد ورؤوس السمك المقدد. كانت الحالة تجسّد روح المداخل الموسكوفية بامتياز - تفوح رائحة البول والقطط ومواد التبييض الرطبة. لم يكن الجرس يعمل. قام المعلم الفتى بقرع الباب. راحوا ينظرون من خلال العين السحرية لمدة طويلة من الزمن، بعد ذلك فُتح الباب قليلاً. قال له أحدهم إنه تم نقل العجوز ليلاً إلى المستشفى. لم يتمكن في ظلمة الممر من أن يتبيّن سوى اليدين الملوثتين بالطحين. وفي اللحظة التي كان المعلم الشاب يتحدث فيها مع اليدين البيضاوين الملوثتين بالطحين وقد راحت تتتساقط عنهما آثار الدقيق، أدرك أنه لن ينجح شيء على الإطلاق بشأن تأليف ذلك الكتاب.

بعد ذلك اتصل عدّة مرات. عادت بطلته من المستشفى، ولكن اللقاء معها لم يعد له أي معنى - لم تظهر لديها أية لحظات من الوعي. راح يرجو تأمّين ولو لقاء واحد له - لعله سيحاول وسينجح إلى درجة ما فجأة.

لكنها لا تستطيع أن تعرف على أي شخص - قالوا له - يجب أن يكون عندك وجدان، أيها الشاب! توقف عن إزعاج العجوز المريضة، دعها بحالها، لا يجوز ذلك!

مضت الأيام. وعرف المعلم الفتى أنَّ سلسلة السير الذاتية تلك، التي كان يفترض به أن يؤلّف كتاباً عنها، قد توقفت قبل أن تبدأ. ثم أعلن أحد البنوك عن إفلاسه واختفت معه دار النشر تلك. ثم مرّت مياه كثيرة، وبقيت رزمة الأوراق غير اللازمة ملفوفة في كيس ورقى للمعجنات، مرمية لبعض سنوات مع غيرها من الأوراق والكتب الأخرى.

عندما ماتت بيلا دميتريفينا، كان قد مضى زمن عليه وهو يمارس عمل الترجمة. وقد عرف بوفاتها عن طريق الصدفة عندما جاء إلى موسكو. كانت قد انتهت مراسم الدفن، وكتبت المقالات في الصحف وبُثّت برامج عنها في التلفزيون. وفي أحد الأيام وبينما كان المترجم ذاهباً إلى مكان ما لأمر خاص به، وجد نفسه صدفة في زقاق البعيرات الثلاث. أصبح من العسير التعرف على فناء البيت وعلى المدخل، كان كل شيء نظيفاً، وكان ثمة فتيان ذوي عضلات مفتولة وشعر قصير وفي بدلات غالبة الثمن، يتشاربون إلى

جانب سيارات فارهة تم تنظيفها للتو وقد راحت تلمع. كما راحت سيدتان شابتان وقد تركتا بقربهما عربتين للأطفال، تقطفان أغصان الليلك المتبدلة. توقف المترجم لبرهة قرب التصفصف الفواح لأغصان الليلك. ثم قرر لسبب ما أن يدخل إلى المبني. كانت لوحة الرموز عند الباب مكسورة. كما كانت تفوح من المدخل رائحة طلاء حديث بعد أن تم الانتهاء من أعمال الترميم للتو، وقد اختلطت في ذهنه مع الرائحة الجديدة رائحة قديمة - رائحة القطط والبول والدهان الرمادي الرطب.

رن جرس الباب. فتحت الباب تلك المرأة التي تحدثت مع المعلم الفتى قبل بضع سنوات. ييد أنها كانت تحمل هذه المرأة في يديها المغبرتين بالدقيق جهاز هاتف فقال «موبايل». يبدو أن أحداً ما قد اشتري الشقة، لذلك كانت تزدحم في الممر أغراض معدة للانتقال وإخلاء الشقة. راح الضيف غير المتظر يشرح أنه سبق أن اتصل ذات زمن معها بالهاتف، لأنه كان يُعد كتاباً عن حياة بيلا دميرييفنا، وحتى أنه جاء إلى هذا المكان. قاطعته قائلة:

ماذا تريد؟

لم يكن هو نفسه يعرف على وجه التحديد لماذا جاء وماذا يريد. إذ إنه ليس من المعقول أن يحكى لها عن جهاز الغرامافون القديم والمربوط بشرط إسكتلندي في زقاق ستارو كانيوشني، أو عن المستر طماطم وصوت الحال فيتيا، أو عن رائحة قشور البطيخ الأصفر. فسألها من دون أن يعرف السبب:

هل كنت حاضرة عندما توفيت؟ عندما ماتت؟

سألت المرأة بنبرة ساخرة:

هل أنت بحاجة إلى ذلك كي تنشره في الصحف أم كيف كان الأمر في حقيقة الأمر؟

هزّ كتفيه:

بل كيف كان الأمر في الواقع.

في هذه الحالة، إذن: لم تكن المرحومة في الآونة الأخيرة قادرة أن تبرز

- وماذا يمكن أن توقع عند شخص عمره مئة سنة! وإذا بي أسمع ليلا صوت ارتطام مثل الرعد. ركضت، كانت لمبة تقف على طاولة صغيرة - سقطت على الأرض وتحطمـت، ثم سقطت بيلـا دميترييفـنا عن السرير - وقد تبرـزـت، سامـحـني يا ربـيـ، وتلوـثـت بالـكـاملـ. وكانت قد أسلـمـت روـحـها للـخـالـقـ. الرحـمةـ لـروحـهاـ.

كان ثـمـةـ خـتوـصـ له ذـيلـ مضـحـكـ يـركـضـ فيـ المـطـبـخـ. كـنـتـ أـلـعـبـ معـهـ، بـحـيـثـ إـنـاـ أـصـبـحـناـ صـدـيقـينـ. كانـ يـقـبـعـ<sup>(1)</sup> بـطـرـيـقـةـ مـشـيـةـ جـدـاـ وـمـسـلـيـةـ. كـنـاـ نـقـبـعـ مـعـاـ وـنـصـرـخـ منـ ذـلـكـ الـابـهـاجـ الخـتـرـيرـيـ. وـفـيـماـ بـعـدـ رـأـيـتـهـ معـ نـفـسـ ذـلـكـ الذـيلـ المـضـحـكـ وـالـمـلـيـءـ بـالـحـيـوـيـةـ فـيـ صـحـنـ كـبـيرـ فـيـ المـطـبـخـ. رـاحـتـ أـنـتـحـبـ وـقـرـرـتـ الـانـسـحـابـ عنـ الـمـائـةـ. أـذـكـرـ أـنـيـ شـعـرـتـ بـالـفـظـاعـةـ بـشـكـلـ خـاصـ لـأـنـهـ أـرـادـواـ أـنـ يـضـعـواـ لـيـ فـيـ صـحـنـيـ، لـكـيـ أـهـدـأـ، ذـيلـ المـقـطـوـعـ. يـجـبـ أـنـ تـكـونـ، عـلـىـ الـأـغـلـبـ، تـلـكـ أـولـ حـادـثـةـ شـعـورـ بـالـمـوـتـ.

كمـ كـانـ عـمـرـيـ؟ـ ثـلـاثـ سـنـوـاتـ؟ـ أوـ أـرـبعـ سـنـوـاتـ؟ـ لـيـ أـنـاـ العـجـوزـ الـحـمـقـاءـ التـيـ أـصـبـحـتـ الـآنـ غـيـرـةـ، بـالـتـأـكـيدـ، وـإـنـمـاـ يـوـمـ كـنـتـ بـنـتـاـ صـغـيـرـةـ.

كـنـتـ الطـفـلـ الـخـامـسـ، الـأـخـيـرـ الـذـيـ لـمـ يـكـنـ يـرـيـدـهـ أـحـدـ.

أـتـذـكـرـ كـيـفـ أـنـ أـخـيـ سـاشـاـ، الـبـكـرـ بـيـنـ الـأـطـفـالـ، أـصـيـبـ بـالـحـمـىـ الـقـرـمـيـةـ. قـامـواـ بـعـزـلـهـ عـنـاـ، فـكـنـتـ أـتـحـدـثـ إـلـيـهـ عـرـ الـبـابـ. كـانـ أـخـيـ يـؤـكـدـ لـيـ أـنـ الـجـلـدـ عـنـدـهـ يـقـشـرـ، وـلـكـنـيـ لـمـ أـكـنـ أـرـيدـ أـنـ أـصـدـقـ ذـلـكـ بـأـيـ شـكـلـ مـنـ الـأـشـكـالـ، لـذـلـكـ كـانـ يـمـدـ قـطـعـاـ مـنـ جـلـدـهـ مـنـ خـلـالـ ثـقـبـ المـفـتـاحـ.

أـخـتـيـ آـنـيـ، الـعـزـيـزةـ نـوـسـيـاـ<sup>(2)</sup>، تـدـرـسـ فـرـوضـ الـحـسـابـ، وـتـحـلـ مـسـائلـ وـقـدـ دـفـتـ رـأـسـهـاـ فـيـ الـكـتـابـ الـمـدـرـسـيـ، أـتـحـرـشـ بـهـاـ فـتـجـلـسـنـيـ عـلـىـ رـكـبـيـهـاـ فـأـجـمـدـ فـيـ مـكـانـ بـعـدـ أـنـ رـأـيـتـ كـيـفـ رـاحـتـ الـرـيـشـةـ تـرـسـمـ عـلـامـاتـ وـرـمـوـزـاـ عـجـيـبـةـ وـمـدـهـشـةـ. رـاحـتـ نـوـسـيـاـ تـحـكـيـ لـيـ عـنـ الـجـمـعـ وـالـطـرـحـ. وـفـيـ عـيـدـ الـفـصـحـ نـذـهـبـ إـلـىـ الـمـقـابـرـ، وـهـنـاكـ أـكـتـشـفـ فـجـأـةـ أـنـ مـرـسـومـ عـلـىـ الـقـبـورـ إـشـارـاتـ زـائـدـ. تـأـخـذـنـاـ مـاـمـاـ نـحنـ الصـغـارـ، مـاـشـاـ وـكـاتـيـاـ وـأـنـاـ، إـلـىـ دـكـانـ الـحـلـوـيـاتـ الـفـرـنـسـيـ

1- القـبـعـ - صـوتـ الـخـتـرـيرـ - المـتـرـجـمـ

2- آـنـيـ وـنـوـسـيـاـ - صـيـغـ تـحـبـ وـدـلـعـ لـاسـمـ مـؤـنـثـ هـوـ آـنـاستـاسـيـاـ...ـ المـتـرـجـمـ

في الشارع الكبير. يعجبني ذلك الصنف من الكعك الذي يذوب في الفم - يدعى الطير المترالي. أما المياه المعدنية ماركة «زيلستر» فندعواها بالماء المغلي - لأنها تتوجه فقاعات وتحرق اللسان.

كانت ماما، عندما نتشاجر ونتعارك، ترغمنا على التصالح قبل أن نذهب للنوم - كي لا يبقى الشر حتى يوم الغد.

كانت عطور ماما - «Muguet de mai»<sup>(1)</sup>.

لم يكن مسموحاً بالدوران والتململ أو التحرك باستمرار أثناء الجلوس إلى المائدة، ولا يجب أن تكون اليدان موضوعتين على الركبتين على الإطلاق، بل على المائدة وليس كيما كان وإنما بحيث تلامس السبابتان حرف الصحن. كان ثمة اعتقاد كما لو أن الإمبراطور يجلس بتلك الطريقة ويحتفظ بيديه على ذلك النحو.

كانت ماما تقول إنه يجب على كل إنسان أن يزرع أشجاراً وأن يحفر آباراً - لذلك كان يخصص لكل طفل في حديقتنا قطعة محددة حيث نغرس شيئاً ما فيها ونقوم بسقايتها. كنت أركض عند كل صباح لكي أرى كيف تتطلع نحو الضوء نبتة البازلاء التي غرسها، وكيف أن براعمي الخضراء تنمو وتكبر. ومن ثم كان الأولاد من حي تيميرنيك يتسلقون سور ويقومون بتخريب كل شيء ويدوسونها بأقدامهم. كانت ماما تقعننا بأنه يجب علينا أن نغرس من جديد، بيد أنني لم أعد أريد ذلك.

في الصباح كانت ماما تلبس رداء بأكمام واسعة جداً - بحيث إنني كنتأشعر بالبهجة عندما أدخل رأسياً في الكم. بعد تناول الفطور، كان الكبار يشربون القهوة، وكانت تعطي لكل واحد من الصغار قطعة من السكر في ملعقة صغيرة بعد أن تبللها في القهوة السوداء من فنجانها. أما أنا فكنت أسعى وأستبسل لكي أحس يداً أمي، لأنها كانت تدعوني «لحيساً أو مصاصاً». كنت أفهم ذلك بحرفيته، لذلك كنت أقول لها: أداة لحس وليس لساناً<sup>(2)</sup>.

- زنق الوادي..(فرنسي) المترجم

- بصراحة، وردت هنا في النص الأصلي كلمتان كلاهما تعني لساناً... ولكن الكاتب يلعب على اختلاف بسيط في استخدام المفردتين.. المترجم

أنا أحبُ حين تكتب رسائل - إذ تسمح لي بأن أضع في نهايات الأسطر  
علامات تعجب.

تعزف ماما عادة لنا من موسيقى تشايوكوفسكي - «البوم الأطفال». وأكثر ما تلامس مشاعري مقطوعة «مراسم دفن دمية». أذكر أنني كنت أحمل دميتي ليزا، التي كانت تعرف كيف تغلق وتفتح عينيها، وأقوم بوضعها في علبة كرتون. كنت أبكي لأنها ماتت. ثم أشعر بالضجر من دونها. أريد أن أفتح العلبة، ولكنني أمنع نفسي بنفسِي: لا، لا يجوز، إذ إن ليزا قد توفيت، ولم يعد لها وجود. وهنا يتفضَّل كل شيء ضد هذا المنع: لماذا لا يجوز؟ ها هي، حبيبي ليزا،وها هي خصلات شعرها الأشقر الكثيف،وها هما وجنتها وهذا هو فستانها الزهري، هي ذي تفتح عينيها وتخرج من العلبة كما لو أنه لم يحصل لها أي شيء! لا تخافي، يا ليزا! لم يحدث أي موت! سوف يأتي يوم ما وسأعطي دميتي ليزا إلى إحدى البنات لكي تلعب معها، وإذا ما تشارجنا، سوف تقوم في نوبة حنق وغضب باقتلاع عيني الدمية. وعندئذ سوف تتدحرج الكرات الزجاجية في رأس الدمية الفارغ والمصنوع من الخزف، مصدرة صوتاً رناناً.

أما المطبخ - فهو ميراث المربيَّة، التي تقوم في الوقت نفسه بوظيفة الطباخة. وهناك تستقبل المربيَّة عشاقها. يأتي في الأماسي رجال شرطة، وبخاره مع آلة الهارمونيكا. ما زلت لا أعرف معنى كلمة «استغلال». لكن هذا بالضبط ما تفعله المربيَّة معهم - تارة يحملون السجاد إلى الفناء حيث يقومون بنفسه، وتارة يقومون بمسح الأرضية. وأما لأجل الأرضية فهي تفضل المغرمين - الذين يتقنون مسح الأرضيات باحتراف. كان هؤلاء يأتون إليها مرة واحدة كل شهر، فكانت تلهو معهم وتغازلهم في المطبخ وتقدم لهم أطعمة لذيدة. كان ذلك اليوم بالنسبة لماما يوماً فظيعاً، إذ كانت تغادر المنزل، أما أنا فعلى العكس، حتى أنه كان يروق لي أنَّ البيت ينقلب رأساً على عقب، وكانت تفوح رائحة المصطكي<sup>(١)</sup>.

---

١- مادة - معجون يستخدم لصقل وتنظيف أرضيات المنازل. المترجم

كانت المربيّة في صباح يوم ميلادك تنتظر قرب باب الغرفة لكي تقدّم لك هدية بمجرد أن تستيقظ وأن تفتح عينيك.

وفي عيد شهداء سبسطية الأربعين<sup>(١)</sup>، الذي يصادف في ٩ آذار، تقوم المربيّة بتحضير كعك على شكل «قبرات» مع أجنحة مفرودة، كما لو أنها تطير ولها عيون من زبيب. لن نأكل كُلَّ شيء، بل ستترك الرؤوس للوالدين - بيَدِيَّنا كنا نقتلع الأعين ونمص الزبيب الحلو. ثم نصيح: «أيتها القبرات، هيَا طِرْنَ إلى هنا، وخذن الشتاء البارد، ثم اجلبَنَ لنا الربيع الدافئ: لقد مللنا الشتاء، إذ إنه التهم كامل القمح عندنا». في كُلَّ يوم يكون لدينا خبز طازج فواح على المائدة من الفرن، ولكن في بعض الأحيان يبدو لي أنه لم يبق كسرة خبز بعد فصل الشتاء الطويل، وأن «القبرات» وحدها يمكنها أن تساعدنا لنجو. قبل أن تضعها في الفرن، تقوم المربيّة على الدوام بوضع قطعة نقدية أو خاتماً في عدد منها. ودائماً تكون القبرة المطلوبة والمشتهاة من حظي - من الواضح أنَّ المربيّة، وإن تذكر في آية واحدة وضع القرش، تقوم بدسها لي. أنا متأكدة من أنَّ هذا العيد يرتبط بطريقة ما مع العقوق ذي الجوانب البيضاء، وكثيراً ما أشعر بالدهشة حين أعرف أننا بذلك إنما نحتفل بعيد شهداء سبسطية الأربعين. أذكر كيف كانت المربيّة تدُسُّ إصبعها في الكنيسة في أيقونة معتمة لا على التعين ولم يكن بإمكانني أن أفهم شيئاً مما هو مرسوم عليها، وحدها رؤوس القديسين مع حالات فوقها تندمج لتشكل ما يشبه عنقود عنب، ثم تبدأ بالحديث لي همساً في أذني مباشرة كيف أنه تم اقتياد البائسين عراة إلى مكان جليدي وتركوهم يموتون هناك من البرد. تعجبني رائحة القطران في القنديل، ورائحة اللبان في الكنيسة، خصوصاً في فصل الشتاء، عندما يكون الجو في الخارج عاصفاً وبارداً جداً. تشرح لي المربيّة أنهم يقومون بحرق البخور لكي يشمُّ الرب رائحة لذيدة. أنا متأكدة

- ١- شهداء سبسطية الأربعين (القرن الرابع) هم بحسب التقليد الكنسي مجموعة من الجنود الذين قتلوا بطريقة وحشية بسبب تمسكهم بإيمانهم المسيحي، وذلك قرب سبسطية في أرمينيا الصغرى عام 320 م، فكانوا بذلك من ضحايا اضطهاد ليسينيوس الذي أعلنَ ضدَّ مسيحيي الشرق بعد عام 316 المترجم

من أنَّ الربَّ يعيش في الكنيسة، والمربيَّة تستدِّني - فالجُو في الخارج بارد جدًا في فصل الشتاء، وكل واحد لديه بيت خاص به، وبالتالي تعتبر الكنيسة ذلك البيت الذي يعيش فيه الرب ويتدافأ.

كما تقوم المربيَّة خلال الفترة الممتدَّة من عيد الميلاد وحتى المعموديَّة، برسم صليب بواسطة الطبشور على جميع الأبواب والأشياء وذلك للوقاية من الشر. ومن ثم تجلب ماء التعميد من النهر وتقوم بتطهير كل شيء، وعندئذ يصبح من الممكِّن ألا تخشى أية روح شريرة - ذلك أنَّ الرب بعد عيد الميلاد يكون في حالة فرح وبهجة، لأنَّه ولد لديه ابن، ولذلك فهو يقوم بفتح جميع الأبواب ويسمح للشياطين بالتسكُّع وباللهُو.

إنَّ الملائكة والشياطين حقيقيون في عالم المربيَّة تمامًا مثل الجوارب والسرابيل. وأنا أتفق معها تمامًا بأنَّه يتم تكليف ملائكة وشيطان لكل إنسان منذ ولادته، وأنهما لا يتخلان عنه ولا للحظة، حيث يقف الملائكة من الجهة اليمنى والشيطان يقف من الجهة اليسرى - لذلك لا يجوز أن يمسق المرء إلى الجهة اليمنى ولا أن ينام على جنبه الأيمن، لكي يحفظ وجهه متوجهًا نحو ملائكة وبالتالي هذا يمنع عنه رؤية أحلام مزعجة أثناء النوم. كما يقوم الملائكة بتسجيل جميع كلماتك الطيبة والخيرة، أما إبليس فيقوم بتدوين الكلمات الشريرة، وعندما يموت المرء يتجادل الملائكة مع الشيطان عن مصير روحه المذنبة. وفي حال طَّلت أذنَك اليسرى - هذا يعني أنَّ الروح الحارسة طارت إلى الشيطان لتقدم له ذنوب الشخص التي ارتكبها خلال اليوم، وهذا هي قد عادت لكي تقف من جديد في محرسها وتتحين فرصة أو حجة للإغواء. وأنباء العاصفة يقوم إبليس بالاختباء خلف ظهر الإنسان كي لا تصيبه سهام البرق. ذلك أنَّ النبي إيليا إذا ما أصاب إبليس يمكنه أن يقتل إنسانًا بريئًا. لذلك يجب على المرء أن يرسم إشارة الصليب أثناء العاصفة.

أحاول قبيل النوم أن أتخيل لنفسي كيف يبدو ملاكي الحارس، كم هي أحنته بيضاء ثلوجية اللون، وكم هي طرية وعطرة، تماماً مثل الفرشاة التي تضع بواسطتها البودرة على وجهها.

تقودني المربيَّة إلى مكان ما. نشاهد ونحن في طريقنا كيف أنَّ الأولاد

يقدرون الحجارة في الأجمة. تحزن المرية لذلك وتتذمر قائلة إن هذا لا يجوز - لأنه في الفضاء ملائكة وفي كل مكان ويمكن أن يصيب حجر أحدها من دون قصد. شيء ما يتحرك في الأجمة التي نجتاز بمحاذاتها. يتظر الأولاد وهم يحملون الحجارة في أيديهم ريشما نعبر ونبعد. شاهدتُ في الأجمة طيرًا، عبارة عن حمامه مكسورة الجناح. التقاطناها وأخذناها معنا. تبقى عندنا في المطبخ حتى حلول المساء، ثم تختفي في اليوم التالي. تقول المرية لي إنَّ الحمام شفيف وطارت. لكنني لا أصدق كلامها ومع ذلك ألتزمُ الصمت. وقبيل النوم أتخيل لنفسي أنَّه إذا ما انكسر جناح ملاكي الحارس فسأقوم بعلاجه.

وفي مكان ما تحت أرضية البيت يقيم الجنّي، ذلك السakan غير المرئي وحارس جميع القاطنين في البيت. يستحيل رؤية جنّي البيت، والإنسان غير قادر على ذلك، ولكنه يستطيع سماع صوته وحتى أن يلمسه، الأدق، أن يشعر بملامسته: يقول كما لو أنه يحرّك الأوراق وفي الوقت نفسه يقوم أثناء الليل بداعبة النائمين بيده الناعمة.

تعلّمني المرية الصلاة، حيث لديها في إحدى الزوايا عدد كبير من الأيقونات، لكن الأيقونة الأغلب على قلبي - أيقونة أم الرب الثلاثية الأيدي. وأنا أحبّ أن تحكي لي المرية عنها. عندما أراد هيرودوس أن يقضى على المسيح في المهد، هربت أمُّ الرب معه إلى مصر، وفي إحدى المرات وهي في طريقها تعرضت لمطاردة قطاع الطرق. راحت تجري وتجري وهي تحمل الرضيع بين يديها وفجأة ظهر أمامها نهر. ألقت بنفسها في مياه النهر لكي تسبح إلى الجهة المقابلة وبالتالي لكي تنجو من المطاردة. ولكن كيف لها أن تسبح وهي تحمل الرضيع بين يديها؟ كيف يمكنها أن تجذف بيد واحدة؟ وهنا راحت أم الرب تصلي لابنها وتتوسل إليه: ابني الحبيب، أعطني يدًا ثالثة، وإلا فلن أتمكن من السباحة. سمع الصغير صلاة الأم - ونبتت لديها يد ثالثة. عندئذ صار أسهل عليها أن تسبح - ومن ثم اجتازت النهر وخرجت على الضفة الثانية وبذلك أنقذت نفسها وطفلها.

إنني أخشى يوم القيمة وحتى أنني أعرف أنه سيحل قبل عيد الماسلينيتسا<sup>(1)</sup> لأن الأسبوع الذي يسبق العيد يدعى أسبوع الحساب العظيم. ففي ذلك الأسبوع على وجه التحديد يزغ خلف النافذة في الأفق غروب أحمر متقد وذلك في الأماسي الصقيعية، وعندئذ أقرر في نفسي أنَّ العملية قد انطلقت - فأركض إلى المطبخ حيث أسلم المربية تلك السكاكر والبسكويت الذي كانت قد أخفته لبعض الوقت.

تعتبر المربية أنَّ خيوط العنكبوت هي أفضل وسيلة لوقف التزييف الناتج عن الجروح. ففي إحدى المرات أخذت سكين أبي القابلة للطهي - وإذا بالدم يسيل من إصبعي. هرعت المربية إلى المستودع لكي تجمع من الزوايا خيوط العنكبوت، ثم تغطي الجرح بها وترتبط الإصبع بخرقة. كان والدي يعتبر ذلك من قبيل التوحش، وعندما عرف جوهر القصة راح يصرخ على المربية بطريقة حانقة جداً. فهو يريد أن يعالج الجرح باليود، لكنني أمانع وأبكي إلى أن يطلب السماح من المربية. أما هي فكانت تجلس متوجهة، ثم تدمع عيناها وتأخذ ترسم شارة الصليب عليه، وهكذا يحل السلام ولكن لمدة غير طويلة.

عندما عاد أبي من الكنيسة في عيد الفصح، راح يتذمر لأنَّ الجميع يستخدمون ملعقة واحدة - وأن هذا طريق مباشر للإصابة بالعدوى! تعرّض المربية قائلة إنَّ الطفل معبد!

أذكر كيف راح يروي أنه في طفولته كان يتعلّم العزف على الناي ثم توقف عن ذلك، ولم يتمكن من الاستمرار بعد أن راح معلم الموسيقى يوضّح له كيف يجب العزف على الآلة، حيث إنه كان يفترض بوالدي أن يضع الناي في فمه بعد الأستاذ.

-1- أسبوع الم ráfay أو عيد الماسلينيتسا أو أسبوع السمن عيد سلافي يرجع تاريخه إلى عصر الوثنية السلافية. وقد اعتبرت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية أسبوع الم ráfay من أيامها ويأتي هذا الأسبوع قبل الصوم الأرثوذكسي الكبير ويحظر المذهب الأرثوذكسي تناول اللحوم خلاله. أما الألبان فيمكن تناولها بكثرة. ويشتق لفظ الماسلينيتسا من الكلمة ماسلو (السمنة) بالروسية. المترجم

نعمـة الماء. كانت المـربية تـعلمـني باـسـتمـرارـ أنـ مـيـاهـ التـعمـيدـ لهاـ صـفـاتـ عـلاـجـيـةـ وـأـنـهـ كـلـمـاـ تمـ غـرـفـ المـاءـ الطـاهـرـ فيـ وـقـتـ أـبـكـرـ،ـ كـانـ أـكـثـرـ طـهـارـةـ وـقـدـاسـةـ.ـ كـانـتـ النـسـوـةـ وـالـعـجـائـزـ وـالـشـيـوخـ يـحـشـدـونـ قـرـبـ الفـتـحةـ فيـ الجـلـيدـ،ـ وـهـمـ يـدـفـعـونـ بـعـضـهـمـ بـعـضـاـ.ـ وـهـنـاكـ أـيـضاـ يـقـومـونـ بـغـسـلـ العـيـونـ المـرـيـضـةـ.ـ وـثـمـ اـمـرـأـ تـسـكـبـ المـاءـ المـجـلـدـ فـيـ فـمـ طـفـلـ مـرـيـضـ.ـ أـمـاـ أـنـاـ فـأـخـافـ منـ التـدـافـعـ وـمـنـ الـحـشـدـ الـمـهـاجـ،ـ فـأـبـدـأـ بـالـبـكـاءـ.ـ تـلـقـطـنـيـ المـرـيـضـ وـقـدـ اـحـمـرـ وـجـهـهـاـ وـتـشـعـثـ شـعـرـهـ بـيـنـ يـدـيـهاـ وـتـجـبـرـنـيـ عـلـىـ شـرـبـ بـلـعـةـ مـاءـ مـنـ القـيـنـيـةـ.ـ يـتـشـنـجـ خـدـايـ.ـ نـعـودـ إـلـىـ الـبـيـتـ.ـ تـشـرـبـ المـرـيـضـ عـدـّـ رـشـفـاتـ ثـمـ تـرـشـ المـاءـ فـيـ شـتـىـ أـنـحـاءـ الـبـيـتـ.ـ لـأـنـهـ وـاثـقـةـ مـنـ أـنـ ذـلـكـ سـوـفـ يـحـمـيـنـاـ مـنـ مـخـتـلـفـ الـمـصـابـ وـمـنـ الـإـصـابـةـ بـالـعـيـنـ.ـ كـانـتـ تـحـكـيـ لـيـ قـبـيلـ النـومـ أـنـ الـمـسـيـحـ بـذـاتهـ يـسـبـحـ فـيـ المـاءـ الـمـعـدـ لـلـتـعـمـيدـ،ـ وـلـذـلـكـ يـكـونـ المـاءـ فـيـ حـالـةـ تـمـوـجـ.ـ وـإـذـاـ ماـ ذـهـبـ الـمـرـءـ لـيـلـاـ إـلـىـ الـنـهـرـ وـرـاحـ يـنـتـظـرـ قـرـبـ الفـتـحةـ فـيـ الجـلـيدـ،ـ فـسـوـفـ تـأـتـيـ موـجـةـ -ـ إـنـهـ يـسـوـعـ قـدـ غـاصـ فـيـ المـاءـ.ـ أـمـاـ بـاـبـاـ الـذـيـ تـبـيـنـ أـنـ كـانـ يـقـفـ فـيـ الـبـابـ وـيـصـغـيـ إـلـىـ مـاـ تـقـولـهـ المـرـيـضـ،ـ فـقـدـ رـاحـ يـضـحـكـ.ـ ثـمـ تـسـاءـلـ:ـ كـيـفـ يـمـكـنـ لـلـمـاءـ أـنـ يـكـوـنـ طـاهـرـاـ وـشـافـيـاـ طـالـمـاـ أـنـهـ يـحـمـمـوـنـ فـيـ خـنـزـيرـاـ أـجـرـبـ؟ـ أـتـذـكـرـ وـالـدـيـ،ـ وـعـلـىـ الـفـورـ يـظـهـرـ فـيـ فـمـيـ إـحـسـاسـ بـطـعـمـ الـلـيـمـوـنـ.ـ كـانـ يـشـرـبـ دـوـمـاـ وـيـرـغـمـ الصـغـارـ أـنـ يـشـرـبـواـ عـصـيرـ الـلـيـمـوـنـ الطـازـجـ.ـ كـنـاـ نـأـتـيـ إـلـيـ إـلـىـ الـمـطـبـخـ الـمـضـاءـ بـنـورـ الشـمـسـ السـاطـعـةـ،ـ ثـمـ نـقـرـبـ مـنـهـ عـلـىـ التـوـالـيـ وـيـسـقـيـنـاـ كـأـسـاـ صـغـيـرـةـ مـنـ عـصـيرـ الـلـيـمـوـنـ.ـ كـانـتـ أـشـعـةـ الشـمـسـ تـنـعـكـسـ عـلـىـ حـوـافـ الـكـأسـ وـتـقـفـزـ فـيـ جـمـيعـ أـرـجـاءـ الـغـرـفـةـ،ـ عـلـىـ الـجـدـرـانـ وـالـسـقـفـ.

بـاـبـاـ -ـ اـخـتـصـاصـيـ مـعـرـوفـ فـيـ الـمـدـيـنـةـ بـالـأـمـرـاضـ الـجـلـدـيـةـ،ـ يـعـملـ فـيـ مـسـتـشـفـيـ الـمـدـيـنـةـ،ـ لـكـنـهـ كـثـيرـاـ مـاـ يـسـتـقـبـلـ زـبـائـنـ فـيـ الـبـيـتـ،ـ خـصـوصـاـ أـوـلـئـكـ الـأـشـخـاصـ فـيـ الـمـجـتـمـعـ الـذـينـ يـتـحـاشـوـنـ الإـعـلـانـ الـصـرـيـعـ عـنـ مـثـلـ هـكـذاـ أـشـيـاءـ حـسـاسـةـ.ـ وـفـيـ يـوـمـ مـنـ الـأـيـامـ،ـ وـقـدـ كـنـتـ تـرـكـتـ مـنـ دـوـنـ عـنـيـةـ،ـ رـاحـتـ أـفـتـشـ فـيـ خـزـنـتـهـ بـحـثـاـ عـنـ كـتـبـ فـيـهـاـ لـوـحـاتـ وـفـجـأـةـ يـكـتـشـفـونـ أـنـيـ أـجـلـسـ عـلـىـ الـأـرـضـيـةـ حـيـثـ كـنـتـ أـتـفـرـجـ عـلـىـ رـسـومـاتـ مـلـوـنـةـ لـأـعـضـاءـ تـنـاسـلـيـةـ ذـكـرـيـةـ،ـ مـزـيـنـةـ بـعـدـ كـبـيرـ مـخـتـلـفـ التـقـرـحـاتـ الـمـرـعـبةـ.ـ بـعـدـ ذـلـكـ رـاحـتـ أـنـظـرـ إـلـىـ

الرجال العابرين بتقزز خلال مدة طويلة - كان يُخيّل لي أنه لدى الجميع تقرّات هناك. وأكثر فظاعة رحت أنظر بعد ذلك إلى بابا وإلى أخي البكر ساشا. لا يُصدق أنه تنموا لديهما بين الفخذين كتلة ورمية ما فظيعة.

كما أنَّ بابا يهتم بالتاريخ، لذلك يشترك في مجلات خاصة وكان يقود الأطفال مرة كل صيف من أجل القيام بحفريات في أطلال المدينة القديمة. وقد تبيّن أنَّ اليونان القديمة قريبة جدًا منا - هي ذي مدينة تانايis التي أسسها المستعمرون الإغريق من مدينة كيرتش، تقع بالقرب من الدون، في مدينة يليزافيتسكايا<sup>(١)</sup>. لا أتذكّر سوى شمس النهار الحارقة، وحفرًا هنا وهناك وهضابًا بعيدة في السهل. راح الأب يحكى لنا عن فلاسفه وصناع الخمر، وعن الشيتون<sup>(٢)</sup> والبيلوس<sup>(٣)</sup>، أما أنا فكنت أنتخب قائلة إن الحرَّ يكاد يقتلني وأنني عطشة جدًا. أنتظر اللحظة التي نرحل فيها عن هذه التانايis التي ليس فيها سوى الحفريات والأحجار المبعثرة هنا وهناك. لم أكن أصدق كلَّ ما يقال عن اليونانيين القدماء. عندما كنت أسمع أنَّ مدينة ما كانت تقوم عند حدود العالم الذي كان قائمًا يومذاك، بين التعليم والجهل والتورّث، بين النور والظلم، وأنها دمرت على أيدي البرابرة، كنت أشعر بدھشة كبيرة كيف استطاع أولئك الأولاد من تيميرنيك أن يقوموا بدمير تلك المدينة، ذات الأولاد الذين كانوا يخربون لنا أزهارنا وما نقوم بزراعته من نباتات، إذ إنَّ ماما أيضًا كانت تدعوهن برابرة. ثم تومض إشراقة في العقل الطفولي: لعلَّهم سيظنون في يوم من الأيام لاحقًا بشأننا أننا كنا يونانيين قدامى وأننا كنا نعيش وسط البرابرة؟

ثم نسافر إلى مسافة طويلة، في عربة نقل «شيز» حيث أجلس على مقعد

- ١- يليزافيتسكايا بالروسية (Елизаветинская) مدينة في مقاطعة في روسيا. المترجم

- ٢- Chiton ملابس الرجال والنساء (السفلي) بين الإغريق القدماء؛ نوع من القمصان (الكتان أو الصوف)، غالباً بلا أكمام (في العصر الكلاسيكي، كان الممثلون فقط يرتدون سترات بأكمام).

- ٣- Peplos هو ثوب بطول الجسم تم تأسيسه كملابس نموذجية للنساء في اليونان القديمة بحلول عام 500 قبل الميلاد. لقد كان قطعة قماشية طويلة وأنبوبية مع طي الحافة السفلية في منتصف الطريق تقريباً، بحيث أصبح الجزء العلوي من الأنبوب ملفوفاً أسفل الخصر وكان قاع الأنبوب عند الكاحل. المترجم

أحرقته الشمس لدرجة أني أحرق نفسي عليه، حتى نصل إلى تلة سكوثية<sup>(1)</sup> سبق للعلماء أن عثروا فيها على الذهب. أشعر بالدوار وبالغثيان بسبب الشمس الحارقة. كنت أريد أن أشاهد الذهب، ولكن الخيبة تكمن لي هنا أيضاً. لا أذكر سوى أنّ أنساً معينين راحوا يمدّون لأبي كؤوساً غريبة. تبين أنها عبارة عن جمامج مقصوصة كانوا قد حولوها إلى منافض. كما راحوا يمزحون كما لو أنَّ ذلك كان انتقاماً للأمير سفيتوسلاف، الذي صنع البجانكة<sup>(2)</sup> من جمجمته كأساً لشرب النبيذ. أبي لا يدخن، ومع ذلك سوف تبقى تلك المنفحة واقفة عنده على طاولة الكتابة طوال الوقت.

كنت أهوى أن أسلل في الليالي من غرفتي وأن أدن نفسي في السرير في غرفة نوم الوالدين. كنا نقوم بمثل هكذا لعبة - تقوم أمي بإخفائي تحت اللحاف، بينما يبدأ بابا بالبحث عنّي ويطردني إلى خارج الغرفة، وهو يتحدث عن أمور ألعاب سرية لا يجوز للأطفال أن يعرفوها. فكنت أخلط الكلام وأقول: وزراء<sup>(3)</sup>! كانوا يضحكان، فتهزّ ماما رأسها في إشارة إلى عدم دقة اللفظ، ثم تحملني لكي أنام في الغرفة المخصصة لي.

فيما بعد، بعد مرور سنوات طويلة، أدركتُ أنَّه أصبحت لدى أبي عائلة أخرى.

أصبح يذهب إلى الكنيسة نادراً، وأما إلى المقبرة - فلم يكن يذهب نهائياً على وجه التقريب. كان يشير حنقه جدًا أنَّ الناس يذهبون إلى المقبرة لكي يهتوا الأموات بمناسبة عيد الفصح، حيث يتمسّحون بالصلبان على

---

1- السكوثيون أو الإصقوث شعب بدوي متقل ينحدر من أصول إيرانية وهم من مملكة سبيلا (سكيثيا)، حل محل السيريين الذين كانوا قد جاؤوا من سهول روسيا، وقد نزح السكوثيون من سهول أوراسيا إلى جنوب روسيا في القرن 8 ق. م، واستقروا بغربي نهر الفولجا شمال البحر الأسود حيث كانوا على صلة بالمستعمرات الإغريقية حول البحر الأسود. تعرف اليوم (أوكرانيا حالياً). المترجم

2- البجانك أو البجانكة أو البجانق، كانوا شعباً تركياً شبه بدوي من سهوب آسيا الوسطى المترجم

3- ثمة قرب في اللفظ في اللغة الروسية بين مفردتي ميسيرييا - السر، ومينيستري - وزراء - المترجم

الأضرحة ويطعمون الأموات المقبرين في باطن الأرض البيض كما يضعون فطائر على القبور، ثم يسكنون الفودكا على التربة بجوار القبر. كان مسحوراً بالألمان الذين اخترعوا محقة الجثث (المرمدة). وقد قرأ في مجلة «نيفا» وعرض المقالة على الجميع، حيث كان الحديث يدور حول بناء المواقد وراح يتنهى ويقول ممازحاً: «كم سيكون جميلاً أن أعيش حتى يتم صنع محقة جثث في روستوف».

وفي الوقت نفسه، كان يبدو لي إنساناً مؤمناً بصدق وبقوّة، ولم أكن أفهم كيف يتعايش عنده هذا وذاك. في أحد الأيام، وبعد أن أصبحت أعرف الأحرف الأبجدية وأستطيع أن أقرأ كل شيء، راحت أقرأ بصوت عال: «سوف آتي إليك مرة أخرى، وسوف يكون لدى سارة ابن - ولكن العادة التي عند النساء كانت قد انقطعت عند سارة. راحت سارة تضحك بشدة - فقال رب لأبراهام: هل من شيء صعب على رب؟». شعرت بأن ذلك يثير الضحك عندي أيضاً، كما هو الحال عند سارة. قرأت ذلك المقطع على والدي. فقال لي: «لا أعرف ما هو المضحك هنا؟».

أنا لا أعرف جدي وجدي - فقد ماتوا جميعهم منذ زمن طويل قبل أن أولد. نذهب في كل فصل ربيع إلى السوق في ناختشيفان<sup>(1)</sup>. وفي شارع غيورغيفسكايا، حيث كنيسة القديس جورجالأرمنية، في المنطقة المقفرة بين ناختشيفان وروستوف، يتم افتتاح معرض ألعاب وتسوق سنوي كبير يمتد لأسابيع كامل. أتذكر الأراجيح والدوارات التي تتدلى منها وتمت زخرفتها بأشكال لحيوانات خرافية وقد راحت تدور على إيقاع الأرغن. وفي كشك يقوم عند مدخل المعرض بهلوانيون وممثلون يدعون الناس للفرجة والدخول. نشتري الحلاوة والبرتقال، بالإضافة «للكفاس»<sup>(2)</sup> وغير ذلك من الحلويات.

1- أو نخجوان باللغة الأذرية.. عاصمة جمهورية نخجوان الذاتية. ويسود الاعتقاد الشعبي بين أهلها أن بها مرقد نبى الأديان الإبراهيمية نوح واسم المدينة معناه بالتركية «مستقر نوح». المترجم

2- كفاس هو مشروب سلافي تقليدي مخمر يتم تصنيعه عادة من خبز الجاودار، المعروف في العديد من دول أوروبا الشرقية وخاصة في أوكرانيا وروسيا المترجم

سوف أعرف، بعد مرور سنوات كثيرة جداً، أنه بناء على قرار من الإمبراطورة يكاترينا، تم طرد الأرمن واليونانيين من شبه جزيرة القرم، حيث تم تركهم لمصيرهم وسط تلك السهوب المستوحشة. مات الآلاف منهم، في حين أنه كتب على تمثال يكاترينا الذي أقيم لها في ناختشيفان: من الأرمن تعبيراً عن شكرهم. كان الأطفال الروس، إذا ما أمسكوا «بقرة الرب»<sup>(١)</sup>، كانوا ينشدون: طيري، يا بقرة الرب، إلى السماء واجلبي لنا الخبر، أبيض وأسود ولكنه غير محroc» - وأما الأطفال الأرمن: «يا بقرة الرب، دللينا على الطريق إلى القرم». يبدأ أن هذا كلّه سوف يكون فيما بعد، أما الآن، في المعرض، فإني أتهم الحلاوة - عندما تقطع بأسنانك قطعة منها، فإن القطعة المتبقية في يدك تبقى ملتصقة بأسنانك لبرهة، وسوف تتمطط إلى أن تصبح أشبه بخرطوم الفيل.

وخلال مسيرنا الصليبي نلتقي بعجوز معها صبي. كنا نسير أنا والمربيّة في الشارع ونغنّي عن يسوع. فرأيتُ كيف أنَّ العجوز أسرعت وغطّت وجه الصبي بمنديلها حتى لا يتمكّن من رؤيتها. راحت المربيّة تدمدم حانقة: «أعجبك، حتى لا يتلوثوا بنا!..» وهكذا كانت هذه أول مرة أسمع باليهود. راحت المربيّة تروي لي كيف أنَّ اليهود في يوم الحساب يقدّمون الأضحية: الرجال يفتلون فوق رؤوسهم ديكًا مربوطة، بينما تحمل النساء فوق رؤوسهن دجاجة ويطلبون من الرب أن يُنزل عقابه بالديك أو بالدجاجة لقاء آثام المصليّن. «ياه - تهزّ المربيّة رأسها - لقد قاموا بصلب ديك المسيح ودجاجته!». ومن ثم سوف أعرف بشأن الختان، وأنَّ الدم الذي يسيل من الصبي في لحظة الختان يقوم بامتصاصه من يقوم بعملية الختان نفسه. فأأشعر بالفزع وبالخوف. ولم أستطع أن أفهم ما هذا الذي يقطعونه عند الأطفال البائسين!

1- الدسقيّات أو الخنافس المنقطة بالإنجليزية (ladybug) هي حشرات تعدّ من أحد فصائل الخنافس المعروفة ومن ذوات التطور الكامل تنتشر في أغلب بقاع الأرض. يُطلق على الخنافس في البلدان الناطقة باللغة الإنجليزية، اسم ladybird, ladybug or lady beetle. وكلمة سيدة توحد هذه الأسماء «العذراء مريم»، وتعتبر الخنافس في البلدان الكاثوليكية حشرة لأم الرب insect of the Mother of God. المترجم

تصبح الأماكن التي لا أرحب بالذهاب إليها أكثر فأكثر. ففي البazar شاهدتهم بأم عيني كيف أنهم قبضوا على بقرة وراحوا يضربونها. كنت مع ماما ومع اختي نوسيا. أخذتنا ماما بسرعة إلى جانب كي لا نرى ما يحدث. وبعد مرور بعض الوقت نعود لنشتري ما لم يسعفنا الوقت لشرائه. فرأيتُ كيف أنَّ عامل النظافة في البazar يطمر آثار الدماء بالرمل.

كما أتى لا أحبُ البazar بسبب القصابين هناك الذين يطاردون الكلاب الشاردة. حيث يقوم عمال «الهيترزل»<sup>(1)</sup> برمي حبيبات تحتوي على مادة الستركين السامة. وقد شاهدنا أكثر من مرة كيف أن كلباً يتآلم ويتعذّب قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. ومع ذلك لا يتناقص عدد الحيوانات الشاردة - إذ تقصد المنطقة التي باتت خالية كلاب جبانة من ناختشيفان وقد مدّت ألسنتها إلى جانب ولفت ذيولها على شكل حلقة. يتم تسميمها، فتأتي بدلاً عنها كلاب من مدينة روستوف.

عمرى ست سنوات. سوف أعرف الكلمة «إضراب»، «ثورة»، و«بوغروم»<sup>(2)</sup>.

راحت نوسيا وماشا، اللتان أصبحتا تلميذتين في المدرسة الداخلية، تعودان في الصباح من هناك وتحكيان كيف أنهما سمعتا صرائحاً وصوت إطلاق النار في الشارع، بينما كانتا تحضران حصة الدرس. وقد قام شخص ما بإطلاق النار على نافذة القاعة الكبرى حيث صورة القيصر والأسرة المالكة بأكملها معلقة على الحائط، ويمكن رؤيتها بشكل جيد من الشارع. كما أخبرتنا أنه كثيراً ما تتوقف الدروس في الآونة الأخيرة - لا يمكن المدرسون من الحضور في الوقت المناسب بسبب الإضراب.

ثمة أعمال فوضى وشغب في المدينة. وجوه الجميع مكفهرة. ما من

- 
- الكلمة من أصل ألماني أو بولوني. وتعني الشخص الذي تكمن وظيفته في مطاردة الحيوانات الشاردة من كلاب وقطط وغير ذلك... وقد تستخدم الكلمة في الرطانة اليومية للتعبير عن صفات غير حميدة لشخص ما. المترجم
  - المقصود عادة تلك المذاييع المنظمة التي كانت ترتكب بحق اليهود في روسيا القيصرية وغيرها... المترجم

أحد يريد أن يشرح لي شيئاً. سمعت أنَّ اليهود أطلقوا النار على موكب حملة الصليب<sup>(١)</sup> وقتلوا صبياً كان يسير في مقدمة الأيقونة. شعرت بحزن شديد وبالأسف على الصبي، فرحتُ أبكي بلا توقف.

اندلع حريق في البazar الجديد. يرتفع عمود من الدخان الأسود في سماء المدينة، حيث يصعد بشكل مستقيم نظراً لغياب الريح كما لو أنه جزء هائلة لشخص ما.

كنت أسمع كلمة «بوجروم» تتردد كثيراً. كانت المربية تتهامس باستمرار مع أحد ما: الصليب أبيض على البوابة - هذا يعني أنه يمكن تحطيمه، أو بالعكس، لا يجوز تحطيمه؟ راحت تضع أيقونات وصلباناً في النوافذ، كما كانت تذهب حاملة أيقونة إلى خارج البوابة. أما أنا فكانوا يتربكوني تحت رقابة كاتيا وماشا في غرفة الأطفال. كانوا يبحثون عن ساشا، لكنه ركب إلى المدينة مما جعل الجميع يقلق بشأنه، لدرجة أنَّ ماماً راحت تبلغ قطرات مهدئه. أما بابا فكان طوال الوقت في المستشفى. جلست نوسيا إلى البيانو كما لو أنه ما من شيء خاص قد حدث، لأنها تريد أن تتعلم في المعهد الموسيقي «الكونسرووار»، وأن تصبح عازفة بيانو مشهورة. راح الجميع يزعق عليها لكي تتوقف عن العزف حالاً. فصاحت: «أنا لا أستطيع أن أغفل درساً في الموسيقى بسبب بعض الأندال!».

تجلب ماماً إلى الغرفة الخاصة بالأطفال في بيتنا بنتاً صغيرة سمراء. تُدعى ليالا. كانت مرعوبة وقد راحت ترتجف. تشرح لنا ماماً أنَّ ليالا يهودية. الكلمة بحد ذاتها مرعبة، في حين أنَّ البنت غير مرعبة نهائياً، بل على العكس، نشعر تجاهها بشفقة كبيرة. يا لها من فتاة بائسة، إذ يقولون بخداعها، ويقولون لها إنَّه لم يكن ثمة مسيح. لذلك نسعى بكل طاقتنا أن

- 1 - موكب الصليب - مسيرة دينية في الكنائس الأرثوذكسية والشرقية الكاثوليكية، مسيرة مع صليب كبير (وقد حصلت على اسمها من ذلك) مع رموز ولافتات وتدور حول الكنيسة أو من كنيسة إلى أخرى (على سبيل المثال، خلال أسبوع عيد الفصح حول الكنيسة، في عيد الغطاس إلى نعمة الماء)، أو من مكان إلى آخر (على سبيل المثال، من معبد إلى نهر لبركة الماء، من دفن شهيد إلى نعمة معبد جديد باسمه، وحول المدن، وما إلى ذلك)

نساعدها ونحاول إقناعها بأن المسيح كان موجوداً. تبدأ بالتحبيب. تطلّ ماماً برأسها في غرفة الأطفال، وتعتقد أنها نهين ونزعج ليلاً، فتغضب علينا. فيما بعد سوف تصبح ليلاً أفضل صديقة لي. شقيقها، يفيم تسيمباليست، أكبر مني بعشر سنوات، عازف كمان، سوف يسافر إلى أمريكا، حيث سيصبح موسيقياً مشهوراً.

يستمر البوغروم عدة أيام. يأتي ساشا ثم يختفي من جديد، وذلك على الرغم من أن ماماً تتسلل إليه وترجوه ألا يذهب إلى أي مكان - لأنه يحدث إطلاق نار في مختلف أنحاء المدينة. يروي لنا في غرفة الأطفال عمّا شاهده. لقد حملوا جثة ذلك الفتى الذي كان أول قتيل وساروا بها في الشوارع. قاموا من خلال نافذة إحدى الصيدليات برمي قوارير تحتوي حمض الكبريت إلى الشارع. قال أخي إنه عثر على إصبعين مقطوعتين، وإنه يحتفظ بهما في علبة خاصة بالنظارات. أراد أن يفتحها لكي نراهما، لكننا هربنا ونحن نصرخ خائفين. راح يسخر منا.

طلبوا منا ألا نقترب من النافذة، وكانت إحدى شقيقاتنا تحرس المكان هناك بصورة دائمة، ونحن نتسلل بهدوء ونتطلع عبر النافذة ونحو مختبئون: يعبر أحياناً، وهم يركضون أشخاص يحملون ملء الذراعين من الأغراض. وأكثر ما تذكرت رجالاً في قيعات سوداء قاسية، وحرفين في قبعات موضوعة كيما كان ومن مختلف الماركات والموديلات - وكل واحد منهم كان يحمل ملء ذراعيه من الأغراض. كما كان ثمة صبي رث الثياب وقد وضع على رأسه سداره جديدة خاصة بطلاب المدرسة الرسمية. لم يكن بعيداً الدكان الخاص ببيع القبعات.

وفي المساء كنا نسترق السمع كيف أنَّ باباً وقد عاد من المستشفى، راح يحكى عن الأعداد الكثيرة من الجثث التي جلبوها إلى المستشفى خلال يوم - كانت لدى القتلى إصابات عميقة وكبيرة، إذ كانوا يقتلونهم بواسطة العصي الغليظة والحجارة والرؤوس.

وأخيراً يسمحون لنا بالخروج إلى الشارع. أصبحت الحشود الآن تسير في الشوارع لتتفرّج على الدكاكين المنهوبة. كنا نقف أمام كنيس يهودي

تم إحراقه. وبالقرب منه - بيت المحامي في محكمة الاستئناف، وقد كان منهوباً ومحروقاً بدوره. تناهى إلى مسمعي أننا في هذا البيت بالتحديد كنا مع بابا ضيوفاً، حيث تزاحت في قارب على عجلات. رحت أفكّر برعب بخصوص القارب على عجلات: هل يُعقل أنه احترق؟! رحت أجول بنظري في المكان - ربما قام أحد من هؤلاء الناس الذين يسرون إلى جانبي في الشارع بتحطيم ذلك القارب المذهل وبإحراقه...

تستمر الحياة. تساءلت في أحد الأيام عن السبب الذي جعلهم يدعونني إيزابيلا. أجاب بابا قائلًا: على شرف ملكة إسبانيا. هذا يروق لي. أقوم بتمثيل دور ملكة إسبانيا. على الأدق، أنا أعرف أنتي الملكة. ولا تكمن القضية في الفستان الطويل الذي صنعته من منديل ماما وليس في التاج الذي سأصنعه لنفسي من ورق مذهب، بل إن لبّ الموضوع يكمن في المعلومة السرية: أنا ملكة. أغتسل في الصباح مطولاً، وأعمل لنفسي قفازات عالية، حتى المرفقين، من الصابون.

شقيقاتي يدرسن مادة التاريخ ويحفظنها عن ظهر قلب، يبلغ مسمعي الاسم المعروف لي، فأصيح السمع. يا للهول، أكتشف فجأة أنّ ملكة إسبانيا إيزابيلا كانت قد طردت اليهود. كيف حدث ذلك؟ هذا من سبع المستحبيلات! مليكتي - وفجأة مذابح! أتذكر من جديد الأصابع المقطوعة في علة النظارات - لم يكن ساشا، على الأرجح، يكذب على الإطلاق. لقد استولى بابا منه على الأصابع في الصباح وحملها معه إلى المستشفى.

أجأ إلى بابا، أقتحم مكتبه وأسئله بوجل ومع أمل عن مليكتي إيزابيلا: وحده فقط يمكنه الآن أن ينقذني. لكن ببابا لم يكن وحده في المكتب، بل كان يقوم بمعاينة مريض، إذ كان ثمة رجل يجلس إلى الطاولة. شعرت بالخوف من أن بابا سوف يغضب وسوف يطردني، لكنه أمسكني من يدي وراح يشرح بصوت هادئ أن ذلك كان قد حدث بالفعل. لقد أصدرت إيزابيلا مثل ذلك المرسوم، ولكن يجب أن نذكر أنه في نفس ذلك العام قام كولومبوس الذي أرسلته إيزابيلا باكتشاف أمريكا. وتبيّن أنه لو لم ترسل إيزابيلا كولومبوس - من كان سيكتشف، عندئذ، أمريكا، ومتى وأين؟ ربما، ما كانت أمريكا

مكتشفة حتى اليوم. ولعلها، غير موجودة الآن. إنّ كولومبوس وغياب أمريكا التي اكتشفها يجعلاننيأشعر بالسكينة.

القضية لا تكمن البة في اضطهاد اليهود الإسبان ولا في كولومبوس، وإنما في أنني أحبُّ بابا الرائع والذكي والساخر، وأعرف تماماً أنه يحبّني أيضاً كثيراً. وكل ما عدا ذلك، باستثناء محبتي وأن ثمة مَن يحبّني، لا أهمية له على الإطلاق.

كما بقي في ذاكرتي من ذلك العام الفظيع دويُّ المدافع. كان شهر كانون الأول مظلماً وبارداً جداً. راح الجميع يلفظون كلمة «تيميرنيك» بنبرة مشوبة بالرعب وبالقلق. بات السير في الشارع خطيراً - هناك تيميرنيك. لا يسمحون لساشا ولشقيقاته بالذهاب إلى المدرسة - بسبب تيميرنيك. ثمة معركة حقيقة تجري في المدينة: بطارية مدفع للقوزاق تقصف من المقبرة اليهودية القديمة حي تيميرنيك. وعند الفجر دوى انفجار رهيب فهزّ المدينة بأكملها. تلك كانت قذيفة سقطت في المطعم التابع لمصنع «آكساي»، حيث مستودع للذخيرة. ما أدى إلى مقتل عدد كبير من الناس - يروي البعض أنهم رأوا إرباً من الحشث والثياب معلقة على الأشجار.

عندما أشاهد في الشارع أناساً في ثياب متسخة وبوجوه كالححة متوجهة، فإني أعرف أنّ هؤلاء من تيميرنيك. إنهم ثملون في الأعياد - ولذلك يصبحون أكثر رعباً وفظاظة. نخرج أنا وأختي في عيد أسبوع المرافع للتترزه، الذي يتحول إلى معركة - لأن جهات مختلف من تيميرنيك تتشارج بعضها مع بعض. فنضطر إلى الهرب.

يظهر الغجر في المدينة في فصل الربيع. يهرع ساشا مع أصدقائه لمشاهدة طابور الغجر. وقد أخبرنا أنّ الغجر استمروا في نفح قنفذ بواسطة أنبوبة لدرجة أن جلده انسليخ عنه مع الإبر فيه، ثم قاموا بشوي القنفذ في قدر من الفخار. لم نصدقه، لكن الكبار يؤكدون أن القنافذ تعتبر وجبة غجرية معروفة وشائعة. فأعلن أنّ الغجر ليسوا من البشر. تعرّض ماما على كلامي قائلة: ولكنكِ تأكلين الدجاج، وأما هم فيأكلون القنفذ. بعد هذا الحديث لم أعد قادرة خلال فترة معينة أن آكل

ساق الدجاج التي أحبّها كثيراً والتي تعطيني إياها المربية بعد أن تلفّ العظم بمنديل ورقى.

ينشب جدال بين المربية وبابا حول أصل الغجر. تقول المربية إنّها سمعت رأياً يقول كما لو أنّ الغجر هم أولئك اليهود الذين خرجوا مع موسى من مصر، ولكنّهم يمثلون ذلك الفرع الملعون والمنشق من العبرانيين الذين لم يطعوا النبي واستمرّوا في عبادتهم للعجل الذهبي، وأنّهم كانوا يقومون عند اليهود دائمًا بالأعمال القدرة - حدادين، وأنّهم كانوا هم الذين طرقو المسامير التي تم صلب المسيح بواسطتها. وقد عاقبهم ربّ على ذلك - بأن يعيشوا حياة تشرد دائم.

يعترض بابا قائلاً إنّ هذا ليس سوى هراء، وإنّ الغجر جاءوا من الهند، بينما ما من أحد يعرف حقيقة الأمر عنهم، لأنّه ليس لديهم لغة كتابية. وما لم يتم تدوين ما سبق أن حدث، يتبع بابا، فلا بدّ أنه سوف يختفي كلّ شيء من دون أن يبقى منه أدنى أثر كما لو أنه لم يحدث شيء في حقيقة الأمر. «ها أنتِ، مثلاً، هل تتذكري ماذا حدث معك قبل سنة؟» - راح يسألني. وأنا لا أذكر لا ما كان قبل سنة، بل وما كان في يوم أمس. «أرأيتِ، إذن - تابع بابا - لهذا الغرض يجب أن تمسكي دفتر يوميات وأن تسجّلي فيه كلّ شيء بالتفصيل». لقد أهدانا بابا دفاتر يوميات جميلة، مع أني ما زلت في مرحلة تعلم الكتابة فقط.

عندما أذهب مع نوسيا إلى دكان الحلويات، تصايقها غجرية في شارع نيكولسكايا: «يمكّنني أن أقرأ لك حظك بخصوص العريس!» إنّها تلبس تنورة مغبّرة بألوان زاهية. تمدّ يدين سوداويين بسبب اتساخهما. تتصدى نوسيا لها، وتقول وهي تضحك: «لديّ عريس». بهذه الطريقة عرفت لأول مرة بوجود كولي<sup>(1)</sup>، زوج نوسيا في المستقبل. لكن الغجرية تشتبّث بها ولم تشاُ أن تفلتها. استسلمت نوسيا: «حسناً، أقرّي البخت عند اختياري!». كنت أحمل في يدي إجاصة لذيدة اشتريتها للتو. راحت الغجرية تقرأ لي

---

- 1 - كولي - اسم التصغير أو الدلع من نيكولاي. المترجم

بختي على راحة كفي. أعرف أنني سوف أعيش عمراً مديداً، وأنني سوف أكون مليكة، وأنه سيكون عندي فارس وحب حقيقي يستمر حتى الموت، وأبني سوف ألد طفلاً فاتناً. ثم أخذت مني الإجاصة التي قضمت منها قليلاً و«تفتفت»<sup>(1)</sup> عليها من مختلف الجهات. لتعود وتعطيني الإجاصة مرة أخرى، بمعنى، أن تفضلني خذلها وسوف يتحقق لك كل شيء. خباتٌ يديّ خلف ظهري. غادرت الغجرية مع إجاصتي وهي تثير الغبار بتنورتها.

صرت الآن أحلم قبل النوم بالفارس وبتلك العجيبة التي سوف تولد عندي ذات يوم. أصبحتُ أعرف من أين يأتي الأطفال، ومع ذلك لا يمكنني أن أتخيل الطفل قادرًا على المرور من ذلك الثقب الضيق.

كان ساشا مولغاً بقراءة الروايات التي تتحدث عن الفرسان. وفي الأمسية التنكرية في المدرسة الداخلية قرر أن يرتدي درعًا من الكرتون وقناعًا ثم قام بلصق ورق مفضض عليهما.

دار الحديث عندتناول الشاي المسائي حول مبارزة بوشكين. كانت ماما تكره ناتاليا<sup>(2)</sup> ولا تطيقها. وأنا بدوري أكرهها: لأنَّ بوشكين قُتل بسببها. تمرَّ عبارة مفادها أنَّ بوشكين كان فارسًا حقيقاً. ولكنني لا أستطيع تخيله في درع وقناع فبدأت أضحك. قال بابا: «كي يكون المرء فارسًا حقيقاً ليس بالضرورة أبداً أن يلبس درعاً فولاذيًا وقناعاً، بل إنَّ الفارس - هي حالة روحية بالدرجة الأولى». سأله: «بابا، وهل أنت فارس؟؟». ابتسم مرتبكاً. انتفضت ماما وغادرت المائدة فجأة - كانت هذه أول مرة أرى فيها ماما في مثل هكذا حالة، فقد كانت على الدوام هادئة ورقية. وبعد مدة قصيرة جداً أخبرتني شقيقاتي بالسرّ أنه ولد لنا آخر - ولكن ليس من ماما.

لا أحب الرسمَ من دون أن أعرف السبب، وأكثر ما يجعلني نزقة قلم الرصاص الأبيض باعتباره حماقة غير معقوله، بيدَ أنِّي أعشق لعبة التمثيل في المسرح. فقد اشترا وانا دمى لمسرح عرائس: علبة كرتونية لها كرنيشة وستارة

-1- وجدتُ أن الترجمة الأمينة والدقيقة للفعل الوارد في النص الأصلي هي اشتقاء لكلمة تف تف - تشر بصاقاً عليها...

-2- المقصود هنا ناتاليا غونتشاروفا - زوجة الشاعر الروسي بوشكين... المترجم

يمكن رفعها. كما كانت مرسومة على الجوانب مقصورات، يجلس فيها أطفال في ثياب تعود تقريرًا لما قبل الفترة البوشكينية. وقد تم تركيب ديكور فيها - خلفيات وكوايس جانبية مصممة لخمسة مشاهد في الموضوع الذي يدور حول السمكة الذهبية. سرعان ما تضجرنا السمكة التي تلقي علينا المواجه، فنقوم بابتکار ديكور خاص بنا وشخصيات تناسبنا. تقوم كاتيا وماشا بالقص وبالتلوي، أما أنا فأقوم بترتيب التماثيل الصغيرة، أتحدى وأغني بالنيابة عن الجميع تقريرًا. نقدم عروضاً مسرحية للأطفال الصغار من المعارف - أما أنا فقد أصبحت كبيرة. ثمة مساء بارد شتوي خلف النافذة، وأما هنا فغاية ساحرة وأزهار فواحة عطرة. راح الصغار يصغون وقد حبسوا أنفاسهم.

وفي الصيف نقوم بتقديم عرض مسرحي حقيقي وليس مسرح عرائس فحسب. نربط جبلًا بين شجريتي بتولا، ونعلق عليه ستارة عبارة عن شرشف. نجلب كراسى وطاولات صغيرة، وندعو الأطفال الصغار من معارفنا والجيران أيضًا. نبعث كل ما في الطاولات الصغيرة وعلب الكرتون. تختفي من البيت جميع الأشياء التي يمكنها أن تصلح ولو قليلاً للعرض: القبعات والقفازات والمظلات، واللحف أو الشراشف.

إلا أنني أكثر ما أهوى في هذه الدنيا هو الغناء. وليس أن أغني ببساطة، وإنما أن أقوم بتمثيل كل ما أغنى. وأكثر أغنية تحظى بالاستحسان هي أغنية «على طريق كالوغالقديم». أصور كيف أنّ فتى شجاعاً راح يتزه عند الفرسخ التاسع والأربعين مع السائب<sup>(1)</sup>، بعد ذلك كنُتُ أنتقل لتمثيل دور أنثوي، حيث أعرض كيف أنّ امرأة مرحة كانت تسير في غابة، تسير وتضمير شيئاً ما، كانت تصلي، وكانت تحمل تلك المرأة في حضنها طفلاً - طفلاً رضيعاً.

كانت دميتي تقوم بدور الطفل الرضيع. تستعمل المشاعر القوية، فأتمشي مبيئنة كيف أن قاطع طريق متوحش ينقض على المرأة البائسة ويمسكها من جديلتها ثم يقوم بقتلها! وبعد أن يقتل دميتي وبعد أن يضرب البرق الشرير، أرمي بنفسي إلى الأرض وأكمل أغنتي وأنا ممددة على الأرض:

---

-1- سلاح بارد يتكون من رأس مدبب مثبت بمقبض بحبل أو حزام أو سلسلة مرنة...  
المترجم

لقد قتل ذلك اللص الشرير  
بسهم قوي جبار.  
وها هو ذا قاطع الطريق ذاك  
يتمدد قتيلاً تحت شجرة الصنوبر المتحطمة!

ماما لا تحب التحف والأعمال الفنية الرائعة، ولا أستطيع أن أفهم لماذا؟  
بيدَ أنَّ بابا يشعر دوماً بإثارة قوية، بغض النظر عن أي حركة أو تصرف أقوم به، وتراه يلتقطني من يدي، يقبلني ويدعوني ملكة روستوف وناختسيفان بأكملها. تدغدغني قبلته بسبب اللحية. وهو يتطلب مني تقديم عرض ما وتمثل شيء ما دائماً عندما يكون عندنا ضيوف. وأنا لا أهاب الجمهور نهائياً. بل على العكس، أنا لاأشعر بمتعة كبيرة حين أغنى وحدي، بل أحتج إلى من يشجعني ويتعاطف معي. الجميع من حولي يقولون إنني ولدت مع صوت رائع هبة من الطبيعة، والكل مسحور بذلك الدوى القوى الهاادر الذي تصدره الحال الصوتية عند طفلة صغيرة.

أقوم باستمرار وبلا ملل بتصفح الألبومات ببابا التي تحتوي صوراً للوحات لأشهر الرسامين الروس، وفجأة التقط نفسي أنني أقيس الناس المصورين هناك على هيئتي. كما لو أنني أتقن صورهم. ها هي الأميرة صوفيا. أقف في منتصف الغرفة، مثلها تماماً، وأفلت شعري مسبولاً على كتفي، ثم أصالب يدي على صدرِي وأصوّر سورة غضب بحق أحد ما. لقد حبسوها في إحدى الغرف، مثلما حدث وحبسوني في غرفة الأطفال، في حال أنني قمت بعمل ما غير مسموح القيام به. إلا أنني أشعر بالرهبة من الرامي المشنوق خلف النافذة. فأسأل ساشا بشأن رماة السهام. يخبرني شقيقِي كل شيء بخصوص الانتفاضة، وبخصوص النافذة نحو أوروبا. «هل هذا واضح لك؟» - «واضح».

المثير للدهشة أنَّ كلَّ شيء كان مفهوماً حينذاك من قبلِي. أما الآن فأنَا عجوز، عشت حياتي، ولم يعد ثمة شيء مفهوم بالنسبة لي. هذا يعني أنَّ الحياة في المحصلة هي العيش من مرحلة الفهم حتى مرحلة عدم الفهم. يحاول ساشا أن يهدئي من روعي حتى لا أخاف - لم يعد هناك رماة

سهام منذ زمن بعيد، ولن يقوموا بقطع رأس أحد بعد الآن أبداً - فقد اختلفت الأزمان.

أما كيف قتلوا ساشا، فسوف أخبركم فيما بعد.

جواب: ما هو المتنين<sup>(١)</sup>؟

سؤال: التاريخ - يد، وأنت - متين. والتاريخ يبدلكم كما يبدل المتنين.  
يجب أن تفهم، التاريخ - عبارة عن كائنات حية.

جواب: وأنا؟

سؤال: أنت غير موجود بعد. انظر - ما زالت الأوراق بيضاء نظيفة.

جواب: ولكن هأنذا قد جئت. أجلس. أتعلّم عبر تلك النافذة المغطاة بالثلج. لقد هدأت العاصفة الثلجية. كل شيء من حولي أبيض.وها أنا أرى على الحائط صوراً - لقد أمسكوا بخوانيق أحد ما. يالها من خريطة غريبة. لا أستطيع بأي طريقة أن أعرف حدود القارات. هذه ليست خريطة، بل قنفذ - اندفع عبر أجمة الفراولة والتوت البري، فعلقت الشمار بإبر القنفذ.

سؤال: بل ما من أحد هنا حتى الآن.

جواب: كيف أنه لا أحد هنا؟ لمن هذا الظل، إذن، في تلك الحال؟ هل ترى، هناك على الحائط؟ هو ذا ظل لخمس أصابع.وها هو الآن ظل لرأس كلب. عو - عو! وإذا ما عملنا بكلتا اليدين، سوف يكون هناك نسر يطير.وها هو ذئب يقطّق بشدقة.

سؤال: ليس هذا المطلوب. كلب. ذئب. كل هذا غير حقيقي. حكاياتك - عريس، وأنت - العروس. القصص تختار الإنسان ومن ثم تبدأ ترحالها.

جواب: فهمت. هذا يعني، ما يلي. سجّل. لم أكن أريد أن أخبر زوجتي شيئاً، ولكنها أحست أن ثمة ما يثير الشك. حاولت الناظر بأنه ما من شيء قد حدث وأنَّ الأمور على أحسن ما يرام. ثم تبين فيما بعد أنها عرفت كل شيء بالتفصيل عن طريق صديقة لها. راحت الزوجة تخبر تلك عبر الهاتف

---

1- قفاز يغطي كامل اليد والأصابع الأربع ما عدا الإبهام، ولكنه يغطي الإبهام منفرداً.

أني أصبحت أعود إلى البيت متوجهّاً، وأنني أصبحت نزقاً وعصبياً، فأجابتها تلك: «ما بك، ألا تعرفين شيئاً؟ لقد تورط زوجك - أصبح مديناً بمبلغ ضخم جداً، والآن يطالبون بتسديده!». لم تقل لي كلمة واحدة، بل انطلقت إلى حيث يجب، وهناك قالوا لها ألا تتدخل فيما لا يعنيها. وأما أنا فقد صمدت حتى آخر لحظة، وكنت أجيب عن جميع أسئلتها بطريقة مواربة وبالمزاح، وحتى أني حاولت أن أطمئنها بأن كل شيء سوف يتنهى على خير. ولكنني في أحد الأيام خرّجت عن طوري وشربت كثيراً لكي أنسى، وإذا بي أفرغ كل ما عندي وأخبرتها بكل شيء بالتفصيل: كيف افترضت المال من البنك، ثم أودعته في بنك آخر، وكيف أن الشيشانيين اقتحموا هذا الأخير، فاضطررت أن أفترض من جديد لكي أغطي الخسارة - طردوني. لم تفهم سوى أن النقود طارت، وأن الفوائد تتضاعف كل يوم وأنهم قد يقومون بقتلني. راحت تتنحّب: «ولماذا يجب عليهم أن يقتلوك؟ إذا كنت ميتاً لن تستطيع أن تعيدهم شيئاً!». صرخت قائلاً: «ألا تفهمين؟!» لم يسبق لي أن رفعت صوتي عليها من قبل. يمكن أن نبيع الشقة والبيت الريفي والسيارة، كل هذا غير مهم - لكن لا يكفي، في حين أن المدة تنتهي في يوم الجمعة.

سؤال: ليس هذا المطلوب.

جواب: نعم، إني أدرك.

سؤال: من أين أنت؟ من بلاد حيث يئنون في السرير صامتين - يا لها من ألفاظ قذرة، أليس ثمة كلمات أكثر نقاوة؟

جواب: ببساطة لدى رغبة بأن أكون حرّاً من القدر ومن الأوطان.

سؤال: هل اليوم هو يوم الجمعة؟

جواب: نعم.

سؤال: لمن كانت تعود ملكية البنك: للتونغووس أم للأوروتوش؟

جواب: للأوروتوش.

سؤال: ماذا كنت تعرف عن أولئك البشر؟

جواب: القليل. كانوا يؤمّنون بأن المرأة الأولى سقطت في عرين وهناك

ولدت طفلين - دبّا صغيراً وصبياً. ترعرع الشقيقان، ثم قتل أحدهما الثاني، وهذه كانت بداية الكون. وعندما كبر ذلك الصبي أصبح صياداً.

سؤال: وماذا كان بعد ذلك؟

جواب: ثم قام ظبي هائل بسرقة الشمس، فراح الصياد يطارده لكي يستعيدها.

سؤال: هل استعادها؟

جواب: لا. بل نعم. لقد ذهبا لمسافة بعيدة جداً. وهكذا بقي الظبي يعدو في السماء وقد قضم الشمس. ولكنه يعود باستمرار. حتى أنّ موبيوس<sup>(١)</sup> قام بلصق السماء حسب رغبته. وأما درب التبان - فهو الأثر الذي تركه أداة التزلج (الסקי) الخاصة بالصياد. هناك، في الأعلى، أيضاً يسرون على السكي. ففي السماء إمكانية للتزلج في جميع الأ направ. كان الصياد يسير في دائرة، ولكن تارة في ذلك الجانب المرئي من سماء موبيوس وتارة في الجانب غير المرئي. هناك ثلاثة عوالم: علوي، وشთاء، وسفلي، وهذا الأخير هو الأكثر أهمية - إنها «المليفو»<sup>(٢)</sup>. عندما يقوم الناس المقيمون في الأعلى بقص جلود الحيوانات من أجل صناعة الأحذية والملابس، تسقط بعض المِزق على الأرض وتحول إلى ثعالب وأرانب وسناجب. كما أنَّ الناس العلويين يمسكون أرواح الناس بواسطة خيوط، والأشجار العلوية

---

1- أوغست فيرديناند موبيوس عالم رياضيات وعالم فلك ألماني. 1790-1868. من أحفاد المصلح الديني مارتن لوثر من جهة الأم. درس الرياضيات على يد كارل فريدرش غاووس ويوهان فريدرش بفاف. عرف بشكل أساسى باختراعه لشريط موبيوس، وهو مساحة غير موجهة ذات بعدين، ولكتها تحتوي على صفة واحدة فقط عندما تدمج في فضاء إقليدي ثلاثي الأبعاد. كان له أيضاً مساهمات في الهندسة الإسقاطية. اهتمامه بنظرية الأعداد أدى به إلى تعريف دالته المعروفة بدالة موبيوس وإلى صيغة القلب لموبيوس. المترجم

2- المليفو - مصطلح يعني الحياة الآخرة حسب أساطير شعب Nivkh مجموعة عرقية أصلية تقطن النصف الشمالي من جزيرة سخالين ونهر آمور السفلي والساحل على البر الرئيسي الروسي المجاور. كان Nivkh تقليدياً صياديًّا ومربيًّا للكلاب. أقلية شبه بدوية، يعيشون بالقرب من السواحل في فصل الصيف والشتاء في الداخل على طول الجداول والأنهار لصيد سمك السلمون. المترجم

- تمسك بأرواح الأشجار، والأعشاب - بأرواح الأعشاب. ويكتفي لسبب ما أن ينقطع ذلك الخط - حتى يصاب الشخص بالمرض ومن ثم يموت، والشجرة تبiss، والعشب يذبل. يمر الطريق نحو العالم الأعلى من خلال فتحة في السماء، نيانغا سانغاري<sup>(1)</sup> - النجم القطبي. وأما في العالم السفلي، في «المليفو»، فلا تختلف الحياة فيه عن الحياة على الأرض، حيث نفس الشتاء، ولكن الشمس تشرق عندما يكون عندنا ليل، والقمر يطلع - عندما يكون عندنا نهار. ينتقل الشتاء إلى «المليفو»، والأدق هو أن الإنسان عندما يرحل إلى «المليفو» فإنه يأخذ الشتاء معه. هناك يعيشون نفس الحياة الشتوية التي نعيشها هنا في الأرض، ويمارسون الصيد ويصطادون السمك، يصنعون أدوات التزلج، ويصلحون العربات وعدة سرج الأحصنة، كما أنهم يخيطون الثياب. يتزوجون هناك، عندما يتزوج الزوج الذي بقي على قيد الحياة في الأرض، ويلدون أطفالاً، يمرضون ويموتون، أي أنهم يولدون من جديد هنا، إذ يستيقظ واحدهم امرأة أو رجلاً في متصرف الشتاء. وفي «المليفو» كل شيء كما هو ولكنه في الوقت نفسه ليس كما يجب. فالشخص الحي هناك لا يكون مرئياً للسكان، كما أن كلماته تبدو وكأنها صوت تكسر عيدان في موقد.

سؤال: هذا يعني أن هناك، في «المليفو»، تلك الغرفة أيضاً حيث يصطادون السمك فيها عن الجدران، ويلتقطون البشر من على الكراسي، حيث يقوم عرض للمشابك، وحيث غرزوا الدبابيس في الخريطة، حيث بقيت القصص، وأما الناس فقد تلاشوا بفعل عوامل الطقس، وعلى حافة النافذة اتكأ منظر طبيعي؟

جواب: لا أعرف. نحن لسنا من الأوروتش. نحن لا نؤمن بأي شيء باستثناء فصل الشتاء.

سؤال: وما هي بداية الكون عندكم؟

جواب: لدينا أيضاً شقيقان. ولكن في البداية كانت المياه تغمر كل شيء.

---

1 - نيانجا سانغاري - باللغة المحلية في بلدان أفريقيا الوسطى - المترجم

لا شيء سوى الماء، بحيث أنه كان يستحيل العيش في أي مكان. ثم جاء فصل الشتاء، وتجمدت المياه، وأصبحت صلبة.

سؤال: وماذا عن الشقيقين؟

جواب: أحدهما كان صالحًا، والثاني - شريراً. أحدهما صنع التونغوس من الثلج، والأخر - صنع الأوروتش.

سؤال: وماذا بخصوص «المليفو»؟

جواب: المليفو هي مليفو فقط.

سؤال: ومن كان ذائق الشخصان اللذان استيقظا في متصرف الشتاء، عندما استيقظا؟ هل كانوا دافنيس وكلويا<sup>(1)</sup>؟

جواب: نعم. كلويا - من الأوروتش، ودافنيس من التونغوس.

سؤال: ما عز، وناعج، ومزمار؟ وفصول الشتاء الدافئة - وأولئك كانوا يسيرون أزواجاً أزواجاً؟

جواب: ما من أحد يتحاشى الغرام ولن يتحاشى، طالما أن ثمة سحرًا وجمالًا وعيونًا لكي ترى.

سؤال: ولكن لا بد أن يكون ثمة من يرضى بأن تصبح زوجة الراعي لقاء بعض تفاحات؟

جواب: وهل أنت لا تعرف أن ذلك أشبه بالداء. المرء يشعر بالسرور، في حين أن الفيروسات سعيدة. إنه فجر الحضارة بالنسبة لها. نفس الشيء ينطبق على الغرام. امتنعت كلويا عن تناول الطعام، لم تعد تنام الليالي، أهملت قطيعها، راحت تارة تبكي وتارة تصاحك، تارة تغفو وتارة تنهض نشطة. كان وجهها تارة يشحب وتارة يتوهج أحمرًا. فالعجل يتآلم أقل إذا ما لسعته النُّعْرَة. أصبحت النظرة جامدة، وتحرك ورق الجدران. إنني مريضة، ولكني لا أعرف ما هو هذا المرض، أتألم من دون أن يكون عندي

-1 Daphnis and Chloe واحدة من خمس روايات يونانية قانونية. كتبها لونغ حوالي القرن الثاني. حول مؤلف كتاب «Daphnis and Chloe» (وكذلك عن مؤلفي هذه الروايات الآخرين) لم يتم الاحتفاظ بأي معلومات. أعطي تاريخ الرواية من قبل العلماء فقط على أساس السمات اللغوية للنص. المترجم

أي جرح، حزينة أنا من دون أن تضيع نعجة واحدة من نعجاتي. تغمض عينيها، وبأصابع القدمين تعثر باللمس على الدرز بين أوراق الجدران. سؤال: ولكن الوقت شتاء. يكاد الصقيع يبلغ المشبك على حمالة الصدر. وما من أحد يريد أن يتزوج من امرأة الثلج.

جواب: ثمة في المليفو ما هو أشد بأساً من الشتاء. لقد مضى ألف عام ولم يلتقيا. ولذلك كانا يشعران بشوق شديد. وفجأة اشتهر كل واحدٍ منها الآخر. وعندئذ بدأ الانجراف الجليدي. أيقظ المدينة ليلاً رعد مدید وهادر - كان هذا صوت الجليد وقد راح يتحرك في النهر. وفي الصباح خرج الجميع ليشاهدو كيف أنَّ الدرج الذي تنزهوا عليه بالأمس فقط، تحرك من مكانه. استمر تصدع الجليد لثلاثة أيام متواصلة، حيث راحت كتل الجليد تتحطّم وتهدّر، تخينة وشفافة. راحت تتشظي مصداة فقاعات هائلة، تتتفخ وتشرب مقتحمة بعضها بعضاً. صعدت إلى الشاطئ، وكادت تزيل البيوت الصغيرة التي كانت واقفة عند حافة الشاطئ تماماً. راح النهر يكددس من الكتل الجليدية جبلاً جليدية، حيث بدأ أشخاص مغامرون يتسلقون عليها ويحتشدون في أعلى قممها ثم يسبحون بمحاذاتها، كما لو في سفينة كبيرة لامعة. وقد كانت كلوييا من بين أصحاب تلك الرؤوس اليائسة. نزعت عن رأسها القبعة التي تغطي الأذنين، فراح شعرها يتطاير مع الريح.

سؤال: بينما كانت كلوييا تسبح على كتلة جليد، طارت القبعة عن رأسها. راحت كلوييا تسبح وراء القبعة. فانطلق دافنيس وراء كلوييا.

جواب: أنا نفسي أرى أنَّ الأمر ليس كما هو مطلوب.

سؤال: ولكن لا داعي لأن تختلق أي شيء. لقد سبق أن حدث كل شيء. بما في ذلك فصل الشتاء، وـ«المليفو».

جواب: ولكن ما العمل طالما أتنا على ذلك النحو بالفعل؟ سقطت في الماء، فقام بسحبها من ياقه قميصها، وبذلك أنقذها. كانوا قد استبدلواهما عندما كانوا رضيعين. كان مقدراً لهم كل شيء في الحلم النبوى، اعتباراً من أول هطول للثلوج حتى آخر ثلج. قامت سيدة كانت تنتظر الأطفال عند باب المدرسة بعد انتهاء الفترة الإضافية بعد الظهر، بدس خاتم في يدها بصمت

ثم غادرت في سيارة فارهة، وأما هو فقد قام بإيداع مبلغ كبير من المال في دفتر توفير، عندما كان لا يزال يمشي على قدميه تحت الطاولة، ومن بعد ذلك تبدأ الإصلاحات ويتحول كل شيء إلى سقط متاع. سوف يكبر الأطفال، وسوف تلعب الهرمونات دورها. تبدأ حكاية غرامية وشغف وعشق. يُقسِّم هي بالنعجة أنها سوف تصون نفسها لأجله، وتطلب منه قائلة: «أقسِّم بذلك القطيع وبتلك العترة، التي أرضعتك، أنك لن تتخلَّ عن كلويَا، طالما أنها وفيه ومخلصة لك. أما إذا أخطأت بحقك، فاهرُب منها واكرْهُها، ومن ثم أقتلها كما يفعل الذئب!». يُقسِّم وهو يمسك بإحدى يديه بالعترة، وباليد الأخرى بالكبش، أنه سوف يبقى محباً لكلويَا طالما أنها هي تحبه، وفي حال أنها فضلت آخر عليه، فإنه سوف يقتل نفسه وليس هي. تفرح لذلك وتصدقه لأنها سوف تولَّد راعية وسوف تكون واثقة من أن الماعز والنعاج تمثل آلهة حقيقة بالنسبة إليهم، أي الرعاة. بعد ذلك يفرق قطاع الطرق بينهما، وتتزوج من زعيمهم الذي على شفته العلوية زائدة لحمية صغيرة. سوف تقوم في فصل الشتاء بإطعام الحمام - فالوقت صيفي، بينما أرجل الحمام رفيعة مثل الأغصان. أما دافنيس، وإذا كان على ثقة من أن كلويَا ميتة - لأنه كان قد سمع بنفسه جرس الترامواي التحذيري، والصرير الصدئ للفرامل وصرخات المارة، كما أنه رأى الجسد غارقاً في الدماء، بلا حراك، وحده الرسغ عندها كان يتحرك - فقد انطلق في أسفار بعيدة ليعود إلى العاصمة، حيث سيسكن في غرفة مع طالب في معهد الطب، وهذا الطالب يقوم بحفظ دروسه عن ظهر قلب من الصباح وحتى حلول الليل، وسيقوم بالإصغاء وبالنقر على جسد الراعية الذي لم يسبق أن قبَّله أحد. ولسبب ما تخطر بياله *musculus cremaster*<sup>(١)</sup>. وفي أحد الأيام وبينما هو مستلقٍ على سريره القابل للطي وقد شبَّك يديه خلف رأسه، راح ينظر إلى النافذة المجلدة مع ما عليها من سراخس ورموز هيروغليفية، تلمع تحت أشعة الشمس، وهو يفكَّر بشعبه، وأنه هو نفس ذلك الكبش الذي علِق في الأجمة والذي قدّمه أبراهام قرباناً بدلاً من اسحاق، وفي هذه الأثناء سوف يعود جاره التلميذ

- 1 - لاتينية - العضلة الرافعية للخصية. المترجم

وهو مغناط بسبب الامتحان: لم يستطع العثور على عضلة ما، فضلاً عن أنَّ البروفسور راح يهزاً منه، قائلًا إنه من المثير والغريب أن مثل تلك العضلة الكبيرة غير موجودة في الجهة التي بين يديك - أهنتك، أيها الشاب، لأنَّه لم يسبق أن كانت مثل هذه الحالة! ومن ثم سوف يشتهي دافنيس الممرضة ليكانيون<sup>(١)</sup>، التي ستقوم بسرقة الكحول في غرفة العمليات لتبادلها في سوق الأشياء المستعملة (سوق البرغوث). لديها جديلة طويلة.

سؤال: انتظر!

جواب: ما الأمر؟

سؤال: هل قاموا باستبدالهما كلِيهما؟

جواب: وما الغريب في ذلك؟

سؤال: وهل هذا وارد؟

جواب: يا إلهي، وهل ثمة ما هو غير وارد! قاموا باستبدالها هي في القصر، أما هو فاستبدلوه في دار التوليد.

سؤال: في أي قصر؟

جواب: ولماذا لا تسأل في أي مشفى توليد؟ هنا اللغز! الجميع يربدون أن يعرفوا كيف يتم الاستبدال في القصور، حيث الأرضية النظيفة الممسوحة بالسمع وحيث راح قدامي المحاربين ينزلقون وهم يمسكون بعضهم ببعض، خصوصاً أصحاب الرجل الواحدة، في حين أنَّ الإمبراطور الروسي راح يأكل بسرعة وبمجرد أنه كان يتنهي من صف واحد، كانوا يقومون بتبديل الصحون عند الجميع أيضاً. من دون أن يكون أحد مهتماً بموضع المشفى في الإقليم - لم يكن هناك طبيب مناوب، وأما مساعدة الممرضة فقد كانت ثملة إلى درجة قاتلة. لم يوافقوا فوراً على الاستقبال - إلا بعد أن وعدوهم بإصلاح السقف في قسم الجراحة النسائية. لم يكن هناك أدوية منذ مدة طويلة، وأما الأدوية التي كانت تُردد إلى المشفى - فكانت كبيرة الأطباء تتبعها

---

1- شابة فاتنة من المدينة أحضرها فلاح متقدم في السن زوجاً له إلى القرية، سحرها دافنيس بحمله فقررت أن تحصل عليه.. المترجم

بشكل غير قانوني أو تعيد بيعها لنفس المرضى عن طريق أقربائهما. كما كان يجب على المرأة الولود أن تمتلك كل ما تحتاجه - الشرشف والرداء، وأما السعال فكانوا يعالجونه بشحم الكلاب الذي يتم استخراجه من الكلاب الشاردة التي يتم إلقاء القبض عليها. هل تسمع ما أقوله لك؟

سؤال: سامحني. ببساطة شردتُ في أمر ما. انظر إلى النافذة - لاحظ كيف أنَّ ذلك الهوائي البعيد يبدو عند الغروب مثل حشرة في داخل الكهرمان؟ لا تبالِ، ببساطة لفت نظري المشهد. ولكن، لماذا كان يجب استبدالهما؟

جواب: كيف لماذا؟ الأب، حتى ولو أنه كان قيصراً لكنه يعود إلى أصول حبشية، وأما هي فقد كانت بيضاء. يمكن للوالد أن يطلب من الأم تفسيراً، أما هي فما هو ذنبها؟ هل ستقول له إنها في لحظة حدوث الحمل كانت تتطلع إلى الصورة البيضاء كالثلج لأندروميدا<sup>(1)</sup>؟ تلك هي قصة الحب Aethiopica<sup>(2)</sup>، يا صديقي.

سؤال: حسناً، وفي دار التوليد؟

جواب: وأما هناك فعلى العكس، بغتة - لم يكن أوروتش، بل زنجي صغير تماماً! فما العمل؟ وفجأة ينشب حريق! طال الحريق القرية

-1- في الميثولوجيا اليونانية، أندروميدا هي ابنة كيفاوس ملك أثيوبيا. تشير النصوص اليونانية إلى أن أثيوبيا تقع في منطقة النيل الأعلى، وتشمل أيضاً جميع المناطق التي تقع جنوب الصحراء الكبرى. في حين أشارت نصوص أخرى إلى أنها مدينة يafa في فلسطين وكاسيوبيا. أدى تكبر كاسيوبيا إلى أن تباهى بأن ابنته أندروميدا أجمل بكثير من حوريات البحر، أرسل بوسيدون (إله البحر) وحش البحر لتدمر إثيوبيا، كنوع من العقاب الإلهي. وفي محاولة لاستلطاف الوحش، قيد الملك كيفاوس ابنته على الصخور كقرابان، وقبيل أن يتمكن الوحش من اختطاف الأميرة، نزل البطل بيرسيوس من السماء على حصانه المجنح وأنقذها من الموت وتزوجها. واستناداً إلى الجغرافي الروماني استрабو، كانت السلسل التي استخدمت لتقييد أندروميدا على الصخرة لا تزال بادية للعيان على الصخرة في فترة الفتح الروماني سنة 63 ق.م. ومن المفترض أن السلسل وعظام الوحش قد نقلت إلى روما بوصفها إحدى عجائب العالم بناءً على أوامر سكاروس، حاكم فلسطين الروماني. المترجم

-2- Aethiopica - واحدة من خمس روايات يونانية قانونية كتبها هليودوروس في القرن الثالث أو الرابع الميلادي. المترجم.

القيصرية<sup>(1)</sup>، فاحتراق نصف المدينة. كان الجو جافاً إلى درجة كبيرة! وفي لحظة الفوضى العارمة التقطت طفلاً آخر ليس طفلها، كانت أمّه قد ماتت أثناء الحريق - وفرت من خلال النافذة. أما طفلها فقد تركته لمشيئة القدر. كما أنَّ جميع الوثائق احترقت. وقد كشفت التحقيقات أنَّ سبب الحريق يعود إلى عدم الحذر أثناء التعامل مع النار: كانت ثمة امرأة خرقاء، تضع بويضة واحدة في الشهر، تقوم بتجفيف شعرها وبترتيبه، وكانت مستعجلة ما جعلها تنسى في غفلة منها أن تطفئ القنديل الكحولي على طاولتها والمخصص لتسخين الملاقط، راحت ستائر المصنوعة من نسيج قطني خفيف، تتحرك تحت تأثير تيار هوائي فلامست شعلة القنديل واحتارت. لكن الشعب عندنا متواحش، ولديه ميل فطري لقتل أي شخص - قام الناس باتهام الممثلين في كلٍّ ما حدث، الذين فروا في ملابسهم الداخلية من الفندق التابع للملهمي، وقد كانوا مقيمين دائمين هناك ولم يصحوا بعد من نومهم. أما أولئك الأشخاص بأسماء مختلفة مثل ليونيد وموسكفين<sup>(2)</sup> الذين فشلوا في تحقيق طموحاتهم، فقد جمعوا حقائبهم على عجل ووضعوها في عربة نقل كيما كان، ثم راحوا يحتازون الحريق. كان التوهج قوياً للدرجة أنَّ كل شيء كان واضحاً ومرئياً كما لو أنَّ الوقت نهار. كان المكان ممتئلاً بالتحبيب وبالصراخ وبالسكاري. هرع رجال الإطفاء لكي ينقذوا بالدرجة الأولى الملاهي ومستودعات الخمور - لم يكن يهمّهم مصير السكان. راحوا يضايقون الممثلين: ألم يقوموا بسرقة شيء ما؟ أحاطت بهم النسوة الغاضبات واللاتي خسرن بيوتهن، وهن يحملن أطفالهن الصغار، أو قفنَّ العربية وأمسكنن بلجام الأحصنة، ثم رحنَ ينادين على الرجال: «تعالوا إلى هنا، ها هم مشعلو الحريق، ها هم! اضربوهم! اضربوهم!» يمكن في نهاية المطاف تبرير سلوك أولئك النساء - ضحايا الحريق. ثم هجم أشخاص ثملون وراحوا يمسكون بالممثلين من رقبتهم

1- بلدة في منطقة سмолينسك من روسيا. كانت مقرًا للقوات القيصر في حرب عام 1812..

2- كناية عن أسماء أشخاص حاولوا أن يقلدوا ممثلين معروفيين - ليونيد وموسكفين.

ويمرغونهم في الوحل. وبمحاذاةهم كانت نسوة يسرعنَ وهنَ يحملن سطولاً فارغة - رحن يضربنهم بالسطول. وهكذا ضربوهم حتى الموت. ثم قاموا بسحب الجثث المشوهة إلى النهر. حتى أنَّ إحدى النساء بصقت في الفم المفتوح لأحد الموتى.

سؤال: ولكن تبين فيما بعد أنهم لم يكونوا هم الذين تسبيبو بالحريق؟  
جواب: بل كان واضحاً أنهم ليسوا المسؤولين عنه. ولكن طالما بدأت المشكلة، فمن الصعب إيقافها. راح الفلاحون يحرقون حقول القمح التي يملكونها الإقطاعيون. بقيت أكوام هائلة من القمح تحرق على مدى يومين بل وثلاثة أيام، وهي تثير الليالي - لدرجة أنه كان بإمكان المرء أن يقرأ على ضوئها.

سؤال: بيد أنك كنت قد أشرت إلى الملاقط وإلى اللمة الكحولية؟  
جواب: هذا كان من تلقيع لجنة التحقيق لكي يغطوا على جماعتهم. فقد كان أولئك من الأوروتش - متكاثفين ومتعاوضين. أرادت إحدى السيدات أن تبيع بيتها، توالي الراغبون بالشراء، وفجأة حريق أثناء الليل، فاحتراق البيت، لقد كان أقرباؤها هم الذين أضرموا النيران، لأنهم لم يكونوا يريدون أن تصبح أكثر ثراء منهم - بل أرادوا أن تكون فقيرة مثلهم. فما الذي لا يمكن فهمه هنا؟

سؤال: وما هي حقيقة الأمر؟  
جواب: لن يعرف أحد أبداً ما الذي حدث في حقيقة الأمر. كان ثمة نقيب متلاعنة قد أغتر بأمرأة حقيقة من صنف كلوفيا، كانت تسعى دائماً لأن تكون نعجة بالمطلق، قام بتطليق زوجته التي عاشت معه الحياة بكل شظفها وهي تنتقل معه من حامية عسكرية إلى أخرى في التايغا، كما أنه طرد ابنته البكر وأنكره، لأنه أعرب عن احتجاجه على هذا التصرف المهين لأنَّه وأنَّ الميراث ليس بالشيء الكبير، ومع ذلك شعر بالإهانة وبالقهر على تلك الألاعيب في السرير، وبعد ذلك تركت له بدلاً من العلامة في

«تاريخ الحرب اليهودية»<sup>(1)</sup>، وبالتحديد هناك حيث يدور الكلام عن موت أنطوخيوس<sup>(2)</sup>، وأنّ ابنه، أنطوخيوس، ورث عنه العرش والكرامة تجاه اليهود، تركت له إذن رسالة صغيرة تحتوي أخطاء إملائية وتفيد بأنها كانت مغفرة به حقاً، وأنه كان أول رجل في حياتها، وليس كما ظنت حينذاك أنني قمت بجرح إصبعي بدبوب لكي ترى الدم على الشرشف. أنا لست كما تظن. وأما الآن فقد أغرت برجل آخر. وأنت تعرف جيداً، يا حبيبي ويا حبي الوحيد ويا غطيط النوم، كيف يمكن لذلك أن يحدث. إذ يهب فجأة إعصار بحيث أن أحداً يقبض عليك من ياقتك ويقذف بك إلى السماء حتى من دون أن يسألوك. وجد الرسالة، وقرأها، ولم يبق من الحياة مع مثل هكذا قلب سوى القليل. عرض النقيب لكي يصلّي للقديس نيكولاي، رکع على لقاء مبلغ محترم. عرج النقيب لكي يصلّي للقديس نيكولاي، رکع على ركبتيه أمام الأيقونة: «ساعدني، فأنت شفيعي، ودلّني على مخرج مما أنا فيه!». رفع رأسه ورأى شمعة راح لهبها يتلاّلاً. ذهب إلى المتجر واشتري شمعة حوالي رطلين. عاد إلى البيت وراح يحسب كم بوصة ستتحرق خلال ساعة. ثم قدر أن الشمعة سوف تستغرق 18 ساعة لكي تحترق. وضعها تحت السلم وأحاطها بقمامدة قابلة للاشتعال، ثم صبّ عليها بعض الكيروسين. بعد ذلك أشعل الشمعة، رسم شارة الصليب وسافر إلى موسكو - بات الأمر الآن بين يديك يا شفيعي! قدر أن الشمعة سوف تنهي احتراقها في الساعة الثانية ليلاً. قصد في موسكو مطعم وملهى «يار» حيث شرب شمبانسكايا، وعند الساعة الواحدة ليلاً ذهب إلى التواليت، وفي طريقه إلى هناك التقى في الممر بشخص ما فناوله في وجهه. حدثت فضيحة وجاءت الشرطة. نظموا ضبطاً بأن أحد الآثمين المذنب في الغرام، قام في هذه الليلة بالاعتداء على شخص آخر وأنه تم تحويله إلى

1- تاريخ الحروب اليهودية - سلسلة كتبها المؤرخ اليهودي المعروف يوسيفوس فلافيوس تتألف من 7 أجزاء وتعود إلى عام 75 م. المترجم

2- لقب عدد من الملوك السلوقيين الذين حكموا الدولة السلوقية التي شغلت أجزاء من الأناضول والشام والعراق وإيران من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد وحتى منتصف القرن الأول قبل الميلاد - المترجم

المحكمة. وفي ذلك الوقت كان البيت يشتعل. حصل لقاء ثلاثة روبلات فضية للشرطـي المـحلـي عـلـى نـسـخـة مـن الضـبـطـ، وـدـسـهـ فـي جـيـهـ. كـمـا حـصـلـ عـلـى تـعـويـضـاتـ التـأـمـينـ بلاـ أيـ نـقـاشـ. أـرـسـلـ كـامـلـ الـمـبـلـغـ إـلـىـ اـبـنـهـ. مـنـ دـوـنـ أـنـ يـتـرـكـ لـنـفـسـهـ كـوـبـيـكـاـ وـاحـدـاـ.

سؤال: حسناً، قاموا بالاستبدال، وماذا بعد؟

جواب: لكن هذا حدث في وقت لاحق، أما قبل تسعـةـ أـشـهـرـ منـ تـلـكـ اللـحـظـةـ فقدـ كـانـ مـجـرـدـ حـمـلـ بلاـ دـنـسـ.

سؤال: لا يمكن ذلك.

جواب: حتى إنـهـمـ كـتـبـواـ عـنـ ذـلـكـ فـي الصـحـفـ.

سؤال: أنت تقصد تلك الحادثـةـ فـيـ الأـنـبـوـبـ؟

جواب: نـعـمـ. كـانـ أـمـ دـافـنـيـسـ تـعـمـلـ فـيـ مـصـنـعـ لـإـصـلـاحـ السـفـنـ. كـانـ عـمـلـهـمـ يـقـومـ عـلـىـ تـنـظـيفـ الصـدـأـ عـنـ الـأـنـابـيـبـ. كـانـ الـأـمـرـ مـنـ الـخـارـجـ سـهـلـاـ،ـ وـلـكـنـ كـانـ وـاجـبـاـ مـنـ الدـاخـلـ أـيـضاـ. وـقـدـ كـانـ قـطـرـ الـأـنـابـيـبـ بـحـجمـ إـنـسـانـ. تـسلـقـتـ إـلـىـ الدـاخـلـ عـلـىـ أـطـرـافـهـ الـأـرـبـعـةـ،ـ ثـمـ رـاحـتـ تـخـرـجـ وـهـيـ تـرـجـعـ وـظـهـرـهـاـ نـحـوـ الـوـرـاءـ. كـانـتـ مـؤـخـرـتـهاـ قدـ أـصـبـحـتـ خـارـجـ الـأـنـبـوـبـ،ـ أـمـاـ الـبـاقـيـ فقدـ كـانـ مـاـ زـالـ دـاخـلـ الـأـنـبـوـبـ. وـفـيـ هـذـهـ اللـحـظـةـ حدـثـ كـلـ شـيـءـ. حـاـولـتـ أـنـ تـنـفـلـتـ،ـ وـلـكـنـ كـيـفـ لـهـاـ أـنـ تـنـفـلـتـ مـنـ الـاحـتـضـانـ الـفـوـلـاـذـيـ،ـ صـرـختـ بـيـدـ أـنـ الصـوتـ خـرـجـ مـنـ الـطـرـفـ الـآـخـرـ لـلـأـنـبـوـبــ -ـ حـرـكـةـ الصـوتـ عـبـرـ الـأـنـبـوـبــ خـرـجـتـ وـرـفـعـتـ:ـ «ـالـكـيـلـوـتـ»ـ،ـ مـنـ التـرـيـكـوـ،ـ ثـمـ رـفـعـتـ سـرـوـالـهـاـ الشـتـوـيـ الـدـافـيـ،ـ وـبـنـطـلـونـهـاـ الـقـطـنـيـ،ـ وـلـمـ يـكـنـ أـحـدـ آـخـرـ فـيـ الـجـوـارـ،ـ كـانـ الـثـلـجـ وـحـدهـ يـهـطـلـ.ـ حـتـىـ إـنـهـ لـمـ يـكـنـ ثـمـةـ أـيـةـ آـثـارـ،ـ باـسـتـشـنـاءـ بـعـضـ آـثـارـ لـبـوـدـرـةـ.ـ كـتـلـ ثـلـجـيـةـ بـحـجمـ قـبـصـةـ يـدـ طـفـلـ.ـ كـانـ عـنـدـهـمـ أـشـعـةـ ذـهـبـيـةـ وـأـمـطـارـ وـبـيـعـ وـحـمـامـ،ـ أـمـاـ عـنـدـنـاـ فـسـتـاءـ -ـ ثـلـجـ يـهـطـلـ.

سؤال: انتظر قليلاً، كما لو أنـ الـأـمـرـ يـتـخـذـ منـحـىـ غـيرـ مـطـلـوبـ.ـ بـهـذـهـ الطـرـيقـةـ سـوـفـ تـصـلـ إـلـىـ الـأـجـدـادـ وـالـجـدـاتـ،ـ بـلـ وـحـتـىـ أـنـكـ سـتـبـلـغـ تـلـكـ اللـحـظـةـ الـتـيـ رـاحـ

فيها السلف البعيد يتعالج بالعنب في لاك ليمان<sup>(1)</sup> حيث تعرف على باغانيني<sup>(2)</sup> الذي كان قد راح يعاني من الوهن ومن شلل أولي في جهازه التنفسي بحيث إنه كان مضطراً أثناء الحديث إلى أن يضغط بيديه على كلا منخريه، مما كان يجعل الأمر يبدو مثيراً للضحك جداً، وكيف أن الأسلاف من فرع آخر كانوا في تلك الفترة يصطادون جراد البحر (السرطان النهري) - كانوا يلتقطون هرّة، ثم يقطعون لها أرجلها ويحشرونها في جحور السرطان النهري.

جواب: أنت على حق. فالوقت في فصل الشتاء شيء زلقي. قد ت safar الرجل - من دون أن يكون معروفاً أين ومتى تتعرّض وتتسقط. وإذا بك تلتقط نفسك في الحرب الروسية - التركية! وسوف يكون أمراً حسناً في حال أنك كنت على كثيب ثلجي في شيكاك<sup>(3)</sup>. وإنما قد تجد نفسك في ثغرة غير معروفة، حيث لا تأتي الجرائد سوى مرات قليلة وعلى شكل رزم. تلتقط آخر عدد منها وتصبح لأمرأتك العجوز: «ماشا! يا ماشا! لقد سيطر الجنرال غانيتسكي على مدينة بلزن<sup>(4)</sup>! لقد استسلم عثمان باشا بلا شروط!». وهي تقرأ دائماً كل شيء بالترتيب وتعبر عن تذمرها: «أنت مستعجل دائماً! أنا ما زلت بعيدة عن ذلك المكان، وصلت إلى دوبيناك التاريخية فقط، وهناك ما زالوا في بداية خطتهم لمحاصرة القلعة». مكتبة سُر من قرأ

سؤال: اسمع، على هذا النحو سوف نصل إلى الإغريق القدامى! وقريباً سوف يظهر عندنا كسينوفون<sup>(5)</sup> ولكن يجب أن تكون ثمة معركة في البداية،

---

-1 Lac Léman أو بحيرة جنيف إحدى أكبر البحيرات الأوروبية. وتقع 60% من مساحة البحيرة في الحدود وتعود تسمية البحيرة إلى العهد الروماني وكانت باللاتينية (Lacus) المترجم (Lemannus)

-2 نيكولو باغانيني 1782-1840 عازف كمان وكمان متوسط وغيتار وملحن إيطالي. كان أحد الموهوبين على الكمان، وترك بصمه كإحدى ركائز تقنية الكمان الحديثة. المترجم مدينة صغيرة في بلغاريا.. المترجم

-3 مدينة تقع في شمال بلغاريا على بعد 132 كم من ناحية الشمال الشرقي للعاصمة صوفيا وتعتبر مدينة بلزن مشهورة في بلغاريا بسبب الحرب الروسية العثمانية 1877-1878 التي أدت إلى هدنة بين الروس والأترش. المترجم

-4 كسينوفون: ولد عام 430 تقريباً 254 ق.م - فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندي ومرتزق وكان أحد طلاب سocrates. المترجم

ويفترض باليونانيين أن يطيلوا في Paean<sup>(١)</sup>. هل تفهم معنى ذلك؟ يجب علينا أن نمضي في اتجاه آخر مختلف تماماً للزمن! هيا بنا نبدأ كل شيء بالسلسلة. كنا في الملivo. أليس كذلك؟

جواب: ونحن الآن في الملivo، فالزمن هنا لا جوانب أخرى له، كما أن الأمر ليس واضحاً تماماً مع الزمن، في حين أن خلف النافذة شتاء.

سؤال: وماذا حدث فيما بعد؟

جواب: هجم عليهم قطاع الطرق. أي علينا. على أنا وكلويا. نحن، أنتم - لا فرق. لأنهم بجميع الأحوال قاموا باستبدال الجميع. أنت - لست أنت. أنا - لست أنا. سبق لك أن قلت بنفسك أننا لسنا سوى قفازات غير كاملة لل臆دين حيث يقومون بارتدائنا في شتاء التاريخ لكي يتذوقوا في أيام الصقيع.

سؤال: يبدو أننا بحاجة إلى استراحة.

جواب: ماذا تريد أن تقول بذلك؟ لا تصدق أننا تعرضنا لهجوم من قبل قطاع الطرق؟

سؤال: لا أعرف. بجميع الأحوال لا يمكنني أن أعرف من أنت في حقيقة الأمر. تدخل إلى هذا المكتب الشبيه بسمكة، وتبدأ بالحديث عما هو غير موجود ولم يحدث، تتلهم، وتتنهد، تتمخط وتتحبب، تبرز شهادات صحية صادرة عن مستشفى، تشير أكمام كترتك وقميصك لكي تكشف لنا عن ندوب، كما لو أن أحداً يستطيع أن يصدق أنهم قاموا بتعليقك بواسطة شنكل تطلب أن تشرب الماء، ثم تمصح دموعك ومخاطلك بمنديل ورقية حيث حزمة منها على الدوام أمامك على الطاولة، تضطرب من دون أن تعرف أين تضع يديك، تقضم أظافر يديك، كما أنك تحفر التنوءات على الأصابع، تحك مكان عضة بعوضة عند الكاحل، ولكن الواقع هو أنك، في الحقيقة، غير موجود. أهي قضية إغريق! حتى من هنا، من ارتفاع ثلاثة طوابق، واضح أن جيش البرابرة - أشبه بقشرة معتمة على سطح الأرض.وها هي صفوف

1- أغنية أو قصيدة غنائية تعبر عن النصر أو الشكر. في العصور القديمة الكلاسيكية، يتم تنفيذها عادة بواسطة جوقة، لكن يبدو أن بعض الأمثلة مخصصة لصوت فردي. «أغنية انتصار، أي أغنية أو نشيد رسمي». المترجم

اليونانيين قد جمدت في انتظار مفعم بالقلق، حيث ما زال الجنود واقفين وهم يمسكون الدروع قرب أرجلهم. وعلى الضفة اليمنى لنهر الفرات كليرشوس الإسبرطي وإلى جانبه البروكسين من بيوتيا<sup>(1)</sup>، ومينون مع الشيساليين على الجناح الأيسر للجيش اليوناني. أما قورش مع البرابرة فكانوا يشغلون مكاناً إلى اليسار أكثر. كانت جلبة خفيفة تنتقل في صفوف القوات، كما لو أنها صوت الريح – كانوا يتناقلون كلمة السر التي عبرت راحت تجتاز القوات للمرة الثانية: «زيوس<sup>(2)</sup> الحامي – أو النصر!». كانت تلك اللحظات الأخيرة الأكثر توترة وقصوة قبل بدء المعركة التي تمتد دهراً. كانت المسافة الفاصلة عن قوات الفرس المهاجمة بصمت قد أصبحت أقل من ثلاثة مراحل. وها هم اليونانيون، أخيراً، وقد راحوا ينشدون «البيان Paean» قد انطلقوا في هجومهم ضد العدو. تقدم الجناح الأيسر للصفوف بعض الشيء نحو الأمام، مما اضطر الذين تأخروا إلى الركض تقربياً. هنا راح الجميع يرفعون الهاتف على شرف الإله إينياليوس وهو يركضون نحو الأمام. يدق الجنود بالدروع على الرماح بقصد تخويف خيول العدو. تصطدم الجيوش وتتدخل بعضها مع بعض، وتشتبك مثل مشطين متداخلين.

جواب: أتظن أنني لا أفقه شيئاً إذا كنت مجرد قفاز ناقص؟ لا أعرف شيئاً البة؟ ليكن أنني قفاز، ولكني قفاز مفكّر! وهل أنا لا أفهم يا تُرى أن الشتاء شيء، وأن المليفو – شيء آخر مختلف تماماً؟ الحياة في فصل الشتاء أشبه بالثلج الذي تنقله الريح عندما لا يهطل الثلج، تجتاز الشارع عندما تكون إشارة المرور حمراء، ولا يعود شيء واضحاً، أما في المليفو فالثلج منذ العام

-1- البروكسين لقب فخري أطلق في اليونان القديمة على الأجانب الذين كانوا يقدمون خدمات محددة لبعض الدول (الموطنين ولسفراهم)... بيوتيا - مقاطعة في اليونان القديمة. المترجم

-2- زيوس يُلْقَب عند الإغريق بـ«أبي الآلهة والبشر». هو الذي يحكم آلة جبل الأولمب باعتباره الأب الوريث. زيوس هو إله السماء والصاعقة في الميثولوجيا الإغريقية. نظيره الروماني هو جوبير، ونظيره في الميثولوجيا الهندوسية هو إندرًا. تكمن قوة زيوس في حكمه لقوى الطبيعة الرهيبة التي كان الإغريق يخشونها كالبرق والرعد والسماء الواسعة.

المترجم

الماضي - رطب، قابل للتشكيل، لدرجة أنه يمكن صنع كتل منه، وهو هش وفواح، مع بذور من شجر المُران<sup>(١)</sup> وتراب قذر، بحيث إنَّه بإمكانك أنْ تبني قلعة منه. قلعة منيعة. لن يتمكن أحد من الاستيلاء عليها. وفي مثل تلك القلعة يتم تخزين كل شيء إلى جانب كمية كافية من الكتل الثلجية لكي يتم طرد الأولاد من الشارع الذي يسكن فيه أبناء الأوروتش. لقد ضاع كل ما كان في الشتاء. ففي الشتاء يضيع كل شيء. وفي الصيف أيضًا. وحتى الطفولة. هما عزيزانَا دافنيس وكلويا دخلا إلى حديقة حيوان واحدة. كانت قشور من الخبز وأوراق سكاكر تسبح في حوض مع طحلب بطيء. كما كان الآيس كريم يسيل على المرفقين. أما في قفص القردة فتجري عملية مضاجعة. كانت نشارة الخشب تعيق براحة البول. وننانة فطيعة للحيوانات. كانت الحيوانات تكاد تموت في أقفاصها الصدئة بسبب الملل والجو الخائق. كما أنَّ عاملة الصندوق، وقد كادت هي الأخرى تفقد عقلها بسبب تقييد حريتها، استنشاطت غصباً خلف النافذة. وهكذا في فصل الشتاء، عندما بدأ ذوبان الجليد، فقد ذابت معه حديقة الحيوانات بأكملها مع كل ما فيها من حيوانات وأقفاص وروائح، بما في ذلك عاملة الصندوق في كشكها. لقد مات الجميع - الحيوانات والروائح وأمينة الصندوق. أما هنا، في المليفو، فقد بقي كل شيء على حاله، بقيت حديقة الحيوان بأكملها كما هي، ولن يحصل أي شيء لا للحيوانات ولا لقشور الخبز التي تعفن في المياه السوداء، ولا للبوظة على الركبتين، وستبقى عاملة الصندوق تحتدم غيظاً في كشكها الخاص ولن تموت أبداً. قد لا يكون هناك في فصل الشتاء أية كلويا نهائياً، في حين أنها سوف تبقى في المليفو، حيث ستتابع إطعام دميتها بمzac الورق. في المقبرة فراولة برية، بينما العجوز تقول إنه لا يجوز قطف أو أكل أي شيء ينمو هنا لأنَّ ذلك يثير حق الموتى، ويمكنهم أن يعاقبوا المخالف، وأنها في المقبرة - وسط القبور والأموات - تشعر بنفسها حية أبد الدهر. وفي اليوم الأول من أيام العطلة تقفز عن جناح البيت، فتسقط قدمها الحافية في مجرفة مرمية في

-١- المُران باللاتينية (Fraxinus) جنس نباتي يتميَّز إلى الفصيلة الزيتونية ويضم حوالي 45 نوعاً. يسمى خطأ بالدردار وهو جنس مختلف تماماً. المترجم 65

الشعب. تقوم بتشييد بيت صغير من علبة فارغة للأحذية، ثم تقصّ باباً له، تخبئ إحدى يديها في هذا البيت الصغير، وباليد الأخرى تطرق على الباب وتسأله: هل يمكنني الدخول؟ - ولا تسمح لليد الثانية بالدخول إلى البيت. تمدُّ لامّها قطعة من فطيرة على رأس شوكة، ثم تدسها لها في فمها وهي تلهو، انغرزت أسنان الشوكة في سقف الحنك، وراح الدم يسيل. تحلم بوالدها كي يقوم بوضعها في السرير لتنام ويحكى لها كيف أنَّ الحذاء في الليل، إذا ما تم وضعه بشكل صحيح، يفرّ إلى بلدان غريبة عجيبة ويجلب من هناك أحلامًا ويضعها تحت وسادة الأطفال. تتعلمُ كيف تغوص تحت الماء - لكن الجدة تعارضها في ذلك، بينما الجد يقول إنَّ ذلك أمر رائع وإنَّه يجب على البنت أن تكون قوية لا تهاب شيئاً مثل أي فتى - فقد تحتاج إلى ذلك في حياتها. كانت تترك المفتاح باستمرار تحت حجر قرميد إلى اليسار من المدخل، حيث أصص القبس نبات، رفعت الحجر - وإذا بها ترى هناك «حريشاً أو أم أربع وأربعين». أثناء الليل يسعى نبات الورد البري. الثدي الأيسر ينمو، أما الثدي الأيمن فلا ينمو. راحت تنظر إلى نفسها في المرأة - كم أنَّ كل شيء كريه ومقرف، كما أنَّ الإصبع تفوح منها رائحة حديقة الحيوان. يتساءل: أين أنا وأين لست أنا؟ الجلد هو الحدود؟ أم أنه ثمة نظير؟ أم مجرد كيس تم حشر في فيه ومن ثم راحوا يحملونني إلى مكان ما؟ وما الذي سيقني مني إذا ما طرحتنا الجسد؟ في البيت الريفي، إذا ما صفرتُ، سوف يتسلق السياج ذلك الراعي صاحب الوجه المنمش. لقد أحسَّ بالارتباك لأنَّه لاحظ من خلال عينيها، أنها رأتَه كيف راح يختلس النظر من بين أغصان الليك عبر النافذة، بينما كانت تضعه في السرير. توجد مضارب لعبة تنفس الريشة، ولكن لا توجد ريشة. راحا يجرّبان اللعب بأكواز الصنوبر - كانت هذه تطير مصدرة صوتاً رناناً ولا ترتد. وجدوا كرة بينغ - بونغ. حملته الريح فوراً إلى أجمة من القرّاص. ما بك فقست، هيا ادخل واجلبها! دخل وهو يئُّ من لساعات القرّاص. راح يضرب الشرَّ الأخضر بمضرب التنفس. دسَ الكرة في جيده، ثم ذهبا إلى النهر. راحا يصقان في نهر كليازما الضحل من فوق الجسر المتهالك الذي راح يصرّ، وقد انشيا من خلال درايزين الجسر الذي كان مازال مبللاً من

المطر. كان ثمة زغابة من البعض يمكن رؤيتها في الشعاع فوق السطح. وإذا ما بصقا في نفس الوقت، كانت تظهر على السطح أشكال شبيهة بالعدد ثماني. كانت قد حفرت أسماء على الدرابزين راحت تقصد وتسوس بالتوازي مع الخشب. أراد أن يخرج سكيناً - سقطت من جيده كرة البينغ - بونغ، جعلت العارضة الخشبية تهتز ثم قبّلت الماء في انعكاس كلويًا بالضبط، هناك حيث لاح سروال تحتاني. بيدَ أنَّ ذلك لم يكن دافنيس. أما دافنيس فلا يمكنه أن يغفو وهو يشاهد أمه تخلي ثيابها في الظلام، ثم تنزع سروالها الداخلي الذي راح يتلألأً بشرارات زرقاء. كان هو ورفاقه من الصبيان قد ابتكروا سلاحهم الخاص، حيث أخذوا دمية «فاسكا - فاستانكا»<sup>(١)</sup>، ثم دقّوا مسماراً في الجزء الثقيل منها، كما قاموا بنشر القبعة وجعلوا حوافها حادة بواسطة مبرد. ثم صنعوا في الرأس البلاستيكي الفارغ للدمية شَقًا على شكل صليب ووضعوا هناك قطعًا من الكرتون كنوع من الريش. فإذا ما رميت الدمية بحجر - من مسافة عشر خطوات، فإنه يخترق الخشبة مثل مسمار. سوف ترُقِّع الخادمة الثقوب في بنطلونه وهي تتذمر وتقول إنَّ الجميع باتوا شرهين الآن - فقد كان بالقرب من المعسكر حيث كانت تخدم ممرضة إسعافات أولية في مركز طبي للسجناء الأحرار بالتنقل، جدار للิตامى، كان الأطفال يهرعون إليها، عند حدود المعسكر، ليطلبوا منها بعض الطعام، كما كانوا يتسلون الملابس، فكانت تشتفق عليهم: كانت تنزع السترات المبطنة الدافئة عن جثث الموتى وتعطيها للأطفال. كما أخذوهم إلى المتحف، حيث كانت لوحة «اليوم الأخير في بومباي»<sup>(٢)</sup> التي تصور الناس قبيل موتهم - بعد لحظات قليلة لن يبقى أحد منهم. وبعد مرور سنة يأخذونهم إلى المتحف من جديد، ومرة أخرى لا يبقى أمام أولئك الذين في اللوحة سوى دقائق قبل الموت. وفي الأول من أيلول من كل عام يجري طقس سنوي - مشاجرات بين تلاميذ

- 
- 1- دمية تميز بأنها تبقى جالسة كيما وضعت وذلك بسبب ثقل في الجزء السفلي منها.
  - 2- وهي فكرة من ابتكار الكاتب الروسي المعروف زوشينكوف. المترجم لوحه تاريخية كبيرة من تأليف الرسام الروسي العالمي كارل برایلوف (أنتجها في 1830-1833) وتصور موضوع ثوران جبل فيزوف في عام 79م. ما أدى إلى تدمير مدينة بومباي الرومانية القديمة تحت الرماد. المترجم

المدارس، حيث تارة يتتصر الأوروتش، وتارة أخرى يتتصر التونغوس. أما أثناء الاحتفال فيذهب الجميع إلى حضور طقس الخطابات الرسمية، حيث يقف المشعوذ الأكبر في المنطقة على المنصة قرب تمثال ضمن الساحة المركزية، حيث تم تصميم مجموعة كتل نحتية من الرخام - البطل، إلى جانب القائد الذي قام بإيقاده والحسان: يوماً ما قام شخص ما لسبب ما بإيقاذ قائد، ثم حمله على كتفيه من ساحة المعركة، وراحها يقتربان من جماعتنا، علمًا أنهما بقيا لمدة يومين من دون ماء، ومع ذلك أحضر البطل بعض قطرات من الماء للقائد، أما هو فشرب بول الحسان. راح المشعوذ بعد طقس الرقص والدوران والضرب على الدفوف، يقول عبر الميكروفون وهو يتنهى بصعوبة ويجهّز الدفَّ كما لو أنه مروحة: «إنكم تبحثون دائمًا عن شيء، ومن ثم يتبيّن لكم أنَّ السعادة لا تتطلب أكثر من بعض الشتاء». سوف يعرف عن طريق الجارة بشأن المليفو. كانت تضع نظارات سميكَة - كما لو أنَّ عينيها ملتصقتان مع النظارات. بحيث يبدو أنها في حال نزعَت النظارات، فإنَّ العينين سوف تفصلان عنها. قال لها دافيس: «لا يوجد أي مليفو على الإطلاق! وحده الشتاء موجود». فأجابته: «بل توجد مليفو، ولكنها غير مرئية. إذ إنَّ كلَّ ما هو بعيد، يبدو غير حقيقي؛ على سبيل المثال، الرب أو الدجاجة، التي يتم الاحتفاظ بريشها في وسادتك حتى يوم قيمة الدجاج، أو لأنَّا نأخذ مثلاً، الفوجيين<sup>(1)</sup>. فهم ببساطة بعيدون جداً. بحيث إنَّ المرء لا يستطيع الوصول إليهم إلا بواسطة كلاب البيغل<sup>(2)</sup>. خذ، واقرأ!». كانت الأم قد عادت

1- الفوجيون Fuegians هم الهنود القاطنون في أرض النار، في الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية. في الأصل تسمية الفوجيين تعود عند الانكليز على شعب الياغان الساكن أرض النار، بالإسبانية تسمية فوجينو تدل على أي شخص من الأرخيل. لقد درس وغزا الشيليون والأرجنتينيون من أصول أوروبية؛ واستوطنا تلك الجزر في منتصف القرن 19. وجلبوا معهم الأمراض مثل الحصبة والجدرى حيث لم يكن للفوجيين مناعة ضدّها. اجتاحت الفوجيين الأمراض وتناقضت أعدادهم من ألف متعددة في القرن 19 إلى بعض المئات في القرن العشرين. المترجم

2- البيغل (Beagle) سلالة من الكلاب متوسطة الحجم، لديها قوائم صغيرة نسبيًا وأذان خفيفة. كلاب البيغل عادة تكون بيضاء اللون مع بقع كبيرة بنية-سوداء. تمتاز بوفاء منقطع النظير. المترجم

متعبةً من العمل تجرجر قدميها، ثم راحت تغسل يديها الزرقاوين - بعد ذلك فتحت علبة سردين، فهي تكسب كعاملة تنظيفات في مدرسة تابعة للكنيسة، وعندما يحصلون هناك على مساعدات إنسانية، فإنهم أول ما يقومون به هو فتح المعلبات، وبعد ذلك فقط يقومون بتوزيعها، وذلك حتى لا يقوم أحد ببيعها ويشرب الكحول بشمنها. راح الابن يكبر في شقة من غرفة واحدة مع متفعاتها، ولا يوجد لديها أية حياة خاصة. وفي الوقت نفسه راحت تبني بالقرب منهم أبنية برجمية لمصلحة جهات حكومية. وقفت في الطابور، لكن الطابور لا يتقدم. أرسلت ابنها إلى معسكر صيفي وحسمت أمرها. ارتدت ثوبًا أبيضًا، تزينت وتعطرت وذهبت إلى مقابلة نائب رئيس المدير. استقبلها بنشافة: «تقدمي بطلب!» - وأضاف أنه سوف يأتي لزيارتهم لكي يطلع على ظروفها المعيشية. جاء في اليوم المحدد وهو يحمل حقيبة دبلوماسية. «كل شيء جاهز على المائدة. لا بد أنك، يا ديميتري ديميترييفيش، جائع، فأنت جئت من العمل مباشرة، ولا بد أنك تعب - تفضل، كُلْ بعض الشيء»، لقد حضرت ملفوفاً باللحمة، وأنا طاهية ممتازة، ولكن لا أحد لكي أطهو له!». فتح الحقيبة الدبلوماسية وأخرج منها قنية كونياك. وضعت قدحين خاصين بالكونياك على المائدة. صبَّ فيهما. «هيا بنا نشرب نخب، أتعرفين ماذا، يا تاتيانا كيريلوفنا، ليس الشقة - ما علاقة الشقة هنا؟ بل سنشرب نخب - كان أحد الأشخاص قد قال إن لدى كل إنسان ثقباً في روحه بحجم الرب، لذلك - كل ذلك مجرد هراء. بل لدى كل واحد ثقب بحجم الحب!». راح يشتمها بكلمات سوقية، حتى ارتخى وأصبح لطيفاً، ثم مال إلى جانبه مثل كيس طحين وهو يتنفس بصعوبة وقد راح يلشم كلَّ شيء - حتى أنه ابتلع شعرها الطويل ولكنه لم يستطع ابتلاعه ولا إخراجه، مدَّ إصبعه ما جعلها تشعر بالغثيان. بعد ذلك بقيا ممددين وقد التصقا بعضهما البعض في منطقة الفخذين. «أرجو أن تعذرني، يا ديميتري ديميترييفيش، لأنني أتعرق بشدة». راح يلحس العرق عن جسدها. ومن جديد مدَّ إصبعه. حصلت على شقة مؤلفة من غرفتين.

سؤال: راحت مركبات الفُرس تقرَّ نحو الوراء، مقتحمة مركز قوات

العدو، وهي تنسف الصنوف وتشر الدماء ممن يقع تحت ضربات المناجل. شعر البرابرة بالخوف فراحوا يتقهرون. أما الإغريق فقد راحوا يلاحقون العدو بكل ما أوتوا من عزم، وهم يحصون بعضهم بعضاً عن طريق النداءات حتى لا يتفرقوا، بل ليحافظوا على صنوفهم متراصة. وإذا رأى قورش أن كليرشوس انتصر على خصوصه المعارضين له وأنه يطاردهم، أطلق صيحة ابتهاج، في حين أنَّ المحيطين به راحوا ينحون له احتراماً حتى الأرض باعتباره ملكاً. يندفع قورش مع حاشيته إلى قلب القوات المعادية، إلى المكان الذي يلمع فيه من خلال أشعة الشمس الغاربة النسر الذهبي للفيصر الموضوع على القطعة الخشبية التي تستخدم للرمي. عندما يعثر قورش على الملك محاطاً بحاشيته الكثيرة العدد، يبادر إلى الصراخ فوراً: «إني أراه!» - ثم راح يعدو على حصانه باتجاه أردشير<sup>(١)</sup>، باحثاً عن فرصة لكي يizarز أخيه. قذف الرمح فأصاب الملك بجرح من خلال الدرع، بحيث إن الرمح اخترق الدرع بمقدار عرض إصبعين. أدت الضربة إلى سقوط أردشير عن حصانه، وعلى الفور يبدأ اضطراب بين أفراد حاشيته ويفرون هاربين، لكن الملك ينهض واقفاً على قدميه، ومن ثم يصعد بمساعدة عدد من مرافقيه غير الكثرين إلى قمة هضبة مجاورة، حيث راح يراقب من هناك سير المعركة وهو في مكان آمن. أما قورش الذي وجد نفسه وسط الأعداء، فقد راح حصانه الجامح يحمله أبعد فأبعد. بدأ الظلام يسدل ستاره، ولم يعد الخصوم يتعرفون عليه، في حين أنَّ الأنصار راحوا يبحثون عنه في كل مكان، بينما هو وقد شعر بالاعتزاز لتحقيقه النصر، ومفعم بالحماس وبالشجاعة، تابع جريه وهو يصبح: «ابتعدوا عن الطريق، أيها الصعاليك!». وفي هذه اللحظة يقترب مسرعاً ومن جانب رجل فارسي يدعى ميراداتس، وقدف رمحَا قصيراً فأصاب قورش في صدغه. راحت الدماء تتدفق من

1- أو أرتاحشتا الأول بالفارسية (اردشير يكم) - خامس ملوك الإمبراطورية الأخمينية، تولى الحكم من سنة 465-424 ق.م، تولى الحكم بعد وله خشايارشا الأول حيث كان ثالث أكبر أبناءه، وفي عصره حدثت عدة ثورات ضد الفرس في مصر واليونان إلا أنه تمكן من قمعها حسب سفر عزرا وسفر نحميا كان من الملوك الذين سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم. المترجم

كورش الذي سقط أرضاً بعد أن فقد صوابه. قفز حصانه إلى ناحية وضاع وسط الظلام، أما المفرش المبلل بالدماء والذي انزلق عن ظهر الحصان، فقد التقشه خادم مثيراً دانتس.

جواب: كلا، لم يكن الأمر على هذا النحو نهائياً! ويجب أن نبدأ بشكل مختلف تماماً! أتعرف؟ اشطب كل ما كان قبل ذلك! يجب البدء على الفور مما هو ممتع ومثير. من علاقة دافنيس مع ليكينيون، وكلويا - مع بان<sup>(1)</sup>. نعم، من هذا بالضبط يجب أن نبدأ! هكذا، إذن، كان دافنيس يكسب بعض المال في الليالي - كان يقوم بتغريب شاحنات - برادات في معمل لمعالجة لحوم الأبقار، وفي أحد الأيام عندما عاد إلى غرفته التي كان يستأجرها مع طالب الطب، عند طلوع الفجر، حين كانت إيوس<sup>(2)</sup> ذات الأصابع الوردية التي ولدت باكراً جداً مشغولة بعض الشيء. لم يكن طالب الطب موجوداً، وأما ليكينيون فقد كانت موجودة. وجد الممرضة منهكة في سريرها وكانت عيناهما مفعمتين بالشغف وبالعشق. كان شعرها المنفلت يشغل نصف السرير تقريراً. وقبل ذلك، نسيت أن أقول إن علاقته مع كلويا لم تكن بتاتاً: كانت كلويا تقول إن شعره أشبه بحب الآس، أما هو فكان يعلمها العزف على المزمار، وعندما كانت تبدأ العزف، كان ينتزع منها المزمار ويقوم هو نفسه بتمرير شفاهه على جميع قصبات المزمار، بحيث يبدو كأنه يعلمها، مصححاً الغلط، في حين أنه في حقيقة الأمر، كان يقبل كلويا عن طريق المزمار بكل تواضع - ومن ثم يحتضن أحدهما الآخر ويتمددان من دون أن يتحقق أي شيء، لينهضا من جديد لأنهما أرادا تناول الطعام وشرب النبيذ بعد أن يخلطا بالحليب. راحت ليكينيون تدخن وتقول: «أنت، يا دافنيس، تحب كلويا، لقد عرفت ذلك ليلاً من الحوريات. جاءتنى في الحلم وأخبرتني عن دموعها ودموعك، ثم طلبَ مني أن أنقذك عن طريق تلقينك فنون الغرام. ولا تقتصر فنون الغرام على القبل والاحتضان، ولا على ما تفعله التيوس والكباش. أنت تحب الكلام، فالكلام بالنسبة إليك أكثر حلاوة من القبلات.

1- ابن الإله هرميس في الأساطير اليونانية القديمة، شفيع الرعاة وحامى الطبيعة. المترجم إلهة الفجرز كانت إلهة ذات أصابع وردية حسب وصف هو ميروس لها. - المترجم

علمًا أنَّ الكلمات تفسد الأمر فحسب. تعال إلَيْ!». أراد أن يقول شيئاً ما، لكنها وضعت راحة يدها على فمه وقالت: «أنا أعرف كل شيء!». عندما نهضت عنه، راحت نطاف المنى تسيل منها على بطنه. جمعتها يدها وراحت تدهن صدرها بها. ابتسمت وقالت: «هذا أفضل كريم مغذٍ!». قامت ولفت نفسها بشعرها ثم اتجهت إلى النافذة وهي تقعقع على الأرضية الخشبية. باعدت بين الستاير. وعندئذ فقط لفت نظري أنَّ لديها حوافر ماعز. عادت وجلست على السرير، ثم دفعت بشعرها على ظهرها ووضعت ساقاً فوق أخرى. أشعلت سيجارة جديدة، وراحت تهز حافرها. قالت وهي تطلق دفقة من دخان سيجارتها: «أنا لست كما كنت تظنَّ على الإطلاق. أنا لست مجرد فتاة مع جديلة طويلة من الشعر. أنا ممرضة. الرحمة أخي، وأنا شقيقتها. وماذا يعني أنني من ذوات الحوافر الظلفة؟ ببساطة لم يحن الوقت بعد بالنسبة لك لكي تخبر جميع المشاعر، بعضها لمرحلة أكبر من العمر. سوف تعيش نساء كثيرات - أكثر من عدد القصب في مزارك. ثُق بي، فأنا أكبر من كرونوس<sup>(١)</sup> ومن جميع عصوره». سوف يتبع دافنيس رحلة بحثه عن كلويا، لأنَّ القفاز الناقص الذي يفكُّر - مفقود دائمًا. أما هناك، حيث الشتاء، يذهب القفاز المفقود دائمًا إلى حيث لا أعرف، ويبحث لا أعرف عمَّ. أمًا في المليفو فيجب أن يكون كل شيء مفهومًا واضحًا. هذه هي البداية - وتلك هي النهاية. كل شيء مقرَّرٌ سلْفًا وفق حلم نبوبي. لأن سبب الحدث لا يمكن في النبوة، بل إنَّ هروبياً ما إلى مصر هو سبب النبوة. ففي حال كانت مقررة في نهاية المطاف العودة إلى الشتاء، فهذا يعني أننا سوف نعود. نعم، بالضبط، يجب أن نفعل كل شيء - كل شيء بطريقة مختلفة! يجب أن تستبدل القفاز والتاريخ! هكذا إذن، الأبطال قبل كل شيء. هذا يخص الشتاء، وفترة ذوبان الجليد، حين يسقط قفاز في بركة ماء، يصبح قادرًا أن يجعل من نفسه متربدًا فاتر الهمة، قبل أن يحوّله التجلد أثناء الليل إلى جسم صلب فولاذي. أما في

- 1- كرونوس Cronos في الميثولوجيا الإغريقية وحسب هيسيود هو ابن غايا الأصغر من أورانوس وهو قائد التيتانيين وأبو زيوس. يعادل في الميثولوجيا الرومانية ساتورن. من المحتمل جداً أنَّ الاسم كرونوس يحمل جذورًا من حضارات ما قبل إغريقية. المترجم

المليفو فلا وجود للهمة الفاترة! هنا تضع الأكمام نصب عينيها أهدافاً لا يمكن تحقيقها ومن ثم تمضي إليها بتصميم ويعناد غير معروف بالنسبة للإنسان العادي الفاني، على غرار ذلك الصياد الذي سرق الشمس وهو يطارد ظبياً. بهذه الطريقة فقط يمكنك أن ترك بعدهك أداة التزلج الكوكبية! يجب على دافنيس أن يحاول بلوغ المستحيل، وأن يواجه بمفرده إمبراطورية الخير والشر<sup>(1)</sup> وأن يتصرّ! في الشتاء فقط تبحث القفازات بعضها عن بعض لكي تلتئم ولكي يقوموا بدسّها في جيب واحد، أما هنا فيجب أن تتم المراهنة بكل شيء! لا يجب عليه هنا فقط أن يساعد في عملية ولادة في عربة مترو أنفاق تعثر في طريقه، حيث بدأ المخاض لدى امرأة حامل ليلاً، وهي عبارة عن متشردة ثملة، ومن ثم أن يقطع حبل السرة بسكن طي، ليقوم بعد ذلك بتطهيره بالفودكا من قارورة لم تشربها المرأة بأكملها، ثم يقوم بلفّ الوليد الجديد من سكان المترو في سترته الخاصة به، فهذا يستطيع أن يقوم به، كلاماً، بل سوف يتوقف عليه ويتعلق به شيء ما هام إلى درجة كبيرة جداً، سوف يتوقف على تصرفه، وعلى نظرته الدقيقة، على سرعته وحزمه وإصراره، وعلى حجم معلوماته، بل وقبل كل شيء أيضاً، على استعداده للتضحية بنفسه في سبيل فتاة باسم كلويا، وإنما من أجل شيء ما مهم، على سبيل المثال، الخلود أو من أجل إنقاذ نفس ذلك القائد في الساحة الذي مات بسبب العطش مع ذلك ولكن من دون أن يرضى بشرب بول الخيل. أو على سبيل المثال، هل تتم إعادة القسطنطينية والمضايق إلى الأوروتش أم لا؟ أو آلاسكا؟ بطبيعة الحال، يجب على الفعل أن يتم قبل اندلاع الحرب - لكي تطال الأحداث الجميع بلا استثناء، في نهاية المطاف. وهكذا يضحي دافنيس بنفسه وهو يخرج من المصعد ليجد أنه موجود عن طريق الصدفة في مركز الأحداث الدولية، حيث يقوم بمنع عملية اغتيال للمبعوث الإنكليزي وينقذ حياة آلاف الناس في باحات حرب غير ضرورية! فالقلب العاشق أشد بأساً من إمبراطورية «الخير الشرير»! أو، في أسوأ الأحوال، يمكنه أن ينجو

---

-1- في النص الأصلي دمج الكاتب كلمتي الخير والشر في كلمة واحدة «الخيرشر»... فاقتضى التنوية. المترجم

بجلده، وهذا لا يقل إنسانية. بيد أن ذلك يحدث هناك، في الشتاء، حيث دافنيس يهجر كلويَا ويفر إلى ما وراء البحار مختبئاً بين علب الكرتون في شاحنة مقطورة، بعد أن بلع كبسولات منومة، وهو يحتضن قارورتين بلاستيكيتين - واحدة لكي يشرب منها وأخرى للتبول، أما هنا، في المليفو، فيجب عليه أن يذهب لا أعرف إلى أين، وأن يجد لا أعرف ماذا<sup>(1)</sup>، وذلك لكي يتصرّ على الموت، وأما المدة المتبقية - حتى يوم الجمعة. وسوف يجد من كل بد، وأراهن على ذلك! وهناك أمر آخر لا يقل أهمية - أي أبطال يمكن أن يكونوا من دون وصف خارجي لهيئتهم؟ إذ إنه من السهل الخلط بين هذا الراعي مع راعيته وبين الرعاة الآخرين مع راعيات آخريات! يفترض أن يتم استخدام الشخصيات بحيث يكون ممكناً تذكّرهم، وليس كما يحدث في حفل كوكتيل، حين يقومون بتقديم خمسة عشر شخصاً دفعة واحدة، وبحيث إنه لا يكون بإمكانك أن تتذكرة طيلة حياتك لا الأسماء ولا الشفاه! الأمر سهل بما يتعلق بالشكل الخارجي لدافنيس، يمكنكم أن تنظروا إلى! ولكن كيف يمكننا أن نصف كلويَا؟ على الأرجح، كما يلي: تخيلوا أنفسكم لوحة امرأة شابة من لوحات لوريتزو دي كريدي<sup>(2)</sup>، فلورنسا، 1459/60- 1537، زيتية على خشب - في متحف متروبوليتان، حيث تصعد على السلم الثاني وليس على السلم الرئيسي، تجتاز القاعة المخصصة للقرن الوسطى، وهناك يجب عليك ألا تتجه نحو تيتيان<sup>(3)</sup>، بل أن تنعطف فوراً إلى اليسار - وكن متيقظاً بالتحديد عند الباب الذي يقود إلى الطابق الثاني - لأنه من السهل ألا تلاحظها وبالتالي يمكنك أن تمر بمحاذاتها. تلك اللوحة تمثل

- هذه العبارة - يذهب لا يعرف إلى أين، ويجد لا يعرف ماذا - يقصد بها الإشارة إلى حرية التفكير عند شخص ما.. وهذا التعبير يستخدم في الرطانة الشعبية الروسية. وقد أثرت أن أترجم الكلام كما ورد لا أن أترجم المقصود منه. المترجم
- رسام ونحات من عصر النهضة الإيطالية، اشتهر بلوحاته عن الموضوعات الدينية. أثر أولاً على ليوناردو دافنشي ثم تأثر كثيراً به - المترجم
- أو تيتسيانو أو تيتسيانو فيتشيلي 1488-1576 رسام إيطالي من البندقية. قائد مدرسة البندقية في الرسم وقد ظهر برعايا عدد كبير من النبلاء الإيطاليين المعروفيين، وكان لفترة من الزمن رسام البلاط لدى الإمبراطور شارل الخامس. المترجم

صورتها حتى الخصر بشكل دقيق. لقد تم تصويرها في لباس أسود، تجلس وقد أدارت وجهها نصف استدارة، وهي تحمل في أصبعها خاتماً سوف يلعب، على ما يبدو، دوراً هاماً فيما بعد، طالما أنه ظهر مرتين في هذه الحكاية. وهناك أمر هام آخر أيضاً: مع وجود كل هذا العدد الكبير من الشخصيات، يجب على الفور تقديم توضيح - من هو الرئيسي بينهم، كي لا يحدث سوء فهم، وكيف لا يظن أحد أن الكلمة. وها هي كلويَا. وهي ليست ببساطة من يقول إنه لا يجوز على المرأة أن يحتفظ بالحقد في داخله - وإن كان هذا يؤدي للإصابة بالسرطان، لذلك يجب التحرر من الحقد، دعه يذهب أبعد، وليس تلك التي جمعت عند البحيرة جذور الأقحوان فحسب، ثم جدلت منها قفصاً لحشرات الزيز<sup>(١)</sup>، وأنها غالباً ما كانت تغفل عن نعجاتها وهي تمارس هذه الهوائية. كلا! إنها تلك الفتاة التي تبرز لديها حلمتا الثديين مثل حبتي عنب الشعلب، والتي راحت تنكش الوسخ في المقهى من تحت أظافرها ثم ترميه في الآيس كريم. وهي التي راحت تصرخ أنها بلا عقل، ولكن لديها رحماً، ولذلك تريد أن تلد طفلًا في علاقة حب. الأدق، سوف تصرخ فيما بعد عندما ستضيع في كلتا يديها حكاية ما أخرى، وأما الآن فإن كلويَا تقول التالي: يؤمن بالله فقط أولئك الذين يعيشون على أمل يوم غد وللمستقبل، في حين أنني لا أعيش سوى يومي الحاضر. أنا لست نادمة البتة لأنني اخترطتُ هذا الطريق - لقد جعلني هذا الاختيار مستقلة وقوية. وهذا راحت مليفو تصنع المعجزات مع كلويَا! إذا كانت بشعة في الشتاء، فقد أصبحت هنا أكثر بشاعة، وأصبحت تكره بدرجة أشد وتعزم بقوة أكبر. إذا كانت هناك عديمة القيمة لا فائدة منها - فقد أصبحت هنا أقل فائدة بكثير ولا معنى لها، وصارت تطمح لأن يحبوها أكثر، وصارت الوحيدة بالنسبة إليها في المليفو خلال الليل أكثر وطأة مما في الشتاء. وفضلاً عن ذلك، ليست

- ١- الزيز أو صرناخ لهذه الحشرة عدة أسماء محلية فتسمى أحياناً حشرة cicada لأنها تصدر صوتاً يشبه كلمة زيز أو زيز الحصاد، لكن اسمها باللاتينية هو cicada. تعيش هذه الحشرة في كامل بلاد العالم لكن أكثر انتشارها يكون في الأماكن الجافة مثل الصحاري.

مدينة لأحد بأن تكون مثالية - فالقفازات الخالية من العيوب مثيرة للضجر. لعلها تعرّضت للإهانة وأحسّت بالعتب والحنق على الحياة عندما كانت تعمل في صالون حلقة للسيدات الثريات، ولذلك تعتقد أنه يجب أن يكون لديها، وهي الشابة والصالحة، كل شيء ليوم واحد فقط، وليس لدى البليهارات العجائز والسمينات. وبالمقابلة، حين يكون موضوع الحسد امرأة شابة وجميلة، ساعتها تكون المعاناة أشدّ قوّة. ومن ذا الذي لا يستطيع في أعماق روحه أن يفهم كلويا البائسة؟ كانت تغيب لبرهة عن زبونتها، وحين تمر بمحاذة معطف من الفرو الفاخر والثمين المعلق في علاقة ثياب، تقوم بضرره بشفرة حلقة. لم يشك أحد فيها قط. وتلك القصص المختلفة التي كانت تجري معها في المحطّات! نعم، لقد تلذّذت بالدور الذي اخترّته لنفسها، وراحت تلعبه بحماسة وبتهور: دور يتيمة - ملاك مرمية إلى مزبلة الحياة. خرافّة: جاءت لكي تقوم بعرض، فقاموا بنهاها وباغتصابها. وفوق التبرج الرائع - كانت تحمل شهادة عليا في العناية بالبشرة - يضاف مكياج احترافي. القليل من اللون الأزرق على الجفنين السفليين لكي تبدو مرهقة وكثيبة بعض الشيء، من دون أن يؤثّر ذلك على جمالها وسحرها. وبعض الحداد على خلفية عناية فائقة - manicure - بالأظافر. وأما الشفتان المنفوختان فيجب تبييضهما ببعض الكريم كأساس مخفي. وأيضاً بعض الفوضى اللطيفة غير المنفرة في الملابس. ثمة فتحة صغيرة على المكان الأكثر ظهوراً - على الكتف الرقيق، وحيث يمكن أن يُرى خدش من خلال الشق. إنّ كلويا تتزوج في الشتاء لقاء سن المنجل (نوع من العصافير - المترجم) في يدها، أما في المليفو فهي تسعى إلى ما هو غير قابل للتحقيق. يجب على دافنيس أن يعثر على لغز الخلود قبل يوم الجمعة، أما هي فيجب أن تعثر على دافنيس. وفي كلّ مرة تعتقد أنّ حبيبها والعزيز الوحيد على قلبها، والغطيط خاصتها، كاد يصبح بين أحضانها، كان يتبيّن لها أنّ دافنيس هو بانُ الذي يعشّق الحورية بيّندا، كما أنه مغرم بسيرينجا<sup>(١)</sup>، وهو يتحرّش

1- آلة موسيقية يونانية قديمة، نوع من المزامير الطولانية. يظهر المصطلح أولاً في إلياذة هوميروس. وقد ارتبط اسم هذه الآلة بالإله بان. المترجم

بـ Dryads<sup>(1)</sup> باستمرار، فلا يترك ممّا العبور الحوريات. ففي إحدى المرات، عندما كانت كلويَا ترعى القطيع، وقد راحت تعزف وتغنى، ظهر بـأنْ أمامها في هيئة دافنيس وراح يغويها، محاولاً جرّها إلى ما يرحب به، ووعدها بـأنْ جميع الماعز عندها سوف تلُدُّ لقاء ذلك توائم من العنتزات في المرة الواحدة، فأعطته ما طلب منها، ولكنَّه بعد أن نال مبتغاه راح يندفع عن الأرضية ويقفز في الغرفة مثل مصارع في حلبة، وهو يقوم بحركات ملاكمَة موجهة إلى خصم غير مرئي. أصبحت كتفاه وصدره تلمع بسبب التعرق، كما لو أنه يرتدي درعاً. كان ثمة قفازات معلقة بمسمار فوق الأريكة، وكانت كؤوس النصر تقف في الخزنة خلف الزجاج. «هفت: دافنيس! يا حبيبي!» فأجابها بـأنْ: «لماذا لم تقولي لي، أيتها الحمقاء، إن تلك كانت المرة الأولى بالنسبة إليك؟». عندما أدركت كلويَا الخداع الذي تعرضت له، قالت بنبرة جافة: «أعطيوني القفازات». راح بـأنْ وهو يهزأ من حذافة البنت، يساعد كلويَا في ارتداء القفازات التي كانت ضخمة وثقيلة، أشبه بمسندين من جلد الأرائك. رفع راحة يده وقال: «اضرب بي!». لكنَّ كلويَا لم تضرره في يده وإنما وجهت ضربة إلى وجهه، ثم تالت الضربات بكل قوّة، معبرة عن اليأس والقهر والحنق. قفز بـأنْ مصعوقاً وهو يتلمس أنفه، ثم راح يضحك وقال: «القد باعْتِنِي!» ثم راح يتهرب من ضرباتها وهو يقفز في أرجاء الغرفة ويهاجم تارة من جهة اليسار وتارة من جهة اليمين، محاولاً أن يصفعها على مؤخرتها. كان يصبح: «هيا، لينكا، سددِي!». احتمدت غيظاً لأنها لم تعد قادرة أن تطال وجهه. أوقعت الكأس عن الطاولة بالصدفة. كما أسقطت المزهرية عن التلفزيون ولكن هذه المرة عن عمد. بعد ذلك راحت تحطم الزجاج وكؤوس النصر في الخزنة. أسقطتها بـأنْ بضربة واحدة في الحنك. فذهبت إلى البيت مكسورة الخاطر بوجه متورم وهي تنتصب وتمسك بـخدها. وضعَت إلى وجنتها ثلجًا كان يتساقط من السماء الرمادية خفيفاً وناصع

-1- في الأساطير اليونانية القديمة - حوريات الغابة وهنَّ شفيعات وحاميات الأشجار...  
المترجم

البياض. وفي طريقها إلى البيت عرّجت إلى المخزن لتشتري حلبياً للهرة. فقد كانت لدى كلويها هرّة تحبُّ الضيوف والانتقال من حضن إلى آخر. وها هي الآن، ولما لم يكن أحد في البيت، قد قفزت إلى النافذة حيث استقرت عند الطاقة المفتوحة وراحت تلتقط الثلج المتتساقط بمخلبها. ثم ثنأت من دون أن يرى أحد كم كان بلعوم الهرّة كبيراً وأحمر. ذلك أن الإنسان يشير كل ما هو غير مرئي. وعندما يدور الحديث عن القفاز المنسوج، يجب أن نعرف كل ما هو مرئي وغير مرئي. ويُجدر بنا أن نتحدث عن ذلك غير المرئي. يجب أن نعرف كل تفصيل عن كلويها، من دون أن نراها، بما في ذلك كيف أنها تذهب إلى نهر التونغوس لجلب الماء، وكيف أنها تحمل فأساً لكي تحفر فتحة في الجليد هناك. وكيف لا تذهب إلى هناك كل يوم، تلجم كلويها مع أمها إلى حمل قطع من الجليد في عربة التزلج موضوعة في كيس كان فيه سكر من كوبا، حيث تضعان قطع الجليد في برميل في زاوية المطبخ، وهناك يذوب الجليد على مهل. وسرعان ما يصبح الخروج بعد كسر الجليد ممكناً من دون ناموسية على الرأس للوقاية من البعض. يرتدون سترات مبطنة، ويدهنون أنفسهم بالشحوم. ثم تخرج إلى الغابة - فتلتفت أذنوك اقتراب أزيز كثيف بنغمة وحيدة. أما في الأيام التي تهب فيها رياح، فتقوم الغيوم بطرد البعض باتجاه المدينة. حيث تلتتصق أعداد كثيرة من البعض إلى الجدران كما لو أن الصوف ينبت على جدران الأكواخ. لذلك يضطر الناس لإشعال عدد من الموقدات التي تصدر الدخان بكثافة ب معدل ثلاثة - أربع مرات في فصل الصيف: يقومون بحرق مختلف أنواع القشور الجافة الأغصان في حوض مثقوب، ويتركونها تحترق بالكامل ثم يضعون فوقها الطحالب وأغصاناً مبللة من أشجار التنوب. ينتج من جراء ذلك دخان كثيف ولاذع. وعلى الرغم من كُل ذلك يقومون بابتلاع البعض أثناء الطعام. ولكن، من ذا الذي يثير اهتمامه موضوع الأكواخ؟ سوف ترك الطاعون وقد انحب للشتاء! لا، يجب نقل الحدث إلى مكان ما في الجنوب، الذي كما هو معروف يجعل التفكير بليداً، لكنه ينشّط المشاعر والأحساس. هل يمكن أن تخيل كيف أن الغروب ينعكس نابضاً على الباب الزجاجي الدوار في فندق

فخم على شاطئ بحر بنطس<sup>(1)</sup>، الذي معناه، لغير المثقفين - البحر المضياف؟ إذ إنه أكثر مسيرة أن يعاني المرء لأجل الأبطال في مدينة كانت ذات زمن الثانية بعد أثينا، ولذلك لم يكن عبئاً أن سترابون<sup>(2)</sup> كتب أن التجارة في ديوسكورا<sup>(3)</sup> كانت تتم بمساعدة ثلاثة مترجم. وهل يمكن القيام بكل ذلك من دون مصوّر خاص بالشاطئ - وهو يرتدي شورت وصمبريرة (قبعة إسبانية عريضة)، ويحمل قرداً على كتفه مع تماسح أصفر منفوخ تحت إبطه؟ أو لتنطلق إلى بازار دمشق، حيث يبيعون الغلمان شبه مجاني وحيث يعلمونهم كل شيء، وحتى إنهم يقومون بإخلاصائهم حسب الطلب. أما الموسم الميت في جزيرة كريت - حيث تراكم كمية كبيرة من البرتقال والماندرين تحت الأشجار في الحدائق من دون أن يلقطها أحد، ولكنها غير لذيدة. ويدو الأمر غريباً أن أطفال السايكلوب<sup>(4)</sup> والزيز أو الصرناخ - عبارة عن جزر. حيث لا تهطل الأمطار هناك بغزارة. وفي حال أن المدة المتاحة تنتهي في يوم الجمعة بالفعل، فلماذا التباطؤ؟ هنا تنطلق في الطريق! حيث تنظر العينان! إذ يجب العثور على شيء ما مضاد للموت، حتى ولو كان تميمة أو مكيدة. إنها كلمات سحرية. تنطق بها - ولن يعود أيُّ موت مرعباً.

---

- 1- التسمية اليونانية للبحر الأسود. البنطس وتعني «البحر» وهو الاسم اليوناني لمنطقة تاريخية تقع على الساحل الجنوبي للبحر الأسود، وتقع في منطقة البحر الأسود الشرقية في تركيا الحديثة. أطلق الاسم على المنطقة الساحلية والمناطق النائية الجبلية (التي ترتفع إلى جبال الألب البنطية في الشرق) في العصور القديمة من قبل اليونانيين الذين استعمروا المنطقة واستمدوا اسمها من الاسم الذي أطلقوه على البحر الأسود وهو بونتوس يوكسيوس وتعني «البحر المضياف».. المترجم

- 2- سترابون أو سترابو - وسماء العرب اسطرابون - مؤرخ وجغرافي وفيلسوف يوناني. المترجم

- 3- Dioscuriade, Dioscuria أقدم مستعمرة يونانية قديمة على ساحل البحر الأسود في القوقاز التي تأسست في مدينة كولاسيان القديمة في Diaskuri والمعروفة منذ القرن السادس قبل الميلاد. المترجم

- 4- سايكلوب وهو الاسم المعرف من اليونانية (التي تعني دائري العين) وسايكلكوب هم مسوخ من جنس العمالقة، ذورو عين واحدة ووسط الجبهة، هم في الميثولوجيا الإغريقية. عمال مهرة يصنعون الصواعق وأسلحة الآلهة ويحققون الأعمال الكبيرة والضخمة. المترجم

سوف يخرج دافنيس من البيت، وإذا كل شيء في الفتاء ناصع البياض بسبب الثلج الذي هطل ليلاً. توقفت التراموايات، وأصبحت القطارات تصل متأخرة. راح الثلج يهطل كثيفاً، وبطيئاً وغير ضروري. كان ثمة مبني سكني جديد يتم تشييده وقد بدا كما لو أنه ينهض علىخلفية الثلج المتساقط مثل منطاد تسبيلين. عندما سيمُر أحد ما بمحاذاة الجينسيوم<sup>(١)</sup> فلا بد أن ينقر بأصابعه على النافذة. أما دافنيس فسوف يتوقف وسيجول بنظره. إنها ليكينيون تلوح له بيدها وتدعوه من خلال الطاقة الصغيرة، لأنَّ تعال بسرعة إلى هنا، لأنني سوف أخبرك شيئاً مهماً جداً. بيدَ أنَّ دافنيس يهز رأسه: «لا وقت عندي!». عندئذ ستفتح ليكينيون درف النافذة التي تم لصقها خلال فصل الشتاء اتقاء للبرد، بشدة مصدرة صريراً قوياً. وستصبح له: يستحيل أن تتم إعادة كل عين إلى كل محجر، ولا يمكن إعادة إنسان إلى كل جمجمة! ولكن لدى سراً واحداً! هي تعال!». سوف تتمدد رأسها وسترمي بجديلتها عبر النافذة مثل حبل. «ما بك تتلكأ؟». ثم ستستند بكلتا يديها إلى حافة النافذة بقصد تحقيق مزيد من الاستقرار. «تمسك، هي تسلق، يا حبيبي، يا عزيزي الوحيد، يا غططي!». سوف يفر دافنيس هارباً من المدينة من دون أن يتوقف، وسوف يتابع ركبته إلى أن يلوح العشب الطري من تحت الثلج، إذ يصبح واضحاً حينئذ كل ما هو غامض. وأما دافنيس فسوف يمضي ويمضي. سوف يجعل ظل العشب الطريق أشبه بالغيور (التخريم المزخرف). لاح طائر السمامة<sup>(٢)</sup>. حلزون راح يتسابق مع ظله. ثمة ماء يمكنه في بركة. وحجر صغير أصاب قدمًا حافية. شجرة بلوط بأذرع كثيرة. والغروب باهت. كوخ من الأغصان. بحيث يمكن للمرء أن يدفن نفسه وينام وسط العشب. لفظ شيئاً تافهاً. سوف يضع دافنيس رأسه هناك من حيث أتي، أما رجلاه فسيضنهما في الزلاجة الكوكبية. سوف يلتهمه البعض ليلاً. نومه مضطرب مصحوب بتعرق شديد. كان دافنيس يدمدم طوال الليل ليستيقظ صباحاً

- 1 Gynekeion أو جناح الإناث من المنزل في اليونان القديمة.. المترجم  
 -2 السمامة طائر متوسط الحجم، يتشابه ظاهرياً مع السنونو أبيض البطن أو الخطاف، لكنه أكبر قليلاً. المترجم

وليكشف أن قدميه هناك من حيث جاء، وأن رأسه هناك حيث كانت الشمس ما تزال تجّر خلفها الطبي المشاكس والعنيد. سينهض دافنيس وسيكمل طريقه، وهو مندهش للمنظر الطبيعي مقلوباً من الداخل إلى الخارج. كلما أقرب من مديتها الأصلية، أصبحت دهشته أقوى وأعمق. تبدأ بالظهور الأبراج والقبب، ورؤوس الكنائس، حين يعبر بمحاذة دافنيسقادماً من جهة المدينة مسرعاً رجل برأس مدفأ، وهو يقبض على شيء ما في يده. سيقول دافنيس في نفسه: «إنه مدھش ببساطة کم أنَّ هذه المدينة شبيهة بمدينتي!». وسوف يسرع من خطواته. وأما المدينة في تلك الأثناء، وبينما كان دافنيس غائباً عنها، كانت قد شهدت الحدث التالي. جاء فصل الصيف. كان اثنان من البناءين - الأوروتوش يعملان عند رجل من التونغوس، وبينما كان هذا الأخير ذاهباً إلى المعبد، هطل مطر. وفي المطر تصبح واضحةً على الأرجح، تلك الخيوط التي تمتد من رؤوس الأشجار إلى الأشجار، ومن أعلى العشب إلى الأعشاب، ومن البشر العلوين إلى المظلات. وبينما كان صاحب البيت غائباً، شاهد البناءان في القبو السري كمية كبيرة من الأواني الذهبية والفضية وأرادا أن يقوموا بسرقتها. وهذا ما فعلاه. تسللا إلى المخبأ تحت الأرض وأخذنا كل شيء هناك من فضة وذهب. وعندئذ قال أحدهما، وكان قد خرج «أولاً»، في نفسه: «لماذا يجب علىي أن أتقاسم الغنمة؟ بل يمكنني أن آخذ وحدي كل شيء!». وإذا فكر على هذا النحو، أقرب من رفيقه الذي كان في هذه اللحظة يصعد من المخبأ السري عبر فتحة ضيقة، وضربه بالمطرقة على رأسه بقوة كبيرة، فأرداه قتيلاً. اختطف الأوروتوش غنيمتة ورحل. بمجرد أن المطر توقف عن الهطول وبدأ يتصاعد البخار من الرمل على ضفة النهر، عاد صاحب البيت إلى منزله ورأى أن ثمة جثة ملقية في القبو تحت الأرض. شعر التونغوس البائس برعش شديد هزّ كيانه. ما العمل؟ في البداية أراد أن يسحب الجثة بطريقة خفية من دون أن يراه أحد، لأنه كان يخشي كثيراً من ثأر الأوروتوش. لكن القاتل، وبعد أن خباء الفضة والذهب المسروقين، راح يجري في الشارع وهو يصيح: «لقد قتل التونغوس واحداً من الأوروتوش! تعالوا جميعكم إلى هنا! لقد ذبح التونغوس

أحد الأوروتش!». وبسرعة البرق تجمهر حشد مهتاج من مختلف الأنجاء على ضفة نهر تونغوس، حيث اجتمعت المرأة مع الأمل في بيوت حقيرة بائسة، وقرروا القيام بمذبحة. حمل التونغوس الشaman (كبير المشعوذين) على حمالة وخرجوا به. هدأ الحشد عندما رأى المشعوذ العجوز. «ما الذي تريدون أن تفعلوه، أيها البايسون؟» - بدأ كلامه بصوت خافت، لكن كل كلمة كانت مسموعة بوضوح، حتى أن النهر استكان. - هل تريدون أن تذبحوا الأحياء من أجل قتيل ما؟ طالما أنه مات - فليميت! هذا ليس بالشيء المخيف. كيف يمكن لموت أحدٍ ما أن يصبح مفاجأة؟ الحياة عبارة عن وتر، والموت - هو الهواء. والوتر لا يمكنه أن يرنَّ من دون هواء. ثم إنه لم يرحل إلى الأبد وبشكل نهائي، وإنما غاب لبرهة فحسب. وأن القاتل ليس من التونغوس أمر جلي للعيان. بيدَ أنكم تطلبون، كما أرى، براهين وأدلة. سوف تحصلون عليها حالاً! وهكذا، كان يعمل في البيت اثنان من الأوروتش البنتين. وبينما كان المطر يهطل، تسللا إلى القبو تحت الأرض. وعندما توقف المطر عن الهطول، انقطع الخيط الذي كان يربط أحدهما بالسماء. وهذا كل ما في الأمر. والآن سوف يكشف لكم القتيل من هو القاتل. أحضروا القتيل!. وهذا ما تم تفيذه، جلبوا الأوروتش برأسه المحطم ووضعوه عند قدمي الشaman. تراجع الحشد. جال العجوز بنظره فرأى كلويَا واقفة في الصفوف الخلفية من الأوروتش. وأشار لها بيدِه أن اقتربِي. أفسح الحشد لها طريقاً. تقدمت كلويَا نحو الأمام وهي تنظر من حولها خائفة. كانت مذعورة وقد راحت طول الوقت تقلب شفتها السفلية لتنفس شعرها الذي نزل على عينيها. مَدَ العجوز يده بحيث كانت راحتها للأعلى، كما لو أنه كان يتظاهر منها أن تضع فيها شيئاً ما. لم تفهم كلويَا شيئاً، فراحت تتطلع حائرة مرتبكة وهي تبتسم وتهزّ كفيها. قال العجوز: «الخاتم!» هي: «أي خاتم؟» هو: «نفس ذلك الخاتم، وإلا ما الغاية من ظهوره في هذه الحكاية السردية؟ إنه على وجه التحديد ليس سوى نفس تلك التميمة المنشودة!». حاولت كلويَا أن تنزع الخاتم، ولكنها بسبب الرعب الشديد أمسكت بالإصبع تrepid أن تقطعها. راحت تبلل الجلد على الإصبع بلسانها. وأخيراً،

انزلق الخاتم، وضعه العجوز في يد القتيل وأغلق أصابعه عليه. حبس الحشد أنفاسه. انتعش القتيل. شهد الحشد. نهض الميت وراح يبحث عن قاتله. شاهده على الفور وقد اختبا خلف ظهور الآخرين، فصاح: «أنت قاتلي!». هجم المحشدون مصعوقين على المجرم وهم يصرخون، يريدون تمزيقه، لكن القاتل استغل لحظة الارتباك العام واختفى من دون أن يتبه له أحد. وهنا يعبر دافنيس الشوارع حيث يُخَيِّل له أن كُلَّ شيء معروف له، إلا أنَّ الجسور أصبحت أقل ارتفاعاً - لقد ارتفع منسوب الماء في النهر بعد الأمطار. وفجأة يرى جينيسيمون (جناح الحرير) شبهاً بذلك تماماً. وقد ظهرت من خلال النافذة ليكينيون بذاتها. حيث كان شخص يحاول الصعود إليها بواسطة الجديلة. كُلَّ شيء كما هو ولكنه مختلف في أمر ما. كما لو أنه تم استبدال الجميع. فجأة يخطر ببال دافنيس أنه ربما بدَّل الجنب الذي ينام عليه في الحلم، وأنه قد جاء الآن إلى مدنته. ها هو ذاًهباً إلى بيته، إلى كلويَا. يبدو البيت شبهاً بيته. حتى إن الروائح في المدخل هي نفسها. ونفس الجرس. تفتح كلويَا الباب - هي ذاتها ولكنها مختلفة وغريبة نوعاً ما. سألته: «من تريده؟». لاحظ دافنيس: ثمة ستة شرطي مع كتافيات معلقة في الممر. لا يعرف ماذا يجب عليه أن يقول. سمع صوت رجل آتياً من المطبخ يسأل: «من هذا؟ ماذا يريده؟». أجابته كلويَا من دون أن تلتفت نحوه: «لا أعرف، يتسللون من جديد!». الصوت: «اطرديه شر طردة، عندئذ سيهداً كل شيء!». وأخيراً يهمس دافنيس بشفتين متيستين: «ألم تعرفي، يا تُرى؟» كلويَا: «لا». دافنيس: «أنا حبيبك دافنيس!». كلويَا: «هل جنت؟ ها هو دافنيس، خطيبِي، يجلس في المطبخ، يدعوني لتناول العشاء. لقد بحثت عنه طويلاً، طيلة حياتي، وأخيراً وجدته. ونحن نستعد للزواج - هذا ما كان في الرؤية النبوية، ولكن الحق يقال، في حكاية أخرى تماماً». دافنيس: «بيدَ أنا في تلك الحكاية، ويجب عليَّ أن أعاشر قبل يوم الجمعة على وسيلة ضد الموت. وقد قررت - لعله ذلك الخاتم بالضبط سيقوم بذلك الدور؟ ألا تذكري ما كنت قد أخبرتني عنه، عن دوام إضافي بعد الظهر». تخبيء كلويَا يدها خلف ظهرها وتقول: «هذا مجرد هراء، يبدأ الخلود عند المرأة بين

ساقيهما». ثم تغلق الباب. بالمناسبة، يطرح نفسه هنا سؤال، ما الغاية من هذا العدد الكبير من الأشخاص العابرين وغير الضروريين؟ فالحكاية صغيرة، ولا تكفي لكي تغطي الجميع. من ذا يجادل: لا يمكن للكلفازات المنسوجة الرئيسية أن تستغني عن كل أولئك النادلين وبائعي الصحف، عن الخياطين والمعارك في الفنادق، وعن المصورين على الشاطئ، والأصوات القادمة من المطابخ وسترات الشرطة. وهكذا يجب أن ترك لهم عبارتهم «السفرة جاهزة»! فما الحاجة إلى الباقي؟ لتأخذ، مثلاً، ذلك المصوّر بالذات الذي راح يتلألأ في لباسه الأسود وبأسنانه الذهبية. من بحاجته؟ لماذا يجب علينا أن نعرف بشأن انتظاره وخوفه طوال تلك السنوات، وأنه عما قريب سوف يرن الجرس، حيث ستظهر في الباب ابنته التي لم يسبق له أن رآها،وها هي قد أصبحت كبيرة- وأنه كان طوال الوقت يحسب كم صار عمرها الآن؟ لماذا يجب علينا أن نعرف أنه أراد يوماً ما أن يقطف تفاحاً كما هو الحال عند مان راي<sup>(١)</sup> - من دون أن ينجح في ذلك؟ وبينما كان نائماً فوق زوجته، راح يتخيّل تلك السيدة التي استأجرت عندهم في الصيف الماضي، وقد تذكر الآن وهو مغمض العينين كيف أنها راحت تنزع سروالها المتداли بمساعدة إحدى قدميها عن الأخرى، وكيف أن رديفها القويين كانوا ينكمسان ويقلchan عند لمسهما للدرجة أنه لا يعود ممكناً حتى لطرف اللسان أن يمرّ من بينهما، وكيف أنها كانت تتبول أمام عينيه - بحيث إن البول كان يخرج على شكل دفقات، فيتبيل الرمل ويتصلب على الفور. كانت زوجة الفتونغراف تعرف منذ فترة طويلة أن زوجها يخونها - كانت تنهض في بعض الأحيان ليلاً على مرفقها فتشمُ رائحته وتكتشف أن ثمة عطرًا انسانياً آخر عليه، لكنها استسلمت للأمر وهي امرأة مهانة ولكنها حكيمة. كانت على الحائط صورة لشقيقها العسكري، البطل الذي استشهد عند قيامه بواجبه المهني، في حين أنَّ الحقيقة هي أنه توفي من جراء اختناقه بما تقىأ به في الخندق. وإلى جانبها صورة لثلاثة توائم ولدوا عند شقيقتها. ثمة صوت لجارتهم، من أذربيجان،

---

1- اسمه الحقيقي إيمانويل رادنيتسكي 1890-1976 فنان فرنسي وأمريكي معاصر قضى معظم حياته المهنية في باريس. المترجم

يصل إليها عبر السياج وهي تتحدث مع ساعي البريد، فهي تتحدث الروسية بشكل سيء، وقد أرادت أن تقول له «أكثر من شهر» فقالت «قمر واحد وأكثر قليلاً». كانوا دائمًا يؤجرون غرفة في فصل الصيف للمصطافين - وقد قام أحد المصطافين، الأستاذ المشارك من مدينة كورسك، بوضع قاموس ما، كما أنه جرح رجله بشظية بلور على الشاطئ، فذهب في الحال إلى المستشفى لكن الحالة تعرضت لحادث مروري - تتوقف عند تقاطع الطريق مع سكة الحديد، ومن ثم ظهرت تلك الأوراق مع أعمدة من الكلمات على علب صفيحة مع المربي - لم تكن الزوجة تسخّرها بالأغطية، وإنما كانت تغلق العلبة بورقة ومن ثم تربطها بواسطة خيط كما كان دارجاً.

وفي أحد الأيام كان نحات يحفّر عند أساس البيت، حيث كان يعمل في الحديقة، وفجأة بدأ هطول مطر. راح يصرخ: «ساعدوني، يجب نقل التمثال النصفي من الحديقة إلى الشرفة!». حمله الاثنان معًا، ولكن رجل النحات زلت فتحطم كل شيء. لدى الابن ذهن رياضي - يمكنه أن يحوّل أي عدد لا على التعين - نمرة سيارة، مثلاً، - إلى معايرة 19 للتكميل. ولسبب ما تذكرة كيف أنه عندما كان طفلاً جاء خاله في زيارة لهم، ولم يستخدم على الإطلاق، وحتى أنه لم يتنزع قميصه الداخلي، وقد استطاع أن يرى عبر ثقب في باب الحمام أن لديه زوجين من الحلمات. كان بديناً، وكان لديه ثديان علويان أشبه بثديي المرأة، وفي الأسفل منها كان يمكن رؤية بقعتين نقطتين. كان يمكن رؤية الغروب من الشرفة بشكل دائم. وفي إحدى المرات جعلت سحابة من شعاع الشمس ما يشبه المجداف. وقد كان المصور اشتري البيت من أرملة طبيب بيطري من موسكو - حيث قرر هذا الأخير أن يسكن بعد تقاعده من الوظيفة قرب البحر، وكان يؤجر الغرف في الطابق السفلي، كما كان يحب أن يروي للمصطافين في الأماسي عن الحيوانات التي اضطر للتعامل معها خلال حياته المهنية: لم يكن يوجد قبل الحرب سوى الخيول، ثم ظهرت الخنازير التابعة لسلسلة المطاعم، وأخيراً ظهرت الأرانب. ومن جديد ظهرت الأحصنة أثناء الحرب. وبعد الحرب - الخنوص والأبقار، الماعز والدجاج. كانوا يحتفظون بالحيوانات حتى في حي أربساط، في شارع

غوركي - في باحات المنازل وفي الحظائر وفي الحمامات الشعبية. ثم جاءت الكلاب في فترة السعار الكبير خلال عامي 52-53. وبمناسبة احتفال الشباب والطلبة في عام 1957 - الحمام والبجع والبط في برك الماء. بعد ذلك ازداد عدد الكلاب والقطط. وعندما كان الطيب البيطري يقرأ الجرائد، كان يفرح كثيراً للكوارث كما سرّ ذات يوم بلوك<sup>(1)</sup> بغرق «تيتانيك»<sup>(2)</sup> الذي قال إنه ما زال المحظوظ هناك. وكلّ هذا لا حاجة لأحد به: لا الطيب البيطري الذي توفي في دورة الألعاب الأولمبية، ولا الصحافي نفسه وقد راح يتسلّك على الشاطئ مع التمساح الأصفر تحت إيطه - حيث راح الحصى يصرّ تحت قدميه ويتكلّل، ولا حاجة في ذلك لابنه عالم الرياضيات المغمّر بفتاة من أسرة جيدة، الطالبة في معهد الفيزياء، ذكية لكنها صماء. يهمس لها في أذنها بكلمات غرامية وأما هي فتقول: «ماذا؟». عندما حصلت على أول جهاز للسمع قال لها الطيب إنها في حال جعلت شعرها طويلاً، لن يكون الجهاز مرئياً عندئذ. كل ذلك زائد على الحاجة. خصوصاً أنَّ الحرب اندلعت، فاحتراق البيت ومن ثم توفي المصوّر وجميع الآخرين أو أنهم سوف يموتون. لذلك، ما معنى أن نتحدث عنهم؟ كان يجب منذ البداية حذف ذلك المصوّر مع شاطئه الذي بدا منذ الصباح منحنيناً وهادئاً، بحيث إنه كان مسماً عمّا كيف أنَّ أحدهم يصرخ في الجبال شيئاً غير مفهوم، مثل: «ثالاسا! ثالاسا!»<sup>(3)</sup>. بسبب أمثل هؤلاء الذين ظهروا للوجود بمقدار قطبيين من هذه الناحية وما زالوا مستمرين من الناحية الأخرى، كما هو الحال في سماء ميبيوس، يتفرّع الكون إلى ما لا نهاية، يتضخم بلافائدة، جاعلاً هجوم

1- ألكسندر بلوك شاعر روسي وأحد أقطاب المدرسة الرمزية 1880-1921. المترجم

2- سفينية ركاب إنكليزية عملاقة عابرة محيط. كانت التيتانيك أكبر بآخرة نقل ركاب في العالم تم بناؤها في ذلك الوقت. كان أول إبحار لها في 10 نيسان عام 1912 من لندن إلى نيويورك عبر المحيط الأطلسي وبعد أربعة أيام من انطلاقها في 14 أبريل 1912 اصطدمت بالآخرة بجبل جليدي مما أدى إلى غرقها بالكامل. كان على متنه 2,223 راكباً، نجا منهم 706 أشخاص فيما لقي 1,517 شخصاً حتفهم. المترجم

3- ثالاسا في الميثولوجيا الإغريقية هي إلهة البحر وتجسد البحر الأبيض المتوسط. وفي بعض الحكايات الإغريقية تعرف كأم السمك أو أم جميع الحيوانات المائية. إنها ابنة أثير الهواء وهميرا (حمرة الصباح) وأم أفروديت من أورانوس (ميثولوجيا). المترجم

اللصوص وقطاع الطرق يتأخر بعض الوقت. ولذلك لم يرد ذكرهم نهائياً في الحلم النبوى. على الرغم من أنَّ الأحلام النبوية أيضاً، والحق يقال، لا تستحق أن يتبعها المرء حتى نهايتها. لأنَّه عندما يكون ثمة حلم نبوى ما، يصبح الأهم - أن يستيقظ المرء في الوقت المناسب. لثلا يحدث أي شيء فيما بعد. ويُفضَّل أن يستيقظ المرء في زفاف قفازى. تكسر كلوبى كعب حذائتها - وهذا فأل سيئ - وسوف تبكي طوال الوقت عندما سيقوم الكاهن أمام منضدة تلاوة الكتاب المقدس بتقديم نصيحة لها بأن تستمتع مثل رفقة<sup>(١)</sup>. بعد ذلك سوف تنشد الجوقة من سفر المزامير للنبي داود: «سوف ترى أبناء أبنائك! السلام على إسرائيل!». أما دافنيس وقد تعرَّق في بدلته الجديدة غير المريحة، ومع إحساس مزعج في أصابع يديه التي تلطخت بشحم الشمعة، سوف يقول في نفسه: «وما علاقة إسرائيل هنا؟» بعد ذلك سوف يهجم عليهم قطاع الطرق.

سؤال: عندما بدأ قورش يستعيد وعيه في نهاية المطاف، بعد غيوبه طويلة، أراد عدد من المخصوصين الذين كانوا بالقرب منه صدفة، أن يجلسوه على حصان آخر وأن يقودوه إلى مكان آمن. لكنه لم يكن قادرًا أن يتوازن وحده على الحصان، لذلك قام المخصوصون بحمله وهم يستدلونه من كلا الجانبيين. كانت قدماه تخذلانه فلا تحملانه، وكان رأسه يتتدلى على صدره، ولكنه كان واثقاً من أنه انتصر، لأنَّه كان يسمع كيف أنَّ المهرولين بقربه ينادونه بالملك ويطلبون منه الرأفة. في هذه الأثناء انضمَّ عدد من أبناء مدينة كافن<sup>(٢)</sup> - وهو أناس من حالة الفقراء الذين يسيرون عادة خلف جيوش الملك حيث يقومون بأكثر الأعمال سخرة ووضاعة - عن طريق الصدفة إلى مراقي قورش ظناً منهم أنهم من جماعتهم. ولكنهم يكتشفون على الفور تلك العباءات الحمراء فوق الدروع، يدركون أنَّ أولئك من الأعداء،

1- رفقه: نبية والأم الحاكمة الثانية من أربع أمهات للشعب اليهودي. كانت زوجة إسحق ووالدة يعقوب ويعيسو. رفقه وإسحق دفنا في مغارة الأولياء في الخليل، جنباً إلى جنب مع إبراهيم وسارة ويعقوب وليثة. المترجم

2- مدينة قديمة في الأناضول.. تقع أنقاضها حالياً في مقاطعة موغلا في تركيا.

لأنَّ جميع جنود الملك كانوا يضعون عباءات بيضاء. عندئذ يقوم أحدهم برمي قورش برمج قصير ويمزق له وريده خلف الركبة. يسقط قورش على الأرض ويصطدم برأسه في مكان إصابته في الصدغ بحجر ما يؤدي إلى وفاته. وإذا عرف أرتحشتا (أردشيريكم - بالفارسية) بمقتل أخيه وهو محاط برجال حاشيته وبالعسكريين وهم يحملون المشاعل في أيديهم، يهبط عن التل ويقترب من قورش الميت. يقومون حسب التقليد الفارسي بقطع رأس الميت ويده اليمنى. يأمر الملك بأن يعطوه رأس شقيقه. يمسك أرتحشتا بالرأس من شعره الكثيف والطويل، حيث يبدو الرأس واضحاً في ضوء المشاعل الكثيرة الشديد، فيرفعه لكي يراه الجميع.

جواب: لم يبق أي وقت حتى يوم الجمعة. كان يفترض بنا أن نفعل شيئاً ما بسرعة أكبر. كنا جالسين في المطبخ ممسكين ببعضنا بأيدي بعض ولبنا صامتين. راحت تنظر من خلال النافذة. ثم قالت فجأة: «إنه كانون الأول، ومع ذلك لم يهطل الثلج بعد». وبعد ذلك... ولكنك لا تصغي إلى ما أقوله نهائياً.

سؤال: بعد المعركة، وإذا أراد الملك أن يقول الجميع وأن يفكروا بأنه هو الذي قتل أخيه بيديه بالضبط، أرسل الهدايا إلى ميراداتس الذي أصاب قورش برمجه في رأسه، وطلب أن ينقل له: «إن الملك يمنحك هذه الهدايا لأنك عثرت على مفرش حصان أخيه وجبلته»، وهذا ما جعل ميراداتس يصمت مخفياً إحساسه بالسخط وبالاستياء، لأنه كان يعتبر أنَّ شرف الانتصار يعود إليه، وإذا بالحديث يدور هنا عن مفرش ما! ثم وجهوا له دعوة لحضور وليمة، فجاء وقد ارتدى ثياباً فاخرة وثمينة ووضع حلبياً من الذهب كان الملك قد أهداها له. بعد الغداء، وأثناء تناول النبيذ، قال الشخصي الأكبر (حارس سرير) الملكة - الأم باريستيس: «يا لها من كسوة رائعة، يا ميراداتس، تلك التي أهداها الملك لك، وكم هي مذهلة هذه القلائد وتلك الأساور وكم هو ثمين هذا السيف! هيا قل لي، يا صديقي، هل بالفعل هي مأثرة عظيمة وبطولة مجيدة أن تلتقط المفرش الذي سقط عن ظهر الحصان، وأن تجلبه؟». لم يتمالك ميراداتس أعصابه خصوصاً أن النبيذ كان قد فكَّ عقدة لسانه، فأجاب: «يمكنكم أن تشرروا ما تشاءون بشأن أي مفارش كانت، أما أنا

فأقول لك الحقيقة: «لقد قُتِل قورش بهذه اليد! لقد سدَّدت في العين، لكنني أخطأت قليلاً، بيد أنني اخترقت الصدغ بالكامل. وقد كان ذلك الجرح هو السبب في مقتله». وإذا أدرك الجميع مصيبة مثيراداتس وال نهاية الوخيمة التي تنتظره، أخفوا نظراتهم وراحوا يحدقون في الأرض، باستثناء صاحب البيت الذي وجد ما يقوله: «صديقِي مثيراداتس، هيا بنا نشرب ونأكل، ونحن نحن رؤوسنا أمام عبقرية الملك، وأما الكلام الذي يزيد من إدراكتنا فمن الأفضل أن نتخلّى عنه». لكن الشخصي نقل هذا الكلام إلى باريساتيس، وهي بدورها نقلته إلى أرتحشتا. استشاط الملك غضباً. فأصدر أوامره بأن يتم قتل مثيراداتس عن طريقة الأحواض<sup>(١)</sup>. حيث جاءوا بمحظين أو ملوك متشابهين تماماً ومتقابلين مع بعضهما، ثم وضعوا الضحية صاحب اللسان المتهور ووجهه نحو الأعلى في واحد منهما، ثم قاموا بتغططيته بالحوض الثاني بحيث يبقى رأسه من جهة وقدماه من جهة أخرى في الخارج، في حين أن باقي الجسم ظلّ في الداخل. ثم طلبوا من مثيراداتس أن يأكل لكنه رفض، فراحوا يغزونه بالإبرة في عينيه وبذلك أرغموه على البلع. وبعد أن أكل، قاموا بصب الحليب في فمه مخلوطاً مع العسل، ثم دهنو بهذا الخليط وجهه بالكامل. كانوا باستمرار يقلبون الحوض لكي تسقط الشمس على عيني الضحية، حيث تقوم أعداد لا تحصى من الذباب بالالتصاق بوجهه. وبما أنه كان يفعل ما يفعله أي إنسان عندما يأكل ويشرب، سرعان ما ظهرت مختلف الديدان في فضلاته المتغفنة، التي تزحف إلى داخل أمعائه لتقضيم جسده الحي. وهكذا ظلّ مثيراداتس يتذمّر ويتألم لمدة سبعة عشر يوماً، لأنّه موجود ولا يمكن جعله غير موجود. ولأنه لن يُكتب له أن ينال ضربة برمج قصير.

جواب: في تلك الليلة الأخيرة شعرنا بأننا نحب بعضنا بعضاً أكثر من أي وقت مضى. غفوْت لمنة ساعة أو ساعتين، وعندما استيقظتْ كان الفجر قد طلع وكان كل شيء في الخارج خلف النافذة مغطى بالثلج. نهضتْ بهدوء

- ١- تدعى هذه الطريقة من الإعدام سكافيزم Scaphism ومعروفة أيضاً باسم القوارب، هي وسيلة إعدام فارسية قديمة، صممت لإلحاق أكبر قدر من العذاب، الاسم جاء من الكلمة الإغريقية skáphe ومعناها مجوف.. المترجم

كي لا أوقفها. ارتديتُ ثيابي ولبست معطفني وقعتي الصوفية. ألقيت نظرة إلى غرفة النوم. كان اللحاف قد تكشف عن ساقها. وكانت ندبة على كعبها - ففي أحد أيام طفولتها داست على مجرفة. أغلقت الباب الرئيسي خلفي بتأنٍ وهبطت إلى الأسفل. مددت إصبعي حسب العادة في صندوق البريد. أغلق الباب في المدخل ورأي من تلقاء نفسه بقوة. كان الفناء أبيض بأكمله، ومع ذلك كان الثلج ما زال يتتساقط. ثلج طري، صباحي. كان ثمة شخص يكتس بمجرفة مطبخ صفراء الثلج عن سيارته بعد أن تحولت إلى ما يشبه الكثيب الثلجي. لم تكن التراموايات تسير بسبب أكوام الثلج الذي كدسته الريح على سكك الترامواي. كان الناس يسررون الواحد تلو الآخر باتجاه مترو الأنفاق عبر أرض قفر - وقد صنعوا دربًا لكثرة ما مرّوا من هناك. كان كل شيء مخفياً تحت الثلج - بما في ذلك باحة لعب الأطفال ومكب القمامات. ومن جديد هطل ثلج غزير لدرجة أن الشارع غاب نهائياً خلف الثلج المتتساقط بقوة ولم يعد مرئياً. بياض. وصممت. وشتاء.

تقدمت للانتساب إلى مدرسة ثانوية باسم بيلينسكايا في شارع تاغانروغسكي في مبني خاخلاجايف. ما زال البناء قائماً حتى يومنا هذا - حيث يعرفه جميع سكان مدينة روستوف باسم «بيت الأحذية». في امتحان القبول، وبعد أن تمت بكلام غير مترابط أمام الآب «ربنا»، قمت بحركة انحناء مجاملة بدلاً من انحناء كاملة<sup>(١)</sup>.

تبعد المدرسة الثانوية، على وجه التحديد، من مخزن السلع الكتابية والورقية لصاحب يوسف بوكورني في شارع سادوفايا. يكفي أن تقول «مدرسة بيلينسكايا، الصف الأول»، حتى يقوموا في المتجر بتصميم حقيقة ورقية يضعون فيها الكتب والدفاتر، وأقلام التلوين وريش الرسم من القياسات الالزمة، وريش الكتابة، مع ممحاة ومقلمة. ولكي يبرهن على رشاشة الريشة المصنوعة من شعر السنجانب، يقوم البائع بتمريرها على خدي.

-1- الفرق بين الحركتين - في الأولى تكون الانحناءة مع تقرفص وهذا التصرف يكون عادة تجاه النساء، في حين أن انحناء التبجيل لأيقونة المسيح، مثلًا، تكون بالانثناء بكامل الجسم. المترجم

تقوم ماما صباحتا بتسريح شعري، وتجدل لي ضفيري بشدة كبيرة لدرجة أنها تسحب الجلد وبحيث لا يمكنني إغلاق فمي، كما أن العينين تصبحان مائلتين كما عند شخص صيني. ترسلني إلى المدرسة مع أخواتي، تقبلني وتهنمنم أطراف المريول، ثم تدنس لكل واحدة منا مبلغ خمسة عشر كوبيناً من أجل وجة الغداء. ولكننا ننفق النقود في طريقنا إلى المدرسة من أجل شراء الحلوى - سكاكر أو قطعة حلاوة من عند البائعين الجوالين الذين يختارون عن قصد أماكن محددة قريبة من المدارس.

ثمة بواب مع شريط تزييني مزركش عند المدخل. يقوم العجوز بإعطاء ونزع المعاطف عن المعلمين، كما أنه يضرب الجرس في بداية ونهاية كل حصة، وهو يتطلع إلى ساعة جدارية كبيرة في المدخل. وفي الوقت الذي يكون حراً فيه يجلس في زاوية محددة ممسكاً بكتاب - يقولون إنه من أتباع تولستوي، نباتي وإنه بعد أنقرأ قصة «خولستومر»<sup>(1)</sup>، أوصى بهيكله العظمي لمصلحة غرفة التسريح في المدرسة.

ممنوع التأخر - ففي منتصف الساعة التاسعة صباحاً يغلقون مسلح الثياب، كما أنه لا يجوز للللميد دخول الصف وهو في المعطف. حتى إنني أتذكر رقمي في غرفة الملابس - 134. وقد كان الرقم نفسه داخل الحذاء المطاطي «القالوش» - مكتوبًا على البطانة القرمزية من المحمل.

ولماذا ذكره؟ من ذا الذي بحاجة إلى رقم لم يعد موجوداً في غرفة ثياب لم يعد لها وجود؟ إذ لن يتاح لي بعد اليوم أبداً أن أعلق في ذلك الخطاف المعطف الذي أصبح رثاً بعد أن تم استهلاكه من قبل شقيقاتي. ولن يتاح لي أبداً أن أهبط بعد انتهاء الدروس إلى غرفة الثياب لكي أشدّ بصعوبة البنطلون الكريه والسميك تحت فستان المدرسة، ولا أن أعقد على رأسي ذلك الغطاء الواقي (القلنسوة) وذلك قبل أن أنطلق باتجاه المنزل. وحتى أنه لم يعد ثمة منزل. ولا كل ما كان له علاقة بي - لم يعد قائماً. لا أحد ولا شيء.

ولعله، يوجد. ها هي صالة المناسبات الرسمية جائمة أمام عيني في الطابق

- 1- قصة طويلة للكاتب الروسي ليف تولستوي «خولستومر - قصة حسان» بدأ بكتابتها عام 1863 وأنهها في عام 1866. تم تحويلها إلى مسرحية. المترجم

الثاني، حيث يمكن لانعكاسات النوافذ أن تتلوى على الأرضية الخشبية. كل صباح يبدأ من الصلاة المشتركة. يعطي معلم الغناء، يولي بافلوفيتش فياري، النوتات على البيانو الكبير. صول وسي من أجل الغناء المزدوج بصوتين «يا ملك السماء»، «احفظ، يا ربنا، شعبك»، «يا مريم العذراء». يا عزيزي الطيب يولي بافلوفيتش! لقد لفت نظره صوتي منذ اليوم الأول، فطلب مني أن أبقى بعد انتهاء الدروس. سوف أشارك في جميع الصلوات والاحتفالات الصباحية.

ثم يتبيّن أنّ كل ما تم شراؤه في المتجر من أغراض للمدرسة غير كافٍ للبنة. ومن حسن حظي أنه لدىّ أخوات خبيرات يأخذن بعين الاعتبار أنه يجب على تلميذة المدرسة التي تقدّر نفسها أن يكون لديها بالإضافة إلى الكتب والدفاتر، ألبوم خاص بالأشعار وبالرسومات، وأن ورق النشاف الذي يتم وضعه في الدفاتر ينمُ عن غياب الذائقه ويکاد يكون علامه على الفقر، ولذلك يجب شراء Klecks papier<sup>(1)</sup> من ألوان أخرى ومن ثم يتم تثبيته إلى الدفاتر بواسطة شرائط لها عقد أنشوطية رائعة. أملك في الصف الحقّ كاملاً بأن أنظر بازدراة إلى الفتيات اللواتي يمتلكن ورق نشاف تافهاً وبائساً. وهكذا أتعامل مع جارتي في المقعد، تلك البنت صاحبة الأنف الأشبه بأنف إوزة وذات الشعر الأشقر. ففي إحدى المرات قدّمت قراءة لحكاية الشاعر كريلوف<sup>(2)</sup> بعنوان «كلبان» بطريقة معبرة جداً: «أطنُ، أيها الكلب الأنثيق...»، بحيث إن الجميع راح يناديها من خلف ظهرها «جوجو»<sup>(3)</sup> وذلك بسبب شعرها الأشقر. أتذكر كيف أني تكرّمت عليها من باب العطف Klecks papier «معتبراً» وكيف أنها راحت لهذا السبب تتحبّب بقوة.

- من الألمانية - فقاعة أو نشافة الورق - أداة مدرسية تستخدمن لمحو الكتابة واللطخات والبقع غير المرغوب فيها. المترجم إيفان أندريفيتش كريلوف 1769-1844 كاتب قصص أسطورية روسي، وكان سابقاً كاتباً مسرحيّاً وصحافيّاً، اكتشف نوع كتاباته عندما كان في سن 40. كانت غالبية أساطيره مبنية على أساطير إيسوب وأساطير لافوتنين لكن لاحقاً كتب أساطير بنفسه مع طابع من الشعر. المترجم جو جو هنا من أول كلمة في مقطع الحكاية لكريلوف: جو جو تلفظ جوجو ومعناه أزيز أو طنين.. المترجم

وأما الآن، بعد كلّ ما جرى، يبدو لي أمراً غريباً وخرافياً تقريباً، أنه كان بإمكان نشافات ورق غيبة أن تسمّم لنا حيّاتنا.

كانت «جوجو» تتعلّم مجاناً لأنّها كانت فقيرة. الكل يعرف أن والدتها تربّيها من دون أب، لأنّ أمّها كانت تعمل وهي فتية، مربية عند عائلات مختلفة. أقيمت علاقة صداقة مع ميلا التي يدعوها الجميع ميشكا. كانت تروق لي بسبب شعورها العميق باليأس. كانت ميشكا ت يريد أن تصبح قائدة سفينة أو مستكشفاً في أفريقيا وكانت تصلي وتصلب في الكنيسة لأجل حماية البحارة والرحلة. كان يرمق لها كلّ شيء، حتى المسطرة المتسخة بالحبر. كانت في غرفة الحمامات، بالقرب من المغاسل للاغتسال منشفة، وكانت المنشفة معلقة على عارضة عالية قرب السقف تقريباً، كانت مثبتة من نهايتها وطويلة بحيث إنّه يجب أن يطالها المرء لكي ينثف بها: كانت ميشكا تلتقط المنشفة وتتأرجح معها كما لو أنها تمشي على عکازات عملاقة. على الأرجح، كان وزنها خفيفاً جداً لذلك لم تنكسر العارضة ولم تسقط.

كنت أجري أثناء الاستراحة وراء ميشكا في صالة المناسبات، وقد كانت الأرضية زلقة، مثل باحة التزلج. انزلقت واصطدمت باليانو الكبير الذي كان في الزاوية، فقدت الوعي لأصحو في مكتب رئيسة المدرسة - زينائيدا غبورغيفنا شيرياتيفا. راحت تمسح لي الصدغين بمادة كريهة، بحيث يستحيل على المرء ألا يستعيد وعيه. الجميع يهاب الرئيسة. تقبلني شفاتها الجافتان. سوف تموت من داء الكوليرا في عام 1920.

العلاقات بين التلميذات في الصف معقدة. قمت بكتابة رسالة إلى ناتاشا مارتيانتسوفا التي يحبّها الجميع ويدعونها تالا: «عزيزي تالوتشكا<sup>(1)</sup>، هي نكون صديقتين». فتجيئني باندهاش: «أولاً تعرفي أنّي أتصادق مع توسيما؟» أما أنا فلا أطيق توسيما. فهي جبانة، فوق ذلك بغية وشريرة جداً. تعاني من حسر نظر، بحيث إنّها لا تستطيع أن ترى شيئاً حتى وهي تجلس في المقعد الأول. كانت النظارات في تلك الأيام شيئاً نادراً، ولذلك كانت

- 1 - صيغة التحجب من تالا. المترجم

تخف من السخرية والتهكم عليها بسببها. ولذلك لم تأتِ إلى الصف وهي تضع النظارات إلا بعد إلحاح وتأكيد من قبل المشرفين على المدرسة، وقد جعلتها النظارات مشوّهة بدرجة أكبر.

كما أني أتصادق مع لا لا. لديها عينان عسليتان كبيرتان. وهي أجمل فتاة في الصف، والجميع يغار منها ويحسدها. كما أنه تم إعفاؤها من صلاة الصبح ومن مادة التربية الدينية (القانون الإلهي).

لكل صف مكان خاص به في الكنيسة - الصغار في المقدمة، والأكبر سنًا في الخلف، وعندما يتقلل التلامذة إلى صف أعلى، يتقللون إلى مكان آخر. وقرب كل صف هناك دائمًا عدد من الكراسي حيث تقوم المشرفات على الصف من حين إلى آخر بدعوة الأطفال الواهنين والضعاف إلى الجلوس عليها لبعض دقائق أثناء الصلاة. تقول الفتيات إنه يمكن في لحظة محددة من الصلاة، بعد أن يتلفظ الكاهن بكلمات محددة، أن يضمّر المرء أمراً ما ورغبة معينة، وأن تلك الرغبة سوف تتحقق. لذلك يقف الجميع وينتظرون خوفاً من تفوّت الكلمات التي يمكن بعدها إضمار رغبة ما.

كم سيكون جميلاً لو أنه كان بالإمكان تحقيق جميع تلك الرغبات المنشودة...

أما مادة القانون الإلهي فيقوم بتدريسيها الكاهن قسطنطين مولتشانوف. وأبونا - هاو وخبير في شؤون تربية النحل. وأثناء الدرس تلجم بعض الفتيات الخبيثات كما لو بطريقة ساذجة إلى سؤاله عن النحل وعن خلايا النحل، عن اليرقات، فيبدأ الكاهن بالحديث عن ذلك برحابة صدر، يطيب له الكلام فيستغرق في الحديث عن معجزات النحل لمدة ساعة. وعندما يسمع في نهاية الأمر قرع الجرس، يتبه ويفيداً بتهديئة نفسه بنفسه، معتبراً أنه لا مشكلة في الأمر لأن النحل أيضاً هو من صميم القانون الإلهي.

وفي أحد الأيام راح يتحدث عن قيمة الموتى، وإذا تطرح ميشكا عليه فجأة سؤالاً صعق الجميع: «كيف يمكننا أن نعود أحياء من تراب، طالما أنّ جثتنا قد أكلتها الديدان، وأنّ الديدان بدورها أكلتها الطيور، وأن الطيور تطير في جميع أنحاء الدنيا، وأنّها لا بدّ أن يلتهمها أحد ما؟».

يلتزم الأب قسطنطين الصمت لبرهة قصيرة، ثم يجيب: «إذا ما صنع الحذاء جزمة، ثم قام بتمزيقه ورمي قطعة منها في أفريقيا، وقطعة أخرى في أمريكا، وقطعة ثالثة في آسيا أو في القطب الشمالي، فإذا ما جمع الأجزاء بعد ذلك فإنه لن يكون من الصعب عليه أن يخيط تلك الأجزاء مع بعضها ويعيد صنع الجزء من جديد. وهكذا بعد وفاتنا، حيث يتحول جسد واحدنا إلى هواء وتراب وأشجار وماء، فإنَّ الربَ سوف يجمع جميع هذه الأجزاء في كُلِّ واحد».

لقد مضى زمن طويل على التهام الديدان لجسد الأب قسطنطين، وقد التهمت الطيور تلك الديدان منذ مدة طويلة وراحت تطير في أنحاء العالم. كما أن السماء والأرض والأشجار والماء التهمت هذه الطيور. امنح السلام، يا رب، لروح عبده هاوي تربية النحل.

كنا ندعو المشرفة على الصف ناتاليا بافلوفنا بسبب عينيها ناتاليشكا. لم يكن يحبُّها أحد لكونها عدوانية وحقودة، فضلاً عن أن لديها وحمة كبيرة على كامل وجنتها. كما أنها بدينة وقصيرة القامة، ولكي تبدو طويلة تعمل تسرية عالية وترتدي حذاء بكعب عالٍ. تتكلم على الدوام بنبرة حادة ومرتفعة، كما لو أنها تكسر الكلمات مثل حبات الجوز. وحتى أنها عندما كانت تمدح أحداً كان يبدو الأمر كأنها تشتمه. قامت في أحد الأيام بالحلول محل مدرس مريض، فأعطتنا ناتاليشكا وظيفة معينة، ثم راحت تكتب لنفسها شيئاً ما طيلة مدة الحصة. طلت رئيسة المدرسة شيري ياييفا فاستدعتها لبعض دقائق إلى الممر. وبينما كانتا تتحدثان في الممر وراء الباب نصف المغلق، راحت ميشكا التي كانت تجلس في المقعد الأمامي الأول مقابل طاولة المعلمة، بمدّ عنقها وقرأت بصوت مسموع الرسالة غير المنتهية التي تعرف فيها ناتاليشكا بالحب لشخص ما: «حبيبي فولوديشكا! <sup>(١)</sup> أودُّ أن أقبل قدميك، نعم، قدميك بالتحديد!». وعندما عادت أحست ناتاليشكا من خلال الصمت المخيم أن ثمة ما هو مثير للريبة. رأت رسالتها غير المنتهية على الطاولة فالتحققها وجعلتها وهي تنظر مرعوبة إلى التلميذات في

- صيغة التحجب من فلايديمير... المترجم

الصف. هنا بدأت أولى الفتيات بالضحك، فما كان من بقية البنات إلا أن رحن يقههن بقوة. راحت أضحك أنا أيضاً، لأنه كان مستحيلاً أن نتصور ناتاليشكا مع بقعتها القرمزية وهي تقبل قدمَ فولوديتشكا ما. فجأة تخرج عن طورها وتفرُّ إلى الباب حيث تتوقف لأنها كما يبدو تذكرت أنها قد تصطدم في الممر برئيسة المدرسة، فتنزوي في ركن وتببدأ بالنحيب. راحت المشرفة على صفنا ناتاليشكا الحقودة والكريهة تبكي بمرارة. توقف الضحك عندنا في الحلقة، وإذ بالجميع يريد لسبب ما ألا يضحك بل أن يبكي أيضاً. هنا قرع الجرس. تلتفت ناتاليشكا فبدا وجهها محرماً من شدة البكاء، وبدت وجنتها بلون قرمزي شديد كما لو أنها مريضة. راحت تتمخط في منديل وتقول بحيث إنها كانت هذه أول مرة لا يbedo كلامها أشبه بتكسير الجوز، بل كان صوتها هادئاً أقرب للهمس: «إذهبوا».

كانت البنات يؤكدن أن المقصود بفولوديتشكا معلم مادة الرسم عندنا فلاديمير غيورغيفيتش شتاينباخ. كان الباب يعلق على السبورة قبل بدء درس الرسم قطعة كبيرة من القماش الأخضر. كان صوت فلاديمير غورغييفيتش مسماوعاً في الممر - إذ كانت لديه عادة أن يتمتم لنفسه، وهو يشتم أحداً ما باستمرار. يدخل ويومئ برأسه من دون أن ينظر إلينا، يقوم بتسوية الطيات على القماش، ثم يقوم بوضع مجسمات هندسية من الجبس. كان متقدماً في السن وغير جميل من حيث الشكل، مع أنف متورم ومحقق، وذا شفة مقلوبة. ولم يكن واضحاً على الإطلاق كيف يمكن أن يتمنى أحد تقبيل تلکما القدمين في حذاء قديم رث. يقولون إنه في شبابه تلقى تعليماً في إيطاليا، وإنه كان فناناً تشكيلياً ناجحاً و معروفاً، لكنه أدمى الكحول بسبب إحدى الأميرات، التي عذبتـه كثيراً ثم تخلت عنه. والفتيات الصغيرات يتناقلن فيما بينهن عادة ما يسمعنـه من هـنـ أكبر في الصفوف العليا. يحدث أحياناً أن مدرّس مادة الرسم يدخل في حالة من تشوش الوعي فيبدأ في أثناء الدرس مباشرة بتوجيه تهديدات بقبضة يده لأحد ما غير مرئي خارج النافذة، ويبدأ بالصياح: «بل اطلب أنت منهم عقوبة في إدارة المقاطعة - عندئذ سوف يبدؤون بالتصفيق! لن تزال شيئاً!». وهكذا سيوّجه قبضته مع إصبعين

وإيهام باتجاه زجاج النافذة للدلالة على الازدراء والاحتقار وستنقلب شفته بدرجة أكبر.

أما اللغة الألمانية فتعلّمنا إياها يغينيا كارلو فولتشانيسكايا: اختصاراً يغيشكا. لم تكن تسمح بأن يصدر في الصف أدنى صوت زائد - حتى إنها كانت تمنع بري أقلام الرصاص أثناء الدرس. وكانت تقول كل ذلك بصوت حاد وهادئ قادر على قص الزجاج. كانوا يخافون منها ولا يحبونها، وكانوا يرون عنها أن والديها قدما لها هدية علبة شوكولاتة ووضعوا فيها 25 روبلأ. كانت الكراهية تجاه يغيشكا تنسحب على أدوات التعريف وأسماء الفاعل عندها. وقد كان الأمر يثير الحنق عندي خصوصاً أن بابا، وبينما كنا نأكل رقائق الشوفان، كان يمزح باستمرار قائلاً: لماذا إذن Herr Kules، وليس Frau Kules<sup>(1)</sup> ربما لهذا السبب كان يبدو لي قبل المدرسة أن اللغة الألمانية - يجب أن تكون أمراً مسلياً. ييدأ أنها جمیعاً كنا معجبين بمعلمة اللغة الفرنسية، التي لم تكن المعلمات الأخريات والمشرفات على الصحف يطقنها. ماريا يوسفونا مارتن كانت تختلف عن جميع الأخريات اللواتي يرتدين الكحلي والأسود - كانت تلبس بلوزاً (جمع بلوزة) زاهية وتضع شالاً من جلد الثعلب على كتفيها<sup>(2)</sup> وشعرًا مستعارًا أشقر على رأسها. كنا ننشد في الحصة الدراسية Sur le pont d'Avignon ونرقص ممسكين بعضنا بأيدي بعض. أما هي فكانت تقفز في الممرات بين المقاعد كما لو أنها بالفعل على جسر شهير في مدينة أفينيون<sup>(3)</sup> المستحيلة التي لم تتحقق. وفي أحد الأيام أحضرت ماريا يوسفونا صورة، وقد صعقتنا أن الجسر الوحيد في الكون حيث إن الجميع لا يفعلون شيئاً سوى أن يغنووا ويرقصوا عليه - يتحطم في مكان ما فوق منتصف النهر. بعد انتهاء الدروس كان ثمة ضابط يتنظر معلمة اللغة الفرنسية عند باب المدرسة. أكثر ما أشعر

-1- لماذا السيد كوليis وليس السيدة كوليis؟ ألماني - المترجم

-2- على جسر أفينيون. فرنسي. المؤلف.

-3- أفينيون (بالفرنسية: Avignon) بلدة في إقليم فوكلوز في جنوب شرق فرنسا. تشتهر المدينة بقصر البابوات حيث عاش العديد من البابوات والبابوات المزيفين منذ أوائل القرن الرابع عشر إلى بدايات القرن الخامس عشر. المترجم

بالسوء وبالصعوبة مع علم الحساب وغيره من العلوم الدقيقة. يحاول بابا أثناء تناول العشاء أن يشرح لي مسألة بخصوص الفلاح والقارب والذئب والعنزة ورأس الملفوف، وبخصوص مختلف تلك الانتقالات من شاطئ إلى آخر، أما أنا فلا أرى سوى عيني العنزة وأتخيل بصورة حقيقة الذئب بالتحديد والم ملفوف والنهر، وأيضاً الفلاح الذي استشاط غضباً عليّ ولا بد أنّ زوجته وأطفاله يتظرون في البيت منذ زمن طويل. تبدأ مرحلة العشق والإعجاب عندنا. يحتاج داء كتابة الرسائل القصيرة والتاؤهات الفتيات الصغيرات واحدة بعد الأخرى. يطالني أنا أيضاً. أما موضوع حبي وتبجيلي - فهي نينا روكتوفا من الصف العاشر التربوي، ذات الجديلة الشخينة والطويلة، بحيث إنها تصل إلى أدنى من الخصر. يُخيّل لي أنّ نينا كائن علوي. تتمشى التلميذات أثناء الاستراحة بين الدروس في الممر وهن يمسكن بعضهن بأيدي بعض، ولذلك أبذل جهدي لكي أمشي بحيث أكون خلفها مباشرة. تتأرجح قدامي جديلتها المربوطة بشريطه بيضاء من الحرير. كانت نينا تناقش مع رفيقتها الشجار الذي حدث في باحة التزلج على الجليد - وهذا كان موضوع الساعة بالنسبة لجميع تلاميذ المدرسة: راح تلامذة الصف الثامن من المدرسة الذكرية يتقاتلون بسببها، أي بسبب نينا حبيبي، وبارزوا بأحدية التزلج! راحت ميشكا التي شهدت المشاجرة لأنها كانت في باحة التزلج ورأت بأم عينها كل شيء، تروي أنه جرى تفريق المتشاجرين، لكن أحدهم نجح في شق وجنة غريميه بشفرة حداء التزلج، ما جعل الدم يسيل بغزارة، ولذلك غاب المصاب عن الوعي فاضطروا إلى نقله إلى المستشفى. وكل ذلك بسبب الحب! تجاه نينا حبيبي! أركض من ورائها فأمسك جديلتها وأقبل الجديلة - علماً أنّ نينا لا تسمح لأحد آخر غيري بأن يلمس جديلتها.

يُخيّل لي أنّ الكون بأكمله يعيش حالة من العشق والغرام. جميع الفتيات في المدرسة مغرمات. وجميع الأخوات مغرمات. أختي كاتيا مغرمة بصورة الطيار كوزنيتسوف الذي كان يحلق في السماء بطيارته الخفيفة مثل فراشة - هكذا راحوا يكتبون في الجرائد - «بليريyo». أما شقيقتي ساشا فهو ضد

كوزنیتسوف ولمصلحة غابر - فولینسکی على طائرة «فورمان». يجري التمسك بالمشاعر والدفاع عنها بحماس منقطع النظير حتى البكاء. عندما يقوم كوزنیتسوف بعملية استعراض لتحليله في أجواء مدينة روستوف يحتشد الناس من كل حدب وصوب. يتوجه جميع أبناء المدينة إلى الحقل قرب غابة بالابانوفسكايا. بحيث يصبح من الصعب جدًا العبور على طريق سكوبیلیفا أو غیمنازیتسکایا. كما أنّ جميع الأماكن المأجورة في داخل الملعب تكون مشغولة بالكامل، فضلًا عن أنّ حشود الفضوليين تقف كتلة صماء متراصة وثابتة قرب السياج، لذلك يضطر البعض إلى تسلق الأبواب والجلوس على أسطح البيوت ويتشارون على الشرفات. يتم تحذير الجمهور من أنّ التحقيق يجري وفق القواعد المعتمدة لدى النادي الروسي للطيران وسوف يتم الاعتراف به ناجحًا في حال أنّ الطائرة بقيت معلقة في الهواء لمدة لا تقل عن ثلاثة دقائق. يتم استقبال كوزنیتسوف بتصفيق عاصف ثم يجلس في طائرته «بلیریو»، التي تشبه الفراشة بالفعل. تنطلق الطائرة استعدادًا للإقلاع ثم تنفصل عجلاتها عن الأرض خلال لحظة ولكنها تعود للهبوط من جديد فجأة وقد مالت على أحد جناحيها. لتعزية الجمهور يتم الإعلان أنّ البطاقات تحتفظ بقيمتها للاستعراض التالي الذي سوف يتم بعد بضعة أيام بعد أن يتم تصليح الجناح. لكن التحقيق لن ينجح بعد أسبوع أيضًا - إذ إنّ الطيار يسقط من جديد بعد لحظة من إقلاعه، ثم يغادر المدينة مخذولاً وغير مكرّم، ويأخذ معه «بلیریو» المحطمة. هنا ينتهي غرام كاتيا بكوزنیتسوف. بيَدَ أنَّ ساشا يحتفل معلنًا عن انتصاره - لأنَّ غابر - فولینسکی الذي جاء بعد مدة قصيرة إلى روستوف نجح في التحقيق بطائرته «فورمان» فوق الجمهور والغاية لمدة أكثر من ثلاثة دقائق.

كما كانت لدى ماشا قصة غرامية. إذ راح يغازلها بوريس ميولر، ابن مدرب مادة اللغة الألمانية في مدرسة الذكور. وقد ساهمت في قصتها الغرامية بقسط كبير وفاعل - كنت أساعد أخي في نقل «رسائل غرامية». ولهذا السبب انتابني إحساس جميل غير معروف من قبل: لم أكن أُنقل الرسائل ببساطة فحسب، بل كنت أخدم الحب! كانت ماشا تستفسر مني:

كيف التقط رسالتها، ماذا قال وبأية نبرة بعد أن قرأها، وأي تعبير ارتسم على وجهه؟ عندما يزورنا بوريس، تفرد به ماشا أحياناً في غرفتها، ويكون من واجبي أن أنذرهما بإشارة متفق عليها في حال ظهرت ماما فجأة. كنت أسمع خلف الباب المغلق لغرفتها أصواتاً مكتومة وممضطربة، حتى أنه كان يخيل لي كما لو أنهما يتشارمان. بعد ذلك يسود صمت. عمّ يمكن أن يصمتا كل هذه الفترة الطويلة؟

يريد بوريس أن يصبح ضابطاً بحريًا. وهو يكتب رسائله الغرامية المليئة بالتأكيدات على الحب بخط منتظم أشبه بخلايا النحل.

يذهب بوريس مع ماشا إلى السينما ويصحباني معهما. يعرضون فيلمًا ملئنا مذهلاً عن الفراشات. يشرح بوريس لنا أنه يتم إنتاج هذا النوع من الأفلام يدوياً: تقوم النساء العاملات في استوديو إنتاج الأفلام بتلوين اللقطات وهذا يؤذى أعينهن لدرجة أنهن يصبن بالعمى فيما بعد. أشعر بالسوء من هذا الرابط البسيط بين الأمرين. يجب أن يفقد أحد ما بصره لكي نتمكن نحن من رؤية فراشات جميلة.

بوريس لوثري من حيث المعتقد، ولذلك قمنا في إحدى المرات وبينما كنا نتنزه نحن الثلاثة بزيارة الكنيسة اللوثرية. وقد أثار دهشتي أن الناس هناك يصلون وهم جالسون في مقاعدهم.

كانت ماشا تراقب نفسها في المرأة باستمرار وتستدير بطريقة تسمح لها برؤية البروزين على صدرها. كانت تعاني لأنهما لا يكبران بما فيه الكفاية. مع أنهما ينموا عندي وذلك على الرغم من أن الوقت ما زال باكرًا.

يلفت نظري أن أخي تقوم بوضع دوائر حول أيام محددة في روزنامة سرية، وقد سألتها ذات يوم من دون أية مقدمات بخصوص ذلك أثناء وجود بوريس في زيارة لنا: كانا يستعدان للذهاب إلى بيته لكي يسمعوا الموسيقى ولهذا الغرض قاما باختيار ألحان محددة. بعد أن طرحتُ السؤال شعرت بالفزع لأنني سألت عن شيء لا يفترض بي أن أسأل عنه. احمررت وجنتا ماشا من الخجل، وحدث الشيء نفسه عند بوريس. راحت أخي تضربني بالنوتات على رأسي بأقصى قوتها ثم ركضت واختبأت في غرفتها. بدأ

بوريس يطرق الباب عليها ولكنها رفضت أن تفتح له. غادر وهو يغمغم حانقاً: «حمقاء!». حتى الآن لا أعرف ما إذا كان يقصدني أنا أم اختي ماشا. في نفس ذلك اليوم السبع الذكر وبينما كانت ماشا تمد السفرة، زلت قدمها وشقت شفتها على حافة الطاولة. استمر التزيف طويلاً حتى نجحوا في وقفه، وعلى إثر ذلك بقيت اختي لبضعة أيام مع لاصق طبي تحت أنفها، وظللت ترفض الخروج من غرفتها طيلة تلك الأيام. كانت تخشى أن يراها أحد مع مثل هذا الوجه. كما كانت من وقت إلى آخر تتعرض لنوبة هستيرية معلنة أن وجهها أصبح مشوّهاً ولن يُغَرِّم بها أحد بعد الآن. أحَاوَلْتْ تهدئتها ماشا، لكنها ترفض أن تسمع أي كلام بل وتصرخ بي: «أغربي عن وجهي!». تعتقد أن كل ما حدث إنما حدث بسببي. أعرف أنني لست مذنبة في شيء، وفي الوقت نفسه أدرك أنني الوحيدة المذنبة في كل ما جرى. رحت أروي لأمي وأنا أنتحب ما حدث، باحثة لديها عن عزاء ما. تجيئني قائلة: «إن الطبيعة تذكّر المرأة مرة واحدة كل شهر أن بإمكانها أن تصبح أمّا». كانت هذه أول مرة لا تفهم ماما على. وفوق ذلك يستحيل فعل أي شيء. سوف تبقى الندبة غير الجميلة عند ماشا مدى الحياة.

يسخر أخونا ساشا من «غرامياتنا»، ييدأ أنه هو الآخر لديه قصة غرامية، لكنها قصة غير سعيدة. فهو يكتب رسائل غرامية لأحد ما. وفي بعض الأحيان يتكلم عن النساء بعنجهية وبازدراء. أشعر كمالو أنه يعرف شيئاً ما لا نعرفه نحن. لكنني أشعر بالرهبة من أن أسأله أو أن أستفسر منه. إلا أنني لاحظت كيف أن بابا يعطيه، خفية عن ماما، ثلات روبلات لأجل أمر ما.

ونوسيا هي الأخرى مغمرة، ولديها خطيب، إلا أنه لا وقت لديها لكي تلتقي مع خطيبها كوليا - فهي تعزف لساعات طويلة على البيانو. تعتبر نوسيا مصدر الأمل والفرح لأسرتنا، وهي سوف تسافر لكي تتعلم في المعهد الموسيقي في بطرسبورغ، وسوف تصبح عازفة بيانو مشهورة في جميع أنحاء العالم من كلّ بد. وما من أحد يشك في ذلك سواها وحدها على ما يبدوا.

أما أنا فأتعلّم العزف في البيت. يجري تعليمي بطريقة غير أكاديمية

وغير منهجية، تارة من قبل ماما وتارة من قبل نوسيا. تفتح نوسيا «مدرسة هيونتن»<sup>(1)</sup>، وتبدأ بشرح نظام النوتات لي، لكنها سرعان ما تمل من القيام بدور المعلمة، فتتخلّى عني لأمّي بعد أن تطلق حكم إدانة يستدعي البكاء عندي إذ تعلن أنه لن يكون بإمكانني أن أصبح عازفة في الحفلات وذلك بسبب يدي الصغيرتين - بالكاد أنجح في عزف طبقة الثمانى octave<sup>(2)</sup>. ما من أحد يعلمّني الوضعية الصحيحة لليد، لذلك أقوم بشد اليد قدر المستطاع لكي أتمكن بأصابعِي الضعيفة من الحصول على الصوت أقوى، فتمدح أمّي «ضربي». في حقيقة الأمر أن تلك التدريبات تلحق الأذى بيدي، لكنني أتعلم بكل حماس، وبمجرد أنني أفهم وألتقط مفتاح الصوت الجهير، أبدأ بمعرفة الأغاني من تلقاء نفسي.

تصل الملكة إلى روستوف للقيام بجولة موسيقية. ليست ملكة إسبانيا، وإنما الملكة الحقيقية فيالتسيفا بالذات. كل الأحاديث تدور عنها. ففي المدرسة يؤكدون أن الأزرار في الحذاء العصري ذي الرقبة الطويلة لفيالتسيفا مصنوعة من الألماس. أما أخي ساشا الذي راح مع رفاقه يتربّون خروجها قرب باب الفندق في شارع تاغانروغسكايا، فيقول إنه خرج بصعوبة بالغة من التدافع الكبير الذي نشأ عندما رمت إلى الجمهور صورة لها مع توقيعها. أما والدي فقد راح يروي أثناء تناول العشاء، أن فيالتسيفا في كل مدينة تقوم فيها بحفلات تقصد رئيس الجامعة أو أي مؤسسة تعليمية أخرى، وتستفسر منه ما إذا كان ثمة طالب لم يسدّد قسطه السنوي، ثم تقوم على الفور بتحرير شيك بالمبلغ المتوجب. وفي اللقاء الذي نظمته المسؤولون في المدينة على شرفها، سألتهم عمّا يوجد في روستوف. «ولكن لا يوجد لديكم أي شيء!» - يقول الوالد متّهماً وحتى أنه يلقى الشوكة من يده على المائدة. - «لا يوجد أي شيء! منطقة نائية غير نامية!».

1- المقصود ولIAM غيونتن (شقيق الملحن وعازف البيانو الشهير فرانز هيونتن).. وهو مؤلف المدرسة الشهيرة للبيانو «Méthode nouvelle et progressive pour le piano»... المترجم

2- الأوكتاف Octave، اسم يطلق على ثامن درجة في سلم موسيقى أو مقام - المترجم

هنا تعلق أمي بطريقة لا مبالغة موجهة كلامها إلى «التي لا مشيل لها»:  
عاملة نظافة أو وصيفة.

يتذمر جميع من على المائدة، وأنا بشكل خاص وبدرجة أكبر. نحن مع أخيتي نستمع باستمرار في البيت إلى أسطوانات مع تسجيلات للملكة فيالتسيفا. كما أني كثيراً ما أردد أغانيها (الروبورتuar repertoire).

سوف يذهب أبي لحضور حفلة فيالتسيفا، ويمكنه أن يصبح معه شخصاً واحداً فقط منا. لديه بطاقة. نقوم برمي القرعة. تصبح الورقة المنشودة الرابحة في قبعة ساشا من نصبي! لا أستطيع أن أغفو طوال الليل، ثم أعاني طيلة النهار وأنظر حلول المساء بفارغ الصبر. وأخيراً ها نحن في المسرح المكتظ بالجمهور إلى أقصى درجة ممكنة. جميع البطاقات مباعة. تارة تنفجر الصالة بالتصفيق الحماسي، وتارة يخيم الهدوء وقد حبس الحضور أنفاسهم وهم يصغون للصوت الملائكي. الصالة تتنفس محبة وإعجاباً. نجلس في مكانين جيدين، يبدأني لا أستطيع أن أتبين وجه فيالتسيفا بشكل واضح بسبب الدموع التي تنفر من العينين. التقط بشوق وبلهفة كل لحظة وكل حركة من حركات يديها، وكل وضعية تتخذها، كيف تتحنى عندما تريد أن تشكر الجمهور، وكيف تنتظر حتى تخف عاصفة التصفيق والهتافات. الهواء يرشح بالحب تجاه الملكة الفريدة من نوعها مثل إسفنجية. والملكة بدورها تستقبل تلك المحبة بسخاء وبمودة كبيرة. أصبحت أعرف كل شيء في نفسي منذ تلك اللحظة. عندما رحت أغفو بدأت أتخيل لنفسي ذلك اليوم الذي سوف أقرأ اسمي على لوحة الدعاية وقد تمت كتابته بخط عريض وغامق، وهكذا أغفو وأنا سعيدة.

نحن نعيش في شارع نيكيسكايا، حيث ممر احتياطي غير نظامي «باليرمو» - صالة صيفية للحفلات تم تشييدها في الحديقة، في حين أن المدخل الرسمي يقوم خلف الزاوية. يقدم هنا نجوم الغناء حفلاتهم ولكن من مرتبة أدنى. ونحن نقوم بعمل فتحة في السور ونصغي لأغاني - نينا تاراسوفا، وماريا يودينا، ويكاترينا يوروفسكايا. أسعى لكي أدقق النظر محاولةً أن أتذكر ما كان يبدو لي آذاك الأكثر أهمية - كيف يجب الانحناء لتقديم التحية للجمهور، وأنا أتلقي التصفيق العاصف. أقوم بالتدريب في

البيت أمام المرأة على مختلف أشكال الانحناء. كنت ذات يوم أجتاز ساحة الكاتدرائية وإذا بجفلني بعنة انفجار من التصفيق - كانت هذه عربة سياحية عابرة قد أخافت سرب الحمام. يغمرنني شعور بسعادة هائلة من ثقتي بأنَّ كلَّ ذلك سوف يتحقق من كلِّ بدٍ - منصة مسرح معمورة باللورود، وتصفيق عاصف وانحناءات. أنحنى علامة الشكر للحمامات أيضًا.

يشتري باباً أسطوانات. نقوم أنا وأخواتي في حماس شديد، وقد نسينا كلَّ شيء تقريبًا، بتدوير ذراع الفونوغراف مرة بعد أخرى ونصعي إلى الأصوات التي نحبها، إلى أن تبدأ ماماً بالشكوى من صداع. وفي حال لم يكن الفونوغراف يصدق، كنتُ أغتنى أنا. ببساطة لا أستطيع أن أصمت حين يكون كلَّ شيء في داخلي يضجّ محاولاً أن يندفع بقوّة إلى الخارج!

نسعى لثلا نفوٌّت أية حفلة. يتکاثر عدد الذباب في «باليرمو» نهاراً، وبحلول المساء - يزداد عدد البعوض، ما يضطر الجمهور لطرد الحشرات، كما أنَّ قائد الأوركسترا يفعل الشيء ذاته ويطرد الحشرات الماصة للدم باستمرار بواسطة عصا المايسترو. يخرج الرجال أثناء الفاصل entracete من الجناح لكي يدخنوا، في حين أنَّ السيدات والأطفال وبمرافقة المربيات والخدمات يصطفون في الطابور عند أبواب دورات المياه. أنظر إليهم وأقول في نفسي: ولكنهم لا يعرفون عني شيئاً حتى الآن. ومع ذلك أصبحت أحبهم. وليس لقاء محبتهم لي في المستقبل ببساطة، وإنما بكل بساطة ومن دون سبب. أحبتهم ونقطة على السطر.

لا يوجد ماض، ولكن إذا ما أردنا أن نتحدث عنه، فسوف يكون ممكناً أن نطيل الكلام ليمتد أيامًا كاملة، كما يمكن العكس، أن نختصر سنوات كثيرة ببعضه أحرف.

أعود إلى البيت سعيدة مزهوة بنفسي مع صدور التائج في المدرسة وانتقالي إلى الصف التالي.

ومن جديد قرار بالانتقال إلى صف آخر تالٍ.

ومن جديد.

ليس للذكريات تاريخ ولا توقيت ولا عمر. ها أنا أتذكر كيف أنَّ صديقتي،

الفاتنة للا، تعلّمني التقبيل. بدلاً من تحضير الفروض المدرسية وحلّ مسألة تتعلق بالتاجر الذي لم ينجح لسبب ما من دوننا على الإطلاق أن يعرف كم يجب عليه أن يقصّ من القماش، نحن نقبل بعضاً حتى تورم شفاهنا. أحاول قدر المستطاع أن أعرف مَنْ ذا الذي علم للافنَ التقبيل. لكنها تلتزم الصمت ولا تجيب. ومن ثم تعرّف فيما بعد - ابنة خالتها أثناء عطلة عيد الميلاد. وما أهمية، متى حدث ذلك، وكم كان عمري، وفي أي صُفّ كنت، في أي قرن وفي أي كوكب! المهم أني أرى كلّ شيء كما لو أنه الآن: ها هي لا لا تجلس أمامي على الأريكة، تبدو غير عادية نوعاً ما، بلون الأورانج في الأشعة المائمة للشمس الغاربة، تمسح بمنديل بقعة حبر عن راحة يدها، والمنديل أيضاً بلون الأورانج، مشوّب بلون الغروب، وهذا هو الآن فوق ذلك ليكفي غامق. تبلله لا لا باللّعاب ومن ثم تمسح البقعة من جديد، ومن جديد تبلله باللّعاب لتمسح مرّة أخرى، وهذا قد أصبحت شفتاها ولسانها ملطخة بالحبر. ولن يفلح شيء في مسح الحبر عن شفتتها أبداً الدهر - لا الزمن ولا الموت.

وأخيراً، أغرم أنا أيضاً «بصورة حقيقة»، ولكن برجل ناضج. الأدق، أغرم بصورته التي رأيتها في مجلة «أوغونيوك» - «الشعّلة»، مع إمضاء «الأمير يوسوبوف كونت سوماروكوف - إلستون» - في بنطلون أيض، يحمل مضرب تنس في يده ومع ابتسامة ساحرة. أشعرُ منذ اللحظة الأولى أنّ هذا هو قدرِي ومحبوي، إنه فارس أحلامي. لا أشكُ للحظة بأنّ القدر سوف يفعل ما هو ضروري لكي تلتقي. أين ومتى - لا أهمية لذلك. فالقدر نفسه سوف يتکفل بكلّ ما يلزم، سوف يجمعنا ويرمي بوأحدنا في أحضان الثاني. ثمة رسم في الكتاب المدرسي: مجموعةتان من الأحصنة عدد كلّ منها ثمانية تشدّان نصفّي كرة ماغديبورغ<sup>(١)</sup> اللذين لا يتصلان ببعضهما مباشرة بأي شكل، وإنما تمّ شفط الهواء من كليهما ببساطة. يقوم الحوذى

1- نصفّي كرة ماغديبورغ هي تجربة قام بها العالم أوتو فون غيريكه عام 1657 في مدينة ماغديبورغ في ألمانيا وبهذه التجربة أثبت ان للهواء ضغطاً في جميع الاتجاهات. باللون ماغديبورغ عبارة عن نصفّي كرة نحاسية كبيرة لها حواف وتوضع بين حوافها حلقة مطاطية لمنع التسريب عندما يتم تفريغ الهواء من داخلها مما يصعب فصل نصفّي الكرة بعضهما عن بعض حتى باستخدام ستة عشر حصاناً ثمانية من كل جهة. المترجم

بضرب الجياد بكل ما لديه من قوة، بيد أنّ نصفي الكرة يقيان ملتصقين بعضهما ببعض بقوة هائلة بحيث إنه يستحيل فصلهما عن بعض. وأنا أعرف أنه سوف يكون لدينا مثل ذلك الحب من حيث القوة - لن تفلح أية قوة في الكون بفصلنا عن بعضنا.

كما يحدث أن آخرين يُغرمون بي، ولكن المعجبين بي من أبناء روستوف لا يشبهون في شيء الأمير يوشوبوف كونت سوماركوف - إلستون! يلاحقني ويتعزل بي شقيقان توأمان من آل نازاروف من مدرسة ستيبانوفسكايا - بأذنين طويتين متدينتين، أحمقان وعنيفان. وهم لا يسمحان لأحد حتى بمجرد الاقتراب مني. فقد قاما بضرب أحد الفتى من مدرستهما في غرفة الملابس بطريقة وحشية فقط لأنّه قام بالتزحلج معه في باحة التزلج.

يقول بابا بشأن التوأم إن تلك من أخطاء الطبيعة، إنهم خطأ غير خطير ولكنه يبقى خطأ. وإذا ما ترك لشأنهما، فلا بدّ أن يكون ثمة قائد من بينهما وأكثر حضوراً، وأنه لا بد أن يقضى أحدهما على الثاني. الاحظ باستمرار كيف أن ثمة صراعاً لا يتوقف بينهما من أجل الريادة. ذات يوم، شتاءً، حين يقوم الجميع بالترحلق على زلاجاتهم من كلا الجهازين للسفر في حديقة نوفوبوليسكايا، راح الشقيقان نازاروف يقومان باختبارات تحدّ لأنفسهما - يطيران بعضهما باتجاه بعض - ليختبرا من يتنحى أولاً، من الذي سيخاف ولن يصدّم. عندئذ يتوقف جميع المتزلجين ليراقبوا كيف أنّهما يندفعان بعضهما باتجاه بعض وجهًا لوجه ونظرة مقابل نظرة - ذاك الذي ترفّع عنه أولاً، سوف يتنحى. وفي اللحظة الأخيرة ينقلب أحدهما فوق كثيب ثلجي ويطير إلى جانب. كان يمكن أن يقتل أحدهما الآخر لو لم يكن ذلك الكثيب هناك.

لم أكن في البداية قادرة أن أميّز بينهما على الإطلاق، ولكن فيما بعد نشأ لدي اعتقاد بأنّهما غير متشابهين تماماً - بل إنّهما مختلفان حقاً. بيد أنه كان من المستحيل أن أغرم بهذا أو بذلك. عندما تم دعوتنا إلى أصدقاء أو معارف مشتركين، بمناسبة عيد ميلاد أو يوم الشفيع مثلاً، قام أحدهما، سيميون، ذات مرّة بتحيّن لحظة معينة وبقيانا في الغرفة معًا بمفردنا. كان يريد أن يتحدّث عن شيء ما، ولكنه التزم الصمت وراح يتصرف عرقاً ويحرّم.

وفي شهر أيار، عندما يمر الشقيقان تحت نوافذ مدرستنا وهم متشابهان، في سترات من الكتان السميك، وقد أغلقا القبة بالأزرار وراحوا يسيران بمحاذاة النوافذ التي تطل منها تلميذات المدرسة، يقوم أحدهما، بيتهما، بالتحديق إليهنَّ بحيث أنه ينطح عمود الكهرباء بكل قوته.

وفي الصيف، أثناء العطلة، يسافران مع والديهما إلى ألمانيا. وعندما يعودان، ونسألهما عما شاهداه في أوروبا، فإنهما لا يتذكران شيئاً هناك سوى قلعة نورنبيرغ وأنه فيها Folterkammer، أي غرفة التعذيب، مع العذراء الحديدية<sup>(١)</sup>، حيث كانوا يقومون بتعذيب الضحايا بواسطتها، إلى جانب مختلف الأدوات التي كانت تستخدم لتنفيذ الإعدام والتعذيب، والتي أبهراهما - مثل مقص من الحديد لقطع اللسان، وإبرة ضخمة لفقر العيون، وعيدان اشتعال يتم دسها تحت الأظافر ثم يجري إشعال النار فيها، وغير ذلك من هذا القبيل. وأكثر ما ترك انطباعاً شديداً عندهما - وهنا ييدآن بالحديث عن طريق الهمس، ولا يخبران بذلك سوى الصبيان وعلى الأذن مباشرة، ولكن بحيث أنَّ كل شيء مسموع بصورة جيدة - الملقط التي تستخدم لسحب الأجزاء الحساسة من جسم الرجل.

بيدَ أن الأخوين نازاروف يصبحان منقذين لنا، عندما نذهب أنا و Mishka وتوصيا وصديقات آخريات من مدرستنا، للتنزه في ناهاشيفان. إذ يتحرش بنا عمال حرفيون ثملون من تيميرنيك، حيث يدخل الشقيقان اللذان كانا متعلقين بي، في عراك مع الحرفيين السكارى. اعتباراً من ذلك اليوم أصبحنا نذهب للتنزه في حديقة نوفوبوسيلينسكايا، حيث لم نكن ننجو من التحرش والملaque من قبل، برفقة التوأميين، وقد أصبحا يحملان معهما سكاكين وقبضات فولاذية<sup>(٢)</sup>.

- 
- العذراء الحديدية جهاز للتعذيب، يتكون من تابوت حديدي طويل بما فيه الكفاية للإحاطة بإنسان. عادة يكون في العذراء الحديدية ثقب صغير بحيث يمكن للجلاد استجواب الضحية وتعذيبه أو قتله عن طريق ثقب الجسم بأدوات حادة (مثل المسامير أو السكاكين)، في حين يضطر الضحية للبقاء واقفاً.. المترجم
  - نوع من السلاح الأبيض - عبارة عن صفيحة معدنية مع بروزات مدببة يتم وضعها في الأصابع مثل قفاز... المترجم

العالم مبني بطريقة غريبة: الشقيقان التوأمان بيتا وسهما مستعدان أن يقتلا إنساناً بسببي ولأجلني، بيـد أنـي لا أـحب أـيـاً مـنـهـما، وإنـما أـنـا مـغـرـمـة بـصـورـةـ، بـورـقةـ لـيـسـتـ سـوـىـ خـلـيـطـ منـ اللـوـنـينـ الـأـسـوـدـ وـالـأـيـضـ، وـهـذـاـ كـلـهـ بـسـيـطـ جـدـاـ بـحـيـثـ إـنـهـ يـسـتـعـيـلـ تـفـسـيرـ ذـلـكـ وـشـرـحـهـ.

رـحـتـ أـقـرـأـ مـاـ قـمـتـ بـكـتـابـتـهـ، وـفـجـأـةـ اـنـتـبـهـتـ إـلـىـ أـنـيـ لـمـ أـقـلـ شـيـئـاـ حـتـىـ الـآنـ بـخـصـوصـ خـالـتـيـ الصـغـرـىـ، الـخـالـةـ أـوـلـاـ<sup>(1)</sup>ـ الـتـيـ كـانـتـ تـأـتـيـ لـزـيـارـتـنـاـ فـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ مـنـ بـطـرـسـبـورـغـ.

هـاـ هـيـ تـدـخـلـ مـسـرـعـةـ إـلـىـ غـرـفـنـاـ وـهـيـ تـفـرـقـ بـقـبـقـابـهاـ، مـاـ يـجـعـلـ الغـرـفـ عـنـدـ ظـهـورـهـ فـيـهـ تـبـدوـ عـلـىـ الـفـورـ صـغـيرـةـ وـمـغـبـرـةـ وـمـضـجـرـةـ، وـذـلـكـ لـأـنـهـ مـسـتـعـجـلـةـ وـجـامـحـةـ تـعـبـقـ بـالـعـطـرـ كـامـرـأـةـ مـنـ الـعـاصـمـةـ. نـحاـصـرـهـاـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ حـيـثـ نـقـومـ بـتـقـبـيلـهـاـ بـلـاـ تـوقـفـ. وـكـعـادـتـهـاـ تـحـمـلـ لـكـلـّـ وـاحـدـ مـنـاـ هـدـيـةـ -ـ شـيـئـاـ مـاـ، لـاـ حـاجـةـ لـنـاـ بـهـ وـلـاـ فـائـدـةـ مـنـهـ، مـاـ يـجـعـلـ مـاـمـاـ تـهـزـ رـأـسـهـاـ عـلـامـةـ عـدـمـ الرـضـاـ. يـتـبـيـنـ أـنـّـ مـاـ هـوـ غـيرـ ضـرـوريـ وـغـيرـ لـازـمـ هـوـ الـأـكـثـرـ بـهـاءـ وـسـحـرـاـ: مـخـتـلـفـ أـنـوـاعـ الـرـيشـ وـالـمـشـابـكـ الـشـعـرـيـةـ، بـطـاقـاتـ وـمـرـاوـحـ يـدـوـيـةـ. تـقـولـ الـخـالـةـ أـوـلـاـ إـنـهـ يـجـبـ عـلـىـ إـلـيـانـ أـنـ يـعـيـشـ zefirosoـ. وـهـيـ نـفـسـهـاـ تـنـهـدـ وـتـمـشـيـ، تـأـكـلـ وـتـضـحـكـ - zefirosoـ - بـسـهـوـلـةـ وـبـرـشـاقـةـ. تـحـبـ أـحـيـانـاـ أـنـ تـبـهـرـنـاـ بـأـسـئـلـةـ مـنـ نوعـ: «ـمـاـذـاـ تـفـضـلـينـ: طـعـامـاـ لـذـيـذـاـ مـنـ إـنـاءـ غـيرـ جـمـيلـ أمـ طـعـامـاـ غـيرـ لـذـيـذـ مـنـ إـنـاءـ جـمـيلـ؟ـ»ـ.

ذـاتـ يـوـمـ مـسـاءـ أـقـومـ بـتـمـثـيلـ وـجـوـهـ الشـخـصـيـاتـ مـنـ الـحـكـاـيـةـ الـخـرـافـيـةـ «ـالـيـعـسـوبـ وـالـنـمـلـ»<sup>(2)</sup>ـ الـتـيـ تـعـلـمـتـهـاـ لـأـجـلـ مـسـرـحـ المـدـرـسـةـ، وـكـنـتـ وـاثـقـةـ مـنـ أـنـّـ الـجـمـيعـ سـوـفـ يـصـفـقـونـ لـيـ وـسـوـفـ يـنـدـهـشـونـ لـمـوـهـبـتـيـ فـيـ التـمـثـيلـ، يـكـفـيـنـيـ أـنـ أـرـفـعـ إـصـبـعـيـ بـاتـجـاهـ السـقـفـ كـنـوـعـ مـنـ التـعـبـيرـ عـنـ الـوعـظـ الـأـخـلـاقـيـ، ثـمـ أـنـطـقـ: «ـهـكـذـاـ، هـيـاـ تـعـالـ وـارـقـصـ!ـ». لـكـنـ خـالـتـيـ أـوـلـاـ تـقـفـزـ وـتـقـاطـعـنـيـ، مـنـ دـوـنـ أـنـ تـنـتـرـ الـخـاتـمـةـ، وـتـصـيـحـ: «ـلـيـسـ هـكـذـاـ، لـيـسـ هـكـذـاـ، يـاـ بـيـلـوـتـشـكـاـ!ـ

1- أـوـلـاـ - اـسـمـ التـصـفـيـرـ وـالـتـحـبـبـ مـنـ أـوـلـاـ...ـ فـاقـضـيـ التـنـوـيـهـ.ـ المـتـرـجمـ

2- - حـكـاـيـةـ خـرـافـيـةـ تـجـريـ علىـ شـكـلـ قـصـيـدةـ طـوـيـلـةـ لـلـشـاعـرـ الـرـوـسـيـ الـمـعـرـفـ إـيـفـانـ أـنـدـرـيـفـيـتـشـ كـرـيـلـوفـ.ـ المـتـرـجمـ

- تشرح لي الحالة أولغا كيف يجب فهم الحكاية بصورة صحيحة - كان ثمة يعسوب مرح ولطيف، وكان يعيش كما يفترض به أن يعيش حياته - أن يعيشها بمرح وبفرح، أن يعني وأن يسعد لشروع الشمس وللسماء، أن يكون صاحب قلب طيب وأن يتوقع الطيبة والخير من الآخرين أيضا! لقد عمل من أجل خدمة الجمال، هل تفهمين ذلك؟ وأما النملة - فقد كانت شريرة وبخيلاً، مثل جميع الأثرياء، كما كانت ضيقة الأفق وشخصاً تافهاً!»

تجلب لنا الحالة أولغا دفتر يوميات باشكيرتسيفا<sup>(1)</sup> الذي يكاد يتحول بالنسبة لها إلى كليب للصلة تقسم عليه، فتقراً لنا في الأماسي بصوت مسموع مقتطفات منه: «يخجل الناس من عريهم لأنهم لا يعتبرون أنفسهم كاملين. لو أنهم كانوا واثقين من عدم وجود أية بقعة أو عضلة غير متناسقة، ولا ساقين مشوهتين، لكانوا راحوا يتزهون بلا ثياب من دون أن يشعروا بأي حياء... وهل يعقل أنه يمكن للإنسان أن يصمد أمام الإغواء بأن يكشف عمّا لديه من جمال وسحر يسمع له بالمفاخرة به؟». تخبرنا الحالة «أولاً» كيف أنها كانت في سويسرا على صفة بحيرة لوغانسك وكيف أنها عاشت هناك لبعضة أسابيع في مستعمرة ما، حيث يمشي الجميع عراة - رجالاً ونساء. فوق ذلك، راحت تتذمر لأنهم لا يقومون بتصوير الأعضاء التناسلية الذكرية في الفن، من منطلق أن ذلك غير محتشم، علمًا أن ذلك - قدس الأقداس، ولغز الحياة وغاية الكون! ثم تابعت: لقد صلبو الم المسيح عاريًا،

---

1- ماري باشكيرتسيفا - رسامة أوكرانية لعائلة أرستقراطية أوكرانية، وكانت تحمل الجنسية الروسية، غنى عائلتها أتاها لها المجال للسفر في مختلف أنحاء أوروبا مع أمها، وكذلك في الانساب لمدرسة «أكاديمية جولييان» وهي واحدة من المدارس النادرة في ذلك الوقت وكانت تقبل انتساب الإناث وصدق وجود الفنان لويس بريسلاو في نفس المدرسة وكانت تعتبره ماري منافساً وحيداً لها ويعود إلى هذه التناصية ربما الفضل في حد ماري على القيام بأهم أعمالها الفنية خلال فترة حياتها القصيرة، كلودة «الاجتماع» التي رسمت فيها أطفال الأحياء الفقيرة في باريس، ولسوء الحظ تم تدمير قسم كبير من أعمالها الفنية خلال الحرب العالمية الثانية. كانت ماري تتابع إحدى المجالات منذ سن الثالثة عشرة، وبدأت لاحقاً التحرير فيها، حيث نشرت عدة مقالات لتكشف مساوئ البرجوازية وتدافع عن حقوق المرأة في التعليم، مذكراتها تحت الطباعة حالياً تحت عنوان «أنا أكثر الكتب إثارة للاهتمام» المترجم

كما ينبغي أن يكون بحق العبيد المحكوم عليهم، وفيما بعد فقط قام بابوات الكنيسة بتحطيم جميع لوحات الصليب الحقيقة وراحوا يُلِسُونَ المسيح شيئاً!

كانت خادمتنا العجوز تصغي إلى ما تقوله الخالة من خلال الأبواب المفتوحة وقد راحت تبصق بصوت مسموع: «يا للعار!» وهي لا تحب الخالة أولغا وبشكل خاص مثل هذه الأحاديث التي تعتقد أنها تفسد أخلاقنا. كما أنّ أحاديث الخالة لا تروق لماما، ولكنها لا تستطيع الخروج أو التزام الصمت، بل تحاول الدخول في جدال مع اختها: «ما هذا الذي تقولينه، يا أولغا! إذ إن ثمة حياء فطرياً، لدى الإنسان حدود أخلاقية تفصل ما بين التحت والفوق، كما أنه توجد في نهاية الأمر قيود جمالية رسختها وشدّدت عليها تجربة طويلة للبشرية تمتد لآلاف السنين، فضلاً عن أنه ثمة في نهاية المطاف قوانين وأديان تنظم ذلك وتقيده!».

تضطرب الخالة وتتهيج فتبدأ بالجري في أنحاء الغرفة وهي تبرهن أنَّ ذلك كان منذ الأزل أمراً طبيعياً تماماً في جميع الديانات، وأنَّ المسيحية هي التي شوّهت ذلك وحرّفت كلَّ شيء - لأنها لا تستطيع بأي شكل أن تتحمل ما هو حي وأنها على العموم ديانة الموت، ولذلك فهي ديانة غير قابلة للحياة وسوف تنتهي وتتلاشى من تلقاء ذاتها. «يكفي إلقاء نظرة في الكتاب المقدس - تقول الخالة أولغا متهمسة - فقد أقسموا هناك بذلك على أنه الأكثر قداسة، وهم يمسكون بنفس ذلك المكان. عندما يرسل أبراهم خادمه من أجل زوجة إسحاق، فإنه يقول له: ضع يدك تحت فخذلي وأقسم بالرب، إله السماء وإله الأرض<sup>(١)</sup>. وبعد ذلك يضع العبد يده هناك ويقسم بكل شيء! هكذا!!».

1- النص ورد في سفر التكوين 24 «1. وَسَأَخْ إِبْرَاهِيمَ وَتَقَدَّمَ فِي الْأَيَامِ. وَبَارَكَ الرَّبُّ إِبْرَاهِيمَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. 2. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَنِيهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي، 3. فَأَسْتَحْلِفُكَ بِالرَّبِّ إِلَهِ السَّمَاءِ وَإِلَهِ الْأَرْضِ أَنْ لَا تَأْخُذَ زَوْجَةَ لَابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَعَانِيَّينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ.. المترجم

توجه الخالة أولغا بكلامها إلى شقيقتي الكبيرات، أما أنا فأجلس متکورة في الأريكة أصغي وأتذکر. أشعر بالإعجاب تجاهها، وفي الوقت نفسه بالشفقة عليها، لأنها كما تقول شقيقة، وحيدة وذلك على الرغم من أنها عاشت عدداً من القصص الغرامية. كانت الخالة أولغا ذات يوم متزوجة، إلا أن طفلها توفي. ثم هجرت زوجها ولم تقم بعد ذلك بإنشاء أسرة.

«وعلى العموم، لقد كانت ولادتنا خاطئة - تتابع الخالة أولغا حديثها وهي تشعل سيجارة وتفتح النافذة الصغيرة التي تفتح على العتمة الصقيعية، حيث تتسلل منها أصواتُ لأشخاص سكارى ونباح كلاب - كان يجب علينا ألا نولد في هذا المكان، بل في مكان ما قريب من البحار الدافئة، ومن الأفضل لو أنَّ ذلك حدث في ألفية أخرى، ليكن في تلك اليونان القديمة، حيث كانوا يحبون العشق ولا يهابون من الغرام، وحيث كانت الحياة خشنة وفظة وطبيعية، وليس ناعمة وغير طبيعية وغير تلقائية كما هو الحال اليوم. ومن المشكوك فيه أنَّ الحياة في بلاد الإغريق كانت أكثر فظاظة وقسوة من الحياة في تيميرنيك الحالية!».

أنا معجبة بالخالة أولغا لأنها تقول على الدوام أشياء غريبة. أنا أعرف أنَّ يسوع أوصى بأنْ نحبَ الجميع، في حين أنها تعرب عن عدم رضاها وعن تذمرها من المسيحية: «كما لو أنه يمكن فصل شيءٍ ما في الإنسان عن أمر آخر - فصل الجسد عن الإله - تتابع - هذا أشبه بأنْ يؤكِّد شخص ما أنَّ الجذر والزهرة - كائنان منفصلان تماماً!».

يصغي بابا لكلام الخالة «أولاً» صامتاً، ولكنه يضيف في بعض الأحيان ملاحظة هنا أو هناك. وفي إحدى المرات، عندما كان الحديث يدور حول نشوء الأديان، راح يقول إنه لم يكن ثمة محبة في البداية، بل كان الصيد «أولاً»، كان يجب في البداية أن يقتل الحيوان لكي يستطيع الإنسان أن يحيا. وهكذا راح الصيادون يصاحبون معهم صياداً ضخماً وقوياً يمكنه أن يساعدهم في عملية قتل الوحوش. «كلا - اعترضت الخالة «أولاً» - لقد نشأ ظهور الرب من تلك المرأة التي مرض طفلها ولم يكن ثمة أحد قادر على مساعدتها. فلم يبق لها سوى أن ترفع يديها إلى السماء وأن تصلي وتوسل!».

أسمع كلام الخالة أولغا وأتذكّر أطراف مدينة روستوف في حي الحرفيين قرب خط سكة حديد فلاديفوتسك: ثمة «جثث حية» في كلّ مكان بالقرب من حانات البيرة، مستلقون في قيئهم ودمائهم. وعند أبواب الحانة صراغ نساء وشجار قاس بين سكارى. كل شيء يشي بالبؤس وباليأس وبالتفاهة - بسبب الشتائم والسباب، وبسبب القذارة والأوساخ، وبسبب الناس. في حين أنَّ الخالة أولغا تؤكّد أنه يجب علينا أن نعيش بسلام، مثل العرسان، وأن نعشق هذِي الحياة كلَّ يوم، لأنَّ العريسين مفعمان بالحبّ وهم ينظران إلى كلّ شيء كما لو أنه لأول مرة. «يجب أن نعيش الحياة كما لو أنها في شهر عسل - تقول لنا الخالة أولغا - وأن نتزوج كلّ شيء: الشجرة والسماء، والكتب، وجميع الناس الموجودين في هذه الدنيا، لأنَّ نتزوج الزهرة الجميلة، بل وحتى ذلك الهواء البارد جداً الذي يهب من خلال النافذة الصغيرة!».

عزيزي نبوخذ نصر اللاحق والسابق!

هورا! لقد استلمتُ بطاقتك البريدية! إنه لمن دواعي سروري أن أنظر إلى خطّك وأنا في مملكة بعيدة خلف ثلاثين بحراً، في عاصمة العواصم، وأن أعرف أن كلّ شيء عندكم على أحسن ما يرام. بدبيهي أن المترجم شعر بالأسى وبالتكلدر كثيراً لأنك لا تزيد أن تذهب إلى المدرسة. ولكن، احكمْ بنفسك، ومن ذا الذي يريد ذلك؟ ولكن فيما بعد، ذات يوم، سيكون لديك ما يمكنك أن تذكره.

علمّا أنك لا تتمنّى أن تتذكّر، ولكن الذكريات تتداعى من تلقاء نفسها. كنْ على ثقة. هكذا هو الماضي دائمًا.

لنأخذ، على سبيل المثال، غالبيتها تلك بالذات، التي سبق أن أشرتُ إليها في واحدة من رسائلي السابقة. لم أعد أذكركم مضى من السنين، وحتى أنني لم أكن أعرف ما إذا كانت حيّة أم لا، وإذ بها تظهر فجأة.

لا أعرف كيف هو حال الانضباط لديكم في المدرسة، أما عندنا ففي دروس غالبيتها يسود هدوء مطلق. ولكتهم كانوا يقومون برسمها في المرحاض: عارية ومع شوارب ولها حلمتان ضخمتان جداً. مجرد انتقام

طفولي بريء. لم يكن أحد يجرؤ على ما هو أكثر من ذلك. لم يكن يحبها أحد. لا الأطفال ولا المعلمون.

كانت غالبيتها تعتبر يانوش كورتشاك<sup>(1)</sup> بطلها المفضل. كنا إذا ما ارتكبنا فعلًا غير لائق كانت تبدأ بالصراخ علينا ثم ما تلبث أن تلجمًا عاجلاً أو آجلاً إلى كورتشاك. عندما كانت تتحدث عنه، كانت تتغير كلّياً وتصبح مختلفة. حتى أنَّ صوتها كان يصبح مختلفاً: «ولكن كيف، كيف يمكن أن يترك أطفال بمفردهم في عربة قطار مغلق بإحكام وفي غرفة الغاز؟». كانت تعيد الحديث نفسه باستمرار وتكرر العبارات نفسها. أصبح الجميع يعرفون مسبقاً ما الذي تريد أن تقوله. كما كانت عيناها تطفحان بالدموع في كلّ مرة عندما كانت تبلغ الكلمات: «وهكذا في الخامس من آب من عام 1942 أخرج يانوش كورتشاك أطفاله اليتامي إلى الشارع، حيث وقفوا في طابور، وبعد ذلك رفعوا راية الملك ماتيوش<sup>(2)</sup> وانطلقوا في آخر مشوار لهم، في حين أنَّ كورتشاك كان يسير في المقدمة وقد أمسك بأيدي اثنين من الأطفال». وكان كل شيء ينتهي على النحو التالي: «هل تدركون لأجل من كان يعاني؟ لأجل من ضحى بحياته؟ لأجلكم! أما أنتم...». في تلك الأثناء، وحين قال أحد المتبعجين إنه قرأ الكثير من الكتب، أنَّ كورتشاك لم يكن اسمًا حقيقياً له، بل كان يدعى غولدشميت، أثار كلامه سخطها معلنة أنه لم يكن يهودياً قط! راحت تدافع عنه وتعرب عن استيائها قائلة إنه يكفي لشخص نبيل أن يولد في هذا الزمن لكي يبدأ البعض عل الفور بالتلويح: ولكن كنيته يهودية!

لم يكن ذلك المتبعج الفطن يقصد ذلك، ولكن الوقت كان قد فات من أجل الاعتذار والتوضيح!

كانت غالبيتها تدرس مادتي علم الأحياء وعلم الحيوان، لذلك كانت

- 1- 1878-1942 طبيب أطفال وبيداغوجي بولندي من أصل يهودي، يعد أحد أبرز وأقدم الشخصيات المؤثرة في مجال التربية، والمدافعة عن حقوق الطفل خلال القرن العشرين. المترجم

- 2- «الملك ماتيوش» - عنوان قصة للكاتب كورتشاك نفسه... المترجم

تنمو في أقصى على حافة النافذة مختلف أنواع النباتات. كانت تعرف التسمية اللاتينية لكل نبتة وكانت تكرر باستمرار:

النباتات - كائنات حية، ولكنها تحمل أسماء بلغة ميتة. انظروا، مثلاً، هذه الأعشاب الضارة تنمو في المناخ الجنوبي كيما كان وبشكل تقائي، في حين أنها عندنا تعتبر نباتات للزينة توضع في داخل البيوت. وهي لا تنمو في مناخنا الشتوي من دون اهتمام ودفء.

لم يبق شيء من كل دروسها سوى أن ثمة نباتات مزهرة وأخرى بوغية .Sporangium

ها إنه تذكر ذلك، ولكن لماذا يجب على المترجم أن يذكر ذلك؟

اجتازت غالبيتها ذات يوم الممر مع ورقة ملصقة إلى ظهرها بواسطة لاصق إسكتلندي. كانت الورقة تحمل نفس ذلك الرسم الصوري<sup>(1)</sup> (pictogram). ومع حلمنتين هائلتين. لقد قام أحدهم بطريقة حذرة بلصق الرسم على ظهرها أثناء الازدحام بعد انتهاء الحصة الدراسية. خطر ببال من سيصبح مترجمًا في المستقبل لثانية واحدة فقط أن يهreu وأن يتزع تلك الورقة عن ظهرها وأن يقول لها أن تتبه. لكن هذا استمر لثانية فقط.

وهذا يعني أنه يجب عليك أنت أيضًا، يا عزيزي نبوخذ نصر السابق والمقبل، أن تذهب إلى المدرسة لكي تتذكر فيما بعد أشياء تافهة لا فائدة منها، من نوع النباتات البوغية أو تلك الورقة مع رسم من المرحاض، لأن كل شيء إنما يتكون من ذلك.

إني أكتب لك وأنا على السطح. هنا، على سطح Instiutto Svizzero توجد شرفة مطلة على المدينة الخالدة. تبدو روما بأكملها وكأنها على راحة الكف. يبدأ أن الراحة يجب أن تكون كبيرة جدًا.

ها هي بطاقي البريدية لك. من اليمين، فوق Villa Borghese، ارتفع من جديد باللون هوائي أزرق، وقد تم تلوينه برسومات على شاكلة باللون الهواء

- الرسم الصوري (البِكْنُغرَام-غراف) كل رسم موضع يتضمن رمزاً بأشكال وألوان للإخبار بمعلومات محددة. المترجم

الساخن<sup>(١)</sup>. ومن اليسار، في مكان ما فوق piazza Venezia، تهدى طائرة هليكوبتر، وقد التصقت إلى السماء مثلما تلتتصق ذبابة على ورقة لاصق، تطنُ من دون أن تتحرك من مكانها. ثمة قباب وأسقف تمتد حتى جبال الألب. وفوق القديس بطرس مباشرة، تدلّف وتدور بقعة حيّة فاتمة. عبارة عن سرب هائل من الطيور. تارة ينكحش فيصبح أشد قتامة وأكثر كثافة، وتارة يتمدّد ويتتفاخ، وهو يتلوّي ويتموج. كما لو أنّ جوربياً أسود هائلاً يطير في السماء وقد راح أحد ما يقلبه من الداخل إلى الخارج باستمرار. من أين كل هذا العدد الكبير من الطيور هنا؟

وهكذا يقضي المترجم نصف نهاره على ذلك السطح. ثم يهبط. يخيم الهدوء على البناء الضخم - تتملى التماثيل اللوحات بصمت. كل شيء هنا من الرخام الأبيض: الجدران والسلالم، والأعمدة، كما لو أنه تم نحتها من مكعبات السكر المبلور والمكرر. وقد قام بناء هذه الفيلا ذات يوم أحد الأثرياء السويسريين - أحد أكبر ملاكي معامل السكر الذي أراد أن يرى مدينة روما على راحة يده الممدودة. أما الآن فقد أقيم هنا المعهد السويسري. حيث يجلس حائزون على منح دراسية خلف أبواب مغلقة ويقومون بعمل ما باستمرار. وقد قام أحد الرسامين ومنذ أول يوم مساء بدعوة المترجم إلى مرسمه، حيث راح يحكى له مطولاً عن مشروعه: معدة ضخمة جداً تقوم بابتلاع مدينة برن<sup>(٣)</sup>، حتى أنه عرض عليه رسوماً متحركة على الكمبيوتر. كما قام فنان آخر بدعوته إلى مرسمه أيضاً وعرض عليه كيف يصمم «Lampenbrote»<sup>(٤)</sup>: يقوم بانتزاع اللب من أرغفة خبز كبيرة (صمونة) من خلال ثقب، ثم يضع في داخل الرغيف لمبة ويعلقها إلى السقف. أطفأ

-1 منطاد الهواء الساخن هو مركبة طائرة وزنها أخف من الهواء تحتوي على كيس يدعى الغلاف وهو يستطيع تحمل حرارة الهواء الساخن. منطاد الهواء الساخن هو أول تقنية طيران تحمل الإنسان بنجاح. المترجم

-2 ساحة فينيسيا. وردت في النص الأصلي بأحرف إيطالية. فاقتضى التنويم. المترجم

-3 برن هي عاصمة سويسرا الإدارية ورابع أكبر مدنها من حيث عدد السكان بعد زيورخ وجنيف وبازل المترجم

-4 الخبز الخفيف (ألمانية) - المؤلف

الفنان الضوء، ثم جلسا في العتمة، وفوق رأسهما أرغفة خبز معلقة. وفي المرسم الثالث، في برج له إطلالة عابرة لمدينة روما بأكملها، انتزعت الفنانة التشكيلية شعرة من رأسها ثم راحت تلصقها إلى قطعة صابون بطريقة تجعلها تحصل على خريطة العالم. حتى أنها أهدت المترجم مثل تلك الصابونة العالمية.

يترك المترجم اللابتوب في غرفته ويخرج إلى via Ludovisi. تفوح الروائح المألوفة في شوارع روما: البنزين والقهوة من أبواب الحانة المفتوحة على مصراعيها، ورائحة البخور والشمع في الكنيسة، ورائحة العطور من المخازن «بوتيك»، بالإضافة إلى رائحة البول والجير المطفأ في الأفنية ومداخل البيوت. ثمة هرج ومرج في كل مكان: المارة يحاولون أن يشرحوا أمراً ما للمتصلين بهم على الهاتف telefonino. كلب مسحور قام بعض راكب على دراجة آلية، وقد انتشر من جراء ذلك وباء في المدينة، إذ انتقل المرض إلى السيارات وإلى الحافلات، حيث راح الجميع يسعون مثل المجانين. حتى أغطية الفتحات في قنوات الصرف الصحي فقدت عقلها، وراحت تخيل نفسها الله أعلم ماذا: أينما مشيت تجد أمامك مكتوباً «Senatus Populus Que Romanus» - «S.P.Q.R.(1)». ثمة بخار كثيف وثقيل يخرج من كوة في الرصيف، يلطخ الشارع مليء بالدرجات الآلية. يا لها من ثغرة في المنظر الطبيعي للشارع. إنه خلل. أم إنهم قاموا بمعاينة روما هذه حتى أدق الثقوب فيها؟

ثمة مؤشر سياحي فوق الرأس مع منديل وردي اللون تم ربطه به. يتقييد المترجم بدلاله المؤشر. وهذا يقوده إلى Barberini. ها هو تريتون(2) في الساحة ينفح في صدفة وقد انتفخت أوداجه، بحيث إنه احتفظ ببرتقالة

- مجلس الشيوخ والشعب في روما (لاتينيين). المؤلف

- تريتون هو ابن رب البحر والماء بوسيدون الذي جعله الإغريق رب أولمبيا غير أن هيرودوت يجعل من بوسيدون إليها من ليبيا بحيث يرى أنه ما من شعب عرف عبادة بوسيدون في القدم إلا الليبيين. تريتون يبرز في الميثولوجيا الإغريقية على شكل عريس البحر فهو يتكون من جسم مركب جسده العلوى كجسد الإله غير أن جسده السفلي عبارة عن ذيل حوت أو وحش بحري. المترجم

خلف كل وجنة. كانت دفقة الماء تمضي إلى مفرق مستقيم على الرأس. هنا كانوا ذات زمن يعرضون الموتى الذين تم العثور عليهم لكي يتعرف عليهم أقرباؤهم. راح الماء يفرقع على حجارة الرصيف.

**الروائح والضجيج** - من متلازمات روما، أما لون المنازل فهو موسكوفي بامتياز، ففي سيفتسيفي فراجكية<sup>(1)</sup> كان مثل هذا اللون في الملاط المقشر والرث للقصور التاريخية - كان يبدو لطيفاً ومريراً.

و عبر ساحة vis Sistina إلى شارع غوغول. كما أن أرقام المنازل فقدت عقلها أيضاً. إذ انتظمت في تسلسل وارد في مدينة روما فقط. ها هو البيت رقم 125. ثمة أسماء على لوحة قرب الباب. يعيش الآن هناك شخص ما باسم De Leone. هي ذي نوافذ الطابق العلوي. ثمة شخص يتطلع من خلف الستائر. في الأسفل اصطبلا للحمير. لو أنكم كنتم تدركون درجة الفرح والسرور التي غادرت معها سويسرا وطررت إلى إيطاليا الغالية والرائعة. إنها لي ! لن أسمح لأحد في الدنيا أن يتترعها مني ! لقد ولدت هنا. روسيا، بطرسبورغ، ثلوج وأنذال، والقسم الإداري، والكلية والمسرح - كل ذلك كان مجرد حلم ! ..

هل أقرع الجرس؟ سوف يفتح الباب عجوز - وإذا يعرف من يقصد الأجنبي بزيارته، يقوم بالشرح بكلمات محفوظة عن ظهر قلب، أنّ غوغول غير موجود، وأنه غادر وما من أحد يعرف متى سيعود، عدا أنه بمجرد أن يعود سوف يستلقي في فراشه وسوف يرفض استقبال أيّ شخص.

يقود الدليل السياحي وهو يمسك بعصا من قصب الخيزران فوق رأسه الطريق إلى Trinita dei Monti<sup>(2)</sup>. الخرقة البيضاء المربوطة بشريطة ترفرف بأجنحتها فوق الحشد.

سلم إسباني منسوج من الأجسام والأيدي والأرجل - بساط حي مزخرف هارب من متاحف الفاتيكان. ثمة زنجي يضايق الثنائيات وهو يحمل باقة من الورد. ثمة دمى لجنود بلاستيكية تتحرك بين الأرجل، وقد

-1- زاق في وسط مدينة موسكو القديمة. المترجم

-2- كنيسة في روما في حي كامبو مارتسيو. والكنيسة من الطراز الباروكي. المترجم

راحوا يصرخون شيئاً ما بلغتهم البلاستيكية الخاصة، يطلقون النار وهم يسدون، على مناديل ورقية مجعدة وإلى كؤوس كرتونية تم سحقها. ثمة امرأة عجوز مع عكاز تجلس على بلاطة من الرخام وتمد يدها تددم لنفسها بكلام ما، بحيث لا يسمع سوى «من فضلك» و«طعام»<sup>(1)</sup>. ترتجف أصابعها القدرة. كما لو أنها بالتحديد من الممر تحت الأرضي في شارع إلكتورزافودسكايا، مع فارق أنها تعلم كلمتين باللغة الإيطالية.

يجلس المترجم على الدرجات، ويراقب الحشد في الأسفل حول نافورة باركاتشو، في via Condotti<sup>(2)</sup>، المزدحم بالكامل بالرؤوس مثل العصيدة. كما لو أنّ شخصاً مجنوناً يطهو ويطهو تلك الرؤوس لنفسه في مكان ما، من دون أن يقول أحد له: «أيها المجنون، لا تطبخ!» - وهكذا أصبحت جميع الشوارع غارقة بالناس.

ينظر المترجم إلى البيوت التي أصبح لونها رماديّاً في فصل الشتاء، وإلى السحب الباهنة في كانون الأول.

سبق للمترجم أن جلس قبل بضع سنوات على نفس هذه الدرجات ولكنه لم يكن وحيداً حينذاك.

لوتسيبو وكليتفونت<sup>(3)</sup>. بيرام وفيسبا<sup>(4)</sup>. المترجم وإيزولدا.

سبق للمترجم أن كان هنا مع حبيبه إيزولدا. كان قد بلغ عمر طفلهما سنة واحدة عندما تركاه لجده، وجاء إلى هنا لبعضة أيام. كان بحاجة لأن يرتاح قليلاً من الشقة التي تعقب برائحة الرضيع، وأن يرحل مع إيزولدا من كل تلك الأجواء القائمة في المصنع وفي البيت، التي كانت تقود إلى الانحطاط وإلى الجنون بالتدريج، ومن وجبات الإرضاع المبرمجة بالساعات، من

1- وردت هاتان الكلمتان في النص الأصلي باللغة الإيطالية ولكن بأحرف روسية وهما بالترتيب: manjara و prego. فاقتضى التنوية. المترجم.

2- أحد أقدم وأشهر شوارع روما. المترجم

3- قصة حب كتبها أخيل تاتيوس، كتبها في نهاية القرن الثاني الميلادي. تعد مغامرات Clitophon و Leucippe قصة حب كتبها أخيل تاتيوس واحدة من الرومانسيات القديمة الخمس الباقية على قيد الحياة. المترجم

4- زوجان بابليان أسطوريان تشبه قصتهما قصة العشاقي البائسين عند شكسبير. المترجم

الحفاضات والغسيل وحمامات الطفل ومن الليالي المؤرقه. كان من المهم والضروري أن يكفا عن أن يكونا والدين منهكين بسبب قلة النوم ومرهقين وأن يعودا كما كانوا من قبل: رجلاً وامرأةً يحبان بعضهما بعضاً.

جاء احييتنز إلى الدرج الإسباني في وقت متأخر من المساء وشاهدا ذلك الزفاف، ذاك العريس وتلك العروس اللذين سبق وشاهداهما من قبل في لاتيرانو<sup>(1)</sup>. كانت العروس الليلية ما تزال في فستان زفافها النهاري، وقد جلست على الدرجات وراحت تعزف على الغيتار وتغني «Yesterday». كما أن العريس أيضاً كان يغني ومعه الضيوف أيضاً. وحتى أن جميع من كان على الدرج الإسباني راحوا يرددون معهم «I believe in yesterday...».

لم تمض سوى بضع سنوات، وإذا بمدينة روما تصبح مختلفة تماماً، على الرغم من أن كل شيء مازال في مكانه، كما أن التماثيل بقيت في أماكنها ولم تهرب. نفس مبني القصور مع طلاء مقشر وفجوات بسبب الجحش المتكسر. ونفس تلك القطط وقد راحت تخبيء تحت السيارات. ونفس تلك القذارة في الشوارع، ونفس الشعار الرخامي الذي نمت عليه الطحالب وال موجود فوق الباب، ونفس الشباك الصدئة في مربعات باتت قاتمة لنواذن أصبحت عمياً منذ زمن بعيد. ونفس خرير الماء في بالوعة الحانة، المطحبلة التي يغطيها اللبلاب. ومع ذلك كل شيء - مختلف.

لقد بقي من روما تلك، الأصلية، الإحساس بالمطر وبالشمس. راحت إيزولدا تنزع عن نفسها القماش الملتصق بها - إذ أصبحت البلوزة مبللة بالكامل والتتصقت بجسمها. كما أن صوت عجلات السيارات على حجارة الرصيف المغسولة بالمطر واللامعة تحت أشعة الشمس - له نكهة خاصة، مع صدى ارتظام وصفير رطب. كما أن أشعة الشمس الراطبة تستطع بقوه على الجدران الراطبة وعلى أوراق الأشجار وعلى الحجارة. ثمة بخار يخرج من كل مكان ومن كل شيء - من بلاط الرصيف ومن البياضات المبللة التي

---

- قصر لاتيرانو (بالإيطالية: Palazzo Laterano) أو رسمياً القصر الرسولي للاتيران - قصر أثري من الإمبراطورية الرومانية وأصبح لاحقاً مقر إقامة البابا. متاخم لكاتدرائية القديس يوحنا اللاترياني في روما في إيطاليا. المترجم

تم تعليقها فوق الرؤوس، وحتى من ظهور التماشيل. بعد المطر يصبح الهواء حاداً، وعابقاً وطازجاً، ولكن هذا يطول لدقائق فقط، ومن ثم يصبح الجو خانقاً وحاراً من جديد، ويصبح التنفس عسيراً بسبب الغازات المنبعثة من عوادم السيارات.

منذ الصباح وحتى المساء - متاحف ومعارض وكنائس. لوحات غامضة وقديمة، مذابح (جمع مذبح) مغطاة بالذهب، أجساد من الرخام. روما الأجساد. الأجساد في كل مكان - من الحجارة، ولكنها أجساد - ذكرية وأنثوية وأنصاف حيوانات. عضلات وأثداء، حلمات وسرات بطون، أرداف - عند كاستور وبولوكس<sup>(1)</sup>، وعندي الأباطرة وعندي السيدة العذراء، عند الترايتون والآلهة، عند فون<sup>(2)</sup> ومختلف القديسين. أفحاذ وركب، ربلاط وأعقاب، وأصابع أقدام مفتوحة.

لقد تحطم روما تلك إلى شظايا.

ها هي السحلية المنجل تجري على الحائط في منحى منحرف، تختبئ تحت ورقة شجرة بحيث لا يظهر منها سوى الذيل - أشبه بهلال دقيق وصغير. أين حدث مثل هذا؟ ربما في أطلال معينة من قرميد، دقيقة، بحجم أصبعين. فجأة يهطل المطر من جديد - تطير قطراته عبر الباب المفتوح trattoria<sup>(3)</sup>. ثمة مطر غزير يهطل - تشكلت سيول قوية في الأزقة وعلى الأرصفة. تطل

---

- 1- كاستور وبولوكس من الآلهة الأشقاء توأمان في الميثولوجيتين الإغريقية والرومانية كانوا يعرفان باسم ديوسكوري والدتهما هي ليدا في حين أن والد كاستور هو تينداريوس ملك إيسبرطة بينما بولوكس هو ابن زيوس بعد أن تمكّن من إغواء ليدا بعد أن ظهر لها بشكل بجعة وقد ذكر أنهما ولدا في بيضة مع شقيقاتها هيلين الطروادية وكليتيمينيسترا. المترجم

- 2- فون باللاتينية (Faunus) كائن ميثولوجي خيالي نصف إنسان ونصف معزة (رأسه وجسمه العلواني إنسان ورجلاء من الماعز مع وجود قرون له) ذكر هذا الكائن في أساطير الميثولوجيا الرومانية ويعتقد أن أصله من الساتير الموجود في معتقدات الميثولوجيا الإغريقية، وقد كان الرومان يعتقدون أن هذا الكائن كان يعيش بشكل فردي في المناطق البرية وعلى الرغم من أنه كان يتعدى عن الإنسان، فإن الإنسان كان قادرًا على التفاعل معه والتحكم به. المترجم

- 3- صنف من المطاعم الإيطالية مع صنوف مناسبة من الطعام.. المترجم

هرّة شقراء برأسها من تحت السيارة - فهي تختبئ هناك من المطر. يطلب المترجم وجة لازانيا<sup>(1)</sup> due bicchiri<sup>(2)</sup>. راحت إيزولدا تعلمه كيف يقرع الكأس بالكأس على الطريقة الإيطالية. يجب أن يقول:

Cento giorni come questo<sup>(3)</sup>

يشربان لكي يتكرر مئة مرة كل ذلك - قطرات المطر التي تبلغ أقدامهما الحافية، وضجيج المطر الغزير، وتلك الهرّة الشقراء، وذلك الشاب الإيطالي الذي ضغط على الهاتف النقال بين أذنه وكتفه - فهذا يسمح له بأن يشرح بإشارات من يده بسهولة أكبر. ذلك المطعم، via della Croce، قريب جدًا. بقيا جالسين هناك لمدة طويلة وقد شرعا بالإرهاق وبالألم في أرجلهما. كانت لائحة الطعام مكتوبة بالإيطالية فقط، فراحاني نقران بأصابعهما في ورقة الكرتون الملطخة، بينما راح النادل يشرح لهما وهو يؤشر على نفسه: هذه وجة قوانص. وما هذا؟ ضرب بيده على وركه، موضحاً أن هذا الحم شرائح (فيلي). وهذا؟ ضم ذراعيه إلى خاصرته وراح يخفق برسغيه كما لو أنهما جناحان: حمام، حمام!<sup>(4)</sup>

يومذاك، في روما، لأول مرة بعد مرور عام، كان المترجم مشغولاً إلى أقصى درجة - العثور على عمل، واستئجار شقة، وترتيب الحياة مع الطفل الصغير. رأى المترجم كيف أن إيزولدا أصبحت فاتنة بعد الولادة: لاحظ ذلك عندما كانوا يجتازان الممر في الفندق - كانوا قد بدلا ثيابهما وأرادا تناول العشاء في مكان ما من المدينة - كانت تسير في المقدمة وهي تقول شيئاً ما، وإذ به كمالو أنه لأول مرة يرى شعرها والشق في فستانها، وكيف راح ردها يتمايلان وهي تدق الأرض بكعبها. راحت تقول له شيئاً ما وهي تتلفت في الممر نصف المظلم والضيق، حيث كانت اللumbas في السقف تجعل

1- تطلق الكلمة «لازانيا» على طبق المعكرونة المكون من عدة طبقات حيث تتناوب شرائح اللازانيا مع مكونات أخرى مثل اللحم والأجبان. المترجم

2- وكأسين (إيطالي).. وردت في النص الأصلي باللغة الإيطالية. المترجم

3- مئة يوم مثل هذا اليوم. المؤلف.

4- وردت في النص الأصلي كلمة إيطالية بأحرف روسية: ПИЧЧОНЕ = حمام. المترجم

وجهها يتبدل كل عدة خطوات - تارة يصبح مألفاً وعادياً كما في البيت تماماً، وتارة غير معروف بحيث إنه يتمنى أن يلمسه بأصابعه وأن يقبّله.

تناول العشاء يومئذ في مطعم «Ulpia» فوق ميدان تراجان<sup>(1)</sup> Forum Traiani مباشرة، حيث جلسا في الشرفة المفتوحة. كانت على الطاولات شمعات بيطون كبيرة تشتعل في كؤوس زجاجية - فقد كان الظلام قد بدأ يسلد ستاره. وعميقاً نحو الأسفل، على عمق حوالي ثمانية أو عشرة أمتار - فالزمن هناك يقاس بالأمتار - كانت روما القديمة ممدة، والأدق، أطلالها وأثارها - كان كل أثر من آثارها مضاءً. كانت الأعمدة ملقية كما لو أنها عظام جمجمة منخورة. راحا يشربان النبيذ بانتظار الوجبة التي تم طلبها *carré di agnello*، ويقرآن لبعضهما في الدليل السياحي ويحاولان أن يفهموا أين كان كل شيء من الأشياء قبل حوالي ألفي سنة من قبلهما، ولكن كان من المستحيل عليهما أن يميزا بين مختلف تلك المبادين باسم كل من فيسبازيان وأغسطس ويوليوس قيصر ونيرفا<sup>(2)</sup>، وقد راح كل ميدان ينتقل ويتحول إلى آخر، فضلاً عن أنه تبيّن أن غالبية تلك المبادين جرى طمرها إبان حكم موسوليسي. راح المترجم يتأمل إيزولدا وعندئذ، على ضوء الشمعة، اكتشف أنّ رأس الأنف لديها يهتز عندما تتكلّم أو حين تتناول الطعام. أما من قبل فلم يلحظ ذلك لسبب يجهله.

حاولا أن يجدا في الدليل السياحي أي شيء يتعلّق باسم المطعم، ومن كانت أولى بها هذه: إلهة أم امرأة أم مدينة؟ لكن الدليل لم يكن يتضمّن أية معلومات بهذا الصدد. راح يتردد من مكان ما في الأسفل صرراخ قطط كانت تحفل بزفاف قططي غير مرئي في حفرة ضخمة تغطّت تدريجيّاً بالحشائش. ولم يكن ممكناً التصديق بأنّهم كانوا في هذا المكان بالتحديد يقومون بعرض أيادي شيشرون<sup>(3)</sup> التي تم قطعها وجرى تثبيتها بالمسامير إلى منصة الخطابة.

- 
- آخر المنشآت الإمبراطورية التي تم بناؤها في روما القديمة. أشرف المهندس المعماري أبو لودور من دمشق على بنائه. المترجم
  - أباطرة يونانيون معروفون...
  - الكاتب الروماني وخطيب روما المميز، ولد سنة 106 ق.م، صاحب إنتاج ضخم يعتبر نموذجاً مرجعياً للتعبير اللاتيني الكلاسيكي وصلنا لحسن الحظ جانب كـ... منه، لقد

كان ثمة تناحر واضح بين تلك اليدين المثبتتين وبين هذه الحفرة العميقه أمامنا، الفارغة والمليئة بالهررة، وقد تغطّت بمختلف أنواع الحشائش.

نزعـت إيزولدا صندلها ووضعت قدميها تحت الطاولة على ركبتي المترجم. راح يفرك أصابع قدميها تحت غطاء الطاولة ويصغي في نفس الوقت كيف أنها تقرأ بشأن عمود تراجان<sup>(1)</sup> الذي يقف عليه بطرس لسبب ما وهو مضاء بأنوار المصايبع. بدا الأمر كأن ثلجاً يهطل، وذلك لأنـه بحلول الليل كانت تخرج إلى شوارع روما أعداد كبيرة من نوع من الفراشات الليلية، كما لو أن أحداً ما راح ينفض وسادة مشقوقة، فكانت تلك الفراشات تتلاـأـ في ضوء قناديل الشوارع والنوافذ وأضواء السيارات ومختلف أنواع المصايبع. كانت فراشات الليل تدور من حولنا وهي تسعى لأن تقع في لهيب الشمعة، لكن إيزولدا كانت تطردـها بعيداً عن النار بواسطة الدليل.

عادـا إلى الفندق ثمـلين بعض الشيء بعد أن تـناولا نـيـذ الكـيـنـاتـي ومشروب الغـرـابـاـ<sup>(2)</sup>. توـقـفا وـراـحـاـ يـتأـمـلـانـ النـقـشـ النـافـرـ علىـ العـمـودـ الأـكـثـرـ شهرـةـ فيـ العـالـمـ: هـاـ هـمـ المـسـطـلـعـونـ الرـوـمـانـ يـعـودـونـ وـهـمـ يـحـمـلـونـ الرـؤـوسـ المـقـطـوـعـةـ لـأـفـرـادـ مـنـ الدـاكـيـ<sup>(3)</sup>، وـهـنـاـ يـسـتـسـلـمـ الدـاسـيـانـ مـمـاـ يـضـطـرـ النساءـ مـعـ أـطـفـالـهـنـ إـلـىـ الرـحـيلـ عـنـ بـيـوـتـهـنـ، فـيـقـومـ الرـوـمـانـ بـالـنـزـولـ فـيـ تـلـكـ

---

أثارـتـ شخصـيـةـ شـيـشـرونـ الـكـثـيرـ مـنـ الجـدـلـ وـالـتـقـوـيـمـاتـ الـمـتـضـارـبـةـ وـخـاصـةـ فـيـ الجـانـبـ السـيـاسـيـ مـنـ حـيـاتـهـ، فـهـوـ تـارـةـ مـتـقـفـ مـضـيـعـ فـيـ وـسـطـ سـيـءـ، وـتـارـةـ أـخـرىـ ثـرـيـ إـيطـالـيـ صـادـعـ فـيـ رـوـمـاـ، وـثـالـثـةـ اـنـتـهـازـيـ مـتـقـلـبـ وـأـدـاةـ طـيـعـةـ فـيـ يـدـ الـمـلـكـيـةـ وـ«ـمـتـمـلـقـ لـبـومـبيـ ثـمـ سـيـزـارـ»ـ بـحـسـبـ ثـيـوـدـورـ مـوـمـسـيـنـ وـجـيـرـوـمـ كـارـكـوـبـيـنـوـ، وـلـكـهـ أـيـضاـ بـحـسـبـ بـيـرـ كـريـمـالـ الجـسـرـ الـذـيـ عـبـرـهـ وـصـلـنـاـ جـانـبـ مـنـ الـفـلـسـفـةـ الـيـونـانـيـةـ. المـتـرـجمـ

عمـودـ أـثـرـيـ روـمـانـيـ يـضـعـ فـيـ رـوـمـاـ، إـيطـالـيـاـ. يـمـثـلـ الـعـمـودـ اـنـتـصـارـ الإـمـپـاطـورـ الرـوـمـانـيـ تـراجـانـ فـيـ الـحـرـوـبـ التـرـاجـانـيـةـ الدـاقـيـةـ. يـغلـبـ الـظـنـ أـنـ الـعـمـودـ تمـ تـنـفـيـذـهـ تـحـتـ إـشـرافـ الـمـعـمـارـيـ أـبـولـوـدـورـ بـدـمـشـقـ بـأـمـرـ مـباـشـرـ مـنـ مـجـلـسـ الشـيـوخـ الرـوـمـانـيـ، وـيـقـعـ فـيـ مـيـدانـ تـراجـانـ. المـتـرـجمـ

-2 Grappa مشـرـوبـ كـحـوليـ يـتمـ الـحـصـولـ عـلـيـهـ عـنـ طـرـيقـ تـقـطـيرـ مـسـتـخلـصـاتـ العنـبـ بـماـ فـيـ ذـلـكـ الـجـذـورـ وـالـسـيـقـانـ.. المـتـرـجمـ

-3 أوـ الدـاسـيـ Dacians مـجـمـوعـةـ مـنـ قـبـائلـ التـرـاقـيـ تـقـعـ الـمـنـطـقـةـ الـوـسـطـيـ لـمـسـتوـنـةـ دـاتـشـيـانـ شـمـالـ نـهـرـ الدـانـوـبـ السـفـلـيـ (ـفـيـ أـرـاضـيـ روـمـانـيـ وـمـوـلـدـوـفـاـ الـحـدـيـثـةـ). وـيـعـتـرـ هـؤـلـاءـ مـتـمـتـينـ إـلـىـ الـإـغـرـيقـ الـقـدـماءـ مـنـ الـقـرنـ الـخـامـسـ قـبـلـ الـمـيـلـادـ. المـتـرـجمـ

البيوت مع قطعائهم، ويحدث أن أبناء الداكي يتحرون لكي لا يستسلموا للروماني، وهناك يقبل الجنود يد القائد تراجان، وفي مكان أعلى تقوم النساء من الداسيان بحرق جثث الجنود الرومان المقتولين، وتعلق فوق رؤوسهن رؤوس الجنود الرومان على رماح ثبّتت على جدران المنشآت الداسيانية، وإلى الأعلى أكثر يقوم الرومان بقطع الأشجار - ومن جديد ثمة رؤوس لأشخاص ما في أسنة الرماح - وهكذا إلى ما لا نهاية نحو الأعلى بشكل حلزوني - كرمز للحركة وللتقدم، وفي القمة ثمة شخص عجوز - تجمد، يخشى أن يتحرك وأن يفقد توازنه، من دون أن يتمكن بأي شكل من أن يفهم كيف وجد نفسه هنا، على ذلك العلو - المهم لا ينظر نحو الأسفل، وإنما فسوف يشعر بالدور.

كانت المدينة بأكملها مغمورة بالفراشات الليلية - حيث راحت تدور حول المصابيح، وتتساقط قتيلة على الرصيف وهي ما زالت ترفرف. كان الفتياًن يقومون بحرقها بالولايات. هكذا كان المترجم في طفولته يحرق بأعواد الثقاب تراكمات من زغب أشجار الحور. كانت موسكو بالكامل تتغطى بالزغب المتتساقط من أشجار الحور مثل هطول الثلوج. وأما هؤلاء هنا فقد كانوا يحرقون ثلجاً مؤلفاً من الفراشات.

كان الجو ساخناً حتى في أوقات الليل. عندما صعدا إلى غرفتهما في الفندق، شعراً بأنها خانقة. ففتحت إيزولدا الحنفيّة وتركت الماء البارد يتتدفق بقوة في المغسلة، ثم وضع تخته يديها ومرفقها. احتضنها المترجم ثم حملها وذهب بها عبر كامل الغرفة إلى السرير - راحت تجذبه إليها بيدِين مبللتين باردين. استمر الماء المتتدفق من الحنفيّة في صخيه. همست له إيزولدا:

اذهب وأغلق الماء!  
لكن المترجم أجابها:  
إنه المطر يهطل خلف النافذة.

كان ذلك أول يوم في روما وقد راح المترجم ينظر طوال الوقت إلى هذه المرأة، العادية والمألوفة وفي الوقت نفسه المجهولة بالنسبة إليه، وكان يقول

في نفسه إنّ هذه هي السعادة: أن يسمع كيف راحت أسنانها تصطلك على الكأس عندما تشرب، وأن يرى كيف راحت بقعة رطبة تسيل على نهدها عندما قامت بذلك الماء على نفسها. أن يشمّ عطرها. كانت تعقب في ذلك اليوم برائحة صندل جديد - برائحة المتجر، والجلود، والغراء، برائحة العرق والعطور. أن يتمدد على سرير الفندق وأن يرى من خلال الباب المشقوق عبر المرأة كيف أنها تارة تمشي بلا تنورة وتارة من دون بلوزة. أن ينظر كيف تصلح وضعية حمالة الصدر. أن يشعر بوجنتيه وبراحتي كفيه تلك الإبر الحادة الدقيقة - كانت قد حلقت الشعر على ساقيها قبل بضعة أيام، وها هو الشعر قد نما الآن وأصبح واخزاً. وعندما استلقت إيزولدا في البانيو وفتحت ماء الرشاش، فقد خيل له كما لو أنها ارتدت الماء.

قبل أن يغفوا في تلك الليلة قاما بعضهما بتسليك ساقيه بعض وقد تعبتا على مدى يوم كامل. ناما بطريقة «الولد أو الشّب»<sup>(١)</sup>، وهما يستندان إلى مرفقيهما. راح المترجم يدهن عقبي قدميهما والنبات على ساقيهما - آثار التداخل الجراحي بعد حادث السير الذي تعرضت له، بكريم مستخلص من الخزامي، في حين أنّ إيزولدا راحت تروي له كيف أنها في طفولتها، عندما كانت تسافر مع والديها في سيارة عبر الصحراء الإيرانية الحارقة، طلبت من أمّها: «أجلبي لي، يا ماما، بعض البرودة!» - فقامت الأم بمدّ يدها عبر نافذة السيارة وأبقتها على هذا النحو لمدة دقيقة ثم حملت حفنة من الهواء الخارججي إلى داخل السيارة الحارق ومسحت لها رقبتها بها.

رمت إيزولدا اللحاف عنها أثناء النوم، لمع جلدتها المتعرق في ضوء القمر. ومن جديد راح المترجم يفكّر في سرّه كم يتطلب الأمر الكثير لكي يشعر المرء بأنه سعيد: أن يكون ثملاً بسبب مشروب الغراباً، وبسبب روما، بسبب العشق والهلال المتلائِئ خلف النافذة وقد تدلّى كما لو أنه ذيل لسلحفاة اختبأت خلف سحابة كما لو أنها ورقة لشجرة، أن يغفو إلى جانب هذه المرأة ويدرك أنه سيكون الصباح في يوم غد، وأن الصباح في

---

١- على طريقة ورقة اللعب بالشدة «الشب» أو «الولد» - حيث إنّ له رأسين. أي ناما ورأس كل منهما في اتجاه مناقض للثاني. المترجم

روما عندما تشعر بقوّة بأن الوقت قصير جدًا وأنه لا يجوز أن تبدد ولو لحظة واحدة، وإنما يجب الذهاب بأقصى سرعة والغوص في تلك المدينة.

استيقظ المترجم في تلك الليلة لأن البعض كان يلسعه. لم يتمكن من النوم بسبب الحكة التي تسببها لساعات البعض وكان طول الوقت يحك مكان اللساعات. أشعل الضوء وراح يضرب البعض على الحائط بواسطة كتاب الدليل ليترك بعد ذلك بقى من الدم على الجدار. لم يستطع أن يغفو بعد ذلك. التقط اللحاف عن الأرضية ولف نفسه ثم استند إلى حافة النافذة وقد مدد جسمه باتجاه شارع روما المتلائِي الذي كان ما يزال نائمًا وخاليًا وقد بات أقرب إلى البرودة. هطل المطر من جديد عند الفجر، وراح كل شيء يلمع من جديد، كما راحت تنعكس على الرصيف الحجري المبلل أضواء المصايبع ولوحات الدعاية، ولافتة الحانة وواجهات المتاجر. راح كل شيء يعقب لدرجة أنه حتى حافة النافذة وجدران البيت بدأت تصدر رائحة خاصة بمدينة روما.

راح المترجم يفكّر بشأن تريستان<sup>(١)</sup>.

فقد كان تريستان يعرف إيزولدا قبل المترجم. كانا يحبان بعضهما بعضاً وكانا يسافران أيضاً أثناء العطل إلى إيطاليا.

وفي إحدى المرات كانا مسافرين في رحلة أثناء العطلة وتعرضاً لحادث سير. في مكان ما بين أورفيتو وتودي. كانوا يسافران في طريق متعرج أعلى نهر التيير<sup>(٢)</sup>. وقد خرجت سيارة شاحنة بمواجهةهما من وراء المنعطف.

كان تريستان يقود السيارة. قُتل على الفور. ذلك أن مقود السيارة ضغطه في صدره.

أما إيزولدا فقد نجت. وكانت قد أصبت بستة عشر كسرًا. بعد مضي بضع سنوات تزوجت المترجم، وهذا هما الآن يحبان بعضهما بعضاً ويسافران أثناء العطلة إلى إيطاليا.

1- تريستان وإيزولدا - شخصيتان أسطوريتان في روایات الفروسية من العصور الوسطى...  
المترجم

2- ثانية أطول نهر في إيطاليا، يبدأ في سلسلة جبال توسكان ويتدفق جنوباً لمسافة 405 كم، في نهايته يعبر مدينة روما قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط في منطقة أوستيا. كان بعد وسيلة تجارة مهمة في العهود الرومانية. المترجم

وهكذا جلس المترجم ذات مرة إلى كمبيوتره الشخصي لكي يقوم بترجمة نص ما. ففي تلك الفترة كان الكمبيوتر مشتركاً بينهما. فجأة رأى المترجم وهو يتصفح آخر المجلدات التي تم فتحها، تسمية غريبة نوعاً ما. وقد كانت إيزولدا قد عملت مع هذا الملف قبل مدة. كان المترجم يعرف أنه لا يجوز قراءة رسائل وملفات الآخرين. ولكنه فتح المجلد. تبين أنه ملف يوميات إيزولدا. في البداية أراد المترجم أن يغلق الملف قبل أن يقرأ فيه شيئاً. لكنه بدأ يقرأ.

لقد كان ملف يوميات غريباً. لم تكن إيزولدا تزوده باللاحظات وبالمعلومات كل يوم ولا كل شهر. وإنما فقط عندما كانت تشعر بالسوء. راح المترجم يقرأ كتاباتها لكي يعرف ما الذي تقوم بتدوينه خفيةً عنه، عن الشخص الذي تشاشه حياتها.

عندما كانت الأمور عندهما رائعة وعلى أحسن ما يرام، لم تكن تكتب شيئاً، كما لو أن تلك الأيام لم تكن في حقيقة الأمر. ولكن عندما أصبح الوضع صعباً، وراحت تعاني من نوبات اختناق بسبب حياتها المشتركة مع المترجم - بدأت تجلس إلى الكمبيوتر. تفتح ذلك الملف وتعبر عمّا يفعل في داخلها. كانت المشاجرات بينهما التي نسيها المترجم تماماً، تستمر في العيش من خلال قيامها بتدوين الخصومات وهي لا تزال طازجة، قبل أن تبرد ويلاشى الألم الناتج عنها وقبل أن تتم المسامحة بشأنها.

والأمر الغريب أيضاً هو أنها كانت توجه خطابها في يومياتها تلك إلى تريستان.

كانت تمنح الميت في تلك الخطابات كلّ الحب والمودة، في حين أنها تصب جام غضبها على المترجم وتعرب عن مرارتها وقهرها بسيبه. كانت تدون الكلمات التي تبادلاها أثناء المشاجرة لكي يسيئا بعضهما إلى بعض ولكي يهينا بعضهما، ولكنها لم تكن تسجّل الكلمات التي كانا يهمسان بها بعضهما البعض بعد ذلك.

قرر المترجم ألا يأتي على ذكر أي شيء لإيزولدا وألا يقرأ بعد اليوم أبداً شيئاً لا يتعلّق به وغير مقصود به.

عندما قاما بشراء بطاقات الطائرة إلى روما وحجز مكان في فندق، أرادت إيزولدا أن يتزلا في هذا الفندق بالتحديد لسبب ما، وذلك على الرغم من أن الفندق لم يكن يتميز بشيء مهم. وهكذا وفي الوقت الذي كان المترجم يمدد جسمه عبر النافذة المطلة على شارع روما الماطر ليلاً، خطر بياله فجأة أنها إنما كانت مع تريستان في هذا الفندق على وجه التحديد. وهنا أحсс في قراره نفسه بالدهشة: كيف أمكنه أن تخطر بياله مثل هذه الفكرة الغبية.

استلقى المترجم لكي ينام ولكنه لم يتمكن من أن يغفو خلال مدة طويلة وذلك لأنه كان طوال الوقت يفكر بتريستان، إذ إن إيزولدا كانت برفقته في روما. أعاد استذكار ما عاشاه خلال اليوم وفجأة خطر بياله أنها كانت تطرق الكأس بهذه الطريقة مع تريستان وهي تقول: «come cento giorni questo! trattoria -. وربما جلسا بنفس الطريقة أيضاً في نفس تلك الحانة - ما الذي دعاها لأن تأتي به إلى هنا؟ - وكان المطر أيضاً يهطل في الشارع، وأنهما أيضاً راحا يتظاران وجة اللازانيا وهما يستمتعان بشرب نيد كانياتي الذي جُلب لهما في مثل هاتين الكأسين تماماً.

راحت تتداعى إلى عقله أشياء تافهة وتفاصيل لم يصبح مغزاها مكشوفاً له سوى الآن. لقد وصلا إلى فولميتشانو، وكان يجب عليهما أن يشتريا تذكرتين بالقطار إلى روما. كانت هناك صناديق آلية يمكن شراء التذكرة عن طريقها بواسطة البطاقة الائتمانية. قالت له إيزولدا آنذاك:

لا داعي، ربما ابتلع الصندوق البطاقة! سبق أن حدث معي مثل ذلك. كان طابور طويل يقف على شباك التذاكر، ومع ذلك دفع المترجم ببطاقته الائتمانية في الآلة - وحدث ما توقعته إيزولدا: لم يحصل على تذكرة ولم تخرج البطاقة. Benvenuto all' Italia<sup>(1)</sup> بقي المترجم قرب الآلة، أما إيزولدا فذهبت تبحث عنمن يمكنه أن يساعدهما. كانت تتحدث الإيطالية قليلاً. لم يكن بوسع أولئك الذين كانوا يجلسون خلف الكوات الزجاجية أن يساعدوهما في شيء. ومن كان قادرًا أن يساعدهما لم يكن في مكانه في تلك اللحظة. ولذلك بقيا واقفين قرب الآلة ويتظاران أمراً ما. بدأت إيزولدا

---

- إيطاليا ترحب بكم! (لغة إيطالية). المؤلف

تنزعج وتشعر بالضيق، فراح المترجم يهدئها أن هذه مجرد أمور تافهة وأن كل شيء سوف يُحلّ، وأنه ينوي الاتصال لكي يجري إلغاء فاعلية البطاقة الائتمانية. أما إيزولدا فراحت تكرر نفس الشيء:

Gottverdlli<sup>(1)</sup>

ثم جاء أشخاص إيطاليون وقاموا بفتح الصندوق الآلي بمفتاح وحصل المترجم على بطاقة. بعد ذلك قاما بشراء تذكرة في شبكة التذاكر وركبا القطار السريع حتى تيرميني. وها هو الآن يفكّر في نفسه أن الصندوق الآلي قد فعل الشيء ذاته، بكل تأكيد، مع تريستان وابتلع البطاقة الائتمانية.

كانت روما من قبل تستقبل الزوار عند المدخل الرئيسي – Porta del Popolo، أما اليوم فهي تستقبلهم من الباب الخلفي. تجرجر قدميك وأغراضك حتى محطة القطارات عبر الضواحي القدرة. راح المترجم طوال الطريق يحدّق من خلال النافذة وهم يقتربون من تيرميني، متسائلاً ومتن سنصل إلى روما، لكنهم كانوا يمرون عبر أفنية مقرفة ومشوّهة وغير لطيفة. وقد كان مطعم من سلسلة «مكدونالد» أول شيء شاهده حين خرجوا من القطار. Ecco Roma?<sup>(2)</sup> وراحت إيزولدا تواسيه: لكي تبدأ روما يجب الدخول إلى أول حانة وأن تشرب واقفاً أول فنجان قهوة إسبريسو. دخلا إلى مقهى طويل وضيق حيث كانت فيه، كما لو في كهف، آلة كهربائية لطحن القهوة تطلق أصواتاً كالشخير، شربا واقفين أول فنجان قهوة إسبريسو وقد بدا وكأنه عقار سحري، وإذا برومَا تبدأ بالفعل. وها هو المترجم الآن راح يظن أن تريستان هو الذي قال لها ذات يوم: «لكي تبدأ روما، يجب الدخول إلى الحانة وتناول أول فنجان قهوة إسبريسو وقوفاً».

بدأت يومئذ، في روما، بعد تلك الليلة تتكتشف فجأة أشياء بسيطة لم تكن تخطر على باله من قبل. على سبيل المثال، كانت إيزولدا تحب أن يقوم أحدهم بتدليل جلدة رأسها - كان هذا يخفّف الألم عنها أو في حال أنها لم تكن تريد أن تستيقظ ولكن كان لا بد لها أن تنهض باكراً. على الأرجح، كان الدم يتدفق

-1- كلمة ألمانية - وتعني فقط! المؤلف

-2- هل هذه هي روما (بالإيطالية). المؤلف

إلى الرأس وهذا بدوره يؤدي إلى نوع من الصحو واليقظة الخاصة بالفعل. والمترجم أيضاً كان يروق له أن تقوم إيزو لدا منذ الصباح الباكر بالضغط ببرؤوس أصابعها على رأسه، وبشكل تدريجي في البداية، ومن ثم تزيد شيئاً فشيئاً. وها هما انتظرا القطار مطولاً في مترو الأنفاق، المخانق والممتلئ بالعرق، ما جعل إيزو لدا تشعر بالصداع. جلست على المقعد وراح المترجم بذلك لها رأسها ببرؤوس أصابعه. أغمضت عينيها وراحت تئن وتهتمم. سأله المترجم:

هل هو الذي ابتكر ذلك؟

توقفت عن مهمتها وفتحت عينيها.

عمَّ تتحدث؟

اندفع في هذه اللحظة القطار داخلاً إلى المحطة وقد كان مزخرفاً بالرسوم. لم تفهم آنذاك أو أنها لم تتألم تفهماً، في حين أنَّ المترجم لم يطرح السؤال عليها مجدداً.

راحَا يتسلَّكُان في متاحف الفاتيكان ليجدا نفسيهما في معرض فني طويل وخالٍ من الزوار: عبارة عن صفوف من منحوتات بيضاء على طول الجدران. أجسام بلا حياة. أياد وأرجل ورؤوس، أثداء وبطون - كل هذه الأشياء تم العثور عليها تحت الأرض،وها هي الآن معروضة من أجل مشاهدتها والتعرّف عليها. مزهريات وتوابيت ضخمة ونقوش. ومن جديد أجساد - بلا أعين، وبلا أذرع، بلا أرجل ومخصبة. وهناك حيث يجب أن تكون الأعضاء التناسلية وضعت أوراق. وفي حال أنه لم يكن ممكناً تغطيتها - قاموا بقطعها بواسطة الإزميل. وقد قامت إيزو لدا، وبعد أن تأكّدت من أنه ليس ثمة من يراها - ولمست يدها ذلك المكان حيث لم يعد يوجد شيء - وذلك عند رجل أعمى ومتول العضلات:

يا لهم من حمقى! لماذا كانوا يكرهون الحياة إلى ذلك الحد؟

في يوم من الأيام، كانت جميع تلك التماثيل تعود إما لآلهة أو لبشر، أما الآن فقد تحولت إلى أعمدة من ملح<sup>(١)</sup>، ثم قاموا بجلبها إلى هنا. جثث من رخام.

---

1- في إشارة إلى ما جاء في الكتاب المقدس في سفر التكوين عن قوم لوط... عندما حولهم رب إلى أعمدة من ملح... المترجم

وضعوها في صفةً كما لو أنها حرس الشرف أثناء الاستقبال الرسمي في مملكة الموتى. لقد ابتكرت إيزولدا طريقة لإعادتهم إلى الحياة: راحت تمنح كلاً منهم قصة حياة. «هذا، مثلاً، كان يؤمن بالخرافات ولذلك كان يقوم بارتداء الفردة اليسرى من الحذاء أولاً، ومن ثم الفردة اليمنى. قام الطبيب بوصف حليب الحمير لمعالجة مرض صدر ي عنده - فكان يشرب كأساً كبيرة من ذلك الحليب في الساعة السادسة صباحاً. كما كان الوبر قد نما على أردافه». وهكذا راحت مع المترجم يختربان حكاية لكلٍ واحد منهم. وهذا، حسب النسخة الرومانية عن الأصل الإغريقي المفقود، كان يحب الغناء، وعندما كان يعني كانت خياشيمه تنتفع. ففي أحد الأيام كان راجعاً إلى بيته مسروراً وقد راح يعني، فقال له شخص صادفه في طريقه أنه ذاهب إلى بيته من دون أن يعرف أنَّ البيت احترق، وأن كل شيء قد ضاع بما في ذلك الزوجة. وقد كانت أمَّه قد علمته في طفولته بأن يستخدم نبات الأرقطيون وأوراقه، وأنه يجب عليه وهو يقصد التواليت أن يقطف الأوراق في طريقه إلى هناك. وهذه، أيضاً نقلًا عن النسخة الرومانية عن الأصل اليوناني المفقود، كانت مغفرة برجل متزوج وكانت تخاف أن تكون سعيدة معه، لذلك لم تكن تتمتع بسعادةها، لأنها كانت تعرف أنه سوف يكون عليها أن تدفع ثمن هذه السعادة، وعندما أصيب طفله بمرض ما أدركت على الفور السبب. وهذا الجندي، ومن جديد النسخة الرومانية، عاد من الحرب إلى بيته سالماً - ففرحت زوجته لأنه كان حياً، وحصل الأطفال على الحلوي كهدية. كانت أسنانه تبدو كما لو أنه يستطيع أن يقضم مسماراً من حديد. وقد اقتلع ذات يوم ظفره عن إصبعه - راح الظفر ينمو بحيث أن بقعة سوداء ارتفعت للأعلى. وفجأة راح يخمن أنَّ أمراً حسناً سوف يحدث عندما ستبلغ البقعة السوداء حدود الظفر. لكن البقعة لم تبلغ حد الظفر، لم يسعفها الوقت.

وهكذا راحا يسيران وهما ينشان الموتى. وها هو المترجم الآن تحت سيطرة هاجس أنَّ إيزولدا كانت قد فعلت ذلك من قبل مع تريستان، وأنَّ هذه التسلية كان قد ابتكرها تريستان بالضبط حينذاك، وأنهما كانوا يسيران في هذا المعرض الشاسع جداً المزدحم بمنحوتات ميتة، محاضنين بعضهما البعض مثلما يفعلان هما الآن، وقد راحا يمنحان الحياة لحطام التمايل الرخامية.

كما كان هناك تابوت حجري آخر - يضم زوجاً وزوجة، حيث كانا يستلقيان على طريقة «الولد» في أوراق اللعب وقد استند كل واحد منهما إلى مرفقه. كانت لديها تسمية مع جديات صغيرة، أما هو فكانت لديه لحية قصيرة مقصوصة بعناية. كانوا ينظران إلى بعضهما مع ابتسامة. كانوا قد قاما للتو بتسلیک أحد هما رجلي الآخر بعدما أصابهما الإرهاق والتعب خلال الحياة - سوف يغفوان الآن ليستيقظا معاً.

كانت جميع المنحوتات تقريباً نسخة عن تمثيل أصلية مفقودة. بما في ذلك تمثال أبولون بيليفدير<sup>(١)</sup>. علمًا أنها كانت بالنسبة للمترجم نسخة عن أبولون الذي كان واقفاً في الثلج قرب مبنى الإذاعة والتلفزيون في أوستانكينو والذي راح يرمي الناس بكرات من الثلج.  
راح المترجم يروي لإيزولدا عن غالبيترا، وعن أبولون في أوستانكينو، فراحت تضحك لذلك.

كانت غالبيترا تذهب بتلاميذ صفتها إلى المتحف كل شهر، وأكثر ما كانت تأخذهم إلى متحف بوشكين في شارع فولخونكا. وعندما كانوا يمرّون بمحاذاة داود<sup>(٢)</sup>، كانت الفتيات ينظرن إلى أسفل بطنه ويتهامسن ويقهرهن، وكأنَّ يشعرون بالكدر بسبب ذلك القسيب المعدني الذي تم غرزه في ظهر البطل، وذلك لكي لا يسقط، إذ كان الأمر ينطوي على خداع ما، وفضلاً عن ذلك راحت دليلة الرحلة تكرر طوال الوقت أنَّ كل ما هو في هذا المتحف - عبارة عن نسخ مقلدة.

وبالقرب من نسخة لاوكون<sup>(٣)</sup> قالت:

- 
- 1 نسخة رومانية من الرخام للأصل الإغريقي من البرونز من تصميم النحات الإغريقي ليشار - النحات لدى بلاط ألكساندر المقدوني.. المترجم
  - 2 داؤد أو داود أو دافيد) معناه «محبوب»، ثاني ملك على مملكة إسرائيل الموحدة (1011 ق.م. - 971 ق.م.) وأحد أنبياءبني إسرائيل بحسب المعتقد الإسلامي، إلا أنه في اليهودية يعتبر ملكاً وليسنبياً. استجابة لرغبة داؤد في بناء معبد أو بيت لله، وعد الله داؤد أن عائلته الملكية سوف تعيش للأبد. ولذلك، يؤمن اليهود أن المسيح اليهودي سوف يكون من نسل داؤد المباشر، ويؤمن المسيحيون أن نسل يسوع يعود إلى داؤد لأن مريم من نسل داؤد. المترجم
  - 3 ابن Acoetes، شخصية في الأساطير اليونانية والرومانية ودوره الملحمي.

انظروا كم نجح النحات اليوناني القديم في تصوير المعاناة على وجه الأب، الذي رأى كيف قُتِل ولداه أمام عينيه!

أما عن النسخة الأصلية فقالت إنها موجودة في إيطاليا، في متحف الفاتيكان، وهنا تذكر المترجم كيف أنّ غالبيتها تنهدت وقالت:

كم أتمنى أن ألقى ولو نظرة عليه في يوم من الأيام...

وعلى إثر سؤال مرشد الرحلة عما إذا كانت لديهم أسئلة، سأل الذي سيصبح مترجماً فيما بعد، وهو يرتدي بدلة مدرسية تلمع عند الركبتين والمرفقين: ولماذا يعرضون هنا نسخ التقليد فقط؟ ففي المتحف يجب أن يكون ما

هو حقيقي فقط.

أجابته المرشدة السياحية موضحة أنَّ كل ما هو حقيقي موجود في إيطاليا فقط، وأنَّ هذه المنحوتات - نسخ دقيقة عنها، أي إنها نفس تلك الأصلية، ثم أكملت رحلتها مع مجموعة التلاميذ.

وها هو المترجم الآن في روما، ومن جديد كانت جميع التماثيل مجرد نسخ عن الأصلية فحسب - بما في ذلك تلك التماثيل الموجودة في متحف الفاتيكان، وتماثيل الملائكة على Ponte San Angelo<sup>(1)</sup>، وأيضاً ماركوس أوريليوس<sup>(2)</sup> في تلّة كابيتولين<sup>(3)</sup>، وكذلك المسلة المصرية أمام كنيسة Santa Trinita dei Monti<sup>(4)</sup>، أما ما هو أصيل فكان يجب الذهاب والبحث عنه في مكان ما من جديد.

---

كان كاهن طروادة تعرض للهجوم، مع ولديه، على يد الشعوب العملاقة التي أرسلتها الآلهة. وقد ألهمت حكاية Laocoön الكثير من الفنانين، في العصور القديمة والحديثة على حد سواء. المترجم

- 1 جسر الملائكة المقدس - في اللغة الإيطالية. المؤلف

- 2 ماركوس أوريليوس أنطونينوس أوغسطس (121-180) هو فيلسوف روائي والإمبراطور الروماني السادس عشر (161-180) وخامس الأباطرة الأنطونيين الرومان. وهو أبو الإمبراطور كومودوس. كان أحد آخر «خمسة أباطرة جيدين» حكموا الإمبراطورية الرومانية من 96 إلى 180م، كما أنه يُعتبر من أهم وأبرز الفلاسفة الرواقيين. المترجم

- 3 هضبة كابيتولين واحدة من أشهر وأعلى هضبات روما السبع. فيها معبد كابيتوليوم الذي عبدت فيه آلهة ثالوث كابيتولين. المترجم

- 4 كنيسة الثالوث المقدس على الجبل. المؤلف.

حتى أنَّ نهر التiber بدا كأنه تقليل فاشل لنهر آخر حقيقي اختلف وتناثر. راح المترجم مع إيزولدا ينظران من فوق الجسر إلى المياه القاتمة الميتة، وإلى الصفاف المنخفضة وقد غطّتها طبقة من الوحل الجاف والمتشقق، ولم يكن العقل ليقبل أنَّ هذا السيل الهاادر الذي يحمل الزبد القذر - هو نفس ذلك التiber الذي ساعد الصليب ذات يوم مشمس من شهر أكتوبر / تشرين الأول قسطنطين<sup>(1)</sup> بأنْ يُغرِّق فيه الوثنى وعابد الأصنام ماكسيتيموس<sup>(2)</sup>، ما أدى إلى جعل العالم بمجمله مسيحيًا بعد ذلك. أفي هذه الموحلة؟ حتى إنَّ المترجم نفسه بدا وكأنه تحول إلى نسخة غير أصلية عن أصل مفقود. وقد فرأ في الدليل السياحي، وفي الفصل الذي يتحدث عن قصر لاتيران<sup>(3)</sup>، عن السُّلْم المقدَّس الذي يقود من قصر بيلاطس البنطي<sup>(4)</sup> وعن

- 
- 1 أي قسطنطين الأول الذي انتصر على ماكسيتيموس في معركة جسر ميلفيو وأصبح بعد ذلك حاكماً مطلقاً على القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية. تكمن أهمية الحدث في أنَّ قسطنطين أعلن المسيحية بعد ذلك ديانة رسمية للإمبراطورية الرومانية. المترجم المقصود ماركوس أوريليوس فاليريوس مكستيوس أغسطس - (حوالي 278 م - 312 م) هو إمبراطور الدولة الرومانية بين عامي 306 و 312 م، وهو ابن الإمبراطور السابق مكسيميانيوس وزوج ابنة الإمبراطور غاليريוס. المترجم
  - 2 قصر لاتيران أو رسمياً القصر الرسولي للاتيران هو قصر أثري من الإمبراطورية الرومانية وأصبح لاحقاً مقر إقامة البابا. متاخم لكاتدرائية القديس يوحنا اللاتراني في روما في إيطاليا. المترجم
  - 3 بيلاطس البنطي (باللاتينية: Pontius Pilatus). ولد في 10 قبل الميلاد. كان الحاكم الروماني لمقاطعة «يهودا» - التي تعرف كذلك باسم أيدوديا - بين عامي 26 إلى 36. وحسب ما هو مكتوب في الأنجليل الأربع المعتمدة من قبل الكنيسة، فإنه قد تولى محاكمة المسيح، وأصدر الحكم بصلبه. كان بيلاطس البنطي واليًا على ولاية أيدوديا في عهد طيباريوس قيصر الإمبراطور الروماني، وكان بيلاطس شخصية ذات مكانة، حيث كان في العرس الملكي الخاص بالقيصر، وقد اختير ليكون واليًا على اليهودية سنة 26 م. وقد أمضى في منصبه هذا حوالي عشرة أعوام، وخلال هذه الفترة تمت محاكمة المسيح تليية لرغبة اليهود. وقد اتسم عهد بيلاطس البنطي بالكثير من الثورات اليهودية وقد تلطخت يدها بالكثير من الدماء. لم يحبه اليهود قط وقد أصدر الحكم بصلب المسيح ليس عن قناعة بذنبه، بل كما تخبرنا الأنجليل، خوفاً من اليهود الذين هددوا برفع الأمر إلى الإمبراطور واتهام بيلاطس بالخيانة بسبب تبرئته المسيح الذي صرَّح بأنه ملك وهي تهمة سياسية خطيرة تحت حكم الرومان. المترجم

رأسي بطرس وبولس<sup>(1)</sup> المحفوظين في الكنيسة البابوية. ذهبا إلى لاتيران. هبطا إلى مترو الأنفاق، حيث كان الجو خانقاً جدًا، فقالت إيزولدا إنها تشعر بالإعياء وأنه كان من الأفضل لو أنهما ببساطة راحا يتزهان في مكان ما من الحديقة – فقد كانوا في اليوم السابق في Villa Borghese<sup>(2)</sup>، وقد عثرا في أحد الممرات المحاطة بالأشجار على مقعد غير مشغول، في مكان ما خلف الملعب، فتمدد المترجم على المقعد الخشبي ووضع رأسه على فخذيها وقد دفن خده في بطونها اللين. راحت إيزولدا تداعب شعره. كان ثمة رياح، ما جعل ظلال الأغصان تتراکض على وجهها، وعلى كتفيها العاريتين، وعلى العشب والدرب الرملي، كما راحت تجري على رخام التمايل. كان المترجم مستلقياً وقد راح يقرأ بصوت مسموع من الدليل السياحي عن قوس ما للنصر: قام أحد الأباطرة بسرقة التمايل ولوحات من النحت النافر لأجل هذا القوس عن قوس نصر يعود لإمبراطور آخر.

قالت إيزولدا:

انظر، هوذا قوس النصر!

كانت تقف هناك أشجار صنوبر وقد التحمت بعضها ببعض، وكانت السماء تظهر تحت إبطيها.

هذا كان في اليوم السابق، أما الآن، في مترو الأنفاق، فقد سألته إيزولدا: هل تريد من كلّ بدّ أن تلقي نظرةً على ذلك السلم وعلى تلك الرؤوس؟

نعم.

---

- المقصد سمعان بطرس أحد التلاميذ الاثني عشر ويحتلّ مكانة بارزة في أناجيل العهد الجديد وسفر أعمال الرسل... وبولس الطرسوسي ويعرف عند المسيحيين بأنه بولس الرسول أو القديس بولس، أحد قادة الجيل المسيحي الأول وينظر إليه البعض على أنه ثاني أهم شخصية في تاريخ المسيحية بعد يسوع نفسه. يعرف من قبل المسيحيين برسول الأمم.. المترجم

- المقصد حدائق فيلا بورغيري (بالإيطالية: Villa Borghese) هي حديقة طبيعية واسعة على التصميم الطبيعي الإنكليزي للحدائق في روما، تضم عدداً من المباني والمتاحف مثل غاليريا بورغيري. هي ثالث أكبر حديقة عامة في روما بمساحة 80 هكتاراً، بعد حديقة فيلا دوريا بامييلي. المترجم

هل تعتقد أنها حقيقة؟

أنا أريد أن أتحقق من ذلك.

دخل إلی عربة المترو المزخرفة بالرسوم، الخانقة والمكتظة بالركاب.

اثنان سفههما في عربة القطار، راحت إيزولدا تخبره أنهم في المدرسة كانوا يدرسون مادة التربية الدينية وأنهم لم يكونوا يطيقون ذلك. في حين أنّ المترجم أخبر إيزولدا كيف أنه كانت لديهم في المدرسة حصص في مادة الإلحاد والدعابة المضادة للدين. وأنّ غالبيتارا نفسها كانت تعطيهم تلك ال دروس. كان المترجم يعرف منذ الطفولة أنه لا يوجد رب، ولذلك كان من الضروري جداً بالنسبة إلى ذلك التلميذ الذي يعاني من حبّ الشباب ومن الشعرانية المبكرة، ومن فقدان الحب ومن رهاب الموت، أن يعثر على رب. أو على شيء ما شبيه أو قريب. وهكذا كان تلامذة الصف يشعرون بملل شديد، في حين أنّ غالبيتارا راحت تكرر بلا توقف أنّ ربّ اخترعه رجال الكهنوت، وذلك لكي يصبح من السهل عليهم أن يخدعوا وأن يقنعوا الناس الأغبياء والسلّاج، وأنّهم قاموا باختلاف فكرة نار جهنم لكي يكون بإمكانهم أن يرتكبوا هم الآثام، ولكنهم لا يسمحون للأخرين بفعل ذلك، وغير ذلك مما كان يجب أن يقال أثناء تلك ال دروس. «لا يمكن أن يؤمن بوجود الله سوى العجائز - كانت تقول غالبيتارا - والمسيحية - ديانة العبيد والمتبحرين. لا توجد أية حياة في الآخرة ولا يمكن أن توجد - كل حيٌ سوف يموت، ومن المستحيل أن يكون ثمة أي بعث أو قيامة. إنه منطق بسيط: «إذا كان ثمة رب، فهذا يعني أنه ليس ثمة موت، وفي حال كان ثمة موت، فهذا يعني أنه لا يوجد رب». كانت إيزولدا تضحك وتقول إنه كان يجري إقناعهم خلال دروس الديانة بأنّ ربّ موجود، وأنهم أيضاً كانوا يعانون من ضجر شديد.

وها هو المترجم يقف مع إيزولدا أمام مبني كُتب عليه: «Sancta<sup>(1)</sup>. دخلا. هناك في الأسفل، إلى اليسار من المدخل، كان

- قدس الأقداس. المؤلف.

معروضاً، خلف الزجاج، نموذج لقصر بيلاتس البنطي، وكان من الممكن للمرء أن يرى أين يوجد ذلك السلم بالضبط. كانوا قد جلبوه من أورشليم إلى روما، حيث قاموا بتغطية الدرجات بألواح، وأما الأماكن التي سقط فيها دم المسيح، فقد غطوها بالزجاج. وهكذا وقف المترجم وإيزولدا وراحا يرافقان كيف أنَّ الناس يركعون على ركبهم ثم يصعدون إلى الأعلى بصعوبة. كان كُلُّ واحدٍ منهم يصعد على طريقته. البعض منهم بقفزات سريعة، متخطيَ الآخرين. بينما كان آخرون يتوقفون لفترة طويلة نسبياً عند كُلِّ درجة، حيث كانوا يلتصقون بجباهم بالألواح الخشبية المصقوله والممحوَّة قليلاً، ويقبلون كُلِّ درجة من الدرجات. كانت إحدى النساء تنظر باستمرار إلى الخلف وهي تعيد ترتيب تنورتها. كما خَرَّت الذاكرة فتاة شابة معاققة، حيث كانوا يحملونها في عربة خاصة بالمعاقين ويساعدونها لكي تتمكن من السجود على ركبتيها عند الدرجة السفلية. بعد ذلك راحت تصعد إلى الأعلى بخطوات فحجاء (بساقين مقوستين). كان واضحاً أنَّ كُلَّ حركة منها إنما تقوم بها بصعوبة بالغة. ثم جاءت مجموعة من تلامذة المدارس، حيث راحوا يصعدون بصخب وببرح وهم يتدافعون ويلواثون بعضهم بعضاً بأحذيتهم الرياضية وبصنادلهم - كان الأمر يبدو كأنه يشير لديهم متعة خاصة. وبينما كان يقف مع إيزولدا أمام السلم وقد راحا يرافقان كيف أنَّ تلامذة المدرسة يتجاوزون الفتاة المعاققة، في هذه اللحظة بالضبط مسَه أحدhem من كتفه. لم يعِ الأمر أهمية في البداية - ففي كل مكان ثمة حشود من السياح، والجميع يتدافعون. ولكن أحداً ما مسَه من كتفه من جديد. استدار وإذا به يرى غالبيتارا. كانت تضع على رأسها نفس تلك القبعة من الموهر وفي نفس تلك البذلة البنفسجية اللون والمصنوعة من الصوف. حتى أنَّ سحاب جزمتها كان نصف مفتوح، وقد ارتدت فوق الجزمة خفَّا خاصاً بالمتحف. نفس تلك الشوارب، نفس ذلك البطن. أو ما ترأت على السلم:

ما بك، هي ازحف!

ثم أضافت قائلة وهي تهزَّ رأسها معاقبةً:  
لم تكن يومذاك تصدق ما أقوله لكم ...

لسبب ما أحسّ المترجم بأنه قد يكون مهمًا أن يخبر إيزولدا بذلك، لكنها لم تفهم ما قاله لها. بل سأله بدورها:  
 هل التقيّتَ مع واحدة من معارفك؟  
 اختفت غالبيتها.  
 ذهباً لكي يشاهدوا الرؤوس.

وبينما كانا يجتازان الساحة، كانت تنطلق من مكان ما موسيقى صاحبة، عبارة عن أغنية إيطالية كانت تتكرر فيها باستمرار كلمة «amore, amore»، وقد بدا الأمر غريباً بالنسبة للمترجم أنهما قد يشاهدان الرأس في هذا الوقت - أو حتى مجرد جزء من عظم، ولا فرق - من ذلك الإنسان بالتحديد الذي ذهب في فترة الحراسة الليلية الرابعة خلف يسوع عبر البحر - خرج من القارب، تخطى حافة القارب ووضع قدمه على الموجة. كانت الكاتدرائية مزدحمة بالزوار، كما في كلّ مكان، وقد راحت مكبرات الصوت تهدر باللغة اللاتينية. تسكعاً وسط الحشد، من دون أن يستطيع المترجم أن يعرف أين هو الرأس؟ قادهما تيار الزوار نحو الوراء إلى الكشك عند المدخل. سألت إيزولدا البائعة باللغة الإيطالية. أشارت تلك بإصبعها إلى إحدى البطاقات. كان ثمة مذبح على البطاقة مغطى بالكامل بالذهب وبالمرمر، مثل برج - كان المذبح أشبه برسم توضيحي في حكاية الديك الذهبي<sup>(2)</sup>. نقرت البائعة بظفرها الطويل المطلية باللون الأخضر مع نجمات متلائمة على البطاقة وأشارت إلى الأعلى، بمعنى أن اذهبنا إلى المذبح وهناك انظرا نحو الأعلى.

أدرك المترجم السبب الذي منعهما من رؤية ما كانا يبحثان عنه على الفور - لم يدخلتا إلى الكاتدرائية عبر البوابة الرئيسية، وإنما عبر بوابة جانبية. أما الآن فقد راحا يشقان طريقهما عبر الحشد من ناحية المدخل الرئيسي. وفي الطابق الثاني للبرج الخرافي، كان ثمة تمثالان نصفيان معروضان

1- حب، حبٌ، حبٌ (لغة إيطالية) المؤلف.

2- المقصود «حكاية الديك الذهبي» للشاعر الروسي الكبير ألكساندر بوشكين. كتبها عام 1834. المترجم

خلف شبك ذهبي مجدول. دقق المترجم النظر، لكنه لم ير سوى شيء ما مطلي، موّرد الخدين وذي شعر أسود. انتقلت مكبرات الصوت إلى اللغة الإيطالية فأصبحت أكثر مرحاً، وانتعشت، بحيث إن كلّ ثانية كلمة كانت كلمة «amore». وفوق الحجرات المخصصة للاعتراف كانت لمبات حمراء تشتعل تارة وتارة تنطفئ. كانت ثمة مجموعة من السياح اليابانيين تحاول العبور بمحاذاتها عبر الحشد - وقد كان كُلُّ واحد منهم يمسك بعصا للتزلج مع منديل أخضر مربوط في نهايتها.

قالت إيزولدا:

هل أنت راض؟ هيا نذهب!

توقفا، قبل أن يغادرا، بالقرب من مُصلّى عند يسار المدخل - حيث كانت تجري في تلك اللحظة مراسم زفاف. راحا ينظران من خلال الشبك: كان العريسان يجلسان على كرسيين، بينما كان الكاهن واقفاً أمامهما في لباس كهنوتي أبيض وهو يقول لهما شيئاً ما. كان يبدو مسليناً وقد راح يلوّح بيديه. كان واضحاً أنه لا يجد ما يكفي من المفردات ولذلك راح، على الطريقة الإيطالية تماماً، يلوّح بيديه - يحاول أن يقنع العريسين الشابين بأن يحبّ أحدهما الآخر حتى آخر لحظة من حياتهما وأبعد من ذلك.

خرج المترجم مع إيزولدا وتناولوا الخريطة التي سارا عليها في روما. كانت الخريطة قديمة، وقد تهرأت عند الطيات لدرجة أنها انثقت فيها، فضلاً عن أنها تعرضت معهما للمطر أكثر من مرة بحيث إنها في نهاية المطاف تحولت إلى مِزق. بيد أن إيزولدا لم ترغب بشراء خريطة جديدة، بل قالت إنها اعتادت عليها. عندئذ قال المترجم في نفسه إنها سارت مع تريستان في روما حينئذ بالاعتماد على هذه الخريطة.

كانت تقوم في مكان قريب من هناك كنيسة القديس كليمونت<sup>(1)</sup>، حيث

- 1- المقصود كليمونت الأول أو إكليميس أو إكليمنس هو بابا الكاثوليكية وقديس حسب المعتقدات المسيحية، كان رابع من تولى أسقفية روما حسب قائمة بابوات الكنيسة الكاثوليكية الرسمية، وذلك بين عامي 92 و حتى 98 أو 101؛ وهو إلى جانب ذلك أول «آباء الكنيسة». المترجم

تم دفن كيريلس<sup>(1)</sup>، الذي تدعى باسمه أحرف الأبجدية التي ما كان ممكناً أن يكون في حياة المترجم أي شيء من دونها. - هيا بنا ندخل! - اقترح المترجم، فقالت له إيزولدا إن رجليها تؤلمانها وإنها لن تذهب بعد الآن إلى أي مكان.

جلسا إلى طاولة صغيرة في مقهى صغير على حافة الشارع.  
هل سبق أن كنت هناك في المرة الماضية؟  
كلا.

راح المترجم يحاول إقناعها بأن المكان ليس بعيد، وأن الوصول إلى هناك لا يحتاج لأكثر من عشر دقائق في اتجاه الكوليسيوم<sup>(2)</sup>، وهناك يمكنهما أن يستقللاً مترو الأنفاق وأن يسافرا حتى الفندق، لكن إيزولدا قالت له إن صندلها الجديد يضغط على قدميها. ثم أضافت:  
وعلى العموم أنا لا أفهم لماذا يجب علينا أن نرى جميع تلك السلالسل الملتتحمة مع بعضها، حيث ألواح منتقاة من الخشب وعظام لا يعرف أحد لمن تعود!

كان المترجم يعرف تماماً لماذا كان يتمنى الذهاب إلى هناك مهما كلف الأمر.

كان يريد أن يخلصها من تريستان - أن ينقلها من روما إلى مكان آخر.  
راح المترجم يحكى لها عن كيريلس. الأدق، أنه كان ينوي أن يحدثها عن أمر ما، لم يكن يعرفه تريستان بكل تأكيد. فجأة خُيل للمترجم أنه لا

---

1- كيرلس وميثوديوس أخوان يونانيان. كان كلاهما أكاديميين ولاهوتيين ولغوين من الطراز الرفيع. وقد لعب دوراً رائداً ورئيسياً في نشر المسيحية بين سلافي الدانوب، وبفضل تأثيرهما الكبير في التطور الديني والثقافي للشعوب السلافية عامة. أطلق عليهما لقب «رسل السلافين». وكيرلس هو الذي اخترع الأحرف الروسية أو السلافية بشكل عام. ولذلك تدعى بالأبجدية الكيريلية. المترجم

2- الكوليسيوم أو الكلوسيوم أو الكلوسيوم أو ما يسمى المدرج الفلافي - مدرج روماني عملاق يقع في وسط مدينة روما، تم تشييده إلى شرق المنتدى الروماني، ويرجع تاريخ بنائه إلى عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول فيما بين عامي 70 و72 بعد الميلاد تحت حكم الإمبراطور فلافيو فسبازيان، وتم الانتهاء منه بشكل أساسي عام 80 م. في عهد تيتوس. المترجم

يحكى لها وإنما لترستان. ها أنت، يا تريستان، لا تعرف ذلك، في حين أني أعرف ذلك. اسمع! لقد أصبحت مدينة تاوريس خيرسون التاريخية<sup>(1)</sup> تدعى سيفاستوبول، وهنا يا تريستان، يبدأ العالم من دونك. هناك، حيث قاموا بإغراق القديس الشهيد كليمانت، ببابا الفاتيكان الثالث وتلميذ المسيح بطرس، جرى إغراق الضباط خلال الحرب الأهلية<sup>(2)</sup>. قاموا بربط بعضهم في رقبتهم، وبعضهم الآخر في أرجلهم - بسلالس المرساة القديمة وبقطع من الحديد، أو حجارة ثم ألقوا بهم في الماء. وقد قرأ المترجم في إحدى المذكرات كيف أنّ الغواصين الذين نزلوا هناك إلى القاع، وجدوا أنفسهم كما لو في غابة: كانت الأجساد الميتة تريد أن تطفو، ولكن بما أنها كانت مربوطة فقد ظلت هناك في الأعماق، البعض منها بأقدام متوجهة نحو الأعلى، والبعض الآخر برؤوس متوجهة نحو الأعلى، وقد كان التيار يدفع بها جمِيعاً في جهة واحدة، كما تفعل الرياح مع الأشجار، وقد كانت مزق القميص عند أحدها تنتفخ وتتطير مثل أجنة. وهكذا مرّ كيريلس على ذلك الشاطئ وحصل من السحب على أحرف الأبجدية «الكرييلية»، تلك الحروف التي تعلم عليها المترجم. لقد روى العاصل على الأبجدية من السماء لأهالي خيرسون عن عذاب القديس كليمانت، ولكنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ذلك الأمر ولم يصدقوا كلامه. عندئذ سبع كيريلس إلى ذلك المكان وراح يبحث لكي يتمكن من إقناعهم. كان مستوى البحر قد انخفض خلال القرون التي انقضت بعد إغراق كليمانت. تراجع البحر، وتشكلت طبقة رملية ضحلة المياه. وهكذا راح كيريلس يبحث في تلك الطبقة الرملية ولم يتمكن من العثور على أي شيء. راح الأهالي يسخرون منه. لكن كيريلس استمر في حفر الرمل لأنّه لم يكن يبحث، بطبيعة الحال، عن العظام - فمن ذا الذي يحتاج إلى العظام؟ لم يكن يريد أن يعثر على

- 
- تاوريس خيرسون هي مستعمرة يونانية قديمة تأسست منذ ما يقرب من 2,500 سنة في الجزء الجنوبي الغربي من شبه جزيرة القرم في أوكرانيا، المعروف آنذاك باسم تاوريسا.  
المترجم
  - عملية إعدام جماعي قامت به السلطات البلاشفية بحق ضباط في الأسطول القيصري...  
للمزيد راجع الوثائق ومراكيز البحث. المترجم

أضلاع أو على جمجمة، وإنما كان يريد أن يعثر على برهان. بكل بساطة كان يريد أن يلمع في أشعة الشمس ضلع استحال لونه أبيض بفعل تأثير البحر والرمل. إذ كان يجب أن يكون ثمة ما يبرهن على وجود الرب، وهذا يعني أنه لا وجود للموت. كانت المعجزة وحدها قادرة أن تبرهن على ذلك. وإذا بشيء ما يلumin ويتألأ تحت أشعة الشمس - إنه ضلع. ضلع بياض يعمي البصر. راحوا يحرفون أكثر فعنروا على جمجمة وكل ما تبقى. وأكثر ما أدهش الجميع تلك الرائحة الزكية. والروائع بالمناسبة هي لغة الإله. وهكذا قام كيريليس بحمل تلك العظام الفواحة برائحة زكية إلى روما. وقد قاموا بدفعه هو ذاته مع كليمنت في نفس تلك الكنيسة. على الأرجح لأن عظامه هي أيضاً كانت تفوح برائحة زكية.

ظام مرة أخرى! - تنهدت إيزولدا - حسناً، هيا بنا نذهب!

جلسا لبعض الوقت في المقهى حيث شربا الإكسبريسو في فناجين صغيرة جداً، كما لو أنها مصنوعة من قشرة البيض، وبعد ذلك انطلقا إلى San-Clemente. أعربت إيزولدا فقط عن حاجتها لشراء بلاستر طبي من الصيدلية وهما في طريقهما إلى هناك. لكنهما لم يجدا صيدلية في طريقهما. كانت إيزولدا قد بدأت تعرج من قدمها عندما وصلا إلى المكان. كانت غاضبة ولكنها التزمت الصمت. جلست في الكنيسة على مقعد وأعلنت أنها لن تهبط إلى أي مكان تحت الأرض.

هبط المترجم وحده.

راح يتسع تحت قبب مضاءة بشكل باهت، وراح بدوره يشعر بالحنق على إيزولدا، وعلى نفسه بدرجة أكبر، لأنه قام بجرّها بسبب ما إلى هنا مع قدم مسحوجة، إذ كان بإمكانهما أن يأتيا إلى هنا في يوم غد أو بعد غد.

كان ثمة حطام في كل مكان. كما كان المكان رطباً. راحت مجموعات السياح تتجاوز المترجم، وهم في طريقهم إلى الطابق السفلي حيث راحوا ينحدرون للإلهة ميترا<sup>(1)</sup> في أقبية رطبة ومضاءة بشكل ضعيف أيضاً.

1- ميترا الإله العظيم من الأرباب المعبودة التي سبق أن عبدتها الشعوب (هندية - إيرانية) في موطنها الأصلي، ومنه تبع الديانة الزرادشتية، وهو الإله الذي حملوه معهم في حلهم

تسلق المترجم إلى هناك أيضاً، ولكنه رأى هناك نفس الشيء: حطام ورطوبة.

وأخيراً عشر في الممرات نصف المعتمة على ضريح كيريلس. كان الضريح يبدو كما لو أنه تخفى وكمن في مكان جانبي. كانت ثمة زهور من الورق تغطيها طبقة سميكة من الغبار موضوعة على شاهدة القبر. أما الجدران فكانت مليئة باللوحات التذكارية التي خلّد عليها ذكراهem حكام عفا عليهم الزمن وكانوا قد أصدروا مراسيم باللغة الكيريلية.

وفي هذه اللحظة رأى المترجم إيزولدا. فقد قررت أن تنزل إلى الأسفل مع ذلك. كانت تحمل في يدها خريطة سياحية.

ها أنت هنا، إذن! – قالت إيزولدا – أما أنا فكنت جالسة وقد رحت أقرأ. أسمع، لقد تبين أنه لا توجد هنا أية رفات لجثة كيريلس. فقد قاموا بالخلص منها ورميיתה في عام 1798 – ذلك أنها قامت هنا انتفاضة، وقد قام المتمردون برمي جميع العظام إلى الشارع. وحتى أنها لم تكن رفات البابا الشهيد كليمينت، الأدق، كان هناك اثنان من كليمينت – أحدهما قُنصل، وقد كان هذا شهيداً بالفعل ولكنه لم يكن بابا، أما الثاني فقد كان بابا ولكنه لم يكن شهيداً. ومن ثم فيما بعد، قاموا في الحكاية الخرافية بتوحيد الاثنين في شخصية واحدة. كما أنه مذكور هنا أن بطرس لم يسبق أن كان في روما على الإطلاق!

مررت بمحاذاتها مجموعة من السياح اليابانيين من دون أن تتوقف. كانوا يقودونها إلى الميتريوم<sup>(١)</sup>. كانوا يرفعون أقدامهم عالياً في الظلام حتى لا يتعرروا على الأرضية الترابية غير المستوية. راح السياح يختفون واحداً بعد آخر في ممر ضيق يقود إلى القبو التالي تحت الأرض.

وترحالهم ولقد جاء ذكره في أقدم الكتب المقدسة (ريك فيدا) باسم (ميثرا) وفي الآفستا باسم (ميثرا) بأنه الله النور حامي حمى الحقيقة وعدو الكذب والخطيئة. المترجم - Mithreum – معبد لعبادة الإلهة ميترا. كانت Mitreum عبارة عن غرفة مستطيلة ذات سقف مقبب تحت الأرض (في المدن في معظم الأحيان في قبو المنازل) أو في صخرة، تتسع لما يتراوح بين 10 و 20 شخصاً (أكبر مستوطنة معروفة تضم ما يصل إلى 80 شخصاً). في القرن الثالث في روما كان هناك حوالي 800 من معابد Mithras. المترجم

صعد المترجم مع إيزولدا إلى الأعلى، وخرجا إلى الشارع حيث كان الهواء المشبع برائحة البترzin يبدو بالنسبة إليهما منعشًا وطازجًا بعد تجربة الرطوبة تحت الأرض، ثم ذهبا إلى الكوليسيوم، ببطء ومع توقفات متكررة. كانت ترعرع من قدمها وهي تستند إلى يده.

من جديد بدأت سلسلة من الأكشاك. توقفا قرب كشك مخصص لبيع الخرائط السياحية لروما وبمختلف اللغات. راح المترجم يتصفح النسخة الروسية. أشار لإيزولدا، أن انظري كيف أنهم ينشرون مختلف السخافات، مجرد صور مع كتابات، بدلاً من أن يطبعوا أمراً لائقاً بالإنسان. فجأة قفز إليه الإيطالي البائع، غمم شيئاً ما باللغة الإيطالية، على الأرجح راح يمدح الخريطة ويقتعه بشرائها، وهو يدفع بالخريطة حرفيًا إلى يدي المترجم وينقر بإصبعه على الرسوم التوضيحية، كما لو أنه يقول له انظر كم هي لوحات رائعة وجميلة! أعاد المترجم الدليل السياحي إلى البائع ولكن حدث أن الدليل أفلت من يدي الاثنين وسقط على الأرض. اندفعت إيزولدا بسرعة نحو البائع وراحت تبتسم له. وقالت هامسة للمترجم أنه يجب عليه أيضاً أن يبتسم وأن يعتذر.

هو يريد أن يبيعني هراء، أما أنا فمن واجبي أن أبتسم له وأن أعتذر؟  
بلـ - قالت إيزولدا - بجميع الأحوال يجب عليك أن تبتسم بلطفافة.  
ولماذا يجب عليّ أن أبتسم له بتأدب؟

**مكتبة**  
[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

لأنه يجب عليك.  
لست ملزماً بأن أبتسم لأحد بتأدب.  
بل يجب عليك.

وعندما ابتعدا عن الكشك، قالت إيزولدا بلا اكتरاث:  
أنت شخص جلف.  
فأجابها من دون تفكير:  
يعكس تريستان.

توقفت إيزولدا. حذقت في عيني المترجم. كانت نظرتها مليئة بالذهول

وبالحق وبالألم. استدارت بسرعة ومشت بخطوات سريعة وهي تخرج على رجلٍ واحدة. كان يجب عليهما أن يدخلان إلى مترو الأنفاق، لكن إيزولدا ذهبت في اتجاه مغاير تماماً، في الاتجاه المعاكس، نحو لاتيران.

أراد المترجم أن يلحق بها، وأن يمسكها من يدها ويوقفها، لكنه بدلاً من ذلك استدار وذهب باتجاه الكوليسيوم. كان يمشي وهو يقنن نفسه: لا بأس، بجميع الأحوال لا يمكنهما أن يتخليا بعضهما عن بعض، ولا مفر من لقائهما، وسوف يلتقيان في الفندق مساء.

كان الرصيف ممتلئاً بمختلف الأوراق المخصصة للفَّ الأغراض، وغيرها من الأوراق، إلى جانب قناني بلاستيكية مهروسة. كان المترجم يحمل بيديه بقايا الخريطة المتهرئة. فرماها كيما كان.

### 29 أيلول من عام 1914. يوم الإثنين.

رأيتُ اليوم في حلمي كابوساً فظيعاً! حتى أنه من المخجل أن أكتب عنه. رحت أطير في ممر المدرسة الثانوية، عارية لسبب لا أعرفه.

ذهبنا منذ الصباح الباكر مع تاليا إلى آل إغناطيف. رحنا من جديد نقص ضمادات من الشاش الطبيعي ونقوم بلفها، ولكن هذه المرة لم نكن نفعل ذلك يدوياً، كما من قبل. لقد أحضروا لنا آلات خاصة لقص الضمادات، كما كانت توجد آلات خاصة للفها أيضاً، بحيث لا يبقى لنا سوى أن نرتّب الرزم يدوياً. هكذا أصبح بإمكاننا أن ننجز أكثر بكثير مما في السابق!

الطقس بارد، تارة مشمس وتارة يهطل مطر.

قرأت ما كنت قد كتبته في مثل هذا اليوم قبل عام.

### 30 أيلول من عام 1914. الثلاثاء.

استلمنت ماشا رسالة من بورييس وراحت تقرأها بصوت مسموع. لم تقرأها بأكملها بصوت مسموع، لا بد أنها أسقطت ما هو أكثر إثارة، لأننا لم نسمع سوى وصف تفصيلي للدروس في المعهد والبرنامِج اليوامي، نوعية الطعام الذي يقدم لهم وعن الطقس هناك. لقد قرر هو والده أن يغيّراً كنيتهما. لم تعد كنيتهما ميولر، بل أصبحت ميلينيكوف. بمجرد أن يمنحه

ضابط الصف في البحريّة إجازة، سوف يأتي لكي يأخذ ماشا ويتزوجا. عندما قرأت عن ذلك شعرت بحرج شديد واحمررت وجنتها! كان الهواء رائعاً، وقد جلسنا لفترة طويلة ونحن نتحدث، وأثناء الليل انتقلت ماشا إلى سريري وهي تتنحّب - لقد حلمت كيف أنّ بوريس في السفينة يغرق إلى القاع. أردت أن أواسيها وأن أهدئ من روعها لكنني رحت أتنحّب أيضاً. كيف يمكن للرب أن يأخذ كل شيء قبل أن يمنحك أي شيء؟ لا يمكنه أن يفعل ذلك، بكل تأكيد.

أحسد ماشا بقوّة - فهي مغفرة بحبّيها بوريس إلى أبعد حد!

١ أكتوبر / تشرين الأول من عام 1914. يوم الشفاعة<sup>(١)</sup>

«الحب - هو شيء ما غير معروف يأتي فجأة من مكان مجهول وغير معروف متى يتنهى». مادلين دي سكوديري<sup>(٢)</sup>.

غداً، في نهاية المطاف، سوف تبدأ الدروس. لقد اشتقتُ إلى ميشكا وإلى توسا وجميع زملائي الطلاب، وحتى أني أشعر بالشوق للمدرسين! لقد استأجروا مستشفى من أجل المدرسة الثانوية باسم بيلينسكايا، أما نحن فسوف نجتاز الخط الدائري الكبير إلى مدرسة بيتروفسكايا الواقعية، مقابل فندق موسكو الكبير. سوف يكون الدوام في المدرسة على فترتين، بحيث تكون التلميذات صباحاً، في حين أن التلاميذ الواقعيون<sup>(٣)</sup> سوف يحضرون في فترة ما بعد الغداء.

في الصباح كانت الشمس ما تزال ساطعة، أما الآن فقد راح المطر يهطل.

٣ أكتوبر / تشرين الأول من عام 1914. الجمعة.

ووجدت الأحرف الأولى من اسمي وكنيتي محفورة بسكين على المقعد المدرسي. يا لها من حماقة!

- ١ يوم في التقويم السنوي للسلافيين الشرقيين. إنه اليوم الذي يلتقي فيه الخريف مع الشتاء. وهو يوم اللقاءات الغرامية وعقد القران. وترتبط التسمية الشعبية مع هطول أول ثلج «يغطي» الأرض... المترجم

- 2 Madeleine de Scudéry 1607-1701 كاتبة فرنسية. ممثلة الأدب الدقيق. المترجم

- 3 الواقعيون - مصطلح كان يطلق على التلاميذ في مدرسة حقيقة قبل الثورة... المترجم

تقوم التلميذات بمراسلة التلاميذ الواقعين، حيث يقمن بترك رسائل لهم في المقاعد. أما أنا وطالا فنعتقد أنّ هذا مجرد غباء! كانت الأحاديث بمجملها تدور حول الفترة الثانية فقط، وحول مَن هو مُغزم بمن. كانت التلميذات إجمالاً مغرمات حدّ الجنون بتيريخين. إنه طاوس! أحمق بالمطلق! حتى أني لا أريد الكتابة عن ذلك.

سجلت ماشا اسمها للمشاركة في جمعية أخوات الرحمة وخضعتلدورة تدريبية لمدة شهرين. لديها رغبة كبيرة بالالتحاق بالجبهة، بالجيش العامل، وهي تعاني لأنها قد لا تنجح في مساعدتها، وتخشى أن تنتهي الحرب قبل أن تنهي دورة التدريب. تتعلم كيفية وضع الضمادات، ولذلك تعرض ضماداتها على جميع مَن في البيت. في حين أنه لدى الجميع مشاغلهم الخاصة. فلا يبقى أمامها سوى المربية السيدة الحظ.وها هي المربية تجلس في المطبخ على كرسي خانعة مستسلمة مع ضماد على رأسها، وتنتظر أن تعود ماشا إلى الكتاب الذي كانت تقرأ فيه.

يوم أمس كان أول يوم لماذا في المستشفى. عندما عادت إلى البيت راحت تغتسل باستمرار وتمسح جسمها بالكولونيا. كانت تريد أن تخلص من رائحة المستشفى. وعندما جلسوا إلى مائدة الطعام لم تأكل شيئاً. وعدتنا أنا وطالا بأنها سوف تصحبنا معها إلى المستشفى. سوف يسمحون لنا أن نقرأ وأن نغني للجرحى.

#### 6 أكتوبر / تشرين الأول 1914. الإثنين.

استلمتُاليوم رسالة من نوسيما في بيروغراد. كتبت لي فيها عن دراستها في المعهد الموسيقي (الكونserفاتوار) وأن ثمة إحساساً باقتراب الحرب في كل مكان من المدينة. ففي مسرح مارينيناكا، وقبل بدء كل مسرحية، يقومون بعزف نشيد الدول المشاركة في التحالف. في البداية يعزفون النشيد الروسي، ثم «Marseillais»، ومن ثم «God save King»<sup>(1)</sup> وكم يتطلب ذلك منا من الوقت نقضيه واقفين؟ وقد حذفوا من برنامج المسرح فاغنر، والموسيقيين

- 1 - اللهم احفظ الملك (انكليزي). المؤلف

الألمان عموماً. كما أنه تم تعليق إعلانات في المخازن الكبيرة كتب عليها «رجاء، لا تتكلموا باللغة الألمانية»، حتى أنه ظهر إعلان في القسم الألماني من المكتبة العمومية: «Bitte, kein Deutsch!»<sup>(1)</sup>. وفي الترامواي الذي كانت تركب فيه نوسيما ذاهبة إلى الكونسروفاتوار، تنازل عجوز لا يبدو عليه السن عن مكانه لإحدى السيدات وقال بحكم العادة «Bitte, nehmen Sie Platz!» - فقاموا برميه من الترامواي! يا له من أمر فظيع!

## 8 أكتوبر/ تشرين الأول عام 1914. الأربعاء.

لقد فقد العالم رشدَه! قرأتُ للتلو في الأسبوع الماضي في الجريدة أن إحدى طالبات المدرسة الثانوية ألقَت بنفسها من النافذة وهي تحمل أيقونة بيدها. واليوم قمنا في جوّ ماطر جداً بدفن دميتري بوروشين الذي كان تلميذاً في مدرسة بيلوفولسك الذكرية، وهو ابن لمحقق قضائي. حيث قام الابن بإطلاق الرصاص على نفسه من مسدس أبيه! لقد أخبرتني لا لا أنه كان مغرماً بعشيقته والده. كم هي كثيرة الأشياء السخيفة التي يمكن للمرء أن يسمعها على لسان فتياتنا!

## 10 أكتوبر 1914. يوم الجمعة.

«الحب - خائن. إنه يجرحنا حتى الإدماه مثل هرّ، حتى ولو أنك لم تكن تريده سوى أن تداعبه فحسب». نينون دي لانكلو<sup>(3)</sup>. ولكن من أين لتلا كل ذلك!

لقد فرَّ التوأم من آل نازاروف إلى الجبهة. وقد تركا رسالة. ولمن! لتوسيما! عثرت على الرسالة في المقعد، وهذا ما دفعها للتتفاخر بذلك إلى درجة كبيرة جداً، وقبل أن تحمل الرسالة إلى مدير المدرسة، قامت بقراءة الرسالة بصوت عال على مسامع الجميع أثناء الفرصة. وقد كتب التوأمان

1- رجاء، لا تتكلموا باللغة الألمانية! (ألماني) المؤلف

2- إنجليزي، من فضلك. ألماني - المؤلف

3- اسمها الحقيقي آنا دي لانكلو - كاتبة فرنسية 1623-1705 امرأة لعوب، كانت تجالس الملوك والأمراء، وصاحبة صالون أدبي. تعتبر رمزاً للمرأة المتعلمة المثقفة، وملكة صالونات الأدب في فرنسا، كانت تجمع الذكاء والجمال. المترجم

من آل نازاروف أنهم إما أن يستشهاداً ويتم دفنهما مع صليب من خشب السنديان أو أنهم سيعودان وهم يحملان وسام القديس جورج.

كانت توسيما طافحة بالاعتزاز وبالكبرياء!

14 أكتوبر 1914. الثلاثاء.

رحت أثناء الفرصة أراقب مع باقي التلميذات من خلال النافذة كيف أنَّ جينيا مارتيانوف - شقيق تالا، يقوم بتمارين صباحية على جهاز الجمباز «المتوازي». وماذا لو تبيَّن فجأة أنه هو الذي يقوم بحفر الأحرف الأولى من اسمي وكنيتي في كلِّ مكان؟ يا لها من حمامة! بيدَ أنني أحسست في تلك اللحظة، قرب النافذة، كما لو أنَّ قصيرة راحت تسري في اليدين وفي الساقين عندي.

قفز جينكا<sup>(1)</sup> بمهارة على الأرض، مثل لاعب خفة في السيرك، رفع يديه نحو الأعلى بطريقة جميلة ثم نظر في اتجاهنا. راحت الفتيات تصفق له. أما أنا فابتعدت عن النافذة لأنني ظنتُ: وماذا لو أنَّ نظرته كانت تبحث عنِي بالتحديد؟ فتحت الكتاب المدرسي ودفتُ وجهي فيه. وإذا بالحديث هناك يدور حول شيشرون<sup>(2)</sup>.

رحت أدق النظر في نفسي في المرأة طيلة المساء تقريباً. كلَّ من في البيت يؤكِّد أنني فاتنة، ولكنَّها هنا ما يشبه حبة البطاطس بدلاً من الأنف، ووجنتان غليظتان، ذقن فطيعة وجبهة مثيرة للقرف! والعينان! وماذا عن الحاجبين! والرموش! كل شيء يبدو كأنه غير مكتمل ومثير للشفقة! هل يُعقل أنَّ بإمكان أحدٍ ما أنْ يُغَرِّم بمثل هذه الفتاة؟ وفوق ذلك دروسهم

1- جينكا وجينيا - صيغة التحبب من غينادي... وماشكا - من مارينا. المترجم

2- الكاتب الروماني وخطيب روما المميز، ولد سنة 106 ق.م، صاحب إنتاج ضخم يعتبر نموذجاً مرجعياً للتغيير اللاتيني الكلاسيكي وصلنا لحسن الحظ جانب كبير منه، لقد أثارت شخصية شيشرون الكثير من الجدل والتقويمات المتضاربة وخاصة في الجانب السياسي من حياته، فهو تارة منقف مضيق في وسط سين، وتارة أخرى ثري إيطالي صاعد في روما، وتالثة انتهازي متقلب وأداة طيعة في يد الملكية» و«متملق لبومبي ثم سizar» بحسب ثيودور موسمين وجيروم كاركوبينو، ولكنه أيضاً بحسب بير كريمال الجسر الذي عبره وصلنا جانب من الفلسفة اليونانية. المترجم

الغيبة! إلهي، ما علاقة شيشرون ذاك هنا؟ وما هو ذلك المنتدى الفكري؟ وأية علاقة لروما بي؟ وما حاجتي إلى ما يدعى نوما بوميليوس<sup>(1)</sup>؟

19 أكتوبر 1914. الأحد. جون كرونشتادسكي<sup>(2)</sup>.

كنا في القدس. شاهدتُ في الكنيسة والدة التوأم من آل نازاورف. كانت راكعة على ركبتيها على الأرض. لم تتمكن من النهوض فيما بعد إلا بعد أن قدم أحدهم المساعدة لها. أشعر بالشفقة نحوها! لا أبناء عن التوأم.

22 أكتوبر عام 1914. الأربعاء.

أقيمت في المدرسة صلاة تضرع وابتهاج احتفاءً بأيقونة قازان لأمَّ الرب. صلينا من أجل تحرر روسيا من الألمان، كما فعلنا سابقاً من أجل تحررها من البولنديين. شعرت بعد الصلاة بالراحة لأنَّ جماعتي كانوا طوال الوقت يتهمسون وينمون لا يعرف سوى الله وحده عمَّ. أصبحت جميع الفتيات مغرمات، ورحن يعرضن بعضهن البعض دفاتر يومياتهن تحت القسم بأن يحفظن الأسرار: «لم أعد مغرمةً اليوم بفلان، بل أصبحت عاشقة لفلان» مع تحديد لا اليوم والتاريخ فقط بل والساعة أيضاً! يا لهم من أطفال!

أما أنا فلم أعرض شيئاً على أحد. لأن دفتر يومياتي مخصص لي وحدي فقط. دون أي شخص آخر. لعلني قد أعرضه على الشخص الذي سوف أحبه بصورة جديدة فقط. إذ إنَّ الأمر عند تالا ولا ولا وغيرهما ليس جدياً! فالحب الجدي لا يكون على هذا النحو!

---

1- نوما بوميليوس ثانى حكام روما بين عامي 673-715 قبل الميلاد ولد يوم وضع رومولوس أساسات روما ودعاة الرومان ليخلف رومولوس لتقواه وطبيته ولم يكن شخصية عسكرية عكس خلفه بل كان مؤسساً لقيادة الرومانية حيث بني المعابد ووضع التقويم الدينى، إلا أن هذا في الحقيقة حدث على مدى فترات عديدة وليس على يد رجل واحد. عشيقته حورية تدعى إيفيرينا أعطته تصديقاً إلهياً لبدعه، وعن طريق مزيع من الخمر والعسل استطاع أن يأسر شخصيتين إلهيتين هما فارنوس وبيكوس وأظهرها له التنبؤات والسحر وبعض الحكايات تقول إنه من أتباع فيثاغورس ولكن لا يصح هذا لاختلاف الزمن بينهما. المترجم

2- الاسم الحقيقي هو جون إيليتش سيرجيف 1829-1909. كاهن في الكنيسة الروسية. ميتروبوليتان. كاتب لاهوتى وروحى وشخصية بارزة. عضو فخرى في الجمعية الأرثوذكسية الفلسطينية الإمبراطورية. تم تشويهها في العقبة السوفياتية. المترجم

التقطتُ اليوم من جديد عن الرف كتاب ماريا باشكيرتسوفا، فتحته عند متتصفه، فرأيت كيف أنَّ إحدى شقيقتي أشارت بقلم الرصاص هناك: «أنا أشبه عالم كيماء مواظباً وصبوراً يقضى الليالي فوق مقطرته لكي لا يفوَّت اللحظة المنتظرة والمطلوبة. يبدو لي أنَّ ذلك يمكنه أن يحدث في كُل يوم، وهأنذا أفكر وأنتظر... وأسأله بقلق - أليس هذا ما أنتظر؟».

وأنا أيضاً بدورِي أصغي إلى نفسي طوال الوقت وأسأله - أليس هذا هو على ما يبدو، كلا... كلا! كلا!

وهناك كتابات على الهمامش: «الحب - سعادة عظيمة، بما في ذلك الحب البائس والتعس». إنه أشبه بخط ماشا. أليس لديها قصة غرامية فاشلة وتعيسة مع بوريس؟ أما أنا فأؤمن لو أنه لدى ولو جزءاً بسيطاً من مثل ذلك الحب! كم أغادر منها وأحسدها!

29 أكتوبر 1914.

بدأت جميع الفتيات في المدرسة يعتنن بأظافرهن: تقوم بقص الجلد بواسطة مقص، ونطيل الأظافر، ثم تقوم ببردتها بمبرد لكي يبدو شكلها جميلاً.

لدي يدان غير جميلتين تماماً.

تعطلت لمبة الكهرباء في غرفة الصف يوم أمس، جاء عامل الكهرباء. جلب سلماً طويلاً مع قاعدة متحركة. صعد إلى قرب السقف وراح يعمل هناك بكسل - وفجأة لاحظ كيف أنَّ الفتيات رحن يتتكلفن أمامه ويتجنرن. إنني أزدريهنَّ. وهنَّ يفعلنَّ ذلك فقط لأنَّ رجلاً شاباً دخل إلى غرفة الصف!

31 أكتوبر 1914. يوم جمعة.

مرضت يغفيشك<sup>(1)</sup>، وبصورة جدية كما يبدو، لأنَّه أصبح بوريس هو الذي يعطينا مادة اللغة الألمانية بدلاً عنها. سبق أن رأيته عندما جئت أنا وماشا إليهم في زيارة. كان نيكولاي فيكتورو فيتش حينئذ لطيفاً جداً ومرحاً، وقد راح يعرض علينا الحلوي طوال الوقت. في حين أنه يكون مختلفاً تماماً

1 - صيغة التحجب من يغفيينا... المترجم

عندما يكون على مرأى من طلاب الصف، يصبح متوجهماً وجدياً إلى أبعد حد. وقد كان الجميع بالأساس قد كرهوا اللغة الألمانية بسبب يغشكا، وبسبب الحرب، وفوق ذلك لم يستطع أحد أن يغفر له تغيير كنيته من ميولر إلى ميلينيكيف. إذ يرى الجميع في ذلك نوعاً من الجبن والوصولية careerism. راحت البنات يقلن أشياء قذرة وبذاءات بحقه في غرفة الشباب بعد انتهاء حصص الدروس، ويقللن طريقة في النطق. لديه بالفعل أسنان عوجاء وغير جميلة، ولكن لماذا يجب أن نسخر من الشخص بسبب ذلك؟ أحسستُ بغتة بحنق شديد في نفسي! آية صديقات هؤلاء! إنهم مجرد قطيع شرير! فقلت بصوت مسموع وواضح: «لم يغير كنيته لأنّه جبان، وإنما لأنّه يشعر بالخزي بسبب أمته!». ساد صمت وهدوء. راحت جميعهنَّ ينظرن إلىّي. أما أنا فقد استدررت وغادرت. وأنا في الطريق شعرت بالسوء إلى درجة كبيرة. خشيت أنهنَّ قد يقاطعني بعد اليوم. وفي البيت سيطر عليَّ خوف من نوع آخر - الخوف من الخوف. هل يعقل أنني جبانة وضعيفة الثقة بالنفس لدرجة أنني أخشى أن أبقى وحيدة؟ أشعر بالعار إلى درجة فظيعة. فأنا واحدة مثل الجميع. لستُ أفضل منها بشيء. كلا، بل أنا أسوأ. لأنهن رحن يسخنون من نيكولاي فيكتوروفيتش بكل صراحة وبصدق، في حين أنني رحتُ أدفع عنه ومن ثم خشيتُ أنا نفسي من شفاعتي وحمايتها.

أعدتُ قراءة ما كتبته في يوم الأربعاء. كيف يمكنني أن أكتب مثل ذلك عن الآخرين وأن أحقرهن طالما أنني لستُ أفضل منها في شيء؟ وماذا أنهن رحن يتسلكن ويتغيرن أمام عامل الكهرباء! بل إنَّ الأمر لا يكمن في عامل الكهرباء! بساطة هنَّ يرغبن بأن يشنَّ اهتمام الجميع، جميع المحظيين بهن وأن يجعلن العالم بأكمله مغرماً بهن، حتى آخر عامل كهرباء في هذه الدنيا! وأنا مثلهنَّ أيضاً!

يا لها من فظاعة!

٤ نوفمبر/ تشرين الثاني 1914. الثلاثاء.

كان اليوم مشمساً ورائعاً. قصدت تالا وذلك لكي نخرج للتنزه. ذهبت لكي تبدل ملابسها ولكي، كعادتها، تقضي ساعة كاملة على الأقل وهي

تبثعث عما ت يريد. وبينما كنتُ أنتظرها، أطلَّ جينيا<sup>(1)</sup> من غرفته ودعاني إليه. دخلتُ إلى غرفته، فراح يعرض عليَّ بلوارات الزجاج الأزرق التي ظلَّ يستحصل عليها على حافة النافذة خلال شهرين. إنها أشبه بالزمرد الحقيقي! لم يسبق لي أن رأيت مثل ذلك! جينيا - شخص مذهل! بعد ذلك هبطت تالاً وذهبنا معًا.

والآن استلقيتُ في السرير، لكنني لا أستطيع أن أغفو - أفكِّر به طوال الوقت. أرى عينيه، ويديه بعضاً لاتهما القوية، ساقيه المشوقةين في الجراميق. لديه يدان جميلتان، وذلك على الرغم من أنهما محروقتان بالمواد الكيميائية الكاشفة. كما توجد ندبة على خده - سبق أن تعارك في حديقة ألكساندروفسكي مع زعران ومثيري الشغب من تيميرنيك، حيث قام أحدهم بجرحه بواسطة قبضة حديدية. كم هو قوي وشجاع لا يهاب شيئاً!

أليس هذا هو ذلك؟ أليس هذا هو الحب؟ كلا، كلا، كلا.

صباح اليوم وأنا ذاهبة إلى المدرسة التقيتُ من جديد بتلك المرأة العجوز المجنونة وهي تضع قلنوسة على رأسها واقفة عند زاوية شارع تاغانروغسكي. يال لها من فطاعة - تعاني من سلس بولي. تقف وقد تشكلت تحتها بركة. وفجأة تسألني بصوت أقرب إلى صوت الموتى: «هل حفظت فروضك؟». ما زال صوتها يتتردد في أذني. كم أنَّ الشيخوخة أمر رهيب جداً!

11 نوفمبر / تشرين الثاني عام 1914. الثلاثاء.

لم أسجل أي شيء على مدى أسبوع كامل، لأنَّه لم يحدث شيء خلال هذا الأسبوع.

يا للتصرف الذي قامت به جوجو اليوم!

لقد قامت جوجو بعد انتهاء الدروس في غرفة الكيمياء بابتلاء مكعب كامل مشبع بحمض الكربوليك! مَنْ كان بإمكانه أن يتوقع مثل ذلك من قبل «فارنا الرمادي»؟! هذا الانتحار الرومانسي يبدو في حقيقة الأمر كأنَّه غير رومانسي البتة. راح «الفأر» البائس يتشنج في نوبة تقيؤ، وقد تلطخ بأكمله

1- جينيا صيغة التحبب من غينادي - المترجم

- بما في ذلك الفستان، والحزاء، والجوارب، وحتى الشرائط في الشعر. كان واضحًا أنها أكلتاليوم فتائل الشعيرية (صنف من المعكرونة). إنه أمر مقرف! نقلوها إلى المستشفى الذي يعمل فيه بابا من أجل غسيل المعدة. راح الجميع يخمن من هو ذلك الفأر؟ إذ إنّ جوجو شخصية غامضة ومتخفية إلى أقصى درجة!

«ثمة ثلاثة أصناف من النساء: طباخة، ومربيّة وأميرة».

### 12 نوفمبر 1914. الأربعاء.

حتى اليوم، وعلى الرغم من أنه جرى تهوية غرفة الصف، ما زالت ثمة رائحة من جوجو. كل شيء لديها على ما يرام. هنا يكمن لب القضية أنَّ الجميع سوف يسخرون منها ويضحكون عليها عندما ستعود من جديد إلى الصف! يا للبائسة. وقد تبيّن أنها أغرتـت، الفقيرة، بجيـنيـا مارـتيـانـوفـ! بجيـنيـاـ(يـ)! حتى إني لا أعرف ما إذا كان يجب علىـيـ أن أصدقـ أمـ لاـ. هذا ما تقولـهـ لاـ، ولكنـ أـلاـ يمكنـهاـ أنـ تـقولـ ذـلـكـ لـكـيـ تـغـيـظـنـيـ فقطـ؟ـ يمكنـهاـ أنـ تـفـعـلـ ذـلـكـ.ـ علمـاـ أنهاـ أـفـضـلـ صـدـيقـةـ ليـ!

جيـنيـاـ حـبـيـبيـ؟ـ وـلـمـاـذـ بـحـبـيـبيـ؟ـ

رـحـتـ أثناءـ الـدـرـسـ أـتـأـمـلـ الـحـيـوـانـاتـ الـمـحـنـطـةـ وـالـعـلـبـ الـتـيـ تـحـتـويـ عـلـىـ ضـفـادـعـ مـحـنـطـةـ،ـ كـمـ رـحـتـ أـتـأـمـلـ التـمـاثـيلـ النـصـفـيـةـ الغـيـرـةـ الـمـصـنـوـعـةـ مـنـ الـورـقـ الـمـعـجـنـ وـمـنـ جـنـسـيـاتـ مـخـتـلـفـةـ:ـ صـينـيـ،ـ وـهـنـدـيـ،ـ وـزـنـجـيــ وـفـجـأـةـ رـحـتـ أـتـسـاءـلـ:ـ كـلـ شـيـءـ بـبـساطـةـ.ـ أـنـاـ،ـ عـلـىـ الـأـرـجـعـ،ـ إـنـسـانـ أـخـرـقـ.ـ أـنـاـ،ـ عـلـىـ الـأـرـجـعـ،ـ لـاـ أـعـرـفـ كـيـفـ يـكـوـنـ الـحـبـ وـلـاـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـحـبـ.ـ لـاـ أـعـرـفـ بـكـلـ بـسـاطـةـ.ـ الـجـمـيعـ يـجـيدـونـ ذـلـكـ،ـ أـمـ أـنـاـ فـلـاـ أـعـرـفـ.ـ يـجـبـ حـشـوـيـ،ـ عـلـىـ غـرـارـ هـذـهـ الـفـزـاعـاتـ،ـ وـمـنـ ثـمـ يـتـمـ عـرـضـيـ.ـ وـهـلـ يـمـكـنـ أـنـ يـغـرـمـ أـحـدـ بـمـثـلـيـ؟ـ بـالـتـأـكـيدـ،ـ كـلـاـ.

### 17 نوفمبر 1914. الإثنين. صوم الميلاد

أـولـ ثـلـجـ.ـ كـمـ هـوـ رـائـعـ!ـ هـطـلـ الثـلـجـ فـيـ جـمـيعـ أـنـحـاءـ روـسـتـوـفـ.ـ اـضـطـرـرـتـ إـلـىـ أـنـ أـرـتـديـ مـعـطـفـاـ شـتـوـيـاـ،ـ وـقـدـ أـصـبـحـ ضـيـقـاـ لـأـنـهـ يـعـودـ لـلـعـامـ

المـاضـيـ.

تأخرت لبعض الوقت اليوم بعد انتهاء الدروس، كانت جميع البناء قد غادرن، خرجت إلى الفناء وإذ بالתלמידين الواقعين يلعبون بكرات الثلج، كان لا بد لي أن أعبر من بينهم. شعرت برهبة شديدة بمفردي! ومع ذلك تابعت، طريقي. أصابتني كرة ثلج في كتفي من الخلف! وانطلقت قهقهة سافلة. قلت في نفسي إنني لن ألتقط! كررت على أسناني وتابعت طريقي. سمعت وقع خطوات خلفي. كان أحدهم يركض. كوزلانيكوف من الصف الأخير. ركض وراح يغمغم: «أعتذر!» دُهشت لدرجة أنني لم أجد ما أقول له. بعد ذلك شعرت فجأة بنوع من المرح الشديد! ركضت إلى البيت، وقبل أن أخلع ثيابي أسرعت إلى المرأة. كانت وجنتاي محمرتين وعيناي تقدان. كم أنّ عيني ساحرتان! بلّى، أنا فاتنة جداً!

راحت المربية تدمدم قائلة إنني حملت الثلج إلى داخل البيت، أما أنا فرحت أقبلها!

22 نوفمبر من عام 1914. السبت.

الجميع يقولون إنه لم يسبق أن كان الطقس صقيعياً في وقت مبكر من الخريف كما هو الحال اليوم.

ذهبنا أنا وجينيا للتزلج على الجليد. حمل حذاء التزلج الخاص بي، ثم قام بربط الشريط على حذاء التزلج خاصتي. كم كان ذلك لطيفاً! رحنا تزلج ممسكين بعضنا بأيدي بعض. كان الجميع ينظرون إلينا. مررنا أكثر من مرة بمحاذة جوجو. كانت في كلّ مرّة تتظاهر بأنها لا ترانا! بعد ذلك جلسنا على المقعد. راح جينيا يحكى لي قصصاً مثيرة للضحك عن زملائه في الصف. رحت أقهقه بقوة.

ما هذا؟ ما هذا الذي يحدث معى؟ هل أنا عاشقة؟

كتبت وشعرت بالرعب من هاتين الكلمتين: أنا مغمرة.

23 نوفمبر / تشرين الثاني عام 1914. الأحد.

يبدو لي أن ذلك قد وقع بي. إنني مغمرة. لقد انتظرت طويلاً لدرجة أنّ الأمورات الآن رهيبة. أيعقل أن تلك حقيقة؟ لا، الأفضل ألا أصاب بالخيبة. لم يزل غير حقيقي بعد. كلا!

شاهدتُ اليومَ جينياً ولكن من بعيد. نظر إلىّي وابتسم. بكل تأكيد، أنا مغفرة به! أعشقه! جينياً - شخصية مميزة! وهو لا يشبه الآخرين في شيءٍ! جاء إلينا فيكتور مساءً. هو الآخر أصابه حماس عام! لم يتم استدعاء فيكتور إلى الخدمة العسكرية لأنَّه الابن الوحيد، ولكنه تطوع جندياً في الصفوف الأولى. لا يمكن تخيله وهو يشارك في معركة هجوم: ضعيف البصر وبدين. جاء إلينا وهو يرتدي البدلة العسكرية: سترة وبنطلون وجزمة، سداره بلا حرف أمامي ومعطف للعساكر. لقد جعلت منه الثياب العسكرية شخصاً شبيهاً بأولئك الذين يشاركون في الاستعراض العسكري. أعلن أنَّ أمَّهَ تشعر باليأس وبالاضطراب لأنَّه تطوع جندياً عادياً وأنَّه سيمضي أيامه في ثكنات العساكر.

### 25 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1914. الثلاثاء.

أسمع همساً خلف الباب: ماما تقول لبابا إنَّ لدى اضطراباً ما، وأنني أقرأ في الكتاب المقدس لليوم الثالث على التوالي. أجابها بابا بعصبية: «إذا راح شخص ما يقرأ في الكتاب المقدس، هذا لا يعني أنه مصاب بلوثة ما!». أسكنته ماما ثم دخلت إلى غرفتي، جلست، لامست بشفتيها جيني وراحت تقول إنه لا يجوز قضاء يوم الأحد بأكمله في البيت، بل يجب علىَّ الذهاب للتنزه واستنشاق الهواء. أما أنا فرحت أهز رأسي علامة الرفض فقط، وأنظر خروجها - لكي أعيد قراءة نفس المقطع للمرة المئة. وهل يمكن للمرء أن يتعد عن هذه الأسطر: «أنا نائمة، لكن قلبي متيقظ؛ ها هو صوت المعشوق، معشوفي، يطرق: *(افتتحي الباب لي، يا أختاه، يا معشوقتي، يا حمامتي، يا طاهرتي!* لأنَّ رأسي مكمل بأكمله بالندى، ولأنَّ خصلات شعري تغطيها رطوبة الليل».

### 27 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1914. الخميس.

أنشدت اليوم لأجل الجرحى. ذهبت أنا ولا ولا وتala بعد انتهاء الدروس إلى المستشفى - إلى مدرستنا القديمة. رحنا نجول على الصفوف التي تحولت إلى غرف للمرضى والجرحى، وقمنا بسؤالهم ما إذا كان أحدهم يرغب بأن نكتب له رسالة إلى البيت. كان ثمة رجل أصيب بجراح في المثانة

ويشير بصعوبة وهو يحمل قارورة. شاهدته وهو يحمل قارورة ممتلئة حتى نهايتها، أردت أن آخذها وأن أحملها إلى التواليت، فشعر بحرج شديد ولم يعطها لي. وأنا بدوري أحسستُ بحياة رهيب. يا له من شعور أحمق بكل بساطة. لأنه لا يوجد هنا ما يجب أن يكون محرجاً ومعيناً!

راحوا يتطلبون مني في كل غرفة أن أغتنى لهم. كانوا يقولون لي إنَّ صوتي يشفى الجراح أكثر من أية عقاقير!

كان ثمة فتى أشقر بترت يداه عند الرسغ. إنه مهرج رائع ولطيف، بحيث راح يجعل جميع المحظيين به يضحكون باستمرار. راح يتحدث باعتزاز عن تحطيم الجيش النمساوي، وكيف أنَّ الجنود السلافيين لا يريدون خوض الحرب وأنهم يستسلمون جماعات جماعات. لم يكن قادرًا أن يأكل بنفسه، لذلك رحنا نطعمه بالمعلقة...

كما أنه راح يخبرنا عن حجم سمك السلمون الذي كان يصطاده في قريته، وراح يباعد بين جدعي بيديه المقطوعتين. في تلك اللحظة نجحت في ضبط أعصابي، أما الآن فلم أعد قادرة على السيطرة على نفسي. فأنا أكتب وأتشتب.

لم ألتقي بجينيا اليوم. لعله لم يعد يحبني؟ ولعلني اخترعت كل ذلك لا أكثر؟

2 ديسمبر / كانون الأول عام 1914. الثلاثاء.

اليوم! لقد حدث ذلك في هذا اليوم!

قبلي!

مررت كالعادة، على تالا لكي نذهب معًا إلى المستشفى. قبل الوقت بقليل. لم يكن ذلك مقصودًا من طرفي، بل كان الأمر من دون تخطيط! كان جينيا وحده في البيت. سألني ما إذا كنت أريد أن ألقي نظرة على بلوراته. اقتربتُ من النافذة فقام باحتضاني من الخلف. راح يقبلني في العنق وفي الأذن وفي الخدين!

كم أنا حانقة على نفسي! رحت أنظر أمامي بطريقة بلهاء من دون أن أنطق

بكلمة واحدة. جمدتُ في مكاني! لم أستطع أن أحرك يدي أو رجلي. وحتى أنَّ عينيَ التصقتا إلى ذلك المختبر النحاسي الغبي! كان عقلي يردد: يا إلهي! إنه يقبلني، أما أنا فأقرب إلى كائن محظوظ! كم كنت أود أن ألتفت نحوه، أن أحيط عنقه بيديَ وأن أقبله أيضاً! في شفتيه! وكم أريد أن أقبل الندبة على وجنته، ولكنني لا أعرف لماذا لم أتمكن من فعل ذلك!

وفجأة سمع صرير الباب الخارجي! هذه تالكا جاءت! حررت نفسي بسرعة وخرجت من الغرفة، فلم تتمكن من أن تلحظ شيئاً.

ذهبنا إلى المستشفى، راحت تالكا تثرثر عن شيء ما، لكنني لم أكن أسمع ولم أكن أرى شيئاً! كان كل شيء في داخلي يعني، كان كل شيء في ينمّق من الفرح والسعادة! أحسست بشكل صريح كم هي ابتسامتى بلهاء. والآن أشعر بتعاسة كبيرة في روحي. ما هو رأيه بي بعد ذلك؟

أحضروا إلى المستشفى طفلاً كان قد التقط في الشارع أداة متفجرة (لغماً) وقام بإشعال النار فيه، فانفجر بين يديه تماماً وأحرق له وجهه. بينما كان الطبيب يتزعّج الجلد المحترق ويوضع ضماداً للطفل، راح والده يت控股 فجأة ثم بدأ يتمخط من دون أن يتمكن من العثور على المنديل الأنفي. ناولته منديلًا ورقياً واحتضنَ هذا الشخص الغريب، ثم رحتُ أقبّله في خده وفي صدغه وأنا أهمس له بكلمات مهدّئة.

وهذا أيضاً احتضان، كما أن هذه أيضاً قبلة، فلماذا هذا يجوز مع شخص غريب هنا وببساطة، أما هناك، مع الشخص الحبيب - على ذلك النحو من التعقيد والصعوبة؟

مع الحبيب؟ يا إلهي ما أجمل هذه الكلمة: مع الحبيب...  
3 ديسمبر / كانون الأول 1914. الأربعاء.

يا إلهي كم أنا مغفرة به!  
نعم، أنا متأكدة - هذا ما كنتُ أنتظره طوال الوقت. إنه حبٌّ حقيقي. كم أنا سعيدة!

أفگر فيه باستمرار، بحبيبي جينيا. إنه شخص غير عادي. سوف يصبح

عالم كيمياء عظيماً. شعرت اليوم أثناء التزلج على الجليد بالإرهاق فجلستُ على الثلوج مباشرةً، عندئذ راح يقوم بحركات البروطة<sup>(١)</sup>. فهو يتقن التزلج على الجليد بشكل رائع! وكم أكره ذلك البلطجي من تيميرنيك، إذ لو أنه وجه ضربته إلى جينيا إلى الأعلى قليلاً - لكان أصحابه في الصدug ترفض جو جو الحديث معه. ليكن ذلك. هذا غرامي! هذه هي سعادتي وليس سعادتها! ليس بالضرورة أن يكون الجميع سعداء.

جميع صديقاتي لديهن قصص غرامية، باستثناء ميشكا فهي وحيدة. لكنها لا تشعر بأية معاناة من جراء ذلك أو أنها تظاهرة بأنها لا تعاني. وهي تصفي إلى أحاديث فتياتنا بازدراء ثم تنطلق من أعلى جبل التزلج الجليدي على حداء التزلج - وهي متتصبة، بطريقة لا يجرؤ جميع الفتيان على القيام بها. هذا مرعب! إذ يمكن للمرء أن يهشم أنفه!

بذا سائقوا عربات الجر تحت الثلوج أقرب إلى سانتا كلوز. يؤكّد الجميع أنه سوف يهطل ثلج كثيف في يوم الميلاد هذه السنة وأنه ستكون هناك عاصفة ثلجية.

٦ ديسمبر / كانون الأول من عام 1914. السبت.

ليمنح الرب الصحة والسعادة لجميع أولئك الذين يحملون اسم نيكولاي، والأهم لذلك الذي يتوقف انتصار روسيا عليه!

عاد فيكتور. لم يصمد سوى لمدة قصيرة. فقد أعلن للجنة الفحص أنه لا يستطيع أن يرى شيئاً، ولذلك قاموا بتسريره. وصل إلى البيت حانقاً، وراح يؤكّد أنه لا يستطيع تحمل نظام التدريب العسكري، همجية العادات والروائح التتنة. كما صرّح بلهجة جدية تماماً: «لقد أردت أن أدفع عن الوطن، ولكنني لم أتعلم سوى تقديم التحية للجنرالات». وقد كان يقوم بتقليل التحية بطريقة مثيرة للضحك لدرجة أن الجميع راحوا يقهقرون. شعر فيكتور في البداية بالإهانة، لكنه اعتاد على ذلك فيما بعد وراح يكرر الحركة بطريقة مرحة، موضحاً كيف يجب على الجندي أن يشدّ من قامته وأن يقدم

التحية عندما يرى جنرالاً. وقد كان يحملق بعينيه بقوة كبيرة لدرجة أنه كان يجعل المرأة يسقط من الضحك.

أما كاتيا فقد كانت سعيدة. كانت تمسك بيده فيكتور طيلة المساء، كما لو أنها كانت تخشى أن يفلت منها من جديد. وما الذي وجدته فيه، يا ثري؟ إذ إنه مهرّج بارع!

كم هو جينيا مختلف تماماً! غير ذلك نهائياً! ذكي، وعميق في تفكيره، ورجل حقيقي! كم كان حديثه اليوم ممتعاً عن عالم الكيمياء لافوازيه! عندما قاموا بقطع رأسه بواسطة المقصلة، أعلن روبيسبر: «الثورة ليست بحاجة لعلماء كيمياء».

يا له من أحمق، روبيسبر ذاك!

11 ديسمبر / كانون الأول عام 1914. الخميس.

ولكن لماذا، لماذا يكرهني إلى هذا الحد المدعو زابوغ斯基! هل لأنني لا أفهم شيئاً في المادة التي يدرسها - علم الهندسة؟ بيد أنه ما من أحد يفهم شيئاً في هذا العلم! لا لا لا ولا تala. ولا حتى ميشكا! وهنّ لسنَ أكثر غباء مني! عندما يريد زابوغ斯基 أن يستمعنا، فإنه يقول لنا إننا قابلون للقسمة من دون بقية. ببساطة، هو نفسه لا يستطيع أن يشرح شيئاً بشكل مقنع!

كسر زابوغ斯基 اليوم الفرجار (البيكار)، ما جعله يرسم دائرة على السبورة بواسطة خرقة، إذ كان يثبت أحد طرفيها إلى السبورة، ثم يقوم بالقبض على الطبشور بطرف الخرقة الآخر. رحنا نضحك. استشاط غضباً، وبعد أن رسم شكلاً هندسياً ما، وضع نقطة على السبورة بقوة كبيرة لدرجة أن قطعة الطبشور تحطمّت وتناثرت. ضحك جميع من في الصف! ولكنه استدعاني أنا إلى السبورة! ومن جديد جعلني أبكي. إنه فنان في تحقيق مثل ذلك! يقوم بدعوة التلميذ إلى السبورة ثم يبدأ بتفحصه بصمت وبنظره مليئة بالازدراء. بحيث يتمنى المرء لو أنه يختفي تحت الأرض!

وفوق ذلك كلّه، لديه ثؤلول بشع، ينمو على جانب الأنف. إنه ثؤلول ممغّنط، لأنّه يجذب إليه أنظار الجميع. مع أنك لا تزيد النظر، لكنك مع ذلك تنظر.

يعمل بابا الآن في مجلس المدينة، حيث يتبع شؤون الناس الذين تم إجلاؤهم، يجري في أنحاء المدينة طوال اليوم. وقد ذهبت معه اليوم إلى مشفى المرضى العقليين. راح يعنّف شخصاً ما، أما أنا فرحتُ أراقب العاملة في المشفى وهي تنظف الأرضية، حيث راحت تفوح رائحة الكلور الواخزة، وكان يقف بالقرب منها مريض ولكنه كان يدوذا سحنة عادية ومثقفة. فجأة التقط يديها، المتتسختين من خرقه التنظيف، وراح يقبلهما. وقد أذهلني هذا المشهد.

تذكّرتُ الآن تلك القبلة، وعلى الفور شعرتُ بالسوء بسبب ذلك. كم كان رهيباً، بكل تأكيد، أن يفقد المرء رشده. أن يخسر نفسه. لا سمح الله أن أبدأ في يوم من الأيام بالكتابة في دفتر يومياتي اعتباراً من «عشرطعشر آذامبر»<sup>(١)</sup>.

### 12 ديسمبر / كانون الأول عام 1914. يوم جمعة.

حدث اليوم في المستشفى طارئ فظيع. كنت أكتب رسالة بناء على طلب يفروجيixin الذي فقد بصره وقد وضعوا له ضماداً كبيراً على عينيه، إلى قريته باسم أهله وخطيبته. كنا نجلس في الرواق قرب النافذة. طلب مني أن يلمس يدي وراح يداعبها بأصابعه الفلاحية الخشنة. ثم راحت الأصابع تزحف صاعدة نحو الأعلى، وإذا به يمسكني من صدري. شعرتُ بالخوف وبالاضطراب، ثم حاول احتضاني والضغط عليّ. أردتُ أن أصرخ، لكنني أمسكت نفسي عن ذلك. أبعدتُ يده بقوة وقفزت هاربة. عندما أصبحتُ في الشارع أحسست بخجل مفاجع. نويتُ أن أخبر جينيا بذلك لكنني لم أتمكن. أدركت فجأة أنه ثمة أشياء يستحيل الحديث عنها إلى أي شخص آخر.

### 13 ديسمبر / كانون الأول عام 1914. السبت.

استلمتُ رسالة قصيرة من جينيا، يخبرني فيها أنه اعتباراً من الساعة الرابعة عصرًالن يكون أحد من أهله في البيت. لم أطق صبراً وبالكاف انتظرت حلول منتصف الرابعة! أسرعتُ إلى هناك. اقتربتُ من منزلهم وفجأة شعرت بربع قاتل، من أني قد ألتقي وجهاً لوجه مع تالاً ومع أهله.

1- هذه ترجمة عربية لما ورد في النص الأصلي - في إشارة إلى أنها قد تبدأ بالخلط بين التوارييخ فلا تعود تعرف التاريخ نهائياً... فاقتضى التنوية.

جلسنا في غرفة الضيوف على الأريكة من دون أن نشغل الضوء، ورحتا  
نقبل بعضنا!

رحة نقبل بعضنا!

ياله من شعور مذهل ساحر! كلا، يستحيل وصف مثل ذلك الإحساس!  
أنا سعيدة! إنه بارع في التقبيل!

كتبتُ ذلك، وهأنذا لا أستطيع أن أنام منذ منتصف الليل، لأنني رحت  
أسأل نفسي: من ذا الذي علّمه التقبيل على هذا النحو الرائع؟

16 ديسمبر / كانون الأول عام 1914. الثلاثاء.

قمنا في المدرسة بجمع هدايا لأجل الجبهة، عبارة عن أكياس تغ  
ومناديل أنيقية. وفجأة خطر بيالي أنَّ المنديل الذي أرسلته سيكون، ربما، من  
نصيب ذلك الفتى من تيميرنيك الذي تشارجر جينيا معه.

في المستشفى جُنَاح أحد الجرحى الذي بترت له ساقه. عندما أحضرت  
ماشا العكاوا له، رماها بقطعة الخشب بكل ما أوتي من قوة. والآن ثمة كدمة  
زرقاء على ساق ماشا من جراء ذلك.

27 ديسمبر / كانون الأول عام 1914

هذه أول مرة تكون لدىِّي أعياد ميلاد حزينة. أشعر بالتعاسة إلىَّ بعد حد.  
لقد غادر آل ماريانوف خلال أيام العطلة. لن أرى جينيا خلال أسبوعين!  
ذهبتُ مع البنات إلى حديقة ألكساندروفسكي في ناختشيفاني - هناك  
احتفال شعبي وموسيقى ورقص. تزحلقنا في عربات من أعلى التلة. ثمة  
عدد هائل من الناس.

أمشي وأتساءل: ما حاجتي إلىَّ ذلك، طالما أنه غير موجود معي وإلى  
جانبي؟

رحة عند المساء نخمن ونتوقع: قمنا بلصق قطع مموضوغة من لب  
رغيف الخبز مع أمنياتنا على حرف حوض ممتليء بالماء. ثم وضعنا في  
الماء بقايا شمعة كنسية دقيقة ومشتعلة موضوعة ضمن قشرة جوز، كما لو  
أنها في قارب. كان يجب علينا أن ننفح الهواء بطريقة تجعل الشمعة تسبح

باتجاه الورقة وأن تحرقها - والشرط هو أنها ستتحقق أمنية الشخص الذي ستتحرق ورقته. كان يجب أن ننفخ بحذره كي لا تنطفئ الشمعة. فهذا فألي سيء. أما أنا فقد كتبتُ كلمة واحدة فقط، لا يجوز أن يعرف أحد ما هي تلك الكلمة - وإنما الأمانة لن تتحقق. رحت أتساءل: هل يمكن ذكر ذلك في دفتر يومياتي، ثم قررتُ أنه من الأفضل ألا أجازف - لذلك لن أذكر ذلك. اتفقنا أن ننفخ بهدوء، على مهل، وإذا بنا ننفخ من أعماق صدورنا، ما أدى إلى انقلاب القشرة. غرفت سفيتنا! راح الجميع يضحكون وبدأتنا نلعب بالماء في الحوض. نظرتُ - فرأيتُ ما شا تذهب إلى إحدى الزوايا وتجلس وحيدة بعينين طافحتين بالدموع. لقد ظنتَ على الفور أن ذلك عالمة سيئة بالنسبة لحبيبتها بورييس - فهو سيخرج إلى البحر عما قريب. هكذا شعرتُ بالأسف لأجلها! اقتربتُ منها وجلست بقربها، التقطتُ يدها ورحت أمسدها: «أختي الحبيبة، ماشينكا، ما بكِ، لا داعي! سوف يكون كل شيء على ما يرام!». ومن أين لي أن أعرف أن كل شيء سيكون على ما يرام؟ وكيف لي أن أعرف بصورة عامة ماذا سيكون؟ أنا لا أعرف شيئاً حتى عن نفسي.

جينيا، أين أنت؟ ماذا حصل لك؟ هل تفكّري وهل تتذكري؟

١ يناير / كانون الثاني عام 1915.

عام جديد. في البداية كنا جميعاً في البيت، ثم افترقنا، وذهب كلُّ واحد في سبيله. ذهب بابا مع ماما إلى النوم، وذهب ساشا مع شلته، كما ذهبت شقيقاتي إلى غرفهن. قمن بدعويٍّ، لكنني عدلت عن الذهاب معهن. وهأنذا أجلس وحيدة في ليلة رأس السنة الجديدة وأتکدر. هذه أول مرّة في حياتي أشرب فيها كأساً من الشمبانيا. كم كنت أتمنى أن أشرب نخبًا مع جينيا ومع تالا، وأن أقرع كأسي بـ كأسهما، بيد أنهما بعيدان عنّي. هما عند خالهما في مقاطعة يكاترينو سلافسك. وهم يقضيان أيام العطلة هناك بصورة دائمة - في بلدة باسم صَكولوفكا.

استغرقتُ وقتاً طويلاً في ارتداء ثيابي وفي تسريرحة شعري، وقد اخترتُ أن أرتدي الفستان الأزرق، كما قمتُ بتشييت بروش (دبوس تزييني)، وصنعت عقدة أنشوطية جميلة. لكن عقلي كان يتساءل باستمرار: ولمَ كلَّ

هذا؟ إذ إنه لن يرى ذلك. رحنا نتمىّن ونخمن: عندما قرعت الساعة مشيرة إلى الثانية عشرة، أحرق كُل واحد منا رسالته مع الأمينة التي ضمّنها الرسالة ثم قام كُل منا بابتلاع رماد الرسالة، وإلا فإن الأمينة لن تتحقق. حتى أنا أرغمنا باباً وماماً على بلع الرماد. بيد أنّ الأمر لم يكن مثيراً للمرح. فقد كتبتُ من جديد نفس تلك الكلمة بالتحديد. رحنا نغنى بشفاه سوداء من جراء ابتلاعنا للرماد. ومرة أخرى أصبح الوضع بالنسبة لي لا يطاق. فقد بدا كُل شيء مضجراً وغبياً، ولا معنى له بالنسبة لي من دون جينيا. ذهبت إلى غرفتي وسرعان ما تفرق البقية. يبدو لي أنّ الأمور في أسرتنا ليست على ما يرام. لقد أصبح بابا في الآونة الأخيرة مختلفاً تماماً. وهو نادرًا ما يتبادل الحديث مع ماما.

أنا مغرة به! إني عاشقة له! أنا أحبه!

كم كان رائعًا لو أنني أجد نفسي فجأة في تلك البلدة صَكولوفكا!

2 يناير/ كانون الثاني من عام 1915

جاء إلى المربيّة ابنها بالمعمودية. شاب فتي وجميل - ومن دون ذراع. إنه نساخ، وقد بترت ذراعه على الجبهة. وها هو الآن يتدرّب على الكتابة باليد اليسرى.

أعيد قراءة ماريا بشكيرتسوفا. يا إلهي، لقد سبق أن قرأت هذا الكتاب قبل أقل من عام - ولكنني لم أفهم شيئاً حينذاك! «يُخيّل لي أنني خلقت للسعادة - أرجو، يا ربّي، أن يجعلني سعيدة!». كلّ هذا ينطبق علىّ أيضاً. «أنا مخلوقة لانتصارات المشاعر القوية - لذلك، فإنّ أفضل ما يمكنني فعله - هو أن أصبح مطربة». يلوح عندي إحساس كما لو أنها تشبهني، وأننا شخص واحد، وأنها لم تمت على الإطلاق. فأنا ما زلت حيّة. وليس هي، بل هذه أنا التي أكثر ما أهوى في هذه الدنيا - الفنون والموسيقى والفن التشكيلي، والكتب، أكثر ما أحبّ النور والملابس والترف، أحب الصخب والهدوء، الضحك والحزن، الحنين والمزاح، يروق لي الغرام، والبرد، والشمس، وجميع فصول السنة، أي طقس مهما كان، أحبّ السهوب الهادئة في روسيا والتلال حول نابولي، أحبّ الثلج شتاءً، والمطر في فصل الخريف، والربيع

مع ما يحمله من قلق، أهوى أوقات النهار والليلي الرائعة في فصل الصيف مع نجوم تلألأ في السماء. وأحبُ فوق ذلك جينيا. فهي لم تكن تعرف حبيبي جينيا.

٣ يناير/ كانون الثاني عام 1915.

يقومون بنشر قائمة بأسماء الضباط الذين قتلوا في الجبهة وذلك في مجلة «زنانيا - الراية»: يوضع مقابل كل كنية إشارة صليب، أشبه بأس الإسباني (في ورق اللعب).

ثمة حرب رهيبة تجري، أمّا نحن فننسخ بعضنا استمرارات بعض عن الغرام. كم هو العالم مبني بصورة غريبة - فها هو السؤال التالي يصبح فجأة أكثر أهمية من جميع الحروب في الدنيا: «كان ثمة ابنة للملك، وقد أحبت إنساناً بسيطاً من عامة الشعب. عندما عرف الملك بذلك غضب غضباً شديداً وقرر إعدام ذلك الشخص. راحت الأميرة تبكي وتتوسل أباها، فقرر الملك عندئذ ما يلي: سوف يقيمون في السيرك بناء له بابان: وخلف أحد البابين نمر مرعب وجائع، أما خلف الباب الثاني فامرأة فاتنة. سيُنقل الحبيب إلى وسط السيرك، حيث يجب عليه أن يفتح أحد البابين بشكل عشوائي، حسبما يريد. فإذا فتح الباب الذي خلفه نمر - يكون مصيره الموت. وإذا فتح الباب الثاني - يزوجونه من المرأة الفاتنة، وسوف يقدمون له الكثير من المال ويضعونه في سفينة ليرحل إلى بلاد بعيدة ورائعة. كانت الأميرة تعرف أين النمر وأين هي المرأة الجميلة. احتشد الناس في السيرك، وراح المحكوم عليه ينظر إلى الأميرة متوسلاً - أنْ ساعدني! كانت الفتاة العاشقة تكابد وتعاني، تارة تحرّر وجنّتها وтارة تشجّبان، ومن ثم أشارت له إلى أحد البابين - فماذا كان خلفه؟

لقد أحبت بصدق أنه كانت خلف الباب امرأة، بكل تأكيد، لأنَّ الحبَ لا يمكن أن يكون أثانياً وأن يتمنى العاشق الشَّرَّ لمن يحب. وفي واحدة من الليليات المؤرقة تذكرتُ كيف أثنا نحن الثلاثة - تالا ولا ولا وأنا - كنا نجلس في بيت تالا، وكيف أنَّ لا طلبت من جينيا أن يشرح لها مسألة ما، فذهبنا إلى غرفته وأغلقا الباب عليهما، فأدركت حيئتي: لقد كان نمر...

عزيزي نبوخذ نصر!

لا شيء من طرفك. باستثناء تلك البطاقة. في حين أني أرسل لك بطاقات رومانية كل ثاني يوم. لا بأس، لا تكرر للأمر، كل شيء على أفضل ما يرام. بالمناسبة، لقد وصلت بطاقة تلك إلى هنا بسرعة البرق! يا لها من عجائب!

إنه لمثير أن أعرف متى ستستلم رسالتي هذه؟

مثل هذه الرسائل تستغرق وقتاً طويلاً، خصوصاً في حال لم أقم بإرسالها. فالرسائل التي لا يتم إرسالها تصل إلى العنوان المطلوب بشكل مؤكد أكثر.

لأن الرسائل غير المرسلة تتمتع بميزة اختراق الزمن. من دون آية طوابع وأختام - لحظة - وإذ بها بين يديك. يمكننا بعد فضول صيف كثيرة وفضول شتاء كثيرة، أن نثرث بشأن المناخ - فأنا هنا الآن، وأنت أيضاً هنا الآن. ماذا لديكم هناك؟ تقول إن الكوكب أصبح أكثر اتساعاً؟ وأي يوم من أيام الأسبوع هذا؟ وأي نصف كرة يظهر خلف النافذة؟

لعله أصبح لديك الآن عائلة، طفل. ابن؟

لا أشك في أنك سوف تعرض عليه ذات يوم تلك الحيلة التي سبق أن قمت بها أمام عينيك، وكان قد علمني إياها صديقي الغواص. أتذكر الآن - كنا ذاهبين في يوم أحد لكي نقص شعرنا، رحت أذمر لأنني كنت أخاف من آلات الحلاقة وأكره صالونات الحلاقة، كان يجرني خلفه من يدي وفجأة راح يقول - هيا، انظري إلى هذه الخدعة! وإذا بأعجوبة تحدث أمام عيني. يتضخم أبي خلال لحظة ويصبح عملاقاً. يلتقط ترامواي من الموقف ويقدمه لي على راحة يده.

بالطبع، الحيلة ليست الأفضل، ولكنني أعتقد أن ابنك أيضاً سوف يعرضه في يوم من الأيام على ابنه هو الآخر. سوف يصبح عملاقاً، وسوف يقدم له على راحة يده تراموايا أو بيتا أو جبلأ.

وقد يكون هذا هو جوهر الخدعة بالكامل.

مضت الأسابيع والأشهر، فكان المترجم يقوم في بعض الأحيان بتشغيل كمبيوتر إيزولدا، عندما لا تكون في البيت - أصبح لدى كلّ منها لابتسامات. (كمبيوتر محمول) خاص به - ويقرأ ما فيه من كتابات.

كان المترجم في تلك اللحظة يتابه إحساس كما لو أنه يقوم بالسرقة. وقد كان لصاً بالفعل.

فقد كانت بكل بساطة تسجّل بعض الأشياء من تلك الحياة التي عاشتها قبل أن تعرف على المترجم. عن قضائها للعطلة في إيطاليا.

«وهل تتذكر أيضاً كيف تشارجنا في بيزا<sup>(١)</sup> يومئذ؟ إذ قفزت من السيارة وأغلقت الباب بقوّة. أغلقته بقوّة كبيرة بحيث كنت أريد أن يتحطم الباب. أما أنت فغادرت غاضبًا وحانقاً، متخلّياً عنّي. كانوا في تلك اللحظة يجزّون العشب في المرجة، فانبعت منه رائحة الأعشاب المقصوصة حديثاً ورائحة البترزن. كان السياح يقفون في كلّ مكان من الباحة وهم يمدّون أياديهم كما لو أنّهم كانوا يستندون بأيديهم إلى الهواء - هذا أنّهم كانوا يتخدّدون وضعيات معينة من أجل التقاط الصور: كانوا يستندون البرج المائل وقد راح يسقط. دخلت إلى الكاتدرائية، جلست على مقعد هناك لأنّي بجمعي الأحوال لم أكن لأذهب إلى أي مكان. كان الجوًّ هناك بارداً بعض الشيء، في حين أن الجوًّ في الشارع كان قائطاً. أغلاقت عيني - كان أزيز آلات قص العشب يبلغ مكاني عبر الأبواب المفتوحة، وحتى أنَّ الرائحة الطازجة للعشب المقصوص كانت قوية في داخل الكاتدرائية. جلستُ ورحتُ أفكّر بك، وكم أنا أحّبّك. وأنني سوف أبقى جالسة في مكاني بانتظارك. كنتُ أعرف أنك سوف تعود وسوف تجدني».

كان المترجم يقرأ يومياتها فقط في حالة أنّهما كانا متشارجين. وقد أصبحا الآن يتشارجان بوتيرة أكبر وغالباً.

كان المترجم يعرف أنَّ بإمكان إيزولدا أن تعرف متى تم فتح مستنداتها في آخر مرة، ولكنه كان يخشى أن يسأل أحد أصدقائه الخبراء في البرمجيات كيف له أن يعمل بحيث لا تتمكن من معرفة ذلك.

---

- 1 - مدينة في إيطاليا على البحر الأبيض المتوسط... المترجم

وما هو غريب في الأمر هو أن يقرأ المترجم كيف أنَّ إيزولدا كانت تعيش الليلات مع المترجم، في حين أنها كانت تخيل نفسها مع تريستان وأنَّ هذا الأخير هو الذي ياحتضنها في الظلام.

كان تريستان، وليس المترجم على الإطلاق، هو الذي يقوم بتقبيلها ويضاجعها في الليلات.

عادت إيزولدا ذات مرَّة إلى البيت بينما كان اللص يجلس مع الكمبيوتر المحمول الخاص بها، لكنه نجح في إغلاق جميع الملفات وفي إطفاء الكمبيوتر، وذلك لأنَّها ذهبت إلى دورِّ المياه فور وصولها.

راح المترجم يفتشف في رفوف إيزولدا، وفي ألبوماتها وأضابيرها وعلبها – كان يريد أن يعثر على صور لトリستان. سبق لها أن عرضتها عليه، لكنه لم يكتثر بها حينذاك ولم يتذكريها. أما الآن فقد راح يتأمل كلَّ صورة متسائلاً عمَّا إذا كان بينهما شبه بالفعل؟

كان أصدقاء إيزولدا وترستان يجتمعون كل عام في بيتهما – بمناسبة يوم وفاته.

وحدث أنَّهما عشيَّة اللقاء الدوري المرتقب بتلك المناسبة، تشاخر المترجم مع إيزولدا بسبب تافهٍ. حتى أنَّهما راحا يحطمان الأواني. وعندما ذهبت إيزولدا إلى العمل، قام المترجم بتشغيل الكمبيوتر الخاص بها، ثم فتح ملف مستنداتها وراح يقرأ:

«ذهبت هذه الليلة لكي أنام في غرفة الأطفال. سمعتُ كيف راح طفل يتنفس بصعوبة أثناء نومه، وكم كنت أتمنى لو أنَّ ذلك الطفل كان طفلنا أنا وأنت. وهو بالنسبة طفلك أنت. طفلك وليس طفله».

عندما عادت إيزولدا من العمل، اقترب المترجم منها واحتضنها مثلما كان يفعل بعد كل مشاجرة لكي يتصالحا. قال لها كما كانا يقولان بعضهما البعض:

سلام؟

كانت تبتسم وتدفن وجهها في صدره قائلة: شكرًا، كنت خائفة جدًا من أنَّ هذا اليوم سيكون سيئاً عندنا من جديد.

ابتسِم المُتَرْجِمُ:

كُلْ شَيْءٍ سُوفَ يَكُونُ عَلَى مَا يَرَام!

جاء الضيوف. قامت إيزولدا بتحضير وجة راكليتي<sup>(١)</sup>. كان اللقاء دافئاً وشيقاً بالأحاديث التي دارت خاللة.

ذهب المترجم لكي ينوم ابنه، حيث راح يقرأ له عن أورفين جيوس<sup>(٢)</sup> وجنود من خشب. كان قد حان وقت نوم الطفل منذ مدة طويلة ولكنه راح يطلب من المترجم أن يقرأ له المزيد، وقد لبى طلبه وراح يقرأ ويقرأ. لم أرغب بالانضمام إليهما.

وأخيراً غفا الطفل فأطأف المترجم الضوء، ثم ظل مستلقياً في العتمة وهو يصغي إلى التنفس الصعب للطفل.

عاد إلى غرفة الضيوف مع حلول وقت تقديم الفواكه. دار الحديث حول روسيا والوضع في الشيشان. سأل مخبري أسنان وهو ينقر حبات العنب، المترجم عن ذلك الإحساس الذي يختبره الشخص في حال لم يكن يتمنى لشعب صغير العدد، كما هو حال السويسريين أو الشيشانيين، وإنما لأمة كبيرة العدد - وهنا تلعم فجأة - بشرط ألا يكونوا من المحتلين ولا مُضطهدِين، وإنما يمكن القول - راح يقتل حبة العنب بين أصابعه من دون أن يتمكن من إيجاد كلمة مناسبة، فراح ينظر إلى المترجم مع ابتسامة كما لو أنه كان يتضرر مساعدة منه.

فأنقذه المترجم:

إذا كان يتمنى للروس.

صحيح مخبري الأسنان وألقى بحبة العنب في فمه، راح يمضغها ثم أضاف قرصة أخرى:

لا بدّ أنك فهمتَ ما أريد قوله؟

- 
- 1 الراكليتي هي أكلة سويسرية مشهورة ذات أصول فرنسية وهي عبارة عن جبنة ذات قوام شبيه صلب غير مستمرة تقدّم على الإفطار بعد اذابتها ويمكن أن تؤكل مع التوست المحمص أو الدجاج أو البطاطا أو مع شرائح البصل واللحام المقدد السويسري المترجم بطل سلسلة الحكايات الخرافية للكاتب الروسي أ. م. فولكوف حول بلاد العجائب ومدينة الزمرد.. وجنوده من خشب. المترجم
  - 2

بالتأكيد، لقد فهمت.

سكب المترجم ما تبقى من نبيذ في القنية في الكؤوس، ثم ذهب إلى المطبخ لكي يجلب قنية أخرى، وعندما عاد إلى الضيوف بدأ حديثه عن مقاطع الفيديو التي قام الشيشان بتصويرها. كان أحدهم قد شاهد لقطات من الفيديو على شاشة التلفزيون. أعلن المترجم أن معارف له أرسلوا إليه شريط الفيديو من موسكو. قاطعته إيزولدا قائلة:

لا داعي!

جذبها المترجم إليه وقبلها في عنقها، ثم قال:  
بالطبع، لن أفعل.  
راح الضيوف يلحوظون:  
هيا دعنا نشاهد!

راح المترجم يتمتنع قائلاً إنه من الأفضل، بالفعل، عدم رؤية الفيديو، لأنه لم يتم عرض تلك الصور على آية شاشة للتلفزة، حتى في روسيا.  
هذا يجعلنا نرغب بمشاهدتها أكثر! هيا، دعنا نشاهدها.

كان مخبري الأسنان أكثر من كان يريد رؤية ما لا يجوز رؤيته.

حمل المترجم الصحون إلى المطبخ، فلحقت به إيزولدا وقالت له  
خامسة بحيث لا يسمعها أحد في غرفة الضيوف:  
لماذا تريد أن تخرب عليّ هذه الأمسية؟

أجابها المترجم:  
ولماذا تظنين ذلك؟

وها هو شريط الفيديو أخيراً في جهاز العرض، توزع الجميع في أماكنهم،  
ثم قام المترجم بتشغيل الجهاز:

كان ثمة شخص ما يطلب أن يدفعوا فدية لتحريره، وكان يبدو فتى صغيراً تماماً، مرهقاً ومتسخاً، على الأرجح، جندياً أسيراً، يقومون بقطع إصبع له فييداً بالأنين بصوت خافت. راحوا يعرضون الإصبع المقطوع أمام الكاميرا.  
بعد ذلك راح شخص أجنبي - يتحدث الإنكليزية - يمدُّ باتجاه الكاميرا

قارورة تحتوي سائلاً عكراً، بوله الخاص مع آثار دماء، ثم راح يشكو قائلاً إنهم قاموا بضربه على كليته، وإنذ بشخص من خلفه يضربه بقضيب حديدي، فيتفضض ويصرخ.

رفضت إيزولدا منذ البداية أن تشاهد الفيديو، فخرجت إلى الشرفة وراحت تدخن.

ثم لحق بها أحد الضيوف بعد أن شاهد الصور الأولى من الفيديو. أرادوا أن يقطعوا للجندي الأسير حنجرته. راح يحاول الإفلات وهو ينخر ويتحدث بصوت أحش: «لا تفعلوا! لا داعي!». ثم يغيب نحو أسفل الصورة. يرفعونه من جديد، حيث تبدو يد سوداء ممسكة بوجهه الأحمر. هنا قام أيضاً ضيف آخر وخرج إلى الشرفة صامتاً.

ظهر في الصورة عجوز وقد راح يرسم إشارة الصليب بهدوء ويقول: سوف يقومون بقتلي بعد لحظات، وأنا أريد أن أقول إنني أحبكم كثيراً، وأحبك أنت أيضاً يا جينيتيشكا، وأنت أيضاً يا أليوشَا وأحبك أنت أيضاً يا فيتينكا!<sup>(١)</sup> ثم يقومون بقطع رأسه. لا تعرض الكاميرا في اللحظة الأولى رأسه، وإنما عنقه - مكبّراً - ما يجعله يبدو سميكاً، قياس 45 على الأغلب، وفجأة تقلص حتى حجم قبضة يد، تبرز منها الحنجرة ويدأدم قاتم بالتدفق. لم يبق أمام شاشة التلفزيون سوى المترجم ومحبّي الأسنان. بقيا جالسين وقد راحا يراقبان كيف يغتصبون امرأة راحت تصرخ باستمرار: «لا تلمسوا الطفل فحسب!». يقومون بحرق الشعر بين فخذيها ثم يقومون بدس لمبة في داخلها ويحطمون الزجاج هناك. تتحبّر المرأة وتئن وتتألم، ثم راحت تشنج على الأرضية. يتدفق الدم. قام شخص مُلتح مع نظارات سوداء على عينيه، بإدخال سبطانة المسدس في فتحة الشرج عند المرأة ثم ضغط على الزناد.

كفى! - قال محبي الأسنان - أطفئ جهاز العرض.

أطفأ المترجم التلفزيون وذهب إلى المطبخ من أجل تحضير الشاي. وسرعان ما غادر الضيوف.

---

1- هذه صيغ التدليع لأسماء علم جينادي وألكسي وفيتالي... فاقتضى التنوية! المترجم

من جديد ذهبت إيزولدا في تلك الليلة لكي تنام في غرفة الأطفال. قالت بدلاً من «تصبح على خير»:  
أنا أكرهك!

### 26 أغسطس / آب عام 1915. الأربعاء.

عرّفني اليوم أخي في باحة التزلج skating-rink على صديقه الجديد ألكسي كولوبوف، الطالب الذي تم إجلاؤه مع الجامعة من وارسو. كنت أتزلج مع لا لا وشاهدتُ من مسافة بعيدة نسبياً أن ثمة من يلوح لي من خلف إحدى الطاولات التي تقف من حول المزلجة. اقتربتُ من الحاجز المحيط بالمزلجة. قدمنا ساشا بعضنا. كانت الأوركسترا تعزف بقوّة كبيرة لدرجة أنه كان يجب علينا أن نصرخ لكي نسمع بعضنا. لديه عينان زرقاوانيتان ساحرتان، ويد دقيقة جميلة، وقد اكتسى وجهه بالحمرة بطريقة مضحكه عندما صافحني. دعوته للتزلج لكنه اعتذر. لا يجيد التزلج. شعرت بعدم الراحة معهما وبالملل نوعاً ما. لا يوجد ما يمكن التحدث عنه معهما. والأدق، لم يكن مللاً، بل كان نوعاً من القلق. تمنيت أن أهرب وأن أختبئ. أسرعتُ من جدي إلى وسط المزلجة، إلى حشد المترسلجين الكبير.

وها أنا الآن أكتب وأسأل في سري عمّ أصابني؟ لعله، ربما...

### 27 أغسطس / آب عام 1915. الخميس

عاد آل مارتيانوف. رأيت جينيا اليوم. دُهشتُ: ما الذي أعجبني فيه؟ جاء بابا يحمل خريطة، فرحنا نتأملها ونعاينها. الأمور على الجبهة توسيء أكثر فأكثر - انسحبنا من بولندا، وتنازلنا عن ليتوانيا وروسيا البيضاء بالكامل. يتبع ساشا مع بابا انسحاباتنا على الخريطة يومياً. تدفق اللاجئون إلى مدينة روستوف من كل حدب وصوب.

رحت أثناء الليل أفكّر بجينيا وتذكري من جديد كيف راح يعرض عليَّ حينئذ التجربة التي يقوم فيها المغناطيسي بإضفاء رسم متوازن على النشرات المعدنية من خلال الورق، وكيف آتني قلتُ له إنني لم أعد أحبه - وكيف أصبح بعد كلماتي مثيراً للشفقة وذليلًا وهو يمسك بيديه المغناطيسي مع الورقة.

على الأرجح، أنا شخص سيئ جدًا. ييدأنني لاأشعر بأية شفقة تجاهه. الأصح، أشفع عليه بكل تأكيد، ولكنه يصبح مثيراً للشفقة أكثر من جراء إشفاقي ذاك عليه.

لم أغرم في الكسي. نعم، إنني أحش. أنا أدرك.

29 أغسطس / آب عام 1915. السبت

الجميع يعودون بعد انتهاء أيام العطل، ويفدوون بالحديث بعضهم مع بعض عن قصصهم العاطفية خلال فصل الصيف - وأنا أعتقد أنها في معظمها قصص ملقة.

أما ميشكا فقد أثارت دهشة الجميع. تعرفت أثناء الصيف على طالب حقوق شاب - كانت أمّه تستأجر بيته ريفياً مجاوراً. قال لها إنه مغرم بها، وإنه سوف يتخرج في الجامعة في السنة القادمة وسوف يتزوجها. وفي اليوم التالي وصلت والدته - امرأة متغيرة ومتكبرة، ركعت على ركبتيها - أمّام ميشكا! - وراحت تتسلل لها أن ترفض ابنها. راحت تؤكد لها أنهما ما زالا فتيان وأنهما لا يناسبان بعضهما البعض، وأنّ ميشكا لن تشعر بالراحة وبالانسجام في أوساطهما. وأماماً هو فسوف يشعر بالحياة وبالتردد معها، وسوف يكون تعسًا. وأخيراً أعلنت لها أنهم مثقلون بالديون وأنّ لديه بالأساس خطيبة وهي فاتنة وثرة، إنها من المجتمع المخملي، وأنّ ميشكا في حال كانت تحبُ ابنها فعلًا، فمن واجبها أن ترفضه لأجل سعادته. أرسلت له ميشكا رسالة وداعية كتبت فيها أنهما لن يلتقيا بعد الآن أبداً وأنه حرٌّ من أي ارتباط معها، وأنها سوف تبقى على حبها له مدى الحياة.

لا أعرف ما إذا كان يجب أن أصدق ذلك أم لا. علماً أنّ ميشكا لم يسبق أن كذب.

ذهبت إلى المستشفى.

ثمة سحب رمادية أشبه بأردية المشافي.

أشعر بالأسى. أتذكر الكسي طوال الوقت. أصبح صديقاً لساشا ولذلك يزورنا من وقت لآخر، لكنه لا يعيّرني أدنى اهتمام. وأنا بدوري. إماماً أنه خجول وإماماً أنه مُضجر. والأرجح أنه مضجر.

عاد بيتيانا نازاروف. تغيّر كثيراً وأصبح أكثر نضجاً. ذكرنا سيمونا (سيميون) وقلنا في البداية إنه لا بدّ قد قُتل، ولكن فيما بعد جاءت بطاقة عن طريق الصليب الأحمر تخبرنا أنه في الأسر لدى الألمان.

#### 4 سبتمبر / أيلول عام 1915. يوم جمعة

كان الكسي في زيارتنا اليوم من جديد. من الأفضل لو أنه لا يأتي لزيارتـنا! دخل في اللحظة التي عدتُ فيها للتو من المدرسة - لم أكن بذلك ملابسي بعد، كنتُ أرتدي فستاناً بنيناً فظيعاً مع متزراً أسود فوقه - وكانت على يدي بقعة من الحبر! التقينا في ردهة الممر - كنتُ خارجة من الحمام وبسبب خوفي من أنه رأني وسمع صوت الماء في خزانة المياه، تجمدت في مكانـي وتعـرقـت راحتـها كـفـيـ، كما أـنـي رـاحـتـ أـرمـشـ بـعـينـيـ - من دون أن أـمـكـنـ من نـطـقـ أـيـةـ كـلـمـةـ. وقد رـاحـ مع شـقـيقـيـ يـتـحدـثـانـ بـوـجـودـيـ - عـمـ، يا تـرىـ؟ لـقـدـ وـضـعـواـ عـلـىـ السـلـمـ فـيـ الجـامـعـةـ عـنـدـهـمـ صـنـدـوقـاـ لـلـبـرـيدـ كـتـبـ عـلـيـهـ «الاستمارـةـ الجنـسـيـةـ» - يمكنـ للـمـرـءـ أـنـ يـضـعـ فـيـ مـعـلـومـاتـ مـغـفـلـةـ بـخـصـوصـ حـيـاتـهـ الجنـسـيـةـ. أماـ أـنـاـ فـبـقـيـتـ وـاقـفـةـ وـمـحـمـرـةـ مـثـلـ بـلـهـاءـ. طـفـرـتـ عـيـنـايـ بـالـدـمـوعـ! خـرـجـتـ مـنـ هـنـاكـ بـسـرـعـةـ رـصـاصـةـ.

أـكـرهـ ذاتـيـ!

#### 8 سبتمبر / أيلول عام 1915. ميلاد السيدة العذراء.

أـصـبـحـ أـخـيـ رـجـلـاـ نـاضـجـاـ - بدـأـ يـحلـقـ ذـقـنـهـ.  
بلـ إـنـ الجـمـيـعـ أـصـبـحـواـ نـاضـجـيـنـ - كـاتـياـ وـماـشاـ أـيـضاـ.

ومـاـ عـنـيـ؟ أـنـاـ فـيـ الصـفـ الأـخـيرـ مـنـ المـدـرـسـةـ! وـمـاـ الـذـيـ لـاحـظـتـهـ فـجـأـةـ؟ أـنـاـ الـآنـ مـوـضـوـعـ لـلـافـتـانـ وـالـهـيـامـ! فـقـدـ ظـهـرـتـ لـدـيـ مـعـجـبـةـ مـنـ الصـفـ الأولـ، اـسـمـهـاـ موـسـيـاـ سـفـيـتـلـيـتـسـكـاـيـاـ، اـمـتـلـأـتـ بـالـمـحـبـةـ نـحـويـ وـرـاحـتـ بـجـمـيـعـ الـوـسـائـلـ تـعـبـرـ لـيـ عـنـ إـعـجابـهـ بـيـ. رـاحـتـ تـجـريـ خـلـفـيـ أـثـنـاءـ الفـرـصـةـ، مـثـلـ كـلـبـ أـلـيفـ، تـلـتـصـقـ بـيـ وـتـقـبـلـ لـيـ يـدـيـ! أـعـجـبـنـيـ الـأـمـرـ فـيـ الـبـداـيـةـ، أـمـاـ الـآنـ فـقـدـ صـارـ مـزـعـجـاـ وـمـضـجـرـاـ. وـمـاـ هوـ أـكـثـرـ أـهـمـيـةـ، أـنـيـ لـاـ أـسـتـطـعـ التـخـلـصـ مـنـهـاـ! اـشـتـرـيـتـ لـهـاـ صـبـاحـاـ وـأـنـاـ فـيـ طـرـيقـيـ إـلـىـ المـدـرـسـةـ شـوـكـولـاتـةـ مـحـشـوـةـ

بالكريمة، نفس تلك الشوكولاتة التي لطالما كنت أحبتها منذ طفولتي، في  
غلاف ملوّن ومع طرفين. إذا ما سحبت أحدهما - تظهر لك صورة عليها  
وجه وليام<sup>(١)</sup> الغاضب، وإذا ما سحبت اللسان الآخر - يظهر لك رأس  
مع غرّة للقوزافي كوزما كريوتشفوف<sup>(٢)</sup> الموجود في كل مكان. قدّمت  
الشوكولاتة هدية لموسيا، فكادت تطير من فرط سعادتها!

يا إلهي، كم أريد أن أحّبَ أحداً ما بنفس هذه القوة وبنفس هذا الشغف!

الخميس 10 أيلول عام 1915.

الطقس، معرف.

جاء ألكسي مرة أخرى. لكنه لا يكترث بي نهائياً. وأنا بدوري لا أوليه أدنى اهتمام. أصبحت أنفر منه أكثر وأكثر. ما معنى هذا - هل هذه غطرسة؟ أم تعجّر؟ هل يعتبر أنني لم أكبر بما فيه الكفاية لكي أسمع أحاديثهما شديدة الذكاء؟

وَمَا مِنْ ضُرُورَةٍ لَهَا!

السبت 12 أيلول عام 1915.

كفى، لقد أغرتُ! وكيف! علمًا أني أغرتُ منذ النظرة الأولى، حينئذ، على المزلجة، ولكنني بكل بساطة كنت أختبئ خلف إصبعي، كنت أخشى أن أجرح شعوري، وأن أتسبب بالأذى لنفسي. ما سبق أن كان بيبي وبين جينيا - أمر تافه لا قيمة له. مجرد طفولية. جينيا - طفل، صبي لا أكثر. بساطة لم أكن أعرف ما هو العشق!

ألكسي! أليوشا! يا له من اسم جميل!

ويا له من يوم رائع بامتياز!

- المقصود على الأرجح هو ملك إنكلترا 1066-1087 وأول من حكمها من بيت نورماندي، هو أيضاً دوق النورماندي (1035-1087م). كان أباً غير شرعي لأبيه روبرت العظيم من عشيقته هيرليفا، بعد ما خلف والده واجه بعض الصعوبات بسبب وضعه كابن غير شرعي وأيضاً بسبب صغر سنه إضافة إلى الفوضى الحاصلة بالبلاد ذلك الوقت.. المتترجم

-2- 1890-1919 من قوزاق الدون. أحد أبطال الحرب العالمية الأولى الذي أصبح في عام 1914 مشهوراً في جمجمة أنحاء روسيا. المترجم

ذهبنا أنا وألكسي اليوم إلى مسرح الدراما «النهضة»، حيث حضرنا مسرحية «ستينكا رازين»<sup>(١)</sup>. كنت أجلس من دون أن أرى شيئاً، فلم أشعر سوى بوجوده قريباً مني، وببيده فوق يدي.

كم كان رائعًا في تقبيله لي! لم أعرف القبلة الحقيقة للرجل إلا معه! من المستحيل أن يقارن ذلك بأي شيء آخر! وأنا لليوم الثاني أعيش حالة من الشغف والهياج الشديد.

وهناك أمر آخر، هام جدًا أيضًا: راح أليوشَا يخبرني في طريق عودتنا أن الطلاب قاموا بتأليف فرقة مسرحية وأنهم يحضرون لعرض مسرحية خيرية. وقال إنه هو بالذات لا يمثل، ولكنه مسؤول عن الإلدارة. سأله ما إذا كانت لدى رغبة بالتمثيل؟ إلهي! أنا؟ أمثل؟ وفوق ذلك أن أقوم بالتدريب على المسرحية مع أليوشَا؟ أكاد أموت من فرط سعادتي! سأله عن طبيعة المسرحية التي ينونون عرضها. لم يقرروا بعد. سوف يقوم الطالب كوستروف بإخراج المسرحية، وسبق أن تعلم في استوديو المسرح الفني.

هكذا هي الأمور! فأنا قريبة من أن أصبح ممثلة مسرحية!

على الأغلب، يجب أن أخجل من القيام بذلك، ولكني أريد أن أمثل على خشبة المسرح، أريد أن أكون في مركز الاهتمام، أرغب بالتصفيق وأرغب بصيحات الحب والإعجاب التي تنطلق نحوى من الصالة! هذا نوع من الحمامة بكل تأكيد، بيد أنني لا أستطيع كبح جماحي.

تم إجلاء المعهد الطبي النسائي من وارسو، إلى جانب الحلقات النسائية العليا. وقد أعربت كل من تالا ولا عن رغبتهما بالانساب إلى المعهد الطبيعي. وهما تريدان مني أن أنضم إليهما.

كلا، فأنا أعرف طريقي. أنا أريد أن أغنى. أريد أن أغنى، ولن يتمكن أي شيء من الوقوف عقبة أمامي - لا الحرب ولا الاهزات الأرضية ولا الطوفان! لقد انتظرت هذه اللحظة سنوات طويلة، لكي أظهر في هذا المكان! وماذا؟

- 1 - هو نفسه ستيبان رازين 1630-1671 قائد أكبر انتفاضة للفلاحين في تاريخ روسيا ما قبل بطرس الأكبر. المترجم

هل يجب أن أتخلى عن ذاتي وعن طموحي؟ كلا، سوف أغنى في هذه  
الحياة ولا أريد أن أنظر أي مصير آخر!  
أو المسرح.

كم أنا سعيدة! أليوشَا حبيبي!

17 أيلول عام 1915. الخميس

أحضر إر. إر. اليوم هيكلًا عظيمًا إلى حصة علم الحيوان - اضطربت  
البنات ورحناً يولولنَّ، أما هو فعثر على ما يمكنه أن يهدئهنَّ، إذ أعلنَ أنَّ  
الهيكل العظيم يعود للباب العجوز واو، بيلينسكي، البدين الذي أوصى  
بحجته لخدمة العلم والتنوير. أما أنا فلم أكن أعرف حتى أنه توفي. إذ كان  
العجز قد اختفى بعد انتقال المدرسة من مكانها. قالوا إنه رحل إلى شقيقته  
في مدينة نوفوتشيركاسك.

اللَّهُمَّ اعْفُ عَنْ رُوحِهِ! إِذْ لَمْ يَحْصُلْ جَسْدُهُ عَلَى الْهَدْوَءِ.

أكثر ما يشبه إر. إر. من منظر جانبي الجرذ. إنه مقرف. أكثر مما هو  
مقرف زابوغ斯基، وهو يحكم علينا مسبقاً ويعتبرنا غبيات. وقد راح يعرض  
 علينا إحدى التجارب منذ الدرس الأول - كان يريد أن يقول إن المجموعة  
الشمسية لم يخلقها رب، بل انظروا: راح يحرك بملعقة قطرة من الدهن في  
كأس - وبسبب السرعة الكبيرة في التحرير دورانياً، انشطرت القطرة الكبيرة  
وانقسمت إلى عدة قطرات صغيرة - معتبراً أنها لوعة توسيعية ممتازة عن  
آلية نشوء المجموعة الشمسية مع الكواكب. «هل فهمتم؟» - «نعم» - «هل  
من أسئلة؟» - «لا». غضب وقال: كان يجدر بكم أن تسألوها - ومن ذا الذي  
قام بتحريك الملعقة إذن؟ يا لكنَّ من ذكريات!».

وهو يقول «ذكريات» لكي لا يقول لنا أنها حمقاءات.

ثمة إشاعة كما لو أن مدير المدرسة مغفرة به.

ما زال جينيا طفلاً. صادفني في الشارع، اقترب مني وأراد أن يقول شيئاً  
ما، بيده أنه التزم الصمت وراح يقتل قبعته المدرسية في يديه.  
في حين أنَّ ألكسي - رجل ناضج وذكي. أشعر معه بمحنة كبيرة! لقد فرأ

الكثير من الكتب وهو مثقف جداً ويعرف أشياء كثيرة! تبين أنّ فكرة التمثيل - في المسرح - من بنات أفكار الفرنسيين، في حين أنّ مسرح الإغريق - عبارة عن ago، أي أعمل، أحيا. ومن هنا جاءت كلمة agonie أي سكرة الموت أو الاحتضار.

والأمر هكذا بالضبط: المسرح بالنسبة لي ليس تمثيلاً، وإنما حياة أو موت.

لا أستطيع النوم. مؤرقة. أدنن وجهي في الوسادة ولكنني أتخيله، وأرى كيف يبتسم وكيف يقبلني. سقطت اليوم شعرة من رمشي في عينه، لذلك رحتُ أحسها بلسانى.

19 أيلول عام 1915. السبت.

وهكذا تقرر أنا سوف نقوم بإخراج مسرحية «المفتاح»<sup>(١)</sup>! أنا سأقوم بتمثيل دور ماريا أنطونوفنا.

إنّ كوستروف صاحب خيال خصب جداً، لدرجة كاد يحسب نفسه أنه ستانيسلافسكي، ولذلك راح يطلب من الجميع طاعته كمل لو أنه إله، وكما لو أننا نحن نمثل في استوديو المسرح الفني بالفعل. بيد أنه من ناحية أخرى، ذكي وموهوب حقاً. ويروق لي أنّ كل شيء يجري لدينا بصورة جدية.

كما أنه فنان مسرحي حقيقي. يعرف كل شيء بخصوص المسرح. طارت ورقة من الأوراق التي كتب عليها الدور إلى أرضية خشبة المسرح، فقام على الفور بالجلوس عليها. شرح لنا أنّ هذه عبارة عن تعويذة معروفة وقديمة لدى الممثلين. في حال لم تجلس على «الدور المفقود» - سوف يكون ثمة إخفاق.

غضبت تالا لأنّه لم يعد لدى وقت فائض لكي أذهب معها إلى المستشفى. أم إن ذلك بسبب جينيا؟ فهي تحبّ أخاها كثيراً!

يجب أن يكون أمراً سيئاً ما أفعله - أني فضلت المسرح على مساعدة الجرحي. ولكن، ألا يعتبر الفن أيضاً نوعاً من المساعدة للناس؟ لا أعرف.

---

- 1 - للكاتب الروسي العظيم غوغول. المترجم

يلزمني بعض التفكير بهذا الشأن. بيدَ أنني أشعر بمحنة كبيرة أثناء التدريب على الأدوار في المسرح! أما في المستشفى فيتكرر الشيء ذاته باستمرار! أعدتُ قراءة ما كتبت هنا وقلتُ في نفسي: كم أنا أناانية! شعرت بالخزي تجاه تالا.

اليوم، وبعد أن تفرق الممثلون وغادر الجميع، راح كوستروف يروي لنا كيف أنَّ السكان المحليين جاءوا إلى مكان تصوير فيلم «الدفاع عن سيفاستوبول» وهم يحملون مطالب وشكاوى. كانوا قد رأوا حاشية كبيرة في بدلات رسمية فظنوا أنَّ هؤلاء من القيادة. حتى أنَّ عجوزًا تشتبث بكونستروف الذي كان يرتدي بدلة جنرال وراحت تنتصب وتتوسل إليه طالبة شيئاً ما منه. لم تصدق بأي شكل أنه ليس جنرالاً على الإطلاق. وقد اضطروا لطلب مساعدة الشرطة في تفريق الفلاحين، وذلك كي لا يتوقفوا عن التصوير.

رحت أخبرهم أثناء تناول العشاء عن التدريبات في المسرح، وإذ يسألني بابا: «وهل تعرفون ما هو أهم شيء في مسرحية «المفتش»؟ - «الفضح»؟ - «كلا». - «مشهد الصمت»؟ - «كلا». - «ماذا، إذن؟» - «الأكثر أهمية هي الطريقة التي يطلب بها بوتشينسكي أن يُنقل للقيسار تعريفاً بمن هو بيتر إيفانوفيتش بوتشينسكي». «لماذا؟» - «هذا غير قابل للشرح. هذا يجب فهمه وإدراكه فحسب».

ينجح بابا في بعض الأحيان بأن يكون كريهاً إلى أبعد حد بكل بساطة!  
أقبلك، يا أليوشَا! تصبح على خير!

3 أكتوبر / تشرين الأول عام 1915. السبت.

مضى زمن طويل ولم أكتب شيئاً في دفتر مذكراتي! ليس لدى وقت لذلك نهائياً. أقضى الوقت بأكمله في المسرح مع أليوشَا. لا أقوم بأي شيء تقريباً بما يخص المدرسة. يجب علىَّ من كل بد أنْ أبذل مزيداً من الجهد، وإنَّما سيكون معيَاً إذا ما نلت علامات ضعيفة!

أتقمص الدور تماماً! في البيت أقوم بتبديل ملابسي وأضع ماكياج التمثيل. راحت المربيَّة تضحك وتقهقه عندما رأوني. غضبت عليها وأغلقت الباب بعنف. إنها عجوز وجاهلة!

أسعى جاهدةً لكي أتقمّص الدور ولكي أدخل إلى أعماق الشخصية التي أقوم بتمثيلها: هأنذا مغرة بخليستاكوف. ولكن كيف ذلك؟ ولماذا؟ إذ إنه شخص حقير ومخادع، كما آنه سكير! مجنون، في نهاية الأمر! هذا لا يحدث! أنا أحبّ أليوشـا. وهذا مفهوم بالنسبة لي. فهو مختلف تماماً. ذكي وجذاب، لطيف ومؤدب. جميل وشجاع. لديه فم فاتن، وأنفه أيضاً وجبينه كذلك. ويداه! يمكن للمرء أن يُغرِّم بيديه وحدهما.

يبدأً هذا كله لا ينفع في عملي مع الدور. يجب عليَّ أن أجد نقاط تماـس ما - ما هو مفهوم لي و قريب مني، ما يمكنني أنا أيضاً أن أكون عاشقة له. ومن جديد أحـاول أن أتخيل الوجه المغفل ليـتـرـوـفـ البـلـيـدـ، الذي يـشـبـهـ خـلـيـسـتـاكـوـفـ فيـ المـسـرـحـيةـ - ولكنـ، عـبـثـاـ، إذـ لاـ أـنـجـحـ فيـ ذـلـكـ.

لاـ أـنـجـحـ لأنـنيـ طـوـالـ الـوقـتـ أـفـكـرـ بـأـليـوشـاـ فـقـطـ - سـوـفـ يـتـناـولـ الـيـوـمـ العـشـاءـ مـعـنـاـ. لـذـلـكـ أـجـلـسـ قـرـبـ النـافـذـةـ وـأـرـاقـبـ الشـارـعـ. وـهـنـاكـ خـرـيفـ، بـرـدـ وـمـطـرـ وـأـوـحالـ.

فـجـأـةـ خـطـرـتـ بـبـالـيـ فـكـرـةـ حـمـقـاءـ، كـمـاـ لـوـ أـنـيـ سـأـمـوـتـ الـآنـ، وـأـنـ حـيـاتـيـ بـأـكـمـلـهـ لـيـسـ سـوـىـ هـذـاـ الرـصـيفـ، وـهـذـهـ الشـجـرـةـ الـعـارـيـةـ تـقـرـيـباـ، وـذـلـكـ الـكـلـبـ الـمـبـلـلـ الـذـيـ رـاحـ يـجـريـ بـمـحـاـذـةـ النـافـذـةـ، وـهـذـهـ السـمـاءـ الـمـاطـرـةـ فـوـقـ مـدـيـنـةـ روـسـتـوـفـ - وـهـذـاـ كـلـ شـيـءـ. هـذـهـ هـيـ حـيـاتـيـ بـالـكـامـلـ. يـاـ لـهـ مـنـ كـابـوـسـ فـظـيـعـ!

إـنـهـ قـادـمـ!

سوـفـ أـكـمـلـ تـدوـينـيـ لـهـذـاـ الـيـوـمـ مـسـاءـ.

راح أليوشـاـ يـحـكـيـ لـنـاـ بـطـرـيـقـةـ مـثـيـرـةـ كـيـفـ أـنـهـ كـانـ مـعـ أـهـلـهـ وـمـعـ أـخـيهـ الصـغـيرـ فيـ أـلـمـانـيـاـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـحـرـبـ، وـكـيـفـ أـنـهـمـ قـامـواـ بـطـرـدـ جـمـيعـ الـرـوـسـ هـنـاكـ إـلـىـ سـوـيـسـراـ. لمـ يـمـنـحـوـ النـاسـ الـذـيـنـ عـاـشـوـاـ هـنـاكـ لـسـنـوـاتـ طـوـيـلـةـ سـوـىـ 24ـ سـاعـةـ مـنـ أـجـلـ جـمـعـ أـغـرـاضـهـ وـالـسـتـعـدـادـ لـلـرـحـيلـ! وـقـدـ اـجـتـازـواـ بـحـيـرـةـ بـادـينـ فـيـ باـخـرـةـ بـرـفـقـةـ كـاتـشـالـوـفـ نـفـسـهـ! وـمـنـ ثـمـ عـادـوـاـ إـلـىـ الـيـوـنـانـ عنـ طـرـيقـ إـيطـالـيـاـ بـحـرـاـ.

لـقـدـ زـارـ أـمـاـكـنـ كـثـيـرـةـ، فـيـ حـيـنـ أـنـيـ لـمـ أـرـ شـيـئـاـ باـسـتـثـنـاءـ مـدـيـنـةـ روـسـتـوـفـ

اللعينة! تبيّن أنّ لوحة «العشاء السري» لليوناردو، التي رسمها على جدار قاعة الطعام في الدير في ميلان، تتعرّض لعملية تخريب! كان دافنشي قد رسمها بألوان زيتية،وها هي طبقة الألوان تتحوّل إلى توبيجات دقيقة وتلتفت على شكل أنابيب وتنفصل عن الجدار. لم أضبط نفسي وصحت: «يا للهول!». أما ساشا، الغبي، فقال: «آلاف الناس يقتلون في الخنادق، وأنتم تتحدثون عن ألوان زيتية ما!». فما كان مني إلا أن قلت له: «غبي!». رحنا أنا وشقيقتي نتشاتم، فقام أليوشـا - حبيبي الذكي - بمصالحتنا ببعضنا مع بعض. ثم قاموا بنقلهم من سالونيك إلى صربيا بواسطة القطار. علمًا أنهم نقلوهم مجانًا، لأنّ الدماء الروسية كانت تسفك بسبب صربيا بالتحديد: قام المراقب في القطار بالتحقق من جوازات سفرنا مع الشعار بدلاً من سؤالنا عن بطاقات السفر. راح أليوشـا يخبرنا كيف أنّ الصربي كان يتطلع إلى الروس بتعاطف، ولكننا لم نكن نستحق ذلك إلى درجة مهينة. «وهل نحن، يا تُرى، كنا نسفك دماءنا؟ - تسأله أليوشـا - كنا نفُرُّ ونتذمر ونشكو من الظروف الصعبة ومن قلة النقود، كما كنا نتشاجر بسبب مكان إضافي!». بعد ذلك وصلوا إلى بلغاريا ومن هناك انتقلوا إلى رومانيا - ومن هناك بواسطة السفينة عبر نهر الدون إلى البحر الأسود. قال أليوشـا إن تلك الأماكن كانت أقرب إلى الأماكن عند أسفل مجرى نهر الفولغا. سأله بابا: «وماذا عن إسماعيل<sup>(١)</sup>؟ لقد أبحرتـم بمحاذاة إسماعيل!». انفجر أليوشـا ضاحكا وأخبرنا أنه شاهد مدينة إسماعيل عن طريق الصدفة تماماً - خرج لكي يدخّن. «ومدينة إسماعيل بالمجمل أشبه بميناء للمراتب على نهر الدون عندنا». «وهل هذه هي بمجملها؟» - «هذه هي كلّها».

أشعر بالتعب، ليس لدى وقت ولا قدرة على الكتابة.

ليشينـكا! أنا أحـبـك وأفـيلـك! إلى اللقاء غـداً!

٥ أكتوبر/ تشرين الأول عام 1915. الإثنين

ومن جديد زابوغسكي ذاك! يمكنه أن يدفعني إلى الانتحار شنقاً!

- ١- المقصود مدينة إسماعيل في منطقة أوديسا من أوكرانيا - وهي مدينة عريقة تأسست في بدايات القرن التاسع عشر. المترجم

راح اليوم أثناء إجراء مذكرة يتمشّى في الصف ويراقب حتى لا يقوم أحد بالغش والتقل عن زميل له. وفي كلّ مرة كان يمُرُّ بقربي كان يتوقف خلف ظهري وينظر من فوق كتفي إلى دفترِي الفارغ، ثم يبدأ بالهسهسة: « رائع! رائع! ». كدتُّ أبكي! كان ينحني قريباً مني لدرجة أنني كنت ألتقط أنفاسه المثيرة للقرف. وفي إحدى المرات خُلِّلَ لي كما لو أنه لمس شعري - على الأرجح، لقد كبح نفسه بصعوبة بالغة كي لا يمسك جديليتي ويشدّني منها. وكان طوال الوقت يحكَّ الثؤلول لديه.

أكمل الكتابة بعد أن تناولنا العشاء. أخبرتهم للتو عن الشخص الذي يقهرني ويعذّبني، فقال باباً أنّ زابوغسكي دفن زوجته في العام الماضي بعد أن توفيت هي ولداتها أثناء الولادة. لم أكن أعرف ذلك. لماذا الناس أشرار؟ لماذا أنا شريرة؟

#### ٩ أكتوبر / تشرين الأول عام 1915. يوم جمعة.

كنت اليوم في بيت أليوشَا، وقد أراد أن يعرّفي على أهله. شعرت ببعض الاضطراب. أخبرني أليوشَا فيما بعد أنني أعجبتهم وأنهم أحبوّني! إنهم أناس لطيفون. وقد سافروا كثيراً ورأوا أماكن كثيرة من العالم، كما أنهم عاشوا في بلدان عديدة. راح والده يروي لنا كيف أنه اضطرب عام 1894 لأن يعيش هزة أرضية رهيبة في مدينة القدس، حين قُتل خلال دقيقتين أكثر من 2000 شخص. كما أضاف أنه رأى في مكان عالٍ على جدار كنيسة القدس صوفيا آثار ليد السلطان الدامية، التي خلفها عندما دخل راكباً على حصانه إلى الكنيسة فوق جبال من الجثث بعد أن حاصر المدينة.

ولكن لماذا لم يحدث أن كنت في أي مكان ولم أزر أي بلد؟ يا إلهي، كم أتوق لرؤيه العالم!

تحدّث أهل أليوشَا كثيراً وباستفاضة عن مدينة وارسو، حيث عاشوا بضع سنوات. وقالوا إنّ البولنديين لم يحبّوا الروس يوماً، وحتى أن البائعين في المتاجر، وبمجرد أن يسمعوا كلاماً باللغة الروسية، فإنهم يعلنون على الفور «لا أفهم بالروسية»، وأنّ المارة هناك من البولنديين إذا ما سأّلهم أحد من

الروس أن يدلّوه إلى عنوان ما، فإنهم يقومون بتضليل «الموسكونيين»<sup>(1)</sup>، أي إنهم يرشدونه بحيث يسلك طريقاً خاطئاً. أما أنا فقد بقيت ملتزمة الصمت ثم قلتُ فجأة إننا نحن الروس، لا ننحدر على أحد ونسامح الجميع على كل شيء، كما أخبرتهم كيف أنَّ نوسيما كتبت في رسالة لها أن المقاتل البطل الروسي، ولأننا نتعاطف مع بولندا، «أثناء حياة القيسِر» لا يموت بالسيوف البولوندية، وإنما يموت بسبب البرد والصقيع. راح الجميع يضحكون، وهذا ما أربكني بقوَّة، لكنَّ أليوشَا نظر نحوَي بطريقة لطيفة جعلتنيأشعر على الفور بالراحة، فرحتُ أقهقه مع الجميع.

الشقيق الأصغر لألکسي صبيٌّ لطيف جدًا، ولكنه مضجر ومصدر للإزعاج - إذ جاء راكضاً إلى شقيقه في الغرفة ولا يفكّر بأن يذهب إلى غرفته. وعده أليوشَا بأنه سوف يعرض عليه إحدى الحيل، وهذه الرشوة وحدها جعلت تيموشكا يغادر الغرفة: ملأَ أليوشَا سطلاً بالماء ثم راح يدور السطل في فناء البيت بطريقة لا تجعل الماء يندلع من السطل عندما يكون أعلى مقلوباً نحو الأسفل.

قبَلنا بعضنا ثم رحنا نتحدث عن المسرح، بعد ذلك سألني عن المستشفى الذي أذهب إليه. علمًا أني لم أذهب إلى المستشفى منذ مدة طويلة، ولذلك شعرتُ بالحرج. قال أليوشَا إنه يتآلم لأنَّ الآخرين مضطرون لأن يقاتلوا وليس لأنَّ يبقوا بأمان ومرتاحين في المناطق بعيدة عن الجبهة. وأنه غير خاضع للتجنيد الإلزامي. كما قال إنَّ جده من ناحية أمِّه - ألماني.

لم أكن أعرف ببساطة ما هو الإحساس القوي! أما الآن فأنا مغممة. والآن أصبحتُ أعرف ما هو الإحساس الحقيقي.

12 أكتوبر/ تشرين الأول عام 1915. الإثنين.

راح جينيا يغازل لا بشكل استعراضي - بقصد إغاظتي. دعه يفعل. حتى إن ذلك يثير الضحك عندي فحسب.

- تعريب الكلمة الروسية القديمة МОСКАЛЬ وهذا لفظ يحمل نوعاً من الإذراء والإهانة كان يطلقه سكان بولندا وأكرانيا في البداية على الجندي الروسي ومن ثم بات يشمل كافة أبناء الإناثية الروسية - المترجم

13 أكتوبر عام 1915. الثلاثاء

قال لي أليوشنا اليوم إنه يريد الذهاب إلى الجبهة متطوعاً. شعرتُ بخوف شديد. إنه يريد أن يتطلع في الجيش. «لا يحق لي أن أبقى نظيفاً بينما القذارة شاملة وطال كل شيء». أنا خائفة.

15 أكتوبر عام 1915. الخميس.

أخيراً أخبرت أمي اليوم بأنني أريد أن أصبح ممثلة، وأنني سأذهب بعد التخرج في المدرسة إلى موسكو لكي أنتسب إلى دورات في معهد الدراما. بقيت صامتة في بادئ الأمر، ثم انفجرت. راحت تصرخ قائلة إنها لن تسمح لي بالذهاب إلى أي مكان، لأنَّ «مستنقع الحياة البوهيمية» سوف يغرقني نحو الأسفل، كما عبرت. أما أنا فأعلنتُ أنني أرى وبصورة حاسمة، أنَّ نمط الحياة البرجوازية الهدأة والمستقرة مع ما فيها من خداع كبير ومن ملل أسوأ بكثير من تلك الحياة - وأنني أريد أن أكرس نفسي للفن. انطلقت إلى البو فيه من أجل قطرات الدواء: «وماذا تفهمين في المسرح، يا تُرى؟ يحلم الجميع بأن يصبحوا من أمثال يرمولوفا أو سافينا<sup>(١)</sup>، ولكنهم يتحولون إلى مجرد عشيقات عند الأندال الأثرياء ويقمن بـلـعـب دور قرويات فقيرات يضعن آلاف الأقراط أو يـصـبـحـنـ أحـصـنـة ضـعـيـفـة فيـ المـسـرـح لـقاء مـرـتـب مـقـدـارـه أـرـبعـين روبلـاـ!». كنتُ أعرف أنها ستعرض و كنت مستعدة لأن أسمع منها كلـامـاـ من هذا النوع. يـبـدـأـ أنها قـامـتـ فيما بـعـدـ بتـصـرـفـ لاـ أـسـتـطـعـ أنـ أـغـفـرـهـ لهاـ! كـنـتـ علىـ وـشـكـ المـغـادـرـةـ،ـ وإـذـ بـهـاـ تـصـيـحـ فيـ إـثـرـيـ قـائـلـةـ:ـ «ـانـظـرـيـ إـلـىـ نـفـسـكـ فـيـ الـمـرـأـةـ!ـ هـلـ يـمـكـنـكـ يـأـتـرـىـ مـعـ مـثـلـ هـكـذـاـ شـكـلـ خـارـجـيـ أـنـ تـصـبـحـ مـمـثـلـةـ؟ـ!ـ»ـ.

أنا شخص فظيع وتفاه. أنا أكره أمري.

أليوشينكا! كم أنا بحاجة إليك الآن!

17 تشرين الأول عام 1915. السبت.

بابا - إنسان من ذهب. بابا الحبيب، والذكي واللطيف! لقد تحدثنا أنا وهو طيلة المساء، وقد قال لي إنه سوف يدفع أجور الدروس التي سأتلقاها

- أسماء لممثلات مشهورات في ذلك الوقت... المترجم

عند كولتسوفا - سيلانسكايا! بشرط ألا أخبر أمي بهذا الأمر على الإطلاق.  
بابتشكا، يا أيها الرائع، كم أنا أحبك!  
سيكون أول درس لي يوم الثلاثاء.  
18 تشرين الأول 1915. يوم أحد.

لقد تأخرتُ اليوم على التدريبات، فرحت أركض بكل ما لدى من عزم،  
تعثرت فسقط الدفتر مع الدور على الأرض! يا لسوء الحظ! جلستُ عليه  
فوراً - على الرصيف القذر مباشرة. راح الجميع يتطلعون إليَّ كما لو أنني  
بلهاء. أما أنا فبقيتُ جالسة والتقطتُ أنفاسي ومن ثم أكملت طريقي هرولة.  
وصلتُ في الوقت المناسب تقريباً!

كان مظهر أليوشة يبدو اليوم سيئاً جداً. فقد أصيب بنزلة برد وراح  
يعطس. أردتُ أن أحمله على الذهاب إلى البيت، لكنه ظلَّ جالساً حتى  
انتهاء التدريبات.

يقوم صديق كاتيا فيكتور بتمثيل دور كُلَّ من دوبتشينسكي وبوبتشينسكي  
- وهذه فكرة المخرج أن يتم تمثيل الشخصيتَين من قبل ممثل واحد. ولا  
يحتاج فيكتور لأن يمثل أصلًا - فهو في حياته على أرض الواقع أشبه بكل  
من بوبتشينسكي ودوبتشينسكي في آن معاً.

أما أغلوبلينا فمغفرة بکوستروف حتى أذنيها، كما يقال - وقد راحت  
تحمرّ خجلاً من جديد، واضطربت فاختلط الدور عليها. لم يتحمل  
کوستروف في نهاية المطاف، فانفجر حنقاً وراح يجري على خشبة المسرح  
وهو يصرخ عليها قائلًا: «تظهرين على خشبة المسرح - ومن أين قادمة؟  
من أي واقع؟ ماذا كان هناك خلف الكواليس؟ وماذا كنتِ تفعلين هناك؟  
هل كنتِ نائمة؟ وهما قد جئتِ غافية، وأنتِ تخبطين بالخلف وتجرجين  
تنورتك! لقد كنت تعيشين حياة معينة خلف المسرح - تفضلي قدّمي تلك  
الحياة هنا!». بالطبع، راحت تنتصب. مما اضطربه لأن يعتذر منها. حتى أنه  
ركع على ركبتيه عندما أرادت المغادرة نهائياً. يا له من بيت للمجانين!

19 أكتوبر 1915. الاثنين.

ذهبت أنا وأليوشة إلى سينما «النهضة». لم يكن الفيلم ممتعًا، ولا معنى

لأن أعيد مضمونه لكم. كان للنحات مارييو خطيبة، لكنه يتواجد ويلتقي مع حبيبته السابقة ستيلا. لم يعقد القرآن، ولذلك يقرر مارييو في لحظة يأس أن يترهبن. وهناك يعمل على منحوته. وفي يوم من الأيام تزور الدير الذي يعيش فيه مجموعة مرحة ومن بينهم ستيلا. وقد عرفت ستيلا مارييو، فقررت إغواهه: «لا يمكنك أن تنساني! إن ملامح التمثال تشبه ملامحي!». هنا يلتقط مطرقة ويدأب بتحطيم المنحوته، ثم يقوم بقتل ستيلا، وأما هو فيلقى بنفسه من أعلى الجرف الصخري.

خرجنا من صالة السينما ورحا نتمشى تحت المطر. كان جميع سكان روستوف يحملون المظلات ويرتدون الجزمات ذات الرقاب العالية. ألتتصق بأليوشة وأقول لنفسي: لم يكن هناك في الفيلم أي حب، بل على الأرجح هراء ما. أما الحب فها هو هنا: هو وأنا.

هل يريد أليوشة بالفعل أن يذهب إلى الحرب؟ كيف يمكنه بمثل هذه السهولة أن يفعل ذلك وأن يتخلّى عنِي؟

20 أكتوبر عام 1915. الثلاثاء.

عدث للتو من عند نينا نيكولايفنا. يا لها من امرأة غير عادية وساحرة. امرأة عجوز ولكنها فاتنة، رشيقه وذكية! كانت تعرف الجميع!

ومع ذلك، العالم مبني بطريقة غير عادلة! ما من أحد بحاجة إلى كل ذلك بعد اليوم! حياتها، وخبرتها وجمالها، جميع كلماتها ومعارفها وذاكرتها بخصوص الناس والتاريخ - كل هذا سوف يذهب معها وسوف يتنهى معها! قالت عن المطربة الشهيرة كادمينا التي كانت صديقة لها في سنوات الفتّوة: «يا لها من معتوهة! قامت بتسميم نفسها بالكبريت بسبب فشلها في الحب!».

وعن نفسها: «تركت التمثيل في المسرح لأنني لم أرغب بأن أنهي حياتي المهنية فيه كعجز مهرّجة».

أما عن الشريك: «لا يجب أن تكون راحتاً يديه متعرقتين».

وعن الاسم المسرحي: عندما أصبحت ممثلة في المسرح، قام أقرباؤها

يأرGamها على تغيير كنيتها لثلا يلحق بالعائلة أي عار بسببها. «الأهم - أن تتطابق الأحرف الأولى من الاسم والكنية، وذلك بسبب العلامات على الملابس التحتانية، والمونوغرام<sup>(١)</sup> على الملاعق».

كما أنها قالت لي: «إنك موهوبة، يا طفلي! لكن هذا لا يكفي. كما أنه لا يكفي العمل بتfan. ولا يكفي حتى الشغف بالمسرح. كل ذلك غير كافٍ. يجب أن يطرق الحزن والأسى بابك - يجب عليك أن تختبرني كل شيء وأن تعيشي وتعرفني كل شيء - وحتى ما لا يجب عليك أن تعرفيه أيضاً».

وما حاجتي للحزن؟ لا أريد أن أعرف الحزن!

لديها على حافة النافذة أصيص لا يحتوي إلا التربة. سألتها: «ما هذا، يا نينا نيكولايفنا؟ أجبت: «زرعت بذرة ليمون ورحت أضمر وأخمن: في حال نبتت شجيرة - سوف أحيا لفترة طويلة. مجرد حماقة عجوز».

ثمة صورة تقف على خزنة صغيرة بأدراج - تعود الصورة لزوجها الثاني، الممثل المسرحي سيليانسكي، وقد كان رجلاً وسيماً جداً. لاحظت أنني رحت أتأمل الصورة، فانفجرت ضاحكة. راحت تحكي لي كم كان سكيراً. وقد ارتكب فعلاً ما أدى به إلى المحكمة، وقد قال له المحامي قبل المرافعة بشأن الجرم الذي ارتكبه: «إياك أن تقول كلمة واحدة من تلقاء نفسك! لقد كتبت هنا نصاً - يجب عليك أن تحفظه عن ظهر قلب وأن تقوم بتمثيل ما جاء فيه!». صدر حكم بالعفو عنه. «كان أفضل دور يقوم بتمثيله».

ما فئت تشرح لي بشأن خليستاكوف، أنّ الأمر كان في متنه البساطة! لم أغّرم أيا بأي خليستاكوف، وإنما أغّرمت بمدينة بطرسبورغ - بتلك الحياة البعيدة والغامضة والحقيقة! وحتى أنني لم أغّرم في بطرسبورغ، بقدر ما أغّرمت في شغفي وفي عشقني. فأنا أغّرم في العشق! هكذا أصبح كل شيء واضحاً بالنسبة لي!

---

- 1- الأحرف الأولى من الاسم والكنية التي يتم تطريزها عادة على بعض الأغراض الشخصية... المترجم

كما أنها تذكرت زيارة سارة برنار<sup>(1)</sup> لمدينة أوديسا، حيث قاموا بعرقلة زيارة الممثلة الفرنسية المشهورة وذلك بسبب أصولها اليهودية، حتى أنَّ شخصاً ما قام في شارع ديريباسوفسكايا برمي عربتها بحجر. كانت برنار في تلك الفترة نحيلة وشقراء. وقد راح الجميع يتحدثون عن غرابتها وتصرفاتها غير المألوفة، كيف أنها تنام في تابوت، وتبقى في المنزل في بدلة بيرو<sup>(2)</sup>. «وأما في حقيقة الأمر - فهي ببساطة متصنة. وأما صوتها الذي لاقى مدحًا هائلًا فلا «يساوي ظفر» ييرمولوفا!»

رحتُ أصغي لما تقوله وأتساءل: هل هذا يا تُرى مجرد تعبير عن حسد عجوز فاشلة؟ واحدة تتحقق مجداً عالمياً، ونجاحاً، بينما أخرى تعيش معزولة مهجورة في آخر سنوات عمرها في مدينة روستوف المجهولة. علمًا أنه كانت لديها موهبة، على الأرجح، لا تقل عن موهبة سارة برنار الشهيرة. فأين اللغز، إذن؟ لماذا يدلل القدر بعض الناس، في حين أنه يعاقب آخرين؟ يا قدرني! كنْ لطيفاً معي! من فضلك! وماذا ستخسر إذا كنتَ كذلك؟ أعطني كلَّ شيء!

24 أكتوبر 1915. السبت.

استيقظتُ صباحاً، وكان أول ما شاهدت - ذرات الغبار في تلٌّ من الضوء. كان المشهد أشبه بالتل في عرض الغرفة - من أشعة الشمس والغبار، تل متمسك ومرن - لو أنه يتاح لي أن أترحلق عليه!

كم جميل أن يستيقظ المرء وأن يعود إلى نفسه من مكان ما بعيد: هيا، ارتدي يا ذراعي، هيا اكتسيا، يا ساقي! - ودرك تماماً أنَّ الحبَّ بانتظارك! أليشينكا! يا نور قلبي! كم أنا أحِبُّك! كيف أمكنني أن أعيش من دونك

1 - سارة برنار 1844-1923، ممثلة مسرحية فرنسية ذات صيتها في أوروبا في أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر، وبعد ذلك أصبحت واحدة من الممثلات المشهورات في أوروبا وأمريكا. طورت نفسها باستمرار كممثلة دراما أيضاً، وعرفت بعد ذلك بلقب «سارة المقدسة».. المترجم

2 - صيغة التصغير من بير - اسم شخصية من شخصيات المسرح الفلكلوري أو الشعبي الفرنسي. المترجم

من قبل؟ من دون عينيك الزرقاءين! كم يتقدنان تبديل لونهما! كم أحب أن أراقب كيف أنهما يشعان تارة بلون اللازورد، وتارة تصبحان رماديتين، وتارة تكتسبان لوناً أسود تماماً عندما تتسع الحدقتان.

كان الأمر مع جينيا معتقداً - أن نحتضن بعضنا وأن نقبل بعضنا، في حين أنَّ الأمر مع أليوشة رائع إلى أبعد حد، سهل إلى درجة كبيرة! الفظيع هو أنني لا أستطيع أن أعبر له عن كامل رقتِي ومحبتي ووفائي له.

كم هو جميل أن أستيقظ وأعرف تماماً أنني سوف أراه!

٤ نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1915. الأربعاء.

فروض بيته لدروس نينا نيكولايفنا: بقية وحيدة في البيت - يجب علىي أن أقوم بأعمال التنظيف والترتيب - وفجأة رحت أتخيل كما لو أنني أعمل خادمة في منزل سيدة سليطة، وقد راحت تمسي خلفي وهي تذمر معلنة أنني لا أقوم بالعمل كما يجب - هيا افعلي هذا، وهيا امسحي هناك! رحت أحدهُت نفسي بنفسي.

ومن ثم رحت أفكُّر فيه وأتذكره من جديد. فجلست أدُون ببساطة أنني أعشّقه.

٥ نوفمبر/ تشرين الثاني 1915. السبت.

هرج وإثم! يفترض بي حسب المسرحية أنْ أسقط على خشبة المسرح مثل «مصروعة» - ولذلك رحت أتدرب مساء في غرفتي، حيث قمت بالتمرن على السقوط - وإذا تهreu إلىِّ ماما: «ما الذي حدث؟».

٧ نوفمبر/ تشرين الثاني 1915. السبت

تبين أنَّ والدة أليوشة مصابة بداء الصرع. كنا جالسين في غرفته عندما استدعاه شقيقه. ركضنا وإذا بها ممددة على الأرض في نوبة اختلاج، وقد مدّت جسدها مثل وتر تم شده إلى قوس غير مرئية. كان الزبد يخرج من فمهَا - فرحتُ أمسحه بمنديل، بينما راح أليوشة يسند رأسها. انقلبت عيناهَا، ثم تبولت في ثيابها، وبعد انتهاء نوبة الاختلاج، بقيت ممددة مثل جثة.

يا أليوشة البائس! كم عانى في تلك اللحظة!

14 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1915. السبت.

حدث اليوم أمر فظيع. لدرجة أنه خُيّل لي أنني لم أدرك مدى الفظاعة على الفور. بيدَ أنَّه ظهر لدىِ، في داخليِ، إحساس كما لو أنَّ كُلَّ شيء مصاب بالعدوى منه.

بدأنا البروفة، كالعادة، من التدريب - كان يفترض أن نمثل كما لو أنَّ البطل قام للتو بقتل عشيقته. قتلها في غرفة مجاورة ثم جاء إلينا. رحنا نسقط تحت الطاولة من فرط الضحك، خصوصًا عندما قام فيكتور بتمثيل الدور - إذ راح يصور كيف أنه قام بقطيعها وبالتهامها. ثم طلب مني كوستروف أن أقوم بتمثيل الدور: كما لو أنني قتلت للتو عشيقي. خرجت إلى الممر وفجأة انتابني شعور كما لو أنني مسلولة. أنا أقتل؟ عشيق؟ وأي عشيق؟ كيف يمكن هذا - أن أقتل؟ وكيف ذلك - العشيق؟ اللكسي - عشيق؟ راحوا ينادونني من الداخل، أما أنا فبقيت واقفة. وأدركتُ أنني لن أكون قادرة أبدًا على تمثيل شيء مشابه. لا أستطيع، والأهم - لا أريد. قال كوستروف بنبرة غاضبة: «ولكن أين أنت؟». عدت إلى رشدي وصحت لهم: «لقد قمت بتسميمه، ومن ثم قمت بتسميم نفسى وهأنذا أستلقى ميتة إلى جانبه».

راح الجميع يضحكون، أما أنا فشعرت بالرعب.

يا إلهي، هل يُعقل أنني لست ممثلة؟

17 نوفمبر/ تشرين الثاني 1915. الثلاثاء.

أعدت قراءة ما كتبت وشعرت بالرهبة من نفسي: ما هذا الهراء الذي أكتب! قال لي أليوشـااليوم إنه ذاهب إلى الجبهة متقطوعاً. حسم أمره. لم يخبرني بذلك إلا في نهاية المطاف - لم يكن يريدني أن أضطرُّ وأن أتقدر. كنتاليوم في زيارة نينا نيكولايفـا ولم أتمكن من السيطرة على نفسي والاسترخاء. لاحظت على الفور أنني لست على ما يرام وأعربت عن عدم رضاها الشديد.

«كُلُّ ممثلة ت يريد أن تقوم بتمثيل دور المرأة الحقيقة، المغزاة والتعسة». لا أفهم. هذه ليست حقيقة. لا يجب أن يكون الأمر كذلك. لماذا يفترض بالمرأة الحقيقة أن تكون عاشقة وتعيسة، وليس عاشقة وسعيدة؟

وقد عرضت عليّ شيئاً ما أمام المرأة - كانت لديها في غرفة الضيوف مرأة ثلاثة الأسطح، بحيث يستطيع المرء أن يرى فيها نفسه بكامل قامته ومن جميع الجوانب. راحت أنظر إليها وأقول في نفسي: يا لها من عجوز بائسة وما من أحد بحاجة إليها. وأرجو من الله ألا يتركني أعيش حتى أبلغ هذه المرحلة. وإذا بها تقول فجأة، كما لو أنها قرأت أفكاري: «كنت فتية وجميلة، مثلك، وكنت أخشن الشيخوخة -وها قد عاقيبني الرب». ثم أضافت: «الأفضل أن يكون الإنسان عجوزاً من أن يكون ميتاً. بيد أنه من المبكر لك أن تدركني مغزى ذلك».

قرأت المونولوج فإذا بي أنفجر باكية - بسبب أليوشة. راحت نينا نيكولايفنا تصرخ عليّ، وضررت براحة يدها على الطاولة قائلة: «لا يجب أن تبكي بصورة حقيقة! ليعتقد الجمهور أنك تبكين، إلا أنه لا يجب عليك أن تبكي!». لم أتمكن من الاستمرار بالدرس، ولم أشرح لها شيئاً، بل اعتذرت فحسب قائلة إنني أشعر ببعض التعب ثم غادرت.

16 نوفمبر/ تشرين الثاني 1915. الأربعاء.

بعد أسبوع لن يعود موجوداً معه وإلى جانبي.

أليوشـا - عريسي. أنا - خطيبـته. هذا ما أخبرـنا به اليـوم والديـه. راحت أمـه تبـكي، وقد أعربـت عن رعـبـها لأنـ أليـوشـا يـلتـحقـ بالـجـبهـةـ، أما والـدـهـ فقد قـبـلـني وـقـالـ ليـ كـلـمـاتـ طـيـبـةـ وـمـهـمـةـ. دـعـانـيـ اـبـتـهـ. ثـمـ رـاحـ يـبـارـكـنـيـ بـالـأـيـقـونـةـ، وـلـكـنـهـ أـمـسـكـ بـهـ مـقـلـوـبـةـ رـأـسـاـ عـلـىـ عـقـبـ - لـمـ يـتـبـهـ إـلـىـ ذـلـكـ أـحـدـ سـوـىـ تـيمـوـشـكـاـ الـذـيـ رـاحـ يـضـحـكـ فـأـصـابـ الـجـمـيعـ بـنـوـبـةـ ضـحـكـ. كـانـ كـلـ شـيـءـ لـطـيفـاـ، كـانـ كـلـ شـيـءـ رـائـعاـ!

سوف نعقد قرانـناـ بعدـ أـنـ أـتـخـرـجـ فـيـ هـذـهـ المـدـرـسـةـ الغـبـيـةـ.

لا أـرـيدـ أـنـ أـخـبـرـ أـبـيـ وـأـمـيـ بـشـيـءـ. لـاحـقاـ، وـلـكـنـ لـيـسـ الـآنـ. أـعـرـفـ، سـوـفـ يـتـهـيـ كـلـ شـيـءـ بـمـشـاجـرـةـ وـبـتـنـاـولـ قـطـرـاتـ مـنـ عـقـارـ الفـالـيـرـيـانـكـاـ. لـاـ أـرـيدـ رـافـقـيـ أـليـوشـاـ إـلـىـ الـبـيـتـ، وـقـدـ عـرـجـنـاـ فـيـ طـرـيقـنـاـ إـلـىـ كـاتـدـرـائـيـةـ أـلـكـسانـدـرـ نـيـفـسـكـيـ. كـانـ عـدـدـ كـبـيرـ مـنـ الـوـاـفـدـيـنـ فـيـ الـكـاتـدـرـائـيـةـ. وـعـلـىـ الـعـمـومـ كـانـ الـمـدـيـنـةـ تـكـتـظـ بـالـلـاجـئـيـنـ. كـانـواـ يـقـصـدـوـنـ روـسـتـوـفـ مـنـ جـمـيعـ الـجـهـاتـ - فـيـ

الجنوب كان الأرمن يهربون من الأتراك، ومن جهة جنوب - غرب كان يأتي سكان منطقة غاليسيا<sup>(1)</sup>، ومن جهة الغرب - يأتي البولنديون، والأوكرانيون واليهود - فقد سُمِح مؤخراً للهؤلاء أن يقطنوا خارج حدود الإقامة المحددة بقانون تحديد السكن، ومن الجهة الشمالية الغربية - كان يأتي سكان البلطيق.

وقفنا وقد حمل كلُّ واحد منا شمعة، فَرَحْتُ أتخيل كيف أننا سنعقد قراننا هنا. رحتُأتأمل كُلَّ شيء، كما لو أني أبرمت وعداً خاصاً مع الشموع، ومع زخرفات فاسينستوف<sup>(2)</sup>، مع الموزاييك على أرضية الدير، ومع الشمعدانات وطاولة المذبح المصنوعة من الرخام، ومع أشجار الحور تطل عبر النوافذ، مع قرع الأجراس عند القبة، مع روائح البخور والشمع المذاب - بأنها سوف تنتظرنَا، وأننا سوف نأتي من كُلِّ بدٍ.

اقرب أليوشَا من أُذني وقال لي أن انظر كيف أنَّ الكاهن يضرب على شفاه العجائز اللاتي ...  
عند متصف الجملة رنَّ الموبايل.

Baumann, Direktion für Soziales und Sicherheit<sup>(3)</sup>

كل شيء واضح - إنهم يبحثون عن مترجمين.

Grüßi, Herr Baumann! Kann ich Ihnen helfen<sup>(4)</sup>?

Wir haben einen Dringlichkeitsfall, hätten Sie jetzt Zeit zu kommen?<sup>(5)</sup>

-1 منطقة في غرب أوكرانيا التاريخية وهي تضم اليوم مدن لفوف وتيرنوبيل وايفانو- فرانسك ... وقد كانت تلك المنطقة في مرحلة تاريخية معينة جزءاً من الإمبراطورية المجرية النمساوية. المترجم

-2 فيكتور فاسنستوف 1848-1926، رسام روسي شهير. كان فيكتور رساماً محترفاً يرسم بلحة تاريخية وفلكلوري روسي معروف. المترجم

-3 أنا باومان، من مركز القضايا الاجتماعية والأمن (الماني). المؤلف

-4 مرحباً سيد باومان، بماذا يمكنني أن أساعدك؟ المؤلف

-5 لدينا قضية مستعجلة، لا تستطيع المجيء حالاً؟ المؤلف

Nein, Herr Baumann, es tut mir leid, aber ich kann nicht<sup>(1)</sup>.

Schade. Es ist eben sehr dringend. Und ich kann niemand finden. Vielleicht könnten Sie sehr kurz bei uns vorbeikommen? Ich habe da einen jungen Mann bei mir, ich muss ihm etwas mitteilen. Aber er versteht nichts, weder Deutsch noch Englisch<sup>(2)</sup>

Es geht wirklich nicht, Herr Baumann. Ich bin jetzt in Rom<sup>(3)</sup>

In Rom? Schon. Wissen Sie was, vielleicht könnten Sie ihm etwas per Telefon ausrichten? Nur ein paar Worte. Der junge Mann steht hier neben mir, ich gebe ihm den Hörer, und Sie sprechen kurz mit ihm<sup>(4)</sup>

Gut. Was soll ich ihm sagen?<sup>(5)</sup>

Also, er heißt Andrej. Es geht um zwei Brüder, Asylsuchende aus Weissrussland, aus Minsk. Sagen Sie ihm, dass sein Bruder Viktor gestern um 18 Uhr vor dem Durchgangszentrum in Glatt bewusstlos aufgefunden wurde. Er lebte noch, aber starb unterwegs ins Spital. Es ist nicht klar, was passiert ist. Entweder hat ihn jemand aus dem Fenster gestossen oder es war ein Selbstmord oder ein Unfall, die Ermittlungen laufen noch. Alles zeugt davon, dass er betrunken war. Er ist vom dritten Stock mit dem Hinterkopf auf den Asphalt gefallen. Wir haben versucht Andrej das zu erklären, aber

---

-1 لا، يا سيد باومان، آسف، لا أستطيع. المؤلف

-2 مؤسف، القضية بالفعل مستعجلة وحساسة، ولكنني لا أستطيع أن أعتبر على أحد. ربما

بإمكانك الوصول إلينا لبعض الوقت فقط؟ لدينا هنا شاب وأنا مضطر أن أقول له شيئاً ما.

ولكنه لا يفهم لا اللغة الألمانية ولا اللغة الإنكليزية. المؤلف

-3 هذا مستحيل يا سيد باومان، فأنا الآن في روما. المؤلف

-4 في روما؟ يا له من أمر ظريف؟ لعلك تستطيع أن تقول له بعض كلمات بواسطة الهاتف؟

الشاب يقف الآن بجانبي وسوف أعطيه السماحة لكي تتحدث معه قليلاً. المؤلف

-5 حسناً، ولكن ماذا يجب أن أقول له؟ المؤلف

er hat nichts verstanden. Das ist alles<sup>(1)</sup>

Gut, Herr Baumann, geben Sie ihm den Hurer<sup>(2)</sup>

ثم نطقت سماعة الهاتف بصوت صبياني تماماً وخائف:  
مرحباً؟

أندرية، ثمة أمر ما. أخوك فيكتور...  
هل حدث له شيء ما؟ - أصبح الصوت في السماعة خافضاً جداً.  
قال كل ما يريد قوله.

صمتت السماعة لبرهة. ثم سمع فيها صوت أقرب إلى التجشؤ.  
آلو، هل تسمعني، يا أندرية؟  
أجاب صوت مخنوق، بين لحظتي تجشؤ:  
بلـى.

أعطي السماعة لـ سيد باومان.  
ومن جديد - شرطيًّا مفعم بالحيوية:

Baumann.<sup>(3)</sup>

Ich habe es ihm gesagt, Herr Baumann<sup>(4)</sup>.

Merci vielmehr! Und schönen Tag noch!<sup>(5)</sup>

Ihnen auch!<sup>(6)</sup>

- 
- 1 - هكذا إذن، اسمه أندرية، وهو شقيقان جاءا من طالبي الهجرة من روسيا البيضاء، من مدينة مينسك. أخبره أنه تم العثور على شقيقه فيكتور مساء أمس في الساعة 8 مغميًّا عليه أمام مركز إيواء اللاجئين في غلاتا. كان حياً حتى تلك اللحظة ولكن توفي وهو في طريقه إلى المستشفى بالسيارة. ليس واضحًا ما الذي حدث. هل قام أحد بدفعه من النافذة أم إنها محاولة انتحار أو حادثة مأساوية غير مقصودة، ما زال التحقيق جارياً. جميع الدلائل تشير إلى أنه كان ثملًا. وقد سقط من الطابق الثالث فارتطم برأسه على الأسفالت. حاولنا أن نشرح لأندرية المسألة لكنه لم يفهم شيئاً مما قلنا له. هذا كل الموضوع. المؤلف
- 2 - حسن، سيد باومان، أعطِه السماعة. المؤلف
- 3 - باومان. المؤلف
- 4 - لقد قلتُ له كل ما يلزم، سيد باومان. المؤلف
- 5 - شكرًا جزيلاً، وأتمنى لك نهاراً جميلاً. المؤلف
- 6 - لك الشيء ذاته! المؤلف

اقرب أليوشـا من أذني وطلب مني أن أرافقـ كـيف أن الكـاهـن يـضرـبـ على شـفـاهـ العـجـائزـ الـلـاتـي يـنـحـنـيـنـ لـكـيـ يـقـبـلـنـ الصـلـيـبـ،ـ أـمـاـ الـبـنـاتـ -ـ فـيـمـدـ لـهـنـ الصـلـيـبـ بـلـطـفـ.

غضـبـتـ عـلـيـهـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـأـمـرـ،ـ وـمـنـ ثـمـ شـعـرـتـ بـالـخـجلـ مـنـ كـوـنـيـ سـمـحـتـ لـنـفـسـيـ بـالـحـنـقـ عـلـيـهـ بـسـبـبـ أـمـرـ تـافـهـ!ـ يـاـ إـلـهـيـ،ـ وـمـاـذـاـ لـوـ أـنـهـ قـتـلـ فـجـأـةـ!ـ كـيـفـ سـيـكـونـ بـإـمـكـانـيـ أـنـ أـعـيـشـ بـعـدـ ذـلـكـ؟ـ وـمـنـ جـدـيدـ شـعـرـتـ بـالـرـعـبـ لـدـرـجـةـ لـمـ تـعـدـ مـعـهـ سـاقـايـ قـادـرـتـينـ عـلـىـ حـمـلـيـ،ـ فـأـمـسـكـتـ بـأـلـيـوشـاـ كـيـ لـاـ أـسـقـطـ.

20 نـوفـمـبرـ /ـ تـشـرـيـنـ الثـانـيـ 1915ـ.ـ يـوـمـ جـمـعـةـ.

عـيـدـ الـقـدـيسـ الشـفـيعـ عـنـدـ آـنـيـاـ تـرـوـفـيـمـوـفاـ.ـ ثـمـ رـقصـ وـمـرحـ.ـ هـرـعـتـ إـلـىـ المـرـاحـضـ،ـ أـغـلـقـتـ الـبـابـ خـلـفـيـ وـرـحـتـ أـنـتـحـبـ.ـ كـيـفـ يـمـكـنـيـ أـنـ أـفـرـحـ وـأـمـرحـ طـالـمـاـ أـنـهـ سـوـفـ يـغـادـرـ بـعـدـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ -ـ وـقـدـ يـكـونـ إـلـىـ الـأـبـدـ!

22 نـوفـمـبرـ 1915ـ.ـ يـوـمـ أـحـدـ.

يـغـادـرـ أـلـيـوشـاـ إـلـىـ الـجـبـهـ غـدـاـ.

رـحـنـاـ نـتـسـكـعـ فـيـ الشـوـارـعـ،ـ تـجمـدـنـاـ مـنـ الـبـرـدـ،ـ فـدـخـلـنـاـ إـلـىـ السـيـنـمـاـ.ـ لـمـ أـرـ شـيـئـاـ -ـ مـجـرـدـ شـعـاعـ أـعـمـىـ مـتـحـرـكـ فـيـ الـظـلـامـ.ـ كـانـ ثـمـ إـحـسـاسـ فـظـيـعـ وـلـاـ يـحـتـمـلـ -ـ سـوـفـ يـغـادـرـ غـدـاـ إـلـىـ الـجـبـهـ،ـ أـمـاـ نـحـنـ فـنـجـلـسـ هـاـ هـنـاـ وـنـشـاهـدـ شـيـئـاـ سـخـيـفـاـ.ـ لـمـسـتـهـ مـنـ كـمـهـ:ـ «ـدـعـنـاـ نـذـهـبـ!ـ».ـ خـرـجـنـاـ قـبـلـ أـنـ يـنـتـهـيـ الـفـيلـمـ.

لـاـ أـعـرـفـ:ـ أـكـتـبـ عـنـ ذـلـكـ أـمـ لـاـ؟ـ

سـوـفـ أـكـتـبـ.

جـئـنـاـ إـلـىـ بـيـتـنـاـ.ـ صـعـدـنـاـ إـلـىـ غـرـفـيـ.ـ أـقـفلـتـ الـبـابـ بـالـمـفـتـاحـ مـنـ الدـاخـلـ.ـ أـطـفـأـتـ الضـوءـ.ـ اـحـتـضـنـتـهـ.ـ وـقـلـتـ لـهـ:ـ «ـهـيـاـ،ـ خـذـنـيـ<sup>(1)</sup>ـ يـاـ أـلـيـوشـاـ»ـ.ـ هـكـذـاـ بـقـيـنـاـ وـاقـفـيـنـ وـنـحـنـ نـحـتـضـنـ بـعـضـنـاـ بـعـضـاـ فـيـ وـسـطـ الـغـرـفـةـ.ـ رـاحـ يـقـولـ إـنـهـ لـاـ يـسـتـطـعـ أـنـ يـفـعـلـ ذـلـكـ بـهـذـهـ الـبـسـاطـةـ،ـ أـمـاـ أـنـاـ فـقـلـتـ لـهـ:ـ «ـأـنـاـ هـذـاـ مـاـ أـرـيـدـهـ!ـ».ـ كـنـاـ خـائـفـيـنـ وـعـلـىـ حـيـاءـ.ـ كـلـاـ،ـ لـنـ أـكـتـبـ أـكـثـرـ عـنـ ذـلـكـ.

1- تعـبـيرـ أـدـبـيـ لـمـارـسـةـ الـجـنـسـ.ـ يـسـتـخـدـمـ عـادـةـ عـنـدـمـاـ تـكـوـنـ الـبـنـتـ مـاـ تـزـالـ عـذـراءـ.ـ وـهـذـاـ لـلـتـأـكـيدـ أـنـ الـبـنـتـ تـحـبـ الرـجـلـ.ـ فـاقـضـيـ التـنـوـيـهـ.ـ الـمـتـرـجـمـ

لا أفهم شيئاً مما حدث. أعرف فقط أنني فعلتُ لا كما يجب تماماً!  
أشعر بمرارة كبيرة. كان كُلُّ شيء مؤلماً ومخجلاً. لم ينجح الأمر نهائياً.  
غادر من دون أن يشرح لي شيئاً. ماذا؟ ما هذا الذي فعلته بطريقة غير ناجحة؟  
أليوشَا، أنا أحبكَ كثيراً، وأنا أشعر بالسوء كثيراً من دونك!  
23 نوفمبر / تشرين الثاني 1915. الإثنين.

قمنا اليوم بوداع أليوشَا. ذهبنا جمِيعاً إلى محطة القطارات، حيث التقينا هناك بمعارف كثُر. كان القطار واقفاً على السكة، حيث ينتهي رصيف المحطة، لذلك مشينا مسافة طويلة على العوارض. رحت أنتظر ريشما يقترب أليوشَا مني، لكنه كان تارة محاطاً بالأصدقاء، وتارة مع الأهل. كنت أشعر بالاضطراب، وبعدم الراحة بعد يوم أمس، بحيث إنني لم أجرب على الاقتراب منه. ثم جاء إلى فيما بعد واحتضنا بعضنا بعضًا. لم أجرب على النظر في عينيه. كان المكان يعُج بالنساء اللواتي يودعن أبناءهن أو أشقاءهن أو عرسانهن، وهن ينتبهن، أما أنا فكمالاً لو آتاه أصابني داء الكزار<sup>(١)</sup>. التصدق بمعطفه العسكري، ورحت أنظر في حالة شرود كيف أن الجنود يصعدون إلى القطار وهم يركضون على الألواح - وكيف أن الألواح تتثنى تحت أثقالهم.

وعندما تفرق الجميع سمعت بطرف أذني كيف أن أحداً ما همس لآخر قائلاً عنِي: «قد لا يعود، أما هي فلم تذرف دمعة واحدة». حتى آني أعرف من قال ذلك.

ومن ثم عدت إلى البيت ورحت أبكي بمرارة.

أليشينكا، كيف سأتمكن من العيش الآن من دونك؟

أهداني للذكرى ساعة يد - وقد وضع تحت غطاء الساعة خصلة من شعره.

1- الكزار Tetanus مرض حاد يتبع عن تلوث الجروح بنوع من الجراثيم وتنتج سماً قوياً يمتصل الجسم ويؤدي إلى تقلصات مؤلمة في العضلات وتقلص في عضلات الحنك وتشنجات متواترة. يستخدم المصطلح للإشارة إلى حالة التشنج الشديدة التي تصيب المرء بفعل الذهول مثلاً... المترجم

24 نوفمبر/ تشرين الثاني 1915. الثلاثاء.

هذا أول يوم من دون أليوشـا.

إنه يوم القديسة يكاترينا. نهاراً - كان صبحية أدبية موسيقية لتلامة الصفوف الأولية، ومساء - حفلة راقصة لتلامة الصفوف الأخيرة. لم أذهب.

للتـو عـدتُ مـن عـند نـيـنا نـيكـولاـيـفـنا. قـرـأـتُ هـنـاك مـونـولـوج «أـنـا وـحـيدـة...». وقد أـخـطـأتُ فـي القرـاءـة أـكـثـر مـن مـرـة، لـذـلـك كـنـتُ مضـطـرـة أـكـثـر مـن مـرـة أـنـ أـبـدـأـ من جـدـيد - «أـنـا وـحـيدـة...». أـمـا أـنـا فـكـنـت أـقـول فـي نـفـسـي: يـا لـلـشـيـطـان، أـنـا لـسـتُ وـحـيدـة الـبـيـة وـلـسـتُ هـنـاك حـيـث يـجـب أـنـ أـكـوـن وـقـقـ مشـاهـدـ المـسـرـحـية، بلـ فـي هـذـه الغـرـفـة التي تـفـوحـ مـنـهـا رـائـحة جـسـدـ عـجـوزـ. وـهـكـذـا، يـقـفـ أـمـامـي عـلـى الطـاـوـلـةـ إـبـرـيقـ مـنـ المـاءـ يـفـتـرـضـ بـهـ أـنـ يـتـرـسـىـ وـأـنـ يـصـبـ نـظـيفـاـ بـفـعـلـ وـجـودـ مـلـعـقـةـ مـنـ الفـضـةـ فـيـهـ، إـلـاـ إـنـ العـجـوزـ التي تـدـعـونـي طـفـلـةـ باـسـتـمـارـ، لـنـ تـشـرـبـ مـنـهـ. بـغـتـةـ شـعـرـتـ بـأـنـ جـمـيعـ تـلـكـ الـكلـمـاتـ التي يـجـبـ عـلـيـ أـنـ أـنـطقـهاـ عـلـى خـشـبـةـ المـسـرـحـ، مـجـرـدـ كـذـبـ وـهـرـاءـ. وـمـنـ جـدـيدـ أـحـاـوـلـ أـنـ أـبـدـأـ: «أـنـا وـحـيدـة...».

وـهـنـا أـدـرـكـتـ: أـنـا لـأـتـعـلـمـ الفـنـ، إـنـما أـتـعـلـمـ كـيفـ أـكـذـبـ. شـعـرـتـ بـالـقـرـفـ وـبـالـمـلـلـ. قـرـأـتـ النـصـ كـيـفـمـا كـانـ ثـمـ فـرـرـتـ.

رـحـتـ أـكـتـبـ رسـالـةـ إـلـى أـلـيـوشـاـ. وـلـكـنـيـ لمـ أـجـدـ مـاـ أـكـتـبـهـ. أـرـدـتـ أـنـ أـكـتـبـ أـنـيـ أـحـبـهـ كـثـيرـاـ، وـلـكـنـ لمـ أـسـتـطـعـ. أـكـادـ أـجـنـ - ماـ الـذـيـ فـعـلـتـهـ بـشـكـلـ غـيـرـ صـحـيـحـ؟ أـنـاـ الـذـيـ خـرـبـتـ كـلـ شـيـءـ فـيـ ذـلـكـ الـمـسـاءـ! كـيـفـ سـيـكـونـ رـأـيـهـ فـيـ بـعـدـ ذـلـكـ؟

لـقـدـ أـرـدـتـ أـنـ أـقـبـلـهـ وـأـنـ أـلـاطـفـهـ، كـنـتـ أـرـيدـ أـنـ يـكـوـنـ سـعـيـداـ مـعـيـ! فـلـمـاـذـاـ كـانـتـ النـتـيـجـةـ فـظـيـعـةـ؟ وـكـمـ أـشـعـرـ بـالـعـارـ! أـشـعـرـ بـالـعـارـ وـبـالـأـلـمـ وـبـالـسـوـءـ! لـمـ يـصـلـنـيـ أـيـ شـيـءـ مـنـ أـلـيـوشـاـ.

27 نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1915. يوم جمعـةـ.

لـاـ شـيـءـ مـنـ أـلـيـوشـاـ.

عندما أتذكّر ذلك المساء، كيف أني رحت أفكّ أزرار البلوزة، وكيف  
أني التقطت يدّه وجذبته إلىَّ - يتتبّني من جديد إحساس بالعار! كم شعر  
بالخجل وكم كان يشعر بالقهر لأنّه لم ينجح في الأمر! وكيف رحنا فيما بعد  
نرتدي ملابسنا مع خشية من أن ينظر أحدنا في عيني الآخر!  
سامحني، يا أليوشَا، هذه أنا المذنبة في كلّ ما حدث!  
1 ديسمبر / كانون الأول 1915. الثلاثاء.

راحٌت نينا نيكولايفنا اليوم تحكي لي عن الجولات المسرحية في  
موسكو لمسرح مينينغ<sup>(1)</sup> الشهير، وكيف أن المسرح عبق برائحة أشجار  
الصنوبر عند تصوير غابة في الخلفية.

قررتُ أني لن آتي إليها بعد اليوم.  
لا شيء من قبل أليوشَا. على الأرجح أنه لن يكتب لي بعد الذي حدث  
في ذلك اليوم.

4 ديسمبر / كانون الأول 1915. يوم جمعة.  
أخيراً وصلت رسالة من أليوشَا!

انتظرتُ طويلاً، وها هي الرسالة قد وصلت، لم أتمكن من فتح الغلاف  
- بل رحتُ أعيد قراءة العنوان مرة بعد أخرى - إنها يده هي التي خطّت هذه  
الكلمات.

«عزيزتي!، حبيبي! البعيدة!»  
بلغتُ لعابي، ثم قفزت فوق الأسطر - ثلاثة صفحات - باحثةً عمّا هو  
أكثر أهمية، وقد كان الأكثر أهمية في نهاية الرسالة: «ها نحن افترقنا، ولم  
ادرك سوى الآن كم أنت غالٍة وعزيزة بالنسبة لي وكم أنا أحبّك، وكيف أنّ  
الخوف من الموت بل وال الحرب بمجملها، شيءٌ تافه بالمقارنة مع حبّي هذا!».  
أقوم بنسخ أسطر من رسالته، فينشأ لديّ إحساس كما لو أنَّ أليوشَا يقترب  
مني، كما لو أنه في مكان ما قريب جداً مني، خلفي تماماً. كما لو أنني أتحدّ  
معه على النحو التالي: من خلال هذه الكلمات، عن طريق هذه الأحرف!

- 1 - مسرح الدراما من مدينة مينينغ - عاصمة دوقية ساكسونيا الألمانية... المترجم

«لقد أرسلتُ لكِ رسالة وأنا مسافر في الطريق، لكنني لا أعرف ما إذا  
كنتِ قد استلمتها أم لا. كلّ شيء عندي على ما يرام.  
لم أسلم شيئاً، يا أليوشَا! لم أسلم شيئاً!

«أجلس في الخندق الذي تمّ تشييده من ركام منزل مهدم. على الطاولة  
- قنية، ولكن من الحليب، للأسف، وبعض الخبز وشمعة. اليوم تبادلنا  
 إطلاق النار في أوقات الصباح فقط. أنا في البطارية وحيداً. أما الضباط فقد  
ذهبوا جميعهم إلى القرية.

أصبحت الآن مشغولاً طوال النهار - إذ إنَّ مهمَّة مساعد الضابط ليست  
بالصعبة، ولكن لا يجوز الابتعاد عن جهاز الهاتف نهائياً. يغفو المرء وإذ  
بعجاهز الهاتف يرن قرب أذنيه - فيستيقظ ويصغي للتوجيهات، ومن ثم يجري  
لينقلها إلى القائد.

يوم أمس أخبرونا في الساعة 10 ليلاً أن ثمة منطاداً يطير. أعطيتُ على الفور  
تعليماتي بضرورة إطفاء جميع الأضواء، وبعد بعض دقائق انهر الرصاص  
 علينا كالمطر. كانت ثمة نجمة صغيرة حمراء تتلألأ في السماء المليئة بالنجوم،  
 وقد راحت القذائف تنفجر بقربها ومن حولها. سرعان ما أصبح المنطاد فوق  
رؤوسنا. امتلأت الأجواء بأصوات الانفجارات وبصفير القذائف. راحت  
الشظايا والرصاصات الفارغة تساقط نحو الأسفل مصدرة صوتاً أشبه بالصوت  
الذي يصدر عن الحليب أثناء حلْب البقرة ولكنه أكثر امتداداً في الوقت. راحت  
القذائف تنفجر على مسافة قريبة جداً وفي معظم الأوقات، وراحت النيران  
تضيء جسم المنطاد - كان يشبه السيجار وذا لون قاتم».

ثم كانت هناك ثلاثة صفحات. أعدتُ قراءتها مئة مرة. إلهي، نجّه واحفظه!  
الآن فقط، بعد أنْ رحل إلى هناك، حيث يهدّه الموت كل يوم وكل  
ساعة، أصبحتُ أدرك معنى الحب، وكيف آتى لم أكن أجيد الحبَّ وكيف  
أكشف له عن رقْتي وعن كامل مشاعري تجاهه، وحتى آتى لم أكن أعرف  
ببساطة التحدث عن حبي له! وفجأة أصبح واضحاً بالنسبة لي كيف آتى أدنى  
منه بكثير وكيف آتى لا أستحقّه، وأنّي مذنبة أمامه لأنّي لم أمنحه من الحبَّ  
 سوى القليل جداً!

كنت عائدةً اليوم من المستشفى في وقت متأخر، وكان الطقس بارداً جداً - كان قد توفي هناك أحد الجرحى - ورحت أتخيل بطريقة رهيبة أن أليوشَا أيضاً، لا قدر الله، أصيب بجراح، وأنه الآن يموت في مكان ما في المستشفى، أو بكل بساطة في الخندق أو في الثلوج، وأنه يناديني، وبغتةً أشعر بانقباض في القلب: لن يعود! لن يعود! وأنا المذنبة في ذلك - إذ إن حبي له كان يفترض أن ينقذه، ولكنه لم يتلقَّ من حبي له سوى كمية ضئيلة بحيث إنها لا تكفي لكي تنقذه...

إني مذنبة لآتي لم أقدر أن أحبه بمقدار ما يستحق.

8 ديسمبر / كانون الأول عام 1915. الثلاثاء.

«إنه المساء. أجلس في الخندق بالقرب من جهاز الهاتف الذي لا يحقق لي كمرافق للقائد أن أبتعد عنه. وهو لا يتوقف عن الرنين. إنهم يتصلون باستمرار.

الحرب - ليست على الإطلاق ما أنتم تصورون. فالقدائف تطير بكل تأكيد، ولكنها ليست بتلك الكثافة الكبيرة، كما أن عدد الناس الذين يقتلون ليس كبيراً.. فالحرب اليوم لم تعد فظيعة على الإطلاق، وهل توجد، بصورة عامة، فظائع في هذه الدنيا؟ ففي نهاية المطاف يمكن تحويل أمر ما عادي ويسقط إلى شيء ما فظيع. تطير قذيفة - وإذا ما رحت تفكّر كيف أنها ستقتلوك، وكيف ستتألم وكيف ستزحف - عندئذ سوف يصبح الأمر رهيباً بالفعل. أما إذا رحت تنظر إلى الأمور بهدوء، فسوف تناقش على النحو التالي: يمكن للقذيفة أن تقتلني، بكل تأكيد، ولكن ما العمل؟ هل يجب عليَّ أن أموت من الرعب؟ هل يجب عليَّ أن أتعذب من دون عذاب؟ هيا تنفس - طالما أنك حي.

لا أنوي أن أتباهي، ييدَ أنَّ الأمر لم يعد رهيباً بالنسبة لي، كما كان من قبل - بل يمكنني القول إنَّ الأمر غير مرعب نهائياً. ولو أنني كنتُ أخدم في قوات المشاة، فلا بدَّ أنني كنت سأعتمد على مخاوف المشاة أيضاً، وهي أكبر بكثير. الشيء الوحيد الذي جعلني أتفق مع خوف أمي - هو أنني تطوّعت في قوات المدفعية وليس في المشاة. فقد لاحظ أحد الضباط في بطاريتنا أنَّ

الجندى في قوات المدفعية لا يكتفى بالقذائف، لكنه يخاف من الرصاص، في حين أن جندى المشاة بالعكس. تخيل مخاوفنا المثيرة للضحك هنا. أفكّر بكِ طوال الوقت، يا عزيزتي، وحبّي إليك يزداد ويتعمّق مع كل يوم. كيف حالك هناك؟».

### 11 ديسمبر / كانون الأول عام 1915. يوم الجمعة.

جرت اليوم محاكمة أدبية لرواية رودين<sup>(1)</sup>. وقد تحمّست ميشكا فأعلنت أنَّ رودين لا يعرف أن يحب ولا يستطيع أن يحب، وأنه يخشى الحبُّ الحقيقيّ، وبلغ بها الحنق درجة دفعتها للمطالبة بإعدام رودين رمياً بالرصاص. هكذا قالت بمنتهى الوضوح: إعدام رمياً بالرصاص! راح الجميع يضحكون.

استيقظتُ عند منتصف الليل، ولم أستطع أن أغفو من جديد. رحت أفكّر بأليشا.

### 12 ديسمبر / كانون الأول عام 1915. السبت.

«البارحة كان الوضع خطيرًا لأول مرّة. سقطت قذيفة على مسافة خطوتين مني. أنقذني الرب. قذيفة أرضية، والقذيفة الأرضية - عبارة عن قذيفة تسقط بشكل عمودي تقريبًا وتنquer عميقاً في الأرض. لا يكون الانفجار قوياً بحيث إنه يرفع التربة ولا يظهر منه سوى الدخان. وهذا النوع من القذائف نادرًا ما يحدث أن يسقط وينفجر - لقد أسعفني حسن الحظ. كتبتِ أنك ذهبت إلى كنيستنا لكي تصلي من أجلي - وكما ترين، لقد ساعدتني صلاتك.

وهل تعرفين ما هو الأكثر تسلية؟ هو ما رحتُ أفكّر به في آخر لحظة عندما كانت القذيفة تطير نحوبي. لا بدَّ أنك تعتقدين، على الأرجح، أنَّ

- 1 - ربما كانت هذه هي الأقل شهرة بين روایات تورغینیف. على الرغم من أنها أولى روایاته، ولكنه استكشف موضوع «الرجل الزائد» وعدم قدرته على العمل (الذى أصبح موضوعاً رئيسياً في أعمال تورغینیف). وعلى غرار غيرها من روایات تورغینیف، ركزت الروایة على قصة حب الشخصية الرئيسية وامرأة شابة ولكنها مثقفة ووعية وتناقض مع البطل الرئيسي (هذا النوع من الشخصيات النسائية أصبح يعرف في النقد الأدبي باسم «فتاة تورغینیف»). المترجم

بطلك وهو يتطلع إلى السماء، يتصور نفسه أندريه بولكونسكي<sup>(1)</sup> في معركة أوسترليتز<sup>(2)</sup> - أو ما هو قريب من ذلك؟ لا شيء من هذا القبيل. كانت أفكاري تدور حول أنهم ابتكرروا أن نحمل في جيوب معاطفنا أجهزة تدفئة صغيرة لللدين - كانت جمرات من الفحم موضوعة داخل علبة معدنية مغطاة بقماش من المخمل السميك. لاحظي كم كان الأمر رائعًا لأنني لم أمت في تلك اللحظة. إنه لأمر مهين أن أموت مع مثل هذه السخافة في عقلي.

على مدى يوم كامل وهم يعلقون «المرتديلا» في مركز التدريب على الرماية - بهذه الطريقة يضيّقون دقة الشعيرة في البنادق. نظرت اليوم من مركز المراقبة - لدينا منظار ماركة زايس<sup>(3)</sup> رائع.

الأكثر صعوبة - هو التسكم الإجباري. إذ إنه من المهم أن ينشغل المخ بشيء ما! اشتهدتُ أن أقرأ شيئاً ما نهاراً وأن أراجع بعض المسائل في الرياضيات، وتأسفتُ لأنني لم أجلب معي كتاب غرينفييل «عناصر مسائل التفاضل والتكامل». وقد سبق أن طلبت من أمي أن ترسل لي هذا الكتاب. أما الآن فأضطرر إلى الالكتفاء بالمقتطفات التي تيسّر لي. وقد أنجح في بعض الأحيان.وها قد ابتسם لي الحظ في هذه المرة: أخذتُ من أحد الضباط في البطارية الثانية كتاباً رائجاً حول التلغراف اللاسلكي ورحت أقرأ فيه حتى حلول المساء. وفي الصباح، وكضريبة على الفرح: أشعلت سيجارة بطريقة غير موفقة، فقفز عود الثقب «الآمن» إلى قرنية عيني مباشرة فأحرقها. تشكّلت فقاوعة بيضاء وهكذا أصبحت العين لا تنغلق بشكل جيد. قام طبيب محلي يعمل في السكك الحديدية وقال لي إنه من حسن حظي أنّ الأمر انتهى على هذا النحو، لأنّه يحدث عادة في مثل هذه الحالات أن يكون الحرق أعمق بكثير، حسب كلامه. وبالمناسبة، كانت المصيبة تترافق

-1- أندريه نيكولايفيتش بولكونسكي هو بطل رواية ليو تولستوي «الحرب والسلام». المترجم

-2- معركة أوسترليتز وتعرف أيضاً باسم معركة الأباطرة الثلاثة، هي واحدة من أهم النزاعات الخامسة خلال الحروب النابليونية حدثت 2 أيلول من عام 1805. وتعتبر على نطاق واسع أعظم انتصار حققه نابليون بونابرت. المترجم

-3- كارل زايس اختصاصي بصريات ألماني... المترجم

بصديقي كوفالوف في اليوم التالي - وقد كنت انسجمت كثيراً معه في الأونة الأخيرة، بعد أن ظنته ضيق الأفق ولديه طموحات وادعاءات، ليتبين لي أنّ لديه في حقيقة الأمر قلباً نظيفاً وطيباً. هكذا إذن، عندما قاموا بتوزيع الكحول علينا، أراد كوفالوف أن يجرب درجة تركيز الفودكا عن طريق إشعالها بعو德 ثقاب. فاشتعلت الفودكا وأحرقت له يديه وعنقه وشفتيه، بحيث إن الفقاعات ظهرت عنده في كلّ مكان تقريباً. هكذا كما ترين، يقوم الناس بتشويه أنفسهم من دون حرب».

13 ديسمبر / كانون الأول 1915. يوم أحد.

توقفتُ تقريراً عن الكتابة في دفتر يومياتي، لأنني أمضي كامل وقت الفراغ مع رسائل أليوشـا.

يبدأني من ناحية أخرى أقوم بوضع رسائله في الدفتر، وهذا ما جعل دفتر اليوميات يبدو كأنه مشترك بيني وبين أليوشـا. يا إلهي، قبل سنة فقط كنت أضع أزهاراً بين الصفحات - وأما الآن فأضع رسائل أليوشـا.

راح الثلج يهطل طوال الليل، وقد بدت المدينة بهيـة ومزيـنة ونظـيفة. وإذا بي أفكـر: وكيف الحال عنده، في الواقع؟ سوف يتجمـد من شـدة البرـد. لذلك رحتُ أنظر إلى الثـلـجـ من دون أن أشعر بأدنـى فـرـحـ.

أو في المدرسة. تذـكرـتـ أليوشـاـ فـجـأـةـ وكـمـاـ لـوـ أـنـيـ أـصـبـحـتـ فيـ زـمـنـ آخرـ -ـ كـمـاـ لـوـ أـنـهـ ثـمـةـ إـغـرـيـقـ قـدـمـاءـ. وـمـاـ عـلـاقـةـ تـلـكـ التـيـ تـدـعـيـ اليـونـانـ هـنـاـ؟ـ وـلـمـاـذاـ كـتـبـ هوـمـيرـوسـ كـلـ هـذـاـ الـكـمـ منـ الصـفـحـاتـ عـمـاـ يـدـعـيـ طـرـوـادـةـ؟ـ كـلـ هـذـاـ لاـ يـعـادـلـ سـطـرـاـ وـاحـدـاـ مـاـ كـتـبـهـ أـلـيـوشـاـ!ـ يـاـ لـهـ مـنـ عـذـابـ كـبـيرـ أـنـ يـذـهـبـ المـرـءـ إـلـىـ المـدـرـسـةـ وـأـنـ يـجـلـسـ هـنـاكـ فـيـ حـصـصـ درـاسـيـةـ غـيـرـةـ وـلـاـ مـعـنـىـ لـهـاـ!ـ مـاـ حـاجـتـيـ إـلـىـ ذـلـكـ طـالـمـاـ أـنـيـ أـرـيدـ أـنـ أـحـضـنـهـ وـلـاـ أـسـتـطـعـ؟ـ

كتـبـتـ رسـالـةـ وـاحـدـةـ مـمـيـزةـ جـدـاـ. عـمـاـ لـمـ أـخـبـرـ بـهـ أـحـدـاـ حتـىـ الـآنـ. ثـمـ قـرـرـتـ أـلـاـ أـرـسـلـ الرـسـالـةـ. تـخـيـلـتـ أـنـ أـلـيـوشـاـ سـيـعـودـ وـأـنـاـ سـنـقـرـأـ الرـسـالـةـ مـعـاـ،ـ وـنـحـنـ مـمـدـداـنـ عـلـىـ الـأـرـيـكـةـ فـيـ غـرـفـهـ وـقـدـ التـصـقـنـاـ بـكـتـفـيـنـاـ وـتـلـامـسـ صـدـغـانـاـ.ـ

14 كانون الأول 1915. الإثنين.

«أـرـسـلـوـنـاـ بـمـهـمـةـ إـلـىـ المـدـنـةـ. اـجـتـزـنـاـ عـدـّـ بـلـدـاتـ. الـخـرـابـ يـسـودـ فـيـ كـلـّـ

مكان. أثاث منازل ثمينة مرمية بإهمال في الشوارع وأمام البيوت، وماكينات خيطة معطلة وأجهزة غرامافون (لتشغيل الأسطوانات الموسيقية).

خرجت من قيادة الأركان وإذا بي أسمع موسيقى عسكرية في الساحة الرئيسية - كان ثمة تشيع. كانوا يحملون جنراً ما على عربة مخصصة لجر المدفع. وفجأة شعرت بالفضول لكي أعرف كيف يتم تثبيت التابوت إلى عربة المدفع. طالما أني أخدم في المدفعية، فلا بد أنهم سيقومون بتشيعي بهذه الطريقة. رحت أراقب. لاحظي أية حمّاقات تشغّل بالي. بعد ذلك دخلت إلى الكنيسة. كان شمامس الكنيسة يتهل للرب راجياً منه «النصر لجيشنا الذي يحب المسيح». ولكن، أليس أولئك، في الطرف الآخر، من محبي المسيح أيضاً؟ فجأة تذكري جدي الألماني. كان قد علمني تلاوة Vater unser<sup>(1)</sup>.

وهكذا، في هذه اللحظة بالضبط، ثمة في الخنادق الألمانية، في الجهة الأخرى من الغابة، من يتلو الصلاة راجياً من الرب أن يمنع النصر للعسكر الذين يحبون المسيح. هل هذا يعني أنَّ من سيفعل على الآخر يكون، إذاً، أكثر حبًّا للمسيح؟

أنا أتحدث معك حول كل شيء في هذه الدنيا، في حين أنَّ الناس هنا، في الخنادق، لا يتحدثون أبداً بصوت مسموع عما هو أساسي - الناس يدخلون ويشربون الكحول، يأكلون ويتحدثون عن أمور تافهة، عن الجزمات، على سبيل المثال. حتى أنك لا تستطيعين أن تصوري كيف أنَّ أشخاصاً بشهادات علياً يمكنهم أن يتحدثوا حول هذا الأمر لساعات! لعلَّ الموت يختلس السمع لأحاديثهم، أمّا هم فسوف يتحدثون كيف أنه لم يكن بالإمكان خلع الجزمات قبل الحرب من دون مساعدة الجندي الذي يقوم بخدمة الضابط (الباتمان)، إذ كانت ضيقَة لدرجة أنه يستحيل دس الإصبع هناك. والمجادلة بخصوص ما هو أفضل - استخدام البدرة أو صمغ الصنوبر. والحديث أيضاً عنمن كان يمتلك منهم لوحًا خشبيًا خاصًا مع فتحة خاصة بالكتعب، في حال لم يكن ثمة من يساعدته في نزع الجزمة. ومن ثم يقهقرون بمرح فرحين ومتضامنين إذا ما روى أحدهم كيف أنهم كانوا أحياناً يخيطون الجزمة بعد

- 1 - أبانا.. (ألماني) المؤلف

ارتدائها في السوق بمناسبة الاستعراض، ليقوموا بعد ذلك بشقها بعد انتهاء العرض. وهل تعرفين، ما هو الدارج اليوم؟ آخر موضة - حذاء مع طماق، مثل ذلك الذي يرتديه الضباط في سلاح الجو والمدرعات. بيده أن هذه مجرد تهويمات، أمّا نحن فنرتدي هنا جزمات لبادية وسترات طويلة من الصوف - وهذه عبارة عن جزمات قوقازية دافئة من اللباد الأسود.

تذكرة ليلاً قبل أن أغفو أحد أبطال غوغول، الملازم من ريزان الذي لم يستطع ولا بأي شكل أن يغفو لأنّه كان يمتع نظره بجزمه الجديدة. وقلتُ في نفسي: سوف نختفي جميعاً، نحن الذين أمضينا السهرة هذا المساء ونحن نتحدث عن الجزمات، ولكن ذلك الملازم وحده هو الذي سيقى في الذاكرة. هكذا سيستمر في النظر كل مساء إلى كعب جزمه المدروز بشكل رائع.

استلقيتُ وتلوت صلاة الليل ومع ذلك لم أتمكن من النوم - وهكذا قمت بإشعال الضوء من جديد ورحت أكتب لك. لدى رغبة كبيرة في الإفصاح عما يعتمل في داخلي. لا أعرف عما يجب أن أكتب لك غير ذلك، يا حمامتي.

لقد علّمني أحد الجنود صلاة يقوم بترديدها كل يوم تسعة مرات، ما يجعله واثقاً من أنه لن يصاب بمكروره بعد ذلك. هذه هي الصلاة: «الرب - الآب في المقدمة، والسيدة العذراء في الوسط، وأنا في المؤخرة. ليحدث لي ما سوف يحدث للآلهة».

وهكذا صرت أكرر هذه الصلاة كل صباح تسعة مرات. وأضمرتُ: إذا التقينا أنا وإياك - هذا يعني أن صلاة الجندي تلك قد ساعدتنا!.  
16 ديسمبر / كانون الأول 1915. الأربعاء.

مرة أخرى أثناء الدرس في المدرسة راح زابوغ斯基 يتفحص جسدي بأكمله. وهو يداعب ثؤلوله باستمرار بأصابعه. فجأة أحسست بالقرف إلى درجة كبيرة! لا أريد أن أكتب عن ذلك لأليوشـا.

كنت جالسة في الصف، وإذا بي فجأة أتساءل: ماذا أفعل هنا؟ ولماذا أنا هنا؟ طلبت من المدرس إذنا بالخروج. كانت الطوابق هادئة، وفي كل مكان حصص دراسية. هبطت إلى الأسفل - سمعت البواب يتكلّم عبر الهاتف.

لم أكن أنوي أن أسترق السمع، لكنه لم يكن قد رأني ولأنه كان يعتقد أنه بمفرده، فقد اتصل بالخادمة موضوع غرامه حيث راح يمزح معها بطريقة خشنة، واتفق معها على اللقاء.

كم أنَّ كلَّ شيءٍ حقيرٌ وساقطٌ ومثيرٌ للقرف.

حببي أليشينكا، أين أنت؟ متى سنلتقي؟

ذهبت بعد المدرسة إلى كاتدرائية ميلاد السيدة العذراء في شارع ستاروبوتسوفيا. فقد رحت كلَّ يوم أزور كنائس مختلفة لكي أصلَّي من أجل أليوشَا. في كلِّ مكان أمهات وزوجات، شقيقات وعرائس. نقف جميعاً ونصلِّي راجين أمراً واحداً: نجْه واحفظه!

18 ديسمبر / كانون الأول 1915. يوم الجمعة.

«أول من أمس سقطت قذيفة في مستودع ذخيرة تابع للبطارية الثالثة، لكن القذائف في المستودع لم تنفجر كما كان يفترض. بل تناشرت مثل كتل من الحديد. الجميع يتتحدثون عن جواسيس في الخطوط الخلفية. وقد أنقذ هؤلاء الجواسيس بطريقة عجيبة حياة الكثرين. لقد خلط الرُّبُّ كلَّ شيءٍ في هذه الدنيا إلى حدٍ كبير!»

لقد جلب لي الملازم كوفالوف - سبق أن كتبت لك عنه كما أذكر - جزمة من القوقاز. ثمنها 12 روبلًا فقط، لكن الجزمة ذات رقبة عالية، وهي طرية وخفيفة مثل الريشة.

قريباً سأرسل لك صوري وأنا على الحصان.

أعيد قراءة رسائلك باستمرار. أقبل الكلمات على الورق المجعد، وأقبل يدَكِ التي كتبت تلك الكلمات. أقبل وأنظر. إذ إننا سوف نلتقي؟ هل يعقل أن يكون ثمة ما يمكنه أن يمنعنا من اللقاء؟ أليس كذلك؟».

20 كانون الأول 1915. الأحد.

ذهبت لزيارة أهل أليوشَا. كنت أريد أن أجلس قليلاً في غرفته، حيث بات يسكن الآن تيموشكا. راح يعرض عليَّ حيله: فركَ ختم الشمع بقطعة من قماش صوفي بحيث إنَّ مِزقاً صغيرة مقصوصة من الورق راحت تقفز

وتلتصق بختم الشمع. كما أنَّ تيموشكا يقص رسمًا لأشخاص ولجنود من الورق. ومع أنه لا ينجح بشكل جيد بعد، فإنه تارة يقطع الرجل وتارة القبعة مع الأذن. رحتُ أساعدك.

بعد ذلك ذهبت إلى البيت، ورأيت كيف أنَّ الشوارع امتلأت بالمعاقين من جراء الحرب: كما لو أنَّ أحدًا ما يقوم بقصهم بالمقص - تارة يقص ذراعًا وتارة ساقًا من عند الركبة.

يا إلهي، قم بما يلزم لكي يعود إلىَّ أليوشَا كاملاً وسلينا!

21 ديسمبر / كانون الأول عام 1915. الإثنين.

«القد مضى وقت طويل وأنا في الموضع المتقدمة، ولكنني لم أشارك في معركة حقيقة سوى مساء البارحة. كل ما سبق أن رأيته هنا قبل ذلك، وما كتبت لك عنه على أنه مهم جداً - لم يكن في حقيقة الأمر سوى أمور تافهة. تحركتنا إلى موقع الفوج المجاور من أجل تقديم الدعم لهم، ورحنَا ننتظر الهجوم، وإذا بنا نجد أنفسنا وجهاً لوجه مع الألمان. هذه أول مرة أقوم بإطلاق النار على إنسان من بندقية. وبسبب عدم الخبرة، وعند أول إطلاق رصاص أصابتني البندقية في خدي. احتللت الخنادق - وإذا بهم يحملون من أمامي جندياً جريحاً - ذلك الجندي فاسيلييف نفسه، الذي علمني الصلاة، لا بد أنك تذكرين إذ كنت قد تحدثت عنه؟ اضطررت لأن التصق بالحائط لكي يتمكنوا من المرور. ومع أنه مضى على وجودي في الجبهة أكثر من شهر كامل، هذه أول مرة أشاهد فيها جسداً ممزقاً لإنسان. شعرت بالغثيان وتمنيت أن أعود إلى البيت - هذه أول مرة تخطر بيالي مثل هذه الفكرة، أنه يمكن أن يقتلوني بهذه الطريقة - بحيث إنني سوف أتألم بشدة لمدة طويلة. انتقل الألمان إلى الهجوم، لدرجة أنَّ الأمر بلغ الالتحام معهم والاشتباك بالسلاح الأبيض. لم أقتل أحداً أو أني قتلت، لكنني لا أعرف. ما أعرفه هو أنني كنت على وشك أن أُقتل، لكن كوفالوف أنقذني. فقد انقض جندي ألماني علىَّ وكان يريد أن يشقني بالحرية، لكن كوفالوف أطلق النار عليه من المسدس قبل أن يفعل. فسقط الألماني. أصابته الرصاصة في فمه. غطى وجهه الممزقة بيديه. وراح الدم يتتدفق مثل نافورة من فمه. بقي ممدداً

على الأرض وهو ينظر إلينا. اقترب كوفالوف منه وأطلق الرصاص في عينه مباشرة. ظل حيًّا للحظات وهو يتطلع إلينا بعينه اليسرى، وقد راح جفنه يرتجف. انطبع في مخيلتي صورة الأسنان المتكسرة والدامية.

عزيزي، حبيبي، ما هذا الذي أفعله، ولماذا أكتب لك كل ذلك؟ سامحني!».

25 ديسمبر / كانون الأول 1915.

عيد الميلاد. الوضع فظيع. ومعرف. من المستحيل أن أبقى في البيت. فقد تшاجر وتشاتم الجميع بعضهم مع بعض. ولا يمكن الكتابة عن ذلك لأنيوشا ولا بأية حال من الأحوال.

تشاجر أبي مع ماما وذهب إلى هناك، إلى أسرته الأخرى.

وهكذا جلسنا من دونه إلى المائدة، والتزمنا الصمت جمِيعًا. لا أشعر بأدنى رغبة بتناول أي شيء - لا عصيدة مصنوعة من الشعير من دون حليب ولا زبدة، ولا الكمبوت<sup>(١)</sup>. كنا ننتظر ليلة صافية وإذا بالثلوج ينهر.

ولكي يكسر حاجز الصمت، راح ساشا يؤكِّد أنَّ نجمة بيت لحم - هي كوكب الزهراء، وإذا بنا تشاجر جمِيعًا هنا من دون أي مبرر، حيث رحنا نصرخ بعضنا على بعض. رحت أتحب فركضتُ إلى غرفتي.

عيد الميلاد - هذا عيد الناس والعائلات، حيث يحبون بعضهم بعضاً، أما نحن فلم يعد لدينا عائلة منذ زمن بعيد.

أما بابا فهو الآن هناك، مع طفله الصغير. ولا بد أنهم في هذه اللحظة يفتحون هدايا عيد الميلاد.

أليوشَا، أنا لا أستطيع العيش من دونك! لا أجد وسيلة للعيش من دونك بأية طريقة!

29 ديسمبر / كانون الأول 1915. الثلاثاء.

«أورا! استلمتُ اليوم طرداً من البيت و- مرة أخرى أورا! - وصلني الشال التي قمتِ أنت بحياكته، ففتحته وإذا بي أشمّ فجأة رائحة العطر камنة

-1- شراب يتم الحصول عليه عن طريق غلي الماء مع الفواكه المجففة ومختلف الأعشاب العطرية.. المترجم

في الثقوب الصوفية - إنها رائحة عطرك! رائحة حبيبي من الشال الذي انتعش! من ذا الذي يمكنه أن يعرفكم أشتهد احتضانك، وأن التصدق بشعرك وأشمه، أن أقبله وأنتشق رائحته!

سوف نضطر إلى الاحتفال بعيد الميلاد في الواقع الأمامية. من المؤسف جداً أنه لن يتاح لي الذهاب لحضور القدس العظيم.

تناولت الإنجيل الذي أعطتني إياه ماما ورحت أقلب صفحاته كييفما كان. بدأت أقرأ اعترافات يوحنا وإذا بي أقول لنفسي فجأة إن يوم القيمة - نتيجة الخوف من الموت من قبل الشخص بالذات. أما الموت الشامل - عدالة تحمل العزاء والمواساة. إن الموت أمر مرعب، لأنه من المهين أن يتخلّف المرء - إذ إن الآخرين سوف يكملون مسيرهم وسوف يرون ما سوف يبقى مخفياً بالنسبة لك خلف المنعطف إلى الأبد. لذلك أكثر ما يثير الحنق في فكرة يوم القيمة - هو أنه لن يحدث أبداً.

حاولت أن أنام، ولكنني فشلت من جديد. ولذلك جلست ورحت أخرس على الورق تلك الأفكار التي لا تسمح للمنع بقضاء ليلة هائمة. هذا هو يوم القيمة في حقيقة الأمر، إنه هنا، يوم عادي وصحيعي، مع زوبعة ثلجية، ولكنه غير محدد بشكل واضح من حيث الزمن. سوف يموت الجميع، ولكن ليس في وقت واحد. وما الفرق، بالمناسبة - تغيب بهذه الطريقة أو تلك عوالم كاملة وأجيال كاملة، وإمبراطوريات. أين هي بيزنطة؟ وأين هم الرومان؟ وأين الإغريق؟ لا شيء. لا شيء على الإطلاق. لا شيء ولا أحد، لا متتصرون ولا مهزومون. لقد غاب الجميع - ولكن ببساطة ليس بطريقة مسرحية، كما جاء في الإنجيل «انحسرت السماء مثل لفافة يجري لفها، وتم نقل كل جبل وجزيرة من مكانها»، وإنما بشكل مبتذر، مثلما يجري كل يوم. ذلك أن الإنسان يريد أن يخلق مصيبة وتراجيديا من كل شيء تقريباً - وبالتالي، جماعياً، بشكل حاشد، لكي يكون الأثر أكبر وأعظم. عندما أقرأ أسفار يوحنا - أجده أنه أشبه بما يكتبه ويخرج له خانجونكوف<sup>(1)</sup> تماماً.

1- الكساندر الكسيفيتش خانجونكوف 1877-1945 كاتب وسيناريست روسي... رائد السينما الروسية. المترجم

يبدو أنني أسرفتُ في الحديث. هيا، نامي، يا حمامتي الصغيرة، هيا نامي!  
تصب حين على ألف خير! أقبلك الآن، عبر كل هذه الفراسخ في هذه الليلة،  
وهذا يعني أنني معك!».

### 10 يناير/ كانون الثاني 1916. يوم الأحد.

لم تصل رسائل من أليوشة منذ أسبوعين تقريباً، وأنا أكاد فقد عقلي، كما  
أني رأيتُ هذه الليلة كابوساً فظيعاً. استيقظتُ وقد تصيبتُ بالعرق. كما لو أنا  
نسافر أنا وهو في ليلة جلدية في عربة تجرّها ثلاثة جياد. كنت أشعر بوجوده  
قريباً مني، وأشعر بنفسه وبشفتيه إلى درجة كبيرة جداً. فجأة غمرتني رغبة  
قوية بأن أعيش بصورة كاملة ومطلقة وبكامل كياني، تمنيت أن أسمع إلى ما لا  
نهاية قرع الأجراس وصرير العجلات اللطيف. وفجأة اختفى كل ذلك وغاب،  
وبقيت أنا وحيدة. كانوا يحملونني إلى مكان ما، كما في الطفولة، وقد دهنو  
أنا وجيتي بدهن الإوز للوقاية من الصقيع - بل دهنو الوجه بالكامل. كان ثمة  
إحساس باللزوجة، وبالقرف من ذلك. سخن الدهن وراح يسيل. كانت أمامي  
أكفال أحصنة مكسوة بالثلج المتجمد. كنت أراها بكلّ وضوح وأشعر برائحة  
جلد الدببة الذي أجلس عليه، وبرائحة تعرق الأحصنة والغازات التي كانت  
الجياد تطلقها باستمرار. وفجأة استيقظتُ وأحسست - لقد مات...  
كاد قلبي يتمزق.

### 11 يناير/ كانون الثاني 1916. الإثنين.

وصلتني رسالة منه! إنه حيٌّ! حيٌّ! حيٌّ!

«اضطررنا للاحتفال بعيد الميلاد في موقع أمامي متقدم - لم يقم الألمان  
بإزعاجنا على الإطلاق لا عشية الميلاد ولا في يوم العيد. قمنا عشية الميلاد  
 بإضاءة شجرة الميلاد حيث وضعناها في مقدمة الخندق. كان المساء هادئاً  
 ولذلك لم تنطفئ الشموع. كنت أنتقل بفكري لا شعورياً إليكم في روستوف.  
 حيث رحت أتخيل ذلك المساء على حقيقته: في البداية جلبة في الشوارع،  
 ومن ثم توقف الهرج والمرج في الشوارع، وأخيراً يبدأ قرع الأجراس في  
 الكنائس، قرع احتفالي مهيب، ثم انطلاق الخدمة في الكنيسة بالمساء  
 العظيم وفي نهاية المطاف القدس العظيم. بعد انتهاء الصلاة يخرج الناس

من الكنائس ويترقبون مع مزاج احتفالي سعيد. أما هنا فقد كان الوضع هادئاً عندنا وعند الألمان. كما كانت الليلة صافية وكانت السماء ممتلئة بالنجوم، وقد استدعي ذلك الهدوء نوعاً من الحزن، ما جعلني أشعر بالبعد عنكم بدرجة أشد. تذكرتُ البيتَ والطفولة، كيف كنا نفرش العشب للدلالة على يوم ميلاد يسوع، وكم كانت الغرفة تعبق بروائح لذيدة وقد اختلطت برائحة الصنوبر. لقد كان يوم الميلاد يوم صوم عندنا، ولذلك لم يأكل أحد منا أي شيء منذ الصباح الباكر وحتى طلوع أول نجمة. بقينا صائمين طوال النهار ورحنا نراقب ظهور النجمة - ومن ثم جلسنا إلى المائدة. أكلنا فطائر خاصة، ميلادية: بالرز - الملك الأبيض، وبالفاصولياء - الملك الأصفر، ومع خوخ - الملك الأسود. أكتب لكِ - وفجأة شعرت برغبة كبيرة بأن أتدوّق تلك الفطائر! كنت سأملاً بطنِي بها حتى الانفاس!

أقبلكِ! تصبحين بألف خير! غداً سأكمل رسالتي.

أكمل الرسالة التي كنت قد بدأتها أول من أمس، وأنا مستعجل لكي أرسلها عند أول فرصة سانحة.

لا، لم يسمح لي الوقت بأن أضيف أي شيء، لذلك أرسل الرسالة كما هي. الشمس مشرقة خلف النافذة، وثمة صقيع، الثلج ساطع، وها هي العصافير بدأت تطير إلى روث الأحصنة الطازج، وهي تشقشق بطريقة ساحرة - لأن روث الحصان سعادة كبيرة للعصافير!

سؤال: صف لنا الطريق الذي سافرتم فيه.

الجواب: خرجت ثم انطلقت من دون أن أدرى إلى أين أنا ذاهب، وقد مشيت 40 يوماً.

سؤال: ما هي البلدان التي اجتزتها؟

الجواب: وصلتُ إلى الأرض التي يعيش فيها بشر برؤوس كلاب<sup>(١)</sup>.

-1- *cynocephaly*، وجود رأس كلب - أو ابن آوى - هي ظاهرة أسطورية مشهورة على نطاق واسع موجودة في العديد من الأشكال والسياقات المختلفة. المعنى الحرفي للكلمة «cynocephaly» هو «رأس الكلب»؛ ومع ذلك هذا يشير إلى جسم بشري برأس كلب. في كثير من الأحيان، مثل هذه المخلوقات لديها أيضاً الذكاء البشري.. المترجم

وقد راح هؤلاء - أصحاب رؤوس الكلاب - ينظرون إلىَّ من دون أن يلحقوا بي أيَّ أذى. وهم يعيشون في جميع الأمكانة مع أطفالهم، مشيدين أعشاشهم بين الصخور. وقد مشيت عبر أرضهم خلال 100 يوم، ثم وصلتُ إلىَّ بلاد الأقزام. وقد التقيت هناك بعده من الأزواج والزوجات والأطفال. عندما رأيتهم شعرت بالرعب لاعتقادي بأنهم سوف يتهموني. فقررتُ: سوف أشعُّ شعري على رأسي وأندفع نحوهم. أما إذا هربت منهم فسوف يأكلونني. وهكذا فعلت كما قررت، فراحوا يفرون هاربين مني وقد التقاطوا أطفالهم معهم وهم يعضون على نواجذهم. ثم تسلقت جبلاً عالياً حيث لا تشرق الشمس ولا تنمو شجرة، ولا ينمو عشب، وإنما تعيش الثعابين والأفاعي فقط وهي تفُحُّ وتصرُّ بأسنانها. وهكذا راحت تصرُّ بأسنانها كل من الأفاعي السامة، وأكلات النمل الشوكية<sup>(١)</sup>، وأفاعي الهضاب والسعالي من نوع البازيليسق. كما أني شاهدتُ أنواعاً أخرى من الأفاعي، لكنني لا أعرف تسمياتها. وهكذا مشيت لمدة أربعة أيام وأنا أسمع الهسيس. قمت بسد أذني بالشمع، لأنني لم أستطع تحمل صفير الثعابين.

سؤال: أتقول الحقيقة؟

الجواب: ها هو الشمع ما زال عالقاً في أذني. ثم تابعت مسيري لمدة 50 يوماً، من دون أن أبصر دربَا، وأخيراً عثرتُ على قطعة جليد، بارتفاع ذراع عن سطح الأرض، وبعد أن قمت بفرضها عبرتُ إلى هذه الأرض.

سؤال: أين ومتى وكيف استطعت أن تجتاز الحدود؟

الجواب: وصلتُ إلى نهر كبير وشربت من مائه حتى الارتواء، فراحت شفتاي تلتتصق من فرط الحلاوة التي كانت تفوق حلاوة العسل وأقراص العسل. وحين حانت الساعة التاسعة، انتشر الضيء في ذلك النهر، أشد سطوعاً بسبعين مرات من ضوء النهار. وحدث أن هبت ريح في تلك الأرض: ريح غريبة خضراء اللون، ومع شروق الشمس - ريح شقراء، ومن الشمال هبت رياح أشبه بالدم الطازج، أما من ناحية الجنوب فقد كان الهواء أبيض مثل الثلج.

1- النضناض أو أكل النمل الشائك Echidna أو Spiny anteater حيوان ثديي يضع بيضا ولكنه لا يلد. المترجم

سؤال: هل ما تقوله حقيقي؟

الجواب: كان عرض ذلك النهر - بعرض المساء الذي انعكس في الماء، وعمقه - مثل لحظة عابرة - من دون قاع. وهكذا، عندما أردت أن أجتاز النهر، صرخ النهر قائلاً: «لا تستطيع أن تجتاز من خلالي، لأنك لا يجوز للإنسان أن يعبر مياهي. هيا، انظر ماذا يوجد على سطح الماء». نظرتُ فإذا بي أرى جداراً من سحب يرتفع من سطح الماء حتى السماء. فقالت لي سحابة: «لا يمكن أن يعبر من خلالي لا طائر من هذا العالم، ولا نسمة من هواء، وما من أحد يستطيع العبور من خلالي».

سؤال: وكيف استطعت أن تعبر، إذن؟

الجواب: صلّيت للرب، فنبتت في الأرض شجرتان، رائعتان وزاهيتان، وكانتا محملتين بشمار فواحة لذيدة. وإذا بـأحدى الشجرتين، كانت تقف على هذا الجانب من النهر، تنحنني وتحملني إلى أعلى قمتها ثم تنقلني عالياً للتعود وتنحنني إلى وسط النهر. ثم لاقتها الشجرة الأخرى، وأخذتني إلى أعلىها، لتنحنني بعد ذلك وتضعني على الأرض في الجانب الثاني من النهر. وهكذا شمخت الشجرتان وقامتا بنقلني عبر النهر.

سؤال: حسناً، لنفرض ذلك. ولكن، كم يبلغ عمرك؟ لقد كتبت هنا أن عمرك تسع عشرة سنة، ولكن ما هو عمرك في حقيقة الأمر؟

الجواب: في تلك الفترة التي بلغ عمري فيها 165 سنة، ولد ابني متواشلخ<sup>(١)</sup>، ثم عشتُ بعد ذلك 200 سنة، وبذلك يكون عمري الآن 365 سنة.

سؤال: وماذا حدث فيما بعد؟

الجواب: كنت نائماً في أول ليلة من شهر نيسان. وقد دخل إلى قلبي أثناء النوم حزن عظيم. فقلت وأنا أبكي، لأنه لم يكن بوسعي أن أدرك في الحلم سبب الحزن: ماذا سيحدث لي؟ ثم استيقظتُ وبقيت مستلقياً من دون أن أنام. كنت أتصبب عرقاً. ولم أستطع أن أعرف أين استيقظتُ على

1- متواشلخ ابن إدريس ووالد لامك وجده نوع، توفي عن عمر يناهز الـ 969، قبل سبعة أيام من بداية الطوفان العظيم. ووفقاً لسفر التكوين فقد تأخر الله مع الفيضان لمدة سبعة أيام حداداً على شرف متواشلخ الصالح. المترجم

وجه التحديد. ثم تذكرتُ. كان بوادي أن أفرأ إلى مكان ما، كما لو أني عندما استيقظت كنتُ شخصاً آخر مختلفاً، ولست الشخص نفسه الذي كنتُه. كان ثمة نخير وشخير من حولي. وكان ثمة مياه تنقط. عبرت من مسافة بعيدة سيارة. فجأة رحتُ أسمع دقات ساعة. كان كل شيء في داخلها يعمل بشكل صحيح. بعد ذلك ارتديتُ قبعتي ووضعت على كتفيَّ سترة من الكتان ثم خرجت. رحتُ أكسر الجليد في البركة - وقد تحطم على شكل مروحة.

سؤال: هذا كان عندئذ، في تلك الليلة الشتوية من شهر نيسان - إلَّا أنَّ كُلَّ شيء كان قد بدأ منذ ظهور مرض النحل في شهر آذار؟

الجواب: لا أعرف. نزعت القبعة - فجفَّ العرق بسرعة. تحرك أحدُ ما في الظلام بالقرب من الفطر. ثم ناداني: «هل هذا أنت، يا خنونخ<sup>(١)</sup>؟». أجبتُ: «نعم، أنا». هو: «تعال إلى هنا! لديَّ هنا حليب مكثف!». اقتربت من دون أن أعرف من كان ذلك الشخص. قام بفتح علبة الحليب المكثف بالحربة. رحنا نأكل بأصابعنا. يغطس واحدنا إصبعه ثم يقوم بلحسه.

سؤال: ولكن لماذا خنونخ بالتحديد؟

الجواب: كانوا ينادوني بهذا الاسم دائمًا، سواء في الروضة أو في المدرسة بل وفي الجيش أثناء الخدمة الإلزامية أيضًا. كنيتي هي إينوخين. ولذلك كان الجميع يناديني خنونخ<sup>(٢)</sup>.

سؤال: كانوا ينادونك من دون أن يعرفوا شيئاً عن مستودعات الغيوم

---

- 1- أو أنس الله عند المسلمين.. ابن قابيل، والد عيراد، وبعد أن طرد قابيل من قبل «الرب» لقتله أخيه هابيل، سكن في أرض نود شرقي عدن. وأنجب خنونخ، وبعد ولادة خنونخ، بنى قابيل مدينة سماها خنونخ على اسم ابنه وفقاً لسفر التكويرن. ظهر في كتاب الخروج بالتوراة أنه ابن يارد، والد متoshالع والجد الأكبر للنبي نوح. وتذكر التوراة أنه مشى مع الله ولم يعد. أما في الإسلام فيعتبر البعض النبي إدريس نفسه. هناك بعض الكتابات التي تسبِّ إليه وتعترض بها الكنيسة الأرمنية وكنيسة التوحيد الأرثوذكسيَّة الإثيوبيَّة والكنيسة المورمونية إلا أن الكنائس الأخرى مثل الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسيَّة الشرقيَّة والبروتستانتية لا تعترض بهذه الكتب مع أنها تعتبره من الأقديمين الأتقياء. المترجم

- 2- خنونخ في اللغة الروسية تعادل EHOX أي إينوخ.. فاقتضى التنوية. المترجم

ومستودعات الندى، هذا في حال أننا لم نشاً أن نشير إلى ما هو بين التحلل  
وعدم التحلل؟

الجواب: عمَّ تتحدث؟ أنا لا أفهم شيئاً مما تقوله.

سؤال: حسناً. ييدَ أنه ليس لدينا وقت كثير - فالساعة الرملية بدأت تدق  
معلنة الوقت في جميع السفن التي غرقت والتي تشغُّ عباب البحر. لهذا، هنا  
حدثني وبشكل سريع كيف راح المطاط في السروال الداخلي يضرب على  
البطن العاري، وإلا فإننا لن ننجح مع المسألة.

الجواب: كانوا يضربوننا في القطعة العسكرية في الأيام الأولى.

سؤال: يجب أن تكون التعليمات تقضي بذلك؟

الجواب: نعم ولذلك لم نكن نقاوم أو نحتاج. كنا نعرف مسبقاً أنهم بعد  
أداء القسم سوف يبدؤون بضربينا على الوجه بصورة أشد - وأما قبل القسم  
فلم يكونوا يضربوننا على الوجه.

سؤال: قل لي ما هي طبيعة تلك القطعة العسكرية وأين موقعها.

الجواب: قطعة كباقي القطع، لا شيء مميزاً. كانت هناك عند المدخل  
شجرتاً صنوبر، كما لو أنها حارسان، وأما من قبل فقد كانت تقوم هناك  
كتيبة من أشجار الصنوبر. حتى أنَّ هذا غير مهم. بل المهم هو أنني كنت  
أجلس في غرفة حمراء في يوم أحد، وأشاهد التلفاز، وإذا بالرمادي يأتي في  
تلك اللحظة ويقول: «هيا قف! ثمة فوضى في الثكنة! بسرعة!». ركضتُ  
إلى هناك، فوجدت العسكريين مددين في أسرتهم، أما سريري فكان مبعثراً  
بالكامل. قمت بترتيب السرير، وإذا بالرمادي يقلبه من جديد. وهكذا  
استمرت هذه العملية لمدة ساعة كاملة. وقد وجد الجميع في ذلك مناسبة  
للضحك والتسلية. وفوق ذلك رحتُ أتلقي ركلات من قبل المدددين. بينما  
كان الرمادي يقطّع بمطاط سرواله على بطنه. كنا قد جئنا بجموعة عساكر  
شبان من الجامعية، وكان يجب، كما هو العرف، أن يقوموا باستقبالنا في  
أول ليلة نصل فيها: قاموا بإرغامنا على «طرد الشتاء» من الثكنة بواسطة  
المناشف. وعندما امتنع أحدنا عن ذلك، تلقى ضربة بخزنة صغيرة على  
رأسه. كما كانت هناك حادثة أخرى...

سؤال: ولكنني أعرف، أعرف جميع قصصك! وقد تبدأ الآن بالحديث  
كيف أنه كان يجب عليكم تنظيف «الممرات» في الشكبة بفرشاة أسنان.

الجواب: كيف ذلك، وأنتم أيضاً؟

سؤال: وهل كنت تعتقد، يا تُرى، أنك الوحيد كذلك؟ ألم يكن الآخرون  
أيضاً يقومون بترتيب الأسرّة للقدامى في الخدمة، كما كانوا يخيطون لهم  
الياقات؟ ألا تذكر غرفة المعيشة؟ والجنود الأغارار<sup>(١)</sup> بقصاصات شعرهم وهم  
يعسّلون ويكونون الثياب القطنية للقدماء. أما الرمادي - فكانت لديه سترة  
عسكرية تمت خياطتها حتى النهاية على طراز المساعدين القدماء. وفجأة  
تشاهد نفسك في مرآة مكسورة ومترّقة، وقد امتلأت العينان بالخوف -  
بالخوف من أن تؤدي الملابس أو تحرقها.

الجواب: وهل كان الرمادي عندكم أيضاً؟ وهل كان يحبّ أيضاً أن يربت  
بمطاط السروال التحتي الأزرق على بطنه؟

سؤال: ذات مرة كنت أخيط له ياقه السترة، فوخزت إصبعي بالإبرة،  
وبشكل غير موفق بحيث أتني خربتُ الياقه - سقطت قطرة من الدم عليها.  
استنشاط الرمادي غضباً!

الجواب: ولكن هذا حدث معي أنا بالتحديد! في البداية ضربني بقبضه  
يده في بطني، وإذا رأني أتكور وأختنق من الألم، وقد راح المخاط يتتدفق  
من أنفي، وجه لي ضربة بکوعه في ظهرى لكي أهوى على الأرض. بعد  
ذلك راح يضربني بالجزمة، ولكن ليس خط عشواء، وذلك كي لا يسبب لي  
كسوراً. كما أنه كان يحبّ أن يقوم بما يلي: يشدّ يدي خلف ظهرى، ثم يغلق  
براحة كفه أنفي وفيمي، بحيث لا يعود بإمكانى أن أتنفس ويتناقض. بمجرد أن  
يبدأ المرء يفقد وعيه، يرفع راحة يده لكي يلعن الشخص بعض الهواء، ومن  
ثم يعود ويمعن عنه التنفس من جديد. بعد ذلك يطلق سراحى ويقوم بمسح  
راحة كفه على شعر رأسى الذي يشبه وبر القنفذ.

---

-1- يستعمل المؤلف هنا كلمة من رطانة العسكر... وحرفياً تعنى «الرخوين».. فاقتضى  
التبويه. المترجم

سؤال: وهل تذكّر كيف أنهم شاهدوا في بانيو الحمام «فرفورتك»<sup>(١)</sup> – صغيرة وبقضاء اللون، من دون أي شعر، فلم يتمكنوا من التوقف عن الضحك والقهقهة؟ ولكنك لم تغضب عليهم؟ أحكم بنفسك: ستنان في الثكنة، من دون أن يكون بإمكانك أن ترى مدنيين سوى في اليوم المخصص للذهب إلى حمام المدينة، وحتى هؤلاء في معظمهم عبارة عن ضباط بلباس مدني، وأمّا النساء – فهنّ زوجات الضباط بكل تأكيد، عدا أنّ الحمام على مسافة حيّ واحد من الثكنة. والجزمات، وأوراق الأشجار – حتى هذه تقوم بمعامرات عاطفية بعضها مع بعض. علماً أن الشبان بشر ومن لحم ودم، بمعنى أنهم ليسوا أمواتاً بعد، وعما يمكنهم أن يتحدثوا إذا لم يكن عن النساء، وهكذا فإنّ دروس التوجيه السياسي بشكل عام تدور حول رغبة كل واحد منهم بأن يدخل عضوه الآن في ثقب امرأة ما. أما مسؤول التوجيه المعنوي، وقد لبس عفرا الكاهن، راح يحدثهم في الركن الأحمر عن الشيء ذاته: عن ذلك الرجل من إسبارطة الذي كان عجوزاً وواهناً، ولكنه انضم إلى صف المحاربين لكي يذهب إلى الحرب، وحين سأله – إلى أين أنت ذاهب؟ أجاب وهو يلوى شفتيه في ابتسامة ماكرة، ويقول إنه طالما لا فائدة أخرى تُرجى مني، فليقم العدو على الأقل بتثليمه سيفه فيّ. هل يجوز، إذن، أن يُترك كل هذا العدد الكبير من الرجال من دون نساء؟ ولمدة طولية جداً! إنّه تصرف وحشى وغبي تماماً. إذ إنك تكون ممدداً في الفراش وقد غطيت رأسك بالبطانية – ولكنك ترغب وتشتهي بأن تقبل وأن تضمّ وأن تلتجّ! وتتخيل لنفسك ما لا يخطر ببال. وهكذا تموت نقاط الحياة (المني)، الشقية والحرارة، على الشرشف بلا أية فائدة. لكي تغفو وأنت تشعر بالرطوبة وبالبرد.

الجواب: نعم، لدى الجميع المسألة ذاتها بالبال. بالإضافة إلى شرب الكحول. عندما منحوني أول إجازة، قال لي الرمادي – أحضر معك قنية، وإنّي سوف أدخل فيك على مرأى من جميع أفراد السرية، كن مستعداً لذلك!

---

1- استخدم المؤلف في النص الأصلي مفردة غير أدبية من رطانة الشارع والأدب الإباحي. ورأيت أن هذه الكلمة الشائعة في العالم العربي مناسبة أكثر من غيرها. المترجم

سؤال: هل جلبتَ معك؟

الجواب: ليس ثمة خيار آخر.

سؤال: بيدَ أنهم كانوا يقومون بتفتيشكم في نقطة التفتيش؟

الجواب: كان الرمادي يخرج لمقابلاتي واستلام القنينة. فهو لم يكن وحشاً. كان يحاول أن يخفيني فحسب. وعلى العموم، يمكن للمرء أن يعيش في أي مكان. بيدَ أن الأمر في غاية الصعوبة. بمجرد أن تغفو، يأتي الرمادي ثملأ فتضطر أن تنهض لكي تنزع له جزمه. يتجمساً - فتشعر: كان ثمة خيار مخلل قليل الملوحة وملفوف مخلل. «انحناء!» - يصرخ ويرغمك على الانحناء. تنحنى، فيصرخ مرة أخرى: «أكثر، أيها الشاذ جنسياً، نحو الأسفل!». تغمض عينيك وتتحدى أكثر. يلتقطك الرمادي من رقبتك ويسحب وجهك إلى مؤخرته في سروال أزرق. ينتظر لحظات، يرکّز ويضرط. «ماذا إذن - يسألك - هل شمنت بما يكفي؟». بعد ذلك يطلق سراحك. «هيا، اذهب إلى النوم!». ومن جديد تتسلق إلى السرير من طابقين وتحاول أن تذكري قبل أن تغفو شيئاً ما لطيفاً: ماما، على سبيل المثال. تتمنى لو أنك تستيقظ صباحاً في البيت، حيث تكون قد جهزت لك فطائر ووضعتها على المائدة. وإذا بالصبح يقترب، فيقومون بإيقاظك عن طريق صفعك بفرشة الأرضية على وجهك.

سؤال: ولكن كان بإمكانك أن تهرب من الخدمة؟

الجواب: حاول أحدهم عندنا أن يفعل ذلك - انتحر شنقاً بواسطة حزام، ولكن بحيث لا يموت - كان يريد أن يحصل على إعفاء حسب «المادة 7 ب». لكنه لم يحصل على ما يريد. أرغمه الرمادي أن يحفر حفرة بالقرب من الشكنة، ثم راح الجميع يبولون عليه.

سؤال: وأنت أيضاً شاختت عليه؟

الجواب: وأنا أيضاً.

سؤال: لماذا؟

الجواب: وهل أنت لا تعرف لماذا؟

سؤال: أعرف.

الجواب: لماذا تسأل، إذا؟

سؤال: وماذا كان فيما بعد؟

الجواب: استلمت بندقية آلية في مستودع الذخيرة، وقعت هناك في دفتر الاستلام. وفجأة شعرت بسعادة غامرة، بنوع ما من الحرية، بأنه يمكنني بمحض البساطة أن أقوم بإطلاق مشطٍ كامل من الرصاص على جميع أولئك الأشخاص. والأهم، على الرمادي بالدرجة الأولى. وأنه لن يمنعني ولن يوقفني أحد. أخذت الكلاشينكوف ورحت أتمشى على طول الشريط الشائك. كنت أمشي وأحدق في العتمة. كان قد هطل ثلج، بحيث إن المكان بأكمله أصبح ناصعاً برد. وصوت تكسر الجليد تحت الأقدام. بنفس الطريقة تمنيت أن تكسر تفاحة خضراء تحت أسنانِي. أسيء وأتطلع إلى النجوم، محاولاً أن أميز بين مجموعات النجوم، حيث لم أكن أعرف في حقيقة الأمر سوى مجموعة الدب الأكبر. وجدت نجمين أشبه بنقاطتين، فقللت في نفسي إنهم سوف يكونان كوكبي، كوكبة النقاطتين. كما أني رحت أتذكر كيف راح الرمادي يفسّر بناء العالم - كما لو أنَّ جميع الكواكب - عبارة عن ذرات عالم آخر علوي. أما ذراتنا نحن - هي أيضاً كواكب لعالم آخر. «سوف أبصر الآن - كأن يقول الرمادي - وسوف تكتسي آلاف المجرات في تلك العوالم، من مثل درب التبانة عندنا، بسطت نحاسي!». قد يكون الرمادي على حق، ولعل الأمر كذلك بالفعل. رحت أمشي وأفكِّر الله أعلم بماذا، علماً أنه يمكن أن يظهر قائد النوبة أو الضابط المناوب في آية لحظة. عندئذ يجب عليَّ، كما تعلم، أن أصرخ حسب النظام: «قف! مَنْ هناك!» وفي حال لم يتمثل كما يجب، أقوم بإطلاق الرصاص في الهواء. هذه أول رصاصة للتحذير. وإذا لم يتوقف بعد الرصاصة التحذيرية، يجب توجيه الرصاصة التالية إلى الشخص المقرب.

سؤال: وماذا في الأمر؟ أين المشكلة؟

الجواب: كل الأمر يكمن في أنه يجب إطلاق أول رصاصة في الشخص المقرب ومن ثم في الهواء. المسألة تكمن فيما إذا كان يمكن لاحقاً تحديد آية رصاصة كانت الأولى وأيهما كانت الثانية؟

سؤال: هذا أمر نظري بحث. هات أخبرني كيف أنك جلست القرفصاء ودفت السبطانة في بطنك بعد أن رفعت الزناد وأنزلت صمام الأمان.

الجواب: خُيِّلَ لي في تلك اللحظة كما لو أنني أجلس فوق فتحة. وأنَّ الحياة - عبارة عن حفرة قذارة، وأنَّ هواء يهرب من خلالها. وكما لو أنني سوف أسقط حالاً في تلك الحفرة. وأنهم سوف يضحكون عليَّ ويسخرون مني - حتى بعد ذلك. لأنَّ كُلَّ شيءٍ يشير الضحك لديهم.

سؤال: وفي هذه اللحظة بالتحديد دوى انفجار؟

الجواب: نعم، بدأت سلسلة انفجارات في مكان غير بعيد، وقد كانت الانفجارات هادرة ورعدية، كما لو أنَّ شخصاً ما راح يركض على أسطح الكراجات. هناك، حيث كنا نقطن، كانت خلف النافذة من جهة اليمين بوابة الكراجات، ومن الجهة اليسرى كراج. كنا مع أطفال آخرين نجري على سطح الكراج. كان سطح الكراج يتشقى، كما أنَّ الحديد كان صدائاً، ومتهرئاً. كان يرproc لي كيف أنَّ عدواناً يقعقע. كما لو أننا أنتجنا رعداً بعيد المدى. فكان أصحاب الكراج يصرخون علينا ويطاردوننا. وفي إحدى المرات قاموا بالإغارة علينا. رحنا نقفز من سطح كراج إلى سطح كراج، وإذا بي أتعثر فلم أفلح بالقفز فسقطتُ. التقطوني وراحوا يضربونني. رأته ماماً من خلال النافذة فهربت لنجدتي. كان يمكنهم أن يقتلوني حتى الموت لو لم تحضر ماماً.

سؤال: هكذا، إذن، دوى صوت رعد في السماء، كما لو أنَّ أحداً ما راح يركض على أسطح كراجات - وماذا بعد؟

الجواب: فتساءلتُ: «إلهي، كيف نجحت في تدبير كلَّ ذلك؟».

سؤال: وفي هذه اللحظة قاموا باستدعائك إلى الرمادي، وقد كان جالساً في كرسي مخصص لفحص النساء. أليس كذلك؟

الجواب: نعم، إذ كان يجب علينا أن نحمل إلى الخارج مختلف الأشياء القديمة التي كانت في قبو مستشفى قديم. كانت تقف في الفناء كرسي صدائٌ غير معروف استخدامها لنا. تلك هي. فجلس الرمادي فيها مبعاداً بين ساقيه في الجزمة وهو ينقر بمطاط سرواله. لم يكن يرتدي عندئذ سوى ذلك السروال الأزرق.

سؤال: ألم يجعلك تشعر بالارتباك لأنك كنت تخشخ على الثلوج المتكسر وتنفس هواء صقيعياً ليلياً، أما هو فكان في السروال فحسب؟

الجواب: لم أفكّر في ذلك نهائياً في تلك اللحظة لسبب ما. استدعوني إلى الرمادي وقد جئت - فعلام يمكتني أن أسأل. في تلك اللحظة كانوا يعاقبون شخصاً من القاقاوز<sup>(1)</sup>، وهو فتى ضعيف نحيل من موالديافيا، حتى إنني لا أعرف كيف جاء إلينا. وقد أعلن الرمادي أن القاقاوز على العموم، ليسوا شعبا وإنما أحفاد ذلك الجيش العثماني الذي بقي هناك، وأن كلمة «قاقاوز» بحد ذاتها تعني في اللغة التركية «خائن». كان يجب على كل واحد أن يقترب منه وأن يفعل له شيئاً ما مهينًا. وقد قمت بضربه برأس جزءي في ساقه - بحيث إنه قفز وأمسك بساقه من شدة الألم. إنه خائن، وسيبقى خائناً، فلماذا يجب أن أرأف به. حتى إنني لم أكترث: قاقاوز أو غير قاقاوز..

سؤال: وماذا فعل القاقاوز؟

الجواب: لا شيء، كسر على أسنانه في إحدى الزوايا ثم راح ينقل مع الآخرين أسرة المستشفى إلى الفناء.

سؤال: وعنده؟

الجواب: عنده سأله: «كيف صنعت هذا العالم، أيها الرمادي؟».

سؤال: وهو، ماذا قال؟

الجواب: أجاب وهو يخطب بمطاط سرواله على بطنه: «ثمة كون يطير في كل بصلة. وإنه ليبدو فقط وكأن الخفير ثابت لا يتحرك، وأن الشمس تغرب - في حين أن الجميع يعرفون ومنذ زمن كوبيرنيكوس<sup>(2)</sup> أن الشمس ثابتة في

- 
- 1- الكاكاوز أو القاقاوز هم مجموعة عرقية تركية، ويقطن معظمهم في جنوب جمهورية مولدوفا؛ في مقاطعة كاكاوزيا، وهناك أعداد كبيرة منهم تسكن في جنوب غرب أوكرانيا في منطقة بودياك، وجنوب شرق رومانيا في محافظة دوبروجيا. صنف الكاكاوز جينياً على أنهم يتمون إلى المجموعات التي تتسمى إلى الشعوب الاناضولية التي تقطن في جنوب شرق أوروبا. وعلى خلاف معظم الشعوب التركية، فالكاكاوز معظمهم مسيحيون يتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. المترجم
  - 2- نيكولاوس كوبيرنيكوس 1473-1543 راهب وعالم رياضي وفيلسوف وفلكي وقانوني وطبيب وإداري ودبلوماسي وجندى بولندي كان أحد أعظم علماء عصره. يعتبر أول

مكانها وأنَّ العالم يطير إلى الشيطان. في البداية كان الإنسان، ثم كانت بصفته. لكي أتمكن من إرسال الكون إلى التحليق، كان يجب عليَّ في البداية أن أحلق الإنسان. وقد خلقتُ جسده - من هذا التراب الممتنع بأعقاب السجائر، وخلقت دمه - من ماء صدى من الحنفية، وخلقت عينيه - من زجاج القوارير الخضراء، وعظامه - من أرجل الأسرة العسكرية، ودماغه - من السحب، وأوردته وشعره - من العشب الجاف، والنبض عنده - من تيار الهواء البارد، وتنفسه - من الرياح، وقشرة الشعر - من زوبعة ثلجية ناشفة. ثم كانت مشيتي بأن يتشرَّد في أرجاء الكون بحثًا عن الرب، وعن اللحم والإنسان. ولكي تختفي في الطريق الذي يسلكه جميع آثاره، باستثناء أثر خطواته. وبحيث يقولون عن الكلب - إنه توفي، أما عن الإنسان - فيقولون إنه فطس».

سؤال: وهل استطعت أن تدرككم من الصعب على المرء أن يكون سيد الكون! فالأظافر تريد أن تحيا، وليس ذنبها في أنك تقوم بقرضها. السلحافة تريد أن تعرف ما الذي سيحدث في نهاية الأمر، أمَّا الطفل فيقوم بتحطيمها على أسفل الشارع لكي يعرف ماذا كان في البداية. المزارع يتسل هطول المطر، والبحار - يرجو هبوب ريح ملائمة وطقسًا صحًوا، والجنرال - يرغب بالحرب، أما الجندي فيحمل بأن يعود إلى البيت وأن يرمي الرتب من فتحة النافذة العلوية الصغيرة.

الجواب: عمَّ تتحدث؟

سؤال: عمَا إذا كنا بالفعل مجرد ذرات في بصاق للرمادي ممزوج بالمخاط وأتنا ذاهبون إلى الشيطان، فإنه سيكون ثمة هرَّة تجلس في النافذة في ذلك الكون المؤلف من بصقة وهي تصطاد كرات الثلج بقائمتها. وأنَّ ثمة تلمودًا ما أيضًا في ذلك الكون، حيث يسردون كيف أنَّ عجلًا جاء إلى حكيم وراح يشكو ويتفجع بأنَّهم يريدون ذبحه، فقال له الحكيم: «هيا انصرف، حيث يقودونك - يكون هذا هو الهدف من خلقك».

---

من صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها في كتابه «حول دوران الأجرام السماوية». وهو مطور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث.. المترجم

## الجواب: عن أية قطة؟ وما معنى هذا كله؟

سؤال: هذا يعني أنني متقدم في الخدمة، أما أنت فمن الأغرار الضعفاء، ومن ثم يحدث العكس - تصبح أنت متقدماً في الخدمة، وأنا أصبح غرّاً ضعيفاً. ولا بدّ أن يكون هناك مَن سيعلّمنا، نحن الأغرار. ببساطة يجب أن يفهم المرء لغة المصير ونواحه. فتحن عُميان منذ الولادة، لأنّي شيئاً ولا يمكننا أن نلتقط صلة الوصل بين الأحداث واتحاد الأشياء - بنفس الطريقة يحفر الخلد طريقه وإذا به يصطدم بجذور ثخينة، وهي تشكّل عائقاً كبيراً بالنسبة إليه لا يستطيع التغلب عليها. وهكذا فإنّ الفصيل الذي ينطلق في مسيرة طويلة بكامل العتاد في طريق عبر الغابة، وفي منتصف شتاء بلا ثلج، حين تكون الأغصان العارية للأشجار قد خرجت للتو من الضباب الصباحي، لا يمكنه أيضاً أن يفهم أغصان الشجرة وأوراقها - لونها في فصل الخريف، وتلك الرياح وهسيس الفقارية بطريقة مختلفة مع الوسط المحيط - الأولى تزيد من حرارة جسمها عندما تنخفض حرارة الوسط المحيط، ولكنها مع ذلك تتجمد من البرد، أما الأخرى فإنها تعيش بتنااغم مع الوسط، وإذا ما حلّ فصل الشتاء، فإنها تحول إلى جليد، ومن ثم تذوب بعد انقضاء الشتاء. يجب التريث والصبر والانتظار، وعندئذ سوف نصبح سلاحف، وسوف نكون حيتان بمنأى من الضربات، وبالتالي من القدماء، وسنقوم عندئذ بغضيل الملابس القطنية، وبخياطة وترقيع اليقات، وبنظيف الجزمات وبحك الأعقاب، كما أننا سوف نملاً صحوتنا في المطعم بأكبر مقدار، وستترك ما لم نتمكن من أكله في الصحن بعد أن نبصق فيه كي لا يستطيع الشبان الجائعون الذين لا يعرفون سوى القليل جداً عن المحبة ولكنهم يعرفون الكثير جداً عن الكراهة، من تناول تلك البقايا. وإذا ما جلس أحد من حديثي العهد وبحضورنا على المقعد الوحيد في غرفة المعيشة، فسوف نقول له ونحن نخط بالمطاط على البطن، إنهم قاموا بإهانة العسكري القديم «الجد»، ولذلك يجب على كلّ واحد منا أن يقترب حالاً وأن يبصق في صحن ذلك الأخرق. ولن يجرؤ أحد على منعنا أو مجادلتنا في ذلك. لذلك سوف يقترب كل واحد وسيبصق. بهذه الطريقة يحفظ النظام في ذلك

الكون الموجود في بقصة طائرة - وإنما فإنَّ العالم سوف ينقسم وسوف ينهار وسيتطاير، مثل رزمه من أوراق مكتوبة تتطاير على أرضية المكتب.

## الجواب: وهل هذا ضروري؟

سؤال: هذا تلقين وإدخال في السر. إنها معجزة تحول يرقة الفراشة إلى فراشة لؤلؤية اللون! إنها مشاركة وانضمام إلى عالم الكبار الملغم والساخر! طقس الرجلة، الذي يتبع لك بعد أن تجتازه، بأن تنشر ذلك السرَّ في جميع أنحاء البلاد، وفي جميع الكرياجات والأسرة. وماذا أنهم بصقوا، أو شخوا، أو ضرطوا! لقد ابتكروا شيئاً ما في مختلف الثقافات لكي يصبح المرء رجلاً ناضجاً. لست أول شخص ولن تكون الأخير! وهذا هو تاسيُس<sup>(١)</sup> يخبرنا أنَّ الغرَّ عند قبائل الهات<sup>(٢)</sup> لم يكن يقص لحيته أو شاربيه قبل أن يتمكن من قتل شخص واحد على الأقل من الأعداء. وعند قبائل الطيفالس<sup>(٣)</sup> والهيروليين<sup>(٤)</sup> لم يكن مسموماً للفتى أن يلمس المرأة قبل أن يقتل خنزيراً بريئاً من دون سلاح! لذلك يجب أن تشكر الرب لأنهم لا يقومون بقطع شيء ما موجود بين ساقيك، كما حدث مع البعض. وفي جزيرة سومطرة لا يقومون بتطهير

- 1 كورنيليوس تاسيُس 55-120 م كان مؤرخاً ورئيساً لقضاء في إحدى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية، فقد الكثير من كتاباته وأهم ما تبقى منها أجزاء من كتابي الحوليات والتاريخ ويعداً من أعظم أعماله التاريخية، يركز الكتابان على حقبة الأباطرة الرومان تiberius وكلوديوس ونيرون وحكام ما يعرف باسم الأباطرة الأربع، ويغطيان الفترة ما بين موته في 14 م. إلى موته Domitianos 96 م. المترجم

- 2 طائفة عرقية قديمة كانت تسكن في الجزء الأوسط والجنوبي الشرقي من الأنضول حوالي 1700/2000 ق. م، في العصر البرونزي المبكر والمتوسط. وقد استوطن المنطقة في وقت لاحق الحيثيون (سكنوا في آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام منذ 3000 ق. م، وهم من قبائل الأنضول الهندوأوروبية التي تعرف باسم ختي وسماهم الرومان هيثيون). المترجم

- 3 قبيلة جرمانية قديمة، تتسمi وفقاً لبعض المؤلفين إلى مجموعة Ostrogothic. بحلول القرن الثالث، استقرت في منطقة البحر الأسود الشمالي. المترجم

- 4 الهيروليون، شعب جرماني بدوي، وكانوا خاضعين للقوط الشرقيين والهنونيين والبيزنطيين من القرن الثالث حتى القرن الخامس.

لعل الاسم متصل بكلمة earl ويدو أنه لقب عسكري تشريفي. تم على أيديهم قتل إمبراطور روما وكانت تلك النهاية الرسمية للإمبراطورية الرومانية الغربية. المترجم

الصبي وإنما بقصّ جزء من عضوه، إذ يقومون بشق الجزء السفلي من الإحليل، فلا يعود الرجل قادرًا على التبول إلا في وضعية القرفصاء كما عند المرأة. والتفسير بسيط: يجب على جميع الفتىـن، أي المقاتلين الشبان، أن يخسروا جوهرهم الإنساني وأن يكتسبوا جوهرًا أرفع، أن يصبحوا ذئبًا، أو دببةً، أو كلابًا متوجـحة. لذلك لا يوجد شيء غريب. قاموا بتعذيبك ول يكنـ فالمسألة لا تكمن في ذلك.

الجواب: وفيـم تكمن المسـلة، إذـن؟

سؤال: فيـ الجمال.

الجواب: وما الذي هوـ جميل هنا - فيـ صـوت مـطـاط لـسـرـوال يـخـبـطـ علىـ البـطـنـ؟

سؤال: تذكرـ كـيف راحـ أولـئـكـ الجنـودـ يـلـعبـونـ فـيـ فـنـاءـ المـسـتـشـفـىـ بـكـرةـ الـقـدـمـ مـسـتـخـدـمـينـ كـرـةـ مـطـاطـيـةـ مـثـقـوبـةـ،ـ حـيـثـ كـانـ يـظـهـرـ فـيـهاـ انـخـمـاـصـ بـعـدـ كـلـ رـكـلـةـ لـيـعـودـ الـانـخـمـاـصـ وـيـزـوـلـ خـلـالـ لـحـظـةـ -ـ كـمـاـ لـوـ أـنـ الـكـرـةـ تـقـطـتـ أـنـفـاسـهـاـ وـاسـتـنـشـقـتـ الـهـوـاءـ مـنـ خـلـالـ إـحـدـىـ الـفـتـحـاتـ.ـ وـمـنـ ثـمـ قـامـ الرـمـادـيـ،ـ وـقـدـ قـفـزـ مـنـ كـرـسـيـهـ،ـ بـرـكـلـ الـكـرـةـ بـقـوـةـ كـبـيرـةـ بـحـيـثـ إـنـ الـكـرـةـ أـصـبـحـ أـشـبـهـ بـقـبـعـةـ مـطـاطـيـةـ.ـ هـلـ يـعـقـلـ أـنـكـ لـاـ تـرـىـ جـمـاـلـاـ فـيـ ذـلـكـ؟ـ وـلـيـسـ مـنـ غـلـافـ لـامـ فـيـ وـاجـهـةـ كـشـكـ،ـ وـإـنـمـاـ جـمـالـ حـيـ وـحـقـيقـيـ.ـ وـأـنـاـ لـمـ أـعـدـ أـتـحدـثـ عـنـ أـولـئـكـ الرـجـالـ فـيـ سـرـاوـيلـ زـرـقاءـ وـفـيـ جـزـمـاتـ وـهـمـ يـرـكـضـونـ خـلـفـ كـرـةـ -ـ قـبـعـةـ فـيـ باـحـةـ المـسـتـشـفـىـ مـعـ نـثـرـاتـ زـجاجـ مـكـسـورـ مـتـشـوـرـةـ فـيـهاـ،ـ قـدـ أـخـذـواـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ عـهـدـ الضـحـيـةـ،ـ وـأـنـهـمـ مـسـتـعـدـونـ لـأـنـ يـقـدـمـواـ أـنـفـسـهـمـ وـأـدـمـعـتـهـمـ -ـ مـنـ غـيـومـ،ـ وـنـبـضـهـمـ مـنـ تـيـارـ هـوـاءـ،ـ وـتـنـفـسـهـمـ مـنـ الـرـيـحـ لـلـآـخـرـيـنـ،ـ وـلـنـفـسـ ذـلـكـ الـوـطـنـ -ـ أـلـيـسـ فـيـ ذـلـكـ جـمـالـ،ـ يـاـ تـرـىـ؟ـ أـلـمـ يـكـنـ ذـانـكـ الرـجـلـانـ وـهـماـ يـصـعدـانـ جـبـلاـ وـيـحـلـانـ رـزـمةـ مـنـ الـحـطـبـ كـقـرـبـانـ،ـ الـعـجـوزـ وـالـفـتـىـ الـذـيـ كـانـ يـسـأـلـ طـوـالـ الـوقـتـ:ـ «ـوـلـكـنـ أـيـنـ هـوـ الـحـمـلـ،ـ يـاـ أـبـيـ؟ـ».ـ فـأـجـابـهـ الشـيـخـ:ـ «ـأـنـتـظـرـ وـسـوـفـ تـرـىـ!ـ».ـ وـهـكـذـاـ هـنـاـ أـيـضاـ -ـ هـاـ هـمـ يـرـكـضـونـ بـعـضـهـمـ مـعـ بـعـضـ،ـ كـفـرـيـقـ صـاـخـبـ وـمـتـعـرـقـ أـحـرـقـتـهـ الشـمـسـ،ـ وـهـمـ يـخـبـطـونـ بـجـزـمـاتـهـمـ الـثـقـيـلـةـ،ـ مـنـزـلـقـيـنـ عـلـىـ كـسـرـ الزـجاجـ عـلـىـ الـأـسـفـلـتـ،ـ وـيـتـخـيـلـوـنـ أـنـفـسـهـمـ رـاـكـضـيـنـ

خلف كرة قدم، لكي يسدوا لها ضربات أقوى في بطنها، ولكن هذا يُخيّل لهم فحسب. إنهم يركضون خلف كرة لفظت أنفاسها الأخيرة، من باحة المستشفى إلى الطريق الترابية، ويتابعون تارة في حقل للجاودار، وتارة في غابة من أشجار البتولا. يتوقفون في بعض الأحيان لكي يتقطعوا أنفاسهم، وتحديداً عندما يضرب أحدهم الكرة لتذهب إلى سقف أحد الكراجات، وهكذا وبينما يقع أحدهم بجزمه على الأرض المعدنية، وكما لو أنهم عادوا إلى رشدتهم، يتساءلون: «أيها الرمادي، ولكن أين القربان - الصحية؟ أين الحمل؟». «انتظروا، وسوف تعرفون!» - يجيب الرمادي، وهنا يرمي أحدهم الكرة عن السطح، وينطلقون من جديد بالجري مجموعةً مرحةً. يخطرون بجزماتهم في حقل الجاودار وعبر غابة البتولا. وفي يوم غد سوف تنشب الحرب دائمًا.

الجواب: هبط الظلام بسرعة كبيرة.

سؤال: لا بأس، سوف نجلس في العتمة.

الجواب: الجو هادئ عندكم، هنا. ترن أجراس صغيرة. بقرات ترعى في جو ضبابي.

سؤال: بلـى، الجو هنا هادئ.

الجواب: قل لي من فضلك، لماذا تقوم بتسجيل ما أقوله، طالما أن الأمر سواء وأنه ما من فائدة من ذلك. إذ إنهم سيقولون: سمعت الأجراس، تفضل واذهب من هنا! أنا أعرف أنهم يقولون هكذا للجميع.

سؤال: لكي يتبقى ولو شيء ما منكم.

الجواب: هذا يعني أنه سوف يبقى ما تقوم بتدوينه عني بعد أن أرحل من هنا؟

سؤال: نعم.

الجواب: وهل سيختفي ما لا تقوم بتدوينه عني مع رحيلي؟ ولن يبقى شيء؟

سؤال: لا. لا شيء سيختفي.

الجواب: وهل يمكنني أن أقول كل شيء عن الجميع - الجميع بلا استثناء؟

سؤال: يمكنك، ولكن الوقت لدينا محدود. تحدث عن أولئك الذين تحبّهم.

الجواب: هل يمكنكني الحديث عن ماما؟

سؤال: يمكن.

الجواب: حاًلا، سوف أركّز في البداية. إذ يجب عليّ أن أذكّر شيئاً ما هاماً. أذكر كيف أني غفوت في طفولتي، وكيف أني سمعت وأنا نائم كيف أنها دخلت، على الأرجح، في معطف من الفرو، لأن الجوّ في الغرفة أصبح بارداً. هل سجلت؟

سؤال: نعم. وهل هذا كل شيء؟

الجواب: تريث، لا تستعجلني. فأنا أتباطط من دون ذلك.

سؤال: لعلك تخبرني عن علبة الشوكولاتة وعن الآيس كريم؟

الجواب: بلـى، بالتأكيد. كانت ماما تعمل في متجر، وقد أحضرت معها علب شوكولاتة جرى تخريجها. أي أنها كانت تجلب إلى البيت علب شوكولاتة رائعة وطازجة، في حين أنها كانت تبيع القديمة. كانت ماما طائشة - وقد قاموا في وقت لاحق بتعيينها للعمل في بيع الآيس كريم في الشارع، ولكنها ثملت في أول يوم مساء، ولذلك راحت توزّع الآيس كريم مجاناً، ثم غفت ونامت بالقرب من مكان عملها. ييدأن هذا على العموم غير ذي شأن تماماً! إنك تربكني.

سؤال: وماذا أيضاً؟

الجواب: كما أذكر كيف أني كنت في المستشفى، ولكنهم لم يسمحوا لوالدي بالدخول - بسبب الحجر الصحي. جاءت ماما ووقفت في الأسفل، ثم راحت تصيح لي عبر النافذة، إلا أني لم أسمع شيئاً - لأنهم كانوا قد أغلقوا جميع النوافذ بإحكام. رحنا نكتب بأحرف كبيرة على ورقه ما نريد أن يجلبوا لنا من أشياء لكي يتم إصالها إلينا ونلصقها على الزجاج. ولكن زجاج النوافذ في ذلك اليوم كان متجمداً.

سؤال: هل تعرف لماذا اختارت لك اسم أبيك؟

الجواب: كلا.

سؤال: كانت تخيل لنفسها - أنك عندما ستصبح كبيراً وستبدأ بالركض مع مجموعات الأولاد - فإنها سوف تشعر بسعادة غامرة إذا ما راحت تناديك باسمه - ببساطة لكي تسمع وتلتفت. وهل تعرف شيئاً عن والدك؟

الجواب: لا أعرف أيّ شيء. ولا أريد أن أعرف شيئاً. إنه نذل وحقير. تخلّى عنا حتى قبل أن أوّلَد. لقد توفي. أذكر أنه مات في فصل الشتاء في مدينة أخرى، حيث كان يعيش، وأننا ذهبنا لزيارتها أنا وماما في فصل الربيع. وقد كان مسافراً معنا في عربة القطار رجل عجوز مع وشم في أنحاء مختلفة من جسمه. وبينما كان ينظر إلى سكة الحديد من خلال النافذة، قال فجأة إن تحت كل عارضة خشبية في سكة الحديد جثة شخص ميت. وصلنا إلى المقبرة، وكان الثلج قد ذاب، وبيانت الأرض، وإذا بنا نرى أن في وسط القبر حفرة بدلاً من التلة الصغيرة. قالت لي ماما وهي تضمني إليها، وبينما كنا واقفين هناك أمام الطين الذي تسرب إلى أبي: «هكذا، لم يعد لدينا بابا بعد اليوم». كما لو أنه كان قبل تلك اللحظة. كما لو أنه لا أتذكر شيئاً عندما يكون هذا ضروريًا. كم كان هناك من أمور، ولكنني لا أعرف ما هو أهم شيء يجب عليّ أن أحكيه.

سؤال: هات أخبرني عن شيء آخر. هل كنت تحب قراءة الكتب؟

الجواب: بلى، كنتُ أحب ذلك. وفي أحد الكتب كانت صور لأجزاء الإنسان: خمسة مسامير صغيرة كانت تشير إلى كمية الحديد في جسم الواحد منها. وفجأة من الملح كان يعني كم في جسد كل واحد منها من الملح. وهكذا دواليك: صور لمعاول صغيرة، أكواب مخبرية للقياس، وأكياس ورقية. كما أنه كنت أهوى القصص حول مختلف المغامرات البحرية - كان يروق لي أن ثمة ساعة رملية بحرية تدق في السفن. أما كتابي المفضل في التاريخ فكان كتاباً عن الأمير فاسيليكو. حيث قام هناك الأخ بضرب أخيه في عينيه بسکین فأعماه. رحت أقرأ وأفكّر كم كانت تلك الأيام متوحشة. وكم كان الناس أيضاً قساة وعنفيين.

سؤال: وماذا حدث هناك في البيت الريفي مع كرة البينغ - بونغ؟

الجواب: لا شيء يستحق الذكر. كنت قد سرقتُ من بيته جارة لنا عدسة

مكبّرة ورحت أحرق النمل من خلالها. حتى أتنى أتذكّر كيف رحت أقول في نفسي في تلك اللحظة: ها هو النمل يزحف من دون أن يرتاب في شيء، أما أنا فأعرف تماماً أنه لم يبق له من العمر شيء - وفوراً! - أوجّه محرك الشعاع الشمسي على هذه النملة أو تلك - وأشفق على هذه. أعدم وأغفو. أعدم بعضها وأغفو عن بعض. من دون أن يكون لها أي دور. ومن دون أن يكون النمل مذنباً في شيء. ببساطة - أنا السيد والأمر على مصير النمل! وإذ بي أسمع هنا أحداً يصقر. التفت نحو جهة الصغير. كانت تقف بالقرب من السياج. جارتنا لينكا. كانت تمسك بإحدى يديها مضارب التنس، وباليد الأخرى تحمل كرة بينغ - بونغ. دعني لكي ألعب معها. وهذا كل ما في الأمر. لم ننجح في لعبة التنس، فذهبنا إلى النهر - رحنا نبصق من فوق الجسر في النهر. وماذا يمكنني أن أحكي هنا؟ حدث هذا خلال عطلة الصيف في قرية ييكوف، حيث رحنا نحارب «مدرسة الغابة»، كنا نرمي ببعضنا ببعضًا بأكواز الصنوبر. كانت الأكواز تطير مثل الرصاص. اختبأت أنا ولينكا خلف الأجرمة، وقد جمعنا في قمصاننا كومة من الأكواز، بمنزلة ذخيرة لنا، ورحنا نرمي المرضي - فقد كانت تلك مدرسة الغابة للمصابين بداء السل. وبدورهم راحوا يرموننا بالأكواز. ثم راحت لينكا ترميهم بالحصى. فراحوا هم أيضاً يرموننا بالحصى - كانوا يقومون هناك بتبعيد الطريق، ولذلك كانت هناك كومة من الحصى. طالما أنها الحرب - لتكن الحرب. ذلك أتنى شرختُ رأسَ أحدهم وسال منه الدم.

سؤال: هل تعرف أنّ لديك ابناً؟

الجواب: أعرف أنه موجود. لكنني لا أعرف شيئاً عنه. حتى إنني لم أره في حياتي.

سؤال: أخبرني عن والدة الطفل.

الجواب: لقد تراءلت لي ليكا في الحلم. تصور أتنى كنت في المحرس، وإن بها تأتي فجأة. صحتُ بها بصوت عال: «قف، سوف أطلق النار!». ثم خاطبتها همساً: «من أين أنت قادمة؟». اقتربت مني ثم قبلتني في الشفتين ووضعت يديها على كتفي، فبدت لي يداها أشبه بشرائط على الكتفيات. يا

له من هراء. كنت قد تسلقت إليها بواسطة سلم عبر نافذة غرفتها في السكن الجماعي. راحت ليكا تضحك - قائلة إن تلك كانت جدياتها. كانت تعمل ممرضة وتعلّم غيابياً، بالراسلة. يحدث أني لا أتمكن من النوم ليلاً: تنشأ لدى رغبة عارمة بأنّ المسها، وأنّ أسمَّ رائحة شعرها. وفجأة أرى، كما لو أنّ الأمر في اليقظة، كيف راحت ساقها تصبحان ورديتين اللون من خلال الجوارب الشفافة السوداء، وكيف أنّ فخذيها القويتين يمزقان التتورة القصيرة. ذات مرة خدشها ظفرى المكسور فخافت أن يتخرّب الجورب الشفاف. قالت لي: «انتظر قليلاً!». تناولت مقصّها القصير الأعوج وقامت بقص ما تبقى من ظفرى.

سؤال: ماذا قالت لك؟ هل قالت لك شيئاً ذا أهمية؟

الجواب: في إحدى المرات، وبينما كنت ألقي برأسى على بطنهما، قالت فجأة: «في حياة ماضية أنا كنت ماما بالنسبة إليك».

سؤال: وعن النقود - الشوكولاتة؟

الجواب: نعم، كانوا قد أهدواها في طفولتها حقيقة صغيرة وجميلة من المحمل لها سلسلة مذهبة، وكانت ممتلئة بقطع نقدية - عبارة عن قطع شوكولاتة، مغلفة بورق ذهبي وفضي اللون. كانوا مسافرين إلى مكان ما في القطار، وأرادت أن تضع الحقيقة بقربها أثناء النوم، لكنهم قالوا لها إنّ الشوكولاتة في هذه الحالة سوف تذوب وسوف تستطع النقود. ثم قاموا أثناء الليل بسرقة كل شيء بما في ذلك الحقيقة الصغيرة.

سؤال: وماذا أيضاً؟

الجواب: كما أني أذكر كيف أنها راحت تمسح جزمتها بخرقة وهي تقول إن العيش مستحيل في هذه المدينة، حيث يظهر الملح من الثلوج على الجزمة كل يوم.

سؤال: ولكن كيف أوضحت لك أنك لستَ الرجل الوحيد في حياتها؟

الجواب: قالت لي إنَّ الحب - شأن كبير، بحيث لا يمكنه أن ينشأ من تلقاء ذاته، وأنه أشبه ببرتقالة - كاملة، ولكن تكون من فصوص مستقلة. يجب عليها أن تحب واحداً وثانياً وثالثاً، لكي يتشكل في النهاية ذلك الحب

الكبير - لأن الأشخاص الذين تحبّهم هم بكل بساطة أقل من حجم حبك، وهم لا يتسعون لذلك الحب. كان لدى ليكا دفتر حيث تقوم بتسجيل مختلف الأفكار فيه. ليست أفكارها، بطبيعة الحال. كانت قد قرأت في مكان ما ونقلت ما قرأته، وهو أن الشجرة تنشر من البذور أكثر بكثير مما تستطيع الأرض إنباته من الأشجار، وأن جدول النهر الجبلي يحفظ كاحتياطي بمجرى لا يمكن تقديره تحت مستوى الماء الظاهر، وأنه في الروح عدد من الثنائي أكبر مما تحتاجه الحياة اليومية. وهكذا يحين الوقت الذي تبدأ فيه الروح بالمباعدة بين الثنائيات. أنا أعرف أن ذلك لم يكن هياماً. وفي حال كان ذلك حبّاً - فلا بد أنه حبّ غير هيامي.

سؤال: لا تعرف أي شيء.

الجواب: دعنا نتحدث عن أمر آخر.

سؤال: كما تشاء. ولكنك أصبحت تعرف الآن لماذا منحت الابن اسمك؟

الجواب: تدفعني باستمرار للتshawsh. عمَّ كنا نتحدث؟ كنتُ على الأرجح أحدثك عن التعليم؟ أليس كذلك؟ بعد ذلك أرسلونا إلى موزدوك<sup>(١)</sup>. كان الغبار هناك يغطي الكهف.

سؤال: كيف ذلك؟

الجواب: كان ثمة كثير من الغبار، حيث إنك تركي ناقلة جند، ويتجمع الغبار فوق الرؤوس. كما لو أنك داخل مغارة. ثم يعود كل ذلك الغبار ويترسب على الأرض. وعلى الشعر والثياب والطعام. ونصبح جميعاً شبيهين ببعضنا البعض. وقد تغير الوجه في الأيام الأولى واحترق بأشعة الشمس، بحيث إنني أثناء الاغتسال لم يكن بوسعي أن أمّرّ يدي على وجهي، لأن كل لمسة كانت تسبب لي الما شديداً. كانت وجوهنا أشبه بقناع قاتم كثيف تلمع فيه العينان فقط. كنا نمضي أسبوعاً من دون أن نستحم، وعندما كانت تأتي الشاحنة التي تجر خزان المياه، كنا ننزع ثيابنا بالكامل

1- مدينة في جمهورية أوسيتيا الشمالية من الكيان الروسي. المترجم

حتى التعرى وتمدد تحت خرطوم المياه مباشرة. كنا نغسل ملابسنا ونقوم بارتدائها على الفور وهي ما تزال مبللة. هل تتحقق بتسجيل كل شيء؟

سؤال: نعم.

الجواب: وعند هطول المطر كان الغبار يتحول خلال لحظة إلى وسخ يصعب اجتيازه. كان كل شيء يتغطى بعجين الوحل. وكان ذلك العجين يلتهم كل شيء، جميع الآثار. كان ثمة وحل ورطوبة في كل مكان. وعندما كنا ننتقل بواسطة الدبابات، كان الوحل يلتصق بالجزمات بكل هائلة جدًا. كنا نقوم عند مدخل الخيمة بتنظيف الجزمات بواسطة الرفش المخصص للكشف عن الألغام، يبدأ أن الطين كان بجميع الأحوال يتتساقط على الأسرة وعلى البطانيات، ويتسرب إلى المعاطف والسترات، ويدخل إلى قواعد الرشاشات. كان من المستحيل أن ينبع أحدها بتنظيف نفسه بالكامل: يمكن أن تغسل يديك، ولكن بمجرد أن تلمس أي شيء - كانت اليدان تصبحان مت suction من جديد على الفور. يصبح المرء بليداً، ويتعطفى بطبقة من الطين، فتسعى لأن تخبيء داخل السترة الدافئة، محافظًا على الدفء. كانت اليدان تبدوان في وسخ لا يمكن تنظيفه، كما لو أنهما في قفازات. كنا نقوم بصب زيت дизيل على الحطب الراطب داخل الخيمة - تسكب من علبة سردin فارغة في الوقود، فتعقب الخيمة الباردة والرطبة بدخان لزج لاذع.

سؤال: ما هو الشيء الذي انطبع في ذاكرتك أكثر من غيره هناك منذ الأيام الأولى؟

الجواب: كيف كنا نسير بمحاذاة الأطفال. كان سرب من الصبيان والبنات يخرج إلى الشارع. كنا نبتسم لهم، محاولين أن نجعلهم يضحكون، فنقوم بحركات معينة بوجوهنا - ولكن لم يكن أي واحد من الأطفال ليضحك أو ليبتسم. كما كانت تتبخر الكلاب جائعة مربوطة بسلالب بالقرب من البيوت المهجورة والمحروقة. أما في مدينة غروزنى، فقد كانت الكلاب على العكس، بدينة وشبعانة لأنها كانت تتغذى على جثث الموتى.

سؤال: كتبت هذا، أكمل.

الجواب: قمنا في إحدى المرات بنصب الخيمة داخل بيت مهجور، من

دون سقف، وقمنا بإغلاق النوافذ بالقرميد، وكان هناك سطل صغير - من العاب طفل، وكان ممتلئاً بالماء المتجمد، قمت بقلبه فسقطت منه كعكة عيد متجلدة.

سؤال: تابع.

الجواب: كنا عطاشى جداً، لدرجة أنها لم نكن نستخدم الأقراص المخصصة لتعقيم المياه، لأن هذا كان يتطلب الانتظار لمدة أربع ساعات بعد وضع الأقراص فيها. وهذا يعني أنك قد تموت من العطش بينما تنتظر. ولديك عطش شديد. ولذلك كان واحدنا يشرب الماء من النهر مباشرة، ماء عكرّاً بلون الأسمونت.

سؤال: كيف كان مذاق الماء؟

الجواب: وما حاجتك إلى كل هذا؟ كانت تفوح من الماء رائحة بيض فاسد. وكان قد قال لنا أحدهم إن غاز كبريت الهيدروجين مفيد للكلى. فكنا نردد كل مرة أن كبريت الهيدروجين مفيد للكلى. ولماذا كان من الضروري أن تبقى رائحة تلك المياه؟

سؤال: أكمل حديثك.

الجواب: كما أنتي ما زلت أتذكر النساء في أحذية بالية وفي ثياب مزركشة. كانت اللاjetات في الشيشان يرتدين ثياباً زاهية اللون. كنَّ يلففن رؤوسهن بمنديل جميلة مبرقشة. طالما أن لديك جدآ - فلتلبس الأسود، أما هنَّ فكنَّ يلبسنَ ثياباً ملونة وزاهية جداً. أذكر كيف أنَّ واحدة منهن اقتربت مما بقي من منزلها، ثم وقفت صامتة. راحت تتأمل المكان لمدة طويلة. ثم نظرت إلىي وذهبت أيضاً بصمت.

سؤال: وماذا بعد؟

الجواب: أتذكر أيضاً كيف قتلوا الرمادي.

سؤال: أين حدث ذلك؟

الجواب: لقد قتلوه بالقرب من بلدة باموت<sup>(١)</sup>. بمجرد أنها انتهينا من تدخين السجائر للتو، خلسة حيث قمنا بإخفاء السجائر المشتعلة تحت

-1- مدينة صغيرة في جمهورية الشيشان في روسيا. وقد كانت مسرحاً لمعارك ضارية في الحرب الشيشانية الأولى عام 1995...المترجم

السترة، قال بلا اكتراث: «هيا مُتْ، يا خنوخ!» - ثم قفز إلى مكان ما خلف الإسطبل، وقد لف حزام الرشاش على رسمه. وإذا تنطلق هنا رصاصات - فعاد أدراجه مع إصابة عميقة في بطنه، بحيث أن أمعاءه خرجت منه - في التبن والخراء. وهناك مات. كنت جالسا بالقرب منه وقد رأيت كيف اختلطت الدماء مع بركة الماء تحته. كما أني تذكريت المساء - مع غيوم ريشية الشكل عند الأفق، فكانت السماء تبدو مضللة.

سؤال: كيف كان شعورك بعد أن اخترت كلّ ما فعله لك؟

الجواب: الرمادي - شخص جيد. من دونه كانت الأمور ستكون هناك سيئة تماماً. فالجميع هناك أصبحوا في نهاية المطاف متوجسين، أما هو فقد بقي صامداً. ذات مرة، بعد المعركة، وقع بين أيدينا جريح. وقد كنا شهدنا حالات كثيرة عن سوء معاملتهم لجرحانا، حيث كنت قد رأيت لأول مرة: تم سمل العينين لدى اثنين من جنودنا، كما تم قطع آذانهما، بالإضافة إلى أنه تم خلع جميع المفاصل لديهما. شعرنا بحنق شديد، فقمنا بربطه إلى آلية نقل الجنود رحنا نجره بتلذذ على الأرض التي أصبحت جافة. ثم رميناه في الخلاء، إذ كنا نريد أن يفطس تحت أشعة الشمس. عندئذ اقترب الرمادي منه وأطلق عليه الرصاص. أحس بالشفقة. كان الجميع مستائين من هذا الفعل، ولكن لا أحد يجرؤ على الظهور بموقف مخالف للرمادي وأن يقول له ذلك. أما كيف مات الرمادي - فقد مات بطريقة غبية. علمًا أنه ما من أحد يموت بطريقة ذكية. وفي إحدى المرات أطلقت النار من سلاح «الذبابة»<sup>(١)</sup> ثم قمت بالاستدارة بطريقة غير موقفة، فأصابت التيار العادم الرمادي في أذنه مباشرة - فسقط إلى أسفل المنحدر، ضغط على منخره وراح ينفخ أذنيه، وibilع ريقه. ظنتُ أنه سوف يقتلني، لكنه لم يفعل لي شيئاً. أطلق بعض الشتائم فقط. وقد أصبح الرمادي أخي بالنسبة لي هناك، في الحرب. كنا نتقاسم معه الطعام، كما كنا نتغطى في الشتاء ببطانية واحدة. كنا تارة ننام في الشارع مباشرة، أو ننام أحياناً في فراش وثير، من دون أن نخلع ستراتنا المتتسخة. أشعر بالحزن على الرمادي. عندما كنا نشرب الكحول، كان يسكب الكأس دفعة واحدة في

١- المقصود سلاح روسي مضاد للدروع إر.بي.جي. ويحمل تسمية «الذبابة». المترجم

فمه ثم يصيخ السمع لنفسه ويقول: «يا للعجب، أشبه بالرب وقد راح يمشي حافياً في الشرایین...» لقد مضى وقت طويل جداً، ولكنني استيقظت هنا ليلاً بشكل مفاجئ، لأنه خُيل لي كما لو أنه جاء يخطب بمطاط سرواله على بطنه. استيقظت وتساءلت في الظلام: «هل هذا أنت، أيها الرمادي؟».

سؤال: هل هذا كل شيء؟ أم أنه ما زال هناك شيء آخر؟

الجواب: كانت ثمة كتابات في كل مكان، على الجدران والبيوت المهدمة: الخنازير الروس.

سؤال: هل قتلت أناساً عزلاً، مدنيين؟

الجواب: إنهم مدنيون في النهار فقط، عندما يعملون في البazar، أما في الليل فكانوا يكمنون للسيارات التي تنقل الجرحى وهم يحملون أسلحة رشاشة. وقد قبضنا على أحد قادفي القنابل الذي كان يرمي القنابل على زملائنا في الفصيل. قمنا بربطه بشرط إلى قاذف قنابل، ثم سكبنا عليه البنزين وأحرقناه. لقد احترق أولئك وهم في السيارة، فليحترق هو الآخر أيضاً. التزم الصمت في البداية. كان يحتقرنا. وبعد أن راح يشتعل، بدأ بالصرخ.

سؤال: هل أطلقت النار على الأطفال؟

الجواب: وما حاجتك إلى ذلك؟

سؤال: لكي أغفر لك. إذ يجب أن يعرف أحد ما كل شيء ومن ثم أن يغفر.

الجواب: ومن أنت لكي تغفر لنا؟

سؤال: أنا أقوم بالتسجيل فقط. سؤال - جواب. لكي يبقى شيء ما عنك ومنك. إذلن يبقى منك سوى ما سوف أقوم بتسجيله هنا الآن.

الجواب: لا يمكن غفران ذلك. ها هو طفل يقف وقد راح يمسح المخاط عن أنفه - كان كم معطفه يلمع حتى المرفق من جراء المخاط عليه. صبي تماماً، لكنه يعرف أننا نحن، الروس، من قتل والده. سوف يكبر وسوف يتنتقم. لن يغفر لنا. لا يمكنه الذهاب إلى أي مكان. ولا أي خيار آخر أمامه. لقد قبضنا على واحد من هؤلاء، ووجدنا في جيشه عشر رصاصات. وقد

كانت جميع الرصاصات مع رأس منشور. إنَّ مثل هذه الرصاصة حين تدخل إلى الجسم، فإنها تفعل فعل الرصاصة المتفجرة. لن يكبر ذلك الصبي مع أكمام لامعة بسبب المخاط، ولن يطلق الرصاص على ابني.

سؤال: أكمل.

الجواب: لا يمكن لأحد أن يغفر لي، لأنَّه لن يجرؤ أحد على اتهامي بشيء. هل هذا واضح؟

سؤال: ماذا حدث فيما بعد؟

الجواب: لا تستعجلني.

سؤال: لم يبقَ لديك الكثير من الوقت. هيا تذَكَّرْ ما هو هام ورئيس.

الجواب: ماذا؟

سؤال: كان ثمة طفل يلعب في الشارع، وفجأة تفجَّر رأسه وتناثر شققًا - كان قناص روسي قد أصابه. أو عن قصف بلدة شالي<sup>(١)</sup> بالقنابل، حيث كانت تلعب طفلاً عمرها ثلاثة سنوات في الشارع قرب بيتها، وإذ بطائرة تعبَّر في الجو - فاختفت الطفلة بالمعنى الحرفي للكلمة - وقد قاموا بburial معطفها الشتوي بدلاً من جثمانها. يدعى الطفل باللغة الشيشانية «ماليك - دو»، وتترجم هذه الكلمة «إنه ملوك».

الجواب: عمَّ تتحدث؟ لا بدَّ أنَّ الأمر اختلط عليك. هذا لم يحدث معي على الإطلاق.

سؤال: وما الفرق. أخبرني عن لحظة وصول والدتك إلى الشيشان.

الجواب: لن أقول أيَّ شيء بهذا الخصوص.

سؤال: جاءوا إليها من شعبة التجنيد بقصد إجراء تفتيش في المنزل وعرضوا عليها ورقة - «أعيدوا لي ابني طواعية». بهذه الطريقة عرفت أنَّ لديها ابنًا - الفار<sup>(٢)</sup> الذي غادر قطعته العسكرية من دون إذن. راحت تسير

1- شالي - مدينة في جمهورية الشيشان في الكيان الروسي.. المترجم

2- وردت في النص الأصل اختصار CO4 وهو عبارة عن الأحرف الأولى من عبارة: غادر القطعة العسكرية من دون إذن. ما يعادله في العربية - فار من الخدمة العسكرية أو شكل فرزاً. المترجم

في شارعكم الذي يشبه شارع غوستيللو<sup>(١)</sup> وهي تقول لنفسها: «إنها، أفعل ما يلزم لكي يكون حيًّا ومعافي، وإذا لم يكن بإمكانك فعل ذلك، في حال أنه كان قتيلاً، فلتفعل بحيث يقوموا بقتله فورًا من دون أن يعذبوه». طلبت إجازة من العمل، واستدانت بعض المال لكي تسفر من أجل البحث عن ابنها، فقالوا لها: يجب عليك في البداية أن تحصل على قطعه العسكرية على وثيقة تثبت أن ابنك اختفى. وهكذا جهزت نفسها واجتازت البلاد بأكملها حتى وصلت إلى مدينة فلاديفوتسك، ومن هناك وصلت إلى مقر قيادة القطعة. قالوا لها هناك: اعثري عليه وأحضره إلى هنا. راحت تبحث في البرادات الضخمة حيث تحفظ جثث متفحمة، ما كان يجعلها تبدو جميعها متشابهة. وقد نصحها الرائد الذي رافقها قائلاً: «ماما، تعرّفي على واحد من هؤلاء». لم تفهم قصده، ولكن كيف يمكنه أن يشرح لها؟ كان ثمة بعض نساء اجتمعنَّ هناك، عشنَّ معًا ورحنَّ يبحثن عن أبنائهن. قررنَ أنهنَّ لن يغادرن الشيشان قبل أن يعثرنَ على أولادهن أحياء أو أمواتًا. كنَّ يجلسنَّ في أوقات المساء ويضمرنَ: سوف تقوم كلَّ واحدة بانتزاع شرة من رأسها ومن ثم تدخلها في خاتم وتضعه فوق صورة الابن. فإذا بقي الخاتم ساكنًا من دون حركة - هذا يعني أنه ميت، وإذا راح الخاتم يتحرك - إنه حي. وفي أوقات النهار كنَّ يتسلكن في شوارع القرى - تجلس امرأة شيشانية قرب طشت غسيل أمام بيتها المهدّم، فتقرب المرأة الروسية منها، تعرض عليها صورة ابنها وتسألها: «ألم تري، ماما، أبني هذا؟». والأبناء متشابهون على الصور. تجيب المرأة الشيشانية: «بلى، لقد رأيت - إنه هو الذي قتل أبني».

الجواب: مهلاً...

سؤال: لقد هربت من دون أن تنفذ المهمة المطلوبة.

الجواب: انتظر! كنتُ بكلِّ بساطة أريد أن أنام قليلاً، ومن ثم أن أستيقظ شخصاً مختلفاً. أن أكفُّ عن أكون نفسي. أن أعود إلى جلدي ليس هناك

- 1 - يوجد شارع باسم أحد أشهر أبطال الحرب الوطنية العظمى وذلك في روسيا البيضاء.. حيث كان البطل طياراً حربياً. وهنا يزيد الكاتب الساخرية من «بطولات» المقاتلين الروس في الشيشان. المترجم

وليس حينئذ. وهكذا رأيتُ في المنام أني أقف في نقطة حرastiي وإذ بها تأتي نحوبي. صحتُ بها بصوت قوي: «قف، سوف أطلق النار!». ومن ثم همسَ قائلًا: كيف جئت إلى هنا؟ اقتربت مني وقبّلته في شفتي ثم وضعْت يديها على كتفي، فبدت لي أصابعها مثل شرائط على الكتفايات. وهنا استيقظت ولم أستطع أن أفهم - أين أنا؟ كنت في سفينة غريبة، كما لو أنها خارجة من متحف. وكان ثمة أشخاص غريبون، بحارة، من حولي. دفعني أحدهم، وكان على ما يبدو ربّان السفينة، له عين واحدة رمادية وعين أخرى عسلية، سَكِير وقاتل، وقد راح يصرخ: «ما بالك تنام، في حين أنَّ الربَّ بعث على البحر ريحًا قوية، وهبَّت عاصفة عظيمة، لدرجة أنَّ السفينة تكاد تتحطم!».

سؤال: ما هذه السفينة؟ ومن أولئك الملاحون؟ إلى أين كتم مسافرين في البحر؟

الجواب: سفينة ما كانت تبحر من يافا إلى ترشيش<sup>(1)</sup>، وقد غرقت منذ زمن بعيد جدًا، كما أنَّ الملاحين ماتوا منذ زمن بعيد جدًا، كانوا قد عاشوا يومًا ما. وهكذا راحوا يكسرُون الساعات الرملية على السفينة، وصرخ بي القبطان قائلًا إنَّ الملاحين شعروا بالرعب وراح كل واحد منهم يتسلل لربه، ثم بدأوا بإلقاء الكنوز من السفينة إلى أعماق البحر. «أما أنت فتشخر هنا في عنبر السفينة!» - راح يصريح - «هيا، انهض، وصلَّ للرب إلهك! لعل إلهك يتذكرنا وعندئذ لن نهلك!». وقال الملاحون بعضهم البعض: هيا بنا نسحب قُرعة، لكي نعرف الشخص الذي ألمَّ بنا هذه الفاجعة بسيبه». راح الجميع يسحبون القرعة، وقد كانت القرعة من نصبي. عندئذ سألوني: «هيا قُل لنا، بسببَ مَن أصابتنا المصيبة؟ فقلتُ لهم: أنا هارب من الخدمة.

-1- ترشيش موقع جغرافي ذكر في الكتاب المقدس العبري بعدة معان وأماكن غير مؤكدة، عبر البحر من أرض إسرائيل وفيقليا. ترشيش حالياً اسم قرية في منطقة جبل لبنان في لبنان. من المرجح أن المقصود هي قرطاج، كما اعتبرها آخرون في وقت مبكر من 1646 بأنها تاريسوس في هيسابانيا القديم (شبة الجزيرة الإيبيرية)، بالقرب من هوپيلفا وأشبيلية. اليوم. وثمة من يعتقد أنها مدينة طرسوس الداخلية في سيليسيا جنوب وسط تركيا.

المترجم

شعبي، في سراويل زرقاء وفي جزمات من قماش المشمع، يلعب كرة القدم بكلة مفرغة من الهواء. خرجت ليلاً إلى الفناء. شاهدت أحداً يتحرك قرب الخشبة المخصصة لرقص الجوارب. ناداني: «تعال إلى هنا!». لدى هنا حليب مكثف!. اقتربت منه ولكنني لم أتعرف عليه. قام بفتح العلبة بالحربة. رحنا نأكل بأصابعنا. نغمس الإصبع ثم نقوم بلالحسها. وإذا به يقول إنه يجب علي أن أذهب غداً إلى مدينة نينوى<sup>(1)</sup> بالقرب من كتار - يورت<sup>(2)</sup> من أجل القيام بعملية تمشيط شاملة هناك. شعرت بخوف شديد، لأنني أدركت أنني أفت شخصاً آخر مختلفاً». كما أن الملاحين أحسوا بالرهبة، لأنهم أدركوا ممن أنا هارب. «ذهب - راح الملاحون يرجوني - اذهب بسرعة إلى نينوى! فأنت هارب من وجه الرب!». سألتهم: «ومن يكون هذا؟». فدهشوا أكثر: «إنه الرب، الذي تستحيل الحياة من دونه». قلت لهم: «على مهلكم! سبق أن أخبرونا شيئاً ما بخصوص العلقة الأولى، ثم حدثكم أن تلك العلقة انفجرت وأن كل شيء راح ينمو وينمو منذ ذلك الحين - الكون يتسع ويتضاعف. أليس كذلك، أيها الملاحون؟». قالوا لي: «شيء ما من هذا القبيل. في البداية كان الحب. علقة من الحب. والأدق أنه لم يكن حباً، وإنما رغبة في الحب وحاجة إليه، لأنه لم يكن ثمة من يمكن أن يُحبَّ. كان الرب وحيداً ويشعر بالبرد وبالوحشة. وهكذا كان ذلك الحب بحاجة إلى نهاية، إلى مخرج، كان يتطلب موضوعاً، كان يريد الدفء وأن يتلحم بأحد ما، عزيز وأن يشمَّ فقا الرأس الرائع لطفل، طفله، من لحمه ودمه - وهكذا خلق رب نفسه طفلاً لكي يحبه: إنه نينوى. أخذ أحد الجنود القتلى بالقرب من باموت. وأنت تعرفه، إنه الرمادي. ثم قام بخلق الأرض من جسده. ومن دمه الذي سال من جرحه - خلق الأنهر والبحر. وخلق الجبال من عظامه. أما الجبال والصخور - فخلقهـا من أسنانه الأمامية الدائمة. وخلق من

- 1 - نينوى مدينة أثرية قديمة، تعتبر من أقدم وأعظم المدن في العصر القديم، تقع في بلاد الراافدين في شمال العراق على الضفة اليمنى لنهر دجلة وكانت عاصمة الإمبراطورية الآشورية المترجم

- 2 - بلدة صغيرة في إحدى مناطق الشيشان. المترجم

الجمجمة سماءً. ومن دماغه - خلق غيوماً، ومن نبضه - تياراً هوائياً، ومن تنفسه - رياحاً، ومن قشرة رأسه - خلق الثلج. ولكن هذا ما قاله هو لك. أما شعرُه فقد تحول إلى عشب ذابل. وهكذا ظهرت نينوى بهذه الطريقة. قد يكون من الصعب علينا تخيل ذلك، أمّا بالنسبة له فإنَّ ذلك لا يعدُ أكثر من بصقة. ولعلنا نحن لسنا سوى بصقة من بصاقه. وما أهمية أن تكون قد استيقظت على تلك السفينة أنت ذاتك أو شخصاً آخر؟ شعرت بالخوف: «وماذا سيحدث الآن، إذن؟». «سوف نرميك الآن عن ظهر السفينة، وسوف يأمر الرب الحوت الأكبر أن ييلعك، بيدَ أنَّ هذا خطأ في الترجمة، إذ إنك لست من العوالق، ولكن هذا غير ذي أهمية. بل المهم هو أنَّ بلعلوم تلك السمكة الكبيرة سوف يكون مضلعاً». «وماذا بعد ذلك؟ كيف سأجد نفسي في نينوى؟». «لا نعرف هذا. لأنَّ عملنا يتعلق بالبحر - أن نقع أجراس السفينة. وهكذا سوف تأتي إلى نينوى وسوف تفعل كل ما هو ضروري. كما سيحدث هناك شيء ما مع الشجرة، ولكننا لا نذكر بشكل دقيق. إما أنها سوف تبليس، أو أنَّ ما هو يابس فيها سوف يزهر. باختصار، سوف يحزن الإله وسيقول: «هل يعقل ألا أشفع على نينوى، تلك المدينة العظيمة، التي يوجد فيها مئة وعشرون ألف شخص لا يميزون ما بين اليد اليمنى واليد اليسرى، وهناك عدد من الحيوانات». سوف يحزن وسيدمر نينوى، وذلك كي لا يقهـر أكثر لا البشر ولا الحيوانات».

سؤال: تأخر الوقت. انظر، لقد حلَّ الظلام.

جواب: قلتُ لهم: «خذوني وارموني في البحر - وسوف يصبح البحر هادئاً بالنسبة إليكم». ثم أجابوا وهم يقرعون جرس السفينة: «ألم تدرك بعد أننا أصبحنا في بطن الحوت، طالما أنَّ لديه مثل هذا البلعلوم المضلع، كما هي السماء فوق باموت تلك؟ نحن على أية حال مبلوعون من قبل السماء. ونحن بطبيعة الحال أصبحنا داخل تلك السمكة. دبرنا أمرنا ورحنا نعيش على مهل. نشاهد بلعلومها المضلع كلَّ يوم - ولا بأس، فقد اعتدنا على ذلك. لأنَّ كُلَّ شيء في داخل السمكة متوازن ومتناهـم - لا أكثر ولا أقل. وكل شيء في عملية الحساب هذه دقيقاً دائمـاً وسيبقى دقيقاً باستمرار».

فأسألتهم: «إلى أين، إذاً، يجب عليَّ أن أذهب؟» أجابوا: «لا فرق. سوف تقودك جميع الدروب إلى نينوى. أذهب بينما تشاء». فذهبت. انعطفت خلف الزاوية، ووجدت نفسي في الظلام. شاهدتُ في العتمة طائر اللقلق واقفاً على السطح - لم تكن ساقاه ظاهرتين، ما جعله يبدو محلقاً في الهواء. كانت شجيرات الويبرنوم<sup>(١)</sup> قد أزهرت بالكامل، كما أن نباتات عسلة معزية الأوراق<sup>(٢)</sup> كانت قد استدارت برؤوسها مع حلول المساء. دوى رنين بعيد لجرس، كما لو أنهم في وحدة التموين والطعام راحوا يقطعنون في برميل هائل بمعرفة. كان القطار من بعيد يبدو أشبه بمسطرة مدرسية. مشيت لمدة طويلة على الطريق وأنا أغطى عيني بيدي من أصوات السيارات. ثم وقفت عند المعبر ورحتُ أنظر كيف كانوا ينقلون على رصيف المحطة سيارات في وضعيات غير لائقة - كانت إحدى الشاحنات تركب فوق شاحنة أخرى. كان المساء دافئاً، وكانت السحب تسبح في الماء الراكد للبركة لا على شكل قشرة على السطح، وإنما كانت تلمع انعكاساتها في الأعمق. دفقت النظر - كان ذلك انعكاس نفس تلك السحب المبرقشة التي تشبه البلعوم المضلع. جلست على يدي بقرة الرب التي كانت قد تأخرت في المبيت وراح تزحف باتجاه المرفق، وهي تنهادى عبر الشعر، والأدق، كانت الشعيرات ترفعها كمالاً أنها تمشي على أمواج. ظنت أن هذه على الأرجح نينوى، حيث يبدأ اليوم الحار من صلاة الصباح، وعندما يحلُّ الشتاء، يعود كل شيء ليكتب من جديد بالصيغة الصحيحة، حيث يوجد، إلى جانب المنطق السليم، منطق آخر غير سليم، وهو الأقوى، حيث إنَّ الثلج - غرام، والإنسان - حيث يوجد جسده.

سؤال: أنا تعبتُ.

**الجواب:** انتظر، لم يبقَ سوى القليل. كنتُ في نينوى. وقد أذهلني أنَّ كلَّ

- 
- 1 صنف من أشجار الزينة تعرف أزهارها البيضاء الكبيرة بأزهار الزفاف لجمالها.. كما يطلق عليها كرات الثلج الصيفية... المترجم
  - 2 نوع من النباتات يتبع جنس العسلة من الفصيلة المعزية الورق.. الاسم العلمي Lonicera caprifolium المترجم

شيء هناك مختلف عما هو عندنا. كانت ثمة هرّة تلتقط كرات الثلج بقائمتها، وكانوا يقرعون جرس السفينة، وأما الأمير فاسيلكو فقد أصبح أعمى بعد أن ضربه شقيقه بسكين، كما أنَّ ماما راحت توزع الآيس كريم مجاناً ثم التفت على نفسها ونامت. أطلقوا علىَ اسمَا هو اسم أبي، وأسموا ابني بسامي. سمعت أصوات متعددة لرعد هادر، إما أنَّ عاصفة كانت تقترب، أو أنَّ أحداً ما كان يركض على الأسطح المعدنية للكراجات. علق ظفر مكسور بتورة وبجوارب. وفي قسم المعيشة كان الأغرار يخيطون الياقات للقدماء. راحت الكلاب تنبع بعد أن شجعت من لحم الجثث. ظهر في المرأة انعكاس ساعة الحائط المائلة مقلوبة رأساً على عقب. راحوا يرمون القنابل في الأقبية. راحت الأمهات تعرض صوراً محفوظة في أكياس من النايلون على الجميع في البازار. قام قناصون بتفص الغبار الأحمر من رأس أحدهم. كان القدماء يتصدون في صحن العصيدة الذي لم يأكلوه بالكامل. بدلاً من جسد الطفل، قاموا بذبح معطفه. راحت الأكواز والحسبي تطير عبر السياج. كانوا يطلقون الرصاص من باب الشفقة. كما كانوا يلعبون بكرة القدم في فناء المستشفى وهم يرتدون السراويل والجزمات فقط. انحصت الكرة من دون أن تتمكن من التقاط أنفاسها، حين قاموا بضربها وهي مختنقة. لم يشا أحد أن يشعر بالأسف كي لا يعذب أي شخص بعد ذلك. من باب الشفقة. إذ إنَّ الربَّ كان قد وعد نينوى بالرأفة، بيد أنَّ كلَّ شيء يبقى على حاله كما كان. وفي هذه اللحظة رأيت الرمادي جالساً في كرسٍ صدئٍ مخصصة للفحص النسائي. أشار إلىَ ياصبعه لكي أقرب منه. اقتربتُ وأنا أترحل بجزمي على الزجاج المتكسر على الإسفلت. «هل هذا أنت، أيها الرمادي؟ ولكن، ألم يقتلوك بالقرب من باموت؟» بصق من خلال أسنانه على الأسفلت، ثم عقد يديه خلف رأسه وراح يضحك هازئاً: «كيف تقول إنهم قتلوني، طالما أنك تتكلمعي؟». عندئذ سأله: «قل لي، أيها الرمادي، هل أنت الرب؟». بصق من جديد، ثم حكَ تحت إبطه وقال: «يجب أن تؤمن أو أن تعلم».

سؤال: بيدَ أنَّ الإيمان والمعرفة - هما الشيء ذاته.

الجواب: هذا ما قلته له. كما أني سأله: «إلهي، لماذا لا تشفق على نينوى؟».

سؤال: وماذا قال؟

الجواب: هزئ بي فحسب. «ألم تدرك بعد، أيها الأحمق، أنه لا يوجد إله؟». ثم خبط بمطاط السروال على بطنه. في هذه اللحظة صفر أحدهم. نظرت إلى جهة الصغير. كانت تقف خلف السياج تحت شجرة أكاسيا - تحمل في إحدى يديها مضرب تنفس، وفي اليد الأخرى - كرة بینغ بونغ. قلبت شفتها السفلية وراحت تنفس غرة شعرها التي نزلت على عينيها. مدّت لي الكرة ثم قالت وهي تبتسّم: «تعال إلى هنا!».

عيد اللقاء<sup>(١)</sup>

لم أمسك دفتر يومياتي في هذه الفترة. مضى شهر على مقتل أليوشَا. زرت كنيسة ألكساندرو - نيفسكايا. أشعلت شمعة لأجله. وقفت في المكان نفسه الذي وقفنا أنا وهو فيه يومذاك. رحت أتأمل كل شيء مثلما فعلنا حينئذ: النقوش التي أنجزها فاسنيتسيف، وإلى الموزاييك والشمعدانات. كان كل شيء على حاله كما كان من قبل. حتى الكاهن نفسه كان ما يزال موجوداً. وحدهاأشجار الحور لم تعد تشاهد من خلال النوافذ المغطاة بالثلج، وأيضاً لم يعد أليوشَا موجوداً.

بعد ذلك ذهبت إلى بيته. لم يكن سيرغي بتروفيتش في البيت. أما تاتيانا كارلوفنا فقد كانت مستلقية في غرفتها. جلست معها لبعض الوقت، ثم ذهبت إلى غرفة تيموشكا. يروق له ذلك الشخص البدين والمضحك الذي تم تشكيله بالكامل من مطاط العجلات، ويضع قبعة ونظارات خاصة بسانقى الدراجات النارية - من لوحة دعائية للعجلات من ماركة «ميتشيلين» - إذ إنه يعثر عليها في الجرائد فيقوم بتلوينها بأقلام تلوين. جلست معه ورحنا نلَّون. أصبح بإمكان تيموشكا أن يضحك بلا أدنى إحساس بالهم، بمتنهى الفرح. لم يعد له آخر.

كم يشبه أليوشَا!

للعلم، كنت قد شعرت في تلك الليلة أنه لم يعد حياً، واستيقظت. وفي

1- عيد دخول يسوع إلى الهيكل.. ويصادف عند الكنائس الشرقية في 2 شباط... المترجم

الصباح تلقيت رسالة - قرأتها وفرحت لأنّه حي، في حين أنّ أليوشَا كان قد مات. راحت تخيل بطريقة دقيقة الشمس والثلج خلف نافذة عرفته، وكيف أنّ أشعة الشمس تسقط على الثلج، وسعادة العصافير هناك، أما هو فقد قتلوه.

التقيت وأنا في طريق عودتي ببنيا نيكولايفنا في شارع نيكيتينسكايا. لم نر بعضنا ولم نلتقي منذ ذلك الحين. لم تكن تعرف شيئاً. راحت تقول لي: «هل يمكن أن تخرجني بوجه ملطخ؟ يجب على المرأة ألا يظهر على الناس مقلوبًا من الداخل إلى الخارج، حين يكون كل شيء واضحاً على الوجه مباشرة! يجب أن يعتقد الجميع أنه لا توجد آية عقبات أمامكما، وأنك اعتدت على أن كل شيء يطيعك - الرجال والظروف!». راحت أبكي وقلت لها إنهم قتلوا أليوشَا. ندّت عنها آهه: «يا طفلتي!». احترستني وراحت تبكي معي. كان هناك مقعد فجلسنا عليه. راحت تحكي لي كيف قتل الرجل الذي كانت تحبه في شبابها. كان مع سكوبيليف في بلغاريا. لقد أثارت مشاعري الحكاية إلى درجة كبيرة: ها هي امرأة عجوز، وحكيمة، وهي تدرك معنى أن يفقد المرأة شخصاً عزيزاً عليها! وكم تجيد إيجاد الكلمات المناسبة لتقولها في اللحظة الضرورية، شيئاً ما هاماً، وحقيقة! وفجأة أضافت أنني قمت بارتداء القلنسوة من دون مساهمة المرأة على الأرجح. وقبل أن نودع بعضنا قالت لي: «إذا كنت ترغبين بأن تصبحي ممثلة عظيمة - يجب عليك أن تعرفي كلّ شيء عن الحب وأن تعرفي كيف تعيشين من دونه أيضاً». يا إلهي، حتى في هذه اللحظات لم تكن تواسيوني، بل كانت تلعب دور الملائكة - روح القدس!

أنا لا أريد أن أصبح ممثلة عظيمة. أريد أن يعيدوا إلى أليوشَا فحسب! أردت أن أدون التاريخ فأخطأت. أعرف أنه يوم سبت.

والآن أيضاً ما زلت أغيب إلى عالم آخر، وأفقد توجهي في بعض الأحيان. راحت اليوم أتسكع في الشقة، وأنظر عبر النافذة، لم يقطعوا هذا الخريف أشجار الأضاليا هناك، فأنتقلت بالثلج وبقيت على هذا النحو حتى حلول الدفء، وأما الآن فكانت عبارة عن كتل لزجة بنية اللون. في هذه

الاثناء عادت ماما وأخذت الطنجرة من بين يدي بصمت. تبين أنني كنت طوال الوقت أتسكع في البيت وأنا أحمل الطنجرة. أذهب للنوم ولكنني لا أستطيع أن أغفو. لماذا النهوض، والذهاب إلى مكان ما، ولماذا الأكل والكلام؟ تبدأ عيناي بتعداد الشرائط الملونة على السجادة. واحدة، اثنان، ثلاثة، أربع، خمس شرائط. سبع وثلاثون، ثمان وثلاثون. واحدة، اثنان، ثلاثة، أربع، خمس. وأشعر بجفاف في الحلق، كما لو أنني شربت كأساً من الرمل بدلاً من الماء. أستلقي، وإذا بمونولوج لا على التعين من تلك المونولوجات التي تدربت عليها مع نينا نيكولايفنا. «أنا وحيدة...» لم أدرك معنى ذلك وقتذاك «أنا وحيدة...».

8 فبراير / شباط عام 1916 يوم الإثنين

بقيتاليومأثناءالفرصةفيالصفالخاليمنالطلاب.النوافذ  
مفتوحة،لتبدل الهواء. بدا لي كل شيء غير مألوف، غريباً. ما هذا الذي  
يحيط بي؟ أين أنا؟ ولماذا؟ أطلت موسيا برأسها عبر الباب - موسيا الحبيبة  
التي اشتريت لها شوكولاتة من جديد. هرعت إلىّ وقبّلته ثم راحت  
تداعبني. ضممتها بقوة وضغطت عليها قدر المستطاع.

بدأ ثلج غزير بالهطول.

٩ شباط 1916. الثلاثاء.

حدث اليوم أمر في غاية السوء. كان كوستروف يبحث عنِي. بمجرد أنني رأيته خمنتُ على الفور، أحسستُ بما سيدور الحديث عنه، وقررت في نفسي منذ البداية: سوف أرفض. قال إنَّ أغلوبلينا مريضة، وإنَّ العرض الأول يجب أن يكون بعد ثلاثة أيام، وقد قام بدعوة «لـ». بالذات حيث إنه يقوم الآن بجولة فنية هنا في مدينة كوستروف. راح يرجوني أن أحُل مكانها، وأن أغثِه وأنقذه وأنقذ الجميع. أجبته: «كلا». ارتبك كوستروف واضطرب، للدرجة التي أشفقتُ عليه. قلتُ: «حسناً». طار كوستروف من الفرح، أما أنا فقد كنت في غاية القلق. ما الذي فعلته؟ ولماذا؟ إنها خيانة.

أليوشاء، يا حبيبي، سوف أذهب غداً إليه وسوف اعتذر منه.

اليوم أول عرض للمسرحية.

كم أنَّ كلَّ شيءٍ غريبٌ! كم اختلطت الأمور بعضها! جلستُ قبل بدء المسرحية، وقد راح يرتب لي شعري عامل المكياج الذي تم استدعاؤه من مسرح أسمالوفسكي، كنتُ على وشك أن أنهض وأن أهرب، لكنه أجلسني بالقوة. كان الجميع يركضون هنا وهناك مثل المجانين، وقد راح كلُّ واحد منهم يردد في نفسه نص الدور المنوط به. كما راح كوستروف يصافح الجميع ويقول: حظاً سعيداً! كان الجميع يرسلونه إلى الشيطان. فجأة رحتُ أتساءلُ عمَّا أفعله هنا، وسط هؤلاء المجانين مع سوالف وشوارب مستعارة، وفي بدلات احتفالية؟ لماذا؟ اقترب كوستروف مني: «كيف حالك، يا «ابنة عرس»<sup>(1)</sup> هل كلَّ شيءٍ على ما يرام؟». ضغطتُ على نفسي وأوْمأتُ برأسِي. رحتُ أكرر لنفسي مغمضة العينين: يجب علي أن أرْكِز، لا بد من التركيز. المهم في هذه اللحظة هو النص، والدور فقط. أما الباقي فسوف أفكُّر به في يوم الغد. أنا - مجرد صوت، وكلمة وإيماءة. يجب أن يكون كلَّ شيءٍ كما علمتني نينا ينوكولايفنا. كان صوتها يتعدد في رأسي: في حال أنك لم تسيطرِي على جسدك، فسوف يسيطرُ هو عليك.

ثم جرى كلَّ شيءٍ بصورة ضبابية. كففتُ عن أكون نفسي، وتحولتُ إلى امرأة أخرى مختلفة تماماً. كما رحت طوال الوقت أراقب ذاتي من زاوية أخرى، كما لو أنني شخص ثانٍ. كان صوتي يرن بنبرة مختلفة تماماً. وهكذا خرجتُ إلى خشبة المسرح وقمت بتمثيل الدور كما يجب. هل يُعقل أنَّ تلك كانت أنا؟

وعندما خرجنا إلى المسرح لكي نقدم التحية للجمهور، خطر بيالي: وماذا لو أنَّ أليوشالم يُقتل فقط، وفجأة عاد من دون أن يكتب لأحد عن ذلك، وأنه إذ عرف أنني هنا، فقد جاء وهو يجلس في مكان ما من الصف الأخير،

-1- خطاب أو تعبير يقصد به الملاطفة... المترجم

ينظر إلى بفرح ويصفق بيديه. رحت أنتصب، وقد ظنَّ الجميع أنَّ ذلك من فرط سعادتي. وأنا بالفعل كنت أبكي من السعادة. ولكنني لا أستطيع شرح ذلك بأي شكل.

جاء «ل».» بعد انتهاء المسرحية إلى ما وراء الكواليس، حيث قام كوستروف بتقديم الجميع له. قامت زويا سوبوتينا بانحناءة احترام reverence ثم جلست على مفاتيح البيانو! راح الجميع يقهقه بفرح عارم! صافحني لـ. وهمس لي بشيء ما في أذني، وهو يضغط على يدي. أما أنا فكنت ما زلت في المكياج، وصماء، بحيث إنني لم أفهم شيئاً مما قاله - لم أسمع جيداً، ولكنني شعرت بالحرج من إعادة سؤاله عما قاله.

بقي «ل». لكي يتناول العشاء معنا. كان الجميع مسحورين به. راح يروي بطريقة مثيرة للضحك كيف بدأ مشواره الفني في مدرسة الباليه - لعب دور القائمتين الخلفيتين للأسد في باليه «ابنة فرعون». يروق له أن يكون في مركز الاهتمام، وهو يجيد القيام بذلك. نادى بيتيا، ابن اخت كوستروف، وقام على الفور بإخراج قطعة نقدية من إحدى أذنيه، بينما أخرج من خلف الأذن الثانية قطعة شوكولاتة. ينجح بشكل رائع في إهداه الابتسامة والفرح، للأشخاص الذين يحيطون به بكل بساطة وعفوية. رفع كوستروف نخب لـ.، وهذا بدوره شرب نخبنا نحن. قال: «أنتم - تمثّلون مستقبل المسرح الروسي!». كان طوال المساء ينظر إلىي. على الأرجح، هذا ما خُيِّلَ لي. وهو لا يشبه صوره الشخصية. فهو أكبر سنًا على الصور. أما في الواقع فهو أجمل. طويل القامة، ممشوق القدّ. يمشي حاملاً عصا مصنوعة من القصب الإسباني، ولها قبضة مصنوعة من عظم ساق بشرية. قال مازحاً - إنها من بقايا عظام يوريك<sup>(1)</sup> بالذات.

هأنذا الآن لا أستطيع أن أنام: بماذا أمكنه أن يهمس لي حينئذ؟ لعله قال لي إنني مثلت الدورَ بشكل رائع وإنني موهوبة؟  
أليوشنكا! لقد قمتُ اليوم بالتمثيل كرمي لعينيك!

1- إحدى شخصيات مسرحية شكسبير «هاملت» - بهلوان الملك والمهرج، والذي قام حفار القبور بفتح جمجمته في المشهد الأول من الفصل الخامس من المسرحية. المترجم

راح ليونيد ميخائيلوفيتش اليوم يقرأ أمام الجرحي في المستشفى الذي أذهب إليه. رأني، وعندما ودعني اقترب مني ببساطة كما لو أنها معارف قدامي. قال إن لديه ساعتين من الوقت قبل بدء المسرحية، وهو يتمنى أن يتزهّ قليلاً وأن يتنفس هواء نقىًّا. سألني ما إذا كنت أوفق على مرافقته في نزهته. وهل أرفض ذلك؟ يا إلهي! أرفض؟ له؟ ذهبنا إلى حديقة كوميرتشيسكايا، حيث كان كل شيء ما يزال يغطيه الثلج، وحيث كانت طرقات تم تنظيفها من الثلج، وأخرى جرى الدفع على الثلج فيها.

راح يحكى لي كيف أنه ابتكر لستانيسلافسكي فكرة الأجنحة في مسرحية «هانيل» لهاوبيتمان<sup>(1)</sup> - تلك المسرحية الشهيرة، عندما يظهر ملاك الموت ويفرد جناحيه اللذين يملآن خشبة المسرح بأكملها.

كم قال إنه زار تشيخوف وإنه مريض. وقد كان ثمة عدد كبير من أقماع الورق الجاهزة موضوعة بالقرب من سرير المريض. كان يصدق في تلك الأقماع ثم يرميها في السلة.

كنتُ أسير وأصغي، وسؤال يطرق رأسي من الداخل: هل هذا حلم أم ماذا؟ أرحمني، يا رب، من هذا الذي يتمشى معى في حديقة كوميرتشيسكايا في مديتها! فهو بسيط من ناحية، ومن ناحية أخرى ليس من هذا العالم في آن معًا.

ثم راح يقول فجأة إنه يوجد الكثير من الناس من حولك، ولكن من الصعب جدًا على المرء أن يعثر على صديق حقيقي ووفي. ثم قال ليونيد ميخائيلوفيتش: «المتزوجون يعيشون طوال حياتهم كالكلاب، ويموتون كالأسياد، أما الأعزب فيعيش حياته كالسيد، ويموت مثل كلب». وعندما دعنا بعضنا قام بتقبيل يدي. وحين نزع القفازات - فاحت منها

1- غرハارد يوهان روبرت هاوبيتمان 1862-1946 ناقد وصحافي وناشر وروائي وشاعر، وكاتب مسرحي وكاتب رحلات، وكاتب قصة قصيرة ألماني، يعد من أهم أدباء الحركة الطبيعية في ألمانيا. يلقب زولا الرواية الألمانية. حصل على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1912. المترجم

رائحة جميلة جداً! من حسن حظي أنني كنت أرتدي قفازات، وإنما كان رأى أظافري المقروضة. كل مرة أقطع على نفسي وعداً بالآئم ما حول أظافري، لكنني أنسى ذلك فيما بعد وإن بجميع أصابعه مقروضة. دعاني لحضور جميع المسرحيات التي سيتم عرضها. وقال إنه سوف يغادر إلى موسكو بعد أسبوع.

إنه شخص لطيف، خلوق وكرم. وكم هو تعس. إنه وحيد تماماً. لقد شعرت بذلك.

17 شباط 1916. الأربعاء.

لم أعرفه عندما خرج إلى المنصة! كم تغير شكله الخارجي! لم يكن هو، بل كان براند<sup>(1)</sup> بالذات! لقد نجح بشكل هائل في التعبير عن أعمق المشاعر عند الشخص الذي كان مستعداً للتضحية بسعادته الخاصة، وبابنه الوحيد وبزوجته التي يحبها كثيراً! ولم يكن ذلك في سبيل الوطن على أرض المعركة، وإنما في سبيل ما هو أكثر أهمية! وكم كان موفقاً ومبدعاً في تمثيله الخاتمة - وقد أصبح وحيداً، ومهجوراً ومهاناً! ولكنـه غير مهزوم! هل يعقل أن في الحياة شيئاً ما يمكن للإنسان أن يضحي بكل شيء من أجله - حتى بالحب؟

انتظرته بعد انتهاء المسرحية عند باب الخروج. كان ثمة مجموعة كبيرة من المعجبين! رأني فلوح بيده لي، شفقت طريقي بين الحشد، فقام بدعوتي لتناول العشاء مع الممثلين. ذهبنا إلى مطعم «بيلفوار» في الشارع الدائري، حيث تم حجز صالة بأكملها. كم كان كل شيء مرحاً وجميلاً! راح غوغوليف وفارينسكيايا يمزحان ويشاكسان ولم يعطيا فرصة لأحد أن يقول

1- المقصود مسرحية شعرية تراجيدية من تأليف الكاتب المسرحي النرويجي هنريك إيسن، كُتِّبت المسرحية في عام 1865، وُعِرِضَت للمرة الأولى في 24 مارس من العام 1867 في استوكهولم. المسرحية ذات أبعاد فكرية، وتحمل طابعاً فلسفياً، واستعمل فيها إيسن قدرًا من الرمزية. لقيت المسرحية استحساناً هائلاً وشعبيةً كبيرة، خاصة في المناطق الاسكتلنديَّة، وهو ما دفع السلطات النرويجية إلى تخصيص مرتب سنوي لإيسن، مكنته من التفرُّغ للتأليف والتخلص من القلق بشأن وضعه المادي.. كلمة براند (Brand) في الترويجية والسويدية والدنماركية تعني «النار». المترجم

كلمة واحدة. كان ليونيد ميخائيلوفيتش يبدو متعباً، وقد بقي صامتاً طيلة الوقت تقريراً. راح غوغليف يروي عن إحياء الموتى! لا أعرف ما إذا كان كل ذلك حقيقة أو أنه اختلف القصة فحسب، لكي يجعلنا نضحك. تبيّن أنه جرت في الماضي محاولات لإحياء الموتى بواسطة التيار الكهربائي (الغلفنة). إذ إنَّ أحد العلماء ويدعى بيشات<sup>(1)</sup> أجرى أثناء الثورة الفرنسية تجارب مع جثث الأشخاص الذين تم إعدامهم بواسطة المقصلة، وألف كتاباً علمياً كاملاً يفيد بأنه نجح وبفضل ظاهرة الغلفنة في تحريض التقلص في عضلات الأشخاص الذين قطعت رؤوسهم. أما غالفاني<sup>(2)</sup> نفسه الذي اكتشف ظاهرة الغلفنة، فقد راح يعرض على خشبomas في كل من لندن وأوكسفورد تجاربه أمام الجمهور - كان يقوم بتعریض الجثة لتيار كهربائي بحيث إن العينين تفتحان في رأس الجثة المكهربة، كما كانت تنشأ حركة في اللسان. وهكذا رحنا نسمع مثل هذه الأحاديث ونحن نتأمل الليل! راح أحدهم يؤكّد ويقسم أنَّ كل هذه القصص مجرد لغو صياني وأنَّ الطب الحديث يتقدّم بخطوات واثقة وكبيرة، بحيث إنه سوف يكون قريباً بالإمكان إطالة عمر الإنسان إلى ما لا نهاية عملياً. أعربت فارينسکایا عن استهجانها: «أنْ أعيش عجوزاً إلى الأبد!». راح الجميع يضحكون! أما ليونيد ميخائيلوفيتش فقد ظلَّ صامتاً وهو يجلس على الأريكة، فقامتُ وجلست إلى جانبه وسألته: «وما هو رأيك؟». «أما أنا فأعتقد أنَّ سكريابين<sup>(3)</sup> توفي بسبب خراج صغير، وأنَّه تم نقل تجرثُم الدم إليه في صالون العلاقة، وأنَّ الوقت لم يسعفه لكي ينجز ما كان يطمح إليه». وهل هذا يعني أنه لا يجوز بعد الآن أن نذهب إلى

- 1 ماري فرانسا كرافيه بيشات 1771-1802 عالم تشريح وختصاصي علم أمراض، يُعرف باسم والد علم الأنسجة الحديث. على الرغم من أنه عمل من دون مجهر، فإن بيشات ميز 21 نوعاً من الأنسجة الأولية التي تتكون منها أعضاء جسم الإنسان. المترجم لوبيجي جلفاني 1737-1798 طبيب وعالم تشريح إيطالي. اكتشف عام 1771 أنَّ أربع الضفدعات تتحرّك نتيجة للصعق الكهربائي. وكانت هذه التجربة من أوائل التجارب في علم الكهرباء الحيوية وهو علم ما زال يدرس إلى اليوم الشحنات الكهربائية في الجهاز العصبي. كما أنه رائد علم الولادة الحديث. المترجم أليكساندر نيكولايفيتش سكريابين 1872-1915 ملحن وعازف بيانو روسي مشهور.
- 2 المترجم

صالون الحلاقة لقص الشعر؟». «لا، بل يجب على المرء أن ينجز ما يريد أن يفعله بسرعة».

وما الذي أريد أنا أن أنجزه؟ أنا أريد أن أمثل على خشبة المسرح وأن أغرم. لم تكن ماما راضية لأنني كنت أعود كل يوم في وقت متأخر من الليل. راحت تتذمر قائلة إنها لا تستطيع صباحاً إيقاظي إلا بصعوبة بالغة. لم تعد المسألة تتعلق بالمدرسة. كل ما في الأمر أن صداقتي مع الممثلين لم تتنل إعجابها!

### 18 شباط 1916. الخميس

مرة أخرى تز هنا أنا وليونيد ميخائيلوفيتش بعد تناول الغداء. أنا أجده متعة كبيرة في الحديث معه. إنه ذكي جداً ويقرأ الكثير! يا إلهي كم يعرف أموراً كثيرة!

تحدّث بطريقة مثيرة بخصوص الزمن والفن. قال إنّ الزمن - أشبه بالآلة لتدمير الذات. «يمكن القول إنه مفصلة حقيقة. يشبه أداة لقطع الخبز نوعاً ما. يقطع رأساً كل ثانية. بمجرد أن يظهر الرأس - اقطع! تكمن مهمة الفنان ورسالته في إيقاف يد ذاك الذي يدور تلك الآلة. أن يضع يده على تلك اليد». تحدّث وقتاً طويلاً عن الموت وعن الخلود. قال إنه يقرأ كثيراً المؤلفين قديماً، من الإغريق. وإنه يقرأ الآن كسينوفون<sup>(1)</sup>. قلتُ إنني حاولتُ أن أقرأه، بيده أتني شعرت بملل شديد، وإن ثمة حالات كثيرة وقياسات كثيرة، وإنهم طوال الوقت يقتلون بعضهم بعضاً. سأله عما وجده هناك مثيراً للاهتمام. «أنت على حق. أولئك الناس غير مثيرين للاهتمام. إنهم مرتزقة، جاءوا إلى بلاد غريبة لكي يقتلوا ويقوموا باستبدال طاغية بأخر، ومن ثم على امتداد الكتاب بالكامل يذهبون إلى البحر، لكي يعودوا إلى بيوتهم. ما من شيء نبيل أو جميل في ذلك. ولكن القضية لا تكمن فيهم. فهم ليسوا أفضل ولا أسوأ من جنودنا الحاليين الذين يطلقون النار على شخص ما في هذه اللحظة بالتحديد». «إذا لم تكن القضية فيهم، فيمن إذن؟». «في المؤلف، في

-1- ولد تقريباً عام 430. فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندى ومرتزق وكان أحد طلاب سocrates.. المترجم

كسينوفون نفسه. تصوّري كم من البشر انسلوا (هكذا قال بالضبط - انسلوا، يا لها من كلمة مثيرة للقرف!)، ولكن أولئك الإغريق صمدوا وظلوا فقط لأنّه قام بتوصيفهم. وها هم على مدى ألفية ثالثة، في كلّ مرة يرون فيها البحر الذي قادهم إليه، يندفعون لملاقاة واحتضان بعضهم البعض ويصرخون: «طالاسا! طالاسا! لأنّه كان قد قادهم إلى بحر خاص. طالاسا<sup>(1)</sup> - يعني بحر الخلود».

اجتاز إغريقي عبر النهر...

إلهي، ولكن ما الحاجة لبحر كامل من الخلود؟

ثم تحدّثنا عن مصر القديمة. راح يشرح لي لماذا كانوا يعتبرون خنفساء الروث كائناً مقدّساً. تبيّن أنّ المصريين القدماء كانوا يعجنون العجين بأقدامهم، والطين كانوا يخلطونه بأيديهم، وكانوا يتلقّطون الروث بأيديهم، لأنّ البقرة حيوان مبجل، ومن هنا كان الروث أيضاً مبجلًا. وبصورة عامة، كانوا يعتبرون كلّ شيء يمثّل بصلة للحياة مقدّساً: سواء كان عظيمًا أو كان تافهًا وحقيرًا. وماذا يمكن أن يكون ثمة أتفه من خنفساء الروث؟ وقد كانت تلك الخنفساء في عرفهم الأكثر قداسة.

من أين له أن يعرف كلّ ذلك؟ لعلّه، يختلق كلّ هذا؟ لعلّ الأمر أكثر بساطة بكثير: ففي ظروف مناخنا يبقى روث البقرة لفترة طويلة قطعة عجينة رطبة وذات رائحة مقرفة، في حين أنه في مصر يصبح جافاً بعد مضي بضع دقائق؟ إلهي، كم هي فلسفتي عن الروث مثيرة للضجر وفي أي عالم مدهش يعيش هو!

19 شباط 1916. يوم جمعة

رأيُه يوم أمس في «فكرة»<sup>(2)</sup> أندريلف. كان تمثيله مذهلاً ولا يمكن مقارنته بأي شيء آخر.

---

-1 طالاسا في الميثولوجيا الإغريقية هي إلهة البحر وتجسد البحر الأبيض المتوسط. وهذه هي الصرخة التي كان الجنود المرتزقة اليونانيون أو الإغريق يطلقونها عندما يشاهدون البحر أثناء عودتهم إلى بلادهم من بلاد فارس. ويعتبر هذا الاقتباس هو الأشهر من كتابات كسينوفون. المترجم

-2 المقصد قصة «فكرة» للكاتب الروسي ليونيد أندريلف 1871-1919. كتب القصة في عام 1902. المترجم

تنزّهنااليوم أيضًا لمدة ساعة كاملة. تحدثنا عن أمور هامة جدًا. لم أفهم كل شيء.

إنَّ جميع مصائبنا نحن الروس نتيجة لاحتقارنا للجسد. لقد قلنا كل شيء رأساً على عقب - أصبح ما هو أكثر قداسة وطهراً هو الأكثر ذنباً: «يُكتب الخلاص لأولئك الذين لم يذنسوا مع أزواجهم - لأنَّ العذارى هم الأصل». أما عند أهل بابل القدماء، فقد كان الرجل في كل مرة بعد أن يتهمي من جماعه مع المرأة، يقوم بحرق البخور - وكانت المرأة التي كان على اتصال معها، تفعل الشيء نفسه في مكان آخر من البيت.

كما كان في بابل تقليد تكون كل امرأة بموجبه ملزمة بإقامة علاقة جنسية مرة واحدة في حياتها مع رجل غريب عابر في معبد ميليتا - وهذا كان ينطبق على الجميع، أغنياء وفقراء، من النبلاء أو من عامة الشعب والفلاحات. كانت تجلس في المعبد مع إكليل مجدول على رأسها وتبقى جالسة حتى يقوم شخص غريب، أو متشرد أو معاق وربما مشوهٌ بإلقاء قطعة نقدية في حضنها ويقول لها: «أدعوك باسم الإلهة ميليتا». لم يكن يحق للمرأة أن ترفض مهما كانت القطعة النقدية صغيرة وتأفهه، وكانت تذهب مع ذلك الرجل بغض النظر عمن يكون. حقاً، هكذا يكون الحب الحقيقي تجاه الإنسان القريب في الإنسانية. بهذه الطريقة كانت النساء المهدبات وذوات التربية الحسنة يشفقنَ على أولئك الذين حرموا من الحب ومن الرقة والحنان والدفء، ما يحتاجه كل شخص ولا يستطيع العيش من دونه. وهذا تعبر عن حكمة عليا، وعن طهارة وقداسة ومحبة. سواء كنت معاقة أو ذا عاهة أو مشوهًا، تعيساً وبلا مأوى أو من بلاد غريبة - فأنت بجميع الأحوال إنسان، وأنت تستحق المحبة. هكذا تكون الصدقـة الحقيقة لمن هو قريب - وليس قروشـنا الحقيرـة.

لا أستطيع أن أتفق معه، ييدأني أشعر أن في ما يقوله حقيقة ما.

الجو الآن ربـيعيـ. الثـلـجـ يـذـوبـ فـيـ كـلـ مـكـانـ. تـسـمـعـ قـطـرـاتـ أـثـنـاءـ اللـيلـ.

20 شباط 1916. السبت.

يوم أمس كانت آخر مسرحـيةـ لهـ. سـوـفـ يـغـادـرـ ليـونـيـدـ مـيـخـائـيلـوـفيـتشـ غـداـ.

التقينا لكي نودع بعضنا، ورغبت بأن نتمشى معاً لآخر مرّة في حديقة مديتها. ثمة ذوبان للجليد، وكل شيء يسلل. بحيث من الصعب اجتياز الطرقات. رحنا نمشي على الرصيف المحاذي للسياج - جيئة وذهاباً. ودعنا ببعضنا عدّة مرات ومن ثم بدأنا نمشي من جديد. دعاني ليونيد ميخائيلوفيتش لتناول العشاء معه في مطعم بولشايا موسكوفسكايا. فتحت فمي لأعتذر ولكي أرفض، وإذا بي أقبل دعوته من دون تفكير! ثم شعرت بالخجل وبالتردد عند المدخل. خفت أن يراني معارفي. فضلاً عن أنني لم أكن في ثياب تليق بالمناسبة. تحدث ليونيد ميخائيلوفيتش مع أحد الخدم، فقدانا بمحاذاة الباب الذي يؤدي إلى الصالة الكبيرة، إلى غرفة خاصة. كانت ثمة أدوات طعام فضية وكؤوس من الكريستال، مناديل منشأة، كما كانت قرب المرأة شجرة نخيل. كل شيء ساحر! وفظيع! جلسنا على أريكة مخملية قرب الموقد. تناول يدي ي يريد تقبيلها، فانتزعتها منه - لأنني كنت أخجل من رؤوس أصحابي المقروضة! سألني: «ماذا ستقولين للأهل في البيت؟». «سأقول إنني كنت عند صديقة لي». كنت أتصرف كما لو أنني أذهب إلى المطاعم الفاخرة كل يوم! أما في داخلي فكان كل شيء يرتجف! وحتى أني لم أكن أعرف من ذا الذي أخاف منه أكثر - منه هو أو من نفسي! قام ل. بطلب كل ما هبّ ودبّ. جلبوا لنا شمبانيا في سطل مع الثلج. شربنا وقرعنا كأسينا: «نخب مستقبلك!»، «نخب مستقبلي!». شربت شفة صغيرة فقط - وإذا بموجة ساحرة تسري في أنحاء جسمي! راح ليونيد ميخائيلوفيتش يحكى عن زوجته، وعن أولاده، وأما أنا فكنت أسأل نفسي: أين أنا؟ ما هذا الذي يحدث معي؟ هل كل هذا حقيقي فعلًا؟».

كانت تلك زوجته الثانية، ومن جديد غير سعيد. منذ مدة طويلة وهو مع زوجته يتظاهران بأنهما أسرة واحدة. لديه طفلان من الزواج الأول. ابنته الكبرى سارت على درب التمثيل أيضاً، أما ابنه الصغير، فهو أعمى منذ الولادة. ياله من أمر رهيب! كم أردت أن أواسيه وأن أشفق عليه! ولكنني لم أجده ما هو أكثر ذكاءً من أن أسأله: «أولاً يمكن مساعدته بطريقة ما؟». ابتسم بمرارة وقال: «سامحني! لماذا أتحدث عن ذلك؟ هيا بنا نتحدث عنك!».

قال إنَّ لدِيَ صوْتًا رائِعًا وموهَبةٌ كبيرةً. طلب مني أن أغُنِّي. فجأةً ظهرت آلة غيتار. يعزف بشكل رائع جدًا. غنيت عدَّاً من الأغاني الرومانسية التي أحبَّها كثيراً. قال لي الكثير من الكلام الجميل واللطيف، ولكن ليس من باب المجاملة، بل لأنَّه أُعجِبَ حَقًّا بصوتي، وهذا الأمر أنا متأكدة منه! ثم قال لي إنَّ غرامي ومسألة شغفي، في حال كانا، سوف يتعلقان بي وحدي فقط: مثلما أنَّآلاف الممثلين يقومون بتمثيل شخصيات شكسبير، وأنَّ هذا يرتبط بهم وحدهم وبما يقدم لهم شكسبير، هكذا هو الحب أيضًا - يمكنه أن يقدم الكثير الكثير، ولكنه يمكن ألا يقدم شيئاً، وإنما القرف فحسب، ويجب على المرء أن يمتلك موهبة خاصة في مسألة الحب. كم هو هذا الكلام دقيق! وأنا كنت دائمًاأشعر بذلك، بيدَ أنِّي لم أكن أجد الكلمات المناسبة.

يجب أن أكون ثملة. أصبح الجو لطيفاً جدًا ومرحًا إلى درجة كبيرة! كانت تُسمع موسيقى ساحرة في الصالة الكبرى! وإذا بي فجأةً أكُفَّ نهائياً عن الخوف. اختفى الخوف وتلاشى بطريقة ما. وحدها التتواءات على رؤوس أصحابي كانت تؤلمني عندما مسحت يدي بمنديل مبلول بالماء مع ليمون بعد تناول الكمبري، لكنني لم أشعر بالخجل بعد ذلك قط.وها هي تؤلمني حتى في هذه اللحظة! شعرت برغبة قوية بأن يلتقط يدي وأن يقبلهما! أما هو فقد بات يخاف بعد أن انتزعتهما منه بتلك الطريقة الخشنَة. وربما لأننا تناولنا الكمبري؟

خرج ليونيد ميخائيلوفيتش لأمر ما، أما أنا فاشتهرت المزيد من الشمبانيا - قررت أن أشرب خلسةً من القارورة مباشرةً، لكنها كانت فارغة - لم يكن فيها سوى رائحة حامضة. حتى أتني لم أنتبه كيف أنها شربنا قينة كاملة! فأنا لم أشرب سوى كأس واحدة. أو ربما اثنتين؟ عاد وقال لي إنه سوف يقللني حتى البيت، لكنني رفضتُ وقلت إنني أريد أن أذهب مشياً على الأقدام. رافقني. سينطلق قطاره غداً في الصباح الباكر. ودعنا بعضنا بطريقة بلهاء تماماً. قلنا البعضنا كلمات غبية لا معنى لها! تمنى لي النجاح. كم كنت أتمنى أن أقبله عند الوداع، بيدَ أنِّي جبنتُ. استدار ثم ذهب. بدأ المطر بالهطول، وهو لا يحمل مظلة.

وصلت إلى البيت، جاءت ماما وبدأت على الفور بالهجوم عليّ. أغلقت الباب عليّ وهأنذا أدون كل شيء.

إلهي، كم هو مهذب ولطيف وكريم النفس! رقيق الحاشية ومرهف! وكم هو تعس!

21 شباط 1916.

استلمت للتو رسالة قصيرة من ل. يقول فيها إنه تأخر على القطار - من أجلي. يطلب أن نلتقي. كتب له الكلمة واحدة: «لا».

آذار عام 1916.

لقد مضى أسبوع كامل وما زلت أشعر أنني قدرة. نعم، أنا قدرة ومخلوق تافه وحقير. إنني أشعر بالقرف من نفسي. قررت: يجب أن أروي كل ما كان - بالتفصيل، حتى الكريه والمهين منه! ليكن كل شيء أكثر إهانة وأكثر عيّناً. فأنا أستحق ذلك!

كتبت له «لا» ولكنني هرعت إليه. أسرعت لكي أصل قبل أن يصل جوابي. كان في غرفته في الفندق. التزم الصمت، وأنا أيضاً بقيت صامتة. كان يتعدد فقط سؤال في عقلي: «ما هذا الذي أفعله؟ ماذا أفعل؟» لم يحتضنني، ولم يقبّلني ولم يلمسني. ابتعد نحو النافذة. «سوف أقرأ لك الآن أشعاراً عظيمة. وأنت جائحة على ركبتيك!». يتعدد في عقلي: «أنا أحشو على ركبتي؟». وإذا به ينظر إليّ بطريقة جعلتني أفقد إرادتي تماماً. «على الركبتين!». انشت ساقاي من تلقاء ذاتهما. راح يقرأ مثلاً إله. لا أعرف بالتحديد كم من الوقت: دقيقةان؟ أم ساعتان؟ ثم أنهضني وأجلسني إلى الطاولة. لم أنتبه على الإطلاق أن الطاولة كانت مليئة بمختلف أصناف الطعام والشراب. لم أكل شيئاً. وهو أيضاً. سأله ما إذا كنت نادمة لأنني أتيت إليه. «لا». وإذا به في هذه اللحظة يقوم من مكانه ويركع أمامي على ركبتيه. كفى، لم أعد قادرة على الكتابة أكثر.

أنا إنسان تافه وحقير.

عدت إلى البيت في ذلك اليوم في وقت متاخر جداً من المساء. تسللت خفية إلى المطبخ وملأت لنفسي كأساً من الفودكا. هذه أول مرة في حياتي

أشرب الفودكا. ثم أضفت إليه ملعقتين من السكر وشربته. في هذه اللحظة جاءت ماما إلى المطبخ. راحت تصرخ عليّ. بدأت تطالبني بأن أقول لها الحقيقة، وأين كنتُ. أردتُ في البداية أن أكذب عليها وأن أقول إنني كنت عند تala، وإذا بي أشعر برغبة كبيرة بأن أجعلها تتألم! سألتها: «هل تريدين بالفعل أن تعرف في الحقيقة؟». «بلّي». «كنتُ عند ليونيد ميخائيلوفيتش في فندق بولشايا موسكوفسكايا». قلتُ لها ذلك ثم ذهبتُ إلى غرفتي. سمعت كيف أنّ ماما بقيت جالسة في المطبخ وقد راحت تتحبّب، لكنني لم أرجع إليها. لقد ختنك، يا أليوشَا.

هل تذكر عندما لم ننجح يومئذ في ذلك. لا أنت كنتَ تعرف شيئاً ولا أنا. لقد ختنك مرتين، يا أليوشينكا، لأنني أدركت ماذا بإمكان الجسد أن يفعله. لدى ل. يدان ساحرتان. وكم من المدهش والممتع أن تكون امرأة بين يديه! حينئذ كان كل شيء معك، يا أليوشَا، مؤلماً ومخيفاً ومحجلاً. أما معه فقد كان كل شيء بطريقة مختلفة تماماً. وأناأشكره على ذلك. وهل تعرف ما هو الشيء الأكثر قبحاً، يا أليوشَا؟ أني حكيتُ له عنك. فقال لي: «هذا يعني أنه لم يكن هو». لم أفهم في البداية شيئاً: «كيف ليس هو؟». «إذن، ليس هو».

سامحني، يا أليوشَا، لأنني لستُ جديرة بك.

فأنا لم أدرك سوى الآن، أليوشينكا، أنك ستبقى تحبني دائمًا. إلى الأبد! وأنه لن يكون لديك امرأة أخرى غيري أبداً. إني أحقر نفسي وأزدرها.

14 نيسان 1916. الخميس

قلتُ لنفسي إنني لن أمسك بعد اليوم دفتر يوميات، ولكنني وبينما كنت أقلب في درج طاولتي، وجدت هذا الدفتر. كنت قد حضرته ذات يوم لكي أكتب فيه يومياتي.

ماتت المربيّة. في أسبوع الآلام. لم تصمد حتى عيد الفصح. كانت تحلم بأن تموت في عيد الفصح.

عانت المريبة كثيراً في الأسبوع الأخير من حياتها. أصبحت فظيعة ونحيلة جداً، اكتسى وجهها وعنقها بتجاعيد متدرلة غريبة. قاموا بوضعها على الطاولة، ووضعوا تحت الطاولة طشتاً كبيراً مخصصاً للغسيل مليئاً بالجليد. تغير شكل المتوفرة أثناء الليل، واختفت التجاعيد كما لو أنه لم يكن لديها مرض رهيب.

سمعت الترنيمة الجنائزية، وفجأة تألقت وبرزت الكلمات التالية: «ارحم عبده وأسكنه في مكان مريح ومنير بعيداً عن الشر». يا إلهي، كم هذا حسن ودافئ ولطيف: في مكان مريح، في مكان آمن، وفي مكان منير. أين ذلك؟ كان زوجها قد مات باكراً، وعندما سألتها ذات يوم لماذا لم تتزوج مرة أخرى، أجبت: «إنَّ الموتى يروننا، وهم يفرحون ويحزنون معنا والأجلنا - وعندما نلتقي كيف يمكنني أن أكون مع زوجين لي؟»

حضرت ماما فطائر عيد الفصح، ولسبب ما لم تنجح معها هذه المرة. عندما كانت المريبة تحضر العجين لعيد الفصح، وتقوم بنقل العجين إلى قالب عيد الفصح، كانت تمدُّ لي الملعقة الخشبية وتقول لي: «الحسيها!». وكنت أقوم بلحسها. ولم أكن أرى ما هو أللذ من ذلك! واليوم عندما مدت ماما الملعقة قائلة «الحسي!». لم أقل لها شيئاً وخرجت. لقد أصبحت أنا وماما مثل شخصين غريبين تماماً.

كما لو أنَّ كلَّ شيء كما كان عادة من قبل، إذ راحت الأجراس تقرع وسارط المشاعل في الشوارع والأزقة، ولكنني لم أشعر ببهجة عيد الفصح نهائياً. كنت أطلب الأمانيات عن طريق المريبة فحسب، ولكن الآن لم يعد هذا ممكناً.

كانت المريبة تقرأ الإنجيل في آخر شهر بصورة مستمرة - كانت تتوقف بشكل خاص عند مختلف النبوءات: سوف تحل نهاية العالم، وسوف يقتل الأخ أخيه، سوف يحل الجوع والمرض. سوف يأتي زمان يختبئ الناس فيه في الكهوف، لكي يحافظوا على حياتهم. ربما، كان هذا يساعدها على الرحيل بطريقة أكثر يسرّاً؟

راح الوالد يروي أثناء وليمة التأبين عن روح المربيه كيف أن المسلمين لا يدفنون موتاهم في توابيت، وإنما يلقون الميت بال柩 ومن ثم يحملونه إلى مكان الدفن على حمالة خاصة، وأنهم يتزلون جثمان الميت وقدماه نحو الأسفل، بينما يديرون وجهه إلى القبلة، نحو مكة، وإذا ما توفيت زوجة أسلم المسيحية أو اليهودية، وكان معروفاً أنها حامل في هذه الأثناء، فإنه يجب عندئذ أن تدفن، بالعكس، أي بحيث يكون ظهرها متوجهًا نحو مكة وذلك لكي يكون الجنين في بطنه متوجهًا بوجهه نحو ذلك المكان المقدس. رحت أصفي إلى حدثه، وفجأة لاحظت أنه أصبح عجوزاً. بدأ يهتم بنفسه ويحاول الظهور بمظهر الشاب، يصبح شعره الأشيب، كما أنه اشتري بدلة بلون المارينغو (أسود فاتح)، ومن قماش دارج بمربعات، وكل هذا جعله يبدو أكبر سنًا. قام بربط إصبعه - إذ قام بالمساعدة في عملية جراحية معقدة فجرح نفسه. وهذا لم يحدث له من قبل. ببابا الحبيب والعزيز - فجأة عجوز... لم أتمالك نفسي، اقتربت من الخلف واحتضنته من عنقه بيدي وضممته إلى صدرني. أما هو فقال: «مهلك، يا حبيبي، دعني أكمل!». وراح يكمل حدثه عن شيء ما. شعرت بالرعب من أنه هو الآخر سوف يموت!

في مكان آمن، في مكان مريح، في مكان منير...

وعندما جاءت ابنة أخي المربيه من القرية لكي تأخذ أغراضها - راحت تقول بصورة مفاجئة إننا قمنا بخداع المربيه، وإننا لم ندفع لها كامل أجورها، وإن أقراتما ما وبروشما قد فقدت من بين أغراضها. قامت ماما بطردها.

كما وصلتني رسالة من ماشا، حيث تصف فيها بالتفصيل كيف سافرت من بتروغراد إلى بوريس في أبو. كتبت أن آثار الحرب هناك غير محسوسة، وأنه يمكن للمرء أن يتناول بعض الطعام الرائع في آية محطة - تضع قطعة نقدية من فضة مارك في قصعة في البو فيه ومن ثم تأخذ كل ما تريده مما هو على الطاولة - من اللحم والسمك، ومختلف أنواع السلطة، وأنواع مختلفة من النبيذ والفاواكه. دعاها بوريس في مدينة هيلسينغفورس إلى المطعم، حيث طلبها هناك طبقاً من ساق الدب ولسان الأيل! كما تقول إنها سعيدة - ولكنها خائفة جداً لأجل بوريس. فهي ترى نفس الحلم يومياً - كيف أنه يفرق.

«استيقظ مبللة من العرق، وهو بجانبي، وإذا كان على السفينة - لا أستطيع النوم». لديهما شقة صغيرة، وقد قامت بوصفها بالتفصيل، وأشارت أين يوجد كل شيء، وكيف أنها تحاول أن تخلق لبوريس أجواء مريحة تماماً. هناك الحرب مختلفة - يقتل البحارة مع سفنهم أو يعودون إلى حياتهم المألوفة في بيوتهم.

ثمة في هيلسينغفورس شيء غير مألف بالنسبة لروسيا - ما من أحد يسأل في الترامواي عن التذاكر، وإنما يقوم كل راكب بوضع القطعة النقدية اللازمة في علبة ما.

كاتيا تستعد للزواج من فيكتور، وسوف ينتقلان للعيش في موسكو.  
لم يصلني شيء من ساشا منذ زمن بعيد.

كانت نوسيا هنا ولكنها سافرت من جديد. ذهبت أنا وهي إلى أوبرا ليغار<sup>(1)</sup> «الأرملة المرحة» - التي قامت بإخراجها وبتمثيلها فرقة كريلو夫. وقد أعجبتني الأوبرا كثيراً، أما نوسيا فكانت تلوي شفتها باستمرار. كان سكان روستوف بمعجمهم يسيرون وهم يدندنون أحاناً مستعارة من تلك الأوبرا.  
أصبحت أشعر بالوحدة في البيت، إذ رحل الجميع.  
هاكم كتبُ من أشياء.

بعد أن قام الإغريق بجتiaz النهر عند منتصف النهار، أعادوا تنظيم صفوفهم، ثم صعدوا في الجبال لمسافة لا تقل عن خمسة فراسخ. تمددت القوات وتعرجت كما لو أنها حشرة سريعة الأرجل<sup>(2)</sup>. لم يكن ثمة قرى على مقربة من النهر، وذلك بسبب الحروب مع الكاردوخين<sup>(3)</sup>. أقام اليونانيون معسكراً لهم، ثم هطل ثلج غزير أثناء الليل. وقد استمر هطول الثلج لساعات

1- فرانس ليهار 1870-1948 مؤلف موسيقي نمساوي مجري. عرف بتأليفه للأوبريتات، التي كان من أشهرها الأرملة المرحة أو الطروب. المترجم

2- ما يعرف في الأوساط الشعبية بأم أربع وأربعين أو كثیرات الأرجل. المترجم

3- يعتبر البعض الكاردوخين من أسلاف الشعب الكردي. كان موقع إقليم كاردو شرق أرمينيا القديمة. تقع حالياً في جنوب شرق تركيا، وتحديداً جنوب غرب مدينة ديار بكر وشمال شرق مدينة هكاري. تم احتلال هذا الإقليم على يد الإمبراطور الروماني يوم بیاس 48-106 قبل الميلاد... المترجم

طويلة، وكان كثيّفًا وسميكًا، وبحلول الفجر أصبح يغطي العتاد والناس الممدددين على الأرض، كما أنه قيد حركة الحيوانات المُعدّة للنقل من أرجلها. لم تكن ثمة رغبة بالنهوض صباحًا لأن الثلج جعل الشخص الذي يغطيه يشعر بالدفء. وعندما قرر كسينوفون أن ينهض أخيرًا من دون لباسه الكامل وراح يقطع الحطّب، نهض عندئذ في الحال شخص آخر، التقط منه الفأس وراح يشقّق الحطّب. ثم بدأ الآخرون يستيقظون حيث راحوا يشعّلون الموقد ويدهنون أنفسهم بمادة معينة. وقد كان في تلك البلاد كميات كبيرة من المادة الدهنية التي يستخدمونها بدلاً من زيت الزيتون. ويتم تحضيرها من شحّم الخنزير، ومن بذور السمسم واللوز المر ومن زيت التربيتين.

ومن هناك انطلقا في مسيرة استمر ليوم كامل وهم يخوضون في ثلج سميك، ما جعل الكثير من بينهم يشعرون بالإرهاق من جراء الجوع والبرد. كان العبور قاسيًا وصعبًا جدًا، وذلك لأنّ الهواء الشمالي كان يضرب في الوجه مباشرةً، مسبباً تجميد كل شيء وحالقًا لدى الناس حالة من الخدر وقدان الحس. عندئذ اقترح أحد الكهنة تقديم ضحية كقربان للريح. وقد تم فعل ذلك، لذلك خُيّل للجميع بشكل واضح أنّ قوة الرياح تراجعت. وقد بلغ ارتفاع الثلوج 1 أورغى<sup>(١)</sup>، ولهذا السبب نفق عدد كبير من حيوانات النقل، مع أناس كانوا يركبون في العربات، بالإضافة إلى حوالي 30 جندياً. وقد قام كسينوفون وأنه كان في المؤخرة، بحمل أولئك الذين سقطوا من أجل دفهم بما يليق بهم من تشريفات، بيد أنَّ ذلك كان مستحيلاً، لذلك قاموا بطمُر أولئك بالثلج بكل بساطة.

كان الأعداء يقتفيون آثار اليونانيين ويقومون بسرقة الحيوانات النافقة أو التي لم تعد قادرة على متابعة المسير، وكانوا يدخلون في عراك مع بعضهم بسببيها. أما الأشخاص الذين كانوا يتخلّفون فقد كان المطاردون يقطعون، كما درجت العادة عندهم، اليد اليمنى لكل واحد منهم. وقد كانت مثل هذه الفكرة وحدها كافية لأن يجعل الجنود يحثّون خطاهم إلى الأمام، بيد

1 - وحدة قياس في اليونان القديمة. وكانت تساوي 1.851 م. المترجم

أنَّ الإرهاق كان في جميع الأحوال عظيماً لدرجة أنَّ البعض منهم راحوا يتخلَّفون: أصاب البعض عمى في العينين بسبب بياض الثلج الساطع جداً، وتجمدَت أصابع أقدام بعضهم الآخر بسبب البرد الشديد. كان يجب عليهم أن يتحرِّكوا بلا توقف ولا لحقيقة واحدة، وأنثناء الليل كان يجب عليهم أن يتزععوا أحذيتهم. وإذا ما حدث واستلقى أحدهم من دون أن ينزع حذاءه، كانت الأربطة تشدُّ بقوة على ساقيه وهذا كان يؤدي إلى تجمدها بشكل كامل، ذلك لأنَّ الأحذية القديمة كانت قد تهرأت، أما الجزمات والصنادل فكانت مصنوعة من جلد العجول التي تم سلخها قبل وقت قريب.

وبسبب كل هذه المصائب، تخلَّف عدد من الجنود فشاهدوا قطعة أرض، سوداء اللون لأنَّ الثلج كان قد ذاب عنها. وبالفعل، كان الثلج هناك قد ذاب بتأثير أبخرة النبع الذي كان موجوداً في وادٍ ضيق وقريب مغطى بالشجر. انحرف هؤلاء إلى ذلك المكان ورفضوا متابعة المسير. عرف كسينوفون بذلك، فراح بجميع الوسائل والأساليب يقنعهم بأنه لا يجوز التخلَّف، مشيراً إلى أنَّ عدداً كبيراً من الأعداء يسرون في إثرهم، وحتى أنه غضب في نهاية الأمر. لكن الجنود طلبوا القضاء عليهم وقتلهم، لأنهم لم يعودوا قادرين على المسير أكثر. عندئذ قرروا ترهيب الأعداء الذين يطاردونهم، وذلك كي لا يهجموا على الجنود الذين فقدوا أقوامهم وتخلَّفوا عن رفاقهم. كان الظلم قد حلَّ، وكان الأعداء يقتربون وهم يتحدون بصوت عالٍ بلهجتهم البربرية. عندئذ قام جنود المؤخرة الأصحاء بمحاجمة الأعداء، في حين أنَّ المرضى والضعفاء منهم رفعوا صيحاً وصخباً هائلاً وقاموا بالضرب برماتهم على ترسوهم. خاف البربر واندفعوا هاربين نحو الوادي الضيق، ولم يعد يصدر صوت عن أيِّ منهم.

قال كسينوفون وفصيله للجنود المرضى إنهم سوف يعودون من أجلهم في اليوم التالي، ثم تابعوا مسيرهم إلى الأمام، ولكنهم ما أن قطعوا 4 مراحل، حتى التقوا بالجنود وقد التفوا بأرديتهم وناموا على الثلج، من دون أن يضعوا أية حراسة لهم. قاموا بإيقاظهم، فأعلنوا أنَّ طلائع الجند لا تتحرك إلى الأمام. تقدَّم كسينوفون قليلاً ثم أرسل جنود المشاة الأكثر تحملًا طالبًا

منهم معرفة سبب التوقف وعدم التقدم إلى الأمام. عاد هؤلاء وأعلنوا أنَّ جميع القوات تستريح بنفس الطريقة. عندئذ قام فصيل كسينوفون هو الآخر بالاستراحة في نفس المكان. أمضى اليونانيون الليل قرب المواقد. وهناك حيث ذاب الثلج بسبب نار المواقد، راحت تظهر أخاديد عميقة تبلغ سطح الأرض، لذلك كان ممكناً قياس سماكة الثلج.

في ذلك الوقت الذي كان اليونانيون يعبرون أراضي مونتيانا<sup>(1)</sup>، كانت تجري هناك احتفالات بيوم الجيش الأحمر. تم سُوق أهالي مدينة غروزني إلى الساحة العامة في المدينة، حيث أعلنوا لهم أنَّ الحزب والحكومة ونظراً لتعاون سكان الجمهورية مع الألمان، اتخاذ قراراً بنقل إقامة أبناء شعوب القاقاوين والخونة. «لا معنى لأية مقاومة أو احتجاج - قراؤا على المجتمعين المرسوم رقم كذا وكذا - لأننا محاطون بقوات عسكرية، وسوف يتم إطلاق الرصاص على كل شخص يحاول عدم الامتثال أو يقوم بمحاولة للفرار».

تحرك الجمع المحتشد وقد أصيب بالذهول وبالصدمة - كما يروي كسينوفون - بقيادة المسؤولين الحزبيين والحكوميين ضمن صفوف من أربعة أشخاص باتجاه البازار، حيث قاموا بشحن الناس في شاحنات ونقلوهم إلى محطة السكك الحديدية، ولكن ليس إلى محطة القطارات، بل إلى محطة الفرز حيث كانت تنتظر قطارات مع عربات لنقل الماشية.

أما في قرى وبلدات أخرى فقد قاموا باعتقال الرجال فقط، أما النساء فطلبوها منهن أن يجمعن الأغراض وأن يكنَّ مستعدات مع أطفالهن لمعادرة بيوتهن في اليوم التالي. راح جنود روس ينتقلون من بيت إلى آخر ليقدموا المساعدة في جمع الأغراض للأمهات اللاتي ارتبن وتبلبن، حيث كانوا ينصحونهن بأن يحملن معهن الملابس الدافئة والطعام، وليس آلات تسجيل أو سجادات، كما قام الجنود بمساعدتهن في حمل الأغراض إلى الشاحنات. هطل ثلج غزير في النصف الثاني من ذلك اليوم نفسه، ما أدى إلى نشوء صعوبات في إرسال الناس، خصوصاً في المناطق الجبلية. راحوا ينقلونهم

-1- منطقة تاريخية تقع إلى الجنوب من رومانيا الحديثة بين سلسلة جبال الكاريابات ونهر الدون... المترجم

بواسطة شاحنات ماركة ستودبامر كانت قد وصلت من أمريكا عن طريق إيران بمحض عقد إعارة وتأجير. كانت الشاحنات تقف مع محركات مشتعلة وأضواء مشتعلة منيرة الليل المتساقط. كان ثمة فجر مرئي من بعيد - أضواء كاشفة قوية لعشرات الشاحنات.

رفض أهالي أول خايياخ تنفيذ الأمر ومقاطعة بيوتهم. «من الأفضل لنا أن نموت جميعاً!» - راحت العجائز يصرخنَّ ويتوسلنَّ للله بعدم السماح بوقوع الظلم وبأن يأخذ أرواحهن بسرعة كي لا يمتنَّ في أرض غريبة، وإنما أن يتم دفنهنَّ في أرض الأجداد. أما أولئك الذين رفضوا الامتثال للأوامر والرહيل طوعية عن بيوتهم من القرى «الآولات» المجاورة، فقد قاموا بسوقهم جميعاً إلى أول خايياخ - بمن في ذلك المرضى والعجائز وكل من ألقوا القبض عليهم في الطرق، من كان يحاول إنقاذ الماشية أو حاول أن يختبئ. قاموا بجمع الناس في إسطبل الخيول. كانت تهب رياح باردة جداً من خلال الشقوق في الباب. صدرت الأوامر للجنود بإحاطة المخزن الطويل بالعشب العجاف «التبن» كي لا يشعر الناس في الداخل بالبرد - هذا ما قالوه لأولئك المتجمدين في الإسطبل. بعد ذلك قام قائد فصيل مونتيانا وكنيته كفيشيانى بإعطاء أمر بإغلاق بوابات المخزن وإحراقه.

كان يهطل ثلج من ندف كبيرة، وكان الجنود يهربون وهم يحاولون أن يشعلوا النار في القش الذي أصبح رطبًا. قام أحد السائقين بدلق كمية من البنزين من تنكة معدنية، اشتعل القش. فارتقت عالياً نحو السماء ألسنة نار هائلة.

بدأ الهلع في الداخل. انهارت البوابات تحت ضغط الناس الذين فقدوا صوابهم. راح الذين كانوا يركضون في المقدمة يتتساقطون قاطعين الطريق على الذين يركضون خلفهم. بدأوا بإطلاق الرصاص من الرشاشات على الخارجين. ولكي ينتهي كل شيء بسرعة، قام الجنود بإلقاء القنابل عبر النوافذ على الذين يصرخون في الداخل.

أرسل حاكم مونتيانا إلى موسكو برقيه تتضمن أسماء الذين تم إحراقهم. هذه هي الأسماء، ولكن يمكن للقارئ ألا يقرأها. يكفي بتقليل الصفحات وحسب.

توتا غايف، 110 سنوات؛  
سارى غايفا، زوجته، 100 سنة؛  
خاتو غايف، شقيقه، 108 سنوات؛  
مارِم غايفا، زوجته، 90 سنة؛  
علا الدين، ابن خاتو، 45 سنة؛  
هيسا غايفا، زوجة علاء الدين، 30 سنة؛  
خاسيابيك غايف، أخوه، 50 سنة؛  
حسن وحسين غايف، أبناء هيسا، توأم كانوا قد ولدا عشية ذلك اليوم؛  
غيزاما خما غازويف، 58 سنة،  
زوجته زانو، 55 سنة؛  
ابنه موهدان، 17 سنة؛  
ابنه بيردان، 15 سنة؛  
ابنه محمد، 13 سنة؛  
ابنه بيرداش، 12 سنة؛  
ابنته جرادات، 14 سنة،  
ابنته تايحان، 3 سنوات؛  
دولي غيلا غايفا، 48 سنة؛  
ابنها سوسناد، 19 سنة؛  
ابنها الآخر أبو يزيد، 15 سنة؛  
الابن الثالث غير ماخا، 13 سنة؛  
الابن الرابع مو فلادي، 9 سنوات؛  
الابنة زاينات، 14 سنة،  
الابنة الثانية صحارى، 10 سنوات؛  
باق كانت إبراهيموفنا، 50 سنة؛  
ابنها عدنان، 20 سنة،  
ابنته باتيمات، 20 سنة،  
مينيغاز تشيبير غوفا، 81 سنة؛

كتتها ظالمات، 35 سنة؛

ابن ظالمات عبدالمجيد، 8 سنوات؛

الابنة ليلي، 7 سنوات؛

الابنة ماريم، 5 سنوات؛

كافاليك غزالبيكوف، 14 سنة؛

زانو داغاييفا، 90 سنة؛

كريم أماغوف، 70 سنة؛

موسى أماغوف، 8 سنوات، من تشيرماخا؛

داتا باكييفا، 24 سنة؛

ماتسي خابيلايفا، 80 سنة،

الطيب غيريغا غايربيكوف، 50 سنة؛

باتيمات غايربيكوفا، زوجته، 45 سنة؛

عدنان غايربيكوف، ابنتهما، 10 سنوات؛

ميدينا غايربيكوفا، ابنتهما، 5 سنوات؛

зорبيات بيرسانوكايفا، 55 سنة؛

ابنته هانبات بيرسانوكايفا، 19 سنة؛

الابنة الثانية باكيو، 17 سنة؛

الابنة الثالثة بالوزاء، 14 سنة؛

الابنة الرابعة بيساري 9 سنوات؛

الابنة الخامسة بازوكا، 7 سنوات؛

الابن محمد خانيب، 11 سنة؛

أسرة أبو حجة باتوكايفا:

والدته خابي، 60 سنة؛

زوجته بایلاخ، 30 سنة؛

ابنه أبو يزيد، 12 سنة؛

ابنته أسماء، 7 سنوات؛

الابنة الثانية غاشتا، 5 سنوات؛

الابنة الثالثة ساتيسينا، 3 سنوات؛

الابنة حديثة الوليدة توينيا؛

أسرة قسوم ألتيميروف:

الابنة زالوبا، 16 سنة؛

الابن أحمد، 14 سنة؛

الابن الثاني محمد، 12 سنة؛

أسرة كايخارا ألتيميروفا:

الابنة توفساري، 16 سنة؛

الابن عبد الرحمن، 14 سنة

الابن موتسي، 12 سنة؛

حاج أحمد إلتاييف، 15 سنة؛

سعيدات أحمد إلتاييف، 13 سنة؛

كما أنها قتلت - يتابع كسينوفون روايته - عليمخو جاييفا بايلاخا. لا أعرف كم كانت تبلغ من العمر، قتلوها في خايياخ أيضًا. بعد أن غادر الجنود، قام سكان القرية الذين نجحوا في الاختباء في الجبال، بالتعرف على جثتها عن طريق جديلتها التي لم تحرق. وقد قامت أختها بالاحتفاظ بتلك الجديلة طوال هذه الفترة الماضية. وهذه الجديلة موجودة اليوم في مكان ما.

أغلقت هطولات الثلوج الطرق إلى المناطق الجبلية، ولذلك وصل الجنود إلى أبعد أول في منطقة غالانتشوجسكي، وهو آخر أول قبل المعبر، على طريق مغطى بالثلج وبمساعدة مرافق لهم من النشطاء الحزبيين المحليين. كان الجنود خائفين ألا ينفذوا الأوامر ضمن الوقت المحدد، ولذلك كانوا مستعجلين. كانوا يقودون الرجال، أما الباقون فأمروهם بالاستعداد للتهجير، قائلين لهم سوف يعودون بمجرد أن يسمح الطقس بذلك. كانوا يقودون الرجال كمجموعة متراصة عبر درب ضيق يمر فوق واد سحيق. فجأة قام أحد الشيشانيين بالإمساك بأحد الجنود وسحبه معه إلى أسفل الحاوية. ثم راح الأسرى الآخرون يفعلون الشيء ذاته. فتح الجنود النار وبهذا الشكل قُتل جميع رجال الأول.

شاهد الأولاد ما حدث في ثغر الوادي الضيق، فعادوا وأخبروا الأهل كيف تم قتل آبائهم. اجتمع الشيوخ وراحوا يناقشو ماذا عليهم أن يفعلوا. قام عندئذ أكبرهم سناً وراح يرقص رقصة الموت التقليدية التي كان أجداده وأسلافه يرقصونها. عندئذ انضم إليه في رقصة الموت جميع الشيوخ والنساء العجائز وحتى أطفال الأول. لقد أقسم الجميع أن يموتو ولكن لن يستسلموا للروس. ثم قرر كبار السن منهم أنه ليس بإمكانهم خوض معركة - إذ ليس لديهم أية أسلحة ولا طاقات. ولكنهم لن يتظروا ريثما يأتون من أجلهم فیأخذونهم من أرض الأجداد. اجتمع جميع أهالي الأول، بحيث أخذ كلّ منهم ما هو ضروري فقط، وذهبوا إلى الجبال، باتجاه مكان العبور. كان من الصعب كثيراً السير على الثلج السميك، كما أنَّ الرياح كانت تجعلهم يسقطون. كانت النساء يحملن الأطفال الصغار وقد ضممنهم إلى صدورهن كي لا يتجمدوا من شدة البرد. لم يتمكن الجميع من بلوغ المعبر: البعض وقد فقدوا كل طاقتهم، جلسوا على الثلج، وماتوا متجمدين.

هكذا راحوا يسرون لمدة طويلة جداً، بحيث إنهم فقدوا التوجّه في الزمان، وأصيّوا بالإنهاك وتجمدوا بسبب الزوابعة الثلجية. فجأة رأى أولئك الذين كانوا يسرون في المقدمة موافق من نار هناك، حيث كان يبدأ الوادي. كانت ثمة موافق تشتعل على الثلج مباشرة، وكان ثمة بشر ينامون من حولها. كان هؤلاء هم الإغريق.

توجه سكان الأول إلى الإغريق طالبين منهم أن يسمحوا لهم بأن ينالوا بعض الدفء قرب النار وأن يعطوهـم ما يسد رمقـهم. تقاسم الإغريق مع الشيشانيين ما كان معهم من طعام قليل. راح كسينوفون يشرح قدر استطاعته لهؤلاء الناس المتجمدين والمنهكين والجائرين، والذين لا يفهمون اللغة اليونانية، أنه يقود جنوده الإغريق إلى البحر. «طالاسا! - أشار كسينوفون بيده للشيوخ الطاععين في السن باتجاه البحر - طالاسا!».

وفي صباح اليوم التالي انطلق الجميع متابعين طريقـهم.

26 تموز 1919. يوم جمعـة.

كم من الممتع أن يبدأ المرء بسفر يوميات جديد! وفوق ذلك من أبناء

طيبة! فقد قام بورنيرا تورشين بتقديم حفلة تسلية في سينما «سوليه»! سوف يقدم كل يوم أحد ستة عروض - ثلاثة عروض نهارية وثلاثة مسائية. المشهد الهزلي أحمق تماماً ولكنه مثير للضحك. «دون جوان جائع». اللوحة عبارة عن اعتراف بالحب. يأتي تلميذ مدرسة جائع إلى لقاء غرامي - وفي نهاية المطاف يرتمي على ركبتيه وهو يعترف بأنه جائع ويريد أن يأكل. راح تورشين يرسم على وجهه حركات تجعل المرأة يضحك مرغماً. وقد سيطرت علينا نوبة من الضحك لدرجة أنها لم نتمكن أنفسنا. كنا نجتمع ونبداً حسب النص، وكما لو أن الأمور على ما يرام، ولكن يكفي أن ننظر بعضنا إلى وجوه بعض - حتى تنفجر في الضحك. لا قدر الله أن يحدث مثل ذلك معنا ونحن أمام الجمهور!

ستة عروض في اليوم! سوف تكون أغنياء!

وقدّا سيقودني بافل في نهاية المطاف إلى نيكيتينا! نخبة المجتمع المحترم في روستوف.

27 تموز 1919. السبت

أنا حانقة على بافل إلى أقصى درجة!

وأخيراً اصطحبني معه في يوم السبت إلى نيكيتينا. كما لو أنه صالون الأميرة يفدو كيا فيدوروفنا! قمة الأضواء! أول عرض باليه لناناتشا روستوفا! كابوس حقيقي!

نيكيتينا بحد ذاتها امرأة ساحرة ولطيفة جداً، لكنها تدعوا إليها الله وحده يعلم من الضيوف! كانت ثمة شاعرة تدعى ميرتوفا، على الأرجح من كيف، أشبه بالفرد، وقد راحت تتحدث بصوت مرتفع وتقهقه بصوت خشن من دون مناسبة، من دون أن تفسح المجال لأحد أن يقول شيئاً وكانت تسعى باستمرار لكي تقرأ أشعارها الخاصة. هل يعقل أنه لكي ينال الشخص على إعجاب الجميع، يجب عليه أن يتصرف بطريقة فظة واستفزازية، وهكذا أصبحت طيلة المساء في مركز اهتمام الرجال!

طلبوا مني أن أغنى. رفضت في البداية ولكن من دون حزم، كما تتطلب العادة، وإذا بي ألتقط نظرات متعرجة تصوب عليّ من قبل جميع

الشخصيات المعروفة القادمة من العاصمة. أحسستُ بإهانة كبيرة! فجأة اختفى الحياة بلمح البصر، بل على العكس، ظهر عندي حنق مرح نوعاً ما، وشغف. انتظروا فحسب! نهضت، تقدمت إلى الوسط فوضعت إحدى يدي على البيانو، بينما حملت باليد الأخرى منديلاً. وفجأة صدمة: قال بافل بألا أقلق بشأن المواكبة الموسيقية - ومن ذا الذي سيعزف على البيانو؟ ميرتوفا تلك بالذات! راحت تعزف بطريقة سيئة جداً، ولم تكن تسمع ما أغنتي. ولكن ما العمل؟ رحت أغنتي. شعرت بالحنق يغلبني في داخلي على بافل وعلى ميرتوفا تلك، التي تخيلت كما لو أن هذه حفلة لها. وفوق ذلك كان الكرسي طوال الوقت يصر صر تختها! تمنيت لو أنَّ الأرض تنشق وتبتلعني!

على رغم كل شيء - كان ثمة نجاح! فقد اقترب تشيريكوف بنفسه وقبل يدي! ددم قائلًا أنه لدى مستقبل باهر، وأنني سوف أغنى في مسارع العاصمة. إنه لمفرح أن يسمع المرء كلمات طيبة كهذه! كما أنه مدح صوتي بشكل خاص!

وهنا قال الحضور مجاملة جاهزة عند هذه الشخصيات الشهيرة لجميع المناسبات - وأصبح كل شيء غامضاً وغير واضح. علمًا أنني كنت أدرك أنني غنيت بشكل رائع!

انشغل بافل على الفور مع شخص ما، بروفسور لا أذكر اسمه. حتى أنه لم يقترب مني بعد التصديق! ومن حسن حظه أنه لم يقترب، وإلا كان سينال صفعه. فهو لا يفهم شيئاً على الإطلاق.

سأكتب قليلاً بخصوص تلك الشخصيات الشهيرة. إذ إنني لا أشرب الشاي مع أشخاص عظاماء كل يوم. راح تشيريكوف يقرأ من روایته الجديدة. ولكنني بسبب الإثارة لم أتمكن من التركيز، لذلك لم أفهم شيئاً مما قرأه. كانت ساقاي ترتجفان، ولم أتمكن من السيطرة على نفسي. فضلاً عن أنَّ الجوًّا كان خانقاً مع أنَّ النوافذ مفتوحة. رحت أتعرق، بحيث إنني كنت طيلة الوقت أعتقد أنَّ وجنتي تلمعان وكذلك أنفي، ولم يكن ممكناً استخدام البوترة بأي شكل. لم أسمع سوى حكاية غريبة بخصوص الأسير

الذي كان مسجوناً في زنزانة منفردة في سجن حصين على مدى سنوات طويلة، وكان يجب عليه أن يبقى هناك طيلة حياته حتى انقضاء العمر - وفي يوم من الأيام رسم بمقبض ملعقة قارباً على العائط، ثم جلس في القارب وأبحر، وعندما فتحوا باب الزنزانة لكي يقدموا له الطعام، وجدوا أنَّ الزنزانة فارغة. عندما انتهى تشيريكوف من قراءة المقطع، وبعد أن صفقوا له، قال: «هذه الرواية - هي قاربي. سوف أنهيها، ثم سأجلس فيها وأسبحر». صمت الجميع، وأصبح الصمت ثقيلاً وغير مريح. عندئذ أنقذت نيكيتينا الموقف وجعلت الحكاية بمجملها مجرد مزحة: «وهذا ما يقوله شخص لديه خمسة أطفال!». يا لها من ذكية يفدوكيها فيدوروفنا، ولكنها ترتدي ثياباً من طراز قديم جداً وفظيع. لقد علم بول بوارت<sup>(١)</sup> المرأة بأنَّها تشعر بجسدها وأنَّ تحبه، أما هي ...

ثم تمت دعوة الجميع إلى صالة الطعام حيث قدّمت لهم الفطائر والبسكويت - من تحضير سيدة البيت. شربوا الشاي في فناجين مذهبة من الداخل، ما جعل الشاي يبدو وكأنه نبيذ أحمر. أنا جلست إلى جانب زوجها. تخيلوا فحسب - كان يقوم بالاهتمام بي وزير سابق! أما بافل فقد جلس مقابلتي، وبدلًا من أن يلقي إلى خطيبته نظرات حارقة وغيرورة، هجم على الفطائر، وتتابع نقاشه بلا توقف مع جاره. وكيف راح رجل الدولة السابق يسلّي صديقته، يا تُرى؟ راح يحكى لها قصصاً عن التعاونيات! يا له من موضوع شيق ومثير جداً! وقد لاحظت أنَّ فارسي الذي راح يقدم الكعك لي باستمرار، لم يتبادل مع زوجته ولا كلمة واحدة. أما هي فيبدو أنَّ ثمة ما يشغلها مع البروفسور! أعتقد أنَّ كنيته لوديجينسكي! إنه أمر مسلّ أن تراقب الناس! لقد أنقذته من إلحاد بافل، أمسكته من يده وراحت تناقش معه أمراً ما بصوت خافت في إحدى الزوابا.

ومن جديد راح الجميع يصفعون لتشيريكوف. إذ بدأ يحكى عن سجنه، في الزمن القيصري والأحمر: فقد سجنوه ذات يوم بسبب «قصيدة مدح

- 1 - 1879-1944 مصمم أزياء فرنسي رائد في بداية القرن العشرين، وقد شُبّه في مجال عمله ببيكاسو في الفن. المترجم

للقىصر»، وقد كانت لديه هناك فرصة لأن يكتب بهدوء، وكان كل شيء من حوله لطيفاً ويحصل على كل ما يحتاج للحياة، حتى أنهم كانوا يمنحونه أربعاء وعشرين ساعة للذهاب إلى البيت، وفي العام الماضي قاموا باعتقاله في مدينة كولومنا، ولم يكن بينه وبين الموت عن طريق الإعدام رمياً بالرصاص سوى شعرة. لم يتم إخراج مسرحيته «اليهود» في روسيا قبل الثورة؛ وحده أرلينيف كان يقوم بعرضها خلال جولاته الفنية في الخارج. وقد أخبروه أن غلاوغولين قام بإخراج مسرحية «اليهود» في هذه السنة وتم عرضها في مدينة خاركوف الحمراء مع فرقة سينيلينيكوف، مع الإشارة إلى أنه قام في المشهد الأخير بتقديم المسيح على خشبة المسرح في هيئة شرطي المدينة، حيث راحوا يضربونه على خديه ويصفعون في وجهه. كما أنه قدم ممثلات من استوديو وولف وهن عاريات تماماً، وقد راحت الفتيات يركضن في قاعة الجمهور ويجلسن بقرب المترجين وهكذا دواليك. حتى أن فاليرسكيaya مثلت عارية تماماً!

سألوه عن غوركي. فأجاب حازماً: «إنه سميردياكوف<sup>(١)</sup> الثورة الروسية». كيف يمكن أن يتكلّم أحد بهذه الطريقة عن شخص ما! لعله يغار منه ويحسده، ولذلك لديه مثل هذه الكراهيّة؟ مع العلم أن تشيريكوف بصورة عامة ذو همة عالية ومحب للمزاح وحتى أنه لطيف. والمرء يشعر بنفسه مرتاحاً معه وبلا تكلف. كما لو أنه انبثق من مكان ما من الماضي مع ربطه عنقه على شكل فراشة، ومع قميصه الذي يلمع ببياض لافت وأكيد. فقد استطاع أن يحافظ على نفسه، في الوقت الذي راح فيه الرجال مؤخراً يتهاونون ويترافقون بسرعة كبيرة. إنه متزوج من الممثلة إيلوشينا. وهو موجود في روستوف من دون زوجته التي سافرت مع الأطفال الصغار إلى القرم، حيث يملكون بيتاً، في حين أن الكبار متفرقون في أنحاء البلاد. كم هم الناس غريبو الأطوار: ها

-1- بافيل فيدوروفيتش سميردياكوف - إحدى الشخصيات الرئيسية في رواية الكاتب الروسي العظيم دستويفסקי «الأخوة كaramازوف». هو خادم وطباخ عند الإقطاعي فيدور بافلوفيتش كaramازوف. وتقول الشائعة إنه ابن غير شرعي له من خادمه الغريبة الأطوار. الخ المترجم

هو مثلاً، لا يعرف ما إذا كان ابنه حياً على العموم، ومع ذلك يجلس ويراقب السماور، كما أنه يلتهم الفطائر المحسنة بالكبذ ويروي النكات. ومن ذا الذي يهتمُ بأن تبقى قمصانه على هذا البياض الناصع، يا تُرى، مع غياب الزوجة؟

كما أنَّ الفطائر، وبالمناسبة - غير لذيدة على الإطلاق. بحيث إنَّ الأسنان تلتتصق بالعجبينة نصف النية. يبدو أنَّ صاحبة الصالون بدأت تقوم بدور طباخة بطريقة ديموقراطية منذ مدة قصيرة فقط. ولكن الجميع كانوا، بطبيعة الحال، يعربون عن دهشتهم وإعجابهم.

كما كان ثمة نموذج غريب بوجه تاجر ومع معتقدات قديمة راح يحاول طوال الوقت أن يشير الضحك بطريقة غير مضحكة. وفي وقت لاحق عرفت، عند نهاية السهرة، أنَّ ذلك كان متاجِن الأفلام السينمائية تروفيموف، الذي كان يقوم في تلك الفترة بتصوير فيلم «في سبيل روسيا موحدة» وذلك بالقرب من روستوف وتمويل من قبل OSVAG<sup>(١)</sup>. قلتُ لبافل هامسةً أن يقدمني له، فأجابني: «أنا نفسي غير متعارف معه!». - «اخترع شيئاً ما لهذا الغرض!» - «حسناً، يا عزيزتي!». وانتهى. لن يكون ثمة أي شيء - فأنا أعرف ماذا تعني عبارة «حسناً، يا عزيزتي»!

قدمت نيكيتينا لكلَّ واحد منا عند الوداع نسخة من ديوانها الشعري الذي صدر للتو في المطبعة. « قطرات الندى عند الفجر ». وكتبت لي في الإهداء: «إلى إيزابيل الساحرة».

وقد انتهت الأمسيَّة بطريقة مسلية. كنا نناقش ماذا سيكون في المرة القادمة، فقال نيكيتين إنه يريد أن يقرأ مذكرةه التي يعمل عليها الآن، والتي تدور حول حصار القصر الشتوي وكيف جرى اعتقال الحكومة المؤقتة، ولكن ميرتوفا قاطعته من جديد وراحت تحكي أنها في تلك الليلة بالتحديد، الواقعة في 25 أكتوبر، كانت في بتروغراد وأنها ذهبت مع شخص ما، شخص كانت لها معه قصة غرامية، إلى بيت الشعب لحضور أوبرا «دون كارلوس» - حيث كان

- 1- الأحرف الأولى من عبارة: هيئة الدعاية والإعلان في الجيش التطوعي (جزء من الجيش الأبيض). المترجم

يُفترض أن يغنى شالابين<sup>(1)</sup>. في البداية كان كل شيء كالمعتاد، وكان المسرح مكتظاً بالناس، وعندما ظهر شالابين على المسرح كان الجمهور يصفق بطريقة جنونية ويصرخ، كما كانت الآنسات في شرفات المسرح يصرخن بطريقة هستيرية، وحين انتهت آخر استراحة وكانت الستارة على وشك أن تُرفع، انطفأت الأضواء في الصالة وخيم ظلام دامس وهدوء مطلق. جلس الجميع في الظلام وأصبح الوضع رهيباً. ثم انطلقت موجة من التهams، ثمة حريق في مكان ما. ثم دوى صوت ما، بحيث بدا كما لو أنهم يقومون بتحطيم الديكور وراء الستارة. لم يقل أحد شيئاً ولم ينهض أحد من مكانه. لو بدأت حالة من الذعر - لكان يمكن للناس أن يدوسوا بعضهم بعضاً. ثم خرج شخص ما إلى خشبة المسرح وأعلن أنه لا يوجد أي حريق، وأنهم سوف يقومون بتصليح الضوء حالاً. «وفي ذلك الظلام طلب يدي للزواج! ثم أشعلا الضوء واستمرت المسرحية. كنت أظن أنهم يحطمون الديكور، ولكن تبين فيما بعد أنه كان إطلاق رصاص، وأن ذلك كان صوت رشاش! وأنا أيضاً سوف أكتب يوماً ما عن ذلك، وسوف تكون هذه مذكرة الثورية!».

ثمة أشخاص يريدون أن يكون لهم في كل عرس قرص<sup>(2)</sup>!  
28 تموز 1919. يوم أحد.

استيقظت على إحساس أنه يفترض بنا أنا وبافل أن نناقش علاقتنا وأن نستوضح مواقفنا. اليوم قبل الغد. لا يمكن تأجيل هذا الحديث أكثر من ذلك.

ذهبت إليه في مختبره الجديد حيث لم يسبق لي أن كنت من قبل - في

- 1- فيودور شالابين 1873-1938 من أشهر فناني الأوبرا الروس في العالم في القرن العشرين شارك بعروض الأوبرا مسارح روسيا، وباريس وبرلين ولندن ونيويورك. كان يتمتع بصوت جهوري قوي من طبقة باس. وقد ارتبطت حياة شالابين الفنية بمدينة فازان منذ أن برع فيها وهو في سن 17 عاماً بأداء أدوار رئيسية في عروض الأوبرا مثل «ترويادور» و«اقبر اسكولد». المترجم

- 2- وردت هنا في النص الأصلي عبارة ترجمتها الحرفية تقول: هناك أشخاص يريدون أن يكونوا أمواطاً في كل مأتم! وقد رأيت أن المثل العربي في كل عرس قرص - هو الذي يعبر عن المقصود. المترجم

المبني الذي كان فيه استديو تصوير ميرسون في شارع سادوفايا الذي خصصته به هيئة الدعاية والإعلان في الجيش التطوعي.

جئتُ إليه ولكنني لم أجد طريقة للبدء بالحديث. كان بافل يقوم بطباعة صور من المهمة الأخيرة التي كلف بها. كان الأمر رهيباً. راح يثرثر طوال الوقت. من دون أن يتوقف عن الكلام. كان بحاجة لأن يقول كل ما لديه. لم أتمكن من مقاطعته. كان كل شيء يحيط بنا فظيعاً! لم يبقَ شيء ما هو إنساني! كان يقوم بتصوير عمليات الإعدام. كان أشخاص من القوزاق وضباط يقفون من أجل التقاط الصور لهم قبل إعدامهم. قاموا بشنق الاثنين دفعة واحدة، عن طريق رمي الجبل من خلال العارضة الخشبية وبحيث إنهم يختنقان بعضهما بعضاً. كما صدر الأمر بإعدام أحدthem عن طريق إطلاق الرصاص عليه، فتم وضعه على قارعة الطريق وعندهن هتف: «أيها الحمقى! ضعوني إلى الحائط، لأن ورائي طريق عبور!».

نفف في ضوء اللمة الحمراء، وإذا تلوح فجأة في حوض التحميس وجوه مشوهة لأطفال. غطيت وجهي ولم أستطع أن أنظر، أما هو فراح يحكى لي عمما شاهده عند أبناء الكالميريك<sup>(1)</sup>. ففي مناطقهم وضع الفلاحون من القرى الروسية أعينهم منذ فترة طويلة على أراضيهم، ولذلك راحوا يدعمون البلاشفة ويقومون بالقضاء على الكالميريكيين، بحيث إنهم أبادوا قرى بأكملها وهي تدعى هناك خوتون. قتلوا كل من لم يسعفه الوقت لكي يهرب. يبدو أن المنطقة تدعى أولوش ديربيتوفسكي الكبير، ولكنني لا أذكر على وجه الدقة. قام باشا<sup>(2)</sup> بتصوير المعابد البوذية - الخورول - التي جرى إحراقها. كان كل شيء متسبحاً وملطخاً بالقدارات. بالإضافة إلى تماثيل بوذا المحطمة. والكتب المقدسة الممزقة. لديهم بدلاً من الأيقونات قطع قماش حريرية - وقد قاموا بسرقتها، وكل هذا كانوا قد جاءوا به من التبت. وفي

1- أو القلميقيون - هاجر أسلافهم جونغاريا عام 1607. وقد أنشأوا الكالميريك خانات في 1630-1724 في منطقة شمال القوقاز الروسية. اليوم يشكلون الأغلبية في الجمهورية ذات حكم ذاتي قلميقيا على الشاطئ الغربي من بحر قزوين. المترجم

2- باشا - اسم التلبيع والتحجب من بافل - المترجم

أحد المعابد قاموا بنبش رفات اللاما هناك، رموا العظام على قارعة الطريق.  
يا إلهي ! كم أصبح الناس متوضعين.

قام باشا بجمع بقايا المنحوتات البوذية مع أذرع متكسرة ورؤوس محطمّة، ثم حمل كل ذلك إلى روستوف، حيث يريده أن يقيم معرضًا لها. أمسكت إحدى المنحوتات بيدي. كانت عبارة عن بوذا بحجم صغير مع رأس محطم.

راح باشا يقبّلني. لم أتحمّل فدفعته. احتضنتني وقال: «أفهمك». أما أنا فكنت أريد أن أخدشه بأظافري وأن أصرخ: «لا تفهم شيئاً، لا شيء على الإطلاق!».

ثم حكى لي كيف أنهم سافروا عبر السهوب فشاهدوا قطيعاً من الخنازير. أرسلوا شخصين لكي يتقططا اثنين من الخلوص. لكن رعاة راكبين على خيول اقتربوا في هذه اللحظة، اقتربوا ووقفوا قليلاً ثم قفلوا راجعين. «لماذا لم تجلبا الخنازير؟» - «كانت تأكل جثث البشر».

كانت ثمة صور معلقة في كل مكان من أجل تجفيفها. لم أستطع أن أنظر إليها على الإطلاق. حتى أني شعرت بالغثيان. ولكن العينين التصقتا بإحدى الصور: كانت قدمان حافيتان تظهران من تحت الرمل. قدمان يضاوآن تماماً. لم أتمكن أن أشيخ بنظري عن الصورة. تذكرت أخي على الفور عندما قمنا في طفولتنا بطرمه في الرمل على ضفة النهر. طمرناه بحيث لم يعد يظهر منه سوى الرأس واليدين والقدمين. راح ساشا يصرخ: «هيا أزيلاوا الرمل عني!». أما نحن فقد رحنا نضحك ونحرك له عقبي قدميه. وفجأة تخيلت أن ذاك الذي في الصورة هو ساشا. راح بافل يقول لي: «اهدئي، يا حبيبي، وسامحيني! لم يكن يجدر بي أن أجعلك ترين هذه الصور! ولكن مع من يمكنني أن أتحدث عنها؟ أفهميني!». - «دعني وشأنني!». خرجمت مسرعة وخطبت الباب خلفي. أسرعت إلى البيت وكانت طوال الوقت أرى أمام عيني قدمين يضاوآن حافيتين.

29 تموز عام 1919. الإثنين

جاءت إلى اليوم موسيا. لقد مضى وقت طويل قبل أن أراها. أصبحت

فتاة ناضجة وجميلة! قفزت لمعانقتي. وراحت تتربع! ماذا حدث؟ تمدد لي رسالة. «عزيزي موسيا! أنا أحبك كثيراً!». رسالة غرامية كاملة مع أخطاء نحوية، وفي نهايتها تهديد بالانتحار. «هل تحببئن؟». - «لا». - «لا تقلقي، إذن!». «ولكن ماذا على أن أفعل، الآن؟! وماذا لو أنه نفذ تهديده وانتحر بالفعل؟». راحت أمسح على رأسها. «وليفعل ذلك!». - «كيف يمكنك أن تقولي مثل هذا الكلام؟!». شعرت بالإهانة ففررت هاربة. خرجت خلفها إلى الشرفة ورحت أناديها، ولكن لم الحق بها.

تذكري تورشين على الفور: «نادرًا ما يموت الناس بسبب الحب، بل إنهم غالباً ما يولدون من جراء ذلك». ما زالت موسيا طفلة بكل ما للكلمة من معنى.

أدرس كلّ يوم، حيث أقوم بتمارين التحكم بالحجاب الحاجز. أغنى وأتخيل كما لو أنّ كوريتسكايا<sup>(1)</sup> تقف خلف ظهري، كما أني أصغي لنفسي «بأذنيها» وأضع الملاحظات لنفسي كما تفعل هي: «حرّري حلقك! ارفعي شفتوك العليا! لا تخضي صدرك!». وكما لو أني أشعر بيدها على حجابي الحاجز. هذا يساعدني كثيراً! كم أنا ممتنة لها!

يجب أن أستوضح علاقتنا مع بافل. هذا يشير أعصابي.

30 تموز 1919. الثلاثاء.

ماخنو - معلم مدرسة. ما زال كل شيء في روسيا غريباً: لماذا يترأّس المعلمون عصابات القتل ويقودون عمليات «البوجروم»؟ أردت أن أذهب إلى بافل ولكنني لم أفعل. غداً.

31 تموز عام 1919. الأربعاء.

أشعر بالراحة والاسترخاء. طوال اليوم وأنا أشعر بنوع من الفرح الذي لا يمكنني تفسيره.

قمنا بالتدربيات قبل الغداء في سينما «سوليه». بدت لي القاعة ضخمة وواسعة جداً. لكن الصوت يدوّي فيها بصورة رائعة. كان يرافقني على

- 1 - ممثلة مسرحية ومطربة سوفياتية وروسية معروفة. المترجم

البيانو روغاتشيف. وهو من موسكو، سبق أن عمل رئيساً لمجموعة الآلات الموسيقية في أوركسترا أوبرا مامونتوف. كان في البداية يتحدث معي باستخفاف. ولكنه بعد أن غنيت، اخترق التعجرف عنده! راح يمدحني بعض الشيء: «أنا سعيد جداً، لم أكن أتوقع!». ولكن أن يصدر مثل هذا الرأي عنه - أمر مهم!

يشعر المرء على الفور بأنّ لديه الخبرة والمهارة. أنا راضية إلى أبعد حد. اتفقنا على الأغاني الرومانسية التي سوف تقوم بأدائها في كل عرض تسلية. أشار عليّ بأنّ أضبط مزاجي وحماستي. «يجب الاحتفاظ برأس بارد».

ذهبت بعد التدريب لكي أتسكع في المدينة. شمس وهواء منعش وشعور لطيف. كان حشد كبير من الناس في شارع سادوفايا، في المسافة بين «فنجان الشاي» وحلويات فيليوف كما لو أن ثمة احتفالاً شعبياً. ييدولي، وليس لي وحدى بل وللجميع، أن ثمة إحساساً كما لو أنّ الفظائع بدأت تنتهي، وأنها تبدأ حياةبشرية من جديد.

وأما الوجاهات! يا للحرير الفاخر، والقبعات الجميلة، بدلات جاهزة، وعطور ومجوهرات. وكم هي أزياء الناس أنيقة! وكم هو كبير عدد الضباط المتألقين في سترات جديدة! كما راحت تفتح مقاه ومطاعم جديدة باستمرار! ولوحات الدعاية! مسارح، كباريهات وحفلات! يا إلهي، كم أنّ الأمر رائع لأنّها تنطلق حياة عادية من جديد! الحرب - داء فظيع!وها هو العالم بأكمله بدأ يستعيد عافيته. وروسيا أيضاً تستعيد عافيتها.

كان ثمة حشد من الناس، كما هي العادة دائمًا، أمام الواجهة مع خريطة في الزاوية القائمة بين شارع سادوفايا وتاغانروغسكايا. كانت الرأيات ذات الألوان الثلاثة ترتفع نحو الأعلى مع كل يوم. كان الناس يأتون لكي يشاهدوا تطورات الخيط الأصفر السميك. حيث يناقش الجميع كلّ شيء بحماس كبير، كما لو أنّهم خبراء استراتيجيون! لم يبقَ أمام الجبل سوى القليل من الانبعاث - حتى تضع الحرب أوزارها! سوف نلتقي من جديد مع ماشا وكایتا ونوسيما!

دخلت إلى الفندق حيث مقر هيئة الدعاية والإعلان في الجيش التطوعي، حيث كان ثمة جنرال ذو شأن، وكان يشغل في السابق منصب مدير مؤسسة تعليمية متميزة، يقدم لجميع الراغبين شرحاً تفصيلياً عن الوضع الميداني للأعمال القتالية. كان ينقل الأعلام الصغيرة من مكان إلى آخر على الخريطة، ويرفع يديه فيلمع المرفقان الرثان لسترته الرمادية. كما لو أنها «الشقيقات الثلاث»<sup>(١)</sup> تماماً: موسكو! إلى موسكو! على موسكو!

التقيت وجهاً لوجه مع جوجو. لقد وجدت لنفسها عملاً هناك، حيث تحمل معها إلى البيت مسودات النشرات التي تصدرها هيئة الدعاية والإعلان في الجيش التطوعي. كانت تبدو متألقة تماماً. في فستان أحضر من قماش «جورجيت» الصوفي الخفيف والشفاف. لم يكن لديها ذوق جيد من حيث اللباس أبداً. وعلى العموم، لماذا تصر الشقراوات على ارتداء فساتين خضراء اللون فاقعة؟ لم يكن الفستان مناسباً لها على الإطلاق. كانت تعترض نفسها وتتفاخر بأنها تحصل على السكر والطحين والخطب من المستودعات، بل وحتى الكحول من ماركة أُبروا - دبورسو! لم تسنح الفرصة لتبادل الحديث معها - كان الجنود يدفعون أمامهم بالات ثقيلة من المنشورات، كما أنَّ جوجو بدورها كانت مستعجلة. أعلنت أنها تدبرت عملاً لها لدى البروفسور غريم، وأنها تستطيع أن تطلب منه لأجلِي في حال أردت ذلك. راحت تطرق بكتعبها على الدرج العريض متوجهة إلى المكان الذي كانت تصدر منه أصوات آلات الكتابة.

هذا ما ينقصني! لن أفلح في أي مكان الآن من دون وساطة جوجو!  
في حال أردتُ...  
ولكنني لا أريد!

أنا أعرف ماذا أريد. وسوف يكون تماماً كما أريد!  
قرأت على لوحة الدعاية أنَّ إيميليانوفا ومناخوف سوف يصلان إلى هنا! سوف أحصل على النقود وأشتري بطاقات في أفضل الأماكن!

-1- على الأغلب هذه استعارة من اسم مسرحية مشهورة للكاتب الروسي تشيخوف بنفس الاسم. المترجم

يَوْمَ أَمْسِ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ رائِعًا. أَمَا الْيَوْمَ فَمِنْذُ الصَّبَاحِ كَمَا لَوْ أَنِّي اَنْزَلْتُ  
إِلَى حَفْرَةِ سُودَاءِ. مَرَرْتُ بِقَرْبِ لَوْحَةِ إِعْلَانَاتِ سِينَمَا «سَلِيلِيَّهُ» - وَعَلَيْهَا  
اسْمِي. وَلَمْ أَشْعُرْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِالْخُوفِ.

أَنَا أَبْدُو شَجَاعَةَ مَعِ النَّاسِ فَقْطَ، أَمَا مَخَاوِفِي وَدَمْوعِي فَتَكُونُ مِنْ نَصِيبِ  
مِثْلِ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ. أَخَافُ أَنْ أَفْشِلَ، أَخَافُ أَلَا أَنْجُحَ فِي تَقْدِيمِ غَنَاءِ رَائِعٍ،  
وَأَخَافُ أَنَّ الْقَاعَةَ قَدْ تَكُونُ خَالِيَّةً مِنَ النَّاسِ. أَخَافُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَالْأَهْمُ،  
أَنَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ الْجَمِيعُ يَكْذِبُونَ عَلَيَّ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ! يَقُولُونَ لِي كَذِبًا  
لَأَنَّهُمْ يَشْفَقُونَ عَلَيَّ! وَمَاذَا لَوْ أَنَّهُ لَا صَوْتَ جَمِيلٍ وَلَا مُوهَبَةٌ عَنِّي فِي  
حَقِيقَةِ الْأَمْرِ؟

مِنْ جَدِيدٍ رَأَيْتُ ذَلِكَ الْكَابُوسَ الْفَظِيعَ مَعَ الْبَعْوَضَةِ! مَرَةٌ بَعْدَ أُخْرَى!  
أَنَا لَا أَعْرِفُ شَيْئًا وَلَا أَقْدِرُ عَلَى فَعْلِ شَيْءٍ! شَعَرْتُ بِالْغَرَوْرِ وَرَحْتُ أَعْتَدُ  
بِنَفْسِي وَبِأَنِّي مَطْرَبَةٌ - وَهَأْنَا أَتَلْقَى صَفَعَاتٍ عَلَى بُوزِيِّي. نَعَمْ، عَلَى بُوزِيِّي!  
وَهَذَا مَا أَسْتَحْقَهُ!

كُلُّ مَا أُرِيدُ أَنْ أَنْسَاهُ - إِنْمَا هَذَا بِالْتَّحْدِيدِ، وَلَكِنَّهُ يَطْفُو فِي عَقْلِي لَيْلًا وَأَثْنَاءَ  
النَّوْمِ. أَغْمَضْتُ عَيْنِيَّ وَعَلَى الْفَورِ أَتَخْيَلُ نَفْسِي عَلَى خَشْبَةِ الْمَسْرَحِ فِي النَّادِي  
السَّابِقِ لِلْوُوكَلَاءِ. يَعْلَمُونَ اسْمِي، أَخْرُجُ إِلَى الْمَنْصَةِ، لَا أَرَى شَيْئًا، أَبْدَأُ بِأَدَاءِ  
أَغْنِيَّتِي الَّتِي أَحْبَبُ مِنْ رُوبِرْتُوَارْ بِلِيفِيْسْكَايَا: «فَوْقُ الْحَقُولِ، الْحَقُولُ النَّظِيفَةُ»  
- وَمِنْ جَدِيدٍ تَكَرَّرَتْ ذَلِكَ الْفَظَاعَةُ! اخْتَنَقْتُ! لَقَدْ دَخَلْتُ بَعْوَضَةً فِي حَلْقِيِّ!  
تَفَضَّلُوا، هَكَذَا يَكُونُ أَوَّلُ ظَهُورٍ عَلَى الْمَسْرَحِ! لَوْ كَانَتْ جَدِيلِيَّ أَطْوَلَ  
قَلِيلًا - كُنْتُ شَنَقْتُ نَفْسِي بِجَدِيلِيَّ!

رَحْتُ أَكْتُبُ لِكِي أَتَحْرَرُ بَعْضَ الشَّيْءِ، لِكِي أَنْسَى!

الْجَمِيعُ هُنَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ زِيَارَةِ فَرْقَةِ كَاتِشَالُوفِ لِمَسْرَحِ «مَحَاتَّ»<sup>(1)</sup>!

- الأَحْرَفُ الْأُولَى لِاسْمِ مَسْرَحِ مُوسَكُو لِلْفَنُونِ. وَهُوَ أَحَدُ أَشْهَرِ مَسَارِحِ العاصِمَةِ الْرُّوسِيَّةِ  
وَرُوسِيَا بِأَكْمَلِهَا. الْمُتَرْجِمُ

للتوكان هنا فيرتينسكي<sup>(١)</sup>، وهو مسرح «مخات» يأتي إلينا. سوف أرى الممثلين فيه جمِيعاً. كاتشالوف وغيره مانوفكا وكثيير!

اشترىت كراساً يحتوي مجموعة نصوص من أغاني فيرتينسكي. يا إلهي كم هو عبقرى! راحت أتصور الطفلة الفقيرة وهي تطلب وسط القبور من رب هدية بمناسبة قدوم الربيع - ساقين كبيرتين وسترة خطافية ليلكية اللون، ومعطفاً طويلاً، وتلك المرأة الحمقاء التي تقوم بتقبيل طلاب المدرسة الهرية القتلى في شفاههم المزرقة.

كم كان أمراً حسناً أننا لم نتحسر حينئذ وشترينا لحضور ماشونكوف بطاقة في الصف الثالث بقيمة 85 روبلًا! أما في الصف الأول فكانت قيمة البطاقة مئة روبل بالتمام والكمال.

كان يمكن أن حجم خط الكتابة أكبر قليلاً.

أُف، كم أنا، على الأرجح، مغرورة!

سوف ألتقي غداً مع بافل. هذا آخر يوم لنا.

2 آب عام 1919. يوم الجمعة.

أخبار سيئة. لقد شعرتُ على الفور أن أمراً طارئاً حدث لباful. التقينا كعادتنا تحت قبة آسمالوفسكي، ثم ذهبنا إلى مطعم «آمبير». كل شيء يعود إلى مجراه. الخدم في سترات، وفي قمصان بيض منشأة، بذوق مخلوقة جيداً تفوح منهم رائحة عطر رخيص. السيدات في ثياب أنيقة. والموسيقى جميلة ولطيفة، والعازفون، اليهود، قاموا بصياغة شعورهم باللون الأشقر. أما المطربة فكانت شخصية نكرة عابرة ومرعبة من حيث الشكل. روزا السوداء! الاسم وحده يكفي! وفوق ذلك راحوا يرمون لها الورود! لا يفهمون شيئاً في الغناء! المهم أن يكون وجه المطربة جميلاً ومطلياً بسخاء!

ظلَّ بافل صامتاً طوال الوقت، ثم قال: «هيا بنا نخرج من هنا! لم أعد قادرًا أن أتحمل هذا الجمهور!». أما أنا فكنتُ أتمنى أن أبقى لبعض الوقت

---

- 1 - ألكساندر فيرتينسكي 1889-1957 مطرب وممثل سينمائي ومسرحي، شاعر وملحن روسي وسوفياتي مشهور. المترجم

هناك. ولكنني لم أقل شيئاً من جديد. نهضت طائعةً وذهبت معه. مررت في شارع سادوفايا بقرب الخريطة. قلت له: «قريباً، إن شاء الله، سوف يتنهى كل شيء!». فراح يزعق عليّ: «ما من شيء سيتهي!». راح يشتم «أوسفاغ»<sup>(1)</sup> متهمًا إياهم بأنهم يستترون على كل شيء، وإذا ما بدأ أحد ما بالحديث عن حقيقة الأمر - يعدونه عميلاً وجاسوساً للحمر. «علمًا أن هيئة مكافحة الجاسوسية لا تضم في صفوفها سوى السارقين واللصوص والأنذال - أما الشخص الشريف فلا يمكن أن يجد لنفسه مكاناً هناك! إنهم يتصارعون من أجل السلطة والنفوذ، وفي كل مكان تسود السرقة والرشوة، ولكن الجميع يلتزمون الصمت إزاء ذلك، لأنهم يخافون على أنفسهم».

ادركتُ أن أمراً ما حدث معه. رحت أسأله واستفسر منه، لكنه ظل متكتمًا في البداية، ثم قال إن لديه مشاكل في «أوسفاغ». كان شاهدًا على حادثة ما، فأراد أن يكتبوا في الصحف عن ذلك، فقاموا باستدعائه ووجهوا له تهديدًا طالبين منه الصمت. وفي عربات القطارات التي كانت تأتي من نوفوروسيسك، وبدلًا من الذخيرة والألبسة والطعام للقوات في الجبهة، كانت تنقل بضائع للتجار والمضارعين في السوق السوداء. في حين أن الجبهة لا يصلها شيء من الخطوط الخلفية سوى لوحات دعائية من «أوسفاغ» مع صور للكرملين ولفرسان ما. ثمة نقص في الذخيرة، في حين أن حاكم المدينة يقوم بنقل المتنوجات النسيجية والعطور، والجوارب الحريرية والقفازات، ثم يقوم بربط عربة واحدة فقط مع ذخيرة إلى القطار المعنى، ويوضع في كل عربة بساطة صندوقًا واحدًا من القنابل المتشظية، لذلك كانوا يسمحون للقطار بالمرور عبر الحواجز العسكرية بلا أية عراقيل على أساس أنه قطار عسكري. مشينا لمدة طويلة. كان بافل طوال الوقت يشتم الحلفاء. إذ لم يكونوا يكترون بما على الإطلاق، ولم يكن لديهم أدنى اهتمام بحالنا - قاموا بإرسال ملابس عسكرية إما أنها صغيرة القياس كما لو أنها مخصصة لأقزام، وإما أنها كبيرة جدًا كما لو أنها لعمالقة. كما وصلت بعض عربات مليئة بأحدية من فردة واحدة فقط، يسرى مثلًا! كما أنهم أرسلوا رماحًا من

- 1 - كما أسلفنا - هيئة الدعاية والإعلان في الجيش التطوعي... المترجم

الخيزان ورشاشات من دون خرطوش وأحزمة لها، علمًا أن الخرطوش الذي يتبع عندنا لا يصلح لها، بالإضافة لمدافع قديمة جدًا تعود لحرب البوير<sup>(١)</sup>. وقد أضحكني أن الإنكليز أرسلوا بغالاً لم تصمد حتى تصل إلى الجبهة فتحولت في الطريق إلى لحم مشوي، ولكن بافل غصب مني لذلك. لديه مهمة أخرى في الأسبوع القادم.

عندما مررنا قرب مختبره، قال إن العجوز ميرسون الذي ذهب ابنه للقتال مع الجيش الأحمر، يأتي لزيارته باستمرار. يأتي ويتأمل مختبره ثم يغادر. خيل لي أنه يعاني من أجل هذا العجوز أكثر مما يعاني لأجي. ومن جديد لم أحسم أمري وأبدأ ذلك الحديث الذي لا بد منه. شعرت بانقباض في القلب: كيف يمكنني أن أقول له ذلك في مثل هذه الظروف؟ ماذا سيحدث له؟ كيف سيذهب عندئذ إلى الجبهة مع قلب مكسور؟ لا، سوف نتفاهم في الأمر عندما يعود.

٣ آب 1919. السبت.

يا له من يوم طويل! إليكم التفاصيل بالترتيب.  
مرة أخرى أمسيّة في بيت آل نيكيتين. كان من الأفضل لو أننا لم نذهب إلى هناك!

لم أتمالك نفسي مع بافل منذ البداية. جاء من أجل اصطحابي، وأما أنا فكنت ما أزال أرتدي ثيابي. راح يستعجلني. وهذا ما أغضبني وجعلني أثور! لا فرق له كيف سيكون مظهري! المهم أن يباشر تقرير مصير العالم بسرعة! قلت له إن مصير العالم سوف يتنتظر! وإن الظهور الناجح مفيد لا على المسرح فحسب، لذلك سوف نتأخر بمقدار ما نحن بحاجة لأن نتأخر! انزعج. وهكذا وصلنا إلى هناك غاضبين بعضنا على بعض. ولكن عندما دخلنا اتجهت كل الأنظار نحوه!

١- حرب البوير الثانية، وتعرف أيضًا باسم حرب جنوب أفريقيا، يدعى بها الأفريكان كذلك بحرب الاستقلال الثانية، هي حرب امتدت من 1899 لغاية 1902، بين الإمبراطورية البريطانية وجمهوريتي البوير؛ جمهورية جنوب أفريقيا (ترانسفال) وجمهورية البرتغال الحرة، وانتهت بانتصار الجيش البريطاني. المترجم

وما الفائدة؟ لم يخطر ببال أحد أن يطلب مني أداء أغنية ما!

لم يكن تشيريكوف أو تروفيموف حاضرَين هذه المرة. بيدَ أنَّ بوريس لازاريفسكي كان حاضرًا! لدِيَ مجموعة قصصية له. أتذكر أنها أعجبتني كثيرًا، وعندئذ قال لي بابا: «لماذا الكتابة مثلما يكتب لازاريفسكي طالما أنَّ تشيخوف كتب بهذه الطريقة؟». كما كان حاضرًا كريفوشين من هيئة تحرير «روسيا العظيمة»، التي انتقلت للتو من مدينة يكاترينودار. ونحن نعرف كيف يكون أمثال هؤلاء! أصلع وبدين، تفوح منه رائحة العرق لمسافة فرسخ، وعلى الفور راح يقول كلامًا مبهماً. ومرة أخرى كان ذلك البروفسور، وكنيته لاديجنيكوف. ومن جديد راحت ميرتوفا تقوم بتصرفاتها المتكلفة طيلة المساء. لماذا يقومون بدعاوة أمثالها؟ لا أفهم. كما كانت هناك شخصيات علمية مجهولة. لم أذكر أسماءها.

لم يقرأ نيكيتين، بل اعتذر مبررًا بأن حكايته غير جاهزة بعد. رحت أرافق يفدوكيَا فيدوروفنا. هي ذي لحظة تحين!وها هي تميل إلى البروفسور طالبة منه أن يروي شيئاً ما! وبدأت الأمور - كما لو أنه سيرك حقيقي!

اشتبك نيكيتين مع لاديجنيكوف. وأي اشتباك! راحت الشر تتطاير من أعينهما! مثل ديكين بسبب دجاجة بياضة!

راح لاديجنيكوف يقول إن الجيش التطوعي ليس أفضل من الجيش الأحمر بشيء. «أولئك - من منطقة نهر تيميرنيك، ونحن أيضًا من نفس المنطقة، ولكننا في طفولتنا قاموا باغسلنا وبنظيفنا كما علمنا أن نفهم اللغة الفرنسية، ومع ذلك - عند أول مناسبة ننحدر ونسقط ونصبح مثلهم تماماً! بل لقد أصبحنا! لا يمكن الاحتفاظ بالسلطة في روسيا إلا بالقوة،وها هو القيسير بمجرد أنه تراخي وكف عن استخدام القوة - انهار كل شيء وانتهى! وكلما كانت النواجد التي تقبض على السلطة أكثر متانةً. كان الشعب الروسي يسمح بالمزيد: هيا كلوني! وإلا فسوف نأكلكم نحن! وها هم الآن الفرسان البيض من قوات مكافحة التجسس يحاربون الشر، ونحن نقوم بإعدام الناس في نفس تلك الغابة التي قاموا بإعدامنا فيها تماماً!». كما أنه قال إننا سوف نخسر هذه الحرب بجميع الأحوال، حتى في حال أننا انتصرنا، لأننا أصبحنا

مثل أولئك الذين نحاربهم. ضرب الطاولة بقبضة يده بقوة لدرجة كادت معها تسقط المزهريّة عن الطاولة، وصرخ: «يجب أن يتصرّف الخير على الشر - ففي ذلك تكمن قوته!».

وهكذا كان كلّ شيء من هذا القبيل، مع ملاحظة أنّ الجميع لم يكونوا يسمعون بعضهم بعضاً! علق نيكيتين: «يرغموننا أن نصبح أورا - في حين أنه يجب علينا أن نصرخ أين الشرطة! ثمة معلومات مختلفة صادرة عن «أوسفاغ» وكلها تشير إلى أنّ حملة التعبئة فشلت، وأنّ الفلاحين يحصلون على السلاح ثم يذهبون إلى الغابات، ومع ذلك يتم تسجيل أسمائهم في الأضابير!». هاجم قيادة الجيش التطوعي. «القوات في الجبهة منها رأة، حفة عراة - أما هنا فيجلسون في سترات طويلة أنيقة ويشربون الشمبانيا. بعضهم يصرخ بأنّهم سوف يستعيدون موسكو قريباً ويُسرقون أثناء ذلك، بينما آخرون لا يملكون شيئاً سوى الضمير والقمل، وهم يتغافلون ويُضخّمون بحياتهم! من أجل ماذا؟ من أجل روسيا؟ ولكن من أجل أيّة روسيا؟ روسيا هذه؟ ولكن هل تستحق ذلك؟ وفاض النهر: عن الوطن والواجب، عن الرسالة والتضحيات المقدسة، وعن الشعب! بيد أنّ أحداً ما عبر بالحق يقال بشكل جميل: لا يجوز فتح ورق اللعب «سوليتير» في بيت يحترق!

رحت أصغي لكلّ هذه الأقوال، وظهرت عندي رغبة قوية بأن أصرخ أيضاً: يا إلهي، عن أيّة رسالة تتحدثون؟ وعن أيّ واجب؟ أيّ شعب؟ الناس يريدون أن يعيشوا فحسب، وأن يفرحوا ويعشقوا!

حاول لازاريفسكي أن يصالحهما فنقل الحديث إلى الروزنامة، مشيراً إلى أنه من غير المنطقي تماماً إلغاء التقويم الميلادي الذي اعتمدته البلاشفة. فما هو ذنب التقويم، بالفعل، يا تُرى؟ كما أنه قال جملة مذهلة: «أرادوا أن يقصوا من الروزنامة 13 يوماً، وإذ بهم يفتحون ثغرة في الزمن!» كم كان هذا القول صحيحاً ودقيقاً! نحن - نعيش في ثقب من الزمن. إلا أنّهم لم يصغوا إلى ما كان يقوله، بل تابعوا صراخهم. عبس لازاريفسكي لأنّه ما من أحد أصغى إليه، فابتعد بمجلسه عنهم لمدة نصف ساعة ثم غادر.

أما بافل البائس فقد حاول باستمرار أن يقول ولو كلمة واحدة بخصوص

الفكرة الروسية عنده! وهو لم يدرك حتى الآن، للأسف، أنَّ الخلاف بين المتجادلين لا يكمن في الأفكار، وإنما في صاحبة البيت! وكيف له أن يفهم مثل هذه الأشياء البسيطة! فهو لا يستطيع أن يفهم إلا ما هو معقد.

استمر الصراخ والنقاش أثناء شرب الشاي أيضاً. راحوا يتحدثون عن التعسف والطغيان والقسوة، وأنَّ روح الفكرة التطوعية طارت بفعل الظروف منذ مدة طويلة. فقال نيكيتين عن الجيش التطوعي: «ولد من رحم الألم المقدس ولكنه سقط في العار - وهكذا كل شيء في روسيا!». ومن جديد دار النقاش: تبين أنَّ الشعارات مزيفة، وأنَّ الثقة مهانة وممرغة في الوحل، وأنَّ الشجاعة مدانة وموصومة بالسخرية! رحت أصغي إليهم، فبدا الأمر لي كأنهم يبرمون نفس الأسطوانة! كم كان هذا مثيراً للضجر.

عندما شارف العشاء على الانتهاء، وبعد أن شبع الجميع وتعبوا من المشادات، تطرق الحديث إلى مفهوم الفروسية. قال لاديجنيكوف إن ظاهرة الفروسية لم تُعرف لدينا على الإطلاق، وإنما كانت لدينا فضيلة الاستكانة والانصياع والذوبان في الحشد: «الفارس - دائماً فرد مستقل، وهو ليس أسير الوطن والملك، وإنما أسير الشرف!». راح نيكيتين يعترض ويقول إنه كانت في روسيا فروسية حقيقة، لأنَّه يقوم في أساس الفروسية مفهوم الواجب. «لدى أولئك سيدة فاتنة، ولدينا - روسيا. الفرسان عندهم كانوا «يعقدون قرانهم» مع امرأة حمقاء غير نظيفة تضع حزام الشرف على حوضها، أما الفرسان عندنا - فكانوا مع الشعب ومع الوطن! أليست هذه فروسية حقيقة؟» هنا استطاع بافل، وبينما كان المتجادلون يشربون الشاي، أن يقول إنَّ التاريخ الروسي عرف نوعين من الفروسية فقط - محفل أو جمعية الشيطان<sup>(1)</sup> في عهد إيفان الرهيب، وقيادة القيسar بافل لسكان مالطا<sup>(2)</sup>. فرداً

1- المقصود هنا الحرس الملكي الذي كان يتبع القيسar إيفان الرهيب ويطيع أوامره..  
المترجم

2- المقصود هو القيسar بافل الأول 1754-1801.. فقد كان أحد رؤساء المحفل الماسوني في مالطا... وعلى هذا الأساس كان يعتبر مالطا جزءاً من الإمبراطورية الروسية بالرغم من أنه كان أرثوذكسيًا ومالطا - كاثوليكية. المترجم

لاديجنكوف على ذلك بنبرة استعلاء: «يمكنني أن أجزم لك، أيها الشاب، بأنهم سمحوا بالمبادرة في الجيش الروسي اعتباراً من عام 1804، وهذا له دلالة خاصة! وأعتقد، بالمناسبة، أنك لم تكن قد ولدت بعد». ركلت بافل في ساقه من تحت الطاولة لكي يلتزم الصمت، لكنني شعرت أنه سينفعل الآن وسيقول كلاماً زائداً على الحد. ثم غادرنا بعد ذلك بوقت قصير. كانت أمسية فاشلة بامتياز!

رافقني بافل حتى البيت، وهنا صبَّ جام غضبه على العاملين في «أوسفاغ»! «حمقى مغوروون!» و«أشخاص توهموا أنهم أذكياء ولكنهم بلا موهبة!» لم يتمكن أن يغفر لهم بشكل خاص «أنهم يحصلون من أوسفاغ على أموال طائلة ويقومون بإنفاقها من أجل طباعة أشعارهم! هذه هي الانتلجنسيَا الروسية بكلٍّ بهائهما!». مكتبة سُرَّ من قرأ

مررنا بقرب سيرك ماشونكين. كان المكان يغص بالمقاهي والمطاعم، بالكباليهات والأضواء والموسيقى، وكان الناس يلهون ويسربون ويرقصون! فجأة أحسستُ برغبة بالرقص! لكي أرمي عن نفسي جميع تلك الأحاديث والنقاشات! جذبته قائلةً: دعنا نذهب، يا باشا، من فضلك». فكان جوابه: «أنا الآن بالتحديد أقرأ «تاريخ الحروب الصليبية». حالة مشابهة إلى درجة مذهلة! هناك خليط من المثالية والأنانية المتوحشة والحيوانية، وهنا أيضاً لدينا شيء نفسه. فعلى الجبهة يضحي المهووسون المبهجون بأنفسهم، في حين أنَّ الأذكياء يحاولون التملص والهروب إلى الخطوط الخلفية، حيث تقام حفلات التهتك والولائم أثناء مرض الطاعون!».

بقيت صابرة طوال المساء، ولكنني في هذه اللحظة لم أتمالك نفسي فانفجرت! أمسكتُه من ذنبيه ورحتُ أصرخ في وجهه مباشرةً: «اصحُّ، يا بافل! نحن لا نحيا في الكتب! نحن هنا والآن!». أما هو فراح يقول: «إتركيني، إنني أتألم! يجب عليَّ أن أسافر باكراً في صباح الغد. لقد تعبتُ كثيراً وأريد أن أنام». أدرت له ظهري وذهبت. لا أستطيع أن أصبر أكثر! مشى ورائي مثل كلب مربوط بمقدود. قلتُ له: «اذهب! دعني وشأنني! لا أطيق روئتك!». أما هو فتابع سيره خلفي. وهكذا حتى وصلنا إلى شارع نيكيتينسكايا. فجأة

شعرتُ بالقرف من نفسي. كيف يمكنني أن أتركه يذهب غداً وهو على هذه الحال؟ وماذا لو أنّ مكروهاً حدث له؟ ركضت إليه واحتضنته. عندما افترقنا، قال فجأة: «هل ستنظريني؟». لماذا قال ذلك؟ هل يخشى أنني سوف أتخلّى عنه ولن أنتظره؟

بل سوف أنتظر. وسوف أقول له عندئذ كلّ ما يجب أن أقوله.

4 آب 1919. يوم أحد.

كان اليوم عرضي الأول على منصة «سوليه». رفعوا الشاشة بعد انتهاء الفيلم السينمائي. خرجتُ إلى المسرح وعلى الفور أدركت أنني أرتدي فستاناً غير مناسب. كان يجب أن أرتدي فستانًا قاتماً، أسود أو بلون بوردو (خمرى). كان يسقط عليّ ضوء شديد، ما جعلني لا أرى شيئاً، فقد أبهرنى الضوء الشديد - وهذا لم يكن أثناء التمرينات! اضطربتُ فجأة ولم أعد أعرف كيف أتحرّك في مثل هذا الضوء المبهر، وماذا أفعل بيديّ. ثم أحستُ بشكل واضح كيف أنّ وجهي تعطى بالبقع بسبب الانفعال! ومن حسن الحظ أنني لم أسقط إلى خارج المسرح! يجب أن أتوجه بعنائي إلى شخص محدد في الصالة، وإذ بي أمام حفرة مظلمة. شعرتُ بالاختناق، فرحتُ أضغط على حالي الصوتية. من حسن الحظ أنني غنيتُ ثلاث أغاني رومانسية فقط. ما كنت لأقدر أن أغنّي الرابعة. وبينما كان عازف الناي يقدم نمرته، رحتُ أتنفس كما علمتني كوريتسكايا بطريقة تهدى الأعصاب: ثلاث حركات شهيق سريعة وقصيرة، يليها زفير طويل وعميق. وأن أقوم بعد حركات التنفس في عقلي. ساعدني ودعمني روغاتشوف، صاحب القلب الطيب: اقترب مني وقال هامساً بأنني كنتُ رائعة في غنائي! ثم جاء «دون جوان العاشق». كنتُ قد أصبحتُ هادئة. قال تورشين: «انظري إلىّ. ثبتي نظرك علىّ. سوف يكون كلّ شيء على ما يرام!». وهذا ما كان. كاد الجمهور يسقط على الأرض من فرط الضحك. إنّ تورشين - ممثل هزلي عبقرى!

بعد ذلك يسدلون الستارة من جديد، حيث يدخل جمهور جديد من المشاهدين. وفي كلّ مرة تكون الصالة مكتظة بالناس! أما نحن فننتظر بداية العرض الجديد ونتابع مشاهدة الفيلم من خلف الستارة، «بالمقلوب». حتى

أني تعلّمت قراءة الكتابة أسفل الشاشة مقلوبة رأساً على عقب. وفي كل مرّة كنت أزع حذائي، الوحيد المناسب للحفلات، على كعب عال لكي ترتاح قدمي. فيما بعد سارت الأمور بشكل جيد. وقد شعرتُ بالتعب الشديد بسبب عدم اعتيادي. حصلنا على المال كأجور، وأردنا أن نحتفل بالمناسبة، لكن قوانا لم تسمح لنا.

لا أستطيع أن أغفو بسبب فرط الإرهاق. شعرت بفرط إثارة. أغمض عينيَّ وإذ بي أتخيل نفسي على المسرح من جديد، ومن حولي تصفيق وترحيب. فأقوم بالانحناء في الوسادة لرد التحية!

### 5 آب 1919. الإثنين

يجب عليَّ أن أسجل جميع هذه الفظائع.

عادت تala ونزلت عندنا. منظرها مرعب. وفوق ذلك لديها قمل. أخذتها أنا وماما إلى غرفة كاتيا الفارغة، مددنا جرائد على الأرض، ثم أحضرنا حوضاً من الماء الساخن، وقمنا بغسلها، بعد ذلك ألبسناها. بعد ذلك قمنا بلفٌ جميع ثيابها بالأوراق وحرقناها.

وقع مشفاهم الميداني تحت سيطرة قوات ماخنو، والأدق هو أن عصابته كانت تتراجع فوصلت إلى المستشفى. أجهزوا على الضباط الجرحى عن طريق طعنهم بالحراب. كما قاموا بسوق الممرض من أجل إعدامه - راح يتسلل لديهم ألا يؤذوا زوجته لأنها حامل وهي على وشك الوضع. قال أحدهم: «سوف تتحقق من الأمر!» - وقام ببقر بطنه بالحرابة. ثم قاموا بتعذيب الممرض. كان لدى تala سيانيد البوتاسيوم، الذي وزعوه على الممرضات لمثل هذه الحالات بالتحديد. كانت تحمل السمَّ في كيس صغير مخصص للبخور مربوط بسلسلة إلى جانب الصليب. أرادت أن تتناوله ولكنها لم تتمكن. قاموا باغتصابها. ثم جاء رئيسهم وأخذها إليه. وأنباء الليل قام بتهريبها.

كانت تala تروي بهدوء، ثم صمتت فجأة، كما لو أنها غابت عن الوعي في ذاتها. استلقينا للنوم تحت بطانية واحدة - رحنا ندفع قدميها المتجمدتين. حدثت ليلاً عند تala نوبة هستيرية.

عمَّ أخبرتنا تالاً أيضًا:

لقد قُتِل سيريوجا ستاروفسكي بطريقة غبية ومرعبة جدًا - في قطار الإسعاف مباشرة. كان واقفًا في العربة المدفأة، وأطلَّ برأسه. كانت تجري في ذلك الوقت تدريبات في المحطة - ارتجَ القطار وتحرك باب العربية فسحق له عنقه.

شاركت تالا في عمليات جراحية أجريت «على الأحناك» و«على أغشية الطلب»، أي أنها كانت تفتح غشاء الطلب بجسم معقم أو كانت تمكّن فكَ المريض وهو تحت تأثير المخدر. راحت تروي لنا أن الإمساك بالفك أثناء عملية ثقب الجمجمة Trepanation عمل مرهق وصعب، خصوصًا إذا كان الرأس موضوعًا على جانبه - تتوَّرم الأصابع - وكيف يمكن الإمساك به إذا ما راح الجراح يطرق ليفتح ثقبًا؟ فضلًا عن أن طبيبه كان يصرخ عليها إذا ما راح الرأس يهتز أو إذا ما أعطته الممرضة أداة جراحية غير تلك التي طلبها! وفي إحدى المرات قاموا بعدة عمليات جراحية متتالية من دون أدنى راحة، كما كانوا يطلبون منها تقريرًا عن عدد المرضى الذين تم تضميدهم، علمًا أنه كان من المستحيل أن تذكر عددهم بالكامل، عندئذ كانت تالا تضع علبة ممتلئة ببازلاء وأخرى فارغة - وكانت تضع حبة بازلاء في العلبة الفارغة مع كل عملية ضماد، وبعد ذلك تقوم باحتساب العدد الإجمالي.

كانوا يقومون باستدعاء الأسرى من الجيش الأحمر من أجل إعدامهم حسب الرغبة. يصيرون: «الراغبون بالإعدام!». كان عدد الراغبين في البداية غير كبير، ثم راح العدد يزداد أكثر فأكثر. كانوا يجهزون على الأحياء منهم بالضرب بأعقاب البنادق. كما كانوا يقومون بتعذيب المحكوم عليهم بالإعدام قبل إعدامهم بشكل خاص. لم يكن ثمة أي معنى للدفاع عنهم. جربت تالا في إحدى المرات، فما كان من جندي متطوع، كبير في السن، إلا أن قال لها: «هذا جزاء ما فعلوه بابتني».

1- عيد التجلّي يكون في السادس من آب من كل عام (حسب التقويم الغربي) ويحتفل المسيحيون بعيد التجلّي أي ظهور السيد يسوع. المترجم

ثمة وباء لمرض التيفوئيد، لكنه لم يصل إلى مدينة روستوف بعد. لكنه قد يصل قريباً. كنا مضطرين لأن نوصد أبواب العربات التي فيها مرضى مصابون بالتيفوئيد بالأقفال أثناء الليل: كان المرضى وهم في حالة من غياب الوعي يفرون من العربات، يتسلّكون في المحطة، بعضهم يرتدي ثيابه، ولكن البعض الآخر منهم كانوا عراة تماماً. لم يكن يفيد في علاجهم سوى عقار سيلوفارزين، إذ إن حقنه للمربيض يؤدي إلى إيقاف المرض فوراً، ولكنه يقضي في الوقت نفسه على المناعة عند المريض، ولذلك يكون معرضاً للعدوى من جديد.

هناك كم هائل من الأشياء التي يجب على أن أدونها كل يوم، ولكن ليس لدى لا أعصاب ولا طاقة لذلك.

ثمة حرب تدور، أما أنا فأغنى. بيدَ أنني غير قادرة أن أقوم، مثل تالا، بتضميد الجرحى. بالطبع، أستطيع. ولكن هناك المئات من الفتىـات الأخريـات الـلاتـي يـسـتـطـعـنـ أنـ يـفـعـلـنـ ذـلـكـ - شـجـاعـاتـ وـحـازـمـاتـ، وـلـيـسـ مـثـلـيـ. كـلـاـ، أـنـاـ أـيـصـاـ شـجـاعـةـ وـحـازـمـةـ. وـلـكـنـيـ أـرـيدـ أنـ أـغـنـيـ. وـلـيـسـ ذـنـبـيـ أنـ مرـحـلـةـ الشـبـابـ عـنـدـيـ صـادـفـتـ مـرـحـلـةـ الـحـرـبـ! وـلـيـسـ لـدـيـ مـرـحـلـةـ شـبـابـ آخرـ! وـأـنـاـ وـانـقـةـ مـنـ آنـ الغـنـاءـ، بـيـنـماـ يـحـيـطـ بـنـاـ كـلـ هـذـهـ المـوـتـ وـكـلـ هـذـهـ الـكـرـاهـيـةـ - لـاـ يـقـلـ أـهـمـيـةـ. بـلـ لـعـلـهـ أـكـثـرـ أـهـمـيـةـ.

أما أنا فأفـكـرـ عـلـىـ النـحـوـ التـالـيـ: إـذـاـ كـانـ عـلـىـ هـذـهـ الـأـرـضـ مـكـانـ حيثـ يـقـومـونـ بـالـإـجـهـازـ عـلـىـ الـجـرـحـىـ بـضـرـبـاتـ الـبـنـادـقـ، هـذـاـ يـعـنـيـ أـنـهـ منـ الـضـرـوريـ أـنـ يـقـومـ النـاسـ فـيـ مـكـانـ آخـرـ بـالـغـنـاءـ وـبـالـفـرـحـ لـلـحـيـاةـ! وـكـلـماـ كـانـ ثـمـةـ مـوـتـ كـثـيرـ مـنـ حـولـنـاـ، كـانـ مـنـ الـأـهـمـيـةـ بـمـكـانـ أـكـبـرـ أـنـ نـوـاجـهـ الـمـوـتـ بـالـحـيـاةـ وـبـالـمـحـبـةـ وـبـالـجـمـالـ!

## 7 آب عام 1919. الأربعاء

كـدـنـاـ نـطـيـرـ الـيـوـمـ جـمـيـعـاـ فـيـ الـهـوـاءـ. فـقـدـ شـاهـدـ العـجـوزـ جـيـرـوـفـ عـبـرـ السـيـاحـ كـيـفـ أـنـ الـأـوـلـادـ مـنـ عـائـلـةـ بـانـكـوفـ يـلـهـونـ بـالـبـارـوـدـ الإـنـكـلـيـزـيـ. وـهـوـ يـبـدـوـ مـثـلـ الـمـعـكـرـوـنـةـ - طـوـيـلـاـ، مـعـ ثـقـبـ نـحـوـ الدـاخـلـ وـلـكـنـهـ بـلـوـنـ بـنـيـ. قـالـ جـيـرـوـفـ إـنـهـ يـقـومـونـ بـوـضـعـ تـلـكـ الـلـفـاتـ ضـمـنـ قـدـائـفـ، وـإـنـهـ تـمـتـلـكـ الـمـواـصـفـاتـ

التالية: في حال كان ثمة هواء مضغوط، وتم الضغط عليها - فإن ذلك البارود يشتعل بسرعة البرق ويطلق النار، وإذا تم إحراقه فقط - فإنه سيحترق حتى النهاية من دون أن يحدث أي انفجار.

## 8 آب عام 1919. الخميس

أمضينا المساء هذا اليوم مع بابا. لقد مضى زمن طويل جدًا من دون أن تحدث معه كما كنا نفعل من قبل. سأله عن إيلينا أوليغوفنا. قال إنه مغمض بهذه المرأة منذ مدة طويلة، وإنه اتفق مع ماما بالمحافظة على استمرارية الزواج من أجلنا، إلى أن نكبر. لقد جاء لكي يأخذ ما تبقى له من أوراق وملفات خاصة به. ساعدته في جمع الأغراض.

راح يشكو من الظروف غير المعقولة والصعبة جدًا في المستشفى. فالجرحى غريبو الأطوار ويسمحون لأنفسهم بالكثير - يجلبون الخمر إلى المستشفى، يتسلكون في المدينة حتى وقت متأخر من الليل وهم ينشدون الأغاني بأصوات عالية، من دون أن ننجح في السيطرة عليهم وضبطهم. فماذا يمكن للممرضة المناوبة أن تفعل - طالما أنها هي نفسها تخاف منهم إلى أقصى حد؟ لا أدوية، والمرضى الذين خضعوا للعمليات جراحية يبقون من دون ضماد لبضعة أيام بسبب عدم توفر المواد الازمة، كما يتم تأجيل العمليات الجراحية من يوم إلى آخر. هناك سيرينغ واحد للقسم بأكمله! المراحيض قذرة إلى حد القرف، وعدد الأسرّة قليل لدرجة أنّ الجرحى ينامون على ألواح وعلى الأرضية مباشرة - ويعطون أنفسهم بملابسهم فقط. بابا البائس! كم يعاني ولكنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء! من حسن الحظ أنّ المدينة لم تضرّ بها بعد موجة كبيرة من وباء التيفوئيد، ولكنهم يتوقعونها. تجري سرقة كل شيء - حتى أن الخادمات في المستشفى بالذات يقمن بالسرقة، يأخذن كل ما يقع تحت أيديهن ويدهبن إلى القرى - فلا يبقى إلا رؤساء الأقسام. نجح بابا في الحصول على موافقة حكام المدينة بجمع تبرعات، فنشر الحاكم في الصحف أمراً يلزم الجميع بتقديم البياضات للمستشفى. جلبو البياضات - ولكن اللاتي يقمن بغسله يبدلن البياضات: نحصل على مِزق بدلاً من شراشف. كما أنهم يسرقون الكحول ويشربونه،

وذلك على الرغم من رائحة حمض الكربوليك الذي يضيفونه خصيصاً إلى الكحول لكي لا يعود صالحًا للشرب!

ولكن أسوأ الظروف هي تلك التي في القسم الخاص بالمرضى العقليين. إذ إنَّ الجميع أغفل وجودهم.

يعدون بإعطاء الأجر، ولكنهم لا يفعلون، لذلك يعيش بابا من دخله الخاص. يمزح بمرارة: «لا تكررِ النِّسْرِيَّة البُنِيَّة<sup>(١)</sup> بنوعية السلطة القائمة». أصبح الجميع متواضعين، بمن فيهم العاملون في المستشفى. وقد روى لنا بابا حادثة مرعبة. كانت في قسم الجراحة ممرضة - بلشفية مصابة بجروح. وكانت المراقبة في القسم مارينا ميخائيلوفنا أندرييفا، التي ذكرها بشكل جيد لأنَّه صادف أنَّ كانت ضيفةً عندنا. كان ابنها طالباً في المدرسة الحرية، وقد تعرض لأ بشع أنواع التعذيب من قبل القوزاق الحمر. كانت الجروح عند تلك المرأة مصابة بالإلانتان، ومع ذلك لم يقوموا بتضميدها - لم تسمح لهم مارينا ميخائيلوفنا بذلك، قائلة: «للكلب أن يموت كالكلاب!».

٩ آب من عام 1919. يوم جمعة

بدأت بالظهور علامات النجاح في «سوليه»! فقد تمَّت دعوتي اليوم للغناء في مسرح «موزاييكا»!

كما أنَّ تورشين وعدني بتدبير عرض لي على مسرح «غروتيسك»! وقد تحدَّث بهذا الموضوع مع ألكسيف. سوف يقدم عروضاً هناك ممثلون من فرقـة «كريفوـي جـيمي» من مدينة كـيف. سوف أـشارـك نفسـ المنـصة مع كلـ من فـلـادـيسـلاـفسـكي وـكـوريـخـين، وـهـينـكـين، وـبوـتشـينـسـكاـيا.

وهـكـذا، سـبق أنـ قدـمت عـروـضـي فيـ كـلـ منـ «ديـفيـريـيـسمـينـت» وـ«يـاخـتا». وـمـنـ ثـمـ فيـ «سـولـيه». وـالـآنـ سـوفـ أـقـدـمـ عـرـضـيـ فيـ «موـزـايـيـكا»! وـأـخـيرـاـ تمـ اـفـتـاحـ مـسـرـحـ «بـوـفـ» عـلـىـ شـارـعـ سـيـنـاـيـاـ. وـقـدـ حدـثـ دـمـارـ شـامـلـ بـعـدـ جـمـيعـ الـاجـتمـاعـاتـ التـيـ عـقـدـتـ. ذـهـبـتـ إـلـىـ هـنـاكـ لـكـيـ أـلـقـيـ نـظـرةـ، وـلـمـ أـعـرـفـ

- ١- النِّسْرِيَّة البُنِيَّة نوع من البكتيريا تتبع جنس النيسريّة. تسبّب مرض السيلان. وأول من وصف النيسريّة البنية هو ألبيرت نيسر عام 1879. المترجم

المكان! لقد تم زخرفة الصالة بطريقة فاخرة، وأصبحت الغرف والمكاتب هناك مريحة وأنيقة، بالإضافة للإنارة الرائعة! وهناك سوف أغنى! نعم، سوف أغنى! وسوف تكون خشبة مسرح أسمولوفسكي تحت تصرفني! وأيضاً مسرح مانوشكين! وناخيتشيفانسكي! سوف تصبح جميع الصالات لي! كونوا على ثقة من ذلك.

أعدت قراءة ما كتبت هنا ووجدت أنه مثير للضحك حتى بالنسبة لي. كما لو أنني خليستاكوف<sup>(١)</sup> بطريقة ما.

يبدأ آنني أتمنى ذلك!

10 آب عام 1919. السبت

حضرت أنا وماما في صلاة تذكارية عن روح ساشا. لقد مضى عام على غيابه.

أصبحت ماما في الآونة الأخيرة مضطربة وضائعة. أشعر بالأسى عليها! رجعنا إلى البيت وشربنا عن روح ساشا. شربت ماما رشفة صغيرة وأنا أيضاً.

كما أنها تذكرنا أشياء مختلفة. كما لو أن كل شيء جرى في حياة أناس آخرين غرباء. تذكرنا كيف أن ساشا دخل الغرفة يومذاك راكضاً وهو يصبح: «ماذا، هل أنتم لا تعرفون شيئاً؟». تبادلنا جميعاً النظارات، وأمسكت ماما بناحية القلب. تبين أن كلبة الجيران وضعت جراءها ليلاً. ما زلت أتخيل اللحظة: ذهبت ماما إلى البوفيه حيث تحفظ بقارورة النقط المهدئة من ورق الغار، أما أنا وكاتيا وماشا فرحاً نقهقه، وركضنا لكي نلقى نظرة على الجراء. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم عرفنا أن الحرب قد اندلعت.

أصبحت ماما تحفظ بكتاب أفاكوم<sup>(٢)</sup> على طاولتها. وقد راحت تردد باستمرار: «الزمن هو للمعانا. يجب عليكم أن تعانوا باستمرار». واليوم

1- الشخصية الرئيسية في مسرحية «المفتش العام» للكاتب الروسي العظيم غوغول.  
المترجم

2- قديس في الكنيسة الروسية، كبير الأساقفة عاش بين 1620 و1682. له مؤلفات في اللاهوت. المترجم

قالت إنها قرأت هذه الكلمات يوماً ما وإنها تذكرها ولكنها لا تعي معناها.  
«وأما الآن فقد بات كل شيء واضحاً: لا يمكن العقاب على الذنوب فقط، وإنما لقاء ما يعيشها الإنسان من سعادة. لكل شيء ثمنه: بعد السعادة - مصيبة، وبعد الحبّ - ولادة، وبعد الولادة - موت».

رحنا نتذكر كل تلك الأيام الرهيبة من شهر شباط الماضي، وكيف أننا عانينا عندما اختبأ ساشا بضعة أيام في مقبرة براتسكي مع غيره من الطلاب والتلامذة من الفيلق الطلابي للجنرال بوروفسكي، رفضوا الانضمام إلى قوات كورنيلوف. فقد تكون الأولاد البائسون في أقبية المقبرة. في تلك الليلالي الصقيعية! ثم تمكّن أحدهم من التسلل ليلاً إلى المدينة وأخبر أهله بالأمر، وهكذا وصل الخبر إلينا بالسلسل. ذهبت إليه حاملة الملابس الدافئة والطعام. كان من الخطورة بمكان أن يسير المرء حاملاً صرراً، لذلك كنت ألفُ نفسي بأكبر قدر من الشجاعة التحتانية، وسعيت لأن أعبر من خلال فتحة ما في السياج كي لا يراني أحد عند البوابة. وقد اختبأ عدد كبير من الضباط في الأقبية البعيدة هناك. وقد أخبرني ساشا أنَّ أحدهم جُنَّ وراح يغتني - فقاموا بعنه كي لا يكشف سرَّ رفاقه بصرارخه. تمكّن بابا من الحصول على الوثائق الالزمة وذلك عن طريق الدكتورة كوبايا التي تطوع زوجها في الجيش التطوعي، وبذلك نجح ساشا مع عدد من رفاقه من المغادرة. بعد ذلك قام شخص ما بالتبليغ عن أمر المقبرة، فقاموا بالإغارة عليها وأعدموا كلَّ من وجدوهم هناك.

كانت أعمال التفتيش تجري على قدم وساق في كلِّ مكان. وقد أحرقوا بسبب الخوف على ساشا، الكثير من الوثائق والأوراق - وبهذه الطريقة انتهى دفتر يومياتي.

قامت ماما بجمع جميع أغراضنا المصنوعة من الذهب وطمئناها ضمن علبة معدنية - ومن دون أن نتمكن من العثور عليها بعد ذلك. لا بدَّ أنَّ أحداً ما راقبنا ثم قام بإخراجها من مخبئها تحت التراب وأخذها. كما أنَّ بابا قام - وكان ما يزال يعيش معنا هنا - بتفكيك دراجة ساشا إلى أجزاء، خوفاً من مصادرتها، ووزعها في أماكن مختلفة من البيت. أذكر كم كان ساشا يفتخر

بدراجته من ماركة «دوكس». وقد تجادل مطولاً هو وبابا أيهما أفضل - ماركة «دوكس» الوطنية أم الماركات الأجنبية مثل «تريومف» و«غلادياتور». ثم تذكّرنا مع ماما عملية التفتيش تلك التي قام بها أشخاص سكارى وعدوانيون: «ماذا تعرفون عن ابنكم؟». وبدأ كابوس فظيع - مع تمزيق ورق الجدران وتحطيم الألواح في أرضية البيت. كما أنهم طلبوا تقديم الشاي لهم - فاضطررنا لغلي الماء. وقد كانت توسيما غوروديسكايا قد أخبرتني عن التفتيش قبل ذلك، وكيف أنّ أخاها بيتسا سافر في مسيرة على الجليد، وأنه قتل في منطقة كوبان. عندما كانت توسيما تحكي لي وأسنانها تصطرك، كيف وماذا صادروا عندهم، كنت أشعر بالدهشة لذلك التعلق بالأشياء. كان أبوها - موظفاً ثرياً يعمل في البورصة. إذ يمكن للمرء أن يحيا حتى من دون سجاد فارسي فاخر ومن دون صحون فضية! وأين المصيبة إذا ما راح الناس الذين يكدون ويدلون جهداً هائلاً، أن يأخذوا الأرض أو البيت أو الأثاث، وكل ما استحقوه بجدارة طيلة حياتهم ومن ثم قام أحد بانتزاعه منهم! إذ إنَّ والد توسين لم يحصل على شققهم المبنية من الحجر من عرق جبينه! لذلك كان يفترض بهم من تلقاء أنفسهم أن يتشارطوا ثروتهم مع آخرين أو أن يقدموا لهم شيئاً ما - لأنه من المعيب أن يعيش المرء في ثراء وبدخ في بلاد فقيرة ومن ثم يبدأ بالتباكي بثروته! وما يستحقونه هو الانتقام. فقد كان بلوك العقري شرح كلّ شيء في قصيده! وفقط عندما جاءوا إلينا، أدركتُ أنَّ الأمر لا يمكن في الأشياء ولا في قيمتها المادية. راحت ماما يومئذ ترجوهم وتبكي، عندما بدأوا بمصادرة كل ما أعجبهم، وأدركتُ: تكمن المسألة في كرامة الإنسان. الأفضل أن يقف المرء وأن يلتزم الصمت! يومئذ قام بابا بإنقاذ الجميع وكل شيء. إذ انتهى التفتيش بأنه أغلق الباب عليه معهم في مكتبه، حيث قام بمعاينتهم. حتى أنهم أغربوا عن امتنانهم وهم يغادرون: «شكراً، دكتور!».

وما زالت تلك الأجزاء من الدرجة موزعة في أنحاء البيت كما سبق أن قمنا بتخيّتها حينئذ. ولن يقوم ساشا بتجميعها بعد اليوم أبداً.

11 آب عام 1919. يوم أحد.

رأيت زابوغ斯基 في الصف الأول. كان عجوزاً، فاقداً لصوابه تماماً

ومتهالكًا إلى درجة كبيرة. كان ينتظرنِي متسخًا ومكسور الخاطر وهو يحمل باقة من الأزهار. يا ليفعني ألكساندرو فيتش التعب! كيف يمكنني أن أنسى تصرفاته الحمقاء حينذاك؟ كنت أحلى في امتحانه، ولكن زابوغ斯基 كان يمُّ بجانبي طوال الوقت ويتحقق ما إذا كنت أغش! أرمي باتجاه لا لا نظرات متولدة لكي تبعث لي ورقة غش - وفجأة يقوم زابوغ斯基 خلسة بوضع ورقة مثنية بعناية. فتحت الورقة - وعرفت خطه. كانت فيها جميع الأجوبة وجميع الحلول للمسائل! طلب مني بعد الامتحانات أن أزوره في مكتبه حيث راح يعترف بحبه لي وطلب يدي! يا له من أمر مثير للضحك والأسى في آن!

كم هو مثير للشفقة! وكم كنت مغفلة كي لا ألاحظ شيئاً! عندما كان يتمشى في غرفة الصف، ويتوقف قرب مقعدي وهو يطلق زفاته في قفا رأسى تماماً، لدرجة أننى كنت أتوقع أنه على وشك أن يتقطعني من جديلتي ويشدّنى بها. أما هو فكان يريد على الأغلب أن يلمسنى وأن يمسح على رأسى فحسب.

عشاقى! كما لو أنهم في لحظة اختبار! بحيث لا أعرف أين أختبئ منهم! ما به يقف ذاك الفتى الذي لا أعرف اسمه، المعجب القرمزى اللون والصامت دائمًا! لقد مضى شهر كامل وهو يحرسنى ويتربّقنى ولكنه يخشى أن يقترب مني. لدرجة أننى أفكّر بأن أغريه بقطعة شوكولاتة ومن ثم أصفعه بقوة لكي يذهب ويدرس فروضه، لأن يقوم بأشياء غبية.

وطبيب الأسنان ذاك مع تحفته - تفتح فمك له ولن ترى أية حشوة سنٌ! وغوريإيف! كان يررق لي كثيراً! حتى تلك اللحظة التي التقينا فيها بينما كنت ذاهبة إلى بابا. كان يجلس ويتذكر دوره في العيادة! شحب لونه بمجرد أن رأني! ممّ يعاني، يا تُرى - من داء الزهرى؟ أم السيلان؟ وهذا هو الغرام بأكمله! أدرك أننى أجيد إثارة الإعجاب بي عند الآخرين. وأنا أشعر باستمرار تلك النظرات الشهوانية واللثيمه على جسدي.

ولكن هل هذا ما أريد يا تُرى؟

أتحب ليلًا وأموت من القهر، ولكنني أستيقظ صباحًا وأنا جريئة وقوية.

ومن جديد ليل وخوف. لا يجب أن أبقى وحيدة. لعلَّ الحزن والوحشة يبدأن بخنقني فجأة، ورغبة كبيرة بالحب، بالملاظفة وبالاهتمام - لدرجة أنه يُخيّل لي أنني سوف أذهب مع أول شخص ألتقيه ويدعوني بطريقة رقيقة! يتراءى لي أليوشَا أحيانًا في الحلم، نادرًا جدًا. وأنني تلميذة من جديد، وأنه لدى ذلك الحب. هذه هي أجمل وأرق وأنقى أحلامي. ثم أبدأ بالسير مثل المنومة وقد تمَّ انتزاعي من الحياة. أشعرُ بالقرف تجاه جميع الرجال، بغض النظر عمن يكون إلى جانبي. لا بدَّ أنَّ هذا نوع من المرض. مرض الحب المقطوع بالموت. وهكذا سابقني، على الأرجح، مريضَةً بأليوشَا طيلة حياتي.

وهناك أيضًا بافل!

كم هو جميل أنَّ أليوشَا لا يرى ذلك.

وماذا لو أنه كان يرى؟

12 آب عام 1919. الإثنين

سوف يعود بافل في الأسبوع القادم.

عندما أفكَّر به أشعر بانقباض في القلب من جراء إحساس بذنب ما غامض وغريب، إحساس بحزن وبالوحدة وبالضجر، أحاسيس لا أستطيع أن أصفها وأن أفسِّرها.

كيف يمكنني أن أشفيه من هذا الحب غير الضروري وغير المناسب؟ هراء! لا يوجد حبٌ غير مناسب وغير ضروري. ولكن ماذا يجب عليَّ أن أفعل؟ فأنا أتمنى له السعادة ولكني أعتذبه.

وما الذي يجعلني أعتذبه؟ لأنني أنا ذاتي أشعر بالسوء.

يُخيّل لي في بعض الأحيان أن بافل هو الصديق الأكثر قربًا مني. بحيث أتمنى أن أضممه وأن أختبئ عنده على صدره. وفي أحيان أخرى، يبدو لي العكس، أشعر أنَّ الأمر ليس كذلك، وأنه شخص غريب عنِّي وغير مفهوم بالنسبة لي.

تقول ماما: «ما بك تعذبين بافل - اخرجي من حياته!». لقد طلب يدي على الطريقة القديمة - جاء إلى أبي ثم تحدث مع ماما، كما لو أنهما هما اللذان يقرران مصيرِي وليس أنا.

الزواج! من الضروري أن أتزوج أحداً ما. هل هذا ضروري؟ ولماذا ضروري؟

لقد أذهلني عشقه لي. لدرجة أنني فقدت صوابي من الدهشة. الحبُّ مُعِدٌ. ما أعرفه هو أنني سوف أحبُّ شخصاً واحداً، ولكن ذلك الشخص لن يكون زوجي!

إلى متى يمكنني الصبر وتحمل ذلك؟ ماذا سيحدث لي إذا ما افترقنا؟  
كم أشعر بالضيق، وبالفراغ في داخلي بسبب هذه الأفكار.

وماذا إذا كان لا؟ إذا لم أكن أحبُّه؟ لماذا أتمسك به، إذن؟ بل لا أتمسك فقط - بل أتشبّث به بأظافري وبأمساني أيضاً!

سوف أكون قوية. سوف أكون لا مبالية. سوف أقول له ما يلي: أنا أحبُك كثيراً، يا بافل، ولكن الحبُّ ليس كلَّ شيء بعد.  
لا، ليس هكذا.

يجب أن أقول له بصراحة: لا يعجبك أنني أريد أن أغنى وأن أكون في مركز الاهتمام، أنَّ كثيرين مسحورون بي ويعاملونني، أنه لدى متابعون ومعجبون، وهذا أمر حتمي طالما أنَّ المرء يظهر على المسرح. وإلا ما هو المغزى من المسرح؟ المغزى هو أن تمنع محبتك لكتيرين بدلاً من شخص واحد، وأن تجعل العالم بأكمله يُغَرِّم بك! وهذا يسبب الألم لك! الأدق، هذا يمس غرورك، ولكنه يلامس أكثر إحساسك بالتملك. بلى، أنا أشعر بالرضا وبالفرح لأنهم يهتمون بي ولأنهم يحبونني، وهذا هو الهدف من الحياة - أن يحبّك الناس! ومن الناحية الأخرى، بالعكس، هل من امرأة لا تشعر بالإهانة في حال لم يكتثر بها أحد؟ وهـا أنا أرغمتك أنْ تُغَرِّم بي! هل تدرك ما الذي حدث؟ جعلتك تعشقني، أما الآن فلم أعدْ أعرف ماذا يجب عليَّ أن أفعل مع حبك!

كلا، كلُّ هذا غير موفق. بل سأقول ما يلي. نحن مختلفان جداً. أنت إنسان رائع، يا بافل، كريم النفس، شجاع وقوى. ولكن روحك ثقيلة. يبدو لي أنك لا تعرف الضحك أبداً. أما أنا فشخص خفيف وسهل! أريد أن أُفرج وأن أضحك لكـلَّ شيء، لكـلَّ ما هو جميل في هذه الدنيا! هـا هو بابا أهداني

فستانًا حريرياً جديداً مع شرائط هولندية مخرمة حقيقة. وأنا أشعر بمعنة كبيرة عندما أرتديه على جسد عار! أما أنت، فهل تجيد الفرح في هذه الحياة؟ هل تذكر، يا باشا، أنك قلت: كيف يمكن للمرء أن يغنى وأن يفرح ويمرح في مثل هذا الوقت، حين تحيط بنا المعاناة والمصائب، والشروع من جميع الجهات. أما أنا فأؤمن بأنه في حال كان ثمة جمال وحب في الوقت غير المناسب، من الضروري عندئذ أن يكون المرء جميلاً عاشقاً نكاية بالزمن! سوف يسألني: «عمَّ تتحدثين؟» وكعادته لن يفهمني.

أنت لا تكترث سوى بنفسك! خذ هذه اللوحة مثلاً، يا بافل. من المهم جداً عندما تريد أن تكون على مرأى من الجميع، أن تظهر على المسرح، وأن تلتقط لك صور جميلة. لقد انتظرت طويلاً بأنك ستقوم بتصويري، وأنك ستصنع لي لوحة جميلة، وهذا أمر يعنيني ومهم بالنسبة لي! أما أنت فلم يخطر على بالك إلى أن طلبت منك ذلك. رحت تعذر، وتلوم نفسك وتقول إنك غبي. ثم فعلت ذلك ولكن لم تكن الصورة ناجحة. ولكن لا وقت لديك لكي تلتقط لي صورة من جديد. وأنا لن أعود وأطلب منك ذلك. لديك أشياء أكثر أهمية مني. وأما أنا فقد بقيت من دون صورة جميلة وناجحة.

لا، لن أقول له شيئاً بخصوص الصورة. بل يجب أن أقول ببساطة ومن دون شرح زائد - لأنه بجميع الأحوال لن يفهمني: إذا قبلت بالزواج منك، فسوف تكون هذه غلطة قاتلة لكلينا.

هل سأكون قادرة أن أقول له كل ذلك؟ لا أعرف.

أنا أقدره وأحسن معاملته، كما أبني أشعر بالشفقة نحوه. تؤسفني مشاعره تجاهي. عندئذ سوف يصبح ضعيفاً ومشيناً للشفقة في الحب، وهو الشجاع والقوى. وسيكون غيوراً. وحساساً سريع الغضب. الحب والشفقة - قطبان مختلفان. وهذا يعني أنني لا أحبه نهائياً.

لماذا لا أفاتحه بالموضوع؟ لأنني أدرك أن هذا سوف يؤذني مشاعره. من السهل أن تمنع الحب - ولكن من الصعب أن تتزعزعه.

كل القضية، يا بافل، هو أنك بحاجة إلى زوجة تبني لك بيتك مريحاً ودافئاً. وأنا أيضاً بحاجة ماسة إلى ذلك، وأريد أن أمنع ذلك لشخص ما! بيد أنه

إلى جانب ذلك، لدىّ أمر آخر في حياتي، من دونه يفقد البيت وأي شيء آخر في الحياة مغزاه بالنسبة لي! لا يمكنني أن أتخيل حياتي من دون غناء ومن دون مسرح. لقد اخترتُ هذا الشعور المذهل الذي يستحيل التعبير عنه بالكلمات. لقد جربتُ أن أشرح لك تلك المشاعر ولكنك اعتبرتها بمحنتها الساخرة نوعاً من النشوء المسرحيّة! أنت بكل بساطة غير قادر أن تفهم أن تلك اللحظات التي يشعر خلالها الشخص بأنه يمتلك العالم بأسره، عندما لا أعود أنا التي أغنى، بل ثمة شخص آخر يغنى من خلالي! وأنا بحاجة لأن أختبر ذلك الإحساس مرة بعد أخرى. وإلا فلن أكون قادرة أن أحيا! ولذلك يفترض بي أن أكون مستعدة للمزيد والمزيد من التضحية.

هراء. لن أستطيع أن أقول له شيئاً! كل ما سأقوله هو: أنت قادر، يا بافل، أن تمنع السعادة للمرأة. ولكن ليس لامرأة مثلّي.

13 آب عام 1919. الثلاثاء.

باشا، يا حبيبي، يا ملاكي، اعذرني على حماقائي هذه، فأنا أحبك كثيراً كثيراً! فقط عذ بأقصى سرعة!

14 آب عام 1919. الأربعاء.

التقيت بجو جو. لديها الآن قصة غرامية مع رجل إنكليزي من العاملين في الإرسالية. «إنه شخص غير عادي!» لم تعد تتذكر حبيبها وولف. وهو أيضاً كان «غير عادي ولا مثيل له!». ما يثير الدهشة أنه لم يعد أحد يتذكر الألمان الآن! كما لو أن الجميع اتفقوا معًا ونسوا أمرهم. كما لو أنه لم يكن ثمة شيء معهم البطة. الذاكرة تمحو كل ما هو معيب بطريقة حماسية! حاربناهم - حاربناهم، ولكن بمجرد أن ظهر الجنود الألمان في شوارع روستوف - لم يعودوا أعداء، بل كانوا أن يتحولوا إلى محاربين! وكيف انقلب كل شيء بلمع البصر! قبل مدة قصيرة فقط كان الناس يحاولون الظهور بشباب فقيرة، أن يكونوا منسيين وألا يلفتوا النظر، وإذا بهم بين عشية وضحاها يخرجون أجمل وأفضل ما لديهم - ثياباً من حرير، ومجوهرات، كما أن السيدات أول ما فعلته هو آتنهن لبس القبعات! والرجال - ربطة العنق، والقمصان

المنشأة، والجرائم<sup>(١)</sup>. كما راحت واجهات المحلات تتلاًّل بشكل مفاجئ، وظهرت خلفها السلع والبضائع، بما في ذلك منتجات مستوردة من المناطق المستعمرة، وأقمصة وأحذية وساعات! وكل هذا بعد ثلات موجات من التفتيش والمصادرات! ومن أين جاء كل ذلك؟ قبل بعض الوقت فقط كان الجميع يبحثون عن لقمة العيش - فجأة راح الطعام يطارد المحافظ النقدية. منع الألمان تجارة البذور وتقشيرها - فاختفت البذور، في حين أنها كانت تباع بمتنهى الحرية قبل ذلك! كان من المعيب أن يرى المرء كيف أنَّ الجميع راحوا يهملون للألمان ببساطة! فجأة حل الاستقرار والنظام، وفجأة ظهر عمال النظافة من عالم الغيب وراحوا يكنسون الشوارع والأرصفة، التي مضى زمن طويل لم تعرف فيه النظافة. اختفت نهائياً السرقات وأعمال القتل والتفتيش والمصادرة. كم من المعيب والمهين أن يكون الألمان وحدهم القادرين على منح الانضباط والتحرر للروس!

لا أستطيع حتى الآن أن أفهم كيف يمكن أن يحصل ذلك: حاربنا الألمان من أجل إقامة النظام والرفاهية في بلادنا، ولكننا لم نتمكن من الحصول على ذلك إلا بعد أن انتصر الألمان علينا. وماذا حدث مع النقل بالقطارات! قاموا بسرعة البرق بتقسيم العربات ومحطات القطار إلى درجات، وراحت القطارات تتحرك وفق برنامج زمني دقيق، بحيث إن الانضباط عاد كما كان قبل الثورة! وظهرت فجأة عند المفارق أعمدة مع أسهم إشارة للاتجاهات والمسافات بصورة دقيقة تماماً - الطريق إلى المحطة، وإلى المدينة، وإلى مقر الحاكم العسكري - وفي الدقائق وحسب «10 دقائق مشياً على الأقدام». كما استأنفت شبكة الهاتف في المدينة عملها فوراً، وأعادوا الكهرباء، بحيث لم يعد ثمة حاجة للجلوس في الليالي على ضوء الشموع لساعات. كان مثيراً للدهشة ذلك الاستعداد لتقبل النظام والانضباط بفرح عارم من قبل الجميع - الانضباط الألماني، وفي ظل العلم الألماني الذي راح يرفرف فوق المدينة - في حين أنهم لم يكونوا قادرين على فعل أي شيء من تلقاء

---

-1 - قطعة من القماش تلبس فوق الحذاء وتغطي القدمين من الكعب وحتى أعلى الكاحل أو أعلى الساق. المترجم

أنفسهم! وكم كان الجميع فرحين لأنها راحت تصدق في الحفلات موسيقى ألمانية لفاغنر مضى زمن طويل من دون أن تُعرَف! بيدَ أنَّ الأمر مع فاغنر يمكن فهمه. ولكن كيف يمكن فهم وتفسير كل ما عدا ذلك؟

بدأ الضباط الألمان يزورون بابا من أجل العلاج. أتذَكَّرُ كيف أنه قال لي بنبرة مريضة: روسيا ليست دولة عظيمة على الإطلاق، وإنما بكل بساطة بلاد العبيد الواسعة، وأنه يجب أن تكون مستعمرة ألمانية، وأنه في حال غادر الألمان، سوف نذبح بعضنا بعضاً هنا.

وها هم الألمان لم يعودوا موجودين.

15 آب عام 1919. الخميس. عيد الرقاد

أصبح الجميع متوجهين.

شاهدتُ اليوم كيف أنهم قاموا بشنق شخص، وقالوا إنه يدعى أفالانسييف، ناشط أحمر. في باحة محطة القطارات. كنت قد خرجتُ من أجل إحضار الكيروسين، وإذا بي أرى حشدًا كبيرًا من الناس. كانوا يقفون صامتين وقد التصقوا بعضهم البعض. راحت النساء تتنحِّي. جلبوه وهم يضربونه بأخمام البنداق على ظهره. يبلغ من العمر 25 سنة. قادوه إلى شجرة. حتى أنهم لم ينصبوا أية مشنقة. لماذا طالما أنه توجد أشجار؟ قام أحد الجنود بوضع الأشوطية في رقبته، ثم قدر الارتفاع ورمي العجل إلى غصن ثخين. لم ينجح من أول مرة. كرر الأمر بعض مرات. كان الشاب يقف وهو ينظر أمامه بعينين مفتوحتين على اتساعهما. كان ينوي أن يصبح بكلام ما ولكن الوقت لم يسعفه.

عدتُ إلى البيت شبه ميتة. ففتحتُ كتاب نيكيتينا. «تطير الغيوم، ويهطل المطر، وثمة صوت للزجاج. تساقط قطرات بسرعة، بنفس هذه الطريقة، تمضي الحياة». يا إلهي، ما هذا الهراء! « قطرات الندى أو يقات الفجر». «إلى الفتنة إيزابيل». رميته في الزاوية.

لماذا إيزابيل؟ وأية إيزابيل أنا؟ كما لو أنَّ الجميع يتتكلّفون ويريدون أن يظهروا بمظهر الشخص المهم. أمر مقرف. وأنا هكذا أيضًا. لن أذهب بعد اليوم إليهم.

أفگر طوال الوقت ببافل. كيف هو؟ أين هو؟ أخاف عليه كثيراً. لا أستطيع أن أصبر أكثر.

### 16 آب عام 1919. يوم الجمعة

جاءت موسيا لزيارتي. ومن جديد راحت تت控股. «ماذا هناك؟ هل انتحر؟» - «لا». «لماذا تبكين بقوة، إذن؟» - «لم يعد يحبني!» - «هذا شيء حسن!» - «ولكني أنا أصبحت مغفرة به!».

### 17 آب عام 1919. السبت

عاد بافل. الحمد لله، سليمًا ومعافي. جاء للحظة فقط وقال إنّ قوات برایدوف التطوعية سوف تسيطر اليوم أو غداً على مدينة كيف. ركض إلى مختبره. نحيلًا وغير حليق الذقن، في معطف متتسخ مع بقع صفراء اللون من السماد العضوي.

أكمل الكتابة مساء. كنت الآن عنده. كان مظهره سيئاً ومتعباً. مرة أخرى رأى الكثير من الفظائع. أخبرني كيف أنه اجتاز برفقة جنود المدفعية الساحة حيث كانت تدور معركة، وأنه كان هناك عدد كبير من الجثث. كان من الصعب تمرير المدفع من دون أن تهرس شخصاً ما: راح الجنود الحمر يفرّون أو يستسلمون، ولكن القوزاق قاموا بمذبحة. سعى أولئك الذين كانوا يركبون عربات لأن يمرروا بالعجلات فوق الرؤوس، فكان الرأس يتهشم تحت العجلة مثل بطيخة. راح بافل يشتمهم، أما هم فراحوا يقسمون بالرب أنهم مرروا مصادفة، ثم راحوا يقهقرون. هبط من العربة وابتعد عنهم كي لا يسمع صوت تهشم الجماجم تحت العجلات وقهقهة القوزاق. «كان بعض الموتى يتفضضون في الاختلالات. لعلهم كانوا ما زالوا أحياء. وهل تعرفين، ما الذي أدركته؟ لقد أدركت أنني أكره الجميع!».

كنا واقفين في جو أحمر نصف معتم. كان يقوم بتمدید محاليله، أما أنا فرحت أمسح على ظهره، وعلى رأسه. خيل لي أن لديه حرارة مرتفعة. شعرت بالخوف - وماذا لو كان فجأة تيفوئيد؟ راح يهدئ من روعي أن ذلك مجرد نزلة برد عادي. بيَدَ أننيأشعر بالقلق. مرة أخرى لم أقل له شيئاً.

amp;ضي هذا اليوم بأكمله في «سوليه». عدت إلى البيت مرهقة ومتعبة مثل كلب. أريد أن أكتب بعض الكلمات فقط.

قمنا مع تورشين بتمثيل العرض الرابع في فترة الاستراحة، ثم خرجنا إلى الفناء لكي نتنشق الهواء، وفجأة تظهر - من؟ معلمتي نينا نيكولايفنا! كانت بحالة حنق شديد مثل روح منتقمة. علمًا أني لم أرها في الصالة. راحت تقول بنبرة غاضبة: «ما هذا الذي قمت بتمثيله؟» - «كيف ماذا؟» «دون جوان الجائع». تلميذ يعترف بالحب لمحبوبته، ولكنه يفكّر بالطعام». وإذا بنينا نيكولايفنا تنفجر هنا: «لا، لم يكن هذا ما قمت بتمثيله! لم أر سوى أنك تشعرين بأنّ الجوًّا حار وخانق وكيف أنك تريدين تقديم ما يجب عليك فيما كان وبسرعة وأن تذهبى!». رحت أتوسل إليها: «ولكن هذا هو العرض الرابع خلال اليوم، يا نينا نيكولايفنا!». هاجمتني: «وما علاقة المشاهد بذلك؟ فأنت لا تسألين الحلاق في صالون التجميل عن عدد السيدات اللاتي قام اليوم بخدمتهن!». قامت بتدرينا على المشهد بالكامل من جديد، وبعد ذلك فقط سمحت لنا بتقديم العرض الخامس.

ها هي بطاقة أخرى لم أقم بإرسالها.

إنها مثل تلك البطاقة التي يلوذون بها أثناء هطول المطر، كما لو من خلال نافذة، أو في مراكب لصيد السمك.

كان ثمة بيت يقوم على شاطئ ميناء صغير في مدينة ماسا لوبرينسيه. وكان يمكن رؤية جزيرة كابري إلى اليسار منه، في حال كان الطقس صحواً. في ذلك اليوم لم تكن ثمة منذ الصباح لا جزيرة كابري ولا جبل فيزوف، ولذلك لم يبق لنا أن نفعل سوى أن نتسكع تحت المظلة أو أن نقرأ. خرجت إيزولدا لكي تنزله مع ابنها، أما المترجم فقام بنقل رزمتين من الكتب في أكياس ورقية من شركة «ميغرو» التجارية، كانت في صندوق السيارة وقد كان استعارها قبل سفره في مكتبة الندوة السلافية.

كان واضحاً من خلال نافذة المطبخ كيف أن المرأة والطفل على رصيف الشاطئ يبدوان صغيري الحجم وكم هي ضخمة مخالب الموج.

قام المترجم بمسح الخدوش عن غلاف الكتاب العلوي الذي تبين أنه يتحدث عن حياة القديسين الروس، ثم راح يتصرفه. وقع على سيرة حياة أنطونи الروماني<sup>(1)</sup> فأعجبته قصة هذا الإيطالي الذي تحول إلى قديس صاحب معجزات في نوفغورود.

«ولد المبجل عام 1067 في روما في عائلة ثرية وتلقى تربية ورعة. حُرم والده وأمه في سنٌّ باكرة، فقام بتوزيع كامل الثروة التي ورثها على الفقراء، ثم بدأ حياته متشرداً وذلك في سبيل البحث عن حياة صالحة، لكنه كان يصطدم في كل مكان بالكذب وبالفسق وبالظلم وغياب العدل. بحث عن المحبة ولكنه لم يعثر عليها».

أصبح كل من المرأة والطفل أصغر حجماً، بحجم قطرة ماء على زجاج النافذة.

«وفي يوم من الأيام كان مستلقياً على الأرض، وسط الأزهار، وراح يراقب كيف أن الصليب الأبيض على أزهار البيتوانيا<sup>(2)</sup> يدعو رتلاً من النمل بأن يقتحم عاصمة النمل أورشليم. تردد صدى ساعة تدق، فانتفض أنطونи - لقد انقضى نصف حياته. بهذه الطريقة يمكن للرب أن يتكشف ويتجلى في شيء ما أو في حشرة حقيرة، أو في صوت جرس - مثل العليب في القشدة. وهكذا، وإذا شعر باليأس وبالمرارة يملآن قلبه - تابع مؤلف كتاب «السيرة» - غادر أنطوني المدينة. راح يمشي من دون أن يلتفت، مواصلاً ليله بنهاره، إلى أن وصل إلى شاطئ البحر. لم يكن بوسعه أن يتبع سيره، فصعد إلى صخرة تعلو فوق سطح الماء. ظلَّ واقفاً على تلك الصخرة خلال النهار بأكمله، مدیراً ظهره إلى المدينة التي رحل عنها ومحدقاً إلى مياه البحر. ثم حلَّ الليل، ولكنه لم ييرح مكانه على الصخرة ولم يلتفت. وهكذا

1- قدِيس في الكنيسة الأرثوذكسيَّة 1067-1147. مؤسس دير أنطوني في مدينة نوفغورود.. ولد في روما. وأصبح راهباً أرثوذكسيَاً هناك. بعد أن بدأ اضطهاد المؤمنين الأرثوذكس الشرقيين، غادر المدينة وأقام مترلاً على شاطئ البحر. ذات مرة، عندما كان واقعاً على حجر وهو يصلي، بدأت عاصفة ورفعت الحجر فنقلته عبر البحر إلى مدينة نوفغورود. المترجم الببغية أو البيتوانيا جنس نباتي يتبع الفصيلة الباذنجانية، من نباتات الزينة المهمة. اكتسب اسمها نظراً لقربتها الوثيقة بنبات التبغ. المترجم

بقي واقفاً على مدى نهار آخر وليل آخر. ثم مضى أسبوع وهو على هذه الحال. ثم أسبوعان. وشهر. وعندئذ انفصلت الصخرة فجأة عن الشاطئ وراحت تسبح».

لاحقاً راحت الأسطورة تقول إنَّ التيار حمل الصخرة مع أنطونи ودار بها حول أوروبا لتضعها على شاطئ نهر فولخوف<sup>(1)</sup> تماماً. فيما بعد اكتسبت حياته، على وجه الخصوص، طابعاً عادياً تماماً مع معجزات تتعلق بمعالجة المرضي وبالرفات الخالد غير القابل للفناء، والذي اختفى مع التابوت الفضي في عام 1933. لم يبقَ سوى غصن من نبات السُّعادَى<sup>(2)</sup> الذي أبحر أنطوني من روما وهو يحمله بيده.

ثم عادت إيزولدا وقالت إنها سوف تغادر هي وابنها في يوم غد، لأنَّ الحياة على هذا النحو باتت مستحبة.

كانت إيزولدا قد جاءت مع المترجم إلى ذلك المكان بالتحديد في محاولة منها لإنقاذ أسرتهما.

بيدَ أنَّ الأدق هو أنَّ الأسرة كانت قد انتهت. فقط كانا يعيشان في شقة واحدة ويصبحان فظلين مع بعضهما. راحت إيزولدا تضع الصبي كل ليلة لينام بينهما. هكذا كانت تفعل والدة المترجم يوماً ما عندما كانت تأخذه معها ليناماً على الأريكة في منزلهم في شارع ستاروكانيوشني، بحيث إنَّ الطفل الذي كان يفترض به أن يوحَّد ويجمع، يقوم بدور الحاجز والجدار والحد الفاصل.

قررَا أنْ يأتيا إلى هذا المكان تحديداً، أي إلى ماسَا لوبرينسيه، لأنَّهما كانوا قد أمضيا هنا ذات مرَّة عطلتهما قبل بضع سنوات من هطول هذا المطر. كان كُلُّ شيء عندئذ مختلفاً. كان يمكن رؤية جزيرة كابري كـَل يوم في الجهة اليسرى، وجبل فيزوف في الجهة اليمنى. كما كانت مراكب صيادي السمك تظهر من خلال نافذة غرفة النوم. كان الصيادون يخرجون كل ليلة

-1- نهر كبير في الشمال الغربي من الجزء الأوروبي من روسيا، في منطقة نوفغورود ولينينغراد. المترجم

-2- أو النمس - نبات من الفصيلة السعدية. المترجم

إلى البحر للصيد ليعودوا في الصباح وهم يحملون لهما السمك الطازج و«فواكه البحر»، فروتّي دي ماري<sup>(1)</sup>، التي كانت تسبب الخوف لدى الصبي لأنها حية وتحرك.

راح البحر يتقلقل عند الأفق، كما لو أنه معلق على جبل غسيل.

كانت تهطل أحياناً زخات قصيرة ودافئة من المطر، ليصبح كل شيء بعدها لامعاً ويصدر أبخرة. ذات مرة راح الصبي يلعب في مشتل أزهار بات رطباً بعد هطول المطر، ثم قال فجأة أن ديدان الأرض عبارة عن أمعاء الأرض.

كانوا يسبحون كل يوم. وفي بعض الأحيان كان الموج يحمل إلى الشاطئ مختلف القاذورات والوحش، كما كانت هناك كمية كبيرة من الطحالب وقشور البطيخ، ولكن إذا ما ابتعدوا عن الشاطئ فقد كان الأمر يصبح مختلفاً - هناك كانت نقاوة في الماء وفي السماء، كما كان يمكن رؤية كيف أنَّ الرياح تخلط كروم العنب وكيف كانت تلمع جوزة البلوط الذهبية قرب الكنيسة.

كان المترجم مع إيزولدا يتناولان العشاء كل يوم في مطعم على الشاطئ، حيث كان الطفل يبلغ السباغيتي الطويلة. كان يتعب أثناء النهار، لدرجة أنه كان يبلغ السباغيتي وهو في العربة المخصصة للأطفال التي كانت إدارة المطعم تضعها قرب الطاولة، وهذا ما كان يسمح لهما بأن يجلسا لمدة طويلة وهما يشربان نبيذ «لاكريما كريستي» من العنب الذي يتم جمعه من سفوح جبل فيزوف، وهما يسمعان في الوقت نفسه شخير ابنهما وطبعية الأمواج. كانت لديهما شجرتهما الخاصة، شجرة دلب، فكانا يمسحان بأصابعهما على قشرة جذعها الأملس وذلك قبل أن يذهبا للنوم - كان الهواء يصبح منعشًا، في حين أن جذع شجرة الدلب كان يبقى دافئاً.

كانت تُرى ليلاً في ناحية نابولي أضواء خلف البحر، بحيث إنها كانت تبدو وراء سطح الماء الأسود أشبه بعشَّ صخم لجباحب الليل وهي ترفرف.

---

-1 - frutti di mare - مأكولات بحرية (إيطالية).. وردت العبارة في النص الأصلي بأحرف روسية. فاقتضى التنويم. المترجم

كانت النجوم تبدو هائلة، ذات زوايا، وغير مستوية في محيطها، مثل طحين خشن.

لم يكن مناسباً، على الأرجح، أن يأتي المترجم مع إيزولدا مرة أخرى إلى ماسّا لوبرينسيه بالتحديد.

لقد قررا، كما عبرت إيزولدا، أن يمنحا أسرتهما آخر فرصة. وقد كان واضحًا منذ البداية أنَّ كل ذلك مجرد عبث: فقد تشايرا من جديد - بسبب النافذة المفتوحة - ومنذ أن كانوا في النفق قبل جبال غوتاهارد بـاس، ليتابعَا سفرهما صامتين.

وفي الليل راحا يتناقشان حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل: حول نفس الموضوع، مع كلمات لا معنى لها ولا حاجة لأحد بها، بعد ذلك حاول المترجم أن ينام في غرفة المطبخ على أريكة غير مريحة، وقد غطى رأسه بالوسادة، وذلك لكي لا يسمع نعيب إيزولدا.

وفي الصباح لم يكن لديهما طاقة للحديث والنقاش. شعر الطفل بأنَّ عالمَه ينهار، فجلس في إحدى الزوايا بهدوء، التزم الصمت وراح يرسم شيئاً ما. اندلق الماء من العلبة فراح يدهن ياصبه المحلول العكر على الورقة المبللة والمنكمشة.

بعد يوم غد ذهبت إيزولدا معه لكي يتزها، بينما راح المترجم يقرأ عن القدرات العلاجية الخارقة وعن الرفات الخالد للقديسين.

وها قد عادا من الشاطئ. قام ابن بتشغيل التلفاز وراح يشاهد أفلام كرتون، أما إيزولدا فقالت إنها سوف تغادر غداً مع ابنها لأن الحياة بهذه الطريقة باتت مستحبة ولا تطاق، وأنها ترجو المترجم أن يرحل الآن إلى أي مكان، لأنها لم تعد قادرة على العيش معه في بيت واحد وتحت سقف واحد. أجاب المترجم حسناً، بالفعل لا يمكن العيش على هذا النحو، ولذلك سوف يرحلون جميعاً في صباح يوم غد، وأنه هو أيضاً لم يعد قادرًا أن يبقى معها في بيت واحد. في هذه اللحظة راح الطفل الذي كان جالساً في الكرسي أمام التلفزيون، يتحبب بصوت خافت. أراد المترجم أن يضيّف قائلاً لإيزولدا، إنه سبق لهما أن اتفقا ألا يتحدثا أكثر بحضور الطفل، ولكنه أحجم عن ذلك،

لأنه لم يجد أي معنى لذلك. وكيف لا يقول أي شيء زائد، خرج بسرعة إلى الشارع وبدل قصارى جهده لكي يغلق الباب خلفه ببطء وبهدوء.

لم يكن المترجم يعرف إلى أين يذهب، إذ كان ثمة مطر ناعم يهطل تارة وتارة يتوقف. كان الناس ينظرون إليه من نوافذ البيوت، فظهرت لديه رغبة بأن يجد نفسه في مكان ليس فيه أحد ولا يمكن أن يكون فيه أحد.

كانت الأمواج المتكسرة تمضي على سطح البحر، وأما السماء المنخفضة فقد كانت متلبدة ببقع غائمة، كما لو أن أحداً قام بمسح الغيوم باصبعه.

وصل المترجم إلى كنيسة صغيرة، وهناك ركب سيارة وذهب باتجاه سورينتو. هناك، في منتصف الطريق، مكان من الجبال يدخل بعيداً في البحر، بحيث إنه يمكن التنزه فيه. وفي مثل طقس كهذا يجب ألا يكون ثمة أي إنسان.

كان يجب عليه أن يجتاز إحدى القرى. كانت أبواب البيوت في بعض الأحيان تطل على الشارع مباشرة، فما كان من المترجم إلا أنه راح يطعن وينظر كيف يعيش الإيطاليون - من دون بهو أو موزع في البيت، بل كانت حياة الأسرة تبدأ خلف الباب مباشرة. ها هي عجوز تجلس وتراقب السيارة العابرة وقد ارتدت ملابس سوداء، مع يدين فظيعتين متشققتين بسبب العمل، ومن خلفها تتلاشأ شاشة تلفاز. كانت تسمع من خلال النوافذ المفتوحة أصوات أطفال. وكان ثمة رجل أسمرا قصير القامة يرتدي قميصاً نصف كم أبيض اللون، وفي سروال رياضي يجتاز الشارع بشحاطته وهو يحمل طنجرة يخرج منها بخار تحت المطر.

كانت أسرة واحدة وربما أكثر في كل منزل. وكيف يمكنهم جميعاً أن يعيشوا معاً؟

بيد أنهم غير قادرين ولا بأي شكل! إذ إن ثمة شخصاً ما خلف كل نافذة قال أو سيقول عاجلاً أو آجلاً لصديقه: لم يعد ممكناً الاستمرار بالعيش على هذا النحو، يجب علينا أن نفترق، لأنني لم أعد قادراً أن أحيا معك تحت سقف واحد. ولا بد أن الآخر أجاب أو سوف يجيب: حسناً، بالفعل، لم تعد الحياة ممكنة بهذا الشكل. وسوف يتکور بالقرب منهما طفلهما الصغير،

بحيث إنه يريد أن يصبح صغيراً تماماً، أصمّ أبكم، كي لا يرى ولا يسمع،  
كما لو أنه وسادة.

عندما هبط المترجم في طريق مبللة وزلقة، ومحفورة في الصخر في بعض الأماكن، باتجاه البحر، رأى أن ثمة شخصاً يقف عند تكسر الموجة تماماً. تبيّن أنها امرأة قصيرة القامة وبدينة تلبس معطفاً مطرياً زهري اللون ولها قبعة. التفت بطريقة تنمُّ عن عدم السرور، لأنها كانت تريد كما يبدو أن تبقى هنا وحيدة، ولكن شخصاً ما أزعجها.

بداله وجهها معروفاً.

(١) – Bouna sera! – قال لها المترجم

لم ترد التحية وأدارت له ظهرها.

تسكع المترجم على الصخور ولكن المرأة لم تبرح مكانها، بل بقيت هيئتها الزهرية اللون والخرقاء تبرز وسط البحر وراحت تزعم النظر بإلحاد. كان بإمكانها أن تجيب بإيماءة من رأسها على الأقل.

جئت إلى هنا لكي أهدأ، وإذا بأحدهم لا يسمح لك بأن تحظى بالراحة وبالاسترخاء!

عندئذ قرر المترجم أنه ليس هو الذي يسبّب الإزعاج لها، بل على العكس – هي التي تزعجه، وقال في نفسه إنه سوف يبقى واقفاً هنا من منطلق المبدأ، إلى أن تغادر المكان هذه المرأة في المعطف الزهري.

وقف مستنداً إلى الصخرة بطريقة لا تسمح للريح أن تهبّ عليه، وراح يتساءل بمن تذكره تلك المرأة. فقد سبق أن حدث معه أنه كان يلتقي في بلدان مختلفة بنظراء لأصدقائه من موسكو. أي أنّ ثمة مثل ذلك النظير الذي يحيا في هذا العالم الموازي. وأنّ المترجم بالذات يتسع الآن في مدن مختلفة من العالم.

أحسَّ بانسداد في أذنيه بسبب الريح وصخب الأمواج المتكسرة. بدأ الظلام يسدل ستاره.

فجأة أدرك المترجم بمن تذكرة تلك المرأة في المعطف الزهري. لقد مضت سنوات كثيرة. ولذلك لم يعرفها فوراً.

كانت تشبه تلك الفتاة التي كانت تنام دوماً في وضعية معينة كما لو أنها تسبح إلى مكان ما زاحفة. كما أنَّ تلك الفتاة كانت تخجل من صدرها. كانت لديها رقعة من جلد الضفدع. كما لو أنه كان ينقصها جلد بشري فقاموا بترقيعها كيما كان بما وقعت عليه اليدين. الأميرة - الضفدع<sup>(١)</sup>.

حدث ذات يوم أنَّ تلك الفتاة قامت بقطع أوردتها بعد أن حبست نفسها في الحمام وقد بلعت كمية كبيرة من أقراص أدوية، وكان عمر كلِّ منها حينذاك تسع عشرة سنة. وعندما اتصلت بخدمة «الإسعاف» سأله: «ماذا هناك، هل من جديد الأميرة النائمة؟». لم يفهم لأنَّه لم يكن يعلم أنهم في خدمة «الإسعاف» هكذا يلقبون الفتيات اللواتي يبلغن عقاقير منومة بكميات كبيرة. قال الطبيب هازئاً وهو يقوم بتضمين رسغيها: «في المرة القادمة، وفي حال كنت تريدين بالفعل أن تنتحربي، اقطعي أوردتك بالطول وليس بالعرض». اضطررت لأنْ أمسح الأرضية في الحمام وفي الممر، حيث كانت بقع الدم تملأ المكان، فضلاً عن أنَّ الممرضين جلبوا معهم الوسخ، إذ كان الوقت موسم توحُّل الطرق الربيعي. ومن ثمَّ، بعد مرور سنوات كثيرة، قامت الأميرة - الضفدع، بقطع أوردتها بطريقة طولانية كما كان الأمر يتطلب.

راح الريح تشتد أكثر. ومن جديد هطل المطر. تبلل المترجم وراح يرتعش من البرد. هبط الليل بسرعة كبيرة، بلمع البصر، كما يمكن أن يحل الظلام بهذه السرعة في مناطق الجنوب فحسب. بقي المعطف المطري الزهري الآخر يلمع في الظلام على خلفية البحر وعلى نفس تلك الصخرة التي تتكسر عليها الأمواج.

في هذه اللحظة ظهرت رغبة كبيرة لدى المترجم بأنْ يعود إلى البيت بأقصى سرعة وأنْ يحكى ما شهدَه. عن الأميرة الضفدع، وكيف أنه وقف هناك وراح يراقب العاصفة التي بدأت للتو. وأنْ يلهم بعض الشيء بطريقة

1- حكاية شعبية روسية تحكي قصة أمير تزوج من ضفدع... فكانت عروسه تنجح في تنفيذ ما يطلبها منها الملك أكثر من زوجات أشقائه وذلك لأنَّها كانت ساحرة... الغ المترجم

ما مع ابنه. إذ كانوا قد أحضروا معهم مجموعة كاملة من الألعاب والتسالي.  
كان بأمس الحاجة إلى الدفء، وإلى الراحة والطمأنينة والبيت.

أراد أن يعود وأن يحتضن، وأن ينسى كل ما كان شيئاً. أن يناموا ليلاً وهم يضمون ويحضنون بعضهم بعضاً، وأن يصغوا إلى صوت العاصفة.

وفي الصباح سوف تشرق الشمس وترسل أشعتها، كما من قبل، وسوف يتأرجح البحر كما لو على حبل مشدود عند الأفق.

راح المترجم يصعد نحو الأعلى متسلقاً الدرب المبللة والزلقة والمحفورات في الصخر. حلَّ ظلام دامس تماماً بينما كان يصعد، ولكن المعطف المطري المتلائِي بقي بانتظار شيء ما.

كان في الطريق منعطف، فألقى المترجم آخر نظرة باتجاه البحر. وإذا بالصخرة مع البقعة الزهرية اللون تنفصل عن الشاطئ وتتنطلق في البحر.

17 أيلول 1924.

لقد مضى وقت طويل جداً من دون أن أكتب شيئاً في دفتر يومياتي، وإذا بي أتعثر على هذه المفكرة، غير الظرفية، ولكن الأمر بالنسبة لي سواء. أوَّدُ كثيراً، يا سيريوجا، أن أروي لك كل شيء! أنت تخشى رسائي. والأدق، أنت تقول إنك تخشى أن أفقدها. ليكن ذلك. ولذلك عندما نلتقي فإنك سوف تحصل على هذه المفكرة بدلاً من الرسائل.

إليكم ما حدث معي. شربت بعد انتهاء الحفل كأساً من الماء البارد جداً. مع آني أعرف تماماً أن هذا لا يجوز، بيد أنني فعلت ذلك مئات المرات من قبل - من دون أن يحدث لي أي شيء! أصابتني قشعريرة طوال الليل. وفي الصباح شعرت بالتهاب في البلعوم. أصابني كدر فظيع لأنني مرضت. بدأ زكام. لففت نفسي بشال وتناولت قرصاً من الأسبرين، ثم شربت كأساً من الشاي المصنوع من أزهار الزيزفون مع الليمون. تحست قليلاً. مسحت صدرني ببعض الدهن وبالفودكا. وبقيت ممددة في الفراش حتى المساء. جاء فانيا ديلازاري لكي نذهب إلى «يار». كان الطقس مشمساً، وكان فانيا يريد أن يعبر حتى الخط السابع. كانت المسافة قصيرة جداً في حال عبرنا الشارع الرئيسي الأوسط. ولكني كنت أشعر بالوهن في رجلي. وعندئذ فقط لاحظ

أن عندي أمراً ما غير سليم. ارتعب: «ربما من الأفضل لك ألا تغنى هذا اليوم؟ سوف نجد بديلاً عنك». أثار كلامه حنقـي! إنهم على أبهـة الاستعداد لكي يجدوا بديلاً عنـي! كـم هـم سـريعون وماهـرون في كلـ شيء! استبدالي؟ أنا؟ وبـمن، يا ثـرى؟ قـررت أنـي سوف أغـنـي بـغضـ النظر عنـ حـالـتي - معـ التـهـابـ لـوزـاتـ حـادـ، أوـ معـ خـرـاجـ فـيـ الـحـنـجـرـةـ، وـمـهـمـاـ كـانـتـ حـارـاتـيـ مـرـفـعـةـ. يـمـكـنـيـ أنـ أـقـومـ باـسـتـمـارـ بـتـبـدـيلـ النـبرـاتـ، وـأـنـ أـعـوـضـ الصـوتـ غـيرـ الرـنـانـ بـحـركـاتـ الـجـسـدـ وـالـوـجـهـ وـبـالـحـمـاسـ! وـفـيـ حـالـ لمـ أـغـنـ - فـسـوفـ أـمـثـلـ. اـسـتـأـجـرـناـ حـوـذـيـاـ وـسـافـرـنـاـ. قـمـتـ فـيـ غـرـفـةـ الـمـلـابـسـ بـتـقطـيـرـ نـقـطـةـ أـتـرـوـبـينـ وـاحـدـةـ فـيـ كـلـ عـيـنـ. وـإـذـ بـالـعـيـنـيـنـ تـصـبـحـانـ فـورـاـ رـائـعـتـينـ! رـائـعـتـينـ! شـعـرـتـ أـثـنـاءـ الـأـغـنـيـةـ الثـانـيـةـ بـأـنـيـ أـصـابـ بـالـقـشـعـرـيـةـ، وـبـدـأـتـ أـحـسـ بـالـصـخـبـ فـيـ رـأـسـيـ وـبـأـلمـ فـيـ الصـدـغـيـنـ، وـأـنـ الـأـمـرـ سـيـعـ بـمـاـ يـخـصـ الـحـنـجـرـةـ. اـنـتـهـيـتـ مـنـ الـغـنـاءـ بـطـرـيـقـةـ عـشـوـائـيـةـ، مـنـ دـوـنـ أـنـ أـبـصـرـ أـوـ أـسـمعـ شـيـئـاـ. وـحـدـهـاـ الدـمـوعـ كـانـتـ تـسـيلـ عـلـىـ خـدـيـ. وـهـذـاـ مـاـ تـرـكـ اـنـطـبـاعـاـ كـبـيـراـ عـنـ الـجـمـهـورـ. فـالـدـمـوعـ حـقـيقـيـةـ، وـقـدـ خـيـلـ لـهـمـ: كـمـ أـنـهـاـ تـمـثـلـ بـطـرـيـقـةـ سـاحـرـةـ وـمـذـهـلـةـ! لـمـ يـسـبـقـ لـيـ أـنـ سـمعـتـ مـثـلـ هـذـهـ الـعـاصـفـةـ مـنـ التـصـفـيـقـ. بـعـدـ أـنـ وـصـلـتـ إـلـىـ الـبـيـتـ قـمـتـ باـسـتـدـاعـ الـطـيـبـ. عـايـنـ مـطـوـلـاـ بـلـعـومـيـ وـأـذـنـيـ، ثـمـ أـخـذـ مـسـحـةـ مـنـ حـلـقـيـ. لـمـ يـعـدـ بـمـقـدـوريـ سـوـىـ أـنـ أـصـدرـ صـوـتاـ مـبـحـوـحـاـ: «ـوـمـاـذـاـ إـذـنـ؟ـ» أـمـاـ هـوـ: «ـهـلـ تـرـيـدـيـنـ الصـدـقـ؟ـ» شـعـرـتـ بـدـوـائـرـ سـوـدـاءـ أـمـامـ عـيـنـيـ. «ـأـعـتـقـدـ أـنـ الـأـمـرـ سـيـعـ، إـنـهـ التـهـابـ الـجـبـالـ الصـوـتـيـةـ.ـ قـلـتـ لـهـ هـامـسـةـ: «ـوـمـاـذـاـ يـجـبـ عـلـيـ أـنـ أـفـعـلـ؟ـ يـجـبـ عـلـيـ أـنـ أـغـنـيـ، لـدـيـ حـفـلاتـ!ـ». «ـيـجـبـ عـلـيـكـ أـنـ تـعـالـجـيـ لـاـنـ تـغـنـيـ.ـ حـتـىـ أـنـهـ لـاـ يـجـوزـ لـكـ أـنـ تـتـكـلـمـيـ، إـذـاـ كـنـتـ لـاـ تـنـوـيـنـ أـنـ تـفـقـدـيـ صـوـتـكـ نـهـائـيـاـ.ـ

هـذـاـ كـانـ مـسـاءـ. يـاـ لـهـ مـنـ يـوـمـ رـهـيـبـ!ـ وـالـلـيـلـ أـيـضاـ. جـلـسـتـ وـرـحـتـ أـنـتـبـ. لـدـرـجـةـ أـنـهـ لـمـ يـقـدـرـ لـدـيـ دـمـوعـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـمـطـافـ. اـسـتـلـقـيـتـ فـيـ الفـرـاشـ كـالـبـلـهـاءـ. مـحـطـمـةـ وـخـرـقاءـ، وـمـنـهـكـةـ. إـلـهـيـ، لـمـاـذـاـ عـاقـبـتـيـ بـهـذـهـ الـقـسـوـةـ؟ـ مـاـذـاـ اـرـتـكـبـتـ؟ـ لـمـاـذـاـ؟ـ عـلـامـ؟ـ

وـالـيـوـمـ جـاءـ الـجـمـيعـ لـزـيـارتـيـ - آـيـشـتـيـنـ وـفـانـيـاـ، ثـمـ جـاءـتـ كـلـافـاـ فـيـ وـقـتـ لـاـحـقـ، وـمـنـ بـعـدـهـاـ مـاـيـاـ. سـوـفـ تـغـنـيـ مـاـيـاـ بـدـلـاـ مـنـيـ. كـانـتـ أـكـثـرـ مـنـ الـجـمـيعـ

متقدّرة وحزينة لأجلني، ييدَ أنَّ حزنها كان مصطنعاً. إنه حزن مشوب بالفرح. لم تنجح في إخفاء سعادتها. قال يوسف إن بولياكوف سوف يساعدني من كلّ بد - إنه أشهر اختصاصي بأمراض البلعوم والحنجرة في بيروغراد. وقد سبق له أن أقذ سوبينوف. كما أنَّ جميع المشاهير يُعالجون عنده. أما آبيشتين - فهو لطيف جدًا! وقد قام بحجز دور لي عنده. هناك يجب حجز دور قبل أشهر - لأنَّ المطربين يهتمون بعلاج البلعوم عندهم أكثر من اهتمامهم بالطعام! وأما يوسف فقد قام بما يلزم لكي يستقبلك الطبيب في يوم الجمعة! هذا يعني بعد يوم غد.

غادر الجميع وبقيتُ وحدي. بل لم أكن وحيدة وإنما معك يا سيريوجا! كم أنا بحاجة إلى كلماتك ولسماع صوتك. كم أحتاج أن أسمعك تهمس لي بأنَّ كلَّ شيء سوف يكون على ما يرام. لا بدَّ أن يكون كلَّ شيء على ما يرام، أليس كذلك؟ وسوف يكون بإمكانني أن أغتنى من جديد، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

\*\*\*

أكتب ليلاً. حالي تزداد سوءاً. البلع صعب علىَّ، بحيث إنَّ بلع الهواء يجرح جدران الحنجرة لدرجة تجعلني أبكي. بدأ لدبي سعال.

أناأشعر بالسوء إلى أقصى درجة، يا سيريوجا، ولكنك بعيد! كم أريد أن أحضنك، وأن أتمدد محتضنة إليك من ركبتيك. أنا قادرة علىَّ كلَّ شيء، وأنا قوية جدًا، ييدَ أنني لا أقدر علىَّ ما هو أساسي، يا سيريوجا، لا أستطيع أن أحضر نفسي بنفسي، وأن أمسح علىَّ نفسي بنفسي. كم أتمنى لو أنك بجانبي، وأن أضمك وألتصق بك، أن أخبي رأسي تحت إبطك! لقد اشتقت كثيراً إلى رائحة جلدك وإلى شعرك.

في حين أنَّ البعض وحده هو الذي يعيّرني اهتمامي الآن. كم أنا سعيدة لأنك موجود في حياتي، وكم أنا تعسّة لأنك في حقيقة الأمر غير متوفّر وغير موجود لدىَ!

\*\*\*

العام 24 (عام 1924 - المترجم) - كما يؤكّد السحرّة وخبراء التنجيم  
- هو عام كوكب الزهرة، وأنا أشعر بذلك في نفسي. إنه عامنا أنا وإياك. كلّ  
شيء سوف يكون حسناً لدينا! ويجب أن يكون كلّ شيء على ما يرام!

\*\*\*

لن يكون ثمة أي شيء حسن!

نهضت في الصباح الباكر وأنا أشعر بالحقن من نفسي، ولأنني رحت  
ليلة أمس أشكو وأبكي مثل الأطفال. ولأنني سخيفة وضعيفة. يا للهستيرية  
العظيمة - التهاب بلعوم! الجميع يعانون من التهاب في البلعوم! لا داعي  
لأن أضيع الوقت! جلست إلى البيانو. يجب أن أعمل! رحت أقرأ النوتات،  
التي أرسلها لي فومين. إنه عبقرى بوريس! سوف يكون أمراً فظيعاً إذا ما  
نجحت تلك الغجرية في إغواهه! رحت أعمل من دون غناء. لا أستطيع أن  
أفتح فمي. وطوال الوقت حانقة على بلعومي: كلا، لا يمكن ولا يجب أن  
يحدث مثل هذا معنى! لا يجوز أن يحدث معنى!

ومن جديد أشعر بالخوف: هل يُعقل أنني لن أغتنى بعد اليوم على  
المسرح؟ تذكريت نينا ليتوفتسيفا صاحبة الحظ التعس. فقد تعرضت لنزلة  
برد، وتحول الزكام إلى التهاب في الأذن الوسطى، مما جعلهم يضطرون  
لثقب غشاء الطبيل كي يخرج القيح، ولكنهم قاموا بذلك بطريقة جرى  
معها تجربة الدم! هذا ما رواه لي بول، وهو من المعارف المقربين من آل  
كوتشاروف.

كم أنَّ الأمر بسيط! رشح بسيط - وإذا بالحياة بأكملها فاسدة ومعطلة.  
مرة أخرى رحت أنتحب مطولاً خلال النهار. شعرت بالأسى تجاه نفسي  
بحيث إنَّ دموعي راحت تسيل من تلقاء ذاتها.

وراح يتكرر عندي السؤال نفسه: إلهي، لماذا أنا؟ إذا كان هذا عقاباً لي  
- فعلام يا تُرى؟ هل يعقل أن يكون عقاباً لي بسببك، يا سيريوجا، بسبب  
حبّنا، يا تُرى؟

\*\*\*

ما زال يوم الجمعة بعيداً كأن الأبد يفصله عني.

\*\*\*

جاءت إلى كلafa وراحت تشكو لي إيفانوفسكي، الذي شاركت عنده في التصوير في المرحلة التجريبية في استديو سيفزابكينو. كان يجب عليها وفق المشهد أن تبكي. حاولت أن تتذكر شيئاً ما حزيناً. راحت دموعها تسرب غزيرة، فما كان من إيفانوفسكي إلا أن راح يصرخ عليها: «ليس هكذا! ليس هكذا!». وقد راح يستخدم كلمات «شوارع» معها، قائلاً إنها لا تعرف شيئاً البتة، وإنها ليست ممثلة بل شخصية تافهة! عندئذ راحت تتحب بسبب الإهانة، فراحوا يصوروها فوراً. لقد فعل ذلك عن عمد! أهانها عن قصد وعن سابق إدراك لكي يجعلها تبكي بشكل حقيقي. راحت أواسيها: «كلافوتشكا، يا عزيزتي، يا حبيبي، ولكنك تعرفين بنفسك أن جميع المخرجين أندال وختازير! وأن العمل معهم صعب جداً». وإذا بها تشعر بالإهانة بسبب تهجمي عليه فقالت: «أنت لا تفهمين شيئاً! إنه عقري!». واضح! هكذا هو دورها: الكثير من الدموع، وفي نهاية الأمر تغرق فيها، لكي يقوموا بإحضارها ملفوفة بحصيرة.

كما أنها روت لي شيئاً غريباً وهو أن الأفاعي تشعر بجنس الشريك في المشهد، لذلك تقوم الشعابين غير السامة - الذكور «بالاقتران» في رقصة فارسية مع الفنانات، أما الإناث - فمع الذكور. بالفعل، تلك في الإرميتاج، مثلت مع ذكر.

بدأ الطقس يسوء. أحدهم قال لـكلافا إنه سوف يحدث طوفان.

\*\*\*

استلقيتُ بعد الغداء - لأنني أمضيت ليلة مؤرقة. استغرقتُ في النوم لأستيقظ وأنا أتصبب عرقاً. حلمتُ بأنني أخرج إلى خشبة المسرح، وأنني تعرضت لتيار هواء بارد في رقبتي، بحيث إن قشعريرة أصابتني. كنت أغنى، بيده أنه كان يصدر عنِّي صوت أخش فحسب. قررتُ أنني سوف أنتحر في حال لم يعد بإمكانني أن أغنى. قررت وهدأت بعد ذلك. رحت أفكّر بشأن الانتحار. أن ألقى بنفسي من فوق جسر - أمر رهيب. كما أنني سبق أن رأيتُ

شخصاً انتحر غرقاً. لا! لا أريد أن أموت بهذه الطريقة. أن أنتحر شنقاً؟ كان قد قال أحدهم ذات يوم، فانحفرت كلماته في ذاكرتي: اذهب قبل كل شيء إلى دورة المياه، في حال كنت ت يريد أن تنتحر شنقاً! لأنه يحدث انفلات مصران المثانة والأمعاء عند أولئك الذين يتتحررون شنقاً. ومنذ ذلك الحين وأنا أرى أنه لا يجوز الانتحر شنقاً على الإطلاق. لا يبقى سوى أن أبلغ كمية كبيرة من العقاقير أو المساحيق الكيميائية. أن أموت، على غرار الخيارات - عن طريق تناول عقار الفيروناال<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

يا إلهي! ما هذا الذي كتبته!

سوف أقوم بترتيب نفسي حالاً. سوف أضع بعض المكياج وسأسرّح شعري. وسوف أرتدي أفضلي ما عندي. ليس من أجل أحد، وإنما لنفسي وحسب! ثم سأجلس إلى البيانو وسأبدأ بالعزف!

\*\*\*

يُخيل لي أنني بدأت أفقد عقلي.

قمت بتمزيق النوتات. ورميتها في أنحاء الغرفة. لن أقوم بالغناء بعد الآن! ولا آية موسيقى! لن أفعل أي شيء من هذا القبيل!

قمت بجلب الصحون. جلستُ ورحت أتأمل يديَ المحمّرتين وأصغي إلى نزول الماء في دورة المياه. دورة المياه تعمل في هذه الشقة بلا توقف.

\*\*\*

هدأتُ بعض الشيء. جلستُ ورحتُ أقصي مزق النوتات.

\*\*\*

لقد صدمني كيف أنَّ كلافاً قالت قبل بضعة أسابيع إنني أصبحتُ قاسية. سألتها: «تجاهَ مَن؟». أجابت: «تجاه نفسك».

\*\*\*

---

- 1 - له أسماء تجارية أخرى مختلفة وهو من زمرة الباربيتورات. يستخدم كمنوم. المترجم

ورد في رواية لكاتب فرنسي أن الطبيب وصف لبطلة الرواية أن تبتلع قطعاً من الجليد كعلاج لالتهاب البلعوم. ولا أستطيع بأي شكل أن أذكر اسم الرواية.

كان سيكون جميلاً لو أني أخرج الآن لأنثره قليلاً، بيد أن الوقت مرعبٌ ليلاً، مرعب. فالصحف تتحدث باستمرار عن أعمال سرقة وقتل.

\*\*\*

تساءلت بغتةً: ما الذي أفعله في حقيقة الأمر على المنصة؟ أمارس الحبّ. أعشق أولئك الذين جاءوا ليستمعوا إليّ، أحاول أن أكسب محبّتهم. لدى محبّة مع صالة بأكملها، مع مئات الرجال والنساء. أنا أعرف كيف أجعلهم يشعرون بالسعادة خلال أمسية واحدة. بعد ذلك أعود إلى البيت وحيدة وأنام في هذا الفراش البارد جداً.

يالها من وحدة في الليالي، وحدة تخترق كياني بشعور من الحزن والخوف! تناولت بتتابعون (أفيون طبي - المترجم). مع أني أعرف تماماً أني سوف أعاني من صداع بسبب ذلك!

\*\*\*

فوناستينيا<sup>(1)</sup>!

وأخيراً زرتُ الطبيب بولياكوف! لم تكن التبيحة حسنة. اضطراب وظيفي للصوت. ينشأ على خلفية إجهاد الجملة العصبية. وفي الحالات المتقدمة يمكن أن يحدث فقدان كامل للصوت. هذا يعني أنه يوجد احتمال بأن أتحول إلى خرساء.

أخذني العجوز في البداية إلى درجة كبيرة، ثم قام بدهن البلعوم بمحلول الكالوليميل (عقار كان يستخدم في الماضي كمضاد التهاب جرثومي - المترجم) وهذا من روعي قائلاً إن كلّ شيء سوف يكون على ما يرام: «سوف أجعل حنجرتك أشبه بحنجرة البلابل!». أنا واثقة أنه يقول نفس الكلام للجميع. ولكني أودّ من كلّ قلبي أن أصدق ذلك!

---

1- وهن الصوت Phonasthenia. حالة لا يحدث فيها إطباق كامل للحبال الصوتية. بسبب الإجهاد العصبي النفسي أو حالة إنتانية... الخ المترجم

يجب التزام الهدوء التام والصمت المطلق خلال عدة أيام، مع تناول مركب البروم وبعض الفيتامينات.

لعل هذا العقري بولياكوف لا يفقه شيئاً على العموم؟ لعله من ذلك الصنف من الأطباء الذين يؤكدون للمريض أنَّ المرض سيتهي بعد أسبوع من تناول العلاج، ولكنه سيستمر سبعة أيام كاملة من دون أدوية؟

بغض النظر، ممنوع علىَ الكلام نهائياً. سوف أكون مضطراً للفهم مع الآخرين عن طريق الكتابة.

أنا - خرساء.

\*\*\*

كان بولياكوف نفسه قد قال إنَّ الأمر هنا لا يتعلَّق أبداً بتناول كأس ماء بارد جدًا. والأمر برمتَه يرتبط بالتوتر وبالشدة النفسية. هل ترى يا سيريوجا، كل ذلك بسبب بعده عنِّي.

الطقس فظيع. رياح. وأمطار.

وهأنذا من جديد أذرف كمية كبيرة من الدموع. من حسن حظِّي أنك لا تراني في هذه اللحظة.

\*\*\*

أيَّ يوم من الأيام اليوم؟ لقد فقدتُ التوجُّه بالزمن نهائياً. حزن وبرد - وإنَّه لمن الغباء أنْ أذكر ذلك هنا. فوق ذلك تمزق لدى الجورب بطريقة ما.

حالتي في قمة التوتر والإرهاق. كل شيء عندي مشدود. يكفي دفعه واحدة، ربَّما، لكي أفقد عقلي وأجن تماماً. لا أستطيع أنْ أفعل أي شيء على الإطلاق. أتناول البروم مع الكوداين لكي أهدئ نفسي.

\*\*\*

الوقت متاخر من المساء. غادر فانيا للتتو. تشاجرنا - لأول مرة. لم يسبق أن حدث مثل هذا من قبل. جاء ليعودني ولكي يشجعني ويدعمني، ولكنه جلب معه قنينة. لم أدرك على الفور أنه أصبح ثملأ. راح مرافقي الموسيقي

يقول لي فجأة أشياء غير لائقة، ولكن، لعله على حق. ثم أعلن ومن دون أية مقدمات أنني عندما أغنى على المسرح - أكون مثل الإلهة، وعندما أتحدث عن أمر ما حول المائدة - أكون امرأة عادية ويصبح حديثي تافهاً. فما كان مني إلا أنني طرده في نهاية المطاف. فهو يصبح شريراً بمجرد أن يشمل. بيد أنّ ثمة بعض الحق في كلامه. كل شيء من حولي لا يطاق، وأنا نفسي لا أطيق نفسي. من ذا الذي قال إنه لا يفترض بالفنانين وبالجمهور أن يتلقوا بعضهم مع بعض خارج المسرح؟ كم هو حكيم هذا القول! بعد أن تُسدل الستارة، يجب على الفنان أن يختفي، وأن يتبعه كما لو بفعل عصا سحرية.

\*\*\*

إنه لأمر غريب ومثير مع ذلك، لدى النجاح وباقات الورود، لدى معجبون وغير ذلك، لكن يُخيل لي أن ثمة خطأ ما في ذلك، كما لو أنهم يحسبونني شخصاً آخر.

\*\*\*

بالتأكيد، أنا إنسان عادي جداً، ومع ذلك أنا بحاجة إلى كل ما تحتاجه المرأة الدنيا، وهذا ما أحتجه الآن: حذاء شتوي، معطف، وزوجان من الفساتين الشتوية، قبعة وعطور، وشقة مستقلة. بيد أنّ هذا مجرد كلام أحمق وحسب. أنا بحاجة إليك كرجل أرضي حقيقي! الآن وعلى الفور وكل يوم! أنت نجاتي. أنت منقذني. فأنا لا أستطيع العيش من دونك. سوف أموت هنا. لماذا أنت الآن معها وليس معي؟ إذ إنها سوف تقتلك من كل بد. علماً أنك كنت قد وعدتني بأن تتخلى عنها وأن تأتي إليَّ! لطالما كنت تقول لي إنَّ حبنا أهم شيء بالنسبة إليك في هذه الدنيا! لماذا تعذبني؟ أين أنت؟

ها أنا أقلب خرزاً من العقيق، الحجر «الحزيراني»<sup>(1)</sup> المفضل عندي الذي يجلب الحظ. فقد سبق أن جلبك إليَّ. ولكن، هل أنت عندي بالفعل؟

\*\*\*

---

-1- في إشارة إلى اعتماد خبراء التنجيم والفلك تقسيم الأحجار الكريمة حسب يوم الميلاد على مبدأ الأبراج... المترجم

ثمة صراخ خلف الباب. ثمة من قام بسرقة جميع الملابس البيضاء عن سطح منزل الجيران.

\*\*\*

لقد مضى أسبوع كامل من دون أن تصلكني رسالة منك، مع أنني أتمنى أن تصلكني رسالة منك كل يوم. فأنا أحيا من رسالة لرسالة. اكتب لي - فالنوم مع رسائلك ألطف وأذل!

كما أنك لم تكتب عمَّ إذا كنت قد شاهدت مسرحية «هاملت» لتشيخوف؟ فالناس هنا يتحدثون عن تلك المسرحية باستمرار وبحماسة.

اكتب أيَّ شيء مهما كان! فأنا لا أطلب منك تقارير بالتفصيل. بل اكتب بضعة أسطر فحسب. ما يهمني ببساطة هو خطك ويدك.

\*\*\*

أناجالسة أراقب هطول المطر عبر النافذة وأتذكر كيف أنتا تسكونا في موسكو يومئذ، في شهر نيسان، كالمجانين. كنا نتمنى أن نقى وحدنا، وحدنا فقط، ولم نجد أي مكان نلوذ به. وكم كان رائعًا أن نختبئ في المتحف بعيدًا عن أعين جميع الناس. هل تتذكر غاليري موروزوفسكايا؟ والرسامين الانطباعيين؟ لوحة «الربيع» لديغا<sup>(1)</sup>? وفي معرض شوكينسكيايا سحرتني لوحة «فينوس التكعيبية» لبيكاسو. يا لها من لوحة فظيعة وثقيلة الوطأة، تحتوي الكثير من الزوايا. رحت عندئذ تشرح لي شيئاً ما بخصوص المدرسة التكعيبية. ومن ثم أدركتُ أنَّ المسألة لا علاقة لها بالتكمعية. بل بكل بساطة، كانت تلك مجرد امرأة تخلي الحبُّ عنها. كم من المرعب أن أصبح مثلها!

\*\*\*

ثمة ضباب خلف النافذة. ضباب خريفي، كما لو في مدينة بطرسبورغ. والهواء مثقل بالرطوبة، رطوبة مميزة من دون مطر، أشبه بحالة مخاطية لا يمكن الإحساس بها إلا هنا. وهي مع ذلك أفضل من الغبار خلال فصل

---

- 1- إدغار ديجا - 1834-1917 فنان تشكيلي ونحات فرنسي. المترجم

الصيف. فقد كان الصيف بأكمله خانقاً و مليئاً بالغبار، وقد راحوا يرمون الأرصفة في كلّ مكان تقريباً، ويطلون جدران البيوت بالكلس، بحيث كان من الصعب المرور في الشوارع بسبب الحفرات الكثيرة، وبسبب أدوات العمل، والسطول والرفوش، وكان كلّ شيء يفوح برائحة العرق الصادر عن آدميّو.

ومع ذلك، إنه لأمر حسن أنّ سنوات الرعب قد أصبحت من الماضي. ومن دواعي السرور أنّ كلّ ما هو فظيع ويتعلق بالفقر وبالجوع يصبح من الماضي، وأنّ المدينة تصبح نظيفة أكثر، ولأول مرة يقومون بطلاء البيوت منذ أيام الحرب، ويرمون الأرصفة، كما أنهم راحوا يعيدون التدفئة المركزية في مختلف أنحاء المدينة، وراح الناس يرتدون ثياباً أنيقة من جديد، إذ أصبح ممكناً شراء كلّ ما يلزم لقاء المال، وعاد الناس يذهبون من جديد إلى البيوت الريفية صيفاً!

ما زال الناس يخطئون أثناء تعاملهم مع النقود الجديدة. اشتريت لنفسي في مخزن «غوستيني دفور» حذاء نسائياً، وعندما قصدتُ الصندوق لأدفع ثمنه سألتني العاملة هناك ما هو المبلغ الذي يجب أن أدفعه - كانت البائعة قد كتبت إلى جانب الرقم بشكل غير واضح حرف م. أو حرف أ. كذا مليوناً؟ أم كذا ألفاً؟

كلّ شيء يتغيّر بسرعة رهيبة! وأسرع ما راحت تتلاشى وتخفي النكات. لا تذكر النكتة التافهة بخصوص معلم الصحافة الذي كان يقوم بتصليح أنابيب الصرف الصحي؟ «دخل إليهم لا يملك كوبيكَا واحداً، ولكنه خرج من عندهم ميلارديراً». لن يفهم أحد علام كنا نضحك آنذاك.

كم أنه يجري نسيان كلّ شيء بنفس السرعة. هل تعرف ماذا استلمت من شقيقتي كاتيا بمناسبة يوم شفيعي في عام 1921؟ ثمن خياطة معطف شتوي! كم كان ثمة الكثير من السعادة!

بدأت تظهر لدى اليوم نقود. وتكون كثيرة في بعض الأحيان. ولكن ما قيمة أن تمتلك أموالاً كبيرة في بلد فقير؟ لقد اخترط كلّ شيء - الثروة والجوع. في متجر يليسييف في شارع نيفسكايا لحوم طرائد وأسماك حية،

وفواكه استوائية، وعملاء أنيقون، وعنده مدخل المتجر - فقراء متسللون. وهذا ما كان على الدوام، وهذا ما سوف يكون دائمًا. لذلك يجب أن أتعلم العيش من دون الاكتارات. هذا ما يجب، ولكنه مستحيل.

أسير في شوارع المدينة، وأرى كيف أنَّ أناساً بثياب رثة ممزقة وملية بالقمل، ينامون على الرصيف مباشرة، فرادى، وعائلات. وأن ثمة قبعة أو صِدارَة ممزقة موضوعة على الرصيف لكي يلقى فيها الناس بعض القروش. تضع نقوداً، ومن ثم يقوم المشردون بسرقتها أو أنَّ من يتَسَوَّل تلك النقود يشتري بها الكحول. كان الجميع تقريباً حفاة. وما أهمية أن يكونوا حفاة! ترى كل ذلك - ومن ثم تصاب بالإحباط وباليأس لمدة أسبوع، بحيث لا تستهوي الذهاب إلى أي مطعم. تمر بمحاذة هؤلاء وتشعر بأنك عاجز عن فعل أي شيء. بل ربما كان يجب علىي أن أفرح وأن أشكر ربِّي لأنني لست واحدة منهم. وتنشأ عندي رغبة كبيرة بآلاً أكون مع هؤلاء في الشارع، وإنما في مكان آخر جميل ونظيف ودافئ و مليء بالمرح. لا أستطيع أن أفهم كيف كانوا فيما مضى يسيطرون الأمر فيتخلون عن حياة الرفاهية ليعيشوا مثل الناس البسطاء، وليصبحوا حفاة. يجب أن يكون أنهم لم يروا تلك الأقدام.

أما عدد الأطفال المشردين فكبير جدًا وفي كل مكان! ويُودُّ المرء أن يشفق عليهم، ولكن كيف يمكن أن يشفق عليهم الإنسان طالما أنهم يجتمعون زرافات ويهمجون على الآخرين؟ وقد حكت لي نوسيا: أرادوا أن يتذمروا منهاحقيقة اليد، حيث كان فيها مرتبها الشهري بأكمله. تمسكت بالحقيقة بقوة ولم تتركها. فصرخ عليها الصبي: «سوف أُضْعِّفك، وأنا مصاب بداء الزهري!». أرخت أصابع يديها على الفور. ركضت إلىي وهي تتنهب بشدة.

الآن يفترض بالإنسان أن يخجل من رفاهيته في حال أنه كان محاطاً بالبؤس وبالفقر؟ وربما يجب أن يكون العكس، أن أفرح لأنني لستُ منمن يفترشون الرصيف في أسمال، وأنني أضع على رأسي قبعة جميلة، وأرتدي حذاء رائعًا، وأضع مكياجًا لطيفًا، فضلاً عن فتوتي وشبابي وغرامي؟

إلهي، ما هذا الذي أكتبه!

اقتربتُ مرة أخرى من المرأة، ففتحت فمي على اتساعه، محاولة أن أتبين  
الوضع هناك. يا له من منظر مقرف !

\*\*\*

ثمة مطر. وأيُّ مطر !

الرصيف مغطى بالكامل بفقاعات من الزبد أصفر اللون. إنها مادة  
الرائحة تخرج من أخشاب الرصيف. ولم يفارخ سكان بطرسبورغ بالأوصفة  
الخشبية في مديتها؟ وما أهمية أنه ليس مثلها في أية مدينة أخرى! بمجرد  
أن يهطل المطر - يصبح الرصيف زلقاً كما لو أن الماء يمشي على صابون!  
ومن الممكن بكل بساطة أن ينزلق ويكسر رجله.

\*\*\*

سمع ضرب مدفع. بيدَ أَنَّ هذا لا يعني على الإطلاق أَنَّ وقت متصف  
الظهر قد حان. قررت ذات يوم أن أضيّط ساعتي على ضربة المدفع، لكن  
إيشتاين قال لي إنه لا يجوز الوثوق بتوقيت المدفع، لأنَّ المرصد الفلكي  
في بولكوفسكي لم يعد يطلق إشارات باتجاه القلعة عندما تصبح الساعة 12  
ظهراً - بل باتت إشارة التوقيت تُطلق في مبني البريد فقط.

\*\*\*

أفكَّر بك طوال الوقت، أترقب مجئك. كم كانت هذه الأيام التي  
انقضت مؤخراً رائعة! كلُّ شيء هنا يذكُّري بك. حتى الخبز! كانت كلافا  
عندِي قبل قليل. جلبت معها خبزاً أبيض مبروماً يحتوي على الزيبيب من  
فرن فيليبوفسكي، ذلك الذي أعجبك كثيراً. هل تتذكّر كيف أني قدْتُك إلى  
تقاطع شارع ستارونيفسكي مع بولتافسكايا - وهناك الفرن.

كم حلمتُ بأن تأتي! راحتُ تخيلَ كيف أنا سأنتقي في متجر ميخائيلوفسكي،  
وكأننا سنتناول طعام الغداء في فندق «يفروبييسكايا» حيث صالة طعام على  
السطح. وفجأة - أنت! من دون إنذار برسالة أو برقة! ما هو أكثر روعة في هذه  
الدنيا: أعود إلى البيت وإذك تنتظري هناك! هي ذي المعجزة.  
كنت في ذلك اليوم أقدم عرضاً غنائياً في المسرح الصيفي، وكان المطر يهطل،

وفي كلّ مرّة كانت جميع البطاقات مباعة بالكامل. قلت لك حينئذ أنَّ الفضل في ذلك يعود إلى لادي الذي راح يقرأ نصوصاً لزوشينكو، أما أنت فكنت توكل أنَّ الناس يأتون لأجلِي! كم كان أمراً رائعاً أن أغنى من أجلك! كم أتمنى أن يحدث هذا دوماً - أن أخرج إلى المسرح لأنّي وأنا أعرف أنني سوف أراك في الصالة. ولكننا لم نذهب في ذلك اليوم إلى الإرميتاج كما كنا ننوي! فقد كانت جميع الدروب تقودنا إلى هذا الفراش، إلى هذا السرير غير المرتب، والخالي تماماً من دونك!

هل تتذكّر منديل الجيب الخاص بك؟ قمت بعقده في عدّة أماكن بطريقة جعلت منه أشبه بإنسان صغير من قماش. وهو يعيش عندي تحت الوسادة. وبُتْ لا أنام بعد اليوم إلا إذا كان ذلك الإنسان القماشي يمسك بياصبغي.

\*\*\*

هل تتذكّر رحلتنا إلى ستريلنا<sup>(1)</sup>؟ وكيف راحوا يرموننا بالحجارة بينما كنا نتمشّي في الحديقة؟ كان يجب إنذار العشاق من مسافة فرسخ كامل وبواسطة لوحات ضخمة، أنَّ القصر الكبير للقيصر بطرس قد تحول إلى دار للأطفال اليتامي!

وكيف صعدنا إلى قبة كاتدرائية إسحاق<sup>(2)</sup>، حيث شعرت بدور بسبب الارتفاع؟

وكيف أتنا لم نرحب بمعادرة السرير، وأنه كان يجب علينا ابتكار شيء ما على العشاء، فقلت لي: «لا تتحرّكي»<sup>(3)</sup>، ثم قمت وذهبت بسرعة إلى المخزن التعاوني حيث اشتريت ألواحاً من الشوكولاتة وبعض الجبنة السويسريّة وعنباً وقنيمة من النبيذ! كم كان الأمر رائعاً!

1- بلدة في ضواحي مدينة بطرسبورغ... قام القيصر بطرس الكبير في بداية القرن 18 ببناء قصر ضخم أصبح المقر الرئيسي له وأطلق عليه «فيرساي الروسية» المترجم

2- المقصود هنا هي كاتدرائية ودير القديس إسحاق الدلماسي (إساكيفسكي) وهي أكبر كاتدرائية أرثوذكسية في بطرسبورغ. كانت فيها الأبرشية منذ عام 1858 ولغاية 1928.. واعتباراً من عام 1929 تحولت إلى متحف. المترجم

3- وردت في النص الأصلي كلمة بهذا المعنى «أجمدي أو أثبتي» ولكن المفردة غير شائعة الاستعمال في اللغة الروسية الأدبية أو اليومية. فاقتضى التنويم. المترجم

أضع حبة عنب في فمك، فتمسكها بأسنانك! يا إلهي ما أجمل أسنانك!

\*\*\*

جاء إيبشتاين وأخرجنى ضد رغبتي إلى الشارع. قال لي إنني سوف أتحول إلى مومياء ما لم أتنفس هواء نقىًّا. رحنا نمشي ونمسي حتى وصلنا إلى سينما «بيكاديللى». دخلنا ورحنا نتابع فيلماً ألمانياً في قمة الغباء والتفاهة - كنا قد دخلنا مع بداية الجزء الثالث. لم نستطع أن نستمر حتى النهاية فخرجنا وذهبنا لاصطياد السعادة في دار «كولزيه». كان العازفون على البالالايك<sup>(1)</sup> يحاولون تسلية الجمهور قبل بداية العرض، فراحوا يرقصون «الفوكستروت». بعد ذلك شاهدنا فيلم «النائب العام». فكرة الفيلم غبية تماماً، ولكنها أثارتني والأهم أنها ألهمتني بعض الشيء. يقوم النائب العام بدور الاتهام ضد المرأة الحبيبة التي لا تحاول تبرير فعلتها لكي تعقد عليه القضية، ثم يقوم بإعدامها عن طريق المقصلة.

قضينا المساء بأكمله صامتين. من ناحيتي بسبب الضرورة، أما هو فلا أنه لم يكن لديه ما يقوله. والأدق، راح يثرثر في البداية بلا توقف، ومن ثم قال فجأة: «إنه لأمر غريب أن أتحدث مع امرأة صامتة» - وبعد ذلك التزم الصمت. لاحقاً ذهبنا إلى مسرحنا «يار». كان الأخرى بنا لا نذهب! دخلنا عندما كانت تغني مايا. في هذه اللحظة شعرت بالسوء. أحسستُ أنني في أسوأ حال. كنتُ جالسة، بينما جميع الحضور يصفق لها.

هل هذا يعني أنني لم أعد موجودة؟

قلتُ إننيأشعر بارتفاع حراري ثم غادرت. خرج معى يوسف وساعدنى على الجلوس في العربة.

وقد كنت محمومة بالفعل.

\*\*\*

سيريوجا، يا حبيبي، لا تذكر حين جئتُ وأنا أنتخب لأنني لم أنتبه إلى

- 1- آلة العود الموسيقية الشعبية، وهي المعروفة عند الروس في الحياة. وهي شبيهة بالعود...

أنتي ملطخة بالحليب إلى درجة كبيرة إلا بعد أن خرجت من الزحمة التي كانت في الترامواي، وحتى أنّ حذائي كان ملوثاً بالحليب أيضاً. فقامت باحتضاني ورحت تهدئني مثل طفلة صغيرة. أين أنت، يا سيريوجينكا، تعال إلىّي وضمّنني إليك، هدئني ودلّني! كم أشعر بالراحة وبالطمأنينة بأنّ أكون صغيرة معك! كم أتمنى أن أغيب وأنسى نفسي في أحضانك! أن أنسى كلّ شيء في هذا الكون! حتى المسرح! لقد تعبت كثيراً وأنا أقدم روحاً مكسوقة على المسرح، وفي الكواليس أقوم بإخفائها في الأعمق، لأنّ المرء لا يحتاج هناك إلى روح بل إلى أنياب حادة ومخالب! والأهم أنّ المرء بحاجة هناك أن يكون لديه جلد وحش مثل وحيد القرن وليس بشرة إنسان. وأنا ليس لي جلد وحش! أنا مُتعبة ومرهقة إلى أبعد حد!

\*\*\*

جاء إلىّي اليوم إيشتاين وهو يحمل باقة من الورود الحمراء ومن جديد طلب يدي للزواج. وهل يمكنك أن تتخيّل، يا سيريوجا، بأية طريقة كان يريد أن يحصل علىّي المدير المشرف الذي يقطن على الخط السابع للترامواي؟ لن يخطر على بالك! إنه «يلقي إلى قدمي» فرنسا بالكامل! سوف يرسلونه إلى هناك لكي يكون ممثلاً لشركة الأفلام الروسية «ميجرابروم»<sup>(1)</sup>!  
يا له من طيب القلب وساذج يوسف ذاك!

فهو يعتقد أنتي سوف أرمي بنفسي في أحضانه وأتعلق برقبته بسبب مدينة يقال لها باريس! أنا لست بحاجة إلى أية باريس، يا سيريوجا، بل أنا بحاجة إلى حبك فقط!

لم يحدث من قبل قط أنتي رفضت طلب الزواج كتابةً على ورقة. ولكنني هذه المرة انتزعتُ ورقة من هذا الدفتر وكتبت عليها بأحرف كبيرة: «قط!». وإليك، بالمناسبة، حادثة ظريفة أخرى. تخيل! لقد عرّفني إيشتاين في الأسبوع الفائت على والدته! كنتُ أتوقع أن أرى فيها سيدة بدينة جداً، امرأة

---

- شركة مساهمة تم تأسيسها عام 1924 في إطار ما عرف بالسياسة الاقتصادية الجديدة - على أساس مشترك بين القطاع الخاص والدولة وذلك على قاعدة شركة «روس» السينمائية... المترجم

تذكّرني برفقة<sup>(1)</sup> التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس، وإذا بي أمام كائن حي نحيل تحدث بصوت منخفض ومبخوح. راحت تستفسر مني طوال الوقت ما إذا كان لدى أنسباء يهود! شعرنا بالتناقر منذ البداية. أو كما يقال، رفض عدم قبول منذ النظرة الأولى. ولكن، ياه كم كان لذيداً السمك المحسو<sup>(2)</sup> يجعلك تلحس أصابع يديك! gefilte fish!

كما جلب يوسف علبة من الكاكاو الرائع ماركة «فان - غوتن»! رحت أشربه وأدلّ حنجرتي البائسة. ألا تذكر كيف أثنا تجادلنا أيهما أللّ: «فان - غوتن» أم «جورج بومان»؟ جاء فانيا ديلازاري، وكان حزيناً. خسر نقوده في سبلنديد - بالاس. استدان بعض المال.

\*\*\*

لقد اختلط كلّ شيء عندي - أنام نهاراً، وأما في الليل فلا أتمكن من إغماض عيني. لا أعرف ما هو تاريخ هذا اليوم. كم أكره هذه الغرفة من دونك! يكاد ظهري يتحطم من جراء النوم على هذا السرير - الأرجوحة. كما أني أختنق بسبب نقص الهواء المنعش النقي، فأفتح النافذة. استلقي للنوم وأنا لابسة جواربي وقدماي باتجاه الحائط، خشية أن تزحف على ساقي الصراصير أثناء الليل. أنقذني، يا سيريوجا! هيا إطرق هذا الباب بصورة مباغة!

\*\*\*

لقد جفاني النوم. أنا مستلقية وأفكّر فيك. أقلب وأقلب كلماتك وحركاتك، مثل حبات مسبحة. ها أنت تساعدني في خلع معطفى الثقيل والمبلل، ثم تسحب عن قدمي الكالوش المطاطي عن حذائي! هل تتذكّر ذلك اليوم عندما وقعنا تحت ثلج غزير مصحوب بالمطر؟ وما زلت أستلم

- 1 - رفة - كانت نية والأم الحاكمة الثانية من أربع أمهات للشعب اليهودي. فكانت زوجة إسحق ووالدة يعقوب وعيسو. رفة وإسحق دفنا في مغارة الأولياء في الخليل، جنباً إلى جنب مع إبراهيم وسارة ويعقوب ولينة. المترجم

- 2 - طبق سمك تقليدي ورئيسي في المطبخ اليهودي... المترجم

الأزهار منك مرة بعد أخرى بمناسبة عيد ميلادي مع قارورة من عطر «جيكي» ماركة Guerlain. في كلّ مرّة أغمس إصبعي في القارورة ومن ثم أمررها خلف أذني، تغمرني موجة قوية من الحنان والاشتياق إليك!

\*\*\*

وهل تذكر كيف كان كُلّ شيء في اليوم الأول؟ أنت غشاش فاسد! دعوتنى إلى عيد ميلاد صديق لك، ثم تبين أنه لا صديق ولا عيد ميلاد أحد! وكم كان ذلك الخداع رائعاً! كنت قادمة من جوّ بارد جداً. كنت أدرك أنه سوف يحدث كُلّ شيء، ولهذا السبب كنت مضطربة جداً، كما لو أنني بحالة غائمة. رحتُ أمشي ببطء في الغرفة، نزعتُ القبعة عن رأسي، وزرعت القفازات ثم رميتهما على الأرضية بلا اكتراش. اقتربتَ مني وأمسكتَ يديّ، ثم قلتَ هامساً: «إنهما باردتان جداً! رحتَ تدفعُهما بشفتيك.

\*\*\*

ما هي الحقوق الشرعية؟ أنا لا أعترف إلا بالحقوق الفعلية الحقيقة - ووفق قانون الحب - أنت لي. يا إلهي! كم هي وضيعة الحقوق الزوجية! وما هي قيمتها بالمقارنة مع حقي بأنّ أنام وأن أستيقظ معك كُلّ ليلة وكل صباح؟ هذا الحق يعود لي، وليس لها! لدى الحق فيك، ولكنك غير موجود.

\*\*\*

أعدتُ قراءة هذا الكلام الهذيانى لتلميذة في المدرسة، وفجأة أصبح واضحاً إلى درجة كبيرة أنه لن ينجح شيء عندنا، أنك لن تتخلّى عنها وترحل عنها إلىّي. بعد ذلك شعرتُ بروحى فارغة. كرهتُ الحياة واشتهيتُ الموت! معك فقط أدركتَ معنى أن يختنق المرء من الحنق. رحت أتخيلك معها. كيف أنك تقبل شعرها وشفتيها، وكيف تمسح على بشرتها هنا وهناك. تخيلتَ كيف أنك تهمس لها - ماذَا؟ نفس الكلام الذي تهمس به لي؟ وقد أضنانى الشعور بالغيرة!

\*\*\*

كلا، أنا أكذب، الأمر برمته ليس كذلك. فأنا أعرف أنه ليس بينكمما أي شيء منذ مدة طويلة. وأنا أصاب بالسوء بصورة حقيقة عندما ينشأ لدى إحساس بأنك ما تزال تحبّها وليس عندما أفکر بعلاقتكما في الفراش. وأناأشعر بخوف دائم: وماذا لو تبين لي فجأة أنك ما زلتَ على حبك لها؟

\*\*\*

يطاردني ذلك المساء الفطيع عندما جئتُ إليك في بيتك في موسكو لأول مرة مثل كابوس رهيب. أريد أن أنساه ولكنني لا أستطيع. دخلتُ وفجأة شعرت بكمال جسمي وبجميع أحاسيسني أن ثمة امرأة أخرى فيه. إنها في كلّ مكان من البيت وفي كلّ غرض فيه. وقد كان كلّ شيء هناك نظيفاً وأنيقاً، ليس كما عندي. وكانت ثمة رائحة. رائحة ملابسها وعطورها وجسدها. شيء لا يطاق. ومؤلم جداً. قلتُ مرغمةً: «لديك بيت مريح ولطيف». فأجبتني: «لا علاقة لي بذلك».

استلقيتُ في سريركما - أنت وهي. في سريرها. في غرفة نومها. وفجأة تجمدتُ. اختفت الرغبة بالكامل. خشيتُ أن أجربك. لم أقل شيئاً. ولكنك شعرتَ بكلّ شيء.

كم كان ذلك مهيناً! دائمًا، مثل اللصوص. هل نحن بالفعل لصوص، يا سيريوجا؟ لا، ليس الأمر هكذا، لا يمكن أن يكون كذلك! فأنت تحبني أنا وليس هي! أنت زوجي الحقيقي وليس زوجها! لا يمكن سرقة ما يعود لنا نحن الاثنين فقط!

مرة أخرى أقول ما لا يجب أن أقوله. لا تكمن القضية في آية لصوصية. هل تعرف فيما تكمن؟ في خفّها المنزلي. رحتُ أنظر إلى خفّها بالقرب من الباب طوال الوقت.

\*\*\*

كلافا - أقرب صديقة لي. هل تعرف ما الذي تقوله لي عنك؟ بالطبع لا تعرف. تقول لي إنه يجب عليَّ أن أتركك وأنخلّي عنك، وإنه لا يجوز تحطيم أسرة أخرى. وأهم ما تقوله هو أنك لو كنت تحبني بالفعل، لكنت أصبحت

تعيش معي منذ زمن طويل. لو أنك كنت تريدين فعلاً أن تتركها وترحل عنها،  
لكنْت فعلت ذلك منذ مدة طويلة. إنها على حق.

أنا واثقة من أنك لم تتذكري ذلك اليوم. وقد لاحظتُ أننا بتنا نتذكري أشياء  
مختلفة. كنت قد قررت في ذلك اليوم أن أتركك. أن أقطع علاقتي بك. قررت  
ذلك ثم جلست في ركن الغرفة ورحت أبكي بشدة من دون أن أتحرك ومن دون  
أن أرمي، وأنا أتأمل زهرة على ورق الجدران. كنت قد تعلمت هذه الطريقة  
من البكاء في طفولتي على يد باشكيروتسيفا. ثم ذهبت إليك وقد حسمتُ الأمر  
بأنني سوف أقول لك بشكل قاطع: كلا! ولكنني بمجرد أنني رأيتُك أدركتُ أنني  
مغيرة بك إلى أبعد حد، وأنني أحبك كما لم يحدث قط أن أحبيت أحداً مثلك،  
وأنَّ هذِي الحياة مُنحت لي من أجلك. رأيتُك - ومن جديد حدث كل شيء.  
كم كان رائعًا أن نحب بعضنا بعضاً! أصبحت عاجزة عن التفكير بأي أمر آخر،  
ما عدا هذه السعادة العظيمة - أن أكون امرأتك وحبيبك!

أتعلم، لم يسبق قط أن حدث معي مثل هذا من قبل. فأنا أغَرِّمُ بك من  
جديد وباستمرار. يهجم عشقك علىيَّ - وإذا بي أسير مثل عمياً، بشفتين  
جافتين وعينين متقدتين.

\*\*\*

هل أنا غيورة؟ أبداً. كيف يمكنني أن أغار حيث لم يعد هناك أي شيء  
باستثناء الرماد.

هل تتذكري كيف أن تلك المرأة الثقيلة الدم رونا - بشيسبيتسكايا راحت تسألك  
في بيت شماكوف عن زوجتك: «لماذا لم تصحبها معك؟ هل هي فاتنة؟ كيف  
تبدو؟ سمراء أم شقراء؟». خطر بيالي أن أنتزع لها لسانها! ييدَ أنَّ هذه الغيرة لم  
تكن موجهة ضد زوجتك أولغا، وإنما لأنني لست أنا زوجتك. الأدق، انه ما من  
أحد يعرف أنَّ زوجتك هي أنا. لماذا يجب علينا أن نخفي ذلك؟  
وإذا لم أكن زوجتك، فمن أنا، إذن؟ عشيقتك؟ يا لها من كلمة بدائية.

\*\*\*

قل لي أمراً واحداً فقط: هل ما زلت تحبّها؟

وفي حال أنك لم تعد تحبّها، فلماذا نحن لسنا معاً؟

\*\*\*

أنا أعرف، يا سيريوجا، أنَّ كُلَّ شيءٍ سيكون بيتنا أنا وأنت حسناً ورائعاً. سوف أعود بعد شهر إلى موسكو. سوف يكون عندي غرفة. سوف تهجرها وتنتقل إلى بيتي. وهذا سيكون بمنزلة سعادة لكتلينا.

\*\*\*

أنت تقول إنَّ لبَّ المشكلة يكمن في الابن، وإنكما باقيان معاً من أجله. أنا أعرف أنك تعاني من التعامل معه، وأنَّ لديه مرحلة عمرية صعبة. لقد كنت مضطرباً ومحظّماً جدّاً عندما رحت تتحدث كيف أنه قام بسرقة المال منك وخسرها في المراهنة مع بعض الأوغاد. إني أفهمك حين تقول إنك لا تستطيع تركها بسبب سيماء<sup>(1)</sup>. ولكنه سيبقى ابنك بجميع الأحوال. وسوف يكون لدينا طفل آخر. هل تريد أن ألد لك ابنة؟

لم يسبق أن قلتُ لك ذلك من قبل. لذلك، خذ علماً: أنا أريد بقية أن ألد طفلاً منك !

منك فقط.

\*\*\*

أسأل نفسي باستمرار: لماذا أنت مازلت تعيش معها؟ أدرك أنَّ الإجابة لا تكمن في تلك الكلمات عن الابن والواجب. ولا يمكنني أن أسألك بشكل صريح عما تقدمه لك تلك المرأة من دون أن يكون بإمكانني أن أمنحك إياها. ألا أستطيع أن أعطيك؟ أنا؟

ربما أنا قوية جداً ولذلك لا تشعر بالشفقة نحوي؟ إذ يوجد مثل تلك النسوة اللواتي يلعبن طيلة حياتهن دور البنت الصغيرة ويرغمون المحبيين على الاهتمام بهنَّ. هل هي من أولئك؟ وهل تشعر بالشفقة تجاهها؟

\*\*\*

---

- 1 - صيغة التصغير أو الدلع من اسم العلم سيميون. المترجم

أقلب ذكرياتي مثل حبيبات من المجوهرات. وكل حبيبة منها تزرع في غرسةً: كيف كنا نتشارق وكيف دفعنا بعضنا ببعضًا على الثلج، وكيف رميت قبعتك في الكثبان الثلوجية. بعد ذلك هبطنا إلى الجليد تحت الجسر، إلى وسط النهر تماماً، وقمنا بحفر كلمتنا على الجليد بأقدامنا. وأتذكر ذلك اليوم الجليدي الذي جعل شاربك يصبح أبيض اللون. وكيف أننا نمنا وقد تغطينا بالبطانية وبمعطفك من الفرو الذي كان ينزلق طوال الوقت على الأرضية.

وفي الصباح أقيمت نظرة في المرأة - امرأة غريبة غير معروفة وفاتنة. هل يعقل أنني أنا هي؟ كم تجيد بحبك أن تجعل مني امرأة جميلة!

\*\*\*

رحت أثناء الليل أقلب ذقنك الحلقية بشكل ناعم وأمسح بيدي على شعرك.

ذات يوم رحت تقلب أغراضي الصغيرة على الطاولة وإذك تقول فجأة: «هذا العطر يفوح برأحتك!».

اذكرك وأحفظك عن ظهر قلب. أمرر رؤوس أظافري على ظهرك. فأحسُّ تحت يدي بين لوحبي الكتف بجلدك الموبّر. أقول لك: «يبدو أنّ أجنهحة تنمو لديك، يا سيريوجينكا! والأيمن أكبر من الأيسر لسبب ما». فتجيني من تحت الوسادة بأنك تلوّح بالجناح الأيمن بقوة أكبر. لماذا تنام مع الوسادة على ذننك دائمًا؟

لا يمكن للأمر أن يستمر على هذا المثال! لا أستطيع أن أصبر أكثر! يجب أن تكون معًا، أن نعيش معًا وأن ننام معًا، وأن نأكل معًا! عندما أصبحت يومذاك بوعكة صحية - كان أول رد فعل عندي أن أهرع إليك - لكي أعتني بك ولكي أنقذك! وهذا مستحيل. لا يمكن تجاوز الحدود. ياله من كذب، وحده الكذب يحيط بنا من كل صوب! كم أنَّ ذلك لا يليق بك ولا يليق بي، ولا بها.

\*\*\*

أنا حساسة وسريعة البكاء، وأما أنت فلا يعجبك عندما أنتصب. من حسن الحظ أنك لا ترى الآن وجهي البشع وقد انتفخ من جراء الدموع. سوف أقوم الآن بفعل ما يجعل وجهي لطيفاً بالنسبة إليك.

\*\*\*

حجزت موعداً أن أراك في الحلم. يا إلهي / كم كان الحلم ساحراً! رحت تقبلني في كلّ مكان، هل تفهم ما أقول، في كلّ مكان! لقد أوصلتني إلى الجنون. استيقظت مبللة بالكامل، من الداخل ومن الخارج! وسعيدة! لقد كنت هذى الليلة معك!

وما زلت أشعر بيديك على جسدي. في حال كانت لدى الرجل يدان جميلتان، جميلتان بصورة حقيقة مثلما هما عندك، فلا يمكن أن يكون هذا الرجل مشوّهاً في روحه. اليدان لا تكذبان.

كم أنا أحب جسلتك، يديك، قدميك، وأصابع قدميك! كم أحب أن أقبّل وأن أمسح على جميع الشامات والندوب عندك، وعلى الدرز الكبير في بطنك! ارحمني يا رب، لقد قاموا بشقّك أثناء العمل الجراحي كما تُشَقّ سمة! يررق لي كثيراً أن أمسح وأن أقبل ركبتك حيث فيها ندبة سوداء. إذ كان من الضروري أن تدهن الجرح بالسخام!

كم تحب أن أمرر رؤوس أظافري على جلدك. كم كنت جائعاً ومتعطشاً للحب وللعشق وكم أنك تجيد العشق بطريقة ربانية! أعاني في الليالي مرة بعد أخرى كيف كنت تقبلني في الأسفل، شفتين في شفتين، وكيف أن شفتيك أصبحتا تفوحان برائحتي.

\*\*\*

أنت تتحدث باستمرار عن العائلة. لم يعد لديكما أسرة منذ زمن بعيد. كيف يمكن أن تعيشا معاً من دون أن تتقاسما ما هو أكثر أهمية وأكثر قداسة وما لا يمكن للحياة أن تكون من دونه؟

لقد التقيت مع أولغا مرة واحدة فقط، وقد أحسست أنها شعرت وخفمت كلّ شيء. لو أنك رأيت كيف أنها راحت تنظر شرزاً وبلؤم. لدى زوجتك

أسنان منحرفة مثل وحش كاسر. وشعرها مسرّح بطريقة دقيقة بحيث إن كل شعرة تلتصق بالشعرة الأخرى. لديها أصابع قوية لعازفة موسيقى مع سلاميات طويلة - إنها تقبض على الشيء بقوة كبيرة.

\*\*\*

كم هو يوسف مثير للضحك. فهو واثق أن المرأة سوف تشعر بالفرح وبالإطراء إذا ما قال لها شخص ما إن لديها وجهًا ملائكيًا وعينين آتمتين. راحت كلافا تؤكّد لي أنه كان يقول لها الشيء ذاته.

ومختلف هذه الألاعيب التي يلجأ إليها مطاردو النساء (lovelace) الصلغان: «انتبهي، ثمة يسروع عليك!» صرخت وعلى الفور أدركت أنه ما من يسروع على ثيابي. «لا تتحرّكي، سوف أنزعه فوراً!». حاول أن يحتضنني. كم أن كل هذا مثير للضجر والسخرية.

هاجم يوسف اليوم رواية «نحن» لزمياتين. هل تعرف ما الذي اكتشفه فيها؟ لدى الأبطال، كما تذكر، بدلاً من الأسماء - أحرف من الأبجدية اللاتينية مضافاً إليها أرقام. ولكن الأبجدية اللاتينية تحتوي 24 حرفاً فقط. لكل حرف 10,000 شخص فقط. هذا يعني أن عدد الجميع 240,000 إنسان فقط. المقصود بذلك هو جزيرة فاسيليفسكي في بطرسبورغ. لا أكثر ولا أقل.

\*\*\*

إنه لأمر حسن جداً أنه لدى كلافا! اليوم صبّت جام غضبي عليها. راحت تؤبني لأنني أتكلّم بدلاً من أن التزم الصمت والحفظ على صوتي، وإذ تبدأ عندي نوبة هستيريا حقيقة! إذ لا يمكنني أن أمثل نوبة هستيريا على مزقة ورق من رسالة! راحت كلافا تواسيوني وامتصت في ذاتها الهياج مني، أصبحت بالعدوى فراحت تعبّر عن حنقها الشديد هي الأخرى أيضاً. وهكذا رحنا نصرخ بعضنا على بعض، هي بصوت عال، وأما أنا - فبصوت خافت مخنوق، إلى أن هدأ كلالنا وقد رحنا نبكي ونحضر بعضنا بعضًا.

سوف تغادر غداً إلى موسكو. وهي تعاني كثيراً من حياتها مع إيغور!

\*\*\*

بلى، أنا أريد كل ما يرغب به الآخرون! أنا أريد أن أكون مشهورة وثرية ورائعة! وبالطبع، أنا أريد أن أسافر إلى باريس! أريد ذلك بقوة! ولكن هذا كله ضروري بالنسبة إليّ لكي أقوم في يوم واحد، بل في ساعة واحدة من ساعات الجنون التي تستحق أن تُعاش الحياة من أجلها فقط، بحرق كامل تلك الثروة وكل البهاء مقابل بعض المشاعر البسيطة والصادقة. في سبيل رقة إنسانية. من أجل حبك. وإنما حاجتي إلى كل ذلك؟ وأيضاً من أجل طفلنا. وهو سوف يأتي من كلّ بد. بحيث نصبح أنا وأنت في جسد واحد.

\*\*\*

وهل تعرف ماذا قالت لي نوسيا ذات مرة؟ لقد قالت كلمات رهيبة. قالت إنّ غريزة الأمومة - مجرد غريزة وهذه الغريزة لا تستحق كل هذا التوقير والتبيجيل القائم على الخرافات من قبلنا. هذا ما قالته. كما لو أنّ تلك الغريزة هي أشبه بغرizia الجوع أو الحاجة إلى النوم. مجرد قضاء حاجة من حاجات الجسم الفسيولوجية. وأنّه يمكننا أن نعثر على أعظم تعبير عن غريزة الأمومة عند الدجاجة التي تقوم بفقس البيوض بلون الخزف. سألتها: «هل هذا يعني، إذن، أنّ الحبّ مجرد غريزة فحسب؟ بيضة خرفية؟». «لا علاقة للحب بمسألة استمرار النسل نهائياً. بل إنّ الحب يحيا من تلقاء ذاته - لا يتجزأ ومن دون أي ارتباط بالنسل، بل يمكن للنسل أن يكون من دون حب». تغيرت نوسيا كثيراً بعد الطلاق. وأصبحت حاقدة على العالم بأكمله. وما من حلّ لمسألتها على الإطلاق. أصبحت أكره اللقاءات معها. لا أستطيع. أشعر أنها عبء ثقيل.

وما هو أكثر فظاعة فوق ذلك، أنها لا ت يريد أن تدرك أنه لن يكون بإمكانها تقديم الحفلات بعد الآن أبداً. ولكنها تغفل عن ذلك، وما زالت تقوم بتمرين أصابع يديها كما في السابق: تضع إبهام يدها بين الأصابع الأخرى ببطء في البداية، ومن ثم تفعل ذلك بسرعة أكبر فأكبر وبوضعيات مختلفة. ومن ثم كما لو أنها تعود إلى رشدتها فتكفُّ عن ذلك.

\*\*\*

طوفان! هل اليوم هو 22 أم 23 من الشهر؟

جلستُ قرب النافذة ورحتُ أراقب كيف ظهرت في وسط شارعنا بركة ماء كبيرة، وقد راح الأولاد يجرون فيها رافعين سراويلهم.

فجأة راح منسوب الماء يرتفع بسرعة. ففي السادسة كان الرصيف قرب بيتنا ما زال جافاً، ولكن في بداية الثامنة بدأ الماء يتسرّب إلى الطوابق السفلية. تبين أن أنبوب الصرف الصحي لا يعمل. انطفأت الكهرباء. وغرقت جزيرة فاسيليفسكي بأكملها في ظلام دامس. أصبحنا بحالة قريبة من مدينة البندقية. راحت المراكب تسبح في الشوارع. فظاعة حقيقية.

خطر بيالي فجأة: إنه الطوفان العظيم! نعم، ذلك الطوفان العظيم الأخير بالذات. عقاب إلهي. وهل تعرف علام؟ لأننا لسنا معاً.

\*\*\*

ليلة رهيبة.

دوّت انفجارات. ثمة حريق هائل في مكان ما. بلغت ألسنة النيران منتصف السماء.

\*\*\*

لقد فهمتُ أمراً واحداً بشأن الحب - لا يجوز الابتعاد لمدة طويلة! لن أوفق بعد اليوم على مثل هذه الاتفاقيات الطويلة الأمد! يجب أن أكون إلى جانبك دائمًا. أريد أن أتناول الطعام من صحنك، وأن أشرب من كأسك، وأن أقبلك في كل مكان من جسدك، وأن أشمّ باستمرار رائحتك! كم أنا أحّبُك بخشونة، وببساطة، يا سيريو جينكا! وأنا لاأشعر بأدنى خجل من ذلك.

\*\*\*

كم كان الأمر رائعًا عندما كنت هنا، إلى جانبي! وكانت الساعة تدق بقربنا. وكان يجب عليك أن تذهب إلى محطة القطارات. كنت أريد أن أفتح بوابة الساعة الزجاجي وأوقف عقرب الساعة بإصبعي! الآن كل شيء متوفّر، وعندما سيصبح العقرب هنا - سوف يتلاشى كل شيء. وهذا ما

كان. رحت أنتحب، ولكنك لم تستطع أن تفهم ما الذي جرى لي - نحن معاً، وكل شيء رائع عندنا. ركضتُ إلى الحمام لكي أغسل وجهي الممتfusion من شدة البكاء. رحت أتوسل إليك أن تبقى، غضبت منك لأنك لم تحسم أمرك وتركتها وتخلّى عنها حتى الآن، لكي تعيش معي، رحت أقول كل هذا الكلام ووجهني في المغسلة، وقد غسل تيار الماء تلك الكلمات.

\*\*\*

أطلَّ اليوم مشمساً منذ الصباح الباكر. كلُّ شيء غارق في الماء. يبدو أنَّ مستودعاً للأخشاب قد انهار، ولذلك راحت الأخشاب تسbieح في شارعنا، كما لو أنها أسماك كبيرة ميتة. راحوا يتقطونها من على الشرفات بواسطة سلال مربوطة إلى حبال.

عرفتُ أنه حدث ليلاً انفجار تلاه حريق في مستودعات تابعة لمصنع الكيماويات في الجزيرة القطنية<sup>(١)</sup> (Ватный).

\*\*\*

طيلة اليوم وأنا أمشي وأتحدث مع نفسي، ومعك - مثل امرأة عجوز فقدت عقلها.

كل ما أريد أن أقوله، كم أنا أحبك - ويتبيّن أنَّ هذا مستحيل تماماً! يفترض بنا أن نكون بعضاً إلى جانب بعض، بالحد الأدنى كي لا تكون ثمة حاجة لأي كلام.

\*\*\*

سوف أخلع ثيابي الآن وسأستلقي. سوف أغضن الوسادة حتى لا أتحب بقوّة وبصوت مرتفع. من حسن حظي أن منديلك - الإنسان الصغير سوف يمسكني من إصبع يدي من جديد.

\*\*\*

---

1 - واحدة من الجزر في دلتا نهر نيفا في سانت بطرسبورغ. اعتباراً من عام 2001 - تمَّ ضم الجزيرة إلى قائمة التراث الثقافي. المترجم

بدأ منسوب الماء بالانخفاض. راحت الأخشاب تسبح بالاتجاه المعاكس. نهاية العالم مؤجلة! وهذا ما يريده الجميع!

\*\*\*

تنزّلنااليوم مع يوسف في أنحاء المدينة. وقد عدتُ للتو. الشوارع مكتظة بالناس - كما لو أن ثمة احتفالات شعبية! ضفة النهر ممتلئة بالأخشاب. وهناك آثار للفيضان في كلّ مكان، ووحوش. التراموايات متوقفة عن العمل، والعارضات الخشبية مغسولة في شارع نيفسكي بأكمله، وقد بللها الماء فانتفخت في واجهات المطاعم وفي المتاجر. زجاج الواجهات محطم في جميع الطوابق السفلية. وأماماً في حديقة ألكساندروفسكايا فما زالت برُوك الماء بكثرة. لم نصل إلى الحديقة الصيفية، لكن الناس يقولون إنه حدث هناك اقتلاع العديد من الأشجار وإنَّ عدداً من التماثيل تحطمـت. شاهدنا سفينـة كبيرة على الشاطئ.

\*\*\*

يبدو لي أنَّ الصوت بدأ يعود.

في الساعة الثامنة إلا ربعاً كان المترجم يطرق باب السجن. مجرد استدعاء روتيـني: حديث لمحام مع موقفـ. كان الوقت باكرـاً، وبارداً، وكانت لديه رغبة بالنوم. قالوا له عبر الميكروفون الموجود في الباب إن عليه أن يتـظر وصول المحامي، وعندئـذ سيتم إدخالهما معاـ.

أحس المترجم ببرعشة من البرد، فلعن المحامي الذي تأخر ولأنه لم يجد ما يفعله، فقد راح يتمشى فوق البرك المتجمدة. كان الجليـد يصـرُ.

يعمل المحامون في مثل هذه الحالات بتـكليف من المحكمة، ولذلك فهم لا يكشفون عن حـماسـ كبيرـ: عادة ينصحون موكلـيـهم بأنـ يـعـترـفـواـ بما ارتكـبـوهـ وأنـ يـطـلـبـواـ الرـفـقـ والـتسـاهـلـ منـ المحـكـمةـ. مجرـدـ شـكـلـيـاتـ. ولكنـهمـ يـدـفعـونـ لـقاءـ ذلكـ لـلمـتـرـجـمـينـ.

وأخـيراـ جاءـ المحـاميـ - وقد تـبيـنـ أنـهاـ فـتـاةـ شـابـةـ تـورـدـتـ خـدـاـهاـ منـ جـرـاءـ المشـيـ السـريـعـ. اعتـذرـتـ السـيـدةـ بـ. عـلـىـ تـأـخـرـهاـ وـصـافـحـتـ المـتـرـجـمـ بـقوـةـ.

حاولت أن تكون عملية وجدية، ولكنها أعلنت بينما كانا يتظاران أمام باب السجن، أنها أنهت الجامعة هذا العام وأنها ستذهب اليوم لحضور عرس شقيقها. وإذا عرفت أنَّ المترجم من روسيا، هتفت بفرح:

Und mein Bruder heiratet eine Slowakin!<sup>(1)</sup>

لقد أرادت أن تقول للمترجم شيئاً ما لطيفاً. إذ خُيل لها أن سلوفاكيا وروسيا - تشتراكان في شيء ما أو متشابهتان. فالمرء يحاول دائمًا أن يجد شيئاً ما مشتركاً مع من يتحدث إليه. تظاهر المترجم بأنَّ الأمر أثار لديه السرور بالفعل.

أدخلوهما. أبرز كُلّ منها بطاقته الشخصية، كما قام كل منها بتسلیم حقيقته وموبایله، ثم عبرا من خلال باب خاص، كما في المطار، وو جداً نفسيهما داخل السجن.

قادوهما عبر رواق مع منعطفات إلى زنزانة صغيرة تتسع بصعوبة لطاولة ولثلاثة كراسٍ. ثم أغلقوا الباب عليهما.

وبينما كانا يتظاران الموقوف، راحت السيدة ب. تطلع المترجم على الموضوع. ثمة شخص اسمه سيرغي إيفانوف، فار من روسيا البيضاء، حصل منذ مدة طويلة على «رفض»، ولكنه ما زال يقيم في سويسرا. مع العلم أنه وضع في قبضة الشرطة أكثر من مرة بسبب قيامه بالسرقة أو دخوله في عراك ومشاجرات. وقد تعارك في إحدى المرات مع قاطع التذاكر في القطار.

– أوما المترجم لكي يدعم الحديث –  
Ja, ja immer die gleichen Geschichten  
(<sup>(2)</sup>Und immer heißen sie Sergei Ivanov.)

أمالت السيدة ب. رأسها ما جعل شعرها يصبح أمام أنف المترجم مباشرة. إذ إنها كانت تقوم بتصليح شعرها خلف أذنيها باستمرار. حتى آنه لم يكن في الأذنين ثقب لكي تضع أقراطاً فيهما. كما أنها لم تضع مكياجاً.

1- أخي متزوج من امرأة من سلوفاكيا (الماني) المؤلف

2- نعم، نعم، نفس الفحص تكرر باستمرار. ودائماً يقال عن كُلّ واحد منهم سيرغي إيفانوف (الماني) المؤلف

لقد مضى سنوات طويلة على إقامة المترجم في سويسرا من دون أن يفهم حتى الآن بأي شكل: لماذا تخاف السويسريات أن يدين في هيئة نساء؟ ييد أن رائحة عطرها الذي كان لطيفاً جداً في الخارج، أصبح هنا في الزنزانة يخدش المنخار بشكل حاد.

- Ich habe bereits mit Albanern, Afrikanern und Kurden gearbeitet, doch noch nie mit einem Russen.<sup>(1)</sup>

قال المترجم مازحاً. Und ich habe es nur mit denen zu tun- –  
– سألت Aber Weissrussland, das ist doch nicht Russland?<sup>(2)</sup> –

السيدة ب.

– Wie soll ich sagen<sup>(4)</sup> – بدأ المترجم وكان يريد أن يضيف شيئاً بخصوص التعقيبات القائمة في العلاقات الإثنية في وطنه، لكن السيدة ب. كانت قد راحت تقول إنه لم يسبق لها أن زارت روسيا وهي تمنى أن ت safar في القطار عبر سكة الحديد العابرة لسييريا.

- Das muss sicher sehr interessant sein?<sup>(5)</sup>

– Sicher<sup>(6)</sup> – وافق المترجم. الغريب هو أن جميع السويسريين يريدون عبور سiberia بواسطة القطار. أما المترجم فلم يرغب بذلك عندما كان يعيش في روسيا. وهو إلى الآن يفضل ركوب الطائرة.

– Dieser Herr Ivanov ist ja immer wieder gewalttätig, – أضافت وهي تضع على الطاولة بعض الأوراق التي أخرجتها من مصنف – Sie, er ist in betrunkenem Zustand in eine Coop-Filiale gegangen, hat sich da allerlei Lebensmittel genommen, und ohne zu zahlen

---

– سبق أن عملت مع مواطنين منألبانيا ومع أفارقة وأكراد، وأما مع الروس فلم يسبق لي أن عملت معهم. المؤلف

– وأما أنا فلا أعمل إلا معهم (الماني) – المؤلف

– ولكن أليست روسيا البيضاء هي روسيا؟ (الماني) – المؤلف

– ماذا يمكنني أن أقول هنا.. (الماني) – المؤلف

– يفترض أن يكون ذلك مثيراً للاهتمام (الماني) – المؤلف

– بالتأكيد (الماني) – المؤلف

noch im Laden zu essen und trinken angefangen, vor allen Leuten.  
Dann belstigte er ein paar Frauen. Und schliesslich widersetzte er

(1)sich auch noch den Beamte

نظرت إلى المترجم بدهشة كما لو أنها كانت تتظر منه تفسيرًا للمثل هكذا  
تصرف غريب من قبل مواطنه.

die Russen - حاول المترجم أن يجد تبريرًا لنفسه - Verstehen Sie, -  
sind im Allgemeinen gutmütig, ruhig, nur eben wenn sie sich

(2)...betrinken

راحت تصصحك إذ فهمت ما قاله لها على أنه نكتة.

- قال المترجم لكي يغير Das heisst, Sie feiern heute ein Fest, -  
Ich gratuliere. Am Vormittag das Gefängnis und am -  
الموضع (3)Nachmittag eine Hochzeit?

In - ابتسمت ثم تنهدت بصعوبة وأضافت: Sehen Sie, so ist das -  
diesem Leben ist alles beisammen. Der eine sitzt im Gefängnis, der  
.andere tanzt auf einer Hochzeit. Die Welt ist nicht gerecht

- أوماً المترجم برأسه من دون أن يعرف ماذا عليه أن يقول.

عندما كانت السيدة ب. تبتسم، كانت تظهر أسنانها الفتية المنتظمة. كما  
أنّ المترجم كان ينظر باستمرار إلى شفتيها. كانت تجلس قريبة منه جدًا، ما  
جعل المترجم يبدو وهو يحدّق فيها مباشرة. بطريقة لا ينظر فيها أحد عادة

---

- هذا السيد إيفانوف يلجأ إلى استخدام العنف باستمرار. تخيل، جاء إلى المتجر «كونون»  
وهو سكران،أخذ ما شاء من المواد الغذائية من دون أن يدفع، وبالمناسبة، راح يأكل  
ويشرب في صالة البيع من المتجر مباشرة أمام أعين الجميع. كما راح يتحرّش بالنساء.  
وبعد ذلك أبدى مقاومة للشرطة. (الألماني)

- أرجو أن تفهمي أنّ الروس ليسوا أشرارًا، بل هادئون - ولكن هذا يحدث معهم عندما  
يشملون فقط... (الألماني) - المؤلف

- هذا يعني أنه لديكم اليوم احتفال. أهنتك! في الصباح - سجن، وبعد الظهر - عرس?  
(الألماني) - المؤلف

-4 نعم.

إلا إلى المقربين منه كثيراً. وبينما كان المترجم يحدّق إلى تلك الفتاة، أحسَّ بأنه عجوز ومتقدّم في السن.

في هذه اللحظة قرع المزلاج وأدخلوا فتى يرتدي بدلة رياضية. كان قصيراً القامة بشعر مقصوص. كما كان وجهه عادياً - يمكن لمثل صاحبه أن يعمل بائعاً في بازار في ضواحي موسكو أو أن يأتي إلى زيوরيخ للمشاركة في محادثات. كانت تفوح منه رائحة نتنة لجسد لم يغسل منذ مدة طويلة.

مدّت السيدة بـ. يدّها لم تصافحه بهمة عالية. ابتسم بسخرية وصافحها. لم يشأ المترجم أن يقول لها إنهم في بلاده لا يصافحون النساء بالأيدي. أغلقوا الباب عليهم من جديد بعد أن أشاروا إلى زر استدعاء الحراس. من باب الحيطة.

بدأت السيدة بـ Herr Ivanov, - Ich rate Ihnen, sich in allem schuldig zu bekennen. Sie werden ohnehin aus der Schweiz ausgewiesen werden. Es ist in Ihrem Interesse, mit den Behörden zu kooperieren. Dann müssen sie weniger lang im Gefängnis sitzen und können schneller nach

(1). Hause

قام المترجم بنقل ما قالته.

ومن جديد ابتسم الفتى بسخرية:

ومن الذي قال لكم إني أريد العودة إلى الوطن؟

ترجم المترجم.

Aber in diesem Fall erwartet Sie eine Zwangsdeportation<sup>(2)</sup>

- سيد إيفانوف، أنا أنصحك بأن تعرف بكل ما ارتكبته بصورة كاملة. لأنه بجميع الأحوال سوف يتم ترحيلك من سويسرا. ومن مصلحتك أن تتعاون مع ممثلي السلطات. عندئذ سوف يحكم عليك بالسجن لفترة أقل، وبالتالي سوف تعود إلى الوطن بسرعة أكبر (الألماني) - المؤلف

- في هذه الحال سوف يقومون بترحيلك بشكل قسري (الألماني) - المؤلف

ترجم المترجم كلامها.

راح الفتى يحک ساقه عبر السروال.

هه! لقد أخفتموني!

راحت السيدة ب. تتأمل زبونها باهتمام. وفجأة بدأ الفتى يقول كل ما يخطر بباله:

وهل تظنون أنني شخص ظاهر وعفيف، ياترى؟ سوف أصرخ وأركل في الطائرة بحيث إنه لن يتمكن أحد من الإمساك بي. وفي حال أن قبطان الطائرة لن يرغب بنقل مثل هكذا مسافر - لن يكون بإمكانكم أن ترغمونه! وأما في السجن فلا يحق لكم أن تركوني سوى لنصف سنة. هل تعتقدون أنني لا أعرف ذلك؟ ومن ثم سوف تركوني إلى جميع الجهات الأربع. أليس الأمر كذلك؟ نعم، نعم، هو ذا! هذا أنا الذي أمسكتُ بكم من خصيتكم ولستم أنتم من أمسك بي! هل هذا واضح؟ وسوف أقبض على سويسرا خاصتكم من خصيتها طالما أنني أريد ذلك!

راح الاثنان، الفتى والسيدة، ينظران إلى المترجم بترقب. قام بترجمة ما قاله الفتى.

احست السيدة ب. بالحرج.

Verstehen Sie, Herr Ivanov, ich möchte Ihnen helfen<sup>(1)</sup>

قام المترجم بالترجمة.

تقول إنها تريد مساعدتي! بل يريد الجميع أن يتخلصوا مني، وليس مساعدتي! فأنتم جميعكم تعيشون هنا حياة هانئة رائعة حتى من دوني! ها أنت، أيها المترجم، يا لك من أهبل ووغد، تدبّرت أمرك هنا، وربما أنا أيضاً أريد أن أعيش حياة كريمة نوعاً ما! وبِمَ أنتم هنا أفضل مني! بل لعلكم أسوأ مني بكثير! مجرد أنكم ترتدون ثياباً أنيقة وتفوح منكم رائحة عطور، في حين أنه لا يوجد لدى أية ملابس أخرى.

---

- أرجو أن تفهموني، يا سيد إيفانوف، أنا أريد أن أساعدك (الماني) - المؤلف

Was sagt er?<sup>(1)</sup> – سألت السيدة ب.

Aجابت المترجم – Das gehört nicht zur Sache<sup>(2)</sup>

قالت السيدة ب. Ich möchte, dass Sie alles übersetzen<sup>(3)</sup>

ووهكذا راح المترجم يترجم لها كل ما يقوله الفتى. وأما الفتى فقد دخل في حالة من الهياج الشديد، لأنه كما يبدو لم يجد فرصة من قبل لأن ينفث ما في قلبه وأن يصبّ جام غضبه أمام أحد، لذلك راح يصرخ: لعلني أنا أيضاً، أريد أن أعيش وأن أعمل بطريقة شريفة، ولكنهم ولأنني شريف قاموا بتمرير وجهي في الخراء! ربما أنا أيضاً كنت أتمنى أن يكون عندي شقة وعائلة، لكنني أعيش كما يعيش جميع البشر – ولكن من أين لي المال؟ إذا كنت تريد المال – تفضل اعمل في التجارة. وقد عملت كثيراً في التجارة للدرجة أنني مدین بمبالغ كبيرة جداً. إذا عدت إلى الوطن – سوف يقطعون لي رأسي. وهذا هو البزنس بمحمله. لماذا؟ هل السويسريون، يا ترى، أفضل من الروس؟ وهل أجدادي كانوا، يا ترى، أسوأ من أجدادكم؟ لعلهم لم يكونوا أسوأ بل ربما كانوا أفضل: لديكم هناك، خلف النافذة، كان يقوم أوسفيتسيم<sup>(5)</sup>، ولكنكم مع ذلك عشتم بفرح ورحمٍ تتناسلون. أما جدّي فقد حارب ضد الفاشيين وقد ذراعه في الجبهة. كما أنّ أمي بالمناسبة معلمة، وقد أمضت حياتها بأكملها وهي تعلم التلاميذ مادة الجغرافيا، ولكنكم كانت تكسب؟ وكم كان راتبها التقاعدي؟ لقد كسبت خ<sup>(6)</sup>...! كانت مضطّرة مع مثل هكذا راتب تقاعدي أن تبيع الفودكا قرب محطة القطارات بشكل غير قانوني. وما هو ذنبها؟ لقد شبّعتم وبطرتم هنا بما فيه الكفاية – هذا كل ما في الأمر! ها أنت، شخص روسي، قل لي: أليس الأمر كذلك؟ هيَا ترجم لها، ترجم كل شيء!

1- ماذا يقول؟ – المؤلف

2- لا علاقة لهذا بالموضوع (الألماني) – المؤلف

3- أنا أريد أن ترجم كل شيء. (الألماني) – المؤلف

4- حسناً (الألماني) المؤلف

5- المقصود معسكر أوشفيتس للاعتقال والإبادة أثناء الاحتلال النازي لبولندا في الحرب العالمية الثانية. يعتبر معسكر أوشفيتس من أكبر معسكرات الاعتقال النازية. المترجم

6- الحرف الأول من كلمة بذيئة باللغة الروسية تعني حرفيًا «العضو الذكري»... المترجم

قام المترجم بالترجمة.

احمر وجه السيدة بـ. من الخجل وقالت إنّ هذا على العموم لا يمت للقضية بصلة.

Verstehen Sie, Herr Ivanov, ich will Ihnen helfen. Aber Sie wollen mir nicht zuhören. Nun, es tut mir leid, aber in diesem Fall kann ich nichts für Sie tun. Möchten Sie noch etwas zur Sache hinzufügen?<sup>(1)</sup>

ترجم المترجم.

لوي الشاب فمه بازدراه وبصق على الأرضية. ومن جديد راح يحك بين فخذيه.

في جوهر الموضوع؟ أريد في لب الموضوع. أريد أن أنيك مؤخرتك، أيتها البنية! كل واحد منكما، وفي كل ليلة على الأغلب، ينام مع أحد ما، أما أنا فأمارس العادة السرية. علمًا أني إنسان أيضًا! هل هذا مفهوم لكم؟ ومن بحاجة إلى شخص مثلـي؟ طالما أنه لا يوجد مال - فلا أحد يحبـك. لو أنك، أيها المترجم، كنت مكانـي، لما كان أحـبك أحد أيضـاً من دون مال.

- كررت سـؤالـها السـيدة بـ. بنـفـاد صـبر

<sup>(2)</sup> übersetzen Sie genau, was er gesagt hat! –

ترجم المترجم محاولاً أن يعـثر على تعبـير أكثر لطفـاً. ولكن السـيدة بـ. استـشـاطـت غـضـبـاً وامتـلـأ وجهـها بـقعـحـمـاء، ثم ضـغـطـت على جـرسـ استـدـعـاءـ الحـرسـ بصـمتـ.

Hören wir auf. Das hat keinen Sinn<sup>(3)</sup>

هزّ المترجم كـتفـيهـ. إذ سوف يـدفعـونـ لهـ أجـرـةـ ساعـتينـ بـجـمـيعـ الأـحوالـ.

1- أرجـوـ أنـ تـفهمـ، يا سـيدـ إيفـانـوفـ، أـنـيـ أـريدـ أنـ أـسـاعـدـكـ. لكنـكـ لاـ تـرـيدـ أنـ تـصـفـيـ إـلـيـ. هـكـذـاـ، أـنـاـ آـسـفـةـ، وـلـكـنـيـ لاـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـفـعـلـ لـأـجـلـكـ شـيـئـاـ. هلـ تـرـيدـ أـنـ تـقـولـ لـيـ أـيـ شـيـءـ، آخرـ يـتـعلـقـ بـجـوـهـرـ القـضـيـةـ؟ـ (ـأـلمـانـيـ)ـ المؤـلـفـ

2- ماـذـاـ قـالـ؟ـ تـرـجـمـ لـيـ ماـقـالـهـ بـالـضـبـطـ!ـ (ـأـلمـانـيـ)ـ المؤـلـفـ

3- هـيـاـ بـنـهـيـ الـحـدـيـثـ. لأنـ هـذـاـ كـلـهـ بـلـاـ مـعـنـىـ (ـأـلمـانـيـ).ـ المؤـلـفـ

ثم قالت السيدة بـ. لربونها بنبرة ناشفة:

Auf Wiedersehen! Alles Gute!<sup>(1)</sup>

بقي الجميع جالسين بحالة توتر للحظة. بات الجو خانقاً جداً في الغرفة الصغيرة. راح الفتى يعاين الفتاة بطريقة وقحة وهو يهرش بين فخذيه. غمز المترجم وأومأ نحوها، كما لو أنه يقول هيا، لا تفوّت الفرصة!

أخيراً فتح الباب. خرج المترجم على إثر السيدة بـ. من الغرفة إلى الرواق.

فجأة صاح الفتى في إثراهما:

قل لها إنها تشبه شقيقتي الصغيرة!

خرجا إلى Helvetiaplftz. راحا يعبّان هواءً منعشًا وباردًا. كان وجه السيدة بـ. ما زال مُغطّى بقع حمراء. ابتسمت بحياة للمترجم.

ردّ لها الابتسامة قائلًا:

Auch das kann vorkommen. Achten Sie nicht darauf. Gehen Sie auf die Hochzeit ihres Bruders und geniessen Sie es!<sup>(2)</sup>

تنهدت السيدة بـ.

Nach so was ist es schwer, etwas zu geniessen. Zuerst muss man wieder ein bisschen die innere Ruhe finden.<sup>(3)</sup>

Man muss abschalten lernen. Gut wđre – Sicher, jetzt ein kleiner Spaziergang, den Kopf auszulđften, dann geht es

(4). vorbei

- 
- 1 وداعاً بالتوافق! (الماني). المؤلف
  - 2 يحدث أن نصادف مثل ذلك. لا تعيري الأمر انتباهاك! بل اذهب إلى عرس شقيقك واستمتعي بالحياة. (الماني) المؤلف
  - 3 من الصعب أن ينفع المرء بالاستمتاع فوراً بعد مثل هكذا مقابلات. يجب علىَّ في البداية أن أستعيد توازني (الماني). المؤلف
  - 4 بالتأكيد. يجب على المرء أن يتعلم أن ينسى. من المفيد أن تتمشي لبعض الوقت وأن تتشقّي هواء منعشًا، وعندئذ سوف يتلهي كل شيء وسيمضي. (الماني) المؤلف

كانا ما زالا واقفين أمام مبني السجن. راح المترجم يراقب كيف أنها تقوم باستمرار وبطريقة عصبية بترتيب خصلات شعرها خلف أذنها. مرّ ترجمواي بمحاذاتها وهو يهدى.

قالت السيدة ب.:

Meine Mutter war auch Lehrerin und ist jetzt pensioniert. Trotz allem ist die Welt ungerecht.<sup>(1)</sup>

أراد المترجم أن يهدي من اضطرابها وأن يقول لها شيئاً ما لطيفاً، لكنه لم يعرف كيف وماذا.

مدّت له يدها وصافحته ضاغطة على يده. قالت:

Auf Wiedersehen! Und einen schönen Tag!<sup>(2)</sup>

ظلّ المترجم ممسكاً بيدها.

Wissen Sie was, nehmen Sie das Ganze auf die leichte Schulter. Das gibt es gar nicht, dass es allen Lehrerinnen gut ginge. Man kann sich auch nicht Sorgen machen wegen allen Lehrerinnen, denen die Pension nicht zum Leben reicht.<sup>(3)</sup>

وهنا أفلت لسان المترجم كما لو أنه هو أيضاً صبر طويلاً وقد وجد أخيراً الشخص المناسب لكي يخرج كل ما تراكم لديه:

Wenn es Ihnen und Ihrer Mutter gut geht, dann freuen Sie sich doch! Wenn es irgendwo ein Krieg ist, dann sollte man um so mehr leben und sich freuen, dass man selbst nicht dort ist. Und wenn jemand geliebt wird, dann wird es auch immer einen anderen geben, den niemand liebt. Und wenn die Welt ungerecht ist, so soll man

1- لدى ماما أيضاً معلمة متقدمة. نعم، إنَّ العالم مبني بطريقة ظالمة! (الماني) المؤلف

وداعاً! أتمنى لك نهاراً سعيداً! (الماني) المؤلف

للعلم، يجب ألا تهتمي بكل ذلك! لا يمكن أن يحدث هكذا، بحيث أن تعيش جميع المعلمات بشكل لائق وجيد. ولا يجوز أن يعني المرء بسبب جميع المعلمات اللاتي لا يكفيهنَ راتبهن التقاعدي من أجل العيش بكرامة! (الماني) المؤلف

trotzdem leben und sich freuen, dass man nicht in einer stinkigen Zelle sitzt, sondern auf eine Hochzeit geht. Sich freuen! Geniessen!<sup>(1)</sup>

راحت تنظر إلى المترجم بطريقة غريبة نوعاً ما. على الأرجح لم تصدق ما سمعته.

حتى أنَّ المترجم نفسه لم يصدق كثيراً ذاته.  
سؤال: مَنْ هُنَاكَ؟

الجواب: يوجد مثل هذه الحكمة: كان ثمة عابر سبيل مُتعب يمشي -  
مجري للحب، تُرمِس لحفظ الدم، شخص ماشٍ لأجل كتاب المسائل، قدرٌ  
للنمل، ظلٌ للطريق. رأى كوخا. شيئاً ما يشبه مسكن ناف - ناف<sup>(2)</sup>. وكان ثمة  
قصب وأغصان شجرة بندق، أخشاب مرمية على الطريق تشبه خطوط الحياة  
على راحة اليد: سيكون لديك، أيها الجدول، ثلاثة أولاد، وستعمّر طويلاً  
جداً، وأما أنت أيتها الوهدة، سيكون لديك زوجان، ولدي كلّ منهما شامة  
على الكتف اليمنى. نثر الغروب غباراً من القرميد على السقف المصنوع من  
القش. والتواخذ مصنوعة من مادة شفافة فيها أغشية، بحيث إنك كيما نظرت  
لن ترى شيئاً، كما لو أنَّ أحداً ما قام بلصق أجنهحة يعسوِّب بسانه. وثمة  
رواق لم يقوموا بطلائه منذ زمن بعيد، ودرجات سلم تتنفس بشخير: تدعس  
عليها - زفير، ترفع رجلك - شهيق. إذا طرقت الباب - هدوء، لا يُسمع  
جواب لأحد. وهناك سلال شبكية كانت تحتوي برقاً، معلقة بأشجار  
التفاح وفيها حصى - وذلك لكي تنمو شجيرات التفاح في العرض. أما  
عناقيد الليك الأبيض فقد تغطّت بعد هطول الأمطار بالصدأ. العشب تحت  
المغسلة قرب شجرة البتولا ملطخ بمعجون أسنان. يوجد قرميد قديم قرب

---

1- وطالما أنت والدتك بألف خير وتعيشان حياة كريمة جيدة - فهذا رائع ويجب أن  
تفرحي بذلك! وفي حال كانت ثمة حرب في مكان ما، فمن الضروري عندئذ بالتحديد  
أن تعيشي بفرح وأن تتمتعي لأنك لست هناك. وإذا كان هناك شخص محظوظ، فلا بد أن  
يكون هناك شخص آخر لا يحبه أحد. وطالما أنَّ العالم ظالم وغير عادل فمن الضروري  
بجميع الأحوال أن تعيشي بفرح وبسعادة، لأنك لا تتعين في زنزانة قدرة وتفوح منها  
رائحة كريهة، وإنما تذهبين لحضور عرس. افرحي! واستمتعي! (الألماني) المؤلف  
2- بطل إحدى الحكايات الشعبية «الخنازير الثلاثة» من الفلكلور الإنكليزي... المترجم

نبات القبس<sup>(١)</sup>. راح يفكّر - لعله يوجد مفتاح هناك؟ قلب القرميد وإذ به يرى هناك حشرة كثيرة الأرجل. راح يطرق الباب من جديد - وهذه المرة بقوة أكبر. سمع خلف الباب خشخشة وسعالاً مكتوماً، وصريح الواح الخشب في الأرضية. سأله صوت بدا له غريباً: «من أنت؟». أجاب عابر السبيل: «هذا أنا». فسمع جواباً: «لا يوجد متسع هنا لاثنين». وقف عابر السبيل وراح يراقب كيف أن فراشة وقد تعثرت بالهواء، جلست على حافة النافذة التي كانت مغطاة بالكامل بقشور من طلاء قديم، ثم راحت تنظر إليه بعين أشهب بعين طاووس، وبعد ذلك رمشت بعينها فجأة. طرق عابر السبيل الباب من جديد وراح يرجو أن يسمحوا له بالدخول، ولكن الصوت من الداخل كان يكرر نفس السؤال. وهكذا راح يتكرر كل شيء. وذلك إلى أن طارت صاحبة العين الطاووسية، وعلى السؤال «من أنت؟» أصبح عابر السبيل يجيب: «من أنت؟». عندئذ فتح الباب. بيد أنه كنـت تعرف ذلك قبل أن أقوله لك.

سؤال: حتى إنني قادر أن أتخيل تماماً ذلك الصوت الغريب. فأنا أسمعه كل يوم. إنه جاري يدمدم لنفسه بشيء ما من دون توقف. لا بد أنه فيما مضى، منذ سنوات كثيرة سابقة، وقبل أن يصبح صبياً، كان عبارة عن دمية خشبية مرحة باسم بينوكيو<sup>(٢)</sup>. ومن ثم قامت ساحرة شريرة بتحويله إلى إنسان مبقية على الصوت الخشبي للدمية لديه. وهكذا عاش بينوكيو حياته وأصبح عجوزاً، وراح يذهب كل ساعة في سروال داخلي غير نظيف، مثيراً الرعب في نفوس الناس، إلى صناديق البريد عندنا في فناء الدار، وفي الليلي يقوم بكنس الدرب المؤدية إلى البيت التي تساقط عليها أكواز وإبر

- القبس (الاسم العلمي: *Phlox*) هو جنس من النباتات يتبع الفصيلة البولامونية من رتبة الخلنجيات الاسم العلمي فلوكس من الإغريقية وتعني «الهب» المترجم

- بينوكيو هي شخصية خيالية مستمدـة من رواية كتبـها الرواـيـي الإيطـالي كارـلو كولـودـي سـنة 1880، وترجـمت لأـكثر لـغـات العـالـم، وتحـولـت إلى عـشـرات الأـفـلام، منها ما اـنـتجـه دـيزـني بالرسـوم المتحـركة في عام 1940، والتـلفـزيـون الإـيطـالي في خـمس حلـقات كل حلـقة بـمـدة ساعـة وذـلـك في عام 1972م. وتحـدـثـت هـذـه الروـاـيـة عن طـفـل مـصـنـوع من الخـشـب وله أـنـف طـوـيل. وقد اـشتـهـرت هـذـه الروـاـيـة خـاصـة في النـصـف الثـانـي للـقـرن العـشـرين بعد تـطـور وسائل الإـعـلام والاتـصال. المـتـرـجم

الصنوبر وذلك بواسطة مِقْشَة. نحن نعيش في مبني متين، على شاكلة مسكن ناف - ناف، ولكنه يحتوي عدداً كبيراً من الشقق المؤلفة من غرفة واحدة، لا يمكن لأي ذئب أن يدخل إليها. أما الرجال المسنون والنساء العجائز الذين يعيشون فيها، فيتحولون بالتدريج إلى دمى. وفيما بعد، في الليلي، يقومون بقضم الشرانق المحيطة بهم ثم يطيرون على وقع خشخاشة المِقْشَة وتمتمة بينوكيو العجوز في سرواله الداخلي. في حين أن إبر الصنوبر تستمر بالسقوط. وحده الكسول لا يؤلف حكاية خرافية حول عابر السبيل، يبدأ أنّ هذا كلّه مجرد هراء.

الجواب: لماذا؟

سؤال: لأنّ التبن والقش، تيك وتاك<sup>(1)</sup>، اللون وقماش اللوحة الزيتية، النعل والدرب، المرأة والغرفة، المتر والثانية، الجرف الصخري والغيمة، السترة المتراخيّة والتنورة التي تفوح برائحة السجائر، الوتر الذي يرتجف والهواء الذي يولّد الصوت.

الجواب: حسناً، أنت مدقّ<sup>(2)</sup> تكتب، وأنا - سُداة متكلّمة.

سؤال: كيف الحال؟

الجواب: كل شيء على ما يرام.

سؤال: هذا غير مألف.

الجواب: وماذا إذن؟

سؤال: ما هو الجديد؟

الجواب: ولكنك تتابع نشرات الأخبار!

سؤال: وما زلت تقول - أخبار! آخر الأنباء! حتى أنه لن يخطر ببالك أية

-1 شخص متخيّلة في عالم مارفل (Marvel Universe) هو العالم المشتركة الخيالي الذي تقع فيه أحداث أغبل القصص المصورة الأمريكية والوسائل الأخرى التي يتم نشرها بواسطة مارفل إنترتينمنت. الأبطال الخارقون مثل الرجل العنكبوت، إكس مان والمنتقمون هم من هذا العالم. المترجم

-2 pistillum (لاتيني) الجزء الأنثوي من الزهرة يتتشكل منه الجنين بعد الإخصاب بواسطة غبار الملاحة. والسداء - هي الجزء المذكور من الجهاز التناسلي في الزهرة. المترجم

أخبار يمكن أن تكون هناك! تشغّل قناة معينة - وإذا بهم يبيّنون هناك إشاعات فحسب: ليسيكليس<sup>(1)</sup>، تاجر ماشية، شخص تافه بحد ذاته ومن منشأ وضع، ثم أصبح الشخص الأول في أثينا لأنّه بات يسكن أسبانيا بعد وفاة بريكليس. وإذا انتقلت إلى قناة أخرى - تشاهد ديونيسيوس<sup>(2)</sup> وهو يسير في حي مونمارتر<sup>(3)</sup> حاملاً رأسه المقطوع بيديه الممدودتين، وقد راحت قطرات الدم تقطّر منه. وفي القناة الثالثة كانوا يعرضون الرومان وقد مضى نصف عام على حصارهم لأورشليم. وفي القناة الرابعة كان يطُلُّ رجل وقد راح يقول إنه طبيب الأطفال الجديد في الروضة وإنّه جاء لكي يفحص جميع الأطفال في هذا الفنان بشأن وجود أو عدم وجود بثور على الإليتين، ولذلك يجب عليهم أن يذهبوا معه إلى المستوصف.

الجواب: وأية أخبار هذه طالما أني سبق أن تحدثت عن ذلك الرجل في فناء دارنا قبل سنوات طويلة جدًا!

سؤال: ولكنك تعرف: الأخبار - هي كل ما تبقى على مدى الحياة ثم راح يكبر مثل الكلمة تم حفرها على جذع شجرة ثم راحت تنمو مع الشجرة.

الجواب: بيد أنّ هذا كله قليل الشأن في حقيقة الأمر.

سؤال: كيف غير مهم طالما أنّ كُلَّ هذا موجود فيك وأنك تتكونين منه. وجدت ذات مرة واقِيَا ذكريًا تحت وسادة ماما، وقد كان محسوّاً بخرق مطوية. كانت في تلك اللحظة في المطبخ تقوم بتحضير طعام الفطور. كنت تریدين في البداية أن تسأليها ما هذا الشيء، بيد أنك شعرت بالخوف فجأة ولم تسألي عن الموضوع.

الجواب: أذكر، ولكن هذا كله حقيقة غير مهم.

---

- المقصود هنا على الأرجح زوج أسبانيا بعد وفاة عشيقها رجل الدولة بريكليس... وقد كان ليسيكليس في بادئ الأمر، كما يقال، تاجر ماشية، ثم أصبح فيما بعد خطيباً وغوغاً - بحسب المؤرخ بلوتارخ. المترجم

- المقصود القديس ديونيس البارسي وهو أول أسقف في باريس وشهيد مقدس. المترجم - حي مونمارتر بالفرنسية (Montmartre) وهو حي من أحياي الدائرة الثامنة عشرة في باريس ويعتبر من أعلى أحياي باريس من حيث الارتفاع. كما يعتبر أحد المعالم السياحية والمواقع الأثرية في باريس. فيه تقع كنيسة الساكري كور في مونمارتر. المترجم

سؤال: وما هو المهم؟ كيف كنت تلعبين بحكاية الشقيقات الثلاث - إحداهن بعين واحدة، والثانية بعينين والثالثة بثلاث أعين، وقد قمت برسم عين ثالثة لنفسك على جيئنك؟

الجواب: نعم.

سؤال: وماذا أيضًا؟

الجواب: وصف الطبيب لي تدليka سطحياً بمحلول ملحي في أوقات الصباح. بطبيعة الحال، لم يعجبني ذلك، ولكن ماما كانت كل صباح تحلّ ملحًا بحريًا وتقوم بمسحه بواسطة إسفنجه. وفي يوم من الأيام تراجرت مع الفتيات أثناء الاستراحة، لم أعد أذكر السبب، فجلستُ في المقعد وكان شعري أشعث تماماً، وشعرت بأنني وحيدة جدًا، ولا أحد بحاجة إليّ. وفي هذه اللحظة قمتُ بلحس يدي وشعرت بطعم الملح على جلدي. اخترقني إحساس غامض وغريب. هذا يعني أنه في الدنيا أناس يحتاجون إلى مثل هذا التدليل بالمحلول الملحي؟ والأدق ليس التدليل ما هم بحاجة إليه، وإنما هم بحاجة إلى أنا بالذات. بيد أنني بدأت بإدراك ذلك لتوه، أما حينئذ فقد لحسْتُ بشرتي ببساطة فشعرت بطعم الملح وبالحب.

سؤال: هاتي، أخبريني كيف كان العشاق والمعجبون يأتون إلى ماما، لذلك كنت تقومين بحلّ فروضك المدرسية في المطبخ، بينما كانت ماما ترتدي رداء لا شيء تحته، وتهرب إلى الحمام.

الجواب: كان أحدهم، العم سلافا<sup>(1)</sup>، مثيراً للضحك، وكانت ماما تحبه كثيراً. بل إنها كانت تحبهم جميعاً. ولم تكن ترحب بالذهاب إلى جنوب روسيا للاستجمام قائلة إنه يستحيل إقامة علاقات غرامية قصيرة الأمد - إذ إنها ستغريم حقيقة. كان العم سلافا يقولأشياء غريبة. على سبيل المثال، نجلس حول المائدة ونتناول الطعام، أما أنا فلا أريد أن آكل. تقول ماما لي: «ما بك، تدللين وتعاندين، هيا كُلي!». أما أنا فلم أكن آكل. وعندئذ كان العم سلافا يدافع عنِي: «تانيا، دعيها وشأنها، فالإنسان ليس مجرد أنبوب معوي!». ومن ثم يبدأ فجأة

---

- 1 - اسم علم - صيغة التحubb أو التصغير من فتشيسلاف... المترجم

أثناء تناول الطعام بتنوير ماما بخصوص كيف أنَّ العالم مبني: «نحن الرجال - كان يقول - عبيد الهرمونات التي يتم إفرازها في الدم وتصرب الدماغ - بحيث لا نعود قادرين أن نعمل أي شيء - بل يقومون باستغلالنا! الرب يشعل النار بأجسادنا! ولماذا من صميم الغريزة الأنثوية أن تقوم المرأة بالاهتمام بالرجل كما لو أنه طفل؟ ذلك لأنَّ الناس عاشوا ومنذآلاف السنين وعلى مدى قرون طويلة بحالة زواج جماعي، وبالتالي فقد كان الرجال - عشاق المرأة بمتنزهه أو لادها الذين أصبحوا كباراً. فالعشيق بالنسبة للمرأة هو دائمًا طفل!». ثم يغمزني ويقول: «ضعي هذا الكلام مثل قرط في أذنك!». كانت ماما تحبه كثيراً. كان متزوجًا، وكان يأتي إلى ماما مرة كل أسبوع في أيام الجمعة. كانت ماما تنتظره، وتقوم بتحضير طبق لذيد خصيصاً له كما تهتم بنفسها وتتجمل. كانت تسمح لي في بعض الأحيان بطيء الأظافري بطلاء أحمر فاقع. كانت تقول إنه يفترض بالأصابع أن تكون أشبه بشموع الكنيسة، شاحبة ودقيقة، وأن تكون الأظافر أشبه بالشعلة. كنت أحبُّ أن أنضم إليها في فراشها حيث كان التكؤ هناك هائلاً، فالتصق بها ونبداً بالثرثرة عن شيء ما حتى نغفو. أو أنها كانت تقرأ لي شيئاً ما. وقد استمر ذلك عندي حتى بعد أن أصبحت كبيرة. عندئذ أصبحت لا تقرأ قصصاً للأطفال، بل ما تقوم هي نفسها بقراءته وكان عادة على طاولة صغيرة بالقرب منها - إما روايات أو من الأبراج. أذكر أنها استنتجت من الأبراج أنَّ علاقتها مع العم سلافا غير سليمة ولا يتواافقان بعضهما مع بعض - ما جعلها تشعر بالإرباك وبالتالي. رحت أواسيها: «ماموتشكا، ولكن لاحظي أنك تنسجمين تماماً مع برج الثور أو برج الجدي!». فتجيبيني: «لا أريد أي شخص آخر، بل أريد برج الأسد فقط - لكي أسرح له العفرة ولكي أداعبه من أذنيه». كان ثمة نسخة عن لوحة غوغان معلقة فوق سريرها. كانت ماما كثيراً ما تستلقى وتنظر إليها، وتقول إن تلك هي «نافذتي». كما لو أنني أرى الآن أشجار النخيل والفتيات الخلاسيات نصف العاريات. كانت ماما تقول ضاحكة: «سوف ألف على خصري حزاماً من النبتة المتسلقة وسوف أفرُّ من هنا، من شتاكم إلى هناك، إلى جنة تايتي. ولكنني لا أستطيع الحصول على نبتة متسلقة هنا، إذ ليس سوى كثبان الثلج في كلّ مكان!».

## سؤال: هل تذكرين الوالد؟

الجواب: كلا. لكن ماما كانت تحكي لي عنه كثيراً. عندما كان يفترض بي أن أبصر النور، لم يكن في البداية يرغب بذلك. كانت ماما قد لجأت إلى الإجهاض قبل ذلك أكثر من مرة. وفي هذه المرة أيضاً، وبعد أن عرف بابا أنها حامل، قال لها إنَّ وضعهما لا يسمح لهما نهائياً بالتفكير بولادة طفل. راحا يجمعان النقود من أجل عملية الإجهاض - فقد كانت مكلفة جداً، ولم يكن لديهما سوى القليل جداً من المال. بيد أنني على ما يبدو كنت أريد أن أحيا بقوّة، بدليل أنَّ بابا التقط تلك النقود، قام بتمزيقها ثم قال: «انتهى، لا مال من أجل الإجهاض، سوف نلد!». كانت ماما تحبُّ كثيراً. وكانت تتمى أن يحمل الطفل اسمه، وقد فرحت كثيراً لأنَّ اسمه ألكساندر: إذا ولد صبي سوف يكون اسمه ساشا، وإذا ولدت بنت - سيكون اسمها أيضاً ساشا. لم يكن لدينا أسرار نخفيها عن بعضنا؛ كنتُ ألتتصق بها قبيل النوم في السرير، وكنا نحكى بعضنا البعض كل شيء. أنا كنت أحكي لها، وهي بدورها تحكي لي - كل شيء بلا استثناء، ما هو جيد وما هو بشع. كانت تعاني كثيراً لأنَّ شقيقتها الصغرى توفيت في طفولتها بسببها. حدث ذلك خلال فصل الصيف، في البيت الريفي، عندما كان عمر ماما ثمانيني سنوات. ذهب الوالدان وتركاها لكي تعتني بأختها، وكان اسمها مثل اسمي، ساشا. كان عمرها سنة ونصف السنة، كانت نائمة ومن ثم استيقظت وراحت تصرخ. حاولت أمي أن تهدئها لكنها لم تنجح في ذلك. في هذه اللحظة بدأ هطول المطر، فقررت أمي لسبب ما أنها في حال أخرجتها إلى الفناء، فإن المطر سوف يجعل ساشا تهداً وتكتف عن البكاء. وهكذا قامت بلف نفسها مع أختها بمعطف الوالد القديم وخرجت من الرواق وجلست معها على أسفل الدرج تحت شجيرة الليليك. راحت الأغصان تتحني والأشجار تخشخش، وبرك الماء تبقبق، وقد هدأت ساشا على الفور بسبب ضجيج المطر. كان المطر غزيراً، ويهطل بشكل مائل، ولكن أمي نسيت أن تغلق النوافذ، لذلك امتلأت الشرفة بالماء. نهضت لكي تحمل الطفلة النائمة إلى سريرها ولكي تغلق نوافذ الشرفة، وراحت تصعد درجات الرواق،

لكنها تعثرت بالمعطف فسقطت مع ساشا التي اصطدم رأسها بقوة على الأرضية. شعرت أمي بخوف شديد ولم تكن تدرى ماذا يجب عليها أن تفعل، فركضت إلى الجيران الذين قاموا بنقل الطفلة إلى المستشفى، أما هي فراحت تنتظر عودة الوالدين. عاد الوالدان في وقت لاحق وذهبا أيضاً إلى المستشفى. وهكذا لم تعد ساشا إلى البيت مرة أخرى. فقد ماتت بعد مرور بضعة أيام. شعرت أمي بالألم وبالقهقهة لأنها لم تستطع أن تنام بضعة أيام بلياليها حيث كانت تقضيها في البكاء. وقد قررت ألا تعيش بعد ذلك وأنها سوف تنتحر، قائلة لنفسها: كيف يمكنني أن أحيا، طالما أن ساشا توفيت بسببي؟ عندما عاد الجميع من مراسم الدفن، وجلسوا إلى المائدة لكي يستذكروا ساشا، ذهبت أمي إلى الحديقة لأنها كانت قد قررت في نفسها أنها سوف تنتحر غرقاً في جورة التفتيش، لكنها عندما نظرت إلى هناك رأت الديدان فخافت. راحت أمسح على يد أمي برقة من دون أن أعرف ماذا يجب أن أقول لها، ولكنني قلت: «ماموتشكا، أرجوك لا تبكي، ها أنا موجودة الآن لديك بدلاً من تلك الفتاة! وربما أنا هي تلك الطفلة بالذات! فأنا أيضاً أدعى ساشا!». ثم كنا نلتصق بعضنا البعض ونغفو ونحن على هذه الحال - كم كان رائعًا أن نغفو معاً.

سؤال: إنك تذكريني بأحد ما. بفتاة كنت أعرفها قبل سنوات كثيرة مضت. لكن هذا ليس مهمًا، لأنها لم تعد حية. حدث أن تşاجرنا ذات يوم، حتى أني لا أذكر سبب الشجار، رحنا نقول بعضنا بحق بعض كلمات نابية جداً، ثم ذهبت بعد أن رمتني بكتاب. وبعد مرور نصف ساعة عادت وقالت بكل هدوء: «هيا، إبس الكترة بالمقلوب!». لم أفهم شيئاً، ولكنني لاحظت أنها ترتدي الكترة بالمقلوب. سألتها: «لماذا؟». «عندما كنت طفلة، قالت لي جدتي أنه إذا ما ضللت الطريق في الغابة، يجب عليك أن تقومي بارتداء الفستان بالمقلوب لكي تتعري على الطريق». قمت بارتداء الكترة بالمقلوب، وبالفعل اختفى فجأة كل ما تراكم من حقد وقسوة عندي، تلاشى بطريقة ما، فشعرت برغبة قوية بأن أحضرنها وأن أضمّها بقوّة بحيث لا تفلت من بين يدي أبداً.

الجواب: وماذا حدث لها؟

سؤال: وما الفرق.

الجواب: هل يجب علىي أن أكمل حديثي؟

سؤال: كما تشاءين. ما لك تبتسمين؟

الجواب: تذكريتُ أمراً ما. كنت أرى أنَّ جميع صديقائي جميلات، أما أنا فمعتوهه ومشوهه. كنت أخجل من جسدي إلى درجة كبيرة جداً - فقد سبق أن أحرقوني بماء مغلبي في صدرني وعنقي. لذلك كنت ألفُ نفسي بطريقة لا تسمح لآخرين بأن يروا آثار الحرق. كنت ألبس بدلة سباحة مغلقة في المسبح أو على الشاطئ. وكم كنتُ أحلم بأن أكون مثل الجميع. ثم قررت في يوم من الأيام أن أدخن، إذ إنَّ معظم الفتيات كنَّ يدخنَ، أما أنا فلا أدخن. كانت إحدى صديقائي تقترح علي السجائر، ولكنني كنت أرفض باستمرار. وفي إحدى المرات، وبينما كنا في المنتزه قبلتُ وأخذتُ السيجارة الممدودة لي، أشعلتها وجربت أن أسحب منها فاختنقت. كانت تسير بقربنا امرأة عجوز، فتوقفت وراحت تتأملنا وهي تهتز رأسها. وإذا بها تصرخ بصوت يملأ الشارع: «سوف تقومين في الحياة الآخرة بمص قضيب الشيطان!».

سؤال: وأين منطقة الجلد المحروق عندك؟ في أي مكان بالتحديد؟

الجواب: لن أكشف لك عنه.

سؤال: كان يوجد رف للكتب فوق رأس السرير. تناولت ألبوماً للصور وراحت تقلب فيه. وفجأة قالت: «لماذا لديها سرّة؟». لم أفهم شيئاً: «أية سرّة؟ وعنده من؟» عرضت عليَّ لوحة كراناخ<sup>(1)</sup>، وهناك آدم وحواء، وبديهي أنها توجد سرة لدى حواء. قمت بومئذ بتسجيل ذلك. كان لدى دفتر يوميات سميك، وكان يبدو لي أنه يجب عليَّ أن أقوم بتدوين كل ما هو هام. كما أني سجلت كيف أنها وضعت ألبوم الصور جانبًا - على فخذيها، ما جعله يبدو وكأنه تنورة قصيرة جداً (ميني - تنورة).

1- لوکاس کراناخ 1472-1551 رسام وفنان ألماني من أشهر رموز عصر النهضة الذي رسم لوحات مستوحاة من الكتاب المقدس ومن القصص الدينية. المترجم

الجواب: كنت أعيش من دون أن أشعر أو ألتفت لنفسي. إنها مرحلة الطفولة. ومن ثم تدرك فجأة أنك لست نفسك بذاتك وبكل بساطة، وإنما يجب أن تروق للآخرين. والأدق، لا يجب بل تمنى بقوة كبيرة. أن يُعجب بك جميع المحظيين: الرجال والنساء، المرأة والهرة، الركاب في الحافلة والسحب في السماء، وحتى الماء في العنفية. كما لو أنهم يضعون على كتفيك كيساً ثقيلاً جدًا ثم يقولون لك - هيَا اذهب. ولكن لن يكون بإمكانك أن تجتاز مترین مع مثل هكذا ثقل كبير. لم أكن معجبة بنفسي. لم أكن أحب جسدي. بل كنت لا أطيقه. كنت أشعر بالقرف لكونني موجودة جسدياً، فيزيائياً بصورة عامة. لم يكن يروق لي أن يكون لي ثديان. فقد كان ذلك عقاباً وعداً حقيقياً - أن أكون مرصودة ومرئية كل يوم! من دون أن يكون بإمكانني أن أفعل أي شيء! فرأيت في أحد الكتب كيف أنَّ البطلة قامت بقص رموشها بالمقص، ما جعلها تنمو فيما بعد إلى درجة أنها كانت تتسع لعدد من أعوداد الثقب. فعلت الشيء نفسه، لكن الرموش الجديدة عندي كانت أسوأ مما في السابق.

سؤال: ما زلتُ أذكر أننا كنا نتحدث عن أمر ما، فقلتُ إنه يستحيل البرهان على وجود الرب. أما هي فاعتبرت قائلة إن هذا الكلام عار عن الصحة، وإن البرهان على ذلك في متنه البساطة. قلتُ: «هاتي برهانك!». صمتت برهة ثم أجبت أنَّ ذلك لا يتطلب سوى سطر واحد. ثم قرأت سطراً من قصيدة ما بما معناه أنَّ الطير - هو الصليب الذي يعلقه الله على صدره. «وهل ثمة حاجة بعد ذلك لأية براهين؟» - ثم راحت تقهقه. ما زلتُ أتخيل حتى الآن كيف أنها توقفت - كنا نمشي في وقت متأخر على الشاطئ - ثم جلست على الحاجز الغرانيتي وراحت تتحرك نحو الأسفل أكثر فأكثر وهي تتمايل من جهة إلى أخرى، مستخدمة مؤخرتها للحركة.

الجواب: كان يُخيّل لي أنَّ ثمة شيئاً ما، غريباً، لا يتميّز لي راح ينمو على جسدي. أنا بحدّ ذاتي، وأما تلك المرأة التي أكتسبها وتنمو فيَّ - فكائن آخر مستقل عنّي. كانت وجنتاي تحرّمان طوال الوقت، ولم أكن أعرف كيف يمكنني السيطرة على ذلك. بمجرد أن يخاطبني أحد - أصبح كالمسئولة،

وأنظر إليه مرعوبة، معتقدة أنّ أمراً ما في ملابسي غير سليم. ومن دون أية مقدمات أو مبررات تصعقني فكرة - ماذا لو أنّ الجوارب انزلقت؟ أشعر بنفسي كما لو أتنى عارية، فلا أعرف ماذا أقول وتبداً راحتاً يدي بالتعرق. أبكي قبيل النوم في الوسادة قرب أمي، فتقوم بمواساتي: «لا تكوني حمقاء سوداوية. بل كوني مرحّة وفرحة!».

سؤال: لم يكن ثمة مكان نلتتج إلى، ولذلك كنا نتسكع في الشوارع ساعات. أذكر أن امرأة عجوز كانت تبيع الكرز الموضوع في مرطبان زجاجي مبعّر، قرب محطة مترو الأنفاق. اشترينا وأردننا أن نجلس في مكان ما، إلا أنّ جميع المقاعد كانت مبللة بماء المطر، حتى وصلنا إلى باحة صغيرة للأطفال خالية من الناس مع أراجيح مخلعة. وضعّت حقيبتي مع الكتب المدرسية فيها على حافة الكثيب الرملي ثم جلستُ فوقها، أما هي فجلست على ركبتي. رحنا نأكل الكرز، وقد كان ناضجاً ولذيداً ممتلئاً بالعصير. كنا في البداية نبصق النوى على الرمل الذي كانت تغطيه قشرة من قطرات المطر أشبه بجلد الإوز، مع عدد كبير من أعقاب السجائر والزجاج المكسور وأغطية قناني البيرة، وكنا نحاول أن نصيب كعكة رملية سبق أن صنعها طفل ما حيث كان ماء المطر يتدفق من حولها. كان يقف مقابلنا منذ زمن بعيد جداً تمثّل للذين سقطوا في المعارك - تمثّل جندي مع يد مكسورة، كان يمسك بها على الأرجح بندقية آلية - كانت تتبدّل من الجدع المتبقّي أسلاك الحديد. كان الجندي القتيل ينظر بعينين بيضاوين هائمتين إلى مكان ما نحو الأعلى، نحو أعلى الأشجار المبللة بالمطر التي كانت تمطر من جديد في كلّ مرة تقوم الرياح بهزّها. كان يبدو أنه يدعو بيده الثانية المتبقية آخرين للحاق به، غالباً نحن، لأنّه لم يكن في الباحة أحد غيرنا، يقصد هنا بنا، يا شباب، لكي نسلّق تلك الأشجار ومن هناك تصبح السماء قريبة جداً! عندئذ لم نعد نبصق النوى على الرمل، بل رحنا نمسك بها بين أصابعنا ثم نطلقها بقوّة لكي تصيب الجندي مباشرة، تاركة على العجس - أو المادة التي تم صنع التمثال منها - خدوشاً كرزية. تلطخنا بالكامل من عصير الكرز ومن النوى، فأصبحت أيدينا بلون كرزي. كانت أكثر دقة مني في

التصوير، حتى أنها أصابت في إحدى المرات عينه مباشرة. فجأة ظهرت على الغشاوة البيضاء في عين التمثال حدقه كرزية، ما جعل الجندي يبدو وكأنه ينظر شرّاً نحونا بعين واحدة، كما لو أنه يعاتبنا بمعنى كيف سمحتما لأنفسكم أن تفعلوا ذلك مع أنني إنما قتلت لأجلكم، وهذا أنتما ترمياني بنوى الكرز! رحنا نقهقه ثم تابعنا تسكعنا في شوارع المدينة.وها أنا أعرف الآن، بعد مرور كل تلك السنوات، أن الجندي الجبسي الذي فقد يده، راح ينظر في إثرنا ويقول في نفسه أمراً آخر مختلفاً تماماً: لقد قُتلت في سبيل قضية مهمة ومن أجل نفسي أيضاً، وطالما أنكم مرحتما تقذفوني بنوى الكرز في هذه المرة الغارقة بماء المطر وبحبكم، فليكن ذلك على الأغلب جزءاً من تلك القضية النبيلة.

الجواب: أنزع ملابسي وأتطلع إلى نفسي في المرأة بسرعة. ها هو جسد عار لشخص ما يقف وسط الغرفة على الأرضية الخشبية الباردة. جسد نحيل ومشوّه، مع رقع من جلد ضفدعه. الأميرة - الضفدع. وثمة نجم يضيء في الجبين. بل ليس نجماً واحداً، وإنما مجموعة كاملة من النجوم. الجبين ممتلئ بيشور حب الشباب، وثمة بشرة جاهزة لأن تظهر على مقدمة الأنف. والخدان شاحبان، ولكنهما في اللحظة الأكثر حرجاً، يصبحان بلون الشمندر بطريقة غادرة. وعلى الشفتين قوباء (آثار هربس) بعد نزلة برد. ثمة تيار هواء بارد يمر في الغرفة، فينكمش الجسد المزرق بالأساس. أمرر اليد - واشعر أن الملمس تحت اليد غير ناعم، بل تغطي البثور كامل الجلد. النهدان - صغيران، أشبه بهم مكان لو خز الإبر (بإيليتين). والحلمتان - دققتان جداً أقرب إلى بثرتين. ثمة علامة حمراء اللون على البطن من تأثير مطاط السروال. والسرّة غير جميلة الشكل - تبرز نحو الخارج، مثل حبة عنبر غير ناضج. وإلى الأسفل - ثمة شعر يتبععد. يمكن الإمساك بلفائنه. لماذا هناك شعر؟ ثم إلى الأسفل أكثر ثقبان - لا يمكن رؤيتهما من دون مساعدة مرآة. كيف كانوا يعيشون، يا ترى، قبل أن تظهر المرأة؟ من دون أن يرى المرء أبداً ذلك المكان من جسده طيلة حياته؟ أقف وأتساءل: هل يعقل أن هذا الجسد المزرق الذي يقف مقابلني في المرأة، والذي يغطيه جلد أشبه بجلد إوزة، المقشر والغائر وله ثنيات عديدة،

والذي ما من أحد في هذه الدنيا بحاجة إليه، وأنا بالدرجة الأولى - هو أنا؟  
ومع ذلك، لماذا لدى تلك الأشعار بين فخدي؟

سؤال: كنا ضيوفاً عند عائلة شابة حديثة العهد، وكان كلاهما ملحاً  
وكان قد ولد لهما للتو طفل، صبي. كان ثمة بيانو في الغرفة قد ورثاه عن  
أحد الجدين كان فيما مضى موسيقياً. كان الأب، طالباً في معهد الموسيقى  
(الكونserفاتوار)، من أقراني، يضع الطفل على ظهر البيانو بين وسادتين ومن  
ثم يقوم بالعزف. ثم راح يقوم بتحفيض الطفل بنفسه، هناك أيضاً، على المشمع  
المخصص والموضوع على ظهر البيانو. رحنا نقف ونراقب كيف أنه يفعل  
ذلك بمهارة بأصابعه الطويلة. وكيف أنه جلد طفله يدفعه بذقه غير الحليقة.

الجواب: ذلك أنتي لم أكن بحاجة لأي شيء سوى أن أكون مغفرة. كما  
لو أنتي كنتِ كائناً، وأنه كان يجب ملؤه حتى أعلى الحافة. أو لنقل جورياً  
ينتظر الساق التي ستجعله يعثر على كينونته. إذ إنَّ هذا هو المغزى من  
الجورب - أن يكون على ساق شخص ما. فهو مصنوع لأجل ذلك بالتحديد  
- على صورة وشكل الساق. كان كل شيء عندي جاهزاً، أما في الداخل  
فكان يسود فراغ تام. وحدث أتنا ذهيناً أنا وماما أثناء عطلة الصيف إلى بحر  
ريغا. اتفقنا أتنا سوف نقدم أنفسنا على أتنا أختين. كان هناك شاب لاتواني،  
فتى تماماً، وقد أعجبني على الفور. كما أنه راق لماما أيضاً. وفجأة اجتازت  
حياتنا موجة باردة لأول مرة. هي الأميرة - البعثة، وأنا الأميرة - الضفدع.  
نشأت قصة غرامية بينها وبين ذلك الفتى اللاتواني، فرحتُ أزعجهما  
وأعرقل مخططاتهم. كانت ماما بالنسبة إلى كل شيء تقريباً قبل ذلك  
الصيف، وقد قررت أن أكون مثلها. وإذا بي أنظر إليها هنا من زاوية مختلفة  
وبعينين مختلفتين تماماً. وفي إحدى المرات كانت ماما تلعب كرة الطائرة  
على الشاطئ، أما أنا فكنت جالسة على الرمل قرب الماء وأشعر بالقهر لأنَّه  
لا شيء أفعله ولا صديق. مسحت قطرات الماء عن وجهي وشعرت أنَّ  
الجلد على يدي مالع، كما كان ذات يوم في طفولتي. فضمرت أنه في حال  
لامست الموجة الرابعة أصابع قدميَّ، فإنه سوف تنشأ عندي قصة حبٍ -  
حب عظيم و حقيقي، مدى الحياة. ولكن الموجات كانت ضعيفة، واهنة،

بحيث راحت تبتعد أكثر فأكثر عن قدمي - الثانية والثالثة. وأما الرابعة فقد تعزمت وتقوّست ولا ممت أصابعه. طالت جميع أصابع قدمي بفمها بل وداعبت عقب القدمين بالرمل! ما هذا الذي حدث معى فجأة؟ أجلس وأسمع، أرى وأتنفس كلَّ ما يحيط بي: البحر والسماء، الهواء والنوارس، والناس، ولكن ذلك لم يعد مجرد نظر ولا سمع، لا لمس ولا شم - وإنما محبّة، لم يعد ثمة شيء خاص بي - لا عين ولا يدان، ولا ساقان - كل شيء بات ينتمي إليها. انتفضت ورحت أركض في مياه البحر، رحتُ أطيرُ بالمعنى الحرفي للكلمة، مثل طائر، وأنا ألامس سطح الماء برؤوس أصابع قدمي - ولكن ماذا يمكنني أن أفعل بكلَّ هذا المقدار من الحب؟ كيف أتصرف معه؟

سؤال: ذهبنا ذات يوم للتنزه في قارب نهري سياحي. كانت السماء ماطرة، فأخذت معها مظلة - كبيرة، قديمة جدًا، وقد أصبح لونها كالحَّاء، من النوع غير القابل للثني، لذلك كان يمكن الاستناد إليها أثناء المشي كما لو أنها عكاز. كنا جالسين على سطح القارب، وكان ثمة تيار هواء قوي جدًا. شلحت شحاظتها ودست قدميها العاريتين في المظلة لكي تخبيئهما من الريح. ثم فتحت المظلة وحملت نفسها بسياخ المظلة مع الغشاء. صاحت: «انظر! لم يعد لدى الآن قدمان، بل مظلة بدلاً من القدمين!». راحت ترفعهما وتخفضهما، مثل ذيل ملفوف، وهي تطرق بهما على سطح القارب. ثم قالت: «اسمع، نصف فتاة - نصف سمكة - هذه هي حورية البحر، أما نصف فتاة - نصف مظلة - من تكون عندئذ يا تُرى؟». أجبتها: «شبيه المظلة». راحت تضحك قائلة: «هذا أنت شبيه المظلة! أما أنا فمنطاد!».

الجواب: ومع ذلك، قل لي ماذا حدث لها فيما بعد؟

سؤال: قرأت في مكان ما أنَّ البشر - عبارة عن غصن تفتح عليه مثل وريقات تخرج من برعم. تساقط الأوراق، أما الغصن فيستمر في النمو. كانت تعتقد أن روح طفل قتيل انتقلت إليها وسكنت جسدها، كما لو أنه حدث أمر جلل عندهم في الأسرة، لا أذكر ماذا بالضبط. راحت تقول إنه لا يمكن تفسير الوفيات عند الأطفال إلا عن طريق الكارثة - لماذا يقولون بقتلهم. مجرد هذيان بنات. إذ يمكن أن يحدث أي شيء في أية لحظة -

يمكن للمرأة الحامل أن تتعثر وأن تسقط - وينتهي الحمل. يموت الجنين.  
أمر في مقتنه البساطة.

الجواب: أنت لا تدرك أمراً واحداً! كنت أشاهد كيف يقومون بتجارب على الأشخاص الذين هم في حالة موت سريري. بينما كان المرء يموت، كانوا يضعونه على ميزان حساس جداً. برنامج متكامل من التجارب. وقد تبين أن وزن الجسم يتناقص وسطياً حوالي خمس غرامات بعد أن تحل لحظة الموت. أو عشر غرامات، لم أعد أذكر بالضبط. أقل عند أحدهم، وأكثر عند آخر. وهذا وزن الجسد عارياً، من دون ملابس. سُمّ ذلك كما تشاء - روحًا، الجوهر، أو العنصر الخامس أو غبار الطلع. وإن تلك الغرامات الخمسة لا تختفي ولا تتلاشى نهائياً، بل تبقى في مكان ما. فإذا ضربت ذلك بمليارات أو كم هناك من الناس الذين راقبوا الغروب على مدى عشرات ومئات آلاف السنين، سوف نحصل على رقم هائل - كواحدة ليلون<sup>(١)</sup>؟ إنها تلك الجبال التي نحمل وزرها وتضغط على كواهلنا. يقولون لنا إنه الضغط الجوي، ولكن الحقيقة هي أنَّ ذلك - كل ما كان وما حدث مع أولئك الذين عاشوا قبلنا، ولهذا يوجد مثل هذا الثقل. لدى البحارة اعتقاد خرافي كما لو أنَّ أرواح القتلى تتحول إلى نوارس، ولكن الحقيقة ليست كذلك. نحن نمثل نفس ذلك الغصن، ولكن في العام القادم. وروح والدك - البحار لا تعيش في أي نورس. بل إنها تنتقل لتسكن فيك. ولذلك أنت تخاف من الماء، ولهذا كل شخص يقول لك إنَّ ذلك حدث لأنك مُتَّ غرقاً في الحياة الماضية. بيَّدَ أنَّ هذا مجرد هراء، وأنه لا توجد أية حياة آخِرَة، بل إنَّ الحياة واحدة، وقد كان والدك فيها، عندما كان عمره تسع عشرة سنة، نائماً في قاربه في قاع بحر البلطيق، بعد أن فشل في تفجير سفينة نقل ألمانية كانت متوجهة في نهاية الحرب من رiga إلى ألمانيا مع جنود، والأدق، مع فارزين، على ظهرها. وقد سبق أن حكى لك عن ذلك! راحت تنفجر من حوله ألغام بحرية، وقد انطفأ التيار الكهربائي للطوارئ بعد أحد تلك الانفجارات؛ خيل له وهو في ظلام دامس، أن نهايته قد حانت، وأنَّه حدث تحطم الجزء

التالي من القارب لأنهم راحوا يطربون من هناك على باب الحجرة، مع أنه كان يفترض أن يلبث صامتاً بغض النظر عما جرى. وقد أحسنَ والدك بربع فظيع، وهذا الخوف ما زال فيك حتى الآن. وعلى العموم، كل شيء متراوط كما هو الحال في الشجرة، ما هو مرئي وواضح وما هو غير مرئي، ما هو أخرق وصعب المراس وما هو ناعم ورقيق، أعلى الشجرة والجذور. الجذور - هي الفم. والأوراق - هي صغار السمك. وغبار الطلع - هو الحب. والأمر يبدو نظرياً فقط كما لو أن كل شيء قائم بمعزل عن غيره وبصورة مستقلة، وأن تلك الأسطوانة التي كان والدك يسمعها في القبو على جهاز فونوغراف قديم ومربوط بشريط لاصق - شيء، في حين أن دراكولا الذي كان ينوي تحويل الناس إلى سعداء، ولكنه لم ينجح في ذلك - أمر آخر مستقل، وأن بينوكيو وهو في سرواله ولا يتوقف عن الكلام، وقد راح من جديد يخشخش بمقشه - هو الآخر أمر آخر مستقل ومنعزل. بديهي أن الإنسان، باستثناء الغرامات القليلة تلك، ولنفترض أنك تدعوها غبار الطلع، أو إليها - فالتسمية لن تغير في جوهر الأمر شيئاً - ليس مجرد حيوان فحسب، ولكنه نبات وجمام أيضاً في الوقت نفسه. الشعر عنده والأظافر والأمعاء - تعيش وفق قوانين عالم النبات. وما يتعلق بالجماد فالأمر أكثر وضوحاً بالأساس. هكذا إذن، إن الم crimson الأعور الذي لا يستطيع التوقف، والشعر المنتصب الذي لا يريد أن يعرف شيئاً، أمور مختلفة عندنا بالفعل بصورة جذرية. ولكن تلك الغرامات الطيارة - هي أمر آخر بالفعل تماماً.

سؤال: كيف يمكن لشيء ما أن يكون لا كما هو في حقيقة الأمر؟

الجواب: إن نظرتك التي التصقت بانعكاس اللumba على الزجاج ليلاً، وصوتك الذي يختبئ منك تحت السرير ومن ثم يقفز عبر الكوة، والكلمات التي تكتبها، دعك من الكلام عن الأسنان اللبنية التي كانت والدتك تجمعها في مربطان صغير كان يحتوي فازيلين في السابق - هذا كله أنت، ولكن هذا لا يعني أنك غير موجود. وهكذا هذا الليل أيضاً، وذلك الجزء من الأجمة قرب النافذة، الذي يبدو بلون أبيض سبب سقوط ضوء اللumba عليه، وهدير الطائرة، وتلك القرقة التي يقوم بها الجار بالمفتاح - كما لو أن الجار

والمفتاح يتمنيان بعضهما البعض ليلة هادئة - كل ذلك سوف ينقضى وينتهي بحلول الصباح، ولكن هذا لا يعني شيئاً.

سؤال: وفي حال أنني لم أكن أعرف شيئاً عن قبيلة آروonta التي تؤمن في قدسية الصخرة إراتيبا التي تشكل ملاداً لأرواح الأطفال، الذين يراقبون من خلال ثقب في تلك الصخرة النساء اللاتي يعبرن بمحاذاتهم والمتآكدات أن الطفل يدخل إلى طياتهن الحارة والرطبة بهذه الطريقة بالضبط، فهذا لا يعني أن تلك القبيلة غير موجودة. وإذا ما تحولت صابونة في صحن خاص بالصابون إلى قنديل بحر في مكان ما من مدينة كولمار<sup>(١)</sup>، التي لا يعرفها أحد في روسيا سوى أنها موطن قاتل بوشكين، ومن دون أن أعرف شيئاً عن هذا الأمر، فهل ثبت عدم معرفتي استحالة تحول الصابون إلى قنديل بحر؟ وحقيقة أن المرأة العجوز التي تسكن في الطابق السابع لم تعد ترمي شيئاً منذ حوالي أسبوع - لا يعني بأية حال أن العجوز غير موجودة.

الجواب: إنك أنت نفسك دائمًا. لا يمكن الحديث معك بصورة جدية عن أي أمر مهما كان. وإذا ما قال أحد ما في يوم من الأيام إنني أنا كما لو أني أصبح زاحفًا، وإنني شعرت في الحلم ذات يوم كيف أنه لمس راحة يدي بشفتيه بحدり شديد لكي لا يوقظني، فهل هذا يعني أن ذلك لم يحدث بالفعل، طالما أن الأمر قد وقع حقًا؟

سؤال: يبدو لي أنني بدأت أفهم عمّ تتحدثين. كنت عائداًاليوم إلى البيت ورأيت في الطريق هرّة مسحورة. لقد حولتها عجلات السيارة إلى ما يشبه الورقة. تلك الهرّة مسطحة في عالمنا نحن، مثل ظلٌ على الأسفلت، أما الواقع فهي ذات حجم، وبثلاثة أبعاد، مثلنا تماماً، وفي إحدى الصفحات كانت تلتقط بقائمتها ندف الثلج وهي تقف على حافة النافذة.

الجواب: بالتأكيد! النقطة ترى السطّر، فهو بالنسبة لها خط، وتخيل السطح بعقلها. ثمة شخص ما يقرأ الآن هذا السطر ويرى الصفحة على أنه مستوى مسطح، بينما ذلك مجرد انعكاس، تعبير لجسم ما ذي حجم، لكن

- ١- مدينة فرنسية. تقع في الإلزاس بشمال شرق جمهورية فرنسا. موطن الضابط الفرنسي دانتس الذي قام بقتل شاعر روسيا الكبير ألكساندر بوشكين. المترجم

هذه الإضمارية القديمة على المكتب مع آثار لفنجان، أو هذه الفراشة التي تكاد تفقد عقلها بسبب اللمسة، وتلك الوسادة القطنية غير المريحة، أو أنا، أنت. بماذا تفكّر؟

سؤال: بأنك لم تعودي موجودة في أي مكان - فقط على هذه الصفحات.

الجواب: أنت لا تصغي إلى نهائياً.

سؤال: سامحيني، هياباً تابعي!

الجواب: هكذا إذن، الظل العقلاني يفهم أنه مجرد انعكاس لعاشر السبيل الذي لا تستطيع أن تراه ولا أن تسمعه ولا أن تدركه. إنه يتآلف من طريق وعشب، ومن درجات وخرق للتنظيف، ومن حائط ومن أي شيء يمكن أن يسقط عليه. يمكنه أن يكون في آن واحد حيواناً، نباتاً وجماداً. ولكن المهم فيها هو عابر السبيل. وهذا نحن مجرد ظلٍ لكنينة أخرى حقيقة لنا، هيأ جرّب والمسني من ركبتي!

سؤال: خشنة.

الجواب: كفى، أَبْعِدْ يدك!

سؤال: ولكن من هو عابر السبيل ذاك؟

الجواب: وما أهمية ذلك بالنسبة إليك؟ عابر سبيل، ثلج، غبار طلع - كل هذا مجرد كلمات. المهم ما يوجد هناك، حيث عابر السبيل والثلج والطلع - نحن كل واحد. ولكن كيف يمكنني أن أشرح لك لكي تفهم؟ لاحظ أن ثمة رائحة شيء ما يحترق - إنها الفراشة اصطدمت باللمبة فاحتقرت أجنبتها على اللمبة الساخنة جداً، أما في الشارع فقد بدأ يهطل المطر ليلاً من جديد، بيد أنه لا تسقط من السماء قطرات، بل أحرف - ق، ط، ر، ا، ت - اسمع كيف أنها تطرق على حافة النافذة، وكيف أنها توجد رائحة الاحتراق فراشة - كل هذا مجرد أحرف. ونحن - كل واحد.

سؤال: يا لها من رائحة كريهة تصدر عن الفراشة المحترقة - يجب فتح النافذة من أجل تهوية الغرفة.

الجواب: هياذهب، سوف أنتظرك.

سؤال: مطر ناعم وغير مرئي. عندما تساقط قطرات المطر على النافذة في ضوء اللامبة فإنها تتلاأّ. تصبح كبيرة وقليلة وطويلة. هذا أشبه كما لو أن المرأة العجوز في الطابق السابع ترمي لي من الشرفة أفلام رصاص بيضاء لا أحد بحاجة لها في هذه الدنيا: تمسك القلم من رأسه ومن ثمَّ ترميه.

الجواب: تعال إلى هنا وبسرعة! أشعر بالبرد.

سؤال: انتظر، فقد كنا نتحدث عن أمر آخر تماماً. عمَّ كانَ نتحدث؟

الجواب: كنا نتحدث طوال هذا الوقت عن الحب. نحن لم نتحدث معًا عن ذلك من قبل فقط. كما لو أننا كنا نتحاشى هذه الكلمة. على الأغلب، كانت تبدو لنا غير متناسقة: وهل يمكن أن تجمع معاً كل ما تشعر به في الكلمة واحدة، كما لو أنك تجمعها في قمع؟

سؤال: وما العمل، إذاً؟ هل يجب أن نتكرر كلمة أخرى؟ إشارات جديدة للأحرف؟

الجواب: إنك تستفزني وتثير غضبي من جديد! فالقضية لا تكمن في الكلمة. سُمِّ ذلك بأية الكلمة أخرى - ولو بعبير السبيل نفسه، أو بالطلع، أو بالإله، أو حتى بسرعة أو كثيرة الأرجل. ففي أحد أبعادها اختبات تحت القرميد بين أعشاب قبس نبات مبللة وثقيلة بفعل المطر، وهي في بعد آخر - موجودة في كُل مكان. الحب عبارة عن كثيرة أرجل بحجم الرب، متيبة مثل عابر سبيل يبحث عن ملاذ، موجودة في كُل مكان مثل غبار الطلع. والحب يلبسنا مثل جورب. لقد تمت خياطتنا بما يتناسب مع ساقه وتتخذ شكله. وهي تمسي بنا وب بواسطتنا. ونحن جميعنا متساولون في كثيرة الأرجل تلك. وليس لديها أربعون رجلاً، وإنما ما يعادل عدد البشرية. إنها تتكون منا، من خلايا، وكل خلية قائمة بحد ذاتها، ويمكنها أن تحيا على التنفس وحده فقط. نحن لا ندرك بكل بساطة أنها نحيا في بعد رابع غير مرئي وغير ملموس، وهذا البعد هو الحب - كثيرة الأرجل، وإنما نرى أنفسنا في البعد الثالث فحسب - على غرار تلك الهرة التي تم سحقها على الطريق، والتي ما زالت حية في حقيقة الأمر وهي تلتقط ندف الثلج بقدمها.

سؤال: لديك قدمان باردتان جدًا.

الجواب: أنت، كعادتك دائمًا، لا تصغي إلى ما أقوله. هل تذكر أنني قلت ذات يوم أنني ومنذ الطفولة أستغرب: «ما هي الحاجة إلى ذلك الشعر الموجود هناك، في الأسفل؟». أما أنت فأجبتني ببساطة: «لكي نقِّله».

سؤال: أنا أذكر ذلك. كان الوقت حاراً جداً، وكنا نسير عاريين في الشقة. ثم ذهبنا لكي نسبح، وقد أحرقت نفسى تحت أشعة الشمس. قلت لي إنه يجب دهن المنطقة المحروقة بالقشدة الحامضة. لم نجد قشدة في البيت، بل كان فيه لبن. قلت إن اللبن لا يصلح هنا، فقلت لك إنه ما من فرق، المهم أن يكون شيئاً ما بارداً! استلقيت على بطني ورحت تدهنين ظهري بلبن شديد البرودة من البراد. كنا قد أنجزنا تصلیح الشقة قبل برهة قصيرة، وكانت على الأرضية المطلية حديثاً جرائد. كنا نمشي حفاة، فكانت الجرائد تلتتصق بأقدامنا المتعرقة، لأن الجوًّا كان حاراً إلى درجة كبيرة حتى عند المساء. ثم دخلنا إلى البانيو. كان هناك عنكبوت فقمت بجرفه بتيار الماء من الدوش. أردت بقوّة أن أزعز عنك، وأنت عارية، حمالة الصدر والسروال المصنوع من قماش جلدي أبيض اللون أقرب إلى الأزرق السماوي، إذا ما تمت مقارنته مع لون السمّار تحت الشمس. ملأنا البانيو بالماء، ثم دخلت إلى البانيو وتمددت فيه، فبدت ساقاك في خضرة الماء قصيرتين ومقوستين، أشبه بسيقان ضفدع. رحت أمسدّهما تحت الماء، وقد كانتا طويلتين وممشوقتين أثناء لمسهما تحت الماء، فظننت أن هذا ما يجب أن يكون، لأنك بالنسبة إلى الأميرة - الضفدع. وبعد ذلك، عندما سقطت نقط مني في الماء، انحنىت لكي تدققي النظر فيها قلت: «انظر، لقد تكثفت مثل سُحب صغيرة».

الجواب: كانت جميع صديقاتي قد جربن وعرفن كل شيء، أما أنا فلم أعش أية تجربة من قبلك. كانت ماما قد أعطتني منذ مدة طويلة كرات ما وكان يجب عليَّ أن أدخلها في المهبل قبل الجماع، ولكن ماذا يجب عليَّ أن أفعل معها، مع تلك الكرات؟ ولذلك بقيت كما هي في البراد. وفي كل مرّة أفتح البراد من أجل إحضار الحليب، كنت أرى تلك الكرات، وتتنابني رغبة بالبكاء. وكم كنت أتمنى أن أحب وأن أغرام بصورة حقيقة، أن أهوى على جسدي، وأن أتمدد بكمال راحتني فاللتتصق بكل بقعة من جلدي، أن

أنقلب بالكامل من الداخل إلى الخارج، وأن أمتضَّ في ذاتي مثل غطاء وسادة. وإذا عرفت أنني ما زلت ضفدعًا عذراء، جمدت في مكانك فجأة، وكانت تنوي أن تقول شيئاً ما، لكنني أغفلتُ لك فمك بيدي: «اصمت! أنا أريد ذلك!». ومع ذلك لم ننجح رغم محاولتنا المتكررة - إذ حدث عندك قذف مبكر على الفور. رحت أمسح المنى على بطني وصدرني، وعلى ثنائي رقبتي، وأشمه وأجرّب مذاقه - ومع ذلك لم أصبح امرأة. كنت قد تقدمت إلى معهد التربية النفسية (السيكلولوجيا)، ولكنني رسبت في امتحان القبول، فوجدت عملاً لي في مختبر vivarium للحيوانات المخبرية التابع للجامعة. كنت فيما مضى أتصور على الدوام أن أول تجربة لي مع أول رجل يجب أن تكون رائعة وجميلة: في غرفة أنيقة مريحة، وعلى أصوات الشموع من كل بده، وبحيث تصدح موسيقى رومانسية. ثم أدركت أنَّ الجمال - أمر مختلف تماماً. صرتُ أميل للتسكع بين صفوف الأباريق المخبرية التي تحتوي على ضفادع، وبمحاذاة رفوف عليها أطباق تحتوي على عدد كبير من الفئران المخبرية. أصبحت أحب تلك الرائحة الخاصة والدافئة، الدينوية والمتعلقة بالرحم وبالحمل. كما كانت هناك ثلاثة قروود، مرعوبة وشريرة. كانوا يجرون عليها بعض التجارب: كانوا يقيدونها بكلاليب خاصة كي لا تتمكن من الحركة نهائياً، ثم يوصلون إلى رؤوسها أسلاكاً كهربائية. وفي الفترات بين التجارب كانت تجلس في أقفاصها بأعين حزينة. كانت هناك أكياس مع جوز هندي. هل تذكر كيف أنك مدلت جوزة هندية من خلال الشبك، فاللتقط القرد الجوزة ومن ثم صفعك بكل قوة على يدك. ومن ثم راح ينظر بعينين لم تعد حزيتين بل مفعمتين بالحقد وبالقسوة. وكانت في الفناء صفوف من الأقفاص التي تحتوي على كلاب. وبمجرد أن يبدأ كلب واحد بالنباح، تنطلق في إثره الكلاب الأخرى، وعندئذ يملأ النباح الفضاء ويبلغ السماء. كان يجب عليَّ أن أقوم بغسل الجراء، ورحت تساعدنني: كنا نملأ السطل بالماء، ثم نرمي الجرو فيه ونقوم بأقصى سرعة بوضع سطل آخر مع ماء فوق الأول ونضغط بحيث أن الماء يطفح ويسلل عبر حواف السطل مبللاً أقدامنا. كنت أسعى لأن أبدو قوية وصبوراً، ولكن دموعي

كانت تطفر من عيني بجميع الأحوال. فقلت لي لكي تواسيوني: «ما بلّ، لا تبكي! يمكن استخدام هذا كله فيما بعد في واحدة من القصص مثلًا». كنت تقول لي أمورا سخيفة وهراء، لدرجة أن شفقة حادة كانت تخترقني ويملاً كياني حبٌ تجاهك، لدرجة أتمنى لو أضع رأسك على صدري، وأن أضغطه بقوة مثل طفل. كما كان يجب علينا أن نحمل العشب الذي كنا نضعه في القفص الفارغ الذي يقف في أقصى طرف. ذهبنا إلى هناك، ولكنني لم أطق صبراً، فاحتضنتك ورحت أضغط بكامل قوتي، وأنا أقبلك ثم رميتك على العشب. ذلك كان بالفعل أمرًا رائعًا وجميلًا حقًا: رائحة حادة للعشب، ونباح يملأ الفضاء، وأنت تلجنني لأول مرة، وكان ثمة ألم ودماء وسعادة.

سؤال: وهل تذكرين ذلك اليوم حين غطى ألبوم الصور فخذليك مثل نورة، ثم ذهبت إلى الحمام، وظننتُ أنك تريدين الاستحمام في البانيو، ولكنني لم أسمع طبطة الماء، وإنما كان مسموعًا فقط كيف أنك تقومين بتقليل بعض الأشياء في الخزنة هناك، حيث الشامبو ومقص ومختلف الزجاجات. كنت مستلقيةً وقد رحت أصغي إلى الأصوات في الحمام، وأحاول أن أخمن ما الذي تفعلينه هناك، نظرت إلى خلف المتنزلي الذي استقرَ على الأريكة - فقد كنت قد هززتِ رجلك لكي تنزعيه بسرعة من قدميك عندما كنا نخلع ثيابنا، فطار الخفُ إلى الأريكة. كنت مستلقيةً وقد رحت أفكِرُ أني من جديد لم أقم بفروضي في المعهد، حيث كنت أدرس في معهد اللغات، وكان يجب علينا كل يوم تحضير بعض الفروض كما في المدرسة. وهكذا رحت أتمدد على أريكتي القديمة المتهالكة التي كانت تصرُّ مع كل حركة تقوم بها، والأدق أنها لم تكن تصرَّ بل كانت تصرخ أنه يجب عليكم، أنتما هناك، أن تتوقفا على الفور، فأنتما تمارسان الحب، أما أنا فأكاد أن أنهار، وهذا هي ذي قوائي تتأرجح! - رحت أنتظرك وأقول في نفسي - إلى الشيطان تلك الأفعال الناقصة! وفي هذه اللحظة خرجت من الحمام وتوقفت عند عتبة الغرفة. رحت تبتسمين: «ألم تلمع شيئاً ما؟». رحت أنظر كيف أنك تقفين مستندة إلى قائمة الباب وقد شبكت يديك خلف رأسك، مبرزة مرفقيك وركبتك قليلاً، وقد وضعت أصابع إحدى القدمين على أصابع القدم الأخرى. رحت

أنظر إلى الرقعة الوردية من الغشاء تحت عظم الترقوة، وإلى حلمتيك، إلى الدائرة القاتمة الصغيرة أسفل البطن - كما لو أنك كنت تقبضين على شيء ما بين فخذيك: قفاز أو منديل من الصوف - وعندئذ فقط انتبه إلى أنه ليس لديك سرّة. نهضت ثم اقتربت منك ورحت أتأمل كيف أنك وضعت قطعة من اللاصق الطبي على السرّة. لاصق بلون الجسم بحيث إنه لم يكن واضحًا عن بعد. حملتك على ذراعي وكنت أريد أن أقتل بكِ، ولكن كيف يمكنني أن أقتل في غرفة صغيرة جدًا. فقدنا التوازن وسقطنا على الأريكة. هل تتذكرين كيف انهارت الأريكة بصوت مدوٍّ تحتنا؟ رحت تقهقرين بلا توقف، أما أنا ففترعت اللاصق الطبي عن بطنك، لأنني كنت أريد بشدة أن أقول لحبة العنبر عندك في الداخل، والتي كانت بارزة من سرتك، كم أنا أحبها.

الجواب: كما أنك جرحت شفتك يومئذ بالقرط في أذني. دعني أرى لا، لا أثر لذلك.

سؤال: وكان يرproc لي أن آتي لزيارتكم في مربى الحيوانات المخبرية. إلى قفصنا ذاك.

الجواب: أما أنا فقد كنت أحب الجميع بلا استثناء في البداية، ولكني في نهاية الأمر لم يعد بوسعي أن أفعل أي شيء. راحوا يجمعون الكلاب من شتى أنحاء المدينة ويأتون بها وهي خائفة وعلى وشك الموت. كانوا يصرفون للاعتناء بها مختلف المواد واللحوم، ولكن الجميع كانوا يسرقون اللحم المخصص للكلاب، لذلك كانوا يطعمونها من جيف الكلاب المقتولة. يقومون بقتل أحد الكلاب ثم يقومون بقطيعه وتقديمه طعاماً للكلاب الأخرى. قلت في نفسي إنني في آخر يوم عمل لي، وقبل أن أغادر العمل، سوف أقوم بفتح جميع الأقفاص وسأطلق تلك الحيوانات البائسة إلى الحرية. وفي أحد الأيام بقيت في العمل إلى وقت متأخر جدًا، وكان هذا في نهاية فصل الخريف، لذلك حل الظلام بسرعة وكان الجو بارداً، كما في فصل الشتاء. وقد شاءت الصدفة أن جميع الأقفاص في تلك الليلة كانت خاوية، ولم يكن فيها سوى كلب واحد. راح يكرر نباحه أكثر من مرة دون أن يردد عليه أحد من الكلاب. وعندئذ بدأ يئن. هربت بسرعة من المكان كي لا

أسمع ذلك الأنين. لعله أحسَّ بأنه آخر كلب في الدنيا. جئتُ إلى البيت، إلى شقتنا المؤلفة من غرفة واحدة، التي كنا نستأجرها في حي بيلييفو، ولكنك لم تكن في البيت، فرحتُ أفنِّش وأقلب جميع ملابسك وأشمَّ أكمامك، وأمسح وجهي بكنزتك، كما قمت بارتداء قميصك. رحتُ أمشي في الشقة وأحبك - لم تكن لدى رغبة بأن أفعل أيَّ شيء آخر. لم تكن معنِّي حينئذ، ولم يكن هذا مهمًا، لأنني كنت ممثلة بالحُبّ تجاهك، لدرجة أنه لم يكن بوسع أية فكرة أخرى، مهما كانت سخيفة أو صغيرة، أن تلتجَّ إلى دماغي. كنت أراك كيما نظرت. ببساطة، مجرد نوبات من السعادة. ها هو الماء الساخن في أنابيب التدفئة يقرقر - فأشعر بأن تلك القرقرة لطيفة ومرية! يتسرّب هواء صقيعي من خلال النافذة - ياه كم أنه رائع ومنعش! وهذا هو شالك - كم أنه ناعم حول رقبتي! هأنذا أنظر عبر النافذة وأرى شخصين واقفين تحت مصباح الشارع وهما يتحديثان مع سحب من أبخرة التنفس - يا لها من لغة ساحرة تلك التي ابتكرها! وهكذا رحتُ أحصل على المتعة من كل إحساس، وذلك لمجرد أنني أشعر وأرى وألمس. وتتبايني في بعض الأحيان رغبة بالبكاء بسبب الكينونة الممثلة، لكنني أبدأ بقللي البطاطا مع البصل - فأنت سوف تعود قريباً - وأبكي من البصل، ولكن الأمر سواء بالنسبة لي في تلك اللحظة. سؤال: لحظة من فضلك، لقد تحدرت يدي. ضعي رأسك على صدري.

الجواب: أليس صعباً عليك ذلك؟

سؤال: لا. تابعي حديثك.

الجواب: رحتُ أفكِّر بك وأدركتُ أنَّ هذا الحب - هو الأول والأخير، أنه لم يكن من قبل ولن يكون مثيل له فيما بعد. لم يكن قبلنا ولن يكون بعدها: تلك النوى من الكرز، واللبن البارد على ظهرك المحترق تحت أشعة الشمس، واللاصق الطبيعي على بطني الذي لم يكن من السهل انتزاعه. أو تذكر ذلك المساء في قرية كليازما، عندما وقفنا ورحا نراقب كيف راح حصان تحت شجرة تفاح يمدّ شدقه إلى تفاحة، وكيف أنَّ غيمة طارئة بددلت لون شعر الحصان. أو كيف أنك كنت تقرأ قبيل النوم بصوت مسموع شيئاً ما لطيفاً عن الأساطير والخرافات: في البداية قاموا بإبادة الجميع هناك، باستثناء صبيٍّ

واحد قامت ذئبة بإنقاذه وبالاعتناء به وبتربيته، ثم أصبحت فيما بعد زوجته وولدت له تسعه أبناء. كنت تقرأ وتلفّ شعرى على إصبعك. أما أنا فأهمس وقد رحت أغفو: «هل تقوم بذلك كي لا أهرب إلى أي مكان؟». تومى برأسك علامة الموافقة وتقرأ عن إلهة ما ولدت لدى إلهة أخرى من تحت إبطها. هذا يعني أنني هي تلك الإلهة الوليدة بالضبط! تکورت على نفسي تحت إبطك والتصقت بك، كما لو أنني ولدت من تحت إبطك للتو فقط. ومن ثم أسمع وأنا شبه نائمة كيف أن أحداً ما يمنحك الحياة من جراء صفعة حمامه على وجهه.

سؤال: هيا قولي لي، وإلى أين رحت تسبحين في الحلم - إحدى يديك إلى الأمام، تحت الوسادة، والأخرى نحو الخلف، والراحة متوجهة نحو الأعلى؟

الجواب: كيف إلى أين؟ إليك! كنت أخاف كثيراً أن يتنهى كل ذلك. سبق أن قرأتُ عن تسلية باسم «لا» ورحتُ أستعدُ: كلما كانت حالات الشغف أقل وأخف، كانت الحياة أقل إيلاماً. عقار ضد الاعتياد والإدمان نوعاً ما. أما العلاج الذاتي فيقوم على الاسترخاء والصبر وإغماض العينين. وأن يتخيل المرء شيئاً ما إلى جانبه - ليكن كوبًا فارغاً على حافة الطاولة. كانت ماماً تتناول الأدوية، وكانت تبقى آثار للأدوية على شفتيها. سقط الكوب وانكسر. من علامات حسن الحظ. وكان في الخزنة ألبوم يحتوي صوراً لي في طفولتي. يمكن رميها في سلة المهملات. أو حتى إحراقها. يمكن أن تأخذ مقلاة وتضعها على النار ثم تقوم بحرق الصور واحدة بعد الأخرى. وفي صحن جميل يعود لجدي كان يقف قرب المرأة - أقراطي وخواتمي. أما أداة التزلج على الثلج فتقف في التواليت - بسبب ضيق المكان، وأين يمكن وضعها أيضاً؟ وعندما عدت في نهاية فصل الصيف من البيت الريفي وجدت أن خشبات التزلج قد تأكلت. يمكن أن أعطي عصي التزلج لأولاد الجيران، حيث سيقومون ببناء «فيغفام<sup>(1)</sup>» Wigwam. ها هي قدمي تستند إلى الحائط، أصابعي تتباعد ومن ثم تنضم كما لو أن رجلي تحك الظهر

---

- 1- كوخ مصنوع من أغصان الأشجار والجلد عند قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية - المترجم

لورق الجدران. سوف أقع تحت عجلات الترامواي، وسيقومون بيبر ساقي، سوف أمشي على عكازات وسيصنعون لي ساقاً اصطناعية، يمكنني أن أسير مرتدية بنطلوناً، كما أتنى سوف أتذر أمري حتى من دون ساق. ها هي ماما الغالية، ماما الطيبة والصادقة. لم تنجع لديها الحياة كما كانت تمنى وتحلم، وكانت تعتقد أن حياتها مجرد مسوقة لحياتي أنا، وأنني سوف أقوم بنسخ كل شيء من جديد إلى حياة نظيفة بيضاء: سوف أتزوج وسيكون عندي كل شيء على ما يرام، بطريقة جديرة بحياة إنسان، ستكون لدى أسرة و طفل من زوج محبٌ وكل شيء حقيقي. واحدة من بين ذكرياتي الأولى: تقوم ماما بملء البانيو بالماء الساخن، الماء يغلي تماماً، إذ إنها كانت تغلي الماء في الطنجرة وفي الإبريق ومن ثم تقوم بذلك هذا الماء المغلي في البانيو الذي يحتوي ماء ساخناً جداً - ثم تسكب هناك بعض الخردل الجاف، وبعد ذلك تدخل وتجلس في الماء وهي تتمتم وتقرأ تعاويند. وعندما تخرج من هناك - يكون جسدها بأكماله قرمزي اللون يطلق البخار. وفي واحدة من مثل تلك المرات أحرقتني بالماء المغلي من دون أن تقصد. كانت ماما تحكي لي أنها عندما كانت حاملاً ومن ثم قامت بالإجهاض، كان ينتابها شعور مختلط ومتناقض: شعور بالشفقة تجاه الجنين، وشعور آخر مختلف تماماً - كانت تشعر في تلك اللحظة بأنها امرأة بالمعنى الكامل للكلمة. وبالعكس، لو أنه لم يحدث لديها حمل، كانت ستشعر بنوع من النقص وأن ثمة عيباً ما، وأنها لا تستطيع أن تلد طفلاً. كل حمل كان بالنسبة إليها علامة وإشارة: أن كل شيء لديها على ما يرام، كل شيء حسن. يمكنها في المرة القادمة أن تكون مستعدة لحمل حقيقي ولولادة طفل حقيقي. وفي لحظة ما تخيل أن ماما ماتت. عاجلاً أو آجلاً، لأن هذا سوف يحدث بجميع الأحوال. وعندئذ أشعر بنوع من الضيق والاختناق في صدري حيث القلب، ولكنني أدرك أنني سوف أجتاح ذلك. وفجأة أرى موكب جنازة عند الغروب والثلج يتتساقط. وأسمع أحذا يقول: ليكن التراب خفيفاً عليها<sup>(1)</sup>. أرمي في القبر حيث وضعوها، كتلة

- 1 - أصل العبارة «Sit tibi terra levis» وتعني حرفيًا: لتكن الأرض خفيفة عليه أو عليها...

صغيرة من التراب المتجمد. يصطدم بقوة مصدرًا رئيسيًا ويقفز عن التابوت. كما لو أني رميت المتفوّة بحجر. لقاء حبّها لي بمجمله. تطفر الدموع من عيني، ولكن ليس باليد حيلة، لأنّ هكذا هي الحياة، ويجب أن أعيش من دونها. وعندئذ فقط يبدأ عندي تصور بأنّي أفقدك. حتى أني لا أكاد أفكّر ما الذي يمكنه أن يحدث معك، وأية مصيبة قد تقع عليك - وإذا بظلام يطغى على بصيرتي وأشعر بغشيان شديد، بل ويتشنّج حنكي بسبب الرعب الذي يسيطر على فجأة، رعب من فراغ مباغت، ومن وحدة قاتلة. أكفُ عن أكون إنساناً بلحظة واحدة وأتحول إلى جورب مرميٍ في مزبلة ليلية شتوية.

سؤال: الجو خانق وحارّ. هيا بنا نستلقى من دون بطانية. على هذا النحو. قولى لي، كنتِ تريدين أن تفتحي جميع الأفواص قبل أن تغادري - فهل قمتِ بذلك؟

الجواب: بالتأكيد، كلا. فقد كانت الحيوانات تحظى في تلك الأفواص بالحدّ الأدنى من الحياة. وإنّما كانوا سيقومون بتسميمها كلّها. كنت أودُّ أن أحكي الكثير من الأشياء، ولكن هأنذا ألتصل بك فنسأل كلّ شيء. هيا تذكرة أنت شيئاً ما آخر!

سؤال: قلت في إحدى المرات إنك كنت تعتقدين لفترة طويلة أنَّ الأطفال يولدون من المؤخرة، لأنك رأيت كيف أنَّ مهراً خرج من تحت ذيل فرس في القرية.

الجواب: لا بدَّ أني خنتك بغرامي. لقد كان حبّي كثيراً جدًا بالنسبة إليك. وهذا يحدث أحياناً: شخص ما يحبّ من دون أن يرتاب بشيء، في حين أن الشخص الآخر يشعر بالاختناق من مثل هكذا حبّ. أشعر فجأة بشوق لا يقاوم إليك فأتصل بك، أما أنت فتجيب: «لا أستطيع الآن أن أتحدث معك!» - وتتقلّل السمعة. أعيد الاتصال بك من جديد. ومن جديد تضع السمعة. أتصل من جديد بلا توقف. لم تكن تدرك أني لم أكن أريد سوى أن أسمع منك «أنا أحبّك!». لا أكثر، وما كنت لأتصل بعد ذلك ولكنني كنت أذهب بك وبنفسي إلى درجة الجنون. كنت تكتب باستمرار رواية طويلة جدًا لن تنتهي، وكانت تقرأ لي منها مقتطفات، أما أنا فلم أكن أفهم

شيئاً منها مع ذلك كنت معجبة إلى أقصى درجة بكل شيء. لو أنك فرأت لي التعليمات المتعلقة بتشغيل غسالة لكنك وجدت ذلك ساحراً طالما أنك أنت من يقرأ ذلك. ذات مرة كتبت كيف أني أخرجت فأراً مخبرياً أبيض اللون ممسكة به من ذيله، فتعلقت به مجموعة من الفئران الأخرى، وكانت أعينها أشبه بالتوت البري، ثم قلت لي: «يمكنك أن تخفيه، ولكن إذا ما قمت بكتابتك - فسوف تبقي». .

سؤال: رحت تضحكين: «وأين يمكنني أن أختفي؟ في حين أنه يمكنك أن تنسى دفتر يومياتك في مترو الأنفاق - وبذلك سينتهي كل شيء! كم أنك لا تدرك: شرة واحدة مني تبقى على الوسادة بعد أن أغادر في الصباح، أكثر واقعية وحقيقة من جميع كلماتك مجتمعة».

الجواب: كنت طوال الوقت أفكّر بمستقبلنا، وهذا ما كان يثير الرعب عندي، إذ لا يجوز أن يُغرس المرء لأول مرّة وأن يحافظ على هذا الحب طيلة حياته. هذا يعني أن كلّ هذا سوف ينتهي ذات يوم من كلّ بدّ. وأبدأ من جديد لعبة «اللا» مع ذاتي. ثم أدركتُ فيما بعد أنني بذلك أجلب التهاسة لنفسي فحسب. أدعوها إلى نفسي، أتخيلها وأخاف منها. وقد كسرت يدي بالفعل، والحق يقال، وليس رجلي. ورحت أمشي مع يد عليها جبيرة جببية ومعلقة إلى كتفي. كانت مناسبة تماماً لكسر جوز الهند. وحتى بعد أن ماتت ماما في وقت لاحق، بقيت الأمور كما كانت، كما تخيلتها: مقبرة مغطاة بالثلوج عند المغيب، وقد قال أحدهم: «ليكن التراب خفيفاً عليها!». ألقيت في الحفرة التي أنزلوها فيها للتو، كتلة متجمدة من التراب. اصطدمت بسطح التابوت بقوة مصدرة رنيناً وقفزت عنه كما لو أنني رميت جوزة. وعندما غادرت، رحت أعي بنفس الطريقة تماماً: مثل ذلك الكلب الذي ترك يتجمد من البرد في القفص. فجأة صرت أفهم ماما-لماذا كانت تحاول أن تنجو عن طريق الحب: من تلك البرودة القاتلة. إذ إنه من المستحيل على المرء أن يبقى وحيداً مع تلك الوحشة الكونية، مع نفسه بنفسه. كانت بحاجة إلى أن تموت كل يوم من جراء الحب، لكي لا تخنق حتى الموت خوفاً من الخلية المتجلدة. كنت أخاف إلى أقصى درجة من أن أفقدك - و كنت طوال الوقت

أفكّر بالأُخريات اللواتي ستقيم معهن علاقة فيما بعد. من هنّ، يا ترى؟ هل يُعقل أنَّ بإمكان أحد غيري أن يقدّم حبًّا أقوى وأكبر من هذا الحب؟ أضتنى الغيرة والحسد - سوف يحتضنك بدلاً مني، وسوف يلتصق بك وسيقبّلك كما كنت أفعل، سوف يلمستك في كلِّ مكان مثلي. ومن ثُمَّ خطرت بيالي فكرة بسيطة: سوف يقمنَ بتقليدي فقط في كلِّ ما يفعلنه. سوف يكون حُبُّك لي أشبه بالقالب بالنسبة لهنّ. سوف تمارس الحبَّ معه في كلِّ مرّة. وعندما أدركتُ ذلك، كففتُ عن أن أغار، وتحولت أولئك النسوة إلى قريبات وعزيزات لي. بل يمكن القول إنهنَّ أصبحن إلى درجة ما جزءًا مني، لأنَّ رائحتك سوف تفوح منها كل صباح. أي آنهن لن يعدن أخريات، وإنما جزء مني بطريقة ما. كما لو أنا أنا وأنت لم نفترق، بل رحنا نلتقي مرّة بعد أخرى. سؤال: لقد أضعتُ دفتر يومياتي ذلك في مكان ما بالفعل. شعرتُ كما لو أنَّ نهاية العالم قد حلّت - كم كان فيه من الأشياء الهامة بالنسبة لي. وربما لم يكن هناك أي شيء ذي قيمة. لم تكن فيه تلك الكلمات، ولكنها هي شعرات منك على وسادتي - وأنا ألفها على إصبعي.

الجواب: تحدثنا أنا وماما ذات يوم، وبعد أن أصبحت في مرحلة متقدمة من المرض، عن والدي وعن آخرين، فقالت لي إنه يمكن للمرء أن يكفَّ عن الحبَّ في حال أنه لم يكن عاشقاً قط، وأنه سوف يحبُّ الشخص المغرم به ذات يوم حتى ولو من خلال أشخاص آخرين. هذا ما قالته بالضبط: «لو يتاح لي أن أجتمعهم معاً! كنت سأضمهم جميعاً إلى صدري! كنت أجلسهم جميعهم إلى المائدة وقدّمت لهم طعاماً لذيذاً مثل الأطفال!». كما أنها قالت إنَّ تلك المسافة الفاصلة بين نقطتين أ. وب. فقط تقادس بالكميلومترات، أما الحياة فتعاش بالناس، ولذلك يجب عليك أن تتشريبي الناس في داخلك، وعندئذ لن يختفي جميع أولئك الذين أحببتهם، بل سوف يستمرون أحياء في داخلك، سوف تكونين مؤلفة منهم. وهذا هو المعنى أن تعبري الحياة. في ذلك اليوم، وأنا على شاطئ بحر ريفا، تمنيت أكثر من أي شيء في الدنيا ألا أكون في مكان والدتي. كنت أريد ألا أشبهها في أي شيء. وكنت ألتقط نفسي في بعض الأحيان وكأنني أدرك وأشعر بكل شيء، سبق أن أدركته هي

وشعرت به من قبل. ها نحن كنا نحب بعضنا بعضاً أنا وأنت، ولكن فكرة تردد في عقلي - كما لو أن ماما، ربما، كانت تحب والدي بنفس الدرجة تماماً، عندما كنت أنا في مكان ما قريب من هذا العالم. وأنني أحضنك بنفس الطريقة تماماً، وأمّرر أصابعك على طول العمود الفقري من ظهرك، وبنفس الطريقة أيضاً التقطتك بساقي - مثلما كانت تفعل مع والدي. وأشعر بنفس الأحساس التي كانت تشعر بها هي. في تلك اللحظة حصل اندماج بيبي وبينها، انصهرنا مع بعضنا. حتى أن تحت لوح الكتف عندك شامة، شبيهة تماماً بتلك التي كانت عند والدي. قالت لي ماما إنها أمضت حياتها بالكامل وهي تبحث عن شخص واحد، عن أول حب لها. ربما كانت لديه شامة أيضاً تحت لوح كتفه؟

سؤال: لعله عند نصف البشرية تقريباً شامة تحت لوح الكتف؟

الجواب: ولكن قل لي، هل راودك إحساس ولو لمرة واحدة في حياتك أنَّ أنت - هو والدك؟

سؤال: أبداً. الأصح، لقد نشأ مثل ذلك الإحساس عندي لمرة واحدة فقط. بعد موته بفترة قصيرة. كنت مسافراً في قطار ما، أثناء فصل الشتاء، وكان الوقت متاخراً من الليل. لم أتمكن من النوم بسبب الجوُّ الخانق، فقررت أن أذهب إلى مدخل عربة القطار - لكي أقف هناك وأتنشق الهواء. اجتررت إلى آخر العربة التي ليس فيها مقصورات للنوم، حيث كانت تشاهد في كل مكان أرجل وأيادٍ، وكان السخيف يملأ المكان، فضلاً عن أصوات الكوايس، كان الهواء هناك فاسداً يفوح برائحة نتنة. كان الممر ضيقاً، وكانت العربة تتأرجح بقوّة، فأمسكت بالدرابزين الذي كان بارداً ورطباً كما لو أنه متعرّق. خرجمت إلى مدخل العربة فوجده مغطى بالجليد بالكامل، ولم يكن الباب الذي يؤدي إلى العربة المجاورة سليماً لكي يتم إغلاقه، فكان ثمة ضجيج قويٍّ، وكانت النوابض المخففة للصدمات تترافق وكمان صوت الحديد يقعقع. وفوق ذلك كان ثمة ظلام، من دون أن تكون ثمة لمبة واحدة مضيئة. فجأة اجتاحتني إحساس شديد بالبرد وراح يخنقني حزن فظيع. وقد خيّل لي للحظة أنَّ عربة القطار الصاحبة والهادرة عبارة عن

غواصة، وكما أني أنا هو الوالد. أصبحنا أنا وهو كلاً واحداً. فجأة تحول الزمن وكل شيء آخر إلى سقط متاع، إلى هراء. لقد تحولت إلى أبي. راحت الغواصة تتمايل في شتى الاتجاهات، كما لو أنَّ الغاماً بحرية تنفجر في كل مكان من حولي. عدتُ أدرجني بسرعة إلى العربية العفنة والخانقة. التقيت هنا في الممر الضيق بالمراقب في القطار وهو يحمل فأساً وكان يتوجه نحوه مباشرة. شعرتُ بالارتباك، أما هو فقد كان ذاهباً إلى التواليت لكي يكسر هناك القاذورات التي تجمدت بفعل البرد الشديد.

الجواب: هل تعرف منَّا الذي كان يعيش في هذه الشقة قبلك؟  
سؤال: لا، كان عجوز يعيش فيها.

الجواب: كنتَ أنتَ الذي يعيش في الشقة من قبلك. إذ كنتَ تصغي في الليالي لصوت المِقْشَة، ولصوت الدمية - الجار لا يستطيع أن ينام من جديد. لماذا لا تتحدث إلىه؟

سؤال: سبق لي أن كتبتُ عنه.  
الجواب: إنه وحيد.

سؤال: لقد تمَّ اختراع هذا البيت لأنَّ يكون على هذا النحو. شقق بغرفة واحدة لكلٍّ منها. عبارة عن خلايا ملائمة من أجل التشرنق.

الجواب: ولكن معَ من كان الرجل العجوز يتقاسم قلبه أو فرجه؟  
ومستقبله أيضاً؟ وأنَّه سوف تهُبُّ عاصفة؟ وأنَّ الخريف سوف يحيي عما قريب؟

سؤال: وما علاقة العجوز هنا؟ كنا نتحدث عن الحب.

الجواب: وهذا هو المقصود بكلامنا. وهل عرفت منَّا الذي كان يرمي إليك أقلام رصاص بيضاء من الأعلى؟  
سؤال: كم الساعة الآن؟

الجواب: هذا هو المطلوب تماماً! الدقائق والسنوات - عبارة عن وحدات مجهولة من الحياة، تشير إلى ما هو غير موجود. يقاس الزمن

باللون المتبدل للحصان الذي يمد شفتيه نحو التفاحة. الزمن أشبه بماكينة خياطة تدرز بخط غير مستقيم ذلك القفص الساخن للكلب الذي كان ممتلئاً بالتبين، وعربة فارغة من مترو الأنفاق نسيتُ فيها دفتر يومياتي، وخشخشة أقلام الرصاص المتتساقطة خلف النافذة وذلك الشرشف الملفوف والمربوط بواسطة رباط مطاطي يستخدم لوقف الزيف. وأيضاً هذا الكتاب المرمي على أرضية الغرفة والذي يمكن فتحه على آخر صفحة فوراً وأن تقرأ كيف أن عابري السبيل المتعبيين، وبعد أن خاصوا جميع التجارب، وبعد أن خسروا وربحوا، وقد أصابهم اليأس وعرفوا الثقة، وإذا هلكت أقدامهم وجّروا أرواحهم، وبعد أن باتوا خشين لناحية الملمس وناضجين من جهة الحب يصلون إلى نهاية دربهم الحيادي الطويل، إلى ذلك البحر بالتحديد الذي تم تعليقه على الأفق المشدود بقوّة بواسطة أشرعة بعيدة، أشبه بمشابك الغسيل البيض، وبعد أن ذرفوا الدموع الغزيرة، يندفعون لاحتضان بعضهم بعضاً ويصرخون بمختلف السخافات، لأنهم جُنّوا من فرط السعادة.

سؤال: ولكن، طالما أنه تم وضع نقطة للمستقبل على الصفحة الأخيرة، فهل هذا يعني أنه لا يمكن تغيير أي شيء؟ وماذا لو كانت ثمة رغبة بتصحيح شيء ما في الحياة؟ أن يستعاد شخص ما؟ أن يستكمّل حبه؟

الجواب: بل على العكس، إذ يمكن أن يتغير أي شيء في آية لحظة، بما في ذلك ما سبق أن حدث. كل شخص سبق أن عشتَه، يقوم بتبدل ماضيه. علامة الاستفهام أو الإعجاب تمتلك القدرة لقلب معنى العبارة والمصير. الماضي - هو ما أصبح معروفاً، ولكنه يستطيع أن يتغيّر في حال بقي المرء حياً حتى الصفحة الأخيرة.

سؤال: هل هذا يعني أنه يمكن تصفح الكتاب بالمقلوب؟ وأنه بإمكان الثلج أن يصعد نحو الأعلى؟ وهل سيقصُّ أكاكي أكاكييفيتش<sup>(١)</sup> بواسطة الريشة كل حرف في المخطوط وسيقوم بنفسه في دواة الحبر؟ وهل سيبعثون

-1- الشخصية الرئيسية وبطل قصة «المعطف» المعروفة للكاتب الروسي العظيم نيكولاي غوغول. المترجم

من القبور جيلاً بعد جيل، وسوف يقوم يسوع المسيح بقتل أليعازر<sup>(١)</sup>؟ هل سيعود الماء واليابسة، النور والظلمة إلى الكلمة؟

الجواب: لماذا لا تأخذ كلامي على محمل الجد أبداً! إذ إنك فهمت ما كنتُ أقصده: سوف يجري الشيء ذاته على نفس الصفحة الواحدة بصورة دائمة. وإذا كانت ماما ما زالت حية، وقد جرحتها في إحدى المرات ثم اقتربت منها واحتضنتها والتتصقت بها، ثم بقينا واقفين على هذا النحو في المطبخ، فإننا ما زلنا نقف بنفس الطريقة إلى الآن، وقد دفنت وجهي في المثلث الدافع الذي أصبح أسمرا اللون بسبب الشمس فوق الشريط الأبيض من الصدر. وإذا كنا رحنا أنا وأنت ننظر في أحد شهور شباط كيف يهطل الثلج على الحصان البرونزي، وقد راحت بعض ندف الثلج تطير نحو الأعلى في بعض الأحيان بالفعل، فما زال هناك جبل ثلجي على ظهره حتى الآن. وإذا حدثت لي نوبة من السعادة من دون أي سبب، وإنما هكذا ببساطة، لأنني لم أحب تسريح شعرى قط، وإذا بي أسرّح شعري بعد غسله، وقد أخفضت رأسى نحو الأسفل وأرخت الشعر إلى الأمام، أمرر مشطاً خشبياً، فتخترق أسنان المشط القوية سماكة الشعر الكثيف مع صوت طقطقة، ومع خشخشة وصرير - فإني ما زلت أختنق في ذلك البانيو حتى الآن من فرط سعادتي بكل بساطة ومن دون سبب، لأنك موجود، ولأنني أمسك برأسى نحو الأسفل، ما يجعل شعري المغسول للتويينسديل مثل ستارة ثقيلة وعطرة، وأيضاً لأنّ شعري كثير وكثيف، رطب وقوى مثل الحياة.

سؤال: كم أنك لا تدركين أنَّ ذلك مستحيل على العموم!

الجواب: لماذا؟

سؤال: لأنهم علّموكِ أن تشقي بالطول وليس بالعرض.

الجواب: كان ثمة امرأة عجوز مجونة ومحدودبة تقف في الشارع وقد راحت تهسهس لـكُلِّ الذين يمرّون بها: «سوف تموت قريباً!». كنت

---

1- أليعازر - قديس قام المسيح ببعثه من بين الأموات... الخ - المترجم

أني أنسّل، أن أهرب وأن أصبح غير مرئية. كانت مسنة ولكنها لم تكن تعرف: أن العالم مصمم بطريقة يستحيل معها الاختفاء فيه - في حال أنك اختفيت هنا، فسوف تظهر في مكان ما آخر - في خلية أخرى مكونة من غرفة واحدة للفرادى، في طيبة ساخنة ورطبة لشخص ما، في حياتك ولكن قبل سنوات كثيرة جدًا. إذا اختفيت عن السطح - هذا يعني أنك قمت بالغطس وسوف تظل برأسك عمّا قريب. عدا أنَّ الإنسان بجميع الأحوال غير قادر أن يدرك أنه هو نفسه غير موجود. لم تُخلق لهذه الغاية أية أعضاء حس. لم تدرك أمري ولم تفهم أنها لم تعد موجودة. لقد ماتت في الحلم، نامت ولم تستيقظ بعد ذلك. وما زالت نائمة حتى الآن. وأنا أيضًا لن أدرك ولن أفهم أنني غير موجودة. ليس لدينا حرية الاختفاء. فأنت سوف تعود فيَّ أنا. وأنا سوف أعود فيك. وهكذا نحن أحرار بأن نعود إلى أية نقطة وفي أية لحظة. والحرية الأكثر حلاوة وسحرًا - هي حرية العودة إلى ذلك المكان بالتحديد الذي سبق أن كنت سعيدًا فيه. أن تعود في نفس تلك اللحظة الجديرة بالعودة. أقوم بتصفح الحياة وأبحث فيها عن نوبات السعادة. وهناك حيث اختفت ذات يوم من الحب، أصبح قادرة أن أتوقف عن البحث وأنأغلق الكتاب.

سؤال: هل ستعودين إليَّ؟  
الجواب: لا.

سؤال: كيف لا، طالما أنك قد عدت إليَّ! هأنذا أحضنك، أتنشق رائحة رأسك. وها أنت تتنفسين وتشخرين بعض الشيء وقد غفوْت تحت إيطي. إنني أتحسُّ برؤوسِ أنا ملي الغشاء الناعم الرقيق لجلد الضفدع على صدرك. وها أنت تحكّين بطنك حيث اللاصق الطبي. ها أنا ألفُ شعرك على إصبعي كي لا يكون بإمكانك أن تهربِي أثناء النوم.  
الجواب: كلا.

سؤال: ولكن ليَّ؟

الجواب: لأنني الآن في مكان آخر مختلف كلّيًّا. ثمة شاطئ رملي، مستو، على بحر البلطيق، شبه خالي. أجلس على الرمل عند حافة البحر البارد

والحي بصعوبة. يطبطب قليلاً ويتلاّلأ بعض الشيء تحت أشعة الشمس. في الأيام صرخ نوارس، وفي الخلف أصوات ضربات لكرة حيث يلعبون كرة الطائرة. ثمة من يعبر بمحاذاتي وهو يتأمل الطحالب المرمية على الشاطئ، باحثاً عن الكهرمان. تنسحق أصداف تحت حذائه الصيفي. أعرف أنها ستأتي الآن ثلاث موجات ضعيفة وواهنة جداً. ومن ثم سوف تأتي موجتي الرابعة المنشودة - سوف تتعمّم وتتقوّس وستبلغ قدمي، فتلامس أصابع رجلي وستداعب عقبي بالرمل.

25 تموز عام 1926

شاهدتُ اليوم في Printemps<sup>(1)</sup> هذا الدفتر في غلاف مزخرف رائع ولم أصدّ أمّا ماه فاشتريته. سوف أبدأ بكتابته يومياتي من جديد، ولكنني في حقيقة الأمر لا أنوي الكتابة عن افتتاني بنهر السين ونوتردام، عن المتاحف وبرج إيفل وغير ذلك. لأنَّ جميع علامات التعجب والاندهاش مثل آه وأوه قد انتهت بعد وجودي في باريس على مدى أسبوعين.

أما الدفتر فأنا بحاجته لكي أدوّن فيه تلك الأحساس التي لم يسبق لأحد غيري أن عاشها، لا يعيشها ولن يعيشها أحد غيري أبداً! لأنَّه ثمة أمر ما يحدث معي ويتمي إلىٰ وحدي! يتمي إلىٰ. لقد شعرتُ بصورة مفاجئة أنَّ كينونتي السابقة بدأت تتلاشى وتتصبح شفافة، وأنَّ حياة أخرى تبرز من خالي وفيَّ. كما لو أنَّ جسدي يتمي إلى أحد آخر غيري أيضاً. لم أعد أنا ذاتي.

يبدو لي في بعض الأحيان كما لو أنَّ قسماً من حياتي انتهى بالصمت المباغت، من دون تصفيق واحتفاء. راحت ستارة ثقيلة وسميكَة تفصل بيني وبين كل ما كان في الماضي وما هو قائم الآن، في الوقت الحاضر الذي بدا فجأة محسوباً بمختلف أنواع السخافات غير الضرورية. والأكثر أهمية وقيمة قد أصبح، على الأرجح، في داخلي. وهذا ما لا يعرفه أحد آخر، غيري

- الكلمة في اللغة الفرنسية معناها «الربيع» - سلسلة متاجر فرنسية تركَّز على الجمال والزينة وملابس الرجال والإكسسوارات... المترجم

أنا ويوف. الجميع يطاردون أموّاً تافهة وصغيرة. أما في داخلي فتوجد حبة بازلاء خاصة بي. هذا ما قاله لي يوسف عندما رحنا نخمن من ذا الذي اختبأ لدّي في أعماقي - صبيٌ أو بنت. غور وشينكا<sup>(1)</sup>. وقد بدأت تحكم بي وبجسدي. جميع رغباتي ونزواتي، ومختلف مطالبتي وتصرفاتي الغربية - كل ذلك لم يعد يخصني. إنّ جسدي هو لغة حبة البازلاء تلك.

لقد روت لي ماما أنها اشتهرت (توّحمت) عندما كانت حاملةٍ بي السمك المملح والعنب.وها أنا الآن أسير في شوارع باريس وأتنفس، مثل مجنونة، رائحة السيارات. لم أكن أطيق في الماضي هذه الرائحة، أما الآن فأقف قرب صفٍ من سيارات الأجرة وأشمُّ، أتنشق تلك الرائحة. كم هي رائعة رائحة البنزين !

يقال إنَّ الآباء اليهود - هم أفضل آباء على الإطلاق في العالم. كم هناك في زوجي يوسف من الصبر والرجلة والشجاعة، وكم هو لطيف معي وهو يعني بي كثيراً !!

أنا سعيدة جداً لأنَّ فترة الغثيان والتقيؤ الفظيعة قد انتهت قبل أن نسافر إلى باريس. كنتُأشعر بغيان رهيب على معدة فارغة، بمجرد أن أصحو من النوم. كان أوسيما<sup>(2)</sup> يلقمني ملعقة من الشاي المحلّى جيداً والكثيف والبارد. ولدهشتني، كان هذا يساعدني. ولكن بعد تناول الفطور لم يكن يساعدني أي شيء آخر! كان أمراً كريهاً ومهيناً أن أجلس أمام الطشت الذي كان يوسف يحضره لي، كما لو وفقاً لبرنامج ما! كان يبلغ الأمر أنه لم يعد لدّي ما أتقيؤه، ومع ذلك كان كُلُّ شيء في جوفي ينقلب. ومن ثم كنتُ مضطّرة لأنَّ أمد بعض الوقت وأناأشعر بإنهاك وبإعياء شديدين.

كان يوسف يرافقني في زيارتي للطبيب، ويقوم بكتابة الإرشادات ويطلب مني التقيد بها وتطبيقها بحذافيرها. عندئذ بدأت أنا ديه بتشيوليك

- اسم علم هنا. ربما يقصد الكاتب الإشارة إلى إحدى الشخصيات التي تتكرر بهذا الاسم في العديد من الحكايات والأساطير الشعبية السلافية - المترجم

- صيغة التحجب من اسم يوسف في اللغة الروسية... ومثلها أوسيب أيضاً. المترجم

وليس أوسيك<sup>(١)</sup>. لأنَّ الدبابير حشرات حمقاء. في حين أنَّ أوسيما يعني بي مثل النحلة.

\*\*\*

كنت أريد أن أكتب التاريخ فضيَّطْتُ نفسي وكأنني فقدتُ هنا التوجّه في الزمان. والأدق هو أنَّ الزمن بات يقاس بطريقة مختلفة تماماً. ما أعرفه هو أن التوقيت الآن هو الأسبوع الثامن عشر (للحمل - المترجم) وكل ما عدا ذلك لا أهمية له البتة.

اشترىت مترًا للقياس ثم رحت أقيسُ كُلَّ صباح كم سُمِّ ازداد بطني. الحمل غير واضح بعد. لكن ذلك انعكس على فساتيني التي قمت بخياطتها على مقاس خصري.

أوسيما الآن يعمل، ولذلك أنا متروكة لشأنِي طوال النهار. أشرب الشاي، أقوم بأعمال تنظيف، أخرج للتسكع في شوارع باريس.

في الأيام الأولى لم أكن قادرة على المرور بمحاذاة المتاجر بهدوء. وقد كنتُ شعرت منذ أن كنا في الطريق، في برلين بعد، أنني امرأة غير نظيفة، أن حذائي وتنورتي فظيعان. وهنا لا توجد متاحف فقط، بل ومتاجر أيضاً. دخلت في أول يوم إلى أحد تلك القصور فتحولتُ على الفور إلى عمود من الملحق: البناء من الخارج مؤلف بأكمله من الزجاج والنيكل، والباب دوار، وفي الداخل أيضاً كل شيء من زجاج ونيكل، ومن الخشب الشمين. وكم هناك من أشياء متلائنة وزاهية ورائعة الجمال! ويا لها من متعة أن تتمشى في صالات لا تنتهي، وأن تلمس وتمسح بيدهك على أقمشة من حرير - فيصدر حفييف ولمعان وانسياب! أول ما رغبتُ به أن أشتري ثياباً داخلية: ناعمة وجميلة مزينة، مع زخرفات وتطرزيات. قمت على الفور بتغيير ملابسي هناك، في المتجر، ثم رميت جوربيي القذر، وسريري العادي الرث، وتنورتي التحتية - مع تكشيرية قرف التقاطتها وأنا أنظر في المرأة، فرحتُ أقهقه. أصبح كُلُّ شيء رائعاً بصورة

- 1 - لعب بالكلمات.. أوسيك مشتقة من أوسيما (وهنا يوسف) ولكن الكلمة تعني الدبور.. أما بتشيليك فمشتقة من بتشيلولا (النحلة) ويصبح معنى الكلمة - ذكر النحل. المترجم

مفاجئة! كم من المهم والضروري أن تشعر المرأة بأنها ترتدي ثياباً أنيقة! وكم كان رائعاً أن أحمل إلى البيت مختلف الصرر وعلب الكرتون الزاهية!  
أهداني أوسيا دليلاً، وأنا أحمله معي دائماً، بيد أنه يروق لي أن أمشي ببساطة، اعتباطياً، وأن أتأمل واجهات المحلات والناس. وقد خرجت إلى شارع يحمل اسمـاً جميلاً: Cherche - Midi. كم هو رائع: أبحث حتى الظهيرة<sup>(1)</sup>. كنا نردد هذا القول المأثور في المدرسة مع معلم الصف ماريا يوسيفوفنا، وإذ بها هنا تسمية لشارع!

كم أحبُ باريس عندما تكون الشمس ساطعة! لا تكون حينئذ مدينة فحسب، بل سوق مرح، بازار، حيث يبيعون كلَّ شيء في الشارع - الفواكه والخضراوات والأزهار! وفي كلَّ مكان ثمة أرغفة الخبز الطويلة والكريasan - هشة ومقرمشة! لا أستطيع ضبط نفسي - وأشتري. كما أني أشتلهي الطعام طوال الوقت. وفي كلَّ مكان تباع الفطيرة - Crkperie، كما لو أنه ليس يوماً عادياً وإنما أسبوع المرافع (ماسلينيتسا)! دخلتُ إلى مقهى صغير (بو فيه) لكي أرتاح، فتحت الدليل وإذ به مقهى «بروكوب»<sup>(2)</sup> الشهير! توقفت ذات مرة أمام النافذة في أحد متاجر Lafayette، وتبين أنَّ تلك لم تكن نافذة بل كانت لوحة فنية. هذه المدينة بكلِّ بساطة مرسومة من قبل الفنانين الانطباعيين! أحب التنزة في الشوارع، حيث يعرض رسامون لوحاتهم في الشارع مباشرة. يقومون بوضع حوامل متنقلة ثم يعلقون لوحاتهم عليها. معارض كاملة في الشوارع. وهناك يقوم الأميركيون بشراء كلَّ شيء تقريباً. أوضح لي أوسيا أنه في حال قام أحدهم بشراء لوحة ما اليوم بسعر منخفض فإن نفس اللوحة سوف يصبح ثمنها بعد حوالي عشرين سنة مبلغاً ضخماً. وفي كلِّ مرة كنت أتوи أن أطلب منه أن نشتري لوحة ما. لا لكي ننتظر 30 سنة بالتأكيد. ما حاجتنا لثروة بعد مرور ثلاثين سنة؟ بعد مثل تلك المدة قد لا يبقى ثمة شيء أو أحد. ببساطة تنظر وتستمتع باللوحة! لا

1- أبحث حتى وقت الظهيرة - هذه ترجمة لاسم الشارع cherche midi المترجم

2- أقدم مقهى في باريس... يقع في الحي اللاتيني، بالقرب من شارع سان جيرمان...

المترجم

أعرف ما إذا كانت لديه مشكلة الآن مع المال. ولكنه لن يرفض طلبي. حبيبي  
أوسيك!

كان الرسامون اليوم ينظرون طوال الوقت إلى السماء: هل سيهطل المطر  
أم لا؟ أحاول أن أتخيل كيف يجب عليهم أن ينجوا بلوحاتهم. أما أنا فأحبُ  
المطر! فالأتار في هذه المدينة لها نكهة خاصة. إن باريس مدينة ساحرة  
أثناء هطول المطر، خصوصاً في هذا الوقت، مساءً، عندما تتلاًّ أصوات  
الشوارع على الأرصفة المبللة بماء المطر.

هذا اليوم غائم ومكفر. يهطل المطر منذ الصباح الباكر من دون توقف.  
لم أذهب إلى أي مكان. رحت أغنى وأقرأ طوال اليوم.

وأنا لا أغني لنفسي بل لحبة «البازلاء» عندي. يقال إن الغجر لديهم تقليد  
وهو أنهم يقومون بالغناء أمام بطن المرأة الحامل، خالقين إحساساً موسيقياً  
لدى الجنين قبل الولادة. يا حبة «البازلاء»! يجب عليك أن تكوني صاحبةَ  
أذن موسيقية! وعندما ستكبرين قليلاً، سوف تقوم بالغناء أنا وأنت معاً، أو  
أنني سوف أكون مرافقة لك بينما تغنين!

ولكي تكون محاطاً بكل ما هو ساحر وجميل في الدنيا، يا جنبي، وليس  
بالموسيقى فقط، أنا أذهب بك إلى مختلف المتاحف. وقد أصابك الذهول  
مثلي تماماً عندما زرنا متحف اللوفر، وفي متحف رودان<sup>(1)</sup> وفي متحف  
Cluny، أليس كذلك؟ ألا تذكر كم أعجبنا كلانا بلوحة السيدة مع وحيد  
القرن<sup>(2)</sup>؟ ولذلك أمضينا ساعة كاملة ونحن جالسان أمامها! وسوف نذهب  
لرؤيتها من جديد، أليس كذلك؟

يا إلهي، كم أنّ اليوم طويل جداً! أنتظر وصول أوسيبا بفارغ الصبر!  
يا له من شعور رائع - أن تنتظر المرأة زوجها. سيأتي إلى البيت متعباً  
وجائعاً. زوجي الحبيب! يا لها من تسمية لطيفة: زوجي. كم أنا سعيدة مع

1- أوغست رودان 1840-1917 فنان ونحات فرنسي مشهور. يعد أحد رواد فن النحت  
خلال القرن التاسع عشر. وتعد أعمال أوغست رودان الفرنسي نماذج للأنواع الانطباعية  
في النحت. أعطى رودان للأشكال رؤية الحركة السطحية. المترجم

2- لوحة لرفائيل..المترجم

زوجي يوسف! إنه يعتني بي باستمرار، ويهتم بي وبحبة «البازلاء»! كم هو محبٌ وحنون! كلّ يوم، وقبل أن يذهب إلى مكتبه، ينهض في وقت باكر، قبلى، حيث يقوم بتنظيف الجزر ويقطعه لنا أنا وحبة «البازلاء». كم هو رقيق الحاشية!

\*\*\*

تنزّهت مطولاً، حتى وصلت إلى Trocadero<sup>(1)</sup>. شعرتُ بالتعب. كان هدير يدوّي باستمرار في مكان ما.

رحت أتعلّم إلى الواجهات وأقارن بينها وبين الواجهات في برلين. ففي برلين يدوّي كل شيء جامداً، وغير جميل ومن دون ذوق. أما هنا! الواجهات المخصصة لرباطات العنق - أشبه بحدائق، بمناظر طبيعية، بتدفق الألوان، وشلالات، وانسياب للألوان الزاهية. والعطور - بحر، ربيع. وكم هناك من تباينات حادة في ألوان الأقمشة والمحمل والحرير.

أسعى لأن تنزّه كلّ يوم، بغض النظر عن الطقس - لأن «حبة البازلاء» بحاجة إلى الهواء المنعش. وكم هناك من الاحتفالات والمهرجانات. تقام لديهم مهرجانات بصورة دائمة. كل أسبوعين وفي اثنين من بين أربعين حي من أحياه باريس تجري مهرجانات مفتوحة في الهواء الطلق، في الشارع - معارض، ألعاب أمريكية وأراجيح، مسابقات ومسرحيات وألعاب خفّة!

وكم كان لطيفاً عندما قام أهالي باريس بتنظيم احتفال بمناسبة وصولنا إلى Gare du Nord<sup>(2)</sup>. خرجت المدينة عن بكرة أبيها إلى الشوارع! راحوا يسرون وينشدون «المارسيليزا». يجب العمل من أجل الوصول إلى باريس في يوم 14 تموز على الدوام! حشود هائلة، من دون أن يكون هناك أحد من أفراد الشرطة أو الجنود، والثنايات من الشبان يمشون متعانقين وهم يتسمون للجميع!

أذهب عادةً إلى حديقة لو كسمبورغ. أعتقد أنها الحديقة الأكثر جمالاً في العالم كله، خصوصاً في يوم مشمّس. وفيها يشعر المرء براحة لا حدود

-1- محطة مترو أنفاق شهرة... عقدة خطوط للمترو.. المترجم

-2- محطة القطارات الشمالية (فرنسي). المؤلف

لها، ويحرية كاملة! هذا يمضغ شريحة خبز مع اللحم، وهذا يقبلان بعضهما. ويعُدُ العناق والتقبيل في الشارع، على ما يبدو، ضرورة وحاجة حياتية بالنسبة للفرنسيين مثل تناول شريحة خبز باللحم أو بالجبنية. وتنشأ لدى رغبة بأن أجلس مع يوسف في مكان هناك، وأن تتناول شرائح الخبز ونعانق ونقبل بعضنا! كما أحب أن أراقب كيف أن المستنين يلعبون لعبة الكرة الحديدية<sup>(١)</sup>. يُخيّل لي أنني بُتْ أعرفهم جميعاً، وهم يومئون لي برؤوسهم مرحبيين.

وهناك أعداد كبيرة من الأمهات مع أطفالهن! بحيث يظن المرء كما لو أنَّ جميع نساء باريس إما حاملات أو أنهن وضعن مولودهنَ قبل مدة قصيرة - ثمة أعداد لا تحصى من عربات الأطفال! بدأت تنشأ لدى رغبة وأنا أتنزه في الحديقة أن ألقى نظرة إلى داخل عربات الأطفال.

يوم أمس جلست امرأة معها طفل إلى جنبي على المقهى وراحت تقرأ. وقعت من الطفل الرضاعة فراح يبكي، التقطتها ثم لحستها بلسانها وأعطيته إياها من جديد. هل سيكون كل هذا لدينا نحن وأنت يا حبة «البازلاء»، بالفعل؟

وأما ذلك الطفل الممتلىء صحة الذي بدأ للتو بالمشي، فلم يستطع أن ينزل عن السلم القصير قرب النافورة. أدار مؤخرته وراح يهبط الدرجات زحفاً على بطنه.

هذه الحديقة ليست حديقة عادية، بل ملكية. فأنت تتلقى بالملوك باستمرار أثناء تزهك في الممرات الظلية: تارة تتلقى الملكة آنا دوقة بريتاني، وتارة تتلقى مع مرغريت بروفانس. وهناك بلانكا القشتالية وآنا النمساوية. وفي يوم أمس جلست مقابل الملكة مرغريت من فالوا<sup>(٢)</sup>. أطلت الشمس للحظات فراحت تتلاً على فستانها بقع من أشعة الشمس، كما لو أنها أرادت أن تسوي الطيات الطويلة فيه، فرحت أقول

1- أو المِطَنَّةُ أو بيتانك وتعرف كذلك بلا بول، هي لعبة كرة تنافسية، واللعبة في شكلها الحالي قد نشأت في منطقة بروفنس الواقعة جنوب فرنسا في عام 1907. المترجم

2- المقصود أنَّ الحديقة مليئة بتماثيل لزوجات الملوك الفرنسيين... المترجم

لنفسه إن هؤلاء النساء، عندما كنَّ يتظرن ولادة أطفالهن، كنَّ يختبرن نفس الشعور الذي أشعر به أنا الآن. وقد قرب بينما هذا الشعور ووحدنا! ولا بد أن أولاء الملكات أيضًا كنَّ يشعرونَ بأنَّ المملكة بأكملها أمر تافه ولا قيمة له بالمقارنة مع ذلك الإحساس بالنحو الذي يحدث للجنين في داخلهن: ففي بطونهن ينمو عالم أعظم وأكثر أهمية من جميع الممالك والجمهوريات مجتمعة.

\*\*\*

أيقظتني العاصفة في الساعة السابعة صباحاً. وما زالت العاصفة مستمرة حتى الآن بينما أنا أكتب هذه الكلمات.

أعيش في باريس، قلب العالم، ومع ذلك يجب عليَّ أن أتواصل مع لوبوتشكا! تنزَّهنا يوم أمس معاً لمدة ساعتين، وبعد ذلك رحتُ أشكو من صداع طيلة اليوم حتى المساء. لوبوتشكا لا تتكلم، ولكنها ترافق. وهي تفعل ذلك من دون توقف. نوعاً من التواصل كحدٌّ أدنى!

دلتني إلى المكان الذي قاموا باغتيال بتلورا<sup>(1)</sup> فيه، وهو يقع عند تقاطع شارعي راسين وسان - جيرمان.

وقد روت لي كيف أنهم نقلوها إلى المستشفى في الأسبوع الثامن من حملها بحالة نزف شديد، لدرجة أنَّ الجميع ظنوا أنه لا حظوظ لأن تكمل حملها. عولجت بالحقن العضلية بشكل مكثُّف بحيث إن إلبيها أصبحت ممتلثتين بالبقع السوداء من جراء الحقن، وأنها كانت تضع عليهما الملفوف وهذا ما ساعدتها كثيراً.

---

- 1 - سيمون فاسيليوفيتش بتلورا 1879-1925 ناشر وكاتب وصحافي وسياسي ورجل دولة وزعيم قومي أوكراني قاد النضال الأوكراني للحصول على الاستقلال بعد ثورة روسيا 1917. تولى منصب رئيس أوكرانيا خلال فترة الاستقلال ما بين عامي 1918 و1920م. وفي 25 مايو من عام 1925 قُتل بيتلورا بخمس طلقات من سلاح ناري غدرًا على يد الفوضوي الروسي شولوم شفارتزبارد ذي الأصول اليهودية في وسط باريس. ثمة اعتقاد راسخ بأن شفارتزبارد كان جاسوسًا سوفيتياً. هذا ما اعترف به عميل الاستخبارات السوفيتية KGB المنشق وأحد المشاركون بالحرب العالمية الثانية بيتر ديريانين خلال خطابه أمام الكونغرس الأمريكي. المترجم

تزوجت أول مرة لأنها كانت «شابة وحمقاء»، ثم تطلقت بعد أن نقل لها زوجها العدوى بداء السيلان. كان طفلها يبلغ من العمر آنذاك أربعة أشهر. راحت تعمل في مؤسسة الطباعة والنشر الحكومية إلى جانب سيدة ناضجة كانت تدخن السجائر باستمرار. وهذه السيدة هي المقصودة «بالسيدة الرائعة»، لوبوف دميترييفنا بلوك<sup>(1)</sup> التي مجدها الشاعر. راحت تحكي لي لكي تضحكني. أما أنا فقد شعرت من جراء ذلك بالكدر وبالضيق.

إنها متزوجة من الملحق التجاري. شاهدته مرة واحدة فقط، وقد بدا لي لطيفاً ومهذباً، وبعد أن تحدثت معها تشكل لدى انطباع بأنها لا تحبه نهائياً. تزفق لوبوتشكا بلا توقف، ثم يبدأ عندي صداع بعد حوالي نصف ساعة، فلا أعود قادرة أن أجيبها. كما أنها ليست بحاجة إلى جوابي. راحت تخبرني اليوم كيف أنها كانت تكوي الثياب في البيت، هنا في باريس، وإذ بجرس الباب يقرع فجأة. كان هذا شاب فرنسي، قدم نفسه على أنه شاعر، وكان بائعاً متوجلاً لأشعاره. لم تطرده لأنها شعرت بالشفقة تجاهه. راحت تساومه على السعر، فأعطتها قصيدة قصيرة جداً لقاء فرنك واحد. قرأت القصيدة بعد أن غادر - يا له من شعر مذهل! أحبته على الفور. وجدت أن هذا هو الحب الحقيقي، الحب مدى الحياة، لأن العباقة لا يأتون إليك من عالم الغيب بكل بساطة. راحت تبحث وتسأل عنه، بل وقررت أن تنشر إعلاناً في الصحف، ومن ثم أخبرها أحد الأشخاص بأن تلك القصيدة هي للشاعر آرثر رامبو<sup>(2)</sup>.

\*\*\*

بدأت حبة البازلاء تتحرك! كل شيء كما قال الطبيب - في الأسبوع التاسع عشر.

---

-1 1881-1939 ابنة عالم الكيمياء الشهير منديليف التي كانت زوجة للشاعر الروسي الكبير ألكساندر بلوك... المترجم

-2 1891-1854 شاعر فرنسي. كتب أشهر أعماله وهو لا يزال في أواخر مرحلة طفولته، أثني عليه فيكتور هوجو وقال إنه «طفل شكسبير»، توقف كلية عن الكتابة قبل أن يبلغ العاشرة والعشرين من عمره. ترك أثراً كبيراً في الأدب الحديث وكذلك الموسيقى والفن وقد سافر في رحلات كثيرة إلى ثلاث قارات قبل أن يموت من السرطان في السابعة والثلاثين. المترجم

أثناء النهار، وبعد أن أصبحت بمفردي، خلقت جوًّا هادئًا. أغلقت جميع النوافذ. أوقفت ساعة الحائط. استلقيت. ورحتُ أصغي إلى ما يحدث في داخل بطني.

والليوم أيضًا فعلتُ الشيء ذاته، تمددت ورحتُ أصغي. لا شيء. استلقيت على بطني. جمدتُ وحبستُ أنفاسي. فجأة - فرقعة خفيفة! - أشبه بانفجار فقاعة صغيرة جدًا في بطني. ومرة بعد أخرى.

«آه؟ من أنتِ، يا حبة البازلاء؟»

أوسيما يريد أن تلد لنا ابنة، أما أنا فلا أعرف ماذا أريد. على الأرجح، نفس الشيء. لأنني أحلم بأن أجدر لها شعرها وأن أربطه بشرائط وأن ألبسها فساتين جميلة وزاهية.

أنا سعيدة بك، يا حبة البازلاء، ولا فرق من تكونين - صبيًا أو بنتًا. إذا ولدت بنتًا، يا ربّي، فإني أتمنى أن تأخذ من أبيها لون عينيه وشكل يديه، وأما الأنف فليكن كما عندي. المهم لا يكون أنهه، أرجوك يا رب!

لفت نظري اليوم أن حمالة صدرى الجديدة والجميلة التي اشتريتها في متجر Lafayette، أصبحت صغيرة وضيقـة. لقد كبر صدرى فجأة، بين ليلة وضحاها، ومن جديد - الثدي الأيمن أكبر! - يا له من أمر مثير! يكبر الثدي الأيمن أولاً، وبعد مرور بضعة أيام فقط يلحق به الأيسر.

كما أصبحت معجبة بنفسي. رحت أهوى بصورة مفاجئة النظر إلى جسمى وأن أمسح بيدي على جلدى. لم يسبق أن كان لدى مثل هذا الصدر المثير والساخر.

وفي بعض الأحيان يُخَيَّل لي أن جسمى ليس لي: يبدو ثقيلًا وغريبًا. ولكنني اعتاد على الوضع الجديد بعد مرور بضعة أيام، وما إن اعتاد حتى أتوقف عن النظر إلى نفسي، لأن ثمة تغيرًا ما يحدث معي. سوف أشتري غداً حمالة صدر جديدة، خاصة بالحامل لكي أتمكن من فتحها من الأمام.

\*\*\*

ثمة اليوم ضباب شديد منذ الصباح. خرجتُ لأنزه، ووصلت حتى جسر

الكساندر الثالث. كان برج إيفل يبدو كأنما شيد نصفه فقط. ظننت أنَّ ماريا باشكيرسيفا<sup>(١)</sup> شاهدت البرج ذات يوم على هذه الصورة، غير مكتمل البناء بعد. ذلك أنَّ باريس مديتها، فقد عاشت فيها وفيها أنشدت أغانياتها، وكتبت مذكراتها، كما أنها رسمت فيها رسومها وتسكعت في شوارعها التي أمشي فيها أنا الآن. وهنا ماتت هي أيضاً. ولكنني لا أعرف حتى في آية مقبرة تمَّ دفنهَا.

\*\*\*

كنت اليوم في زيارة لآل بتروف. أخذتني لوبوتشكا لكي أتعرف على المجتمع الرأقي للسيدات السوفيتيات. إذ كنت قد نسيت التواصل مع الناس في باريس. شعرتُ في البداية بالسرور لأنني سأتعرف على وجوه جديدة، وأنَّ الجميع يتحدثُ اللغة الروسية، ولكنني بعد نصف ساعة بدأتُ أشعر بالضيق وتمنيت أن أهرب! يا إلهي، كم سمعتُ هناك من أقاويل وأخبار فظيعة! قبل كل شيء راحت النساء يتبححن بعضهن أمام بعض بما اشتريته، ثم رحنَ يناقشنَ مختلفَ أشكال المعن والتحرير والتلمائيم للنساء الحوامل. مع العلم أنَّ كلَ واحدةً منهن كانت تبدأ حديثها من الإعلان عن أنَّ ذلك مجرد سخافات الجدات، ثم تذهب إلى ذكر أمثلة على حدوث هذا الأمر أو ذاك بالفعل مع واحدة من معارفها!

لا يجوز ركل أو ملاعبة القطط والكلاب - لأنَّ هذا سوف يؤدي إلى

1- ولدت ماريا باشكيرسيفا لعائلة أرستقراطية أوكرانية، وكانت تحمل الجنسية الروسية، سمع لها ثراءً عائلتها أن ت safar إلى مختلف أنحاء أوروبا مع أمها، وكذلك الانتساب إلى مدرسة «أكاديمية جولييان» وهي واحدة من المدارس النادرة في ذلك الوقت والتي كانت تقبل انتساب الإناث، وصدق وجود الفنان لويس بريسلاؤ في نفس المدرسة، وكانت ماري ترى فيه منافساً وحيداً لها، ويعود إلى هذه التنافسية ربما الفضل في حث ماريا على القيام بأهم أعمالها الفنية خلال فترة حياتها القصيرة مثل لوحة «الاجتماع» التي رسمت فيها أطفال الأحياء الفقيرة في باريس، ولكن لسوء الحظ، تم تدمير قسم كبير من أعمالها الفنية خلال الحرب العالمية الثانية. كانت ماري تتبع إحدى المجلات منذ سن الثالثة عشرة، ثم عملت فيما بعد محررة فيها، حيث نشرت عدة مقالات لتكشف مساوى البرجوازية وتدافع عن حقوق المرأة في التعليم... وقد كانت مذكراتها تحظى بشعبية هائلة في روسيا مطلع القرن العشرين... وأكثر من شغف بها الشاعر بريوسوف والشاعرة العظيمة مارينا تسفيتاييفا... المترجم

ظهور شعر قصير وقامس «الهلب». يا له من هراء. صرُّتُ مستعدة الآن لأن  
أقترب وأداعب عن قصد أي هرة أصادفها.

لا يجوز المرور فوق عريش عربة الجر أو الحجل وأشياء أخرى - وإنما  
فإنَّ الطفل سوف يُولَد مع حدبة. وأين يمكن رؤية مثل ذلك العريش في  
باريس؟

وإذا ما اجتازت المرأة الحامل طريق جنازة، سوف تظهر عند الطفل  
الوليد وحمة - لأنَّ الدم سوف يسخن. هل هذا يعني أنَّ الوحمة تظهر نتيجة  
لقاء المرأة الحامل مع الموت.

نقلت مساء هذه الأمور لأوسيا. فقال إنَّ كلَّ هذه الأمور من مخلفات  
التوحش الريفي! وقد شرح أوسيا كلَّ شيء لي: من أين جاء، على سبيل  
المثال، تحريم المرور فوق العريش: لأنَّ المرأة في تلك الأيام لم تكن تلبس  
 شيئاً تحت التنورة! كانوا يخافون، بسبب جهلهم، من أنَّ أشياء ما سوف  
«تشاهد» من الأسفل الأعضاء التناسلية! وماذا لو أنها رأتها! القصة هي أنَّهم  
كانوا يؤمِّنون بأنه توجد روح في أي شيء. وما هي طبيعة تلك الروح في  
العريش؟

اشترتُ بضعة كتب تتعلق بالمرأة الحامل وبالأمية. رحت أقرأها. كلُّ  
شيء فيها واضح وبمتهى البساطة! ولا داعي للخوف من أي شيء. يمكن  
التوجس فقط بشأن ما قد يتعرض له الجنين أثناء الولادة. كما أنه مخيف  
التفكير بأنَّ الولادة عملية مؤلمة جداً.

أنا جبانة وأخاف من الألم كثيراً. وهذا أكثر ما يثير الرعب عندي - أنني  
سوف أتألم جسدياً، وهذا ما يجب عليَّ أن أعترف به. قال لي أوسيا إنَّ الألم  
في الطبيعة ضرورة من أجل الحفاظ على الذات، من أجل منع حدوث  
الموت ولكي يحبَّ الإنسان الحياة ويتعلق بها. كم أنَّ كلَّ شيء مدبر على  
أحسن تنظيم! يسبِّبون الألم لك لكي يرغموك على الحياة. يدفعونك إلى  
الحياة كما لو عن طريق سوط بواسطة عود يابس. لو لم يكن ثمة ألم، ولو  
أنَّهم لا يقومون بطردك بالعصا - فمن كان سيريد أن يبقى حيًّا؟

أما لوبوتشكا فقد أعلنت بخصوص الألم: ثمة حاجة إلى الألم والمعاناة

أثناء الولادة لكي تحسن الأم محبة ولديها، ولكي تذكر كم دفعت غالباً في سبيل الحصول عليه.

\*\*\*

أوسيَا - يا حبيبي ! طلبتُ منه أن يحضر لي دفتر يوميات ماريا باشكيروتيفا. نشأت عندي رغبة كبيرة بقراءة مذكراتها من جديد ! وهو صاحب العقل النبيه والقلب الرائع، ذهب إلى أحد متاجر الكتب المستعملة ووجد الكتاب فيه ! طبعة قديمة جداً ومستخدمة مرات ومرات كثيرة. فتحت الكتاب عشوائياً وإذ بي أقرأ السطور التالية : « يا لها من متعة كبيرة أن أغني بصورة رائعة ! يتباكي إحساس بأنك شخصية عظيمة ، وتدركين أنك ملكة ! تشعرين بسعادة غامرة وذلك بفضل جدارتك الشخصية . وهذه جدارة تختلف عن تلك العجرفة التي يمنحك إياها الذهب أو الألقاب . تصبحين أكثر من مجرد امرأة ، وتشعرين بأنك خالدة . تتحررين من الجاذبية الأرضية وتحلقين عاليًا في السماء ! ».

أتصفح الكتاب ويختبني إعجاب غير محدود بهذه الفتاة . « ما من شيء يختفي من دون أثر في هذا العالم ... عندما يكفل شخص ما عن محبة شخص آخر ، فإن المحبة والشغف عندها يتقلان على الفور إلى شخص ثان - حتى من دون أن يدرك المرء ذلك ، وعندما يعتقد شخص ما أنه لا يحب أحداً - فهذا يكون مجرد إحساس خاطئ . حتى لو أنك لم تكن تحب إنساناً ، قد تكون تحب كلباً أو أثاث منزل ، وينفس القوة ولكن بصيغة مختلفة . وإذا كنت أحب ، فلا بد أن أتمنى أن أكون محبوبة من قبل شخص ما . بيد أنك لن تحظى بمثل هكذا حب في أي مكان . وأنا لن أغرم أبداً ، لأنه ما من شخص في الدنيا أحبني بنفس القوة وبنفس الطريقة التي أجيد فيها أنا الحب ».

متى كان لديها الوقت الكافي لكي تختبر كل هذا وتعيشه ؟ هل كان الناس فيما مضى أكثر نضجاً وأكثر فطنة وذكاء من الناس الناضجين في عصرنا ؟ أو هذا : « أنا ، التي كنت أتمنى أن أعيش دفعة واحدة سبع حيوات ، لا أعيش سوى بربع حياة فقط ».

بيد أن هذا لا يمكن أن تكتبه بنت عمرها 14 سنة فقط !

القيت نظرة في فصل «هذا اليوم» من آخر سنة في حياتها - ويعود تاريخ الكتابة إلى 30 آب: «سوف أنهى كلامي على النحو التالي... سوف أعمل على اللوحة... وذلك على الرغم من كل شيء، وبغض النظر عن درجة البرودة... سواء في العمل، أو في نزهة ما: سوف يموت حتى أولئك الذين لا يعرفون الفن التشكيلي ولا يمارسونه...» وقد توفيت بعد شهرين.

\*\*\*

رسالة من كاتيا! قرأت ما كتبته عن معيشتهم وأحوالهم في موسكو، وشعرتُ بانقباض في القلب - كم أنا مشتاقة إلى جميع أصدقائي وأقربائي. لم أكن أتوقع منها أن تصبح مؤمنة بالخرافات! كتبت تتصحّني ألا أقصّ شعري - هذا فأل سبع - سوف تكون حياة الوليد قصيرة. سوف أذهب غداً ونكاية بجميع الفؤول إلى صالون الحلاقة وسوف أقصّ شعري وسأعمل تسرية لشعري. هذا ردي لكم جميعاً! فأنا لا أؤمّن بالخرافات!

يُخيّل لي كما لو أنني سافرت إلى موسكو لزيارتهم قبل مدة قصيرة فقط، ولكن كم مضى من السنين يا تُرى؟ ياه! عشر سنوات! نعم، لقد كان ذلك في شهر كانون الثاني أو شباط من عام 1916. كنتُ أحلم بأن أتدبر فرصة للغناء هناك، ولكتهم في «الإرميتاباج» - وأقصد مسرح «الإرميتاباج» حيث كنتُ أغنى - لم يصغوا إليّ نهائياً! كم أنه أمر مسلّ أن أتذكر ذلك الآن ما كان يبدو حينئذ حلماً مستحيل التتحقق، ليصبح ذلك الحلم خلف الظهر. أما في ذلك الوقت، فقد كان، يا ربّي، ذلك مأساة حقيقة!

رحتُ أتسكع وحيدة لساعات مع إحساس بالتعاسة، لا أحد بحاجة إلىّ، وكان الفصل شتاءً، في شوارع موسكو المليئة بالثلوج - وسط حشد أنيق واحتفالي. راح أحد الأشخاص يروي كيف تعارف فيرتينسكي مع فيرا خولودنايا<sup>(1)</sup>: أراد أن يطارد سيدة فاتنة على جسر كوزنيتسكي، فقالت له:

1- الكساندر فيرتينسكي 1889-1957 ممثل ومطرب وملحن ومبرود موسيقى الراب في التصفي الأول من القرن العشرين في الاتحاد السوفيتي. فيرا خولودنايا (الكتيبة قبل الرواج ليفتشينكو) 1893-1919. ممثلة سينمائية روسية. المترجم

«أنا متزوجة، زوجة ضابط الصف خولودني!». أخذها إلى خانجونكوف<sup>(1)</sup> - وأصبحت ملكة السينما. وهكذا أنا أيضًا، رحتُ أنظر مثل بلهاء وأحلم أن يوقنني شخص ما ويقول لي: ألا تريدين أن تغنى أو أن تمثلي في السينما؟ رحتُ أنظر إلى السيدات، فلاحظتُ أنَّ لدى الجميع تسرية شعر على غرار تسرية فيرا خولودنaya، وأنَّ كُلَّ واحدة منهن تحلم بأن تصبح نجمة سينمائية. وكم كان مثيراً للحقن أن أسمع كيف أنَّ آنسة ما مدللة جدًا تخرج من المتجر وتقول للحوذى بلا اكتراض: «لا، لم يعجبني. سوف آتي، على الأرجح، مع عريسي».

رحتُ أتأمل إحدى الواجهات التي تعرض فيها قبعات نسائية ولم أصدم - دخلت لكي أقيس وأجرب. كانت القبعات صناعة باريسية، وجميعها رائعة بحيث يمكنك أن تشتري أية واحدة منها بكل طمأنينة، أما أنا فرحتُ أقول: «لا، ليس هذا ما أريد، لا تعجبني! سوف آتي، على الأرجح، مع عريسي». أما الآن فجميع القبعات في باريس هي ملك لي. ولكن المهم أمر آخر تماماً.

\*\*\*

أصبحت أفكُر أكثر وأكثر: وهل يمكنني أن أغنى هنا، يا ثُرى؟ لا أعرف. يدعوني زوجي العزيز أوسيك إلى مختلف المقاهي - الكباريهات وإلى مختلف المسارح الموسيقية. وقد شاهدنا وسمعنا أكثر من مرة جميع النجوم في باريس - ميستانِغت، وشيفاليه، والآن جوزيفين بيكر. وهم ليسوا أفضل من مطربينا، ولكن طريقة وأسلوب غنائهم مختلفان. إنهم يغنوون ببساطة وبحرية أكبر. أما عندنا فالمطرب يؤدي أية أغنية بمنتهى الجدية، كما لو أنها أغنية منفردة (Aria) في أوبرا.

ذهبنا يوم أمس إلى «казينو دو باري» لكي نستمع إلى جوزيفين بيكر. بشعة مثل قرد، ولكنها موهبة مثل شيطان.

---

1- ألكساندر خونجونكوف 1877-1945 رجل أعمال ومتاج سينمائي وسيناريست ومخرج. أحد رواد السينما في روسيا والاتحاد السوفيافي. المترجم

كما كنت أحب الذهاب إلى «مولين روج». وأين لم أذهب طالما أنَّ  
الرب منحني هاتين الساقين؟

ولكن كيف يمكنني أن أغنى هنا؟ وهكذا ينشأ لديك التفكير بخصوص  
ما يقال له «الروح الروسية». وهو أنك لا تستطيع أن تفعل وأن تقول على  
المسرح كما تفعل جوزيفين هذه!

توجد هناك خصيصة لأجل «الروح الروسية» حانات على الطراز  
الروسي. وقد ذهبنا أنا ويوسف في إحدى المرات إلى واحدة من تلك  
الحانات في شارع مونمارتر. وقد تركت عندي انطباعاً فظيعاً. يقوم  
الروس ببيع كل ما هو روسي لقاء سعر زهيد جداً: اشتري ولو لقاء خمس  
كوبيكات! إنه أمر مثير للاشمئزاز أن ترى كيف أنَّ الأميركيين يسرحون  
ويمرحون: يرددون وراء الغجر ويرقصون. إذ يصبحون ثملين ويبدؤون  
بالرقص بوضعيَّة القرفصاء. والجميع بلا استثناء يقومون بتحطيم الأواني  
بعد أغنية المديح - إذ يعتقدون أنَّ «الروح الروسية» تقتضي فعل ذلك.  
ثمة ما هو مُشين ومُهين في كل شيء.

بعد ذلك قاموا بإطفاء الأضواء، ثم راحوا يحرقون شراب «الجينكا»  
في العتمة ويقيمون موكيتاً أو مسيرة في لباس عسكري غير معقول على  
الطريقة الروسية ala ros: حملوا اللحم المشوي بواسطة السيف بطريقة  
احتفالية.

إنه لأمر مُهين وعار مجرّد التفكير بالغناء هناك.

يا إلهي كم أنا مشتاقة للغناء على المسرح!

ها أنت يا حبة «البازلاء» ستولدين، وستكبرين قليلاً، وعندئذ سوف نعود  
إلى الوطن وستمنحيتني فرصة لكي أغنى من جديد.

بعد أن كتبت هذه الأسطر شرعت برغبة قوية بالعودة إلى موسكو.

عدنا يوم أمس بسيارة عمومية. كان السائق روسياً، من مدينة تولا. قال لنا  
إن في باريس ثلاثة آلاف سائق تكسي روسي.

نعم، أكثر ما أُعجبنا وأدهلنا في «казينو دي باري» ذلك البهلواني الذي

كان يحمل صينية بيده وعليها أربعون كأساً مع أربعين ملعقة - وكل ملعقة إلى جانب كأس. وبحركة خففة ومهارة- تصبح الملاعق الأربعون في الأربعين كأساً! ببساطة لحظة مثيرة جداً!

\*\*\*

ذهبت إلى متحف اللوفر من جديد.

إما أنني نهضت صباحاً «على الساق غير المناسبة» أو أنّ مزاجي كان «متجمداً بفعل الذهول». إذ إنني سرعان ما شعرت بالملل هناك.

رحت أتأمل أفروديتا وأتذكر كيف أنّ شعوراً بالفطاعة انتابني عندما قرأت وأنا تلميذة في المدرسة، أنها تنشأت من نوع ما من الزبد. يا للهول: قام الابن بقطع العضو الذكري لأبيه بواسطة المنجل!

رحت أتسكع في الصالات، وإذا بي أصاب بالضيق وبالتوتر: كم هو كبير عدد اللوحات التي تتناول الموضوع ذاته - موضوع العمل بلا دنس! ماذا قدّمت لهم تلك العذرية؟ وما هو، على وجه التحديد، الفسق أو الدنس؟ وأيُّ سوء فيه؟

أن تم الولادة من العذراء والروح القدس - معجزة لا تقلُّ عن معجزة الولادة من امرأة عادية ورجل عادي. وأنت يا حبة «البازلاء» معجزة أيضاً.

\*\*\*

أخيراً وصلتني رسالة من ماما. نفس الأسطوانة. تشكوا من كلّ شيء. آخر مرة التقينا فيها كانت في العام الماضي، عندما قدّمت حفلة في روستوف. والأدق، عندما هربتُ من موسكو - لأنّه لم يكن بوسعي أن أبقى هناك بعد كل ما حصل.

كم بدا كل من ماما وبابا متقدمين في السن وعجزين ساذجين وبسيطين، بعد الفترة التي أمضيتها في موسكو وبتروغراد. كلاهما، ومعهما مدينة روستوف بأكملها. أم أنّ تلك السنوات أرخت بثقلها علىّ وجعلتني أتوه وأخسر كياستي، وجرفتني بعيداً؟

لقد تأخرت ماما وأصبحت مستسلمة. كانت تصبغ شعرها بالحناء

باستمرار، ولكن هذه المرة ظهر الشيب واضحًا عليها لأنها لم تقم بصبغ شعرها منذ مدة طويلة. لم يسبق لي أن رأيتها على هذه الحالة.

أما بابا فقد كان كما في السابق نشيطاً، ولكن ماما تكتب في رسالتها أنه بات مريضاً الآن. في حين أنه لم يقل كلمة واحدة بشأن مرضه. هكذا هو دائمًا! رحتُ أفكّر بهما طيلة اليوم. كم كنتُ أحبّ في طفولتي مداعبة بابا لي: كما لو أنه وحش ويريد أن يتهمني - كانت لحيته تدغدغ عنقي وخدّي.

بابا الحبيب! كم أحّبّك! لن أخبرك أبد الدهر أنني رأيتُ كيف أنك حينئذ، في كنيسة جميع القديسين، وأنت الذي كنت تسخر طيلة حياتك من القساوسة ومن الكنيسة، رحت تصلي خفية وقد اختبات بعيدًا عن جميع الحاضرين في رواق الكنيسة المظلم. كانت تانيتشكا، ابنته من إيلينا أوليغوفا، أختي غير الشقيقة، تموت بالtifoid.

وأنا أيضًا صلّيتُ يومئذ من أجلها، والأدق، من أجلك أنت. أما تانيتشكا فقد ماتت بعد يومين. يا بابا الحبيب الطيب! أنا عاجزة عن تقديم أية مساعدة لك من هنا. يمكنني فقط أن أكتب رسالة لك وأن أفكّرك، وأن أتذكري.

الذكريات أشبه بالجزر في محيط الفراغ. وعلى تلك الجزر جميع الأقرباء والأعزاء على قلبي، وسوف يعيشون دائمًا معي كما كانوا من قبل. وفي واحدة من تلك الجزر يقوم بابا الحبيب بالتصليب خفية في العتمة. وماما تصبغ شعرها بالحناء. معلمتني نينا نيكولايفنا ترتدي قبعة من الطراز القديم. كنت أتمنى أن أزورها يومذاك، في روستوف، ولكنها لم تكن على قيد الحياة. ولم يسعفي الوقت لكي أزور قبرها.

التقيت بها في الأيام الأولى من الثورة في الشارع. ناديتها: «نينا نيكولايفنا، أهنتك!». فسألتني باستغراب: «بمناسبة ماذا؟» - «كيف بمناسبة ماذا؟ بمناسبة الثورة! وبحلول الربيع!». فأجبتني قائلة: «يا حبيبي! لا يستحق الأمر أن تهتئني بمناسبة الثورة، أما الربيع فلا يحلُّ عندي وفق التقويم، وإنما عندما أقوم باستبدال قبعتي المصنوعة من اللباد بقبعة مصنوعة من القش».

الرحمة والسلام لروحها!

\*\*\*

اكتشفتاليوم وأنا أتنزه في جزيرةالمدينة لوحه تذكارية تحمل اسم كل من أبيلار وإلواز<sup>(1)</sup>. فتذكّرت زابوغ斯基. لقد مات «أبيلار(ي)» من مدينة روستوف» بالتيفوئيد في شهر كانون الأول من عام 1919.

تذكّرت تلك الفترة الفظيعة وال الحرب ووباء التيفوئيد. كم كان هناك الكثير من الألم والمعاناة، ومع ذلك بقي الكثير من الدفء والنور! تذكّرت عيد الميلاد عام 1919. هرب الجميع من روستوف. نجح بابا في تدبير تذاكر في القطار لي ولماما. بقينا متوقفين في ضواحي المدينة على سكة الحديد حوالي خمسة أيام - كانوا يقومون طول الوقت بنقلنا من قطار إلى آخر، وكان الابتعاد عن القطار في المحطة بهدف الحصول على بعض الطعام، مثيراً للرعب - ربما تتأخر على القطار. كان الناس يهرعون حاملين أغراضهم إلى قطار آخر، ثم ما يلبثون أن يعودوا من جديد، ويخبرونا بأنهم شاهدوا جثث أشخاص معدومين شنقاً. قيل لنا إن سائقي القطارات أضرموا عن العمل، وقد تم جمع المال لهم بالفعل، وعندئذ استأنفوا العمل وأكملنا الطريق. كان الهواء في العربية فظيعاً - كان ثمة طفل مريض في بطنه. وقد راح أحدهم يعزّي الركاب باستمرار بأن عربتنا من الدرجة 3 أصبحت أشبه بالنعم، وذلك بعد أن قاموا بتشغيل التدفئة فيها ومع وجود مقاعد. كانت ثمة امرأة تخاطب زوجها بصوت مرتفع باستمرار: «ساشا! لقد قرصني القمل!»، ثم تبدأ بتنزع ملابسها بينما يمسك ابنها المراهق ببطانية، في حين كان الزوج يبحث مطولاً عن المكان الذي عضّها القمل فيه لكي يمسحه

---

- 1- أبيلار 1079-1142 فيلسوف فرنسي شهير يعود الفضل له في إنشاء جامعة باريس. ويعتبر شعلة ألهمت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر، ويعتبر ممثلاً لأخلاقي عصره وأدابه، وأرقى وأعظم ما يخلب اللب ويهب العقل في ذلك العصر. وتعتبر علاقته العاطفية بتلميذه إلواز 1101-1162 مضربياً للأمثال. أصبح أبيلار أستاذًا لإلواز عام 1113، وهي حفيدة أحد مسؤولي كاتدرائية نوتردام، وتشأت قصة حب بين أبيلار والفتاة، وحملت منه. وفي أعقاب مولد طفلهما، عام 1118م، عقدت إلواز وأبلار قرانهما سراً. علم فولبير، عم إلواز، بخبر جههما وزواجهما السري، فاستشاط غضباً. واستأجر في لحظة غضبه تلك مجموعة رجال هاجموا منزل أبيلار وخصوصه. وانفصل أبيلار وإلواز بعد الحادثة مباشرة. أصبح أبيلار راهباً، والتحقت إلواز بدير للراهبات. وقد ذاعت أسرار حبهما المأساوي من رسائلهما العديدة التي تبادلاها. المترجم

بالكحول. كما أنَّ امرأة فرنسية مع زوجها، الضابط الروسي الجريح، فقدت صوابها تماماً فراحت تمسح ابنها الرضيع بالنفاثتين<sup>(١)</sup> لكي تحميه من لسعات الحشرات. راح الطفل يبكي بكاء مريئاً ما جعل أمَّه تهزه بقوَّة لكي يسكت، ثم بدأ تشم روسياً والروس. كان الوضع رهيباً جداً. تحول الناس بصورة عامة إلى وحوش تقريباً وكادوا يدخلون بعضهم في عراك مع بعض. وكان الوقت عشيَّة عيد الميلاد تماماً. قررت إحدى النساء أن تقوم بتنظيم شجرة عيد الميلاد للأطفال في عربة القطار مباشرة - وسط الصخب والضجيج والروائح اللتبنة ونبوات الهمستيريا. عثرت على غصن عادي وليس من الشوح، وضعته في قنينة فارغة. قام أحدهم بمد منديل أخضر حول القنينة. صنعوا بعض الزينة من الورق. ثم أصروا بالغصن قطعاً من القطن. لم يكن هناك شموع - فقاموا بشراء شمعة ثخينة مخصصة للإضاءة من عامل السكك الحديدية المسؤول عن تبديل المؤشرات عند التقاطعات. نجحوا في إيجاد بعض تفاحات - فقاموا بتقطيعها إلى شرائح رقيقة. شجرة عيد الميلاد في عربة قطار! اجتمع الأطفال وانضم إليهم الكبار. راحت أغنى مع الأطفال. تبدلت وجوه الجميع كانوا متبعين، حانقين وعدوانيين - وإذا بهم يصبحون فرحين وبمتعجين! فيما بعد قام أحد الأولاد بتقبيلي وأهداني ثروته وهي عبارة عن زُّر ما.

أين هو ذلك الزر الآن؟ وأين تلك المرأة الرائعة التي دبرت شجرة الميلاد آنذاك؟ وماذا حصل لأولئك الأطفال؟

\*\*\*

كم يكون جميلاً أن يخطئ المرء في تقديره للناس أحياناً! فالمرأة صاحبة البيت الذي نسكه لم ترق لي نهائياً منذ البداية. بمجرد أنها راحت تقول إنَّ الأريكة والكراسي منجدة بقمash ثمرين جداً من نوع «tissu - rodier»، ظهرت عندي رغبة قوية بأن أدلق نفل القهوة عليها مع مالكتها. وهي تقطن في الطابق السفلي تحتنا مباشرة، وتدعونا في بعض الأحيان لشرب القهوة.

كيف يمكنك أن ترفض؟ والحديث عندها يدور على الدوام عن بعض الروس الفظيعين الذين أعطاهم زوجها المرحوم مبلغًا كبيرًا من المال كدين مقابل أوراق نقدية قيصرية، ولكنهم يرفضون الآن إعادة المال. ويا له من شعور مثير جدًا - أن تستطيع شتم الروس وتهاجمهم بين أبناء وطنك بكل حرية ومهما شئت، ولكن هنا، مع غرباء يتناولون وطنك بالسوء، تأخذك الحمية على الفور بالدفاع عنهم وعن الوطن.

ولكن المرأة تلك بصورة عامة لا بأس بها ولطيفة. تقرأ الكتاب المقدس باستمرار، وتشارك في نشاط حلقة مرتبطة بالإنجيل وتدعوني للذهاب معها إلى هناك. إنه لأمر مسلح أن يكون جميع الأنبياء لم يتكلموا إلا لها وباللغة الفرنسية.

\*\*\*

ذهبت إلى متحف الشمع. ما زلت حانقة بعد ذلك حتى الآن. لقد أصبحت حساسة إلى أبعد درجة تجاه الروائح! كان الهواء هناك فاسداً بحيث إنك لا تستطيع أن تتنفس مليء الصدر. ولم تتمكن من المغادرة فوراً لأنني شعرت بالأسف على تلك النقود الكثيرة التي دفعتها ثمناً لبطاقة الدخول! رحت أتسكع هناك وأنا أخلط بين الناس الأحياء وبين التمايل من شمع. وما هي الغاية من مثل هكذا متحف؟ يعرضون الموتى كما لو أنهم أحياء. لقد ابتكروا فكرة البعث الشمعي! لم يكن بوسعهم أن يتذمروا اللحظة التي ينفح فيها الملائكة في البوق! قاموا بتنظيم مشرحة أنيقة للموتى مصنوعة من الشمع! لم أكمل زيارتي لجميع الأجنحة، خرجت ولكن الإحساس بعدم الراحة بقي قائماً. ذهبت إلى نوتردام لكي أخفّف من وطأة الانطباع السيئ. يروق لي أن أجلس هناك في مكان خفيف الإضاءة وأن أنظر إلى الورود الضخمة في زخرفات التوافذ، وإلى الضباب الخفيف تحت السقف، وأن أتخيل كيف عقد قران الملكة مارغوا<sup>(1)</sup> هنا مع حبيبها هنري: كانت تقف وحدها أمام المذبح، أمّا هو فكان ينتظر خلف أبواب الكنيسة في الشارع.

---

1- رواية تاريخية للكاتب الفرنسي ألكساندر دوما الأب وهي جزء من ثلاثة - هناك الكونтиسة مونسورو» و«خمسة وأربعون» - تتحدث عن حروب آل غوغون في فرنسا في القرن التاسع عشر. المترجم

هل كنت أتمنى أن يُعقد قراني هنا؟ ربما كنت أتمنى أن أغني هنا يوماً ما.  
لأنَّ الصوتيات هنا في قمة الروعة.

خرجت ثم بقيت لمدة طويلة على ضفة نهر السين أمام نوتر - دام. كانت تلقي اليوم ظِلَّاً هائلاً على الضفة وقت الغروب.

\*\*\*

سافرنا اليوم إلى<sup>(1)</sup> Darul.ru. رحنا نتسكع أنا ولوبوتشكا في المتاجر. راحت تشتري أشياء غير أنيقة نهائياً، ولم تكن لدي رغبة بتغيير قناعتها بها. فهي تؤكد أنه ستكون دارجة في العام القادم التنورة القصيرة إلى ما فوق الركبة، حسب الموضة.

لوبوتشكا تثرثر بلا توقف، حتى إنه ما من حاجة لتشجيعها بإيماءة من الرأس، بل يمكنك أن تفَكِّر بشؤونك الخاصة بك، ولكن الأمر لا ينجح. راحت اليوم تخبرني عن عشاقها - كما لو أنه ما من مشكلة في الأمر! أمر مثير للقرف! فهي تتذَّكر الرجال الذين مرّوا في حياتها كما لو أنها تقلب فساتينها في خزانة الثياب.

كان ثمة أولاد يضعون مسامير على سكة الحديد. لم أعرف في البداية غايتهم من ذلك، ثم أدركت أنهم بذلك إنما يصنعون ألعاباً لأنفسهم: تصبح المسامير مسطحة أشبه بسيوف صغيرة جداً. هل لجنود من دمي؟ ثمة مغامرة وخطورة كبيرة فيما يفعلونه! كنت أنوي أن أنهرهم وأن ألتقط واحداً منهم وأشدده من أذنه! لكن لحسن الحظ أخافهم ظهور الشرطي.

هل ستكونين صبياً، يا حبة «البازلاء»، وسوف تخترعن مثل هذه التسالي الغبية والخطيرة؟

ذهبنا أنا وأوسيا إلى السينما. شاهدنا فيلم «بات وباتاشون»<sup>(2)</sup>.

\*\*\*

---

-1 شارع في الدائرة الثامنة من باريس - المترجم

-2 Pat and Patachon - ديو دنماركي للممثلين الكوميديين في عصر السينما الصامتة. بات نحيف ورقيق الحاشية ويميل للحزن. وباتاشون - بدین ورشيق وحاذق. المترجم

شاهدتُ اليوم في الشارع فتاة صغيرة مع بقعة حمراء كبيرة على رقبتها، فتذكرتُ على الفور تلك الأحاديث الغبية التي كانت تتبادلها النسوة. رحتُ أقول لنفسي رغمًا عنِّي: يجب أن تكون أمّها قد شعرت بالخوف فأمسكت بطنها بيدها فجأة.

أصبحتُ مؤخرًا أراقب الأطفال الآخرين باستمرار وأتساءل: وهل ستفعلين الشيء نفسه، يا حبة «البازلاء» وستلعبين كما كان يوم أمس يلعب الأطفال في الحديقة، وأننا سوف نمسك حبلاً طويلاً من طرفيه ونصنع بواسطته تموجات.

وفي حال إنك كنت بتتاً، فسوف تلعبين مثل أولئك الفتيات اللواتي مضى علىَّ نصف ساعة وأنا أراقبهنَّ من خلال النافذة: فقد حملنَّ طنجرة إلى الفنانة وكؤوسًا كبيرة، ثم رحنَّ يطبعن شوربة من الأعشاب والأغصان، كما رحنَّ يُطعمُنَّ دمى لأطفال من الأقمشة شوربة مصنوعة من الرمل، ويقمن بإلباسها ويهززنها أو يضربن الدمى على مؤخراتها، وأحياناً يوقفنها في الزاوية ويشتمنها. سألتُ أوسيا كيف يتصور طفلنا، وماذا يخطط للعمل معه. فأجاب: «أتخيّل كيف سأقوم بتعليمه القراءة. كما سأعلّمه كتابة الأحرف الأبجدية. سوف يكتب الكلمة «بابا» بشكل جيد، وكلمة «ماما» أيضًا أما حرف ك. فسوف يكتب بطريقة مائلة». أواه، يا حبة «البازلاء» كم أحبُّ والدك.

\*\*\*

هذا اليوم فظيع بشكل غريب. بدأ المطر بالهطول منذ الصباح. خرجت لفترة قصيرة ولكنني تبللتُ تماماً. كما أنَّ الأوساخ منتشرة في كل مكان! يُخيّل لي أنَّ هذه المدينة هي الأكثر قذارة في العالم. القمامات تغطي جميع الطرقات والأرصفة، ولن ينجح في تنظيفها أي جيش من العاملين في البلدية. وثمة رائحة نتنة قوية جدًا. وبصورة عامة، لماذا يفقد الجميع عقولهم في باريس؟ لقد اخترعوا مدينة باريس معينة بحيث إنك تشთاق إليها حتى وأنت في باريس!

وقد شعرتُ اليوم بشكل خاص وأكثر من أي يوم آخر بالضجر وبالكدر، وأبني من دون أصدقاء، ومن دون أهل. ماذا أفعل هنا؟ ولماذا أنا هنا؟

أنا هنا كما لو أني داخل زنزانة ذهبية! وحتى إنَّ الزنزانة ليست ذهبية نهائياً، بل عادية جدًا - هذا لا تريدين أن تشتريه، وذاك لا طاقة لك بشرائه! ها هي لوبوتشكا تقوم بتفصيل ملابسها عند مصممين مشاهير، أما أنا فأشتري ملابسي في متجر الألبسة الجاهزة - أقوم بتوفير كل فرنك.

بطبيعة الحال، القضية ليست في الفرنكات! يذهب يوسف إلى العمل، فأبقى وحدي في البيت. وحيدة ليوم كامل مع أفكاري ومع باريس التي لم تعد تبعث أي فرح عندي! وأنا بأمس الحاجة إلى الناس! بالتأكيد ليس للوبوتشكا أو آل بتروف! فهو لاء غير قادرٍ نهائياً على توفير التواصل الإنساني الطبيعي الذي يناسبني وأحتاج إليه!

فقد أخبرتني لوبوتشكا اليوم أنه سوف يجري هذه الليلة في البحيرة في غابة بولونيا احتشاد السيارات - لا يُسمح بدخول تلك المنطقة سوى للماركات الفاخرة من السيارات، حتى أنهم لا يقبلون سيارات سيتروين طاقة 10 أحصنة - حيث يجلس في السيارات رجال في بدلات سهرة خاصة وفوقها معاطف ومعهم نساء عاريات تماماً يرتدن عباءات من الفرو فقط. يخرج الجميع من سياراتهم ومن ثم يمارسون الخطيئة المشتركة - الفجور. تنير أضواء السيارات تلك اللوحة، بينما يجلس خلف المقاعد سائقون لا يتحرون من أمكنتهم بتناً، كما لو أنهم تماثيل. وأما أنا فأجلس وأصغي إلى هذا القرف!

\*\*\*

للمرة ألف أعود لأنصف مذكرات باشكيرتسيفا: «عندما أفكَر بأن الإنسان يحيا لمرة حياة واحدة فقط وأنَّ كُلَّ دقة نعيشها تقربنا من الموت أكثر، فإني أشعر وكأنني سأفقد عقلي!» - وأبدأ بالتفكير بأمر آخر - وهو أنها عندما كانت ما زالت حية وأنها تكتب، فقد كانت تخشى الموت، وأما أنا فأقرأ ما كتبت، بينما هي في عِداد الموتى.

وهل تعرفين، يا حبة «البازلاء»، بماذا أفكَر أيضاً؟ أنَّ ما يحيط بنا الآن لن يكون موجوداً بالنسبة لك. وأنه عندما تكبرين وعندما ستقرئين، على الأرجح، هذه الأسطر، لن يكون كل ذلك بكل تأكيد.

هأنذا أجلس قرب النافذة وأنظر كيف إنّ الصبيان يلعبون الكرة في باحة الدار. كما أنهم نجحوا في الحصول بطريقة ما على عكازات تستخدم في المستشفيات، وراحوا يلهون بها - يقفزون عليها كما لو أنها طوّالات (أرجل خشبية تستخدم في السيرك). ولكن من أين لهم هذه العكازات؟ وربما، أنا أيضًا لن أكون موجودة.

كم أنّ الأمر غريب. لمن يقرأ هذه الأسطر، أنا لم أعد حيّة، مثلما أنا أقرأ باشكيরتسيفا التي تخشى الموت الآن فقط مع أنها ماتت منذ زمن بعيد. المحصلة هي أنّ كل ذلك موجود وغير موجود في آن معاً، والأدق، أنه موجود فقط لأنني أكتب عنه الآن. أكتب عنك، يا حبة «البازلاء». وعن أولئك الأولاد في باحة الدار - وهو أحد هم الآن، أكبرهم سنًا، لوح بالعكازات في اتجاهين مختلفين كما لو أنهما جناحان، وراح يطير مقلّدا الطائرة. فانطلق البقية خلفه يريدون أن يطيروا أيضًا.

يمكن الاستنتاج أنّ باشكيرتسيفا حيّة الآن فقط لأنّه بقي بعدها دفتر مذكراتها، وأنني أقرأ فيه الآن؟

أيُعقل أنه لن يبقى مني أنا أيضًا سوى هذه الأسطر؟

كلا، بل كل هذا مجرد هراء فحسب! لأنك ستبقين أنت جزءًا مني، يا حبة «البازلاء».

\*\*\*

مضى وقت طويل من دون أن أكتب شيئاً. من ناحية، كما لو أنني لا أفعل شيئاً، بل أجلس في البيت، وتمضي الساعات بطئية، ولكن ما من وقت فائض وكاف.

لقد أصبح عمر حبة «البازلاء» 25 أسبوعاً! أسعى لأن أقوم بتمارين لياقة بدنية كل يوم. ففي الكتاب المخصص للحوامل يقولون إن ذلك مفيد جداً للجسم. لعله مفيد ولكن في حال أنّ المزاج كان جيداً فقط. أتعري تماماً، ثم أقترب من المرأة - في مدخل الشقة مرأة كبيرة في إطار جميل - بحيث إنني أظهر فيها بكامل قامتي، وأقوم بتسلیك خفيف لجسمي كما لو أنني شخص آخر يفعل ذلك. عندئذ أبدو في نظري جميلة، ربّة بيت محترمة (كما كانت

الأم في روما القديمة) تنتظر سرّاً مقدّساً. وأنا هنا لست أنا، بل هذا أنا وأنت معًا، يا حبة «البازلاء». ولكن عندما يكون مزاجي عكراً ومتذكرةً - فأكون كارهة لنفسي ولا يعجبني شيء فيّ!

أصبحتُ لسبب ما أشعر بالتعب بسرعة: أرغب بالتمدد لمدة نصف ساعة بعد تناول وجبة الغداء، مع أنّي لم أكن أميل للنوم نهاراً قط من قبل. ومساءً، بعد الساعة التاسعة، يجب أن أكون في الفراش مثل تلميذة في مدرسة ابتدائية. يجب أن ننام! لأنَّ الأطفال يكبرون أثناء النوم!

هيا، إكبرى بسرعة، يا حبة «البازلاء»، فقد تعبتُ من انتظارك! أشعر طوال الوقت كيف أنك تلامسين الجدران من الداخل.

\*\*\*

ذهبتُ يوم أمس إلى متجر ألبسة جاهزة للأطفال. كلّ شيء هناك جميل وفاتن، ولكن ليس فيه أشياء للأطفال الرضع.

اشتريت صوفاً بلون أصفر، وقررت أن أحيك كنزة وقبعة وحذاء خاصاً بالأطفال الرضع. سوف تبدين، يا حبة البازلاء صفراء مثل صوص! لأن الأطفال الذين يولدون في فصل الشتاء بحاجة لأشياء دافئة. تخيل كيف أننا بحلول رأس السنة الجديدة سوف يصبح عدتنا ثلاثة!

amp; ذهبت الصباح بأكمله وأنا أغسل وأنظف وأمسح.

أين أنتم، يا أصدقاء الأعزاء، كلافا وفانيا وبيورييس وليديا وأولغا؟ هناك، في روسيا، لم أكن أتصوركم أنتم عزيزون على قلبي! كم أنا حزينة هنا من دونكم! وما من أحد لكي أذهب إليه في زيارة! ذهبت في يوم السبت إلى بيت آل بتروف، خلعت المعطف وأردت أن أعلقه على علاقة عالية هناك، وإذا بالجميع هناك يقفزون ويصيحون محذرين من أنه لا يجوز أن أرفع يدي، لأن هذا قد يؤدي إلى التفاف الحبل السري حول الجنين وأن يخنقه! وكل شيء هناك من هذا القبيل.

وهؤلاء الناس يدعونني لأن نحتفل معاً بمناسبة رأس السنة الجديدة!

لن أذهب إليهم، قررت أننا سوف نحتفل بالعام الجديد نحن الثلاثة - أنا مع أوسيبا وحبة البازلاء.

وكم كان احتفالنا رائعًا في ليلة رأس السنة الفائتة! قام أوسيما بجلب شجرة ميلاد ضخمة بحيث لم نتمكن من إدخالها إلى البيت! وكم ضحكنا جميعاً عندما قام دانيا (اسم التصغير هنا من دانييل) مع ميتيا (اسم التصغير من ديميري) بجلب حوض حمام صغير مخصص للأطفال، كانوا قد ملأه بالثلج وكانت تبرز منه قناني الشمبانيا والفوودكا! وكيف عرض علينا دانيا الخدعة البارعة لصديقه الأمريكي: راح يعزف ياحدى يديه على الكمان، وفي الوقت نفسه راح يعزف بالأخرى على البيانو! وكيف راح سوروكين يقلد الجميع على الغيتار! كم كان كل شيء ممتنعاً وجميلاً عندما كنا جمِيعاً معاً! يا أحبابائي، أين أنتم الآن؟ أين ستحتفلون وستمرحون في ليلة رأس السنة الجديدة هذه؟ من دوني!

وماذا فعلتم بمناسبة يوم شفيعي! فقد اجتمع جميع سكان ذلك الشارع على أصوات الفرقة الموسيقية المؤلفة من أحواض غسيل وطناجر وكؤوس لشرب الفودكا وقد قمنا بربطها من أسفلها بحبل، بالإضافة إلى جذور من دفاتر أوراق السجائر، والقناني المختلفة وقد ملأناها بالماء. لقد كانت تلك الحفلة هي الأجمل والأروع في حياتي! يا أصدقائي البعيدين، كم أنا أحبكم! لقد أدركتُ ذلك الآن فقط.

\*\*\*

أنا الآن في متجر Printemps (الربيع). شعرتُ بالتعب. عدتُ إلى البيت في سيارة أجرة.

رأيت نفسي في المتجر صدفة في مرآة وأنا واقفة إلى جانب نساء آخريات، وخلتُ أنني أبدو شاحبة كالموتى.

نظرتُ للتو مرة أخرى إلى نفسي في المرأة في مدخل بيتنا. كم أصبحت بشعة. تورمت شفتاي، وأنفي بات مدبتاً وحادداً. الوجه متورم. والعينان مثل عيني يومه. البطن متصلب مثل جوزة هندية. اقترب مني يوسف من الخلف، احتضنتي ونظر إلينا في المرأة ثم قال:

كم أصبحت جميلة!

\*\*\*

تصادف أيام رهيبة، حين لا ينجح أي عمل تقوم به.

بدأ اليوم بأنني كسرتُ أحد الفناجين. ولم أعد أصدق أنَّ هذا من حسن الحظ وعلامة على السعادة.

اشترىتُ dépilatoire (كريم مزيل للشعر - فرنسي) - لكنه يكاد يتزع الجلد من دون أن ينزع الشعر.

جلست مطولاً على الكرسي فتورمت ساقي.

شاهدنا يوم أمس «بوريس غودونوف»<sup>(1)</sup> من إخراج فرنسي. يا له من عرض شعبي رخيص ومهزلة غبية! حاول المطرب الذي كان يمجد غودونوف أن يقلد شالابين. وربما هذا كان يغرنّي، أما الآخرون! والإخراج سيء جدًا! والديكور! وهذه هي تصوراتهم عن روسيا! فوق ذلك قام الشمامس بالتصليب على الطريقة الكاثوليكية!

فضلاً عن ذلك جاءت لوبوتشكا وأدلت على حكاية جديدة. إنه يوم أقرب إلى ديكاميرون<sup>(2)</sup> باريسي بامتياز.

كانت يوم راكبة في سيارة أجرة. وكان السائق روسيًا. وإذا بها تعرف فيه الشخص الذي كانت مغرمة به ذات يوم وقد قُتِل في خاركيف. وهو بدوره كان طوال الوقت ينظر إليها بطريقة غريبة. ولكنه يستحيل أن يكون ذلك الشخص لأنَّه فتى كثیراً بالمقارنة مع ذاك. الأدق، عمره مثلما كان عمر ذلك الشاب حينذاك. وهكذا راحت تصلي و هي في سيارة الأجرة لكي يطول الطريق. لقد ثقبت لي أذني وهي تخبرني كيف مذ لها يده وكم هو جسمه ممشوق ذو بنية قوية، وكم كانت يداه تبدوان جميلتين على مقود السيارة. «وفجأة أدرِكُ أنه إذا ما قال لي الآن: تعالى معي! - فسوف أذهب وأفعل كل ما يطلبه مني!».

-1 فيلم سينمائي وهناك مسرحية بنفس الاسم عن القيصر الروسي بوريص غودونوف 1598-1605. كان الوصي الفعلي على عرش روسيا من 1585 حتى 1598، وكان أول قيصر من خارج أسرة روريك في الفترة من 1598 إلى 1605. وشهدت روسيا في نهاية عهده الكثير من الاضطرابات. المترجم

-2 ديكاميرون Decameron، الاسم من اليونانية ديكا أي عشرة وهميرا أي يوم، هو كتاب حكايات رمزية من القرن الرابع عشر بقلم جيوفاني بوكانتشيو، على شاكلة رواية تضم مئة قصة، عشر قصص في عشرة أيام، كل يوم يقوم واحد من الشخصيات العشر بحكاية عشر قصص. الشخصيات مأخوذة إما من أعمال بوكانتشيو أو من أعمال أخرى. المترجم

ولكن من حسن حظ لوبوتشكا، أن السائق استلم منها النقود وغادر صامتاً.

قلت إنني أريد أن أذهب إلى معرض الفراشات - لأنني قرأت إعلاناً حول ذلك. فهجمت عليَّ لوبوتشكا قائلة: «ماذا تقولين! لا يجوز نهايَا ولا بأي شكل! فهي فراشات ميتة!».

\*\*\*

تالا! يا حبيبي، يا عزيزتي تالا! وصلتني رسالة من تالا! كيف استطاعت أن تجدني؟

هي أيضاً متزوجة ولديها طفلان! زوجها ضابط سابق، دبر عملاً له في مصنع «رينو» للسيارات، ثم مرض وخسر عمله، وها هما الآن في بلدة أليك البحريية في ألمانيا. يا تالا تعيسة الحظ! إنها تعمل الآن في غسل الثياب وتأمل بإيجاد عمل جيد في دار للعجزة. ماذا يعني «عمل جيد»؟ كم أتوق لرؤيتها! كتبت لها جواباً على رسالتها فوراً وطلبت منها أن تأتي إلينا وأنني سوف أرسل لها ثمن التذكرة. أم من الأفضل أن أذهب أنا إليهم؟ لا أعرف ما هو رأي أوسيما. فهو يخاف لأجلني كثيراً.

\*\*\*

amp;ضُمِّيُّ اليوم بِأكمله وأنا أفكّر بتالا. حتى أنني رأيتها في منامي! كنا قد ضممنا أنا وهي في المدرسة أرقاماً لبطاقة الأسئلة في امتحان مادة التاريخ، وكتبنا الأرقام المضمرة على أوراق ثم قمنا بسحب الورقة من دون أن ننظر. سحبت تالكا الورقة مع الرقم 2. لكنها قررت أن تتأكد من حظها - ومن جديد سحبت الرقم 2! وفي اليوم التالي سحبت ورقة الأسئلة التي كانت تحمل الرقم 22! لقد كانت تخميناتنا نحن! فكيف يمكننا ألا نؤمن بها؟ يا إلهي كم مضى من السنوات!

تذكّرْتُ لسبب ما كيف ركضنا أنا وهي لنشاهد تحطيم تمثال يكاترينا (الإمبراطورة). قمنا يومئذ بالمشاركة في شدّ الحال أيضاً، سمعنا صوت تكسير، ثم اهتزَّ التمثال وسقط عن قاعده، على السياج المحيط به مباشرة

- وغرق كلّ شيء في لجة الصياح «أورا!». كم كان الأمر لطيفاً بالنسبة إلينا! بعد ذلك قامت عربة لسحب الآليات الثقيلة بجرّ التمثال إلى القسم رقم 6 - تحت الاعتقال، وإذا بتلاميذ من معارفنا يضعون أشرطة حمراء على سواعدهم وقد كتبت عليها «مليشيا». فقمنا نحن أيضاً بتعليق أشرطة حمراء كما علّقنا لكلّ واحد أنشوطه حمراء على معطفه، وحتى أنَّ تالا راحت تتغادر بسيف تم الاستيلاء عليه في قسم الشرطة الذي جرى تحطيمه - إذ انتزعته من أحد عناصر المليشيا الأغار!

كم كان حجم الابتهاج العام كبيراً، وكم كانت وجوه الجميع مفعمة بالفرح وبالسرور - بثورتنا العظيمة! السلمية وغير الدموية! رحنا نبتهج لغياب العنف وسفك الدماء، ولكن الجميع كانوا يؤكدون في الوقت نفسه أنه يجب إجراء عملية إعدام ترهيبية واحدة - كما حدث في الثورة الفرنسية - أنه يجب إعدام القيصر الذي يجب عليه أن يدفع حياته ثمناً لدماء الشعب، وأنه لا يكفي إعدامه شنقاً، بل يجب قطع رأسه أو وضعه على الخازوق. يبدو لي الآن أمراً مثيراً للدهشة كيف كان الناس يتحدثون عن ذلك الأمر بمتنه الهدوء والبساطة.

يومئذ وصلتني رسالة من ماشا في فنلندا، بعد ثورتنا السلمية وغير الدموية مباشرة - تفضلوا، ها هي ثورتكم غير الدموية! اعتقلوا بوريس، كما بدأت أعمال قتل للضباط في جميع السفن الحربية - وخصوصاً كان ثمة عدد كبير من القتلى في سفينة «أندريه بيرفوفاني»، التي كان بوريس يخدم فيها. كما اقتحمت منزل ماشا مجموعة من السكارى وراحوا يبحثون عن السلاح. كان لديها مسدس بوريس. وقد قامت برميه في البرميل المخصص للقمامة في الوقت المناسب. لم يعثروا على شيء، ولكنهم قاموا بتحطيم الأواني وأخذوا الساعة الذهبية وعلبة السجائر اللتين كانتا على مكتب بوريس. عثرت ماشا على جثة زوجها في المشرحة مع جثث ضباط آخرين، وقد كانت جثته مشوهة ومع أسنان محطمّة ومخلوقة.

يا عزيزتي ماشا السيئة الحظ! وتالا البائسة! بل إنَّ جميع فتياتنا بائسات! فقد تجرّعت كلُّ واحد منهنْ كأساً مريرة.

وكم هو أمر حسن أنَّ جميع تلك الفظائع أصبحت من الماضي. ولديك أيضًا، يا حبة «البازلاء» سوف يكون مستقبل واعد ورائع ولن يكون فيه أي شيء سيء. فقد وقع وحدث كل ما هو سيء.

\*\*\*

كنتُ أتمنى أن أخرج للتنزه قليلاً - لكن الطقس مقرف من جديد. ثمة مطر كريه وبارد ورياح قوية وعاصفة.

نممتُ بشكل سيء. لدى صداع طوال النهار.

وفوق ذلك أتألم لأنني صرختُ يوم أمس بقوَّة على أوسيَا. فقد أضضاني باهتمامه وبعانته. لم يقل سوى: «انتبهي! توجد هنا درجة!» فانفجرتُ فجأةً: «دعني وشأنني، أرجوك حبًّا بكل ما هو مقدس!» - «لا تقلقي يا عزيزتي يا ابنة عرس، سوف ألتزم الصمت! لن أتفوه بأية كلمة بعد الآن، ولكن لا تقومي بقفزات قوية ونحن على السلم!».

طوال اليوم وأناأشعر بالعار.

ياله من رائع هو لدينا أنا وأنت، يا حبة «البازلاء»! وكم أصبح كريهة ولا تطاير من دون أي سابق إنذار!

لقد اتخذتُ وضعية مناسبة في السرير وإلى جنبي فنجان من الشاي، ثم رحتُ أكتب. سوف أحاول التفكير بشيء ما لطيف وجميل. سوف أتذكر تالا. كم أودُّ أن ألتقي بتالا العزيزة! ليكن لدىَّ شخص غال وعزيز واحد على الأقل! كتبْتُ لها صباحًا رسالة طويلة جدًا وسألتها في نهايتها عن زوجها: هل يحبك؟ هل أنت سعيدة؟

وها أنا الآن أفكُّر بنفسي، وماذا كنت سأجيب عليها لو أنها سألتني: هل يحبك؟ هل أنت سعيدة؟  
نعم. نعم.

\*\*\*

بدأ الأسبوع الثالثون من الحمل. أصبحت أشعر بتعب فظيع. كنت مسافرة في مترو الأنفاق وألقيتُ بشكل مفاجئ نظرة إلى ساقِي - يا

إلهي، لمن هاتان الساقان؟ متعبتان، وبشعتان ومتورمتان. الآن أدركتُ ماذا كان يقصد آندرسن بحورية البحر الصغيرة التي قامت باستبدال ذيل السمكة لديها بساقي امرأة. وهأنذا الآن صرت أمشي كما لو على ساقين من إبر. من الصعب علىَّ أن أسير.

كدتُ أشعر بالسوء اليوم وأنا مسافرة في مترو الأنفاق. لأنَّ مترو الأنفاق في باريس كريه وفظيع بكل بساطة. فالبلاط هناك من البورسلين الأبيض أشبه ببلاط الحمامات، كما أنَّ الهواء أقرب إلى هواء الحمام. بحيث إنَّ المرأة لا يستطيع أن يتنفس. خرجت إلى الرصيف من داخل العربة المليئة بأبخرة التنفس. برد وريح. قد أصاب بالمرض مع هكذا طقس.

وصلتُ إلى البيت بصعوبة بالغة، خلعتُ ثيابي واستلقيت في الفراش. بقىْتُ ممددة ورحت أرقب نفسي في المرأة.

كم أصبحت حمقاء من حيث الشكل! كم كنت أتاباهى كثيراً ببشرتي البيضاء! ما الذي يحدث لها؟ لقد قال الطبيب لي إنَّ هذا سوف يتتهي، وإن هذه البقع السوداء تنشأ عند جميع الحوامل. اللعنة على الجميع! وهذه السرّة - سرّة تشوّه كل شيء! فقد راحت تبرز نحو الأمام لسبب ما. كما لو أنَّ أحداً ما ينفع بطني مثل كرة، عن طريق هذه السرّة البارزة.

أصبحتُ أخجل من التغيرات التي حدثت معي. كنت في السابق أشعر برشاقة الهرة في نفسي، أما الآن فأشعر كما لو أنني كنتُ طيلة حياتي أمشي مثل طائر البطريق. لقد أرهقتُ! يدولي أحياناً كما لو أنني غول ضخم! كم أتمنى أن يتتهي كل شيء على خير قريباً!

يوسف، حبيبي يوسف الطيب وال الكريم! أجلسني على ركبته ووضع رأسه على كتفه. راح يتكلم ويتكلّم... عن جمالي الداخلي وعن إشعاع خاص يصدر من الداخل عندي. لا أصدقه، ولكني شعرت ببعض الراحة.

الهروب إلى مصر. قام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وذهب إلى مصر. السهل أبيض، والقمر بدر، ونور السموات العالية وثلج ساطع. أنوار خضراء اللون للعقارات. والقطارات تصرخ كما لو أنها نوارس. عربات القطار من الدرجة الأولى - زرقاء اللون، ومن الدرجة الثانية - صفراء، ومن الدرجة الثالثة

- خضراء، والآن ها هي العربات تبدو بلون القمر مع حارك ثلجي. عامل التلغراف منعزل. قشرة الثلج صلبة. شاهد عامل التلغراف ذات يوم شتوى كيف أنّ عائلة ذئب تجتاز سكة الحديد. يشكّل ظلُّ الوالد متصرف الليل، يسير بمحاذاة عربة القطار المخصصة لكتاب الشخصيات، يطرق بالمطرقة على أنعال المكابح، ينحني كما لو أنه يريد أن يتتأكد ما إذا كان مكتوبًا هناك بالفعل «فرامل ماركة ويستنفهاوس» أو شيء آخر - كُلُّ شيء على ما يرام، يلوّح بالمصباح بمعنى أنه يمكنكم الانطلاق. يبتلع السكون الطقطقة البعيدة لعجلات القطار. صفير القاطرة أشبه بتجشؤ قصير. والعودة من خلال درب - خندق تم حفره في الكثبان الثلجية. التنفس بحالة اكتمال القمر<sup>(١)</sup>. خشخšeة جليدية تملأ الكون ناتجة عن الجزمة اللبادية. وقف القمر جامدًا خلف غيمة وراح ينظر من تحت قطعة جليد. والنجمة للنجمة صامتة. عدد هائل من النقاط من دون أية علامة ترقيم (-). بدا الأمر غريباً كيف أنه تمَّ وضع موسى (النبي) ذات يوم وتحت هذه النجوم بالذات، في سلة مصنوعة من ورق البردي لتعبر نهر النيل. سيرة حياة صموئيل مورس<sup>(٢)</sup>. الفصل الأول. كان صموئيل مورس في البداية رساماً. الأرض - عبارة عن سلة تحتوي البشرية جرى دفعها على درب التبان. وبينما كان مورس عائداً من أوروبا في سفينته «سالي» راح ينظر من خلال المنظار إلى المستقبل مع التعديل حسب اتجاه الرياح. ثمة تمواج في عدسة المنظار. كتب لزوجته: الربُّ ينظر إلينا بنفس العين التي نظر نحن بها إليه. عزيزتي، كم هناك من الكلمات التي تشير إلى المجهول! الرب. الموت. الحب. وماذا يجب أن نفعل طالما أنه يجب أن نسمّي ما هو قريب جداً من دون أن توفر كلمة لأجل ذلك؟ والأدق، هو أن تلك الكلمات المتوفرة - لا تشرح شيئاً البتة، وأكثر من ذلك، إنها عملية وقدرة وحقيقة. لدينا عدد قليل جداً من الكلمات الالزمة لوصف حالة الروح وكلمات أقل بدرجة أكبر لحالة الجسم! كيف يمكن توصيف ما سبق أن كان لدينا؟ أن يتم توصيفه بطريقة تسمح بنقل ولو جزء مما هو حقيقي

1- تمارين تتعلق باليوغ... المترجم

2- مخترع أمريكي. قام بتصميم أول تلغراف. المترجم

ومذهل وساحر؟ هل يجب ابتكار كلمات جديدة؟ هل يجب أن نضع نقاطاً أم علامات ترقيم (-)؟ يا إلهي، ما قمنا بتقبيله في ذلك اليوم، سوف يتكون من لحظات نسيان، من إسقاطات فحسب. كنت قد قرأت، لا أذكر أين، أنَّ الروح، كما الجسد، تعبر برائحتها الخاصة وبرائحة ما تتغذى عليه. كم أنَّ ذلك دقيق. رائحة الروح. يمكن أن تكون للروح رائحة نتنة. أما في الحب فلا يمكن أن يكون ثمة شيء قدر أبداً - لا شيء هنا منا، بل هناك، في الحب، ما سبق للرب أن وضعه فينا فقط. ولذلك فإن رائحتك (كل ما لا تستطيع أن أشرحه بواسطة الكلمات) - رائحة ربانية. والمذاق. وفي كل مرة - مختلف بعض الشيء. الجسد، ومثله الروح، يعبر برائحته وبرائحة طعامه. يجب اختيار أبجدية جديدة لكي نجد تسميات لما لا يمكن تسميته، كي لا يكون مخجلاً ولا عيناً أن نقُبَلَ ما ليس له اسم رائع حتى الآن. المركب فارغ، وما من أحد غيري، وحده قماش الشراع - كاهن الريح. والغروب أحمر غامق، ممزق. أحمل، إليك يا حبيبي، هدايا، وأكثرها روعة - قطعة عقيق مع إبرة العجوز الأوروبية<sup>(١)</sup> في داخلها، وتبعدوا واضحة أرجلها والأثلام فيها، أرجل لا يعلم سوى الله وحده متى كانت إبرة العجوز تحلك بواسطتها خلف أذنها. أقوم بتوليف حدة عدسة المنظار فإذا بي أرى هرَّة، وأرى كيف أنها تغمض عينيها وتمطِّ جسدها على ركبتيك، ثم تمدُّ أصابعها - ومخالبها. سوف تموت زوجة مورس شابةً، وسوف يبحث البروفسور في الفن التصويري لمدة طويلة عن فتاة صماء بكماء. وسيعثر عليها. سيتزوجان، وسوف تتعلم الأبجدية (العلامات) التي اخترعنها، وسوف يقومون بالتحدى بعضهما مع بعض بواسطة النقاط والرموز لفترة طويلة جداً والسعادة تغمر كليهما. وفي الصباح سوف يصبح السهل ممتئاً بكتابات مكتوبة بخط عريض كثابي. وقد لفت ظل لغيمة الثلوج مثل ختم. تجري الكلمات عبر أسلاك متجمدة، ولكن الصمت لا يمكن نقله والتعبير عنه. يقوم الأطفال بصنع امرأة من

1- أو أبو مقص الأوروبي - نوع من الحشرات يتبع جنس فورفيكولا من فصيلة فورفيكوليدي من رتبة أبو مقص، تُعتبر من الحشرات الضارة التي تلتهم المحاصيل الزراعية وتغزو المنازل، تعيش في أوروبا وغرب آسيا وشمال أفريقيا. المترجم

ثلج. تمتد أعمدة كسيحة لمسافات هائلة واحداً إثر واحد وعبر بلدان كثيرة بحثاً عن سعادة غير موجودة هناك، حيث فقداها - بهذه الطريقة يبحثون عن ساعة غير موجودة في خندق حيث سقطت، وإنما هناك حيث المزيد من الضوء. وإذا تلقي نظرة إلى الفارين عبر الأعمدة - تجد أنهم يمكثون متجمدين على شكل لامبادا<sup>(١)</sup>. لن يذهبوا بعيداً. لأن هناك حافة العالم. حافة العالم تمرّ هنا، حيث تنتهي الكلمات. الأرض المستديرة مغطاة بثلوج زرقاء وبأحاديد كثيرة. ما من شيء خلفها. مكان مفتر. صمت مطبق. ولا يمكن الذهاب إلى هناك، إلى الجانب الآخر من الكلمات. كان عامل التلغراف السابق في كلّ مرّة يصل إلى الحدود، يواجه الأحرف، ويصطدم بها مثل ذبابة تصطدم بالزجاج. ثمة وجوه مموهة بواسطة جورب تلتتصق إلى العمود في هذا الجانب من الكلمات، وفي الجانب الثاني - صمت. كما أن الكثبان الثلوجية لا تقوم بتمارين عضلية عند المغيّب. والدخان الصادر من الأنابيب لا شكل له. هنا كلّ شيء يتكون من حروف. ولا يوجد أية أوقات - وحده توقيت الشتاء قائم. ثمة في المكان المكسو بالثلوج - وحش بدین جداً، وكريه ومقرف، وضخم، «مع مئة شدق وينبع»<sup>(٢)</sup>، أما هنا فسوف ينقدون الجميع، فالجميع هنا - حشرات من نوع إبرة العجوز الأوروبيّة. الزمن - حRFي، هأنذا أكتب هذا السطر، ولذلك أصبحت حياتي أطول مع هذه الأحرف، في حين أنّ حياة الشخص الذي يقرأ تلك الأحرف قد أصبحت أقصر. الضوء من خلال النافذة يصبح على الثلوج كالغشاء في أقدام إوزة. التاريخ العالمي للحمار. الفصل الأول. ولد، ولم يتعمّد، مات كافراً، ولكنه حمل المسيح. تُعدّ الحمير رمزاً للسلام عند القدماء، أما الحصان - فيرمز إلى الحرب، ولذلك كان يجب على المسيح أن يدخل

- لاما أو لامبادا هو أحد حروف الأبجدية الإغريقية، وترتيبه الحادي عشر. يأخذ الحرف شكلين الكبير (٨) والصغير (λ). في نظام الأرقام اليونانية لاما لديه قيمة 30. يرتبط لاما بالحرف الفينيقي لامي. المترجم
- هذه العبارة استعارها الكاتب من مقدمة كتاب بعنوان «رحلة من موسكو إلى بطرس堡» للفيلسوف والمترور الروسي ألكساندر راديشيف صدر عام 1790. المترجم

إلى أورشليم راكباً حماراً أبيض. كما أنَّ إيزيس<sup>(١)</sup> أيضاً، زوجة أوزيريس<sup>(٢)</sup>، حملت ابنها الرضيع حورس غادروا مصر هرباً من اضطهاد وملائحة إله الشر سُرُّت وهم يركبون على حمار. وحسب المصادر الفارسية، عندما يصدر أول كائن ثالثي الأرجل صرخته الأولى، فإنَّ جميع الكائنات المائية المؤنثة، مخلوقات أهورمزدا<sup>(٣)</sup>، تصبح حاملة. كما أنَّ عربة الأشوينز<sup>(٤)</sup> مربوطة إلى حمار، وبمساعدةه ينفع الأشوينز في كسب السباق بمناسبة عقد قران سوما وسوريا<sup>(٥)</sup>. الحمار الذهبي. حمار بوريدان<sup>(٦)</sup>. الأذنان تلوحان بحمار. الشعر

- 1- إيزيس هي إلهة رئيسية في الديانة المصرية القديمة انتشرت عبادتها في العالم اليوناني الروماني. ذُكرت إيزيس لأول مرة في المملكة المصرية القديمة (2686-1821ق.م) كإحدى الشخصيات الرئيسية في أسطورة أوزورييس، حيث قامت بإحياء زوجها المذبح الملك الإلهي أوزورييس، كما أنجبت وريثه حورس وقادت بحماته. كان يعتقد أن إيزيس ترشد الموتى إلى الحياة الآخرة كما ساعدت أوزورييس. المترجم أوزيريس إله البعث والحساب وهو رئيس محكمة الموتى عند قدماء المصريين، من آلهة التاسع المقدس الرئيسي في الديانة المصرية القديمة. المترجم
- 2- أهورا مَزدا هو الإله الأوحد الذي يمثل الخير عند الزراداشتيين والذي يخالفه دائمًا إله الشر أهريمان ويتحلى بصفات النور والعقل والطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والخلود. أهورا مَزدا يتربع وحيداً على عرش الألوهية، حيث يمثل الإله المطلق في الميثولوجيا الزرادشتية ولا يعلوه شئ. وتفصيل عنه كل المخلوقات... المترجم
- 3- أشوينز (الخيل - البشر) في الأساطير الهندوسية توأم من الآلهة يتقدم الأوشا ز أو الفجر، وهما شبابان رشيقان يشعرون ذهنياً لامع يركبان عربة ذهبية تجرها جياد أو طيور، وتقول الريغفیدا: إنهم يدمران الأعداء والخصوم، ويرسلان ضوءاً مبهراً من السماء إلى البشر. المترجم
- 4- إله القمر عند الإيرانيين والهنود القدماء وفي الثقافات الفيدية والفارسية القديمة. سوريا أي النور الأعلى وذلك بحسب المعتقد الهنودسي وهو إله شمسي رئيسي وابن كاسيا با وزوج أدبيتي، وعادة ما يشير للشمس في الهند ونيبال. المترجم
- 5- حمار بوريدان وتعرف أيضاً بالمقوله «تفلسف الحمار فمات جوعاً»، وهو مثال على مفارقة فلسفية في مفهوم حرية الإرادة. «بوريدان» فيلسوف عاش في القرن الرابع عشر. تشير المفارقة إلى موقف افتراضي حيث يتم وضع حمار جائع وعطش في متصرف الطريق بالضبط بين كومة من القش وسطل من الماء. بما أن المفارقة تفترض بأن جوعه مساوٍ لعطشه يقي متربداً بين الأكل والشرب لا يستطيع اختيار أي منهما وتفضيله على حساب الآخر. والتنتجة أن حمار بوريدان سوف يموت لأنه لا يستطيع اتخاذ أي قرار عقلاني بين القش والماء. فتلك التجربة افترضت أن الحمار لأنَّه بلا عقل فهو بلا إرادة، وبالتالي إذا استوت دوافعه، وأصبحت كل الاختيارات أمامه متشابهة، فلن يستطيع أن يفضل أي اختيار على آخر، والتنتجة أنه لن يختار شيئاً وسيموت. المترجم

من منطقة الصليب على ظهر الحمار تساعد في علاج العقم. وشمشون<sup>(1)</sup> يقتل الفلسطينيين البائسين بحنك حمار. أما تشيري بورجا<sup>(2)</sup> الذي جرى تسميمه، فقد استلقى داخل جثة حمار مشطورة إلى نصفين، حيث نام بين الأعضاء الداخلية المزدوجة، وذلك لكي ينجو من تأثير السم. كما أنّ پوبيا سابينا، عشيقة ومعبودة نيرون، كانت تحبُّ، إذا ما صدقتنا بلينيوس، أن تستحم في حليب الحمار. ومن ناحية أخرى، فإنَّ سماحك نهيق حمار آتياً من بعيد في المنام، ينبع بأنك سوف تصبح ثريًا بسبب وفاة أحد أقربائك. ومن ذا الذي قال إنَّ الزمان مثل الحمار: إذا استعجلته - فإنه يحرن ويتوقف، وإذا أردت كبحه وتأخيره - فسوف ينطلق بسرعة من دون أن ينظر إليك؟ لو أنَّ الحمار كان يستطيع أن ينطق، كان طرَّاح السؤال التالي: قال رب لموسى: «لا يمكنك أن ترى وجهي، لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يراني من دون أن يموت» - هذا يعني أنَّ الموتى - هم أولئك الذين رأوا ذلك الوجه، وأنَّ جميع المعابد وجميع الصلوات - مكرسة للموت؟ اقترب الثلج من النافذة على رؤوس أصحابه. من المفيد أنْ أخرج وأتنشق الهواء المنعش وأن أنظر في الوقت نفسه إلى الدخان المتتصاعد من الأنوب. الجو هادئ، من دون رياح، وقريباً سوف يخُنُّ من دون توقف قطار الساعة التاسعة. بعض القطارات تمر بسرعة وهي تكتم أنوفها، في حين أنَّ قطارات أخرى تقوم بشِّم كل عمود من الأعمدة. ذهب الثلج بعيداً على الطريق ليصل إلى شابلينو (بلدة في إقليم كالابين)، حيث يبيعون الحليب بالوزن - وحيث يضربون بالفأس، وينامون على الخيش من دون شراشف. قامت المعلمة بغسل الأغطية ثم علقتها لكي تجفَّ، وعندما نظرت في الصباح فوجئت بأنه تم

-1 شمشون بن منوح الذي من شخصيات المهد القديم، هوبطل شعبي من إسرائيل القديمة اشتهر بقوته الهائلة وورد ذكره في سفر القضاة في الإصلاح 13 إلى 16، وفي الرسالة إلى العبرانيين من العهد الجديد في الإصلاح 11، وقصصه شاعت في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. المترجم

-2 تشيري بورجا الملقب بالدووق فالتيينو 1475-1507 كوندوتيرو وكاردينال ورئيس أساقفة كاثوليكي إيطالي، اشتهر بأن نيكولو مكيافيلي استوحى من شخصيته صورة الأمير. المترجم

تلطيخها بالأوساخ من خلف السياج، ما اضطرها إلى أن تقوم بغسلها من جديد. السماء - معدمة، وفناء الكنيسة - ضيق وقبرة، وعابر السبيل - كلب. وقد كان أحد التأثيرين الديسمبريين واسمه زافاليشين قد لفت الانتباه إلى العادات المحلية: أنظر فإذا بكلب مستلق وقد راح يلحس جرحاً مدمى عنده - كانت شفتا تلك الكلبة الوقحتان مقطوعتين، ومنذ مدة غير بعيدة، لأنَّ الجرح كان ما زال ينزف دمًا، وقد راحت الكلبة كاشستانكا<sup>(١)</sup> تلعق الدم. وقد أخبرتني صاحبة البيت أنَّ النسوة يقمنَ بنفس الطريقة بسحر لب الرجال - تُشوِّى شفاههن مع النيميمة والتعاويذ إلى جانب لحم آخر، ثم يتم تقديم كل ذلك للرجل الذي كان يمكن أنْ يُغرِّم بتلك المرأة. أقرباء المخطوفين يتولون عبر شاشة التلفاز بألا يقوموا بالاقتحام. ييدَ أن الاقتحام سوف يبدأ عما قريب. أولئك الذين سيقتلون بعد بعض دقائق ما زالوا أحياء. سائق الدبابة، الثمل بمناسبة يوم المدرعات وبمناسبة عيد ميلاده - كان يقول طوال حياته إنه ولد سائق دبابة - غفا مع سيجارة في فمه واحترق. كان يخشى أن يحترق في الدبابة - هذا ما كان يتراءى له أثناء الموت، بأنه يحترق في آلته القتالية. كانوا جالسين في مأتم عن روحه وراحوا يأكلون ما بقي من طعام من الاحتفال بعيد الميلاد.

ثمة بحر في الضواحي - بحر من ثلج، يصل إلى الركبة. تراكمت الثلوج - فتشكل رأس داخل البحر. ترتفع خلفه الأدخنة من بيوت القرية - تنطلق مثل مجموعة من السفن من النهر باتجاه غابة من خمسة جدران ومع كاسحات جليد. ما كان مربكاً هو أنَّ مثل هذه الأشياء الهامة، هذه الهبات العظيمة، وتلك الأسرار المقدسة، إنما يتم تقديمها بهذه الطريقة الفظة - على أنها طعام، وأنه يجب أن تمضغ شيئاً ما وأن تبلعه، أو أن تنزل إلى الماء وأن تستحم. وقد بدا أمراً أحمق محاولة تفسير كيف أنَّ العذراء ولدت الطفل من دون أن يبقى أي شيء - لا تمزق ولا خياطة - بل التأم كل شيء، مثلما انشق البحر الأحمر من أجل إسرائيل ومن ثم انغلق من جديد. أرى من خلال

- 1 - كاشستانكا - عنوان قصة معروفة للكاتب الروسي العظيم أنطون تشيشروف... والكاتب يستعيير اسم الكلبة من هناك. المترجم.

النافذة كيف أنّ امرأة تسير في الشارع، إنها ماريا أخرى أيضًا، توقف في منتصف الطريق، تباعد طرفي التثرة قليلاً ثم تجمد للحظة من دون أن تقرفص، لتكمل بعد ذلك سيرها، تاركة بعدها على الثلج ثقباً مع حواف صفراء. إنه استدعاء للخدمة الإلزامية شتاءً، وكتافيات من الثلج. بداية أسبوع المرافع، حيث الفتيان مع البناء يتحلقون من أعلى التلة فوق زلاجات يدوية الصنع - يصنعون من الروث ما يشبه المقلة مع حواف سميكه ومعقوفة، لا يزيد قطرها على نصف أرшин<sup>(١)</sup>، ثم تملأ بالماء ويتم تجميدها - لم أصدم أمام الإغراء وأصبتني عدوى من المرح العارم، لذلك تزحلقتُ عدداً من المرات من أعلى التلة. كان سيكون رائعاً لو أتيتُ أستطيع أن أتزحلق من أعلى التلة على مثل تلك الزلاجة لأسافر في الزمن، بعيداً عن هيرودوس هذا. تدفع العينان في الطقس الجليدي، والسحب الليلية تتداخل بعضها مع بعض، الطريق متلائئ، أشبه بأفعوان. ثمة عاشق وعاشرة خلف كلّ نافذة. عدد الناس في الأرض فيحقيقة الأمر ليس كبيراً - ولكن الأرض في يوم البعث سوف تصبح مزدحمة بالفعل. وهكذا حفظت في الذاكرة تلك الغرفة: ثمة شتاء في إحدى النوافذ، وفي النافذة الأخرى أغصان لشجيرة ليلى بدأت تزهر وقد راحت تدفع السحب. على طول الطريق فناي، من دون أن يكون ثمة أية رسالة في أية واحدة منها. مراقب السكك الحديدية يقف عند تقاطع الطرق - عليه قفطان فلاحي من دون ياقه، جزمة لبادية باليه، وقبعة من جلد الغنم، يحمل تحت إبطه علمين ملفوفين، أحدهما أحمر والآخر أخضر، وثمة مصباح ضعيف الضوء في يده. زاد القطار من سرعته، اقترب الكأس من القنية. باب المقصورة نصف مفتوح، يمرّ المسافرون بمحاذة المقصورة وهم يمسكون بالدرازبين، النساء يحملنَ مناشف وصابوناً في أيديهن، مع جدائِل تم لفها أثناء الليل. سُمع صوت ارتطام كرسٍ قابل للطهي على جدار القطار. ولكن، طالما أنَّ هيرودوس قضى على جميع الأطفال دون السنتين، فهذا يعني أنه لم يبقَ ليُسوعُ أطفال لكي يلهم معهم، هذا يعني أنه لم يكن لديه أقران! ييدَ أنَّ هيرودوس لم يقتل أياً من الأطفال! بل راحوا يكبرون ومن ثم

- وحدة روسية لقياس الطول تساوي 0.71 متر. المترجم

ماتوا بشكل طبيعي. ثمة خلف الحقل الأبيض أنبوب - أقرب إلى مصنع بضرع سماوي. لم يقم السكان المحليون ببيع أي شيء للناس الذين جرى إجلاؤهم، بل راحوا يدلّقون ما يزيد من حليب عندهم على الأرض بشكل استعراضي. كان ارتفاع المياه يصل إلى حلق الكوخ. نحن خلف الباب - مجانيين، والأفضل لا تقام معنا أية علاقة. عندما تم الاعتقال سمحوا بتوديع الطفل فقط، دخلت إلى غرفة الأطفال - كان يجلس على السرير الصغير، قلت له إنني سوف أسافر في مهمة لها علاقة بالعمل: إبقاء مع كلافا، ولا تتشاق، بل كن مؤدّباً معها! أما هو فقال: كان بابا يسافر في السابق في رحلات عمل، وها أنت الآن أيضاً تساور، ولكن ماذا لو سافرت كلافا أيضاً، مع من حينئذ سوف أبقى؟ مجرد أطباق تقليدية من الطعام عشية عيد الميلاد - عبارة عن عصيدة من الشعير من دون حليب، وبعض الزبدة ومنقوع فواكه مجففة - كل ذلك يذكر بهروب العائلة المقدسة إلى مصر. كانوا يسمحون، لمرضى القلب، فقط، بالدخول إلى بيوتهم لكي يمضوا الليل، ولكن القلب كان خالياً. علقت حبة كرز مزدوجة في أذني، ووضعت المظلة إلى كتفي على شكل بندقية، ثم صرخت: لا تتحرك من مكانك! لكي تنفذ شخصاً يغرق يجب عليك أن تضربه بالمجداف على رأسه لكي يغيب عن الوعي. كان ثمة تسليمة في الغرفة، وقد راح الجميع يحكّون ويمدون أيديهم إلى عبّهم ليخرجوا الحشرات من هناك حيث يقومون بسحقها على ورقه مخصصة لتسجيل نتائج اللعبة عليها، بحيث إنه بحلول نهاية اللعبة لم يعد بالإمكان تمييز الأرقام بسبب الفواصل من الدم على الورقة. غادرت السفينة فسبقت حلول الشتاء لبعض الوقت. تبدو السباحة في إحدى ضفتني النهر أكثر سرعة منها في الضفة الأخرى. رحنا نرمي الشوكولاتة للنوارس. أثناء الحرب قاموا بنقل الروس من أصول ألمانية في بارجة عبر بحر قزوين من أجل نفيهم، كان الجوًّا حارًّا جداً، فكان المنفيون يقفون في طابور من أجل الحصول على ماء الشرب، وكانوا يتدافعون ويشتّمون بعضهم، في حين أن إحدى النساء راحت تقول: كفوا عن ذلك، فأنتم من الروس! ثمة ظلٌ للجبال السري للقمر على سطح البحر. بعد تناول الغداء - لعب في الكروكيت، ومعارك حتى حلول

الظلام تماماً حين لا يعود بالإمكان تمييز الكرات، أما روزا فكانت تحتال فوق ذلك - تقوم بحرف تنورتها بتعديل مسار الكرة وتدفعها إلى موقع أفضل. وأما الفنان التشكيلي فوداو فقد تلاشى في الضباب الذي رسمه - رسم الضباب ثم رحل معه. رحت أجمع في الغرفة أعواد الثقب المحترقة وبدأت أخربس بها شيئاً ما على الورق الذي أعطونا إيه لاستخدامه في التواليت، أو أني صنعت شيئاً ما من الخبز الممضوغ. ذهبنا إلى دكان الحداده، حيث رحنا نراقب كيف يحدون الخيول، وكيف أنهم يقومون بغلبي بقايا حوافر الخيل لكي يصنعوا منها غراء. عدتُ أدراجي في عربة تحمل علّفًا من الأعشاب - يا له من أمر رائع! - ارتميتُ على ظهري على العشب فشعرتُ كما لو أني أتأرجح في مهد مصنوع من العشب وقد تم تعليقه إلى السماء مباشرة! دعه يعمل بشكل حسن، وفي حال لم تدعه - يكون أفضل. عندما احتل شاه إيران آغا محمد<sup>(١)</sup> مدينة تفليس (تبيليسى الحالية)، لم يحاول جنوده أن يغتصبوا أكبر عدد ممكن من النساء فحسب، بل وأن يقوموا بوضع علامة على كلّ امرأة منهن - كانوا يقطعون وترًا على الساق اليمنى لكلّ امرأة تمّ اغتصابها - بحيث أنه يمكن إلى الآن، بعد مضي سنوات كثيرة، مشاهدة عجائز يعرجنَ من الساق اليمنى. فتحت النافذة الصغيرة في الغرفة - فالتصق الهواء بوجهه إلى الستارة. الآلات الكاتبة تعكس تحت الشمس حزماً من الأشعة. يمكن أن ترسم حواجد بواسطة عود ثقاب، وبدلًا من الكريم تستخدم النساء بولهن الخاص - رحنَ يؤكدن أنه لا يوجد ما هو أفضل لكي يحافظنَ على نضارة الجلد، ولكنَ قبل كلّ تحقيق يغرن بعض الكلس عن الجدران بأصابعهنَ ويستخدمنه بدلاً من البوترة. وفي حال كان الحليب قليلاً في ثدي الأم، فسوف تصاب بالدهشة من كبر حجم النهود، وأما إذا كانت الأم قد أرضعتك حتى صار عمرك ستين، فسوف تميل للنساء مع نهود صغيرة طفليّة. قريب ولكن ليس من حيث البذرة. «جماع» الظروف

- 1- محمد خان قاجار 1121-1161 هـ. مؤسس الدولة القاجارية في إيران وجعل طهران عاصمة له وكان حاد الطبع عنيقاً واستطاع أن يوحد إيران. ورث الحكم من بعده ابن أخيه، فتح علي شاه. المترجم

الموضوعية. نحن نعرف أنَّ تلك السيدات من عائلات مرموقه يرمين بأنفسهن في أحضان مصارع السيرك. الموت في الحلم - يعني الزواج. المطر في غير أوانه، والتبن ما زال في المروج. أثناء التنقيبات في مدينة بومبي<sup>(1)</sup> تم العثور على حمامات للناس. تنظر إلى نفسها في المرأة - وهي في بيجامتها مع أزرار مفكوكة، والنهدان يتذليلان، يشرئبان في اتجاهين مختلفين، متهدلين من دون حشوة. النائم بدین وبرموش بيضاء. يثنون عبر الراديو سبع خطايا قاتلة: الحسد، والبخل، والزنى، والجشع، والتعجرف، والغم والغضب. الابن - بليد وغير فطن، شغف بأمر شنيع ما، يذيب دهان الزنجفر، ويحرق الزئبق، محاولاً أن يكتشف إكسير الخلود، من دون أن يكون له أدنى اهتمام بأي شيء في العالم. نثر الرماد. الطفل مثل النهر، يحب أن يمسح الحجارة. قطار الضاحية الباكر مع هواة جمع الفطر النائمين فيه، كائنات من سلالة الديدان تصطدم في طريقها بالنواخذة. طالما أنَّ البلاد في طريقها إلى الهلاك، يجب أن يتم تنظيفها من كل ما هو منير. «بوجيدومكا»<sup>(2)</sup>، دار بولوبيموف، وهو يقوم مقابل شجرة الدردار الكبيرة - وقد شرعت باضطراب شديد لدرجة أنني عندما أردتُ أن أفتح الورقة التي كتب عليها العنوان، كانت قد تبللت بشكل كامل في قبضة يدي. الأريج - هذا يعني أنها نمنح أجزاءً منها، تقوم بخلط الأنماط الخاصة مع العالم بأكمله، وتحول إلى هواء وإلى فضاء، إلى كل شيء - كما لو أنها تتكاثر بطريقة الانقسام. الموت - هو اللحظة الأكثر أهمية التي لا تتكرر في الحياة، وبها يتعلق الكثير سواء في المستقبل أو الماضي - لا يجوز أن يُسمح له أن يجري بصورة عفوية، بل

---

1- أوْپِيُّي هي مدينة رومانية كان يعيش فيها حوالي عشرين ألف نسمة، واليوم لم يبق من المدينة إلا آثارها القديمة. تقع المدينة على سفح جبل برakan فيزوف الذي يرتفع 1,200 متر عن سطح البحر، بالقرب من خليج نابولي في إيطاليا. ثار البركان ثوراناً هائلاً مدمرةً عام 79 م ودمر مديتها بومبي وهركولانيوم. طمر البركان المدينة بالرماد لمدة 1,600 سنة حتى تم اكتشافها في القرن الثامن عشر. المترجم

2- حرفيًا «بيت.الرب» ومن ثم صارت الكلمة تعني «البيت البائس» - منطقة في ضواحي المدينة كانت في الماضي تستخدم لدفن الأشخاص الذين لا يتم التعرف على هويتهم أو على شخصيتهم... أو الذين لا يجوز دفنهم في كنائس الأبرشية. المترجم

يجب الاستعداد لتلك اللحظة ويجب تدبيرها. راح يهطل مطر قليل ورمادي وصامت، لم يدم طويلاً، بل كان على شكل زخات، وبحلول المساء أصبح الطقس سيئاً جدّاً، وراحت الرياح تطرد الغيوم، بحيث إنك لا ترى سوى برّك الماء، أو تنويه أو اقتباس من النجوم. تمكّن الدكتور دال، الخبرير بالتنويم المغناطيسي والشهير في موسكو من معالجة رحمنينوف من الإدمان الكحولي، بعد أن أوحى له وأقنعه بأنّ الفودكا - هي كirovskin، وكنوع من التعبير عن الشكر والعرفان بالجميل، قام الموسيقي بتكريس حفلته الثانية للطبيب الساحر. تعرضت الرسالة للمطر، فسال العبر منها وانتفخت الأحرف، وتبرعمت. قبل أن ألقى بنفسي من الشرفة، قمت بإلقاء الخفّ المترّلي إلى الأسفل ورحت أراقبه كيف راح يطير إلى وسط الشارع. تطلب سُمك الزجر (الحُفْش) من الحوض مباشرة في مطعم في بلدة ستيرلنا<sup>(١)</sup>، فيصطادون لك بواسطة شبكة السمكة المطلوبة ويقومون بقطيعها بالمقص من خياشيمها إلى قطع. وعندما يقدمونها لك على المائدة يجب أن يكون الجزء المقطوع متطابقاً تماماً مع خط القص. ارتديتُ معطفِي من الفراء عند أول انخفاض شديد لدرجة الحرارة - كنت قد احتفظتُ بالمعطف مطويًا وكان ما زال يحتفظ بتلك الرائحة من روما. وكما أنَّ الفاصل بين الأصوات في الموسيقى هو من صميم الموسيقى، كذلك هو الأمر - الفاصل بعد الموت مسكن بالحياة أيضاً. تقوم الزوجة بضرب قائمة الطاولة التي ارتطم رأس الصبي بها: لا تبكِ، هيا انظر كيف سنجعلها تتألم بدورها. تبلى الغيمة بالقمر. مات الابن في المستشفى، وبعد تشريح جثته جلبوا اليه أغراضه إلى المشرحة، ثم راحوا يلبسوه، رفعوا رأسه، كان خفيفاً مثل علبة أعواد ثقاب - لأنهم انتزعوا الدماغ منه. ثمة طفح من موقد النار قد انتقل إلى النهر. كما كان الأمر ساحراً أن تتمدد، بعد ممارسة الحب، على شرشف مجعد وملتف، وأن آكل العنب وأراقب كيف راحت تجدلين شعرك، كيف يتحرك عظم لوح الكتف تحت الجلد عندهك، ومن ثم كيف ارتطمت الجديلة المرمية خلف الظهر على لوح الكتف ذلك. ثمة عجوز نحيلة وجافة مثل كسرة خبز يابس،

1- بلدة في داخل قلعة بتروبافلوفسك في بطرسبورغ تقع على خليج فنلندا... المترجم

راحت تتحسس بيديها غطاء طاولة مخزقة ومحروقة في أكثر من مكان، وقد التصقت بشكل لا فكاك منه بالطاولة في المطبخ، وهي تبحث عن نظارتها، وترسح في الوقت نفسه لفرن الغاز أن المصائب لا تحدث لأنّ المرايا تتحطم، بل على العكس، المرايا تحطم لأنّ يجب أن تحدث مصائب. أكشاك خشبية، زنزانة مجاورة - للذكور، حفروا تحت الفراش ثقباً يكفي لكي تمرّ يدُّ من خلاله، وثمة طابور يتضرر تحت السرير. اصطاد الرب الكون بواسطة صيادي سمك. هيا يا «بقرة الرب»<sup>(١)</sup>، طيري إلى السماء، هناك عجولك يأكلون الشوكولاتة. طير الجنة - لا يولّد منه سوى الإناث ويتم تلقيح الفراخ من الرياح. كانت العامل تمشي بطريقة غريبة، وهي تراقص، ثم ركضت نحو السياج وهناك تقىأت، فراحت تمسح شفتها بالثلج الطري. كنت طوال الوقت أشتئي الموز المتعرّف، أشتري من الكشك، ولكن البائعة قالت لي: ها هو موز جيد، خذني هذا الموز الجيد أيتها المرأة، ما بالك تختررين الموز المتهرئ! قاموا بتجهيز سلم احتياطي مقدماً في كلّ مدخل، بيد أنّ يعقوب لم يأت. يتصل الزوج بعشيقته في مكان عملها ويسأل عن لينا، ولكنه بحكم العادة يطلب رقم المكتب الذي تعمل فيه زوجته، فتجيئه صديقة زوجته: حالاً، يا أندريه، سوف أنادي ماشا. الزمن - مجرد عضو حاسة اللمس. كان ضوء القمر حتى قبل يومين فقط يستلقي في مثل هذا الوقت على خرقه المسح قرب الباب، وهو هو اليوم يتسلق إلى الفراش. التفاح ينام في العشب بحيث يكون رأس التفاحة الواحدة متتصقاً بجانب رأس الأخرى. ثمة ورشة في القبو، وهناك من يتبول باستمرار على الدرج - النساء يفعلن ذلك في الأسفل قرب الباب مباشرة، أما الرجال فينزلون بعض درجات باتجاه القبو. غفا الطفل، ولكي أنزع فمه عن الثدي، قمت بضغط أنفه. ها هنا بالضبط قام الألمان بإعدام طابور من الغجر رمياً بالرصاص. راح الغجر في

1- الدعسوقيات أو الخنافس المنقطة هي حشرات مفيدة جداً في المكافحة البيولوجية ضد الحشرات المضرة، مثل المن وبعض الحشرات القشرية التي تأكل المحاصيل الزراعية بسرعة وبكمية كبيرة. خلال موسم البرد، تبدأ الخنافس فترة السبات، فتحث عن ملحاً تحت الحجارة، تحت لحاء الأشجار، في جذوعها القديمة، أو تحت أوراق الزهور الذابلة. المترجم

البداية يتسلون ويرجون أن يحفظوا لهم حياتهم، كما أنهم أرادوا أن يدفعوا المال لقاء ذلك، ولكنهم إذ رأوا أنه ما من فائدة وما من شيء يساعدهم، بدأوا يرقصون ويغدون، وهكذا ماتوا - كانوا يرقصون بينما كان الألمان يطلقون النار عليهم. ها هو طير يحلق، وأنا لا أعرف كيف يدعى. كم أود أن أوقفك بواسطة الفراولة الفواحة وغير الملمساء. لقد قرأت صولوفيوف، وهو يقسم الناس إلى مسرنمين (يسيرون أثناء النوم) وإلى عباد الشمس. أصغي دون أن أفهم ماذا هناك، ما هو ذلك الصوت الغريب - أشبه بارتظام جوزة بجوزة أخرى. رحت أنتظر الباص تحت مصباح الشارع، فتحت كتاباً - راح الثلج يتتساقط على الصفحات. هل تذكر تلك الليلة في محطة القطار، عندما كان المطر يهطل، وقد خرجت خصلات شعرك من تحت قلنوسة المعطف، فالتفت أكثر، أمسكتُ عندئذ من قلنوسة المعطف بكلتا يدي ورحت أقتلك في رموشك المبللة بالمطر،وها قد انقضى منذ تلك الليلة كم هائل لا يحصى من السنوات ويليون من الفراسخ. الخزنة الفارغة في غرفة فارغة تزيد من حجم الضوضاء. ثمة في البريد ريش سيئة للكتابة، والطاولة ممتلئة بيقع الحبر، أرسلت رسالة مسجلة، فأعطتني الآنسة صاحبة الألف المدبب إيصالاً، ولكن الرسالة عادت بسبب عدم صحة العنوان. وأما الآن، بعد أن ولد عندي صبي، بُتُّ أعرف كيف يمكنني أن أعتراض على سفر الجامعة. فتحت بمقص معقوف مخصوص للعنایة بالأظافر الأوردة، رحت أراقب كيف راح الدم ينقط، وأشعلت سيجارة. لعبنا البينج - بونغ لفترة طويلة،وها أنا الآن لا أستطيع أن أغفو - فالكرات تقفز إلى عيني المغمضتين، وتومض بقع من أشعة الشمس على الطاولة. كلا، يا فالتينا غير غيفنا، الأكثر أهمية في الإنجيل - هو تلك الأيام الثلاثة التي قاموا خلالها بصلبه وبدفنه، ومن ثم لم يكن موجوداً، بل قام؛ ما زالت تلك الأيام الثلاثة تستمر وتمتد حتى يومنا هذا، ويجب أن يحدث من جديد: ذلك اللقاء على الشاطئ، ولا بد أن يرى أحد ما آخر ذلك: تلك السمكة المشوية وذلك العسل. اخترقت الجذور أسفلت الشارع مثل أنياب. يجب الذهاب من أجل قتل ذلك الكلب العجوز. كل ما هو كائن - ليس مخلوقات حقيقة، وإنما جسد: لقد خلق العالم من

ذاته، من جسده، وقد تشنج في هذه الوضعية على وجه التحديد، كما يفعل لاعبو الجمباز أو البهلوانيون عندما يقومون بتشييد هرم، وهو يحملنا - يحمل جسده - بنفس الطريقة من خلال تقلص العضلة، لذلك طالما أنه ما من شيء تبدل في هذه الدنيا، فهذا يعني أنَّ الله موجود. إن التزهه مع غيومي تخصّني، وهي لن تتكرر أبداً. الماء في كل مكان يصل إلى مستوى الكاحل. ثمة حكاية تهرّب فيها الفتاة من قوى الشر، وتختسر كلَّ شيء من أجل إنقاذ أخيها، ولكنها لن تتمكن من إنقاذ نفسها إلَّا بالتخلي عن أخيها، لأن قوى الشر تكف عن ملاحقتها عندئذ - ييدَ أنَّ الحكاية تفقد معناها تماماً، والحقيقة أيضاً معها تفقد مغزاها، وعلى العموم لا يجب لتلك الفتاة أن تعيش في هذه الأرض الخرافية. كنتُ أدخن على الشرفة وأراقب كيف تقوم في الغرفة بنفض ثرات الخبز عن الأريكة، وكيف تقتلع شيئاً ما وتسوّي الشرشف الذي يخشّش في الأماكن المتجمدة. من الغريب أن أتصوّر كيف أن كثيرة الأرجل أو حتى تلك التي من دون أرجل نهائياً ومن دون دماغ، تسكن فيَ. عيد الفصح في الضباب - المارة يعودون إلى بيوتهم ليلاً، وهم يحملون شموعاً أمامهم كما لو أنها هندباء بريئة. وأخيراً، جلوا بيانو كبيراً - احتشد الجميع، ولكن ماما لم تسمح لأحد بأن يعزف، لأنَّ البيانو بحاجة لأن يأخذ قسطاً من الراحة بعد رحلته الشاقة. كانت الآثار عبر النهر تضيع مرات كثيرة ومن ثم تتجمد من جديد، ولهذا السبب أصبحت عملاقة. استلمتُ آخر رسالة بالتزامن مع خبر الوفاة - كان يعتذر في الرسالة لأن الورقة التي كتب عليها الرسالة يمكن أن تفوح منها رائحة السمك: ماما الغالية، نحن نأكل بأيدينا، ونذهب إلى ثكنة أخرى لكي نغسل أيدينا - رحت فيما بعد أدرسُ أنفي مرة بعد أخرى في غلاف الرسالة، وفي كلَّ مرة كان يُخيّل لي للحظة أن الرائحة ما زالت عالقة هناك. بينما كنا نشرب الشاي في فناجين تحمل رسماً لنابليون، كان تيمكا (اسم الدلع من تيموفي - المترجم) يتسلل إلى تحت الطاولة ويقوم بربط أربطة الأحذية للبار. ظهر رجل حكيم في مدينة نوفغورود، وأعلن أنه يعرف كل شيء مسبقاً، وكان يريد أن يجتاز النهر كما لو أنه يمشي على اليابسة على مرأى من الناس أجمعين - بدأ عصيان في المدينة،

وقد صدق كثيرون وأمنوا بالرجل الحكيم، وأرادوا أن يقتلوا رجال الدين المسيحيين، عندئذ قرر الأمير غليب إنقاذ العقيدة المسيحية، فحمل فأسا تحت معطفه، ثم اقترب من الرجل الحكيم وسأله: هل تعرف ماذا سيحدث في يوم غد، واليوم مساء قبل مغيب الشمس؟ أجاب الرجل الحكيم بأنه يعرف وأضاف: سوف أقوم بمعجزات عظيمة. عندئذ التقى الأمير غليب الفاس وقطع بها رأس الحكيم. أنت أرملة، وأنا - أعزب. ضربت الصاعقة إحدى النساء لأنها تجرأت واجتازت من فوق ضريح القديسين يوحنا ويوغين وهي في أيام نجسة (فترة الطمث). رسمت على ضفة النهر لوحتين بالألوان المائية، وقد كنت أغمس الورق في النهر مباشرة. ثمة أغصان صغيرة من البيلسان متشربة في الزوايا بفعل الفئران. وكم هو رائع، كم هو لذيد الاسم الذي يُطلق على الألوان: رسم مائي عسلى - نشأت لدى فجأة رغبة بأن أتدوّق تلك الأحجار الصغيرة المسننة! شاهدتْ لديه في الصحن على المائدة قطعة ليمون - مقطعة إلى شرائح وتکاد تتعرّف، نویت أن أرميها في القمامنة، ولكنه قال: ماذا تفعلين؟ سوف أقوم برسمها! عند اجتياز مسافة بين محطتين تخلع القفل في الباب بسبب الارتجاج، ما جعل باب العربية المدفأة يفتح قليلاً - بان الغروب، والمرج الزاهي، جمد الجميع مشدوهين، وبذلك لم يعد ثمة أي سجن - تنفس المرج، ورائحة العشب، وغروب الشمس، وإذا بأحدهم يصرخ بأنه من الضروري استدعاء الحرس، وإلا فقد يظنون أننا فعلنا ذلك عن عمد وأننا ننوى الهرب. أحضر أحد الضيوف معه امرأتين مسنين قد يدمي العهد، كانوا يدعونهما حفيديثي أو ابنتي أحفاد بوشكين والتر سكوت في آن واحد مما - راحتا تأكلان بنهم وبطريقة بخيلة. المدينة ليست مدينة القيصر وإنما مدينة صياد سمك يهودي. يقوم المشرف في القطار بشد الجبل في المقطرة المتجمدة - يرن الجرس، ويجب عليه المراقب في القاطرة بشد الجبل وقرع الجرس، كما يدعى قائد القطار بقدمه على جرس خاص به - ويتحرك الترامواي من مكانه. أكبر عدد من عمليات الانتحار يحدث في الليالي البيضاء. كنت على وشك الخروج مسرعة، وإذا بالسوار يفلت من يدي، وتدرج إلى تحت السرير، تمددتْ لكي ألتقطه من هناك وإذا

بي أرى أنَّ كعبَ الحذاء لأحد ما قد تركَ أثراً على شكل حفرة صغيرة في الأرضية الخشبية. اكتشفوا جريمة القتل عندما أعطت شجرة التين التي تم دفن الجثة تحتها، كمية كبيرة إلى درجة غير مسبوقة من الشمار. رحنا نتسكع تحت الثلوج المتتساقط ليلاً، ثم خرجنا إلى باحة القصر حيث كانت تقوم جرافات بكنس أكوام الثلوج المتراسكم هناك باتجاه مسلة ألكساندر. أنا عنيدة مثل إيليس: عندما يتحدثون معي بحماس ومع تأكيد عن الخلود، أصبح مقتنعة بأنَّ كل شيء في هذه الحياة سوف يتنهى، وعلى العكس، عندما يحاولون إقناعي بأنَّ كل شيء سوف يتنهى - أصبح مؤمنة بأنه طالما أنتي موجودة فسوف تكون وأبقى. ثمة أثر رطب لقدم واحدة يبدأ من بركة الماء. انفجر البيت من جراء انفجار الغاز - وهذا ما كان الجميع يظنه في ذلك الوقت وهو أنَّ السبب هو انفجار الغاز. رفع الفجر بلون الليمون في الشرفة مرفقيه، وأما في الشفتين فقد كان برج قلعة بتروبيافلوفسك. حان لك أن تدركِي، يا تانيا الحزينة، أنَّ المسيح لم يُطلِّل شيخوخة وألام المرض عند أليعاذر الذي بعثه من بين الأموات في اليوم الرابع لوفاته فحسب، لأنَّ أليعاذر توفي فيما بعد بجميع الأحوال بهذه الطريقة أو تلك، كلا، بل إنَّ القضية بمجملها تكمن في الكلمات التي وهبت الخلود لشخص من بيت عنيا بالمعنى الحرفي للكلمة: هيا انطلق! يا صديقي النحيل، أيها المريض، فقد أخبرني الطبيب أنَّ كلَّ شيء سوف يكون عندك على ما يرام، وأنك سوف تعالج هنا قليلاً، وبعد ذلك سوف نأخذك من جديد إلى البيت! اسم كسينيا - اسم نادر، ولكنه أصبح شائعاً وشعبياً فجأة بسبب زوجة ألكساندر الثالث، الذي أطلق هذا الاسم على ابنته. فطيرة محسوسة باللحم، قشرتها يابسة مثل الخشب. يومئذ كانت شرایدر - ديفروين تغنى في أوبرا «القرآن السري»، يا لها من مطربة رائعة جداً، معبدة الجماهير والبلاط في الوقت نفسه<sup>(١)</sup>. يتساءل الجورب: ما الغاية من الساق طالما أنَّ كل شيء جوري حتى من دونها! تساقط النجوم في اللغة الألمانية - أشبه بمرض قشرة رأس نجمي. أنا قلقة لأجل القيصر،

1- كاتبة المذكرات تخلط بينها وبين نجمة وملكة الأوبرا الإيطالية التي تم تقديمها في بطرسبورغ س. ف. شوبر ليخنر 1797-1843.

فإمبراطوره تشيخ، وهو بحاجة لامرأة كل ليلة. احترق غرفة الطعام في المعسكر، فقاموا بتسبيح المساحة القائمة بين بئر الماء هناك وبين المهجع الخشبي، ووضعوا فيها طاولات ومقاعد - أصبحنا نتناول طعامنا في الهواء الطلق تحت سماء مكشوفة، وقد تنهدت المرأة العجوز في ستة عسكرية متسخة وفي جزمه لبادية بالية، وقالت: يشبه تماماً مقهى فلوريان وكوادري في ساحة القديس مار코<sup>(١)</sup>! كان الطريق إلى هناك يمر في دروب تعود ملكيتها إلى شركات خاصة مختلفة - عدّة مرات كان يأتي مراقب جديد، وفي كل مرة كان المراقب الجديد يضع على التذكرة ختم الطريق التي يعمل عليها - تارة على شكل دائرة وتارة نجمة وتارة ثالثة على شكل غليون. تبدو الأيدي من دون خواتم كأنها عارية. قرأت كتاباً ثميناً بعنوان «رحلة على سفينة <بيغل><sup>(٢)</sup>»: كان الفوجيون<sup>(٣)</sup> يقومون في فصل الشتاء وبسبب الجوع، بقتل النساء العجائز لديهم ومن ثم يأكلونهن قبل أن تفعل ذلك الكلاب؛ عندما سُأله السيد لا صبياً لماذا يفعلون ذلك، أجاب الصبي: عندئذ تقوم الكلاب باصطياد القضاعات<sup>(٤)</sup> لأنها لا تعثر على نساء عجائز. والناس هنا لا يتسبّلون بأنظارهم. بدأ وباء النكاف<sup>(٥)</sup> في بودابست وانتهى في مدينة فيينا. يجب على المرء أن يتوصّل إلى

- 1 أقدم مقهى في ساحة القديس سان ماركو في مدينة البندقية... وهو موقع تاريخي شهير... المترجم
- 2 رحلة تشارلز روبرت داروين حول العالم على متن سفينة بيغل في 1831-1836، بفضلها أسس العالم العقيدة التطورية، ووضع علم الأحياء على أساس علمي متين إلى حد ما. المترجم
- 3 أو أبناء أرض النار - هم الهندو القاطنون في أرض النار، في الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية. في الأصل تسمية الفوجيين تعود عند الإنكليز إلى شعب الياغان الساكن أرض النار. بالإسبانية تسمية فوجينيو تدل على أي شخص من الأرخبيل. المترجم
- 4 هناك قضاعة أوراسية وأخرى أوروبية وأمريكية... مخلوقات نحيلة طويلة ومجهزة تجهيزاً جيداً لعاداتها المائة. تميّز هذا القضاعة عن قضاعة نهر أمريكا الشمالية بعدة صفات، فهي ذات رقبة أقصر ومساحة أكبر بين الأذنين ولها أيضاً ذيل طويل. تُعدّ أنثى القضاعة أقصر من الذكر، ومتوسط وزن الجسم هو 7-12 كغ. المترجم
- 5 النكاف،المعروف أيضاً بـأنتهاب النَّكْفِيَّةِ الْوَيَّابِيَّةِ، هو مرض فيروسيٌّ يسبّبه فيروسُ النَّكَافِ. قد يُسبّبُ انتفاخاً وأوجاعاً في الغُدُدِ اللُّعَابِيَّةِ (Salivary glands)، وخاصةً في الغُدُدِ النَّكَافِيَّةِ (Parotid glands) الموجودة بين الأذنِ والفكِّ. المترجم

الإلحاد من خلال تجربته الشخصية الخاصة، لكن الروس يحصلون على الإلحاد مجاناً، ولذلك لا يقدرون بشكل جيد، وإنما يقدرون الإيمان أكثر. لقد تحولت ألكيونا<sup>(١)</sup> إلى طير - لم يقبل شفتيها أحد، ولم تصبح جافة ومتيسة. الرسائل لا تصل - يجب أن تكون الكلاب من نوع tedeschi منشغلة بقراءتها - أخشى أن يجدوا في التعليمات المتعلقة بالسعال وثائق مشفرة. راح الفارس البرونزي الذي يسكن على السطح وهو يرتدي دروعه القتالية الكاملة يضرب ترسه كلّ ساعة. القاعدة رقم 17: سوف نكره العالم المسبب للتعمية وكل ما هو موجود في هذا العالم، وسوف نمكثُ كلّ هدوء جسدي، سوف ننكر للحياة بحدّ ذاتها، وسيكون بإمكاننا أن نحيا على ما يمنحك الإله. القبلة مليئة بوحيدات الخلية. العشب يشع ليلاً في ضوء القمر بلون أبيض كما لو أنَّ العشب من مرمر. نادرًا ما كانت تذهب إلى صومعتها الخاصة، بل كانت تجلس معظم وقتها في الفناء في حفرة مماثلة بالرثاث الذي كانت تحمله في عبئها. يشيدون البيوت هنا بحيث تفصل بينها مسافات بطول حبل الغسيل. ثمة معتوه التقط عصا عن الأرض، راح يحملها بإحدى يديه، وراح يمرّر بيده الأخرى غصناً ريقاً وهو يتمتم لنفسه بكلام ما - كأنه فواماً من تشيلانو بال تمام والكمال يعني كم أنَّ هذا العالم رائع. أما الأعمدة فقد اكتسبت مغزى بعد أن خسرت القبة. رحنا نتسكع بين الأنماط، قطفت غصناً أشبه بالسرخس: ما هذا؟ اسمع، لقد كتبوا في الدليل أنه يجب أن نشاهد من كُلّ بد في الكاتدرائية في أورفيتو اللوحة الجدارية للرسام لوكا سينيورييلي<sup>(٢)</sup> بعنوان «قيامة الجسد». ملائكة بيريني<sup>(٣)</sup> على الجسر ت يريد التحلق إلى السماء، ولكن أرجلها مكبلة بالحجارة.

- 1 في الأساطير اليونانية - ابنة إيولا وإيتاريث.. وزوجة الملك تراخين كيك ابن إيوسفور. بعد وفاة زوجها، وببناء على طلبه، ألقى بنفسها في البحر فحوّلتها الآلهة إلى طائر يدعى صياد السمك الأخضر. المترجم
- 2 1445-1523 رسام في النهضة الإيطالية اشتهر بالذات بقدرته كرسام هندسي واستخدامه الرسم المنظوري. اشتهر بلوحاته الضخمة من الجص عن يوم الحساب في كاتدرائية أورفيتو وتعد من أهم أعماله.المترجم
- 3 جان لورينزو برنيي 1598-1860 كان نحاتاً باروكيًّا وفناناً يارزاً في روما في القرن السابع عشر. من أشهر أعماله تمثال نسوة القديسة تريزا وقد أنتجه بين عامي 1647 و1651 المترجم.

ثمة أزيز للمراوح الهوائية في أيدي اليابانيين، لدى الجميع مرايا جيب صغيرة ينعكس فيها كيف أنَّ الإنسان الأول يخلق برأس إصبعه أباً لنفسه على صورته وشاكlette، ممتنعاً بالعضلات وقدراً على القفز. وفي كورسو مباريات يهودية في الجري. فيما بعد، سوف تعرفون، أيها اليهود المصابون بالجرب، ماذا يعني أن تقوموا بصلب إلها! اليهودي المتعبد - مجرد ذئب جرى تسمينه. صار الزوج خلف الكوخ، واليهودي دخل من الشباك<sup>(1)</sup>. الإنسان هو قبر الرب - يجب إطلاق سراحه. أشارت ماريا بنفسها إلى المكان الذي يجب بناء كنيسة فيه - في منتصف شهر آب هطل الثلج على هضبة إسكيلين<sup>(2)</sup>. أما الأوراق التي سقطت بعد هطول الثلج فقد تجمدت وتصبّت. جُنَّ تريتون<sup>(3)</sup> وأعلن أنه ملاك، لذلك راح ينفع في أنابيب أوستاش: هيا انهضوا، هيا، انهضوا، ما بالكم استلقitem ها هنا! كنتم تريدون الذهاب إلى المدينة الأبدية الخالدة، بيدَ أنَّ هذا ليس هو «فيدوت»!<sup>(4)</sup> المتوفى الغريب الأطوار: توفي يوم الثلاثاء، راحوا يسون التربة حول القبر، وإذا بالميت ينهض فوق ذلك راح يرقص. استداروا إلى اليسار من قصر باربيريني (في الجزء الشرقي من روما. يضم المتحف الوطني للفن القديم) إلى زقاق معزول، فراح غوغول (الكاتب الروسي

---

-1 قول مأثور شائع لدى الروس البسطاء... ويقصد به أنه يجبأخذ الحذر من اليهود باستمرار...

-2 هضبة إسكيلين هي هضبة تقع في منطقة العاصمة الإيطالية روما. حيث بُني الكثير من الأماكن الأثرية والدينية منذ عصر الإمبراطورية الرومانية وحتى وقت متأخر، ومن أهم الأبنية التي انشئت على الهضبة: الكولوسيوم وشارع النصر وقصر نيرون وبازيليك القدسية مريم الكبرى. المترجم

-3 تريتون هو ابن رب البحر والماء بوسيدون الذي جعله الإغريق رب أولمبيا غير أن هيرودوت يجعل من بوسيدون إليها من ليبيا بحيث يرى أنه ما من شعب عرف عبادة بوسيدون في القدم إلا الليبيين. وتتجدر الإشارة إلى أن هيرودوت قد تحدث عن بحيرة تحمل اسم تريتونيس، وممكانها اليوم هو سبخة السلماني بمدينة بنغازى التي تم ردمها في السنتين من القرن العشرين وأقيم عليها حي سكني، ولربما أن اسم إله تريتون قد أخذ اسمه عن هذه البحيرة. كما تتجدر الإشارة إلى أن قمر تريتون قد سمي نسبة إلى هذا الإله الذي يرزق في الحضارة الإغريقية. المترجم

-4 اسم علم ويستخدم في هذه الصيغة للإشارة إلى الشخص المنافق وصاحب الرأي السديد والإرادة. المترجم

الشهير) يعني أغنية خلابية غير شائعة في روسيا، ومن ثم بدأ في نهاية المطاف بالرقص بكل بساطة وهو يقوم برسم حركات مثيرة للضحك بواسطة المظلة في الهواء، بحيث أن قبضة المظلة بقيت وحدها في يده بعد أقل من دقيقتين، في حين أن الجزء الآخر من المظلة طار إلى جانب آخر بعيد عنه. أثناء الليل يقوم الهواء الساخن والخانق بشني رشاش النافورة. ماذا لامست هذه القطعة من الهواء في أفريقيا؟ إبحث عن نواسير عندك بالذات. البعوضة كريهة جداً من قبل الإنسان. تظهر في الحال. صادف ذات يوم أن عربة الابن كانت تأكل البذر. هناك تلال، والدخان أشعث، غير مرئي وساحر. الدرس في الوادي الجبلي مليء بالتفاح وهذا التفاح لا يتعفن. كنت أتمنى أن نعيش متفاهمين، ولكن النتيجة أن حياتنا كانت مجرد شجار. وفي الليل توفي، يا للمصيبة، ذلك الرجل. أن يموت المرء - أمر مختلف عن اختيار النعال وتقليل الأحذية: أن تستلقي تحت الأيقونة وأن تحملق بعينيك. وما من ظلال. والبرود لأسابيع. والقمر متوج، مصب نهر، تفضل والتقط. طلع الهلال، وقد بات القارئ يتضرع مقارنة مع قطعة من ظفر - تفضل، ها هي، التقطها بسرعة. كانت الحلمة تجلس منحرفة عند الليدي. والثدي مثل اللفت. والزخرفة حاكت ثرا. تمشي الصبية مثل قارب. اعطني نقوداً كدين، وسيكون الذئب كفيلي. ذهب جدي الماعز من أجل الليفة، والعزبة ذهبت من أجل الجوز. إذا ما تحرّشت بالملفووف، سوف تتحول إلى ملفوف. إذا سكر الفلاح سوف يتشارجر مع سيده المالك، وعندما يصحو من سكره - سوف يخاف حتى من خنزير. السحب تسبح في قارب على وشك أن يغرق. والأمواج تكتشط الحرف المتعفن للقارب. ثمة ذئب نائم في ورق السعادى (نبات معمر)، بطنه منفوخ، التصق الذباب بعينيه وبشدقه، وثمة ديدان تحت ذيله. راحت العزبة تنظر إلى عينيه من دون أن تتوقف عن الاجترار. راح خارون<sup>(١)</sup> يكسر أوراقاً ناصعة البياض رأس

- 1 - خارون إحدى شخصيات الميثولوجيا الإغريقية وهو ابن إيريبيوس ونيكس (الليل) وكان واجبه أن يعبر بقارب على نهر ستنيكس أو أخيرون حيث تأتي أرواح الأموات الذين دفنتوا لتوهم وفي المقابل يتلقى عملية موجودة في فم الجثث، ولا يحمل أحيا إلا فيما ندر. ولم يذكره بمهمته لا هوميروس ولا هسيود وعلى الأغلب فإن أصله مصرى - المترجم

المملوف ويفضمها بأسنان صفراء. السماء عند الغروب بلون الغيراء. أسمع خطوات! ثمة القديس فاسيلي بلا جيئي الملقب بالعاري يجري باتجاه الشاطئ وسط أجمة من التوت البري ونبات القراص. مَنْ أَنْتَ؟ أنا فتى حاذق جلبتُ للرب حزمة. من أين أنت قادم؟ من عند الرب. إلى أين؟ إلى الرب. هذا يقيم الصلاة، والندل يزرع القمح. يافت (الابن الثالث للنبي نوح) يملك السلطة، ويتحكم بممات الجميع. دعك من هذا، أيها الفتى! تفضل خذ، واقضم هذا! قطع ورقة ومدّها إلىي. الشجرة ذات أغصان عريضة تمتد إلى مسافات بعيدة. الكلام رنان ولذيد. يسبح بمحاذاتي، نحو الأسفل باتجاه مجرى النهر، قارب مع خدوش على الجوانب وهو يتمايل على الأمواج. كان الهاوب متكوراً فيه، وقد غفا وهو يقبض في يده على مقبض ملعقة من السجن. إنه مُرْهق. عبر القارب تحت شجرة حور منحنية فوق الماء، فلامست أغصانها كتفيه. ابتسم في حلمه.

\*\*\*

ظهر لدى من جديد بعض الوقت الكافي لكي أتأمل نفسي. لقد تعبت كثيراً خلال الأشهر الأخيرة! مهرجانات وحفلات، جولات غنائية وأسفار بالإضافة للقاءات مع أناس مفیدین وغير مفیدین. قلت لنفسي: سوف أمضي هذه الأسابيع الثلاثة في البيت الريفي قبل سفري إلى كيف، من دون أن أخرج من هناك، ومن دون أن أفعل أي شيء بل سوف أتمدد في الأرجوحة الشبكية وأنظر إلى السماء.

وهأنذا أستلقى في الأرجوحة الشبكية وأتأمل السماء، في حين أنَّ جميع أفكاري مرتبطة بالأرض.

لقد غيرت السنة الأخيرة حياتي بشكل جذري.

بعد خمس سنوات من الصمت، وبعد شتى أنواع المطاردة والتضييق من قبل الحمقى والأنذال، الذين لا يفهمون شيئاً في الموسيقى، وبعد الجلوس العبيثي في المنزل ومحاولات العيش كزوجة - زوجة فحسب، بعد خمس سنوات من الانكفاء القسري، حين بدأت الحياة تبدو كأنها متيبة، وأنه حان الأوان لكي أفقد عقلي - عادت الأمور فجأة إلى مجريها الطبيعي

والمناسب! فقد أدركتُ بطريقة ما وأحسستُ أنَّ كُلَّ شيء سوف يكون على ما يرام وأنه يجب عليَّ أن أصبر لبعض الوقت وأن أجتاز هذه المحنة، وأن أتحمل تلك الإهانات وأنا أشدُّ على قبضتي وأعُضُّ على نواحدي - وكل شيء سوف يكون حسناً.

أنا على المسرح من جديد. وأعرف تماماً أنني أصبح مختلفة. ولا يمكنن الأمر في العمر وفي السنوات التي انقضت بطريقة غبية. الأفضل من السنوات. لقد أصبحتُ أكثر حكمة. على الأرجح، ليس من الصواب أن أقول ذلك عن نفسي. بيد أنني أشعر كيف صرُّتُ أغنى عن الموضوع نفسه ولكن بطريقة مختلفة وعن أشياء أخرى أيضاً.

سوف تصدر أسطوانة عمماً قريب، في نهاية المطاف.

بدأوا يكتبون لي الرسائل من جديد ويرسلون سلال الورد. ومن جديد راح المعجبون يضايقوني إلى جانب شتى الإزعاجات الأخرى المتعلقة بالنجاح.

أنا أدرك أنني مدينة بنجاحي لحبيبي يوسف أيضاً. إنه مدير عظيم. وهو يحلق أكثر وأكثر في عمله. إنه مدير قاعة الأعمدة<sup>(١)</sup>! إلا أنَّ هذا المنصب ليس سوى درجة جديدة بالنسبة له في سلم المناصب. وأنا أعرف أنَّ هذا الشخص سوف يتحقق كل ما يصبو إليه في حياته. ففي يوم ميلاده اليوبيلي أهدى لنفسه هدية ملكية بامتياز: اشتري من الأميركيين سيارة ذهبية ماركة «كريسلر». ليس في موسكو سوى سيارتَيْن من هذا الموديل. لدينا واحدة ولدى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية (NKVD - وزارة الداخلية). وقد أصبحنا نلقى التحية على بعضنا بواسطة الزمرور عندما نلتقي في الشارع.

لقد كلفني ذلك اليوبيل كثيراً! رفض يوسف، بسبب تواضعه، أن يتم الاحتفال بعيد ميلاده اليوبيلي في قاعة الأعمدة، مبرراً ذلك بأنه لا يجوز استغلال ملكية الدولة لأغراض شخصية، و«اكتفى» بالاحتفال في مطعم

---

1- قاعة الأعمدة - مسرح معروف جداً في الاتحاد السوفيافي السابق وفي روسيا حالياً... وهي موجودة ضمن مبني شهير في موسكو يعود لنهاية القرن الثامن عشر تم بناؤه على الطراز الكلاسيكي. اعتباراً من عام 1918 - مقر النقابات. المترجم

«متروبول». كم عانى كثيراً بسبب قائمة المدعوين! راح ينهض ليلاً، فيحذف هذا ويضيف أسماء أخرى جديدة، إذ إنه كان يخشى أن يغفل أحداً من الشخصيات الهاامة. وبطبيعة الحال، قام بدعاوة أشخاص لم يسمعوني ولم يحضروني خلال السنوات الخمس الأخيرة، بل لم يكونوا يلحظون وجودي، متظاهرين بأنني غير موجودة، تلك السنوات الرهيبة، عندما راحوا يضايقون «الإجرية» ويطاردونها بالسلوك الشائن وبالوقاحة، في الوقت الذي كنتُ فيه بأمس الحاجة إلى الدعم والمساندة، وإلى الكلمة الطيبة ببساطة. قلتُ له في البداية إنني لن أحضر. راح يرجوني ويتوصل إليَّ بأسلوبه الرائع. لم أكن أستطيع أن أتصور كيف يمكنني أن أمدَّ يدي لمصالحة هؤلاء؟ ولكن تبين أنَّ ذلك في متهى البساطة والسهولة. وكم كان الجميع سعداء بصدق لأنني عدتُ إلى المسرح من جديد، وأنني أقدم الحفلات وأقوم بجولات فنية، كما أنهم باركوا لي صدور الأسطوانة وهنأوني على ذلك! مع أنني لم أكن أعرف شيئاً بعد عن نوعية التسجيل، وما إذا كانت سوف تنجز، ولكنهم مع ذلك راحوا يهتئونني!

كنتُ غير مصدقة نفسي. لم أكن أعتقد أنه يمكنني أن أبتسם لهم بهذه السهولة وأن أتحدث معهم وأن أضحك وإياهم. أما أنا فقد غفرتُ لهم وسامحتهم. إنهم أناس تعساء. ومن الإثم ألا أغفر لهم.

تبين أنه من الصعب أن يحمل المرأة الكراهية في قلبها، وأنه من السهل عليه أن يغفر وأن يسامح بكل بساطة.

رحتُ أراقب الوضع كما لو أنني شخص آخر، كما لو أنني في فيلم سينمائي، كيف أنهم يمرحون ويفرحون. كيف أنهم مستعجلون لكي يأكلوا ويشبعوا ولكي يشربوا، وأن يرقصوا. كما لو أنَّ الحياة سوف تنتهي في يوم غد. كما لو أنَّ هذه آخر فرصة لهم لكي يلهموا. وها هم يلهون ويسربون - حتى فقدان الوعي، حتى الشبع النهم، وحتى التقيؤ.

لم يدخل يوسف - Noblesse oblige<sup>(1)</sup>. لقد اختار مطعم «متروبول»

1- الرقي يتطلب أو التزام النبيل. المترجم

بالتحديد، لأن أي مطعم آخر - لا يليق بمستواه. ففي «متروبول» سجاد مفروش في كل مكان، وفي كل مكان كريستال، والرواق يلمع ويتلألأً، كما أن النادلين يلبسون بدلات من الدانتيل المطرز بالذهب. والسيدات هنا أنيقات ويلبسنَ من مصممة الأزياء لمانوفا، وليس من أي خياط في موسكو. فضلاً عن النطق وطريقة الحديث والضحكة والعطور. وهنا الكافيار، وسمك السلمون والموز والكاتو. والشمبانيا بكثيارات هائلة مثل نهر. وفي منتصف الصالة تلك النافورة الشهيرة التي سقط فيها الكثير من سادة وسيدات المجتمع الراقي. وكم سيسقط أيضاً في أوقات لاحقة. وأعضاء الفرقة الموسيقية يرتدون المعاطف الطويلة الرسمية (الفراك).

راح الجميع يرجوني أن أغنّي. حتى أنَّ يوسف ركع أمامي على ركبتيه. كانت ثمة خشية في عينيه من أنني قد أرفض الغناء، ورجاءً بألا أفسد الاحتفال اليوبيلي مع وجود كل هذه الشخصيات البارزة الذين توقف حياته ومصيره عليهم. حياته، هذا يعني وحياتي أنا أيضاً. تقدّمت في فستاني الطويل المخصص للسهرة الذي تمت خياطته خصيصاً لهذه المناسبة من المحمل الناعم، وبدأت بالغناء. أديتُ أغاني من تأليف بروزوروفسكي. لقد فهم الجميع كل شيء، لكنهم ظاهروا بأنه لم يحدث شيءٌ قط. ومن هو بروزوروفسكي؟ أين هو؟ ربما لم يكن موجوداً مثل هذا الشخص في أي يوم من الأيام! في حين أنَّ الأغاني الرومانسية هذه سوف تبقى إلى الأبد! أمّا من هو المؤلف وأين هو - فلا أهمية لذلك!

لقد كان الصوت هناك رائعًا. فضاء هائل للموسيقى - السقف الزجاجي عال جدًا نحو السماء.

وتحت تلك القبة - فودكا ونهم شديد ورقصات ثملة.  
لم أكُد أتحمل حتى نهاية الأمسية إلا بصعوبة بالغة.

بعد أن ارتديت معطفِي في غرفة الملابس ورحت أنتظر يوسف قرب الباب الزجاجي لكي نذهب إلى البيت، رأيتُ كيف أنَّ الثلج راح يهطل في الشارع خلف الزجاج فجأةً من دون أية مقدمات! وهذا في الوقت الذي راح الثلج يذوب في مختلف أنحاء المدينة! وقفْتُ ورحت أنظر ولم أضبط نفسي

فخرجت إلى الشارع تحت الثلج المتتساقط. كان كُلُّ شيء أبيض بالكامل. كان ممتنعاً أن أتنشق الهواء المنعش بعد الجو الخانق والهواء الساخن والعابق بالكحول وبالعرق في المطعم! وكان ثمة هدوء ساحر، بينما تنير مصابيح الشارع الندف الكبيرة من الثلج التي راحت تتتساقط ببطء شديد. غطى الثلج أسفل الشارع، ولكن ما إن أدوس عليه حتى يذوب. مشيت في الكندرة الرسمية على الرصيف المغطى بالثلج - فبقيت من بعدي سلسلة لآثار صغيرة سوداء اللون. سوف أهرب - ولبيحث عنِي مقتفيَا آثارِي! غمرني شعور رائع مباغت وأحسست بالغبطة! غرفت عن الدرابزين حفنة من الثلج وصنعت منه كرة صغيرة، مررته على شفتي وعلى رقبتي! شعرت فجأة بسعادة غامرة غير مبررة! لقد مضى زمن بعيد من دون أن أشعر بمثل هذا الهباء. وكل ذلك ناتج عن ثلج عادي.

\*\*\*

انقضت اليوم تسع سنوات.  
كنت أظن أنني ذرفت خلال تلك السنوات كل ما عندي من دموع. بيدَ أنني لن أبكِيَه أبداً حتى النهاية.  
تبين فجأة أنه لا يبقى سوى القليل من الذكريات. لقد أمضيت معه سنة ونصف السنة، من دون أن نفترق نهائياً في حقيقة الأمر، ومع ذلك لم يبقَ في ذاكرتي منه سوى بضع لقطات عنه.  
فولودوتشكا<sup>(1)</sup> وهو يمْضِ عقبِ رجله.  
ابتسامته.

طبع العقعق - الغراب عصيدة<sup>(2)</sup>، حمل الماء، والماء عنده هناك بارد - ومن ثم أداعب رسغه بمرح. وهنا الماء دافع - أداعب الكاحل. وهنا - ساخن جداً وكثيراً - أداعبه تحت إيطه. ويضحك فولودوتشكا.

1- صيغة التحجب من فولوديا - فلاديمير المترجم

2- مقطع من أغنية فلكلورية روسية يراد منها تسلية الطفل الصغير ومداعبته يكون الكلام فيها مرفقاً بمداعبات هنا وهناك في جسمه.. المترجم

و ضعوا الطفل في مستشفى باريسي على بطني و راحوا يعصرون اللبأ<sup>(1)</sup> من صدرى، ثم أعطوه الثدي لكي يلعق السائل، وبعد ذلك أخذوه. أما أنا فكنتُ جائعة - جلبوا لي نوعاً من الشوربة، في حين أتنى كنت أشتاهي حساء الملفوف بشدة.

يلحُّ يوسف علىَّ لكي أتناول منقوع الشمرة، قائلاً إنه يساعد في إدرار الحليب: اشربي!

يا إلهي، كم عانيتُ كثيراً آنذاك! التهاب الثدي. خراجات في كلا الثديين. تشقق الحلمتين. أعطي ابني الحلمة لكي يرضع وأنا أصرخ من الألم. وهكذا كل ثلاثة ساعات. لا تكاد الجراح تلتئم على الثديين، حتى يقوم بفتحها من جديد.

ال طفل - أشبه بأن يكون قلبك في مكان ما خارج جسده. أنت هنا، بينما القلب ينبض هناك.

خُلِّي لي حينئذ أنَّ الأمر مؤلم، ومن ثم أدركتُ: كنت سأتحمل أيَّ ألم في الدنيا، بشرط أن يكون الطفل حيَا، أما الآن فلم يبقَ شيء باستثناء ذاكرتي و ذلك المغلف الذي أرسلته يومذاك إلى أمي في روستوف. وضعت يده و قدمه إلى ورقة بيضاء نظيفة و رسمت من حولهما بقلم رصاص. كما قسَّ طوله بواسطة خيط ووضعتُ الخيط في المغلف.

وقد جلبت ماما المغلف معها، فاحتفظتُ به. فتحته اليوم من جديد. هذه قدمه، وهذا هو الخيط. ولكن ابني غير موجود.

كم مضى من السنين، ومع ذلك عندما أتذكَّر لا يعود عندي أية روح، بل مجرَّد كتلة من الدم.

يُخيَّل لي أحياناً أنَّ عمري ثمانمئة سنة.

لم أكن قادرة في الماضي أن أفهم لماذا يبلغ عمر الناس في الكتاب المقدس خمسمئة سنة، وستمائة سنة. ولكن، لأنَّه يجب ذلك!

\*\*\*

---

1- السائل الذي يفرزه الثدي عند المرأة قبل الولادة أو بعد الولادة بفترة قصيرة.. المترجم

ذهبت إلى سيرغييف بوساد<sup>(1)</sup>، وقد أصبحت تُدعى الآن لسبب ما زاغورسك. كل شيء في «اللافرا» [مجموعة الأديرة] مهملاً تماماً، والمعابد مغلقة ويجري تحطيمها، هناك أناس يعيشون في مبنيي الدير، وفي كل مكان ثمة بياضات معلقة على حبال لكي تجف. علمًا أنه لباس تحتاني غير أنيق ورث وفقير.

كما أن الأحواض الفيفانية (أو البيشانية) التي كان الرهبان يربّون فيها الأسماك، قد امتلأت بالأعشاب وبالحصى.

رحت أقول في نفسي: طالما أن الصلاة أقيمت هنا على مدى قرون، فإن ما تمت الصلاة من أجله لن يختفي ولن يزول بل سيقى. لا بد أنه بقي هنا في مكان ما - في تلك الحجارة، وفي تلك القباب، في تلك الأجرة من القصب، وفي هذا النبات - عصا الراعي<sup>(2)</sup>. يمر الناس بمحاذاة اللافرا - يصلبون.

صلّيت لروح ابني متوجها إلى القباب وإلى جدران الدير، وإلى الأشجار التي يمتد عمرها لمئة عام، وإلى نبات عصا الراعي.

\*\*\*

تعبر، بصورة أساسية، من التنقل ومن القطارات والعربات الباردة التي تفوح فيها رائحة البياضات الرطبة، ومن محطات القطارات والفنادق، من الأسرّة الفظيعة والليالي المؤرّقة. كانت عملية انتقالى إلى قطار آخر في عقدة مدينة كورسك للمحطات فظيعة وثقيلة على الروح - كان الناس يفترشون الأرض مستلقين بعضهم إلى جنب بعض، وهم يحتضنون صررهم، كما كانت المراحيل تفوح بروائح كريهة، وكل ذلك خلق لدى حزناً رهيباً. كنا نريد أن نتمشى في أرجاء مدينة فورونيغ، ولكننا عدلنا عن قرارنا عندما

1- تقع مدينة سيرغييف بوساد (zagorsk حالياً) على ضفاف نهر كونتشورا وتبعد مسافة 72 كم عن مدينة موسكو. وفي المدينة آثار ثقافية وفنية مثل «لافرا الثالوث والقديس سيرجيوس» المدونة في سجل التراث العالمي لمنظمة اليونسكو. المترجم

2- عصا الراعي أو الجُنْجُور أو شبَط الغُول (من السريانية: شبط أي عصا) أو بطباط الطيور نوع نباتي من الفصيلة البطباطية. المترجم

شاهدنا ذلك الحشد من الناس في الشوارع. هناك الكثير من العحانات، إلا أنه أمام كل واحدة منها يتدافع أناس في ثياب مهلهلة ومتسخة. كان يبدو أنَّ عدد السكارى في المدينة أكبر من عدد الصاحين بكثير.

ولكن الراغبين بحضور الحفلة يأتون في ثياب أنيقة وجميلة، وبوجوه مشرقة وبيعون باسمة. يقبلون كما لو أنهم ذاهبون إلى مهرجان.

يا إلهي! أنا بالنسبة لهم بمنزلة مهرجان! بل على العكس، هم الذين أهدوني احتفالاً، ولست أنا من أعطاهم! كم هي سعادة كبيرة مع ذلك أن أقف أمام القاعة التي يشعُ منها الدفء والأمل، العرفان والمحبة!

ومن ثم أذهب إلى خلف الكواليس - وبذلك تنتهي الحكاية. ويبدا الواقع كما هو. إما أن يكون سائق العربة ثملًا، أو أنهم خلطوا بين التذاكر، أو حدث انكسار لأنبوب الصرف الصحي في الغرفة في الفندق.

شكرا لك يا رب! شاءت الأقدار أن يشتراك معي في الحفل أناس رائعون! شكرًا لك يا يوسف! إنه يجيد فعل ذلك. قام بدعاوة تروسمان من مسرح البولشوي، وخاصسين ولاتسمان وغلاذكوف من أوركسترا الجاز. يا لهم من عازفين ممتازين ومدهشين! ويقومون بعملهم على أحسن وجه مع روح نكتة ومزاج. من دون مثل ذلك الجو اللطيف والمزاج المرح، ما كنت لأعود حيَّة من بعد جولاتي الفنية، حيث أقدم خلالها بمعدل حفلة فنية واحدة كل يوم، وأنا أنام في فنادق قدرة مليئة بالقمل!

كنت أشعر بالقلق وبالاضطراب في كل مرة كنا نقترب فيها من مدينة ما. ففي مثل تلك اللحظة تنشأ لديك رغبة بامتلاك المدينة، وبأن تكسب جميع سكانها وأن تجعل كل واحد منهم يصبح من المعجبين بك ومن عشاقك! كان غلاذكوف يقول أثناء تناول العشاء بعد كل حفلة: «وهكذا، يا ابنة العرس، كل شيء مضى بخير، أما أنت فكنت خائفة! لقد أصبحت المدينة لنا!». أما خاسسين فقال في إحدى المرات: «اما زلت لا تدركين أنَّ هذه هي نفس تلك المدينة، ولكنها موجودة في مكان آخر!».

وفي مدينة تولا، وبينما كنا نتناول العشاء في المطعم بالقرب من محطة القطار، فرأ لاتسمان بصوت عال وكان قد أصبح ثملًا:

وسائل الربُّ: «علامَ عشتَ،  
أنتِ الذي لم تنفع في أي شيءٍ،  
وما هو المغزى من قهقهتك؟»  
فأجبتُ أني «كنتُ أواسي  
العيid وقد أحسوا بالتعب». .  
وسوف يتحبب الربُّ!

بدأ الجميع يضحكون. راح يؤكّد لنا في البداية أنَّ الأبيات من تأليفه،  
ولكنه أقرَّ فيما بعد أنها تعود لغاركاوي<sup>(1)</sup>.  
راح الجميع يرددون الأبيات ويضحكون. مع أنَّ الأمر كان يستحق أن  
ننتحب.

تكون مسافراً في قطار، تنظر من خلال النافذة - ثمة غابة في الحقل، وأما  
في الرأس فتدوّي تلك الأبيات.

كان بابا قد أخذنا عندما كنا أطفالاً إلى سهب كانت تجري فيه تنقيبات،  
حيث شاهدنا منحوتات لنساء من الحجر. كانت تلك المنحوتات والأطلال  
في ذلك التل - المقبرة، تحمل في طياتها تعبيراً عمّا هو غامض و مليء  
بالألغاز وخالد. وقد شاهدتُ الآن بما فيه الكفاية. كانت نسوة روسيات  
يقفن عند كل تقاطع لسكك الحديد وفي جميع أنحاء روسيا، تماماً مثل تلك  
النساء، من حجر، ويراقبن القطار - وهن يرتدين ما يشبه الأحذية المصنوعة  
من حبال، وفي سترات لبادية ويضعن على رؤوسهن مناديل رمادية.

راح تصلني رسائل من المدن التي أقمتُ فيها حفلات. كنت في البداية  
أجيب على كل رسالة منها، أما الآن فلم أعد أعرف ماذا أفعل بها. يطلبون  
مني أن أرسل لهم أدوية. كما يكتبون لي من السجن. أما المعجبون فكانوا  
يرسلون لي صوراً لهم. وكان في البعض منها قصص رقيقة وعاطفية جداً.  
أو قصص فظيعة ومرعبة. ثمة ممثلة في المسرح المحلي لمدينة كورسك

-1- ميخائيل ناووموفيتش غاراكافي 1897-1964 فنان وممثل ومؤلف رسوم هزلية. وكان أول من قام بتمثيل دور بابا نوبل في عام 1936. المترجم

مريضة، لديها ثلاثة أطفال، صبيان وبنت، والبنت معاقة إذ كانت قد دلت على نفسها زيدة مغالية ما أدى إلى إصابتها بالعمى، وما من أحد يستطيع مساعدتها. كانت الرسائل مكتوبة على أوراق تم انتزاعها من دفاتر لطلاب مدرسة وعلى بطاقات بريدية للمعايدة. فيها تعاير عن الإعجاب، وتأكيدات على الحب وتسليات من أجل مساعدة شخص بدخول المستشفى. كان يوسف يضحك: «تلك هي الشهرة. وهذا أمر حسن! هذا ما كنتِ تتمنينه!». أنا لم أكن أتمنى ذلك.

ما الذي يمكنني أن أفعله مع كلّ هذه الرسائل؟ لن يسامحني الرب إذا ما قمتُ برميها أو بحرقها، ومن المستحيل أن أكون قادرة على فعل أي شيء. لم أشعر بإقامة جيدة سوى في لينينغراد. فقد حجز يوسف غرفة في فندق «آستوريَا». ما زلتُ أذكر كيف أنه تحول إلى مطعم للعمال. وها هو من جديد فندق أنيق وعصري. كانت الغرفة المحجوزة رائعة مع إطلالة على كاتدرائية القديس إسحاق.

ولكن المثير للدهشة أكثر هو أنَّ الناس هنا ظلّوا هم أنفسهم كما كانوا فيما مضى. رئيس الخدم نيكولاي بلاتونوفيتشر فرانغل. يبدو لي أنه الوحيد الذي ما زال يجيد ارتداء الفراك في مكان آخر غير المسرح. وثمة شخص آخر أثار دهشتي حين رأيته وهي عاملة المصعد ذاتها دينا، ومع نفس تلك الغرفة - نسخة طبق الأصل عن آنا أخماوتوفا (الشاعرة الروسية المعروفة - المترجم) كما رسمها الفنان التشكيلي آلمان، ولكنها تقدّمت في السن وأصبحت بدينة. هذا ما كنت أودُّ أن أسجله: كم أنه مثير للذهول وصادم أن كلَّ شيء يتغيّر، بينما يبقى الناس هم أنفسهم.

في ذلك اليوم، قمت بملء البانيو الضخم بالماء. وأنا أريد أن يكون لدينا في البيت الريفي مثل هذا البانيو الكبير: بحيث يكون بإمكانني الدخول إليه بسهولة، من دون الحاجة إلى القفز فوق حافته ورفع الساقين.

في طفولتي كانت لدىَ مثل هذه التسلية: كنت أتخيل أنني عندما أصبح كبيرة، سوف يكون عندي بيت ضخم مع عدد كبير من الغرف، وكانت أقوم بفرشها بالأثاث.

وها أنا قد أصبحت كبيرة. وأقوم بتأثيث الغرف.  
يتحقق كل ما يحلم به الإنسان. ولكن، ما الفائدة من كل ذلك؟

\*\*\*

كان اليوم حارقاً. خرج الجميع من بيوتهم، في اتجاهات مختلفة. أسدلنا ستائر المصنوعة من القصب. في حديقة المنزل تنمو شجرة كرز قديمة وكبيرة، بالقرب من النافذة تماماً، بحيث يمكن للمرء أن يقطف بعض الثمرات إذا ما مدَّ جسمه من خلال حافة النافذة. يمكن رؤية كيف تصاعد أبخرة الهواء الساخن مثل أفعى من خلال الشقوق في الستارة القشية. في كُل مكان أصوات طرق لمطارق ولفؤوس - يقومون بتشييد «فالتيروفكا<sup>(١)</sup>» من جديد.

كانت درجة الحرارة مرتفعة منذ الصباح الباكر - إذ كشف الترمومتر عن أنَّ درجة الحرارة بلغت العشرين فوق الصفر، لدرجة أنه بات بالإمكان قلي بيبة على حافة النافذة.

بعد أن شربت قهوة الصباح، استلقيتُ في الأرجوحة المعلقة على الشرفة، ورحت أقلب مجلات تتعلق بالموضة من البلطيق، سبق أن استعرتها من الخياطة. كانت مasha تترقب بالطناجر في المطبخ، وكانت ماما تسمع الراديو. أما يوسف فقد سافر إلى موسكو، ولن يعود قبل يوم السبت. جاء إلينا لوغوفسكي، أحد المعجبين بأدائِي من جيراننا في القرية الريفية وهو يركب دراجة نارية، فذهبت معه لكي نسبح في البحيرة. كان السفر معه على الدراجة غير مريح نهائياً، كما كانت الطريق مليئة بالحفر ما جعل الدراجة تهتز بقوة طوال الطريق، ومع ذلك كنا نشعر بالمرح ورحنا نضحك. كان الجو هادئاً ولطيفاً جداً في منطقة كليازما. راح لوغوفسكي يتسيطون مثل صبيٍّ مراهق، واستطاع أن يصطاد السمك النهري بواسطة القبعة الصيفية، وذلك بالرغم من مقاييس جسمه الكبيرة. بعد ذلك قام بوضع القبعة على رأسه وهي ممتلئة بالماء. عرّجنا في طريق عودتنا إلى عزبة زاغورسك لكي نلقي نظرة على أطلال

- ١- قرية صيفية مؤلفة من بيوت ريفية في ضواحي موسكو. ويعود إنشاؤها إلى بداية القرن العشرين. وعرفت بنفس الاسم محطة قطار كانت تقع بالقرب منها. المترجم

الدار المهجورة. كانت ثمة حديقة كبيرة وجميلة، ولكنها مع تماثيل محطمة ومرمية على الأرض. وكانت بركة الماء التي تحيط بالحديقة على شكل حدوة، قد تحولت منذ زمن بعيد إلى مستنقع راكد. كانت الأشجار تتعرّف من الداخل وتوقف مرتكزة على قشرة الجذع فقط. أما الجسور الصغيرة فوق بركة الماء فكانت مهدمة. كان سكان القرى الموجودة في الجوار قد نهبوا وأخذوا كل ما يمكن أخذه. راحت تخيل كيف كان كُلُّ شيء هنا رائعًا من قبل. إذ لا بدَّ أنه كان ثمة مَن سعى لكي يكون كُلُّ شيء ساحرًا وجميلًا. عشر لوغوفسكي في أجمة رجل العزبة البستانية<sup>(١)</sup> على قبر لآخر مالكي العزبة الذين كانوا قد ماتوا قبل الثورة: «عبد وعبدة الرب من آل بيتشكوف». من حسن حظِّ آل بيتشكوف أنهم لا يرون شيئاً مما حدث لممتلكاتهم.

عدنا حوالي الساعة الخامسة بعد الظهر، فوجدت ماماً مع ماشاً تطبخان المربي في حديقة المنزل. كنت أريد أن أتدوّق زبدة المربي وقربت الملعقه من فمي ثم رحت أنفخ عليها مطولاً، وإذا بالحقير لوغوفسكي يدفعني من مرققي - فتلطخ فمي بأكمله مع وجتي! «آه، هكذا! سوف أقوم، في هذه الحالة، بتقبيلكم جميعاً». فـ الجميع من أمامي في مختلف الاتجاهات. رحت أطاردهم في الحديقة ومن حول المقلة وأصبح بهم: «هذه أكثر القبلات حلاوة! فإلي أين أنت تهربون؟». راح الجميع يقهقه بقوه لدرجة كدنا نموت معها من الضحك.

لماذا أكتب كُلُّ هذا؟ إذ إنه في حقيقة الأمر لم يحدث نهائياً أيُّ شيء مهم أو مثير للاهتمام. مجرد يوم عادي في بيت صيفي في منتصف سنوات قرن ما من الزمن.

يبثون عبر الراديو مقتطفات من «دون جوان» موذارت - وفي هذه اللحظة بالتحديد يتصدح لحن دون جوان مقابل شرفة إلفيرا بالضبط.

\*\*\*

طرأ تبدل مفاجئ على الطقس. بدأ المطر بالهطول منذ الصباح الباكر واستمر

---

- 1 - رجل العزبة البستانية نوع من النباتات يتبع جنس رجل العزبة من الفصيلة الخيمية.  
المترجم

طوال النهار بلا توقف. لعبنا اللوتو. ملل. لا أستطيع قراءة أي شيء. حل الظلام بسرعة. بمجرد أن توقف المطر، ظهرت لدى رغبة بأن أتمشى قليلاً. من حسن الحظ أني كنت قد أقنعتُ أوسيا بضرورة رصف الطريق إلى البيت الريفي بالحجارة - بات من الممكن أن أخرج للتنزه بعد هطول المطر لأنمشي من دون أن أخشى السقوط في بركة ماء أو في الأوساخ. خرجتُ إلى حديقة البيت المبللة والباردة. شعرت بالبرودة كما لو أني اضطررتُ لأن أرتدي كنزة رطبة من الصوف على جسدي عار. أينما مشيت لا بد أن تدوس على قوقة حلزون في الظلام. لقد شهد هذا العام مسيرة حلزونية كاملة. وقفْتُ ورحتُ أتأمل الأشجار والسماء، أنظر إلى الغيوم تمرُّ مسرعة، وإلى أشجار التفاح، وإلى شريط الضوء من خلال ستارة المغلقة في غرفة أمي. كانت قطرات الماء تساقط عن الأغصان. وفي كل مكان أصواتٌ لخشخشة رطبة. الأغصان تتمايل بهدوء. وأزهار القبس نبات تعشق بعد المطر برائحة قوية وساحرة إلى درجة مذهلة.

صعدت إلى الشرفة الخالية وجلستُ في الأرجوحة. لم أقم بإشعال الضوء. وكم استهويتُ في تلك اللحظة أن يجلس إلى جنبي شخص ما قريب وعزيزٌ علىيَّ جداً. وأن أهمسَ له: «انظر، كيف أن التفاح يتلألأ في الظلام، كما لو أن في داخله نوراً!!».

رحتُ أفكّر بأشياء مختلفة. تذكّرتُ كيف سافرنا في عيد الفصح إلى بلدة خاموفنيكي (حي تاريخي في موسكو - المترجم) مع ماشا. لم يبقَ سوى عدد قليل من الكنائس، ما أدى إلى حدوث زحمة في الداخل. كما كان الجو خانقاً جداً بسبب الشموع والخشود. وقفنا بحيث كنا مضغوطين من جميع الجهات، ما جعلني أشعر بالاختناق. انتابني إحساس بهم بالخوف. أسرعتُ بالخروج إلى الهواء الطلق.

كانت الشوارع تضيءُ بالناس ليلاً: فقد أعلنا في المسارح في يوم السبت المقدس<sup>(١)</sup> عن برنامج المسرحيات، بحيث تبدأ في العاشرة ليلاً، كما أن دور السينما راحت تعمل طوال الليل.

1- سبُّت النُّور أو السبت المقدس ويعرف أيضاً بسبت الفرح وأحياناً بالسبت الأسود وهو اليوم الذي يأتي بعد الجمعة العظيمة وقبل أحد القيامة أو عيد الفصح. المترجم

كنا عائدين إلى البيت، بينما راحت تردد في أذني ترنيمة الفصح الرائعة: «المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت...». فجأة سألتني ماشا عما إذا كنتُ أؤمن في قيامة الناس بعد الموت: «أنا أؤمن بالرب، ولكنني لا أؤمن بالبعث». «ولماذا لا تؤمنين، يا ماشا بذلك؟» - «لا أؤمن ونقطة على السطر. هل ستُبعث جدّي المرحومة كما هي عجوزاً متعفنة من أجل حياة أبدية؟ عندئذ، نستخلص أنه من الأفضل أن نموت جميعاً وننحن في عمر الشباب. كلا، هذه مجرد خرافات!».

ماشا! ماشا! لنفترض أنها خرافات.

طالما أنَّ الرب منح الحياة لكلٍّ واحدٍ منا، فهذا يعني أنه سوف يمنع لكلٍّ واحد بعثاً خاصاً به.

إذا كان الرب قد أنجز معجزة ما ومنحني هذه الحياة المستعجلة والعاشرة بسرعة جداً، فلا بدَّ أنه سوف يتذكر لي حياة أخرى يمكنها أن تستمر وتبقى. وسوف تكون في تلك الحياة ليلة عيد الفصح مثل هذه. ومثل هذا المساء في هذا اليوم بعد هطول المطر. وسوف تكون ماشا التي لا تؤمن في بعثها والتي راحت تُسخر الآن في غرفتها. وسيكون يوسف أيضاً الذي ما زال في موسكو، من دون أن أعرف معَ من. وأمي في غرفتها في الطابق العلوي وقد راحت تقرأ، على الأرجح، لأنَّ الضوء عندها ما زال مشتعلًا. وبابا. وطفلبي. وكلَّ - كلَّ - كلَّ شيء.

\*\*\*

وصل يوسف صباح اليوم. جلب لنا مختلف الأطعمة الشهية من متجر إلسييفسكي، فقمينا بتنظيم فطور طويل الأمد في حديقة البيت تحت شجرة الليك. افترحنا على ماشا أن تذوق المحار - فراحت تبصقها. كان هذا أشبه بأناناس آل ألكساندروفسكي. كانوا قد أهدوا الأناناس لخادمتهم كضيافة تحملها إلى أهلها في القرية، ولما لم يعرف أولئك ما العمل مع الأناناس، قاموا بطبع شوربا منه.

بمجرد أنَّ ماشا ذهبت إلى المخزن في المحطة، بدأت ماما الكلام عن السرقة التي يقوم بها الخدم. قالت لنا إنه لا يجوز التساهل معهم وتدليلهم،

وما شابه، فما كان من يوسف إلا أن دافع عنهم: لم أقم في أي يوم بالتدقيق في مبلغ الفكة التي تعدها لي ماشا - وإذا حدت وأخذت منها، فهذا لأنها بحاجة، ولغير الرب لها.

هل يعقل أنه يجامعها؟

حکی لی أنه في موسکو وبسبب الجو الخانق، لا يستطيع المرء أن يتنفس ملء صدره نهائیاً، وأن المدینة لم يسبق أن عرفت صيفاً حاراً إلى هذه الدرجة: الأحذية تترك أثراً لها على الأسفلت. شتم فندق «موسکو» الذي تم افتتاحه للتو في العاصمة. تكتب الجرائد أنه أفضل فندق في العالم، أما الواقع فهو كالعادة: فخامة من الخارج، رخام ومالاكيت، ويشبّ (حجر كريم)، ولكن في الداخل على العكس: لا تفتح أدراج الخزن في الغرف، ومن المستحيل إغلاق باب البانياو، وفوق ذلك لا سداده للبانياو لكي تملأه بالماء، ولذلك يجب على المرء أن يختبر شيئاً ما لأجل ذلك.

لديه هناك حجوزات لغرف في فنادق مختلفة مخصصة للضيوف، وأنا أعرف أنَّ يوسف يدعوه عشيقته من مسرح ميوزيك - هول إلى هناك. أقدر له أنه لن يقوم أبداً بدعاوة أحد إلى بيتنا، إلى فراشنا المشترك. وشكراً له على ذلك! مع أنه وماذا يعني: فراشنا؟ إذ لا سرير مشتركاً بيننا نهائیاً.

يوسف يخوتي منذ مدة طويلة. راح يقسم لی أنه ليس لديه أية علاقات مع أحد، أما أنا فقد شعرتُ بذلك على الفور. ولم أكن أعرف: أصدقه أم لا أصدقه. رحتُ أقنع نفسي: أن أصدق، طبعاً. فأنا ملزمة على الدوام بأن أمنح حبيبي فرصة لأن يكون صادقاً. ولكني رغم جميع تأكيدهاته - لم أصدق ما يقوله، بل تظاهرتُ بأنني أصدقه. حتى عندما كان يقول الحقيقة لی - لم أكن أصدقه، وعندما كان يُقسِّم كاذباً بأنه لا يحبُ أحداً سواي. - كنت أثق بكلامه.

ذهبتُ خصيصاً إلى ميوزيك - هول لكي أتفرج على ثلاثين فتاة موسكوفية تحت قيادة العاجز جنسياً كاسيان غوليزيوفسكي. جمعيهن فاتنات، كما لو أنه تم اختيارهن بدقة، وقد كنَّ في ملابس ضيقة نثر عليها مسحوق لامع، ويلبسن أحذية أنيقة جداً على كعب عال، ومع تسريحات

شعر حسب آخر موضة. رحتُ أخْمَنْ أية واحدة منهن عشيقته. ثم قلت في  
نفسِي: وما أهمية ذلك! جميعهن متشابهات.

لقد عدنا إلى أيام الكتاب المقدس حيث كان يمكن أن يكون لدى الرجل  
عدد من الزوجات، بقدر ما تسمح له حالته أن يعيش - مثل يومنا هذا.

\*\*\*

أدرك أنني أتحمل جزءاً من الذنب والمسؤولية. ففي تلك السنوات  
الفظيعة، التي لم أكن أرغب بالذهاب أو الخروج إلى أي مكان ولا أن أرى  
أحداً، كنتُ أصبُّ جامَ غضبي على أوسيا. كان يقف حاجزاً بينهم وبيني. راح  
يخفيوني عن ذلك العالم، كما لو أنه يحميني قدر استطاعته، لأنه كان يريد أن  
يفعل كل ما مِن شأنه أن يخفّف الصدمات كي لا أعاني كثيراً من جراء ذلك.  
أما أنا فكنت أفقد صوابي، ولذلك كنتُ أصبُّ جميع انفعالاتي وكامل حنقِي  
ونوبات الهستيريا عندي عليه. على أوسيا الفقير والطيب. كنت أكره أولئك  
الناس، ولكن زوجي هو الذي كان يدفع الثمن. لم أعد قادرة أن أنام معه،  
لم أستطع وبمتنها البساطة! وقد كانت جميع المحاولات لتسوية الأمر،  
لتصحح الوضع والنقاش تنتهي من جديد بالمشاجرة. لا أفهم كيف كان  
ممكناً الاستمرار في تلك الحياة مع شجار لا يتوقف.

ولم يكن الأمر يتطلب حجة أو سبباً خاصاً. بكل بساطة كان التوتر يتراكم  
على مدى بضعة أيام ويزداد الضغط - ليتم تفريغ شحنة التوتر بتلك الطريقة.  
كنت أقول له شيئاً ما، ولكنه لم يكن يصغي، بل يبدأ بارتداء ملابسه لكي  
يخرج، وهو يلقي نظرة إلى ساعة المنبه فوق الخزنة الصغيرة بقرب السرير،  
ويقول بلا اكتئاث: «لديك ثلاث دقائق بعد». التققطت ساعة المنبه وقدفتُ  
بها إلى الأرض.

بعد ذلك أصبحنا نتشاجر بهدوء وبشكل بارد، وليس بشكل انفعالي  
ومتحمس كما يتشاجر العاشقون والأحبة.

انقطع سبيل التفاهم بيننا. مثل تلفون معطل. رحنا نتحدث، ولكن مِنْ  
دون أن نفهم بعضنا بعضاً بسبب التشويش وعدم وضوح الصوت. فكان كل  
واحد يفهم نفسه فحسب، يسمع صوته العائد إليه.

وفجأة لاحظتُ بنفس الدقة أنه لم يعد ثمة تفاهم مع نفسي ببني - مع جسدي. ثم راحت لألاحظ وجود آثار لأظافر على راحة يدي. تبيّن أنني كنت أقوم طوال الوقت بالضغط على يدي من دون أن أنتبه إلى أنني أتسبب بالألم من جراء ذلك.

تذكّرتُ آخر شجار لنا - بسبب المزهرية. متى كان ذلك؟ في ربيع العام الماضي. يومئذ لم أكسر بعض الفناجين والصحون فقط، بل كسرتُ مزهرية صينية من الصنف القديم والثمين أيضاً، كان قد حملها بكل اعتزاز من مخزن لييع التحف القديمة. وفجأة انتابني إحساس غريب بأنني لم أكن أنا من فعل ذلك، وأنني أصبحتُ في مكان ما بعيد. كما لو أن تلك كانت امرأة أخرى هي التي تصرخ وتكسر في نوبة حنق أشياء غالية الثمن ونادرة. أما أنا فقد أصبحتُ هادئة ومستكينة منذ زمن بعيد، وأنه ما من شيء يسبب لي أدنى ألم أو معاناة ولاأشعر بالأسف على شيء. وأن ذلك الإنسان كان قد أصبح بعيداً عني لدرجة أنه لا يستطيع أن يسبب أي ألم لي.

والأكثر أهمية هو أنني شعرتُ بالخوف من نفسي. أدركتُ كم أنا أكره نفسي على هذه الحال.

\*\*\*

أول فكرة راودتني هي أن أقتله وأقتلها معه! وأن أقوم بتفجير البيت. أن أدمّر العالم كلّه. بعد ذلك انتهت الدموع والقدرة على الإحساس بالألم وتطاھرتُ بأنني لا أعرف شيئاً وأنه ليس في علاقتنا ما هو غير عادي. كم أصبحتُ أمقتُ صوته عندما يتصل ويقول: «عزيزتي ابن عرس، سوف أسافر ليومين!». ومن ثم يبدأ باختلاف أشغال معينة. في حين أنه كان فيحقيقة الأمر يتصل من غرفة الفندق الذي قام بحجزها لكي يقضى فيها ليلة مع عشيقته. وربما كانت هي جالسة إلى جانبه وقد راحت تمسمح له ركبته. كنتُ أجيب محاولةً لا يرتجف صوتي: «بالطبع، أوسيك، لا تقلق! هي عبد سرعة! أنا أحبوك كثيراً وأنظر!».

ثم أحدق إلى نفسي في المرأة. ها هي التجاعيد بدأت تظهر على عنقي. وأما هي فليس لديها مثل هذه التجاعيد.

ييدَ أنَّ مثل هذه الفتيات لا يشكّلنَ أدنى خطورة. يمكن ألا تخاف من مثل هذه البنيات الهاويات والعايرات. بل يجب أن تخشى تلك الصامتات والهادئات، مع عيني طفل أصيب بالصدمة وبالذهول. كما هو الحال عند ماشا مثلاً.

فهي ما زالت صغيرة بالفعل. إنها طفلة. عدتُ في أحد الأيام إلى البيت، وإذا بماشا تقفز من غرفة نومي - دخلتُ إلى هناك وأدركت على الفور أنها كانت تتمتع بالتمدد على فراشي.

رحت أتخيل نفسي في مكانها. كنت على الأرجح سأقوم بتجريب فساتين سيدتي وجواربها وأحذيتها، طالما أنها ليست في البيت وقبل أن تعود. فتاة محبة للعمل بتفان، تحبُ النظافة في كل شيء، ومنغلقة. بثر عميقه ونهر هادئ.

رفضت أن تستلم مرتبها بحججة أنها سوف تنفقه، وقالت إنه يمكنكم أن تعطونني في حال احتجت من أجل شراء الشموع فقط، وأتمنى أن تحفظوا لي بالمرتب عندكم، فضلاً عن أنه قد يضيع مني. يجب أن أذهب وأشتري لها حذاء، وإنما الشيطان وحده يعرف كيف يمشي وأين.

\*\*\*

لم أطُق صبراً على الحبس في البيت الريفي فسافرت مع يوسف إلى موسكو. كانت المدينة خانقة وممتلئة بالغبار، ولكن هناك بشراً.

زرنا بيت دنبروف مع ميليتش<sup>(1)</sup>. أمضينا نصف المساء ونحن نتحدث عن حالات إعادة الدفن في موسكو. وقد أصيب الناس بالذهول بسبب مظهر جثمان الموسيقي نيكولاي روبنستاين الذي كان أقرب إلى شكله أثناء الحياة. كما تحدثنا عن لوحات في الإرميتاج. وقد نقلوا إلى دنبروف كلمات غرابار<sup>(2)</sup> مفادها أنه جرى بيع حوالي 80% من أكثر اللوحات قيمة وأهمية

1- ملحن موسيقي ومطرب روسي. المترجم

2- إيفور إيمانويلوفitch غرابار 1871-1960 رسام روسي. ما بعد انطباعي. المترجم

من لوحات الإرميتابج في الخارج، وأنهم سوف يقومون عَمَّا قريب بإعادة شرائطها ونقلها إلى الإرميتابج مع ربع كبير.

هبط علينا ألكساندروف بصورة مفاجئة. سأله كيف استطاع أن يجعل الثور سكراناً في فيلم «أولاد مرحون»؟ تبين أنهم قاموا أثناء التصوير في مدينة غاغرا بربط قوائم الثور بواسطة شريط معدني. بدأت السيدات هناك يتذمرون: «ولكنه سوف يتآلم!». راح ألكساندروف يضحك بقوة. أخبرنا كيف أنه كان يجب في إحدى اللقطات عند ميرلخولد أن يتشارج شخصان وأن يضرب أحدهما الآخر بقوة ويهرس له أنفه، بحيث تسيل الدماء. وقد صرّح حينئذ أن الفنان في حال كان يتعاطى مع الفن بجدية، فمن المفترض عليه أن يتصرف مثل أبراهام، يجب عليه أن يكون قادرًا على التضحية بالابن وليس بالعجل فحسب.

رحت أنظر إليه وأقول من دون أن أشك للحظة في أنَّ هذا الشخص - بلـي، سوف يضحي ومن دون أن ترتجف يده. سوف يضحي بابنه وبالزوجة، وبكل من يجلس حول هذه المائدة.

كان يجلس وهو يشرب الفودكا ويمزق معها بعض الفطر والسمك المقدد وفي الوقت نفسه كان يشع بالنجاح والتألق. حكى لنا كيف التقى مع شابلين وكيف أن مختلف المشاهير في هوليود راحوا يدعونه بالتناوب لتناول طعام الغداء. وحده الشيطان يعرف الحقيقة، وربما قاما بدعوه فيحقيقة الأمر.

\*\*\*

كان رائعًا أن نعود إلى القرية السياحية فالتيروفكا بعد أن أمضينا بضعة أيام في موسكو! بقي لدى انطباع غريب ومتناقض بعد موسكو - وهو أنَّ الحياة بدأت تصبح أفضل، وهذا ما يشعر به المرء بالمعنى الحرفي للكلمة: ألغوا البطاقات التموينية، كما أغلقوا سلسلة متاجر «تورغسين»<sup>(١)</sup> المهمينة، حيث

- ١- مؤسسة سوفياتية كانت تمتلك مخازن بيعها الأجانب والمواطنون سوفيات بالعملة الصعبة وبالذهب والأحجار الكريمة. وكانت توفر فيها سلع لا يمكن أن يحصل عليها المواطن سوفيaticي العادي. المترجم

كان الناس يحملون أسنانهم الذهبية إلى هناك لكي يبادلواها بسلع؛ كما أنَّ السلع باتت متوفرة بكميات كبيرة وتزداد يوماً بعد يوم، وهناك الكثير من المسارح ودور السينما. ييدَ أنَّ كل ما عدا ذلك بقي كما كان - الناس هم أنفسهم، لم يتغيروا قط! راح آل دنبروف يتبااهون بأواني المطبخ الجديدة لديهم صناعة سويدية، وبالراديو الجديد. كان البيت عندهم يبدو مثل مزهرية ممتلة. وكان كُلُّ شيء معروضاً للفرجة، بما يكفي لكي تمتلئ الأعين بالغبار. وقد قامت ميلتيش وبحضور الضيوف بالطلب من الطباخة أن تذهب إلى متجر إليسييفيسيكي لكي تشتري لحم خنزير مسلوقاً خصيصاً لكتلهم الصغير الطويل الشعر. وعندما كانوا نهم بالمعادرة من عندهم، نظرتُ من خلال النافذة فرأيت نساء في الشارع في ثياب رثة مهلهلة وقد حملن شيئاً ما ثقيراً جداً - ليتبين أنهن يحملن عبوات من الكيروسين وحقائب، أكياساً وسلاملاً. راحت النسوة يقصدن إلى الترامواي. وهن يحدجنني بنظرة مليئة بالحسد وبالكراهية. لماذا يزدرى الناس بعضهم بعضاً، ويعملون كل ما بوسعهم لكي يكون لديهم ما يتبااهون به - بالبيوت أو بالمعاطف من الفراء، بالخدم أو بالعشيقات، بالسيارات وبالحياة الدسمة والمليئة بالملذات؟

وماذا لو أنَّ العقاب لم يقع بعد الموت، وإنما قبله؟

\*\*\*

المرأة في قاعة الضيوف لطيفة معي ومتساهلة، تجعلني أبدو مثلما أتمنى أن أكون، في حين أنَّ المرأة في غرفة النوم خالية من أيَّة شفقة تجاهي، تظهرني مع رأسي وتجاعيدي، ومع بطني المتهدل. هل بدأتُ أشيخ بالفعل؟ لم يعد ممكناً إخفاء الشيخوخة، كما كان وارداً في السابق. كما لو أنَّ الشيخوخة لم تعد تهابني. أصبحت وقحة. تجتاحني كما لو أنها تدخل إلى بيتها: شعر شائب، ظهر الشيب وأضيقاً فيها بعد ليلة مسهدة، وتجاعيد لم تكن ظاهرة في يوم أمس بعد. ثنية عند زاوية الفم - كما عند العجائز تماماً.

سوف أفعل الآن كما كانت تفعل ماما، فأضيف في الماء بعض محلول الأزرق وذلك لكي لا يكتسب الشعر الشائب لوناً أصفر.

وأكثر ما أشعر به هو الزمن، عندما ألتقي مع شخص ما مضى زمن طويل

من دون أن ألتقي به. عندما كنا آخر مرة في حفلة في مسرح البولشوي، التقيت وجهاً لوجه مع تاسكين. لقد أصبح عجوزاً تماماً، ولكنه يمشي متباخترًا، وبالتأكيد متأبطاً ذراع صاحبة موهبة فتية، وشقراء من كلّ بدّ. ذلك أنَّ موسكو امتلأت بالفتيات اللاتي صبغن شعرهن باللون الأشرف، بعد افتتاح «السيرك». علمًا أنَّ مفارق الشعر تكتسب لونًا قاتمًا بسرعة غادرة.

كنت قد رأيت تاسكين آخر مرة قبل ستين و ذلك في لينينغراد، في أكثر فترات حياتي صعوبة. كان ناشفًا معي في تلك المرة وكان مستعجلًا، أما في يوم أمس فقد سارع إلى عنافي و راح يقبلني ويقول لي مختلف المجاملات التي يمكن تلخيصها: بأنني أنا الذي قمتُ، لعلمك، باكتشاف موهبتك، يا عزيزتي، فهل نسيت ذلك؟

و كيف يمكنني أن أنسى! ما زلتُ أذكر ذلك البيت واقفاً أمام ناظري: في شارع كابيتنيايا، المبني رقم 7. أول عقد. وأول مكافأة.

وصلتُ، أنا تلميذة المدرسة المتحمسة والواثقة من نفسها جداً، إلى بطرسبورغ لكي أنتسب إلى الكونserفاتوار. وإلى الكونسرفاتوار بالتحديد! من دون أن أعرف لماذا قررت أنَّ الكونسرفاتوار يتظمني! أمّا نوسيا فقررت أن تتدرب على الصوت على يد بروفسور في الصوت، وعندما سمعها البروفسور فقد تلعمت وتلكلأ: الصوت عندك... على الأرجح، من طبقة الكونترالتو<sup>(1)</sup>). ورفضها منطلقاً من مبدأ الالتزام بالواجب المهني تجاه الفن. بدأت أذرف الدموع، وأما هو فراح يواسيني ويقول، للعلم، إن الصوت عندك مقرر من قبل الطبيعة بالذات، ولذلك فإنَّ التدريب والتعلم سوف يخرّبانه فحسب: سيجعلانه أعلى، من دون أن يكفي ليبلغ مستوى الأوبرا، بكلمة أخرى - غنٌّ بصوتك كما هو، يا طفلتي!

وهكذا هي جميع الأحلام! تأتي من عالم الغيب<sup>(2)</sup>.

1- كونترالتو نوع من الأصوات الغنائية، ويعتبر أكثر الأصوات النسائية عمقةً وندرةً..  
المترجم

2- ورد في النص الأصلي قول روسي شعبي مأثر ترجمته حرفيًا: ذهب إلى تحت ذيل الهر - ما معناه أنَّ التعب والكد ذهب سدى.. المترجم

وها أنا الآن أقول في نفسي: شكرًا له!

تذكّرت أول انطباع تشكّل عندي بعد زيارة بتروغراد - ولا علاقة للأمر بالقصور ولا بنهر النيفا، وإنما بخلاف المراقبين في الترامواي في موسكو الذين كانوا يحملون لوحًا خشبيًا وعليها ملصقة أعمدة التذاكر، كان المراقبون في بتروغراد يحملون التذاكر في حقيقة معلقة بحزام وكانت التذاكر على شكل لفة ورقية. كما كان لا فتاً أن المراقبين في بتروغراد - وبسبب استدعاء الشبان إلى الخدمة الإلزامية - كانوا من النساء. وقد تحسّر خلفي أحدهم قائلاً إن ثمن التذكرة قبل الحرب كان يساوي ثلاثة كوبiks، وأما الآن فقد أصبح ثمنه خمس كوبiks. ذهبنا أنا ونوسيا إلى حفلة طلابية - راحوا يصفقون لها، وكانت تنحني في التحية، وقد شعرتُ بانقباض في القلب بسبب الغيرة والحسد. نعم، من الحسد. فتاة فاشلة لا تنفع في شيء راحت تحسد شقيقتها على نجاحها. كانت تذهب صباحًا إلى الدروس في الكونسرفاتوار، وفي المساء كانت تمثل في استديو السينما لكي تكسب بعض النقود. كانت نوسيا تعرف المطربات ومتعبدي الحفلات، فاقترحت علىيَّ أن تمرّنني على تاسكين الشهير الذي صنع فيالتسيفا<sup>(١)</sup>. ضمّرتُ: هذا آخر أمل. في حال أنه طردني، سوف أذهب وأنتحر غرقًا بعد أن أرمي بنفسي من أعلى الجسر الجديد بالقرب من القصر - كانوا قد دشّنوه قبل فترة قصيرة، وبذلك أقوم بالاحتفال به.

كنت أتوقع شيئاً ما عظيماً، ولكن تبيّن أنني قادرة على القيام به. حمل منديلاً ورقياً عن الطاولة مباشرةً بل وتتجشأ بطعم ساخن. التققطني من يدي ودمدم: «أول ما يشير الإعجاب في المرأة يداها» - في حين أنَّ أصابعه هو بالذات كانت أشبه بساق الملفوف. كما كانت له صلة لامعة. راح يربت بطريقة أبوية علىَّ في مختلف الأماكن. فزعت وابتعدتُ إلى الزاوية، كي لا يقترب مني ورحت أغنى. أصيب بالذهول:

إنك مطربة جاهزة متجزة! احفظي آية ثلاث أغانيات، بحيث تعجبك

-1- Анастасия Дмитриевна виالتسيفа 1871-1913 مطربة روسية شهيرة قامت بأداء أشهر قصائد الرومانس الروسي والغموري. المترجم

وتroc لك، وانطلقي برعایة الرب إلى الغناء على المسرح! بطبيعة الحال،  
تنقصك الخبرة، ولكن لديك كل ما لا يمكنك أن تتعلمه.

اتفقنا أنتي سوف أعود إليه أكثر من مرة - من أجل التشاور معه بخصوص  
اختيار قائمة الأغاني repertoire وبشأن أسلوب وطريقة الأداء. خرجت من  
عنه وكتأني اكتسبتُ أجنهة. بالفعل، لقد دبر لي رعاية. وفي المرة التالية،  
عندما جئتُ إليه تدربنا أنا وهو على أداء عدد من الأغاني الرومانسية. كان  
على البيانو مغلف وبعض الأوراق. لقد كان هذا أول عقد عمل لي وأول نقود  
أحصل عليها لقاء أدائي! ضممتُ النقود إلى صدرِي وهرعتُ إلى أخي وعند  
زاوية شارع كابيتانيا احتضنت عمود الكهرباء ورحتُ أقبله في وضح النهار!

رحتُ أقدم حفلاتي في مسرح «الكوليزيه»، وكان تاسكين يتصل بي  
ويسأل: «كيف الأحوال، يا عزيزتي؟ هل كل شيء على ما يرام؟ هل أنتِ  
راضية؟ حسناً، إذن. تعالى مساء اليوم - ثمة أمر هام جداً!». جئتُ إليه،  
وإذ بالأمر الهام - هو تصفية الحساب وفق العقد. ما زلت حتى الآنأشعر  
بالغثيان بمجرد أن أتذكر أصابعه الشبيهة بساقي الملفوف، وكيف أنه نفث  
زفيره في أذني قائلاً: «أنت لست ببلا، بل أنت قبلة، أنت سُكرة!». أمسكتُه  
من يديه. «كافٌ عن ذلك، أرجوك!». راح يحاول تقبيلي. ضربته على خده  
وعلى صلعته ثم خرجتُ هاربة من الشقة. ثم صاح في إثري: «في حال أنك  
غيّرتِ رأيك، تعالى!». وهذا هو الحساب بأكمله. وبديهي أنني فقدتُ عملي  
على الفور بعد ذلك الحساب.

مضى عشرون عاماً! نلتقي ونتبادل المحادلات مع بعضنا!

كم هي أفعالك عجيبة غريبة، يا إلهي!

\*\*\*

رأيُتُ اليوم بابا في الحلم. استيقظت باكية.

كنا نتنزه ذات يوم في حديقة منزلنا، في قرية فالتيروفكا، وكنت أفتُ  
نظره إلى شجيرات العنب البري، والتوت (الفراولة) وإلى شجيرات التفاح  
الفتية. كنت أريده أن يرى شجرات الكرز عندنا التي بقيت لنا من المالك  
السابق - ذلك أنه كان يوجد عدد كبير منأشجار الكرز، بحيث إنَّ الأشجار

كانت تبدو من بعيد حمراء اللون - وفجأة يختفي كل شيء، ولم يبق منها سوى أشجار قليلة يابسة وقد نقرت العصافير ثمارها. لقد أثار كدري هذا الأمر إلى درجة كبيرة، أما بابا فقد راح يواسيني ويمسح على رأسي، كما لو أني ما زلتُ صغيرة: «ما لك تبكين! لا داعي! كل شيء على ما يُرام!» وها هي أسطوانتك سوف تصدر عما قريب! سوف يسمعونك في شتى أنحاء البلاد! سوف يحبك الجميع!. ولكن رحث أنتخب بقوة أكبر: «أنا لا أريد أيّ شيء، يا بابا، يا بابا الحبيب! كم هو أمر رائع أنك لم تمت!». وفي هذه اللحظة صحوتُ من نومي.

تتنابني رغبة قوية بأن أبكي وأبكي بمرارة وياستة لمجرد التفكير بأنني لم أره قبل موته، ولأنني لم أتمكن من حضور مراسم الدفن.

عندما التقينا أنا وهو في آخر مرة، كان يعرف كلّ شيء عن وضعه الصحي، أما أنا فلم أكن أعرف شيئاً. قال لي يومذاك: «لماذا نرحل عن هذه الدنيا في اللحظة التي ندرك فيها أننا بدأنا للتو فقط نفهم شيئاً ما ونصبح على بيئنة من أمور معينة». أما أنا فلم أكن أريد سماع مثل هذا الكلام: «ما هذه السخافات التي تقولها! بل سوف تعيش حتى مئة عام!».

لديّ صورة عن الدفن. كان ممدداً في النابوت من دون نظارته ما جعله لا يشبه نفسه نهائياً. كانوا قد وضعوه على الطاولة، تلك الطاولة بالذات التي كنا نتناول عليها طعام العشاء دائمًا.

كان بابا يحتفظ ببعض العاديات والأشياء الأثرية من تلال المقابر التي كانت تجري فيها أعمال التنقيب. وكان يعرض على كنوزه تلك في بعض الأحيان ويقول: «تصوري فقط، أنه مضى ألف عام على قيام الحرف في المعلم بصناعة هذا السرج!». ويُخيل لي أنه انقضى زمن أطول بكثير على تلك اللحظة التي عرض فيها بابا عليّ ذلك الشيء.

بذلك جهدي لكي أتذكر عما تحدثنا في آخر لقاء لنا وذلك قبل أن نفترق - كانت تلك آخر كلمات يقولها لي. ولكنني لا أفلح في أن أتذكر شيئاً. رحث أفكّر بأمور أخرى. كم أتمنى أن أعرف عما دار الحديث!

يضئيني التفكير بأننا لم نتحدث أنا وهو نهائياً عما هو ضروري ومهم

في حقيقة الأمر. بل كان الحديث يدور بصورة دائمة أثناء لقاءاتنا عن أشياء سخيفة. إنه لمن الضروري أن يقوم بين الأب والطفل في يوم من الأيام حديث جديّ عمّا هو أساسى وحيوي في الحياة. وها هو بابا لم يعد معي منذ زمن طويل، ولن يكون بينما مثل ذلك الحديث أبداً.

ماما، أمي العجوز! كم أنا أحّبُك! وكم أني لا أجيد التعبير عن محبتى لك! ونحن نثر كل يوم عن مختلف السفاسف.

أمضت يوم أمس نصف نهارها تسكن في الغابة وهي تحرّب كثبان النمل بعضاً غليظة. لديها آلام مبرحة في ساقيها. وقد نصحها أحدهم بأن تنفع بيوض النمل في الكحول ومن ثم تقوم بدهن ركبتيها بذلك الخليط.

وفي الأسبوع الماضي خطر ببالها أن تخيط لنفسها ثوباً للدفن - كفناً، يجب أن تُدفن فيه. راحت تتأمل نفسها فيه أمام المرأة وكم كان لائقاً عليها. أما الاهتمام الأساس لديها مؤخراً فهو القراءة، لكنها لا تقرأ أي كتب جديدة، وإنما تقرأ ما سبق لها أن قرأته من قبل. عندما أنظر إلى ماما من الخلف، في بعض الأحيان، يبدو لي أنَّ ظهرها يبدأ فجأة بالارتفاع. تتباها نوبات بكاء مرير عاصفة عندما تذكّر شيئاً ما عزيزاً عليها، وخصوصاً عندما تسمع الموسيقى. وهذا ما حصل هذا اليوم، إذ أدمعت عينيها عندما سمعت من مكبرات الصوت مقطعاً من أوبرا لاكمي<sup>(١)</sup>: «إلى أين هي مستعجلة الابنة الفتية...».

يستطيع جهاز الرايدو لدينا من موديل سي - 234 أن يلقط موجات أجنبية، وأنا أحبُ أن أبرم إبرة المذيع وأن أسمع. جميع إذاعات العالم تبث موسيقى الجاز الأميركي. عندما لا تعود لدى طاقة للتحمل أكثر، أفتح

1- أوبرا لاكمي Lakmé تكون من ثلاثة فصول، وهي من تأليف الموسقار ليو ديليب، وقد عرضت هذه الأوبرا لأول مرة في 14 أبريل عام 1883م بباريس، وهي مقتبسة عن رواية ليبر لوتى استوحاهَا من قصة جبهة الحقيقة لإحدى فتيات جزيرة تاهيتي أثناء إقامته بها. نقل ليو ديليب أحداث القصة إلى الهند ليغير عن قصة حب بين ابنة أحد كهنة البراهمة وضابط إنكليزي أثناء الاستعمار البريطاني للهند، وقد أضاف ديليب أجواء شرقية على موسيقى أوبرا لاكمي. ومن أشهر فقرات هذه الأوبرا ثاناي الزهرة وفيها تغنى لакمي مع صيفتها مليكة في الفصل الأول. المترجم

الراديو وأسمع - وإذا بشهية كبيرة للعيش تتسرّب إلىَّ من مكان ما، وتظهر عندي رغبة بالرقص. أما ماما فلا تستطيع أن تسمع هذه الموسيقى. وهي تسمع الأوبرا التي تُبثُّ عبر مكبرات الصوت كلَّ مساء: «الفصل الثاني. غرفة نوم الكونتيسة». وعندما تبدأ نشرة الأخبار، تقوم بغلق المذيع.

ماما، هل يُعقل أن تمضي الأيام من دون أن يقوم بيتنا أيضًا مثل ذلك الحديث الهام؟

أم إن الحديث عن أشياء سخيفة - هو الأمر الأكثر أهمية بالفعل؟

\*\*\*

خرجتُ لأتمشّى بعد الغداء في شوارع القرية، فتبعتني كلبٌ لا أعرف صاحبه. جئتُ به إلى البيت وأطعنته. قلبت ماشا ساحتتها تغييرًا عن التذمر لأنني أجلب مختلف أنواع القدارات، وأنني بجمعِي الأحوال لن أتمكن من إطعام جميع الكلاب العجائعة.

وبما أنه لا طاقة لي لأن أطعم جميع الكلاب، فهذا يعني أنه يجب علىَّ أن أطعم الكلب الذي أستطيع - وهذا هو بالتحديد.

هذا يشبه الموقف من السعادة. بما أنه من المستحيل أن يكون جميع الناس سعداء - هذا يعني أنه يجب أن يكون سعيدًا مَن يكون قادرًا على ذلك في اللحظة المحددة. يجب أن يكون المرء سعيدًا اليوم، حالاً، على الرغم من كُل شيء. ثمة مَن قال إنه من غير الممكن أن يوجد نعيم من دون أن يكون هناك جهنم. كما لو أنه من المستحيل على الإنسان أن يذهب إلى الجنة، في حال كان يدرك أنه ثمة معاناة في مكان ما. هراء. يمكن للمرء أن يشعر بلذة العيش الحقيقة، إذا ما عاش تلك المعاناة وخرج منها سالماً. فما هي قيمة الشوربة التي قدمتها لهذا الكلب الأميركي، ما لم يكن جائعًا بالفعل؟ وهذا ما كان على الدوام: يقطعون رأس أحدهم، بينما يكون يعيشاثنان بين الحشد في الساحة قبيل الإعدام، لحظة الحب الأول. أحدهم يستمتع بغروب الشمس الساحر مباشرة، وآخر ينظر إلى نفس ذلك الغروب ولكن من خلف شباك زنزانة ما. وهذا ما سوف يكون دائمًا! وهذا ما يجب أن يكون! وكم قطعت رؤوس العشرات بل والملايين - ومع ذلك كانت

تنشأ في ذلك الوقت بالتحديد علاقة حب جديدة. حتى ولو كان عند ذلك المراهق. إنني أرى وجهه أمام عيني - كنا عائدين من شبه جزيرة القرم في القطار وتوقفنا عند تغيير الخط، وإذا بي أرى مقابلنا تماماً - ستوليبين<sup>(١)</sup> خلف نافذة ضيقة لزنزانة ووجهها فتى لأحد ما. وكان لدينا على المائدة طعام وزهور ومشروبات روحية.

بقينا على هذا النحو للحظات فقط. صمت جميع من كان في المقصورة. وعندما تابعنا طريقنا، لم يعد يشعر أحد بأدنى فرح.

أم إنه يجب أن يكون العكس؟ وبالتالي، يجب على المرء أن يعيش مثل تلك اللحظة بفرح وبابتهاج أكبر؟ وبحيث إن مذاق الطعام يجب أن يكون ذا مذاق حار؟ وأن يكون الغروب أكثر سحرًا؟

يشكّل العالم بأكمله كلاً واحداً، ما يشبه الأوعية المستطرقة. كلما كانت مأسى وتعاسة البعض أقوى وأكبر في مكان ما، كان يجب على الآخرين أن يكونوا سعيدين أكثر وأن يعيشوا حياتهم بسرور أكثر دفناً وحماساً. وأن يغروا بقوة أكبر. لكي يخلقوا توازناً في هذه العالم، وكيف لا يجنح وينقلب مثل القارب.

\*\*\*

أرسل لوغوفسكي جنديَّن، كما وعدنا، من أجل تقطيع الأخشاب. يُدعى كل منهما فاسيلى. أحدهما فاسيَا قصير القامة وسمين، وفاسيا الثاني طويل وممشوق القامة. استلقى بالقرب منهمما في الأرجوحة المعلقة ورحت تأتَّر جح ببطء وأنا أنظر إلى مؤخرة رأسيهما الفتبيين وإلى ظهريهما المحروقين بالشمس وإلى عضلاتهما. حمل الجذع - الوتد الذي يجري

---

1- بيتر أركاديفيتش ستوليبين - رئيس وزراء وقائد مجلس الدوما الثالث، من 1906 إلى 1911. اتسمت فترة منصبه بالجهود المبذولة لمواجهة الجماعات الثورية وتنفيذ الإصلاحات الزراعية البارزة. وقد هدفت تلك الإصلاحات إلى احتواء الثورة التي حدثت بين الفلاحين عن طريق خلق طبقة من صغار المالك في الاقتصاد الموجه. ويعتبر ستوليبين واحداً من آخر رجالات الدولة الرئيسين في الإمبراطورية الروسية الذي يملك سياسات عامة محددة وعزماً على عمل إصلاحات جذرية. تم اغتياله عام 1911 في كيف على يد ناشط ثوري يهودي. المترجم

قطع الخشب عليه، مروراً بجانبي، وفجأة شمت رائحة الخشب المقطوع  
حديثاً والعرق الرجولي.

مع العلم أنه ما من أحد يعترف أبداً أنه يمكن أن يحدث مثل ذلك، وهو  
أنَّ رائحة الخشب والعرق يمكن أن يسبباً إثارة قوية إلى تلك الدرجة. أثارتني  
إلى حد أنها استحوذت عليَّ بالكامل.

\*\*\*

تألمتُ كثيراً بسبب خيانات زوجي لي إلى أن قمت أنا نفسي بخيانته.  
الأدق، إلى أن أدركتُ أن هذه لم تكن خيانة.

الصيف الماضي. القرم. قصة عاطفية في المجتمع الصيفي.

أشجار نخيل، ثمة ضياء في كل مكان، وأداء بعيدة، وجبال عارية.  
كاهم، وجَمل. جبل القط في سيميز<sup>(1)</sup>. يزحف باتجاه البحر وقد قوَّص  
ظهره مثل الهر.

كان كل يوم في الصباح الباكر يمارس مختلف التمارين على الشاطئ،  
يسير على يديه، ويقوم بتمرين «الشقلبة»<sup>(2)</sup>، أو بتمرين «العجلة العربية» وتمرين  
الوقوف على الرأس kopfstein. كان جسده متمنناً وأشبه بجسد لاعب جمباز.  
في البداية قررت أن أثير إعجابه من منطلق العبث والإزعاج. صعدنا إلى أعلى  
الجبل. أمسكت بيده في أحد الدروب الضيقة - ليس لكي أستند إليها، بقدر  
ما ألمسه. تحذثنا بنبرة قريبة من المزاح. «أتمنى لو أني أخطفك وأأخذك إلى  
الأبد!» - «وأنا كنتُ سأتخلى عن كل شيء وسأرحل معك!».

استيقظتُ صباحاً وأدركتُ أنني مغمرة، ولا أعرف كيف يجب أن  
أتصرف إزاء ذلك. كانت قشعريرة العشق خفيفة - فكيف إذا ما جربت تيار  
البطاريه بطرف اللسان.

كنا نذهب كل يوم لكي نسبح. نجلس على الشاطئ. رحت أخبط الماء  
بقدمي وأشعر بنفسٍ شابةً، مفعمة بالطاقة وامرأة لعواً طائشة.

1- ما يعرف بجبل الهرة أو القط في بلدة سيميز وهي مدينة صغيرة في شبه جزيرة القرم أول ما تطالع الزائر إلى تلك المنطقة. بالقرب من يالطا. المترجم

2- تمرين جمباز على شكل قفزات من نوع سالتو Salto المترجم

لقد أعاد لي جسدي - ومن خلال حبه لي أحييَتْ جسدي من جديد. كما أنه قال: «يجب على المرأة أن يتحدث أثناء ممارسة الحب، أما أنت فقصصتين».

كنت أقوم بتنزع ثيابه بنفسي كل يوم. وأن أقبله هناك حيث يعقب بالرائحة. وأن أحبَّ الجسدَ بأكمله من دون أن أخشى عدم فهمي من قبله. لا أن أحب، بل أن أكون مجبولة من الحب.

بعد الإثارة الشديدة، والنشوة، حيث يصبح من الممكن لي أن أستعيد صحيوي، يبللني العرق، مع شعر متتصق بالشفتين، وقد امتلاً جسدي بالطاقة وبالنشاط، يغمرني شعور بالرقة نحوه وقد أصبح واهناً ولا حول ولا قوة له. كان يأخذ يدي ويضعها على عينيه. ألقى برأسِي على صدره، وأشعر بصداعٍ كيف أن قلبه يخفق. أو أنظر إليه وأنا مستندة إلى مرفقي على الوسادة. وكل شيء رائع وبهيج مع راحة بال وطمأنينة!

وفي الصباح يوقظني عن طريق عضه لشحمة أذني، ويهمس لي بكلمات عاطفية عاشقة، من دون أن أكتثر ما إذا كان هذا حقيقة أم كذباً. لأنه لا يمكن أن يكون ثمة كذب في الحب - بل يكون الكذب في الكلمات فحسب.

قمنا بمشوار في قارب بحري أثناء الليل. لم يسبق لي من قبل أن رأيت مثل هذا التوهج الليلي للسماء في البحر الأسود. تجذف وتتجذف، فتبعد الموجة التي يثيرها المجداف بالتوهج. منظر مذهل ومثير حقاً! ولم يكن قاربنا هو الوحيد الذي يترك خلفه أثراً نارياً، بل كل سمكة مهما كانت صغيرة، كانت تتوهج عند الحركة. ذهبنا بعيداً في عمق البحر لمسافة حوالي كيلومترتين وهناك رحنا نراقب لوحة خلابة وفاتنة: كانت الدلافين تصطاد الأسماك لتترك بعد ذلك بقعًا متواهجة. كانت بقع التوهج والضياء متاثرة على امتداد البحر الليلي.

\*\*\*

عدت إلى البيت في أحد الأيام مع قرط واحد ولم أنتبه إلى ذلك إلا بعد أن خلعتُ ثيابي، لكي أستلقي للنوم. ولكن يوسف لم يلحظ شيئاً. بل إنه لا يلاحظ أي شيء بشكل عام.

وريما يعرف كلّ شيء ولكنّه يتّزم الصمت. حبيبي يوسف، يوسف الطيب، يوسف الحكيم.

أما أنا فأكثر ما أخشاه بالتحديد هو ألا يسعفي الوقت لكي أحبّ كلّ ما يحزنه جسدي. فالجسد يذوي بسرعة رهيبة.

كنت أتمنى أن ألدّ طفلاً من كُلّ رجل أحبيته. وما زلتُ أريد. فأنالم أصبح عجوزاً بعد، وما زال يامكاني أن ألدّ. وأدرك أنَّ الوقت يشارف على الانتهاء. كنت أخشى أن ثمة عيّناً ما فيّ، وقد راجعنا العديد من الأساتذة في الطب - وكان الجميع يعربون عن إحساسهم بالعجز.

لا يريد الله أن يعطي.

لماذا لا تهبني؟ هل تنتظر ريشما أصبح عجوزاً بصورة كاملة؟ ألا يمكنك أن تفعل سوى المعجزات؟ هل تختبرني؟ هل تريد أن تبرهن شيئاً ما لأحد ما؟ هل تريدينني أن أحيا مئة سنة، وعندئذ فقط سوف تمنعني طفلاً كما منحت سارة طفلها؟

ولكنني لستُ سارة. ولا أريد أن أحيا حتى المئة عام. بل أنا حية الآن، وهنا.

\*\*\*

أطفأوا الأضواء في القرية بأكمليها بسبب العاصفة. أصبحت جميع بيوت القرية الريفية مظلمة. وها أنا أجلس على ضوء فتيلة الكيروسين.

اليوم، 28 تموز، نشرت الصحف مرسوماً يحظر القيام بأية عمليات إجهاض. وإلى جانبه مقالة حول توقيف امرأة تدعى «ماريا إيفغوروفنا مورو زوفا، 35 سنة، تعمل في مؤسسة لإنتاج الفحم في بلدة نازيفسك (في ناحية لينينغراد)، والحكم عليها بالسجن لأنها أجرت خلال السنوات الثلاث الأخيرة 17 عملية إجهاض عند مختلف العاملات في المؤسسة وفي شروط غير صحية وعن طريق رش محلول صابوني».

تعمل سونيا، الأخت غير الشقيقة ليوسف، ممرضة رعاية في مستشفى أوتو. عندما التقينا بها في لينينغراد آخر مرة، أخبرتنا عن مختلف الفظائع التي يصادفونها في عملهم. إنهم يسعفون إليهم النساء اللاتي تعرضن لعملية

إجهاض غير طبي مع أذيات مختلفة وصعبة جدًا! النساء البائسات يشوهن أنفسهن بصنارات الحياة، وبأقلام الرصاص، بريش الإوز، وبأعواد من شجر البتولا - ولدى الجميع اختلالات والتهابات جرثومية، ووفيات بسبب تجرائم الدم. يذهبن إلى المستشفيات من أجل إجراء عملية إجهاض، لكنهن يرفضون هناك القيام بذلك لهن، ثم تأتي إليهن في المنزل ممرضة ولكنهن لا يسمعن لها بالدخول إلى البيت. تقول للمرأة: «ولتكن حامل» - «لم يتم الاحتفاظ بالحمل». ويقدّمن تفسيرًا مألوفًا: حملت ثقلاً كبيراً، أو زلت قدمها، شعرت بالألم في بطنها وغير ذلك.

\*\*\*

جولة فنية في مدينة كيف.

لاحظت أنه ثمة تغيرات نحو الأفضل وأنا في القطار إلى هناك. كان القطار سريعاً، ووصلنا من دون تأخير. عربات دولية، من الدرجة الممتازة، مريحة ونظيفة.

نزلنا في فندق «كونتينتال». الأثاث فيه يعود إلى فترة ما قبل الثورة، فاخر وأنيق ومن الطراز القديم. المفاتيح معلقة بجوزة خشبية ثقيلة - بحيث لا يمكنك أن تخبيها في أي مكان. وهذا كي لا يحمل الزبون المفاتيح معه عندما يخرج من الفندق. وفي «كونتينتال» يحضررون أصابع صغيرة من الحلوي مشهورة في عموم كيف (ما يشبه زنود الست). يقومون بتحضيرها عند الساعة 12 صباحًا - كم هي لذيدة يمكن التهام الإصبع منها دفعة واحدة!

هربت من جماعتي وذهبت إلى مجمع الأديرة «اللافرا».

ثم ذهبت إلى ضفة نهر الدنيير - يا للجمال الرائع! لا بد أن سكان كيف كانوا ينظرون من هنا، من فوق هذه التلة، إلى الأصنام وهي تسحب في النهر، ليقيموا بطريقة جنونية صلاة الإله بيرون<sup>(١)</sup>: «كن يقطا!».

---

- ١ - بيرون في الأساطير السلافية هو أعلى الآلهة مرتبة، وهو إله السماء والرعد والبرق والعواصف والمطر والنار وال الحرب والقانون والنظام والخصوصية والجبال وشجر البلوط. كان اسمه مقتربنا في البداية بالأسلحة المصنوعة من الحجارة؛ ثم اقترب لاحقاً بالأسلحة المصنوعة من المعادن. المترجم

كم كانوا يتمنون أن يكشف إليهم عن كامل جبروته وبطشه للكفار! ولكن الآلهة لم تكن تخرج من الماء، ولم تخرج إلى الشاطئ، لم تعاقب أحداً، بل أكملت مسيرة في النهر، مثل جذع شجرة مشدّب، وهي تخضع لمشيئة الأمواج.

تبادلُ أطراف الحديث مع امرأة هناك. قالت لي إنه يجب عليَّ أن أذهب من كُلَّ بد لأصلي في كاتدرائية القدس صوفي<sup>(١)</sup> في كيف لا يقونة المبجل نيكولا الرطب (شفيع المعرضين لعاصفة بحرية أو نهرية). وقد أخبرتني أن التسمية نشأت بسبب معجزة. كان ثمة زوج وزوجة يعيشان في كيف وكان لديهما ابن وحيد، الرضيع نيكولا. وبينما كان الثلاثة يجتازون نهر الدنديبر في قارب، سقط الطفل من بين يدي أمّه وغرق. راح الوالدان في نوبة يأس يتهمان ويلومان القديس نيكولا ي لأنَّه لم يساعدهما في حماية الطفل، ثم عادا إلى رشدهما وراحَا يطلبان منه أن يغفر لهما وأن يواسيهما في مصابهما. وفي الصباح، وقبل بدء الصلاة في كاتدرائية القدس صوفيا، عندما دخل القندلفت إلى الكنيسة، سمع بكاء طفل. صعد برفقة الحراس إلى الرواق وهناك شاهدا خلف الباب الموصد بإحكام وقد اضطرا لفتحه، ذلك الطفل الرضيع ممدداً أمام أيقونة القديس نيكولا المبجل - كان مبللاً تماماً، كما لو أنه أخرج من الماء للتو.

\*\*\*

عدْ لتو من دار الأطفال اليتامي في المدينة. تحدثت مع المدير، الدكتور غوروديتسكي. قلتُ له إنني أريد أن آخذ طفلاً من أجل التبني، وطلبت منه المساعدة.

تحدثنا أنا وهو مطولاً، ثم دعاني لزيارة الغرف وعرض عليَّ جميع الأطفال الموجودين. أخبرني أنه في فترة الجوع، وتحديداً في عام 1933،

---

1 - كاتدرائية القدس صوفي هي كاتدرائية مدينة كييف يعود تاريخ بنائها إلى حكم كييف روس، اليوم هي واحدة من أهم المعالم في أوكرانيا ودرجة ضمن موقع التراث العالمي مع دير كهف كييف، اسم الكاتدرائية أتى من آيا صوفيا التي كانت في القسطنطينية وقد بُنيت في سنة 989 ميلادية. المترجم

كان ثمة عدد كبير من الأطفال اللقطاء. لدرجة أنَّ الشرطة كانت تجمعهم بالذينيات في الشارع الرئيس لمدينة كيف كريشاتكا. ثم راحوا يفتتحون ملاجئ لهم. وقد استلم غوروديتسكي 500 طفل. توفي آنذاك عدد كبير منهم بسبب الإنهاك من الجوع والأمراض. وها أنا أنظر الآن إلى الأطفال - جميعهم أصحاب البنية، نظيفون، الفتيات في فساتين متشابهة موحدة، والجميع حليقو الشعر بالكامل، بحيث إنك لا تستطيع التمييز بينهن. سأله: «ممَّ يعاني؟» - فأجاب «من التراخوما»<sup>(1)</sup>. أكملنا زيارتنا. تبين أنهم لا يخبرونهم بأن هذا هو ملجاً للأطفال اللقطاء - بل إنهم متاكدون من أنهم يعيشون في مصح (ساناتوري): «سوف تأتي ماما وستأخذني إلى البيت». قال لي غوروديتسكي إنَّ كثيرين يقصدونه ويقومون بتبنّي أطفال. وقد بلغ عدد الأطفال الذين تم تبنيهم خلال نصف السنة الأخير 30 طفلاً. كما أنَّ الأطفال أيضاً يقومون باختيار والديهم. راح غوروديتسكي يضحك وهو يقول إنَّ الأطفال إذا ما عرّفوا أنَّ الذي سوف يتبنّيهم ليسوا من الأثرياء فإنهم يعلّون: «لن نذهب: لأنَّه لم يأتِ راكباً سيارة». بينما كنا نتحدث في فناء الملجأ، تجمّع الأطفال من حولنا. وقفوا وراحوا ينظرون إلىي. وكان في أعين الجميع سؤال واحد: من أنا؟ وفجأة ماما؟

غالينا بتروفنا!

لا تسمع. ثمة ضجيج مستمر في ساحة مانيانيللي<sup>(2)</sup> يطغى على الصوت. يقترب المترجم كثيراً من المرأة، ولكنها لا تلحظ وجوده. جالت بنظرها ثم أرجعت رأسها إلى الوراء، إلى تمثال السيدة العذراء الذي تم وضعه إلى عمود تم انتزاعه من تحت تمثال لأحد الأباطرة.

كانت غالبيتها ما زالت على حالها كما هي: في بدلة بنفسجية اللون، وفي قبعة بيضاء من الفرو، في جزمة شتوية مع سحاب مفتوح. وفي نفس ذلك

1- أو الرَّمَدُ الْجُبْنِيُّ مرض معد تسببه المتدرّبة الخنزيرية ويمكن أن يؤدي الاختناك الدائم للرموش بالقرنية بعد مرور الوقت إلى العمى. المترجم

2- ساحة في روما بإيطاليا فيها عمود أو تمثال للحمل غير الشرعي... معلم سياحي وتاريخي. المترجم

الخلف من المتحف. وكانت ما تزال تلك الورقة ملتصقة إلى ظهرها بواسطة اللاصق الإسكتلندي. نفس تلك الروقة.

صاحبها المترجم من جديد:

غالبينا بتروفا!

ارتجمت واستدارت.

يا إلهي، إرحمني، لقد أخفتني كثيراً!

راح تحتسى القبعة على رأسها.

ها أنا أقف هنا وأفكّر: عجبًا، لقد أقاموا هنا تمثالاً على شرف العمل الدنس! ليس في عقولهم سوى أمر واحد!

سحبت من كمّها منديلاً أنيقاً مجعداً، تمحّضت فيه، ثم دسته من جديد في الكمم.

بينما تصل إلى البيت من محطة مترو فيخينا، يقوم الجميع بالاعطس عليك!

ثمة رنين يغمر الشارع - رنين حاد يعود إلى طير. لقد التقط أحدهم في الجو جورباً للطيور وراح يلبسه في ساقه.

ألقت امرأة عجوز متمكّحة، وهي خارجة من باب Tabacchi (متجر بيع التبغ) إلى الشارع، نظرة إلى الأعلى وفتحت مظلتها من باب الاحتياط. كما أنَّ المارة الآخرين كانوا يحملون مظلات بسبب الطيور.

هيا، بنا نذهب! - قالت غالبيترا وقد راحت تسوي قبعة الفرو من جديد. إلى أين؟

إلى أي مكان آخر. ما لنا نقف هنا قرب هذا العمود؟ فقط انظر بانتباه إلى ما حولك! الجميع يهرونون هنا مثل المجانين!

مررت غالبيترا سريعاً من الدراجات النارية الصغيرة (السكوتر)، ومن ثم اجتازت الشارع، على مهل، وهي تتهادى، وتجرجر قدميها على رصيف الحجارة الرومانى. كانت رقبتا فردتي الجزء تفرقعان مع بعضهما عند كل خطوة.

لحق بها المترجم وانطلقا معاً. كانت غالبيترا تتوقف أمام كل وجهة

محلّ لبيع الهدايا التذكارية والبطاقات التي تحمل صوراً تذكارية، أو قمصاناً قطنية عليها أسماء لاعبين مشاهير. ثم تشقُّ طريقها نحو الصوانى التي فيها أغراض. كما أنها كانت تتأمل واجهات الأكشاك التي عليها صور السيدة العذراء على شكل الدمية باربي وصور باربي على شكل آنسات وصبايا مشهورات. تهزّ رأسها وهي تقرأ الأسعار.

تجاوزوها مجموعة سياحية من اليابان. ومن جديد يابانيون. وفي كلّ مكان كان السياح يحملون مظلات فوق رؤوسهم وعصيّاً خاصة للسياح مع رايات مختلفة الألوان: بمعنى، اخذروا أن تضيعوا وسط الزحام، واتبعوني، فأنا سوف أجعلكم تشاهدون في هذه المدينة الصاخبة والخالية من أي مغزى، ما هو أكثر جوهريةً وحيوية وما هو خالد وأبدى، وهو ما دفعكم للقدوم إلى هنا، إذ إنكم لم تكونوا موجودين ولن تكونوا فيما بعد، وأما الآن فأنتم هنا!

داس أحدهم على خف غالبيترا، فراحت تتدمر:  
هل أنت أعمى، يا ثُرى؟ يجب أن تتبه!

ينظر المازون إلى خفها المتحفي، وإلى الورقة مع رسم من التواليت ملصقة عل ظهرها، ولكن الناس هنا شاهدوا ورأوا كل شيء ولا يمكنك إدهاشهم بأي شيء جديد.

وماذا هناك؟ دعنا نذهب إلى هناك! يا إلهي، يا ماموتتشكا (ماما للتدعيم)، وهكذا ستحت لي الفرصة لأن أزور روما! لم يكن يتوقع أحد مثل ذلك في أي يوم من الأيام!

انعطفنا إلى via del Tritone<sup>(1)</sup>. كانت ثمة مجموعة من تلاميذ المدارس تسير باتجاهنا وكل واحد منهم يحمل شطيرة بيج ماك (هامبرغر). رمى أحدهم الورقة التي كانت الشطيرة ملفوفة بها على الرصيف. أمام غالبيترا مباشرة.

-1- شارع تريتون في روما - أحد أشهر الشوارع التاريخية والسياحية. يبدأ عند تمثال تريتون... المترجم

ما هذا التصرف الغبي !

أمسكت الصبي من ياقته وأجبرته على التقاط ورقة اللف. صُدِمَ الصبي والتققط الورقة ثم ركض مبتعداً وهو يقبض على الورقة وينظر إلى الخلف باستمرار. لم يعتقد أن يمسكه أحد من ياقته بهذه الطريقة.

كانت غالبيتها وهي تتأمل مناظرها في مرايا الواجهات تقوم طول الوقت بتسوية هندامها والقبعة على رأسها، وتحاول أن تلقي نظرة على ظهرها.

توقفت أمام واجهة يوجد خلفها تماثيل جصية وراحت تفرك صدغيها. كنت أريد أن أقول لك شيئاً ما قبل لحظة، ولكنني لم أعد أستطيع أن أتذكر ما هو! تحدثت لدلي في الآونة الأخيرة إخفاقات في الذاكرة. كل واحد منا يحمل طوال حياته أشياء تافهة في رأسه، وأما ما هو ضروري - فلا يمكنك أن تتذكره! انظر، إنه تمثال لاووكون (كافانا الإله أبولو في مدينة توري)! لقد حلمت طوال حياتي بأن أرى تمثلاً حقيقياً للاووكون. وهل تعرف أنهم عثروا عليه من دون ذراع، وأنهم صنعوا له ذراعاً جديدة، أما مايكيل أنجلو فقال بعد أن رأى الذراع أنه يجب أن تمسك اليدي بالأفعى من الخلف، من رقبتها، وليس من الأعلى، أو بالعكس، ليس من الخلف وإنما من الأعلى، ولكني لم أعد أتذكر. ومن ثم بعد مرور مئة عام اكتشفوا تلك الذراع الحقيقية - وتبين أن الأمر كان كما قال مايكيل أنجلو. هيا بنا نذهب، كفانا ثرثرة فارغة<sup>(١)</sup>!

توقفا قرب تقاطع الطرق.

انظر، انظر! القصيب هنا أحمر اللون أيضاً!

ومن جديد تتناول المنديل الأنفي وتمسح أنفها المتورم. ثمة بثور على الشفة العليا - يجب أن تكون قد انتزعت الأشعار عنها بواسطة ملقط. قل لي، وهل سبق أن رأيت لاووكون الأصلي؟ في متحف الفاتكيان؟ نعم، رأيت.

1- وردت في النص الأصلي جملة ترجمتها حرفيًا هي: كفانا إحصاء عدد الغربان.. وتفيد بأن الحديث لا معنى له. فاقتضى التدوير. المترجم

وماذا؟

لا شيء.

كيف لا شيء؟ ماذا تقول؟ هل هذا وارد؟ إذ إنه لا ووكون! وحصان طروادة! وأثينا الهائجة والحانقة جداً! الإغريق القدامى! وكيف استطاع النحات القديم أن يصور أمارات الألم على وجه الوالد، الذي قاموا بإعدام ابنه أمام عينيه مباشرة! هذا هو الجمال الخالد بحد ذاته! هذا هو السحر الأكثر روعة الذي تم تجسيده في الحجر! ويُدْهُ، هيَا أخبرني، إلى أين تمتد يده - نحو الأعلى أم إلى الخلف، إلى وراء رأسه؟  
لم أعد أذكر.

ولكن كيف يمكنك ذلك؟ لماذا جئت، إذن، إلى روما؟

وصلـا إلى piazza Colonna<sup>(1)</sup>. تزكم الأنف هناك رائحة الجلد بسبب الحقائب الموضوعة على الرصيف. وحدها غالبيـتـرا تنـحنـي لـتجـسـسـ واحدـةـ منـ الحقـائبـ،ـ وإـذـ بالـزنـجـيـ -ـ البـائـعـ وـقـدـ حـمـلـ دـزـيـنـةـ منـ الحقـائبـ الصـغـيرـةـ فيـ كـلـ يـدـ مـنـ يـدـيهـ،ـ رـاحـ يـفـرـ هـارـبـاـ.ـ لـاـ بـدـ أـنـهـ نـقـلـواـهـ أـنـ دـورـيـةـ منـ الشـرـطةـ فيـ طـرـيقـهاـ إـلـىـ المـكـانـ.ـ تـحـولـتـ الحقـائبـ فـيـ يـدـيهـ المـمـدوـدـتـينـ جـانـبـاـ إـلـىـ ماـ يـشـبـهـ الـأـجـنـحةـ.

لقد تعبتُ. وقدماـيـ تـؤـلـمـانـيـ.ـ لـعـنـاـ نـرـاتـاحـ هـنـاـ لـبـعـضـ الـوقـتـ؟

جلسـاـ عـلـىـ درـابـزـينـ السـيـاجـ الـحـدـيدـيـ منـ حـوـلـ عمـودـ مـارـكـوسـ أـورـيلـيوـسـ.ـ كـانـ السـيـاحـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ التـقـوشـ عـلـىـ العـمـودـ بـوـاسـطـةـ مـنـاظـيرـ تـكـبـرـ الرـؤـيـةـ (ـبـيـنـوكـلـ).ـ كـانـ التـقـوشـ توـضـحـ كـيـفـ أـنـ الرـوـمـانـ اـنـتـصـرـوـاـ عـلـىـ السـارـمـاتـيـنـ<sup>(2)</sup>ـ،ـ وـفـيـ الأـعـلـىـ صـورـةـ لـبـولـسـ وـهـوـ يـحـمـلـ سـيـفـاـ.ـ انـحـنـتـ غالـبـيـتـراـ،ـ وـهـيـ تـتـأـوـهـ،ـ وـتـقـومـ بـفـكـ الأـشـرـطـةـ عـلـىـ خـفـقـهـاـ.ـ كـانـ المـكـانـ مـزـدـحـماـ بـالـحـمـائـمـ.ـ هـذـهـ حـمـامـةـ تـخـبـطـ بـجـنـاحـيـهاـ فـوـقـ رـأـسـ غالـبـيـتـراـ،ـ رـافـعـةـ لـلـمحـظـةـ

- 
- 1 ساحة كولونا في وسط روما وتحمل اسم ساحة الأعمدة بسبب وجود مسلة الإمبراطور ماركوس أوريليوس أنطونينوس أو غسطس فيها. المترجم
  - 2 مجموعة من القبائل الإيرانية من العصور الكلاسيكية القديمة ازدهرت في الفترة بين القرنين الخامس قبل الميلاد والرابع الميلادي المترجم

الورقة الملتصقة إلى ظهرها بواسطة لاصق إسكتلندي. أما غالبيتها فتلوي  
بيدها طاردة الحمام:

هذا ما ينقصنا، أن يطير الحمام فوق رؤوسنا!

تخلع الجزء مع بقع الملح الناتج عن التعرق. ثم تقوم بتمرين أصابع  
قدميها.

ما بك تجلس في روما ولا تذهب إلى أي مكان؟

بل إنني أذهب. ففي يوم أمس، مثلاً، ذهبت إلى طريق أبيان القديم<sup>(١)</sup>.  
وماذا هناك؟

طريق من حجارة. حجارة قديمة جداً. ثمة أخداد في الحجارة من جراء  
مرور العجلات. وقد تم صلب العبيد المتمردين (أتباع سبارتاکوس) على  
طول ذلك الطريق. كنت أسير وأتذكر كيف أتني في طفولتي شاهدت في دار  
الثقافة في حي بريستا فيلم «سبارتاكوس» وكيف أتنا رحنا بعد ذلك نلعب  
فتقوم بتمثيل دور العبيد المصارعين (غلادياتور)، أما الترسos فكانت عبارة  
عن أغطية سطول معدنية. في تلك الفترة كانوا يضعون على أسطح المنازل  
سطولاً معدنية من أجل القمامات. كنا نسرق أغطية تلك السطول، ولذلك  
كانت العاملة في فناء المبنى تشتمنا وتوبخنا.

ومن جديد تزحف تلك العجوز نفسها من حي محطة مترو  
إلكتروزافودسكايا. «من فضلك، أيها السيد!» وكانت يدها ترتجف.  
وأصابعها سوداء.

حتى إنه ما من شيء لأعطيها إياه - تنهدت غالبيتها قائلة وهي تقرب  
الجزء إليها أكثر، تحسباً لأي احتمال - وهل هذا كل شيء؟ لم يحدث  
هناك على ذلك الطريق، كيف يُدعى، ما هو أكثر من صلب أولئك العبيد؟

---

1- طريق أبيان (Via Appia) - من أوائل الطرق الرومانية المهمة والاستراتيجية في  
الجمهورية الرومانية، وما زال صالح للاستعمال حتى اليوم. سُمي باسم أبيس كلوديوس  
سايكس، إداري روماني بدأ تشييده في 312 ق.م. وامتد على طول 212 كم متوجه نحو  
الجنوب في جزيرة إيطاليا، ثم زيد في طوله ليصل 377 كم وهو ما زال حتى اليوم، للعلم  
أنه يمتد على حدود قبور مشاهير الرومان. المترجم

وهناك أيضاً كنيسة، تدعى Domine quo vadis<sup>(1)</sup>. ثمة رواية للكاتب سينكيفيتش<sup>(2)</sup> بعنوان «كوفاديس».

أعرف ذلك. وماذا بعد؟

دخلت إلى هناك. لم يكن أحد في الداخل. وحده تمثال نصفي لسينكيفيتش. كان بودي أن أكمل طريقي، وإذا بي أرى في أرضية الممر بلاطة بيضاء اللون تحت شبك. اقتربت أكثر. كانت عليها آثار، بصمات لقدمين حافيتين. في ذلك المكان ظهر يسوع لبطرس، وقد بقيت آثار قدميه هناك على البلاطة. انحنىت لكي أعاين بدقة أكبر. القدمان كبيرتان أكبر من قدمي أنا. ومسطحتان تماماً. كان تستطع القدمين واضحاً جدًا للعيان. وقد ظهرت عندي رغبة قوية بأن أمسهما. وكنت سأمد يدي، ولكني شعرت بالسوء فجأة.

وممَّ كان ذلك؟

في حال أن ذلك كله كان مجرد خدعة ما، وأنَّ العمل برمته يعود لمعلم في نحت الصخر (ماسون) - كأن يكون قد وضع قدمه الخاصة، ثم أحاطها بخط ما وبعد ذلك راح ينحتها - فأي معنى لأنَّ المسها؟ وفي حال أنهما قدمان بالفعل - قدماً يسوع؟ ذاك الذي كانت آخر كلماته: «إلهي! إلهي! لماذا تركتني؟!». في هذه اللحظة سمعتُ وقع خطوات - خرج من باب جانبي غير مرئي كاهن في غفاره سوداء، كان مسرعاً وهو يمضغ شيئاً ما. رأني مع يدي الممدودة. ارتبتكتُ وأرجعت يدي بسرعة، أمّا هو فابتسم وهزَ برأسه - بمعنى، لا بأس، لا بأس، يمكنك أن تلمسها! وأضاف بأن هذه النسخة تقليد وليس نسخة حقيقة.

- 
- 1 كنيسة القديسة ماري في بالميis (بالإيطالية: كنيسة القديسة ماريا ديلي بيانتي). والمعروفة باسم كنيسة القديسة كودين فاديس، وهي كنيسة صغيرة جنوب شرق روما، في الموقع حيث التقى القديس بطرس يسوع، وفقاً للأسطورة، بينما كان الأول يفر من الاضطهاد في روما. سأله بطرس يسوع: «يا رب، إلى أين أنت ذاهب؟ باللاتينية - Domine quo vadis? أجاب يسوع: «أنا ذاهب إلى روما لأصلب مرة أخرى». المترجم
  - 2 هنريك سينكيفيتش 1846-1916 كاتب بولوني حاز على جائزة نوبل للآداب عام 1905. اشتهر بروايته «كوفاديس». المترجم

هذا ما كنتُ أتوقعه! - قالت غالبيترا متنهدة - ولكن أين هو الحجر الأصلي؟

هذا ما سأله عنده. تبين أن الكنيسة لطالما تعرضت للسرقة وللنهب، وقد قاموا بنقل الحجر الأصلي إلى كنيسة أخرى، إلى كنيسة القديس سان سيباستيان، وهي غير بعيدة من هناك، إلى الأمام بعض الشيء على طريق أبيان نفسه. ذهبت إلى هناك. لم تكن تلك كنيسة، وإنما كاتدرائية كبيرة. رحت أتسكع في أرجائها - من دون أن أنجح في معرفة المكان الذي وضع ذلك الحجر فيه. كان ثمة شخص عملاق معلق تحت السقف وله شعر ذهبي اللون. كان يتذلّى من السقف وينظر من خلال النافذة - ماذا يجري هناك؟ وأما خلف النافذة فقد كانت السماء متلبدة بغيوم قديمة وبلا حدود واضحة، كما لو أنها حجارة من الطريق إلى أبيان. سألت أحد الآباء عن الآثار. أوّلها باتجاه مذبح جانبي، إلى يمين المدخل. هناك شبّك مع زجاج. كان المكان مظلماً، ولا يمكن رؤية شيء بصورة واضحة - لأن الزجاج كان يعكس ما تحته. بحثت عن المكان الذي يتم رمي قطعة النقود فيه - لكي تشتعل الضوء هناك في الكنيسة لمدة دقيقة، يجب أن تدفع نقوداً - ولكنني لم أتعثر على المكان.

وهل هذا كل شيء؟  
هذا كل شيء.

وهكذا لم تتمكن من رؤية الحجر؟  
لم أره.

جلس إلى جانب المترجم متكتتاً على الدرابزين رجل عجوز يحمل حقيبة ظهر - ويرتدى سروالاً صيفياً وكنزة قطنية صيفية، ويضع على رأسه قبعة بنمية (من كلمة بينما - المترجم) ويلبس في قدميه حذاء رياضياً ضخماً. راح يبتسم وهو يمدد للمترجم منظاراً، بمعنى، هل تريد أن تنظر من خلاله؟ وجّه المترجم المنظار نحو العمود. وجعل درجة التقرّيب كبيرة جداً. وإذا به يرى أمامه رأساً مقطوعاً الشخص ما. لا بد أنه رأس أحد السارماتيين. ومن ثم شاهد شخصاً يعتلي حصاناً وله لحية شعثاء - لعله الإمبراطور - الفيلسوف،

الذى قال إن أكثر ما يتمناه ويريده في هذه الدنيا هو أن يقوم ببعث الأموات، وليس الحكم بالموت على الأحياء. وإلى الأعلى - هناك بولس يحمل سيفاً. سيفاً طويلاً. بحيث إنَّ السيف كان يبدو ملائماً لقطع رؤوس السارقين. مدّ المترجم المنظار لغالبيتاً. نظرت من خلال المنظار إلى العمود لبرهة قصيرة، ثم راحت تراقب حركة الشارع ونواخذ البيوت والمارة، والحمام.

هيا، انظرْ، إنهم من موسكو بكل تأكيد!

كان الحمام يغطِّ بين الأرجل تماماً.

غالينا بتروفنا!

ماذا؟

لطالما أردتُ أن أقول لك شيئاً ما.

ماذا؟

إنه بشكل ما محض غباء، ولكن...

مالك تطيل التفكير، هيا قل!

أنت تعرفي أنني طوال هذه السنوات...

هل تقصد الورقة على ظهرى؟

نعم. الأدق، عن أمر آخر مختلف تماماً. كان بودي أن أسألك عن الأمر التالي: لماذا نحن كنا نكرهك، أما أنت فكنت تحببنا؟

أراد العجوز في الشورت أن يكمل طريقه وأن يذهب أبعد، فراح يضرب براحتي يديه على ركبتيه المبللتين بطريقة لافتة - ما جعل الحمام يفرُّ مبتعداً بخوف. أعادت غالبيتاً المنظار إليه، لكن حزام المنظار علق بالزرّ على كممها.

أنت أيضاً كتم تحبوني، ولكنكم لم تكونوا تعرفون ذلك. عجبًا، هل زار كورتشاك<sup>(1)</sup> روما يوماً ما؟

1- يانوش كورتشاك 1878-1942، طبيب أطفال ويداغوجي بولندي من أصل يهودي، يعد أحد أبرز وأقدم الشخصيات المؤثرة في مجال التربية، والمدافعة عن حقوق الطفل خلال القرن العشرين. المترجم

هزَّ المترجم كتفيه:  
لا أعرف.

بدأ عدد من المتظاهرين يجتمعون في الساحة باعتين الخوف لدى الحمام والسياح على حد سواء، ثم قاموا بنشر عدد من الرأيات واللافتات. بعد ذلك قام أحد المتظاهرين بالتأكد من عمل الميكروفون، ليبدأ بالغناء فيه بصوت يملأ ساحة الأعمدة:

!amore, amore, amore

بدأت غالبيتها بارتداء جزمتها من جديد، ثم قامت بربط الأشرطة على الخفَّ المتحفي.

هكذا، سوف أشعر بالقهر لأنني لم أعرف إلى أين كان لا ووكون يمْدُّ يده...

ولكن هذا ليس لا ووكون، يا غالينا بتروفنا.

كيف هذا، إنه ليس لا ووكون؟ ومن يكون، إذن؟  
إنه كورتشاك.

ما هذا الذي تقوله؟

إنه يانوش كورتشاك وذانك الطفلان اللذان أمسك بأيديهما عندما ذهبنا إلى غرفة الإعدام بالغاز. لقد ماتا اختناقًا. وهذا شيء بشع جدًا. وما علاقة تمارين العضلات وكمال الأجسام هنا؟ وما أهمية أن نعرف إلى أية جهة كانت تتمدد يدُ كورتشاك؟

إنك تخلط الأمور بعضها! بل لقد خلطت كل شيء في هذه الدنيا!  
إنك شخص متختبط ومتلهوٌ. لقد اقتحم المتختبط غرفة الضيوف والتهم الزلالية. لا ووكون - شيء، وكورتشاك - شيء آخر مختلف تماماً. لا يمكن للإمبراطور أن يكون فيلسوفاً، ولا يمكن للفيلسوف أن يكون إمبراطوراً. الضباط من سيفاستوبول - شيء، وملائكة بيرنيني - شيء آخر تماماً. الإغريق القدامى - شيء، والشيشانيون - شيء آخر مختلف. الخفَّ الليادي المخصص للمتاحف من أوستانكينو المضادة للغرق - شيء، وذلك الطفل الذي يحيى في - شيء آخر. يجب أن تفهم، أنَّ ذلك الطفل من روسيا البيضاء،

هو الذي راح يتتحب في سماعة الهاتف - أمر مستقل، كما أن الجورب المخصص للحمام الذي تحول، انظر، إلى أنف - شيء آخر أيضاً مستقل. إنَّ رجل بطرس شيء قائم بذاته، في حين أنَّ صور المجدومين (المصابين بالجذام) - أمر آخر أيضاً قائم بحد ذاته. هل تذكر كيف أنهم كانوا يجمعون النقود في ساحة الفاتيكان، قرب المسألة أمام الكاتدرائية، من أجل المرضى المصابين بالجذام - كانت صور تملأ الساحة وعليها أطفال وكبار من دون أصحاب على الأيدي والأقدام؟ وقد استدارت لكي ترى ذلك.

نعم، كنا واقفين في الطابور للدخول إلى كاتدرائية القديس بطرس. كانت هبات الريح تحمل رذاذ الماء من النافورة. راح الجميع يبحث عن نافذة البابا - تلك هي، الثانية في الطابق العلوي. كانت تتقدمنا مجموعة من تلامذة المدارس من بولندا وهم يرتدون لباس الكشافة (Boyscout)، ومع ربطة عنق أشبه بربطات العنق عند الطلائع - بلون أبيض مع أحمر. وفي الخلف كانت تقف مجموعة من الفتيات الزنجيات في لباس راهبات تابعات لأخوية محددة - بلون أبيض مع أزرق. كنت أريد أن أرى الحراس السويسريين<sup>(1)</sup> مع المطارد<sup>(2)</sup>، إلا أنَّ المسؤولين عن الأمن في نظاراتهم السوداء وبدلاتهم السوداء أيضاً، راحوا يفتشون الجميع عند الحاجز المعدني. أوقفوها ولم يسمحوا لها بالدخول بسبب كتفيها العاريتين والمحروقتين بالشمس. كانت ثمة سلة بلاستيكية كبيرة جداً ممتلئة بمناديل سوداء. التقطت منها منديلًا ولقت كتفيها به. راحت تضحك وتتظاهر بأنها عجوز مع يدين مرتجمتين. سمحوا لنا بالدخول. في البداية رحنا نمشي في داخل الكاتدرائية مع بعضنا ومن ثم قالت لي إنها تريد أن تشعل شمعة - فتركتها بمفردها. وقفْتُ في

---

-1 الحراس السويسريون هم جيش دولة الفاتيكان أسس هذا الجيش البابا يوليوبس الثاني عام 1506 حيث كان بالأصل عبارة عن مجموعة من الجنود السويسريين المرتزقة يخدمون في القصور الملكية في أوروبا ويبلغ تعداد الحراس قرابة مئة رجل ويعتبرون الحرس الشخصي الخاص لبابا الفاتيكان، ويجب أن يكونوا جميعاً من الذكور الكاثوليك السويسريين، وكان البابا بولس السادس قد أمر بحل فرقتين من الحراس من الخدمة وهما فرقة حرس البلاط الشرفي وفرقة جرس النبلاء. المترجم

-2 سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس. المترجم

طابور الحجاج الذين كانوا يقصدون تمثال القديس بطرس، إذ كانوا يريدون أن يلمسوا رجله وهم يضمرون رغبة ما منشودة. هذه المرة كانت مجموعة الفتيات الزنجبيليات ذوات اللونين الأبيض والأزرق في المقدمة، في حين أن الكشافة البولنديين كانوا في الخلف. وفجأة ورحت أقرأ في الدليل ما يفيد بأن هذا التمثال لا يعود في حقيقة الأمر للقديس بطرس، وإنما هو تمثال إغريقي قديم لإله الرعد والبرق جوبير. وقد قاموا في مرحلة معينة بتصميم رأس جديد للتمثال، ولكنهم دسوا له في يده مفتاحاً بدلاً من حزمة بروق. راح الطابور يتقدم ببطء - لأن إحدى الفتاتيات الزنجبيليات ظلت ممسكة بِرِجل جوبير لزمن أطول من غيرها. كانت تقف خلفي امرأة تلبس الأسود ومعها ابنتها ذو العشر سنوات. أغمض الصبي عينيه وراحت عضلات وجهه تتension باستمرار. وأخيراً وصلت إلى التمثال - وها هي ذي الرجل المنشودة أمامي من دون أصابع، كما لو أنها تأكلت بمرض الجذام. لمستها وشعرت ببرودة معدن البرونز والعرق اللاصق لمئات الأشخاص الذين سبق لهم أن لمسوها. سحبَت يدي بشكل لا إرادي. وقد تذكرت فوراً أنني لم أضمر رغبة ما، ولكن الأم خلفي كانت قد وضعت راحة يد ابنتها الكفيف على الجدعة من دون أصابع بسبب الجذام. فأكملت طريقي ورحت أتسكع في أنحاء الكاتدرائية. كانت ما تزال واقفة هناك في نفس المكان وهي تحمل شمعة في يدها. لديهم هنا شموع غريبة مثيرة للضحك وغير حقيقية، من ذلك النوع الذي يضعونه على الطاولات في المطاعم، ضمن علب زجاجية حمراء. وقد بدت لي، وهي تحمل بيدها ذلك الأصيص الأحمر المضيء وفي منديل أسود لا يعود لها، أنها أصبحت عجوزاً ومحدودة مع شعر أشعث. اقتربت منها لكي أحضرنها، ومن جديد أحسست برائحة عرق غريب على أصابعي - فقررت أن أذهب وأن أغسل يدي في مكان ما.

يبدو أنك لم تفهم شيئاً حتى الآن. أنت جميعاً فطئون جداً، ذوو بصيرة ونوابغ، تقومون بتعقيد كل أمر أو مسألة! إنهم يخترعون روما، ومن ثم يصابون بالدهشة لأن روما غير موجودة،وها هي عظام أكل عليها الدهر وشرب، مرمية في ميدان الفوروم وقد اكتست بالنباتات وبالطحالب وما

شابه. يبتكرون نهر التibir<sup>(1)</sup>) ومن ثم يتوقعون الله وحده يعلم ماذا، في حين أنه في واقع الأمر ليس سوى نهر عكر لا أكثر. ومع ذلك يجب عليك أن تحب وأن تُعجب بعالم التibir هذا! الأمر في منتهی البساطة. كان يجب أن تتحول إلى تريستان بالنسبة إليها. كان يجب عليك أن تصبح تريستان وأن تعيد إليها ذلك اليوم في بلدة إيتيساليني. كنت تستلقي تحت الشجرة مع كتاب يدك على فراش منفوخ، وكان ثمة يرقات سوداء اللون تتدلى من الأغصان على خيوط غير مرئية - يرقات حاذقة وسريعة. وكانت تهجم على كل ما يتنفس: على الأوراق وعلى الظلال، وعلى الحجارة. بحيث إنها كانت أشبه بالتار<sup>(2)</sup> وليس باليرقات. وهذا شيء بسيط بالمقارنة مع ما حصل لتلك الخميلة الزهرية اللون التي تم التهامها بالكامل في الربع الماضي. كان كل شيء من حولك يضج بالحياة - وب مجرد أنك تضع الكتاب من يدك على العشب، لكي ترتب قميصك القطني الصيفي، وعندما تلتقط الكتاب من جديد - ترى كيف أن النمل يزحف على الصفحات كما لو أنها أحarf راحت تفُّهاربة. فمن المفترض أن يكون المرء أكثر حذرًا في الجنة - يجب عليه أن ينظر كي لا يدخل عقرب إلى الحذاء أو إلى الحقيقة. كما يجب التنزه في المكان مع عصا في اليد لكي تضرب بها الأرض - لأن هناك أفاعي. البيت يقوم في أعلى الجبل، أما القرية فهي الأسفل - لا يمكن رؤيتها بسبب الأشجار العالية، ولكن من الممكن رؤية برج كاستيللو وسقف الكنيسة من الشرفة. يتعدد من القرية صوت لمنشار أخشاب كهربائي وعندما يتوقف عن العمل، يأتي دور الطيور وأوراق الأغصان، وخطبات الأقدام الحافية. قبل حوالي عشرين دقيقة، وبسبب تناول الماء البارد جداً، أحسست بالبرودة في نهديها

- 1- نَهْرٌ تَوْدُرُ أو نهر التibir بالإيطالية (Tevere) ثاني أطول نهر في إيطاليا، يبدأ في سلسلة جبال توسكان ويتدفق جنوباً لمسافة 405 كم، حيث يعبر في نهايته مدينة روما قبل أن يصب في البحر الأبيض المتوسط في منطقة أوستيا. كان يعد وسيلة تجارية مهمة في العهود الرومانية. المترجم

- 2- للأسف الشديد يستخدم المؤلف هنا كلمة هينة وتحمل ازدراء صريحًا ضد الشعب التيري من حقبة قديمة كانوا يصورون فيها التار على أنهم أعداء لروسيا. لكن التاريخ عكس ذلك تماماً. فاقتضى التنويم. المترجم

فانكمشاً. وأما الآن فالجو حارًّا جداً، والجميع يسعون للانتقال إلى الظل: سواء إلى الطريق الذي نما على جانبيها العشب، أو إلى خرطوم ضخم نسي أمره الإتروسكان<sup>(١)</sup>، أو إلى ظلٍ صنديٍ بالي يفوح برائحة قدميك. راحت وهي في شورت وفي حمالة صدر، تنشر الغسيل الأبيض على جبل: سروالك الداخلي وسروالها الداخلي أيضاً، جرابات ومناديل أنفية، إلى جانب بعضها، بحيث إنها راحت تحتك وتداعب بعضها بعضًا. تضع قدمها على طرف الفرشة الهوائية وترفعها وهي تتأرجح. كانت ساقها مليئة بلساعات الحشرات. تمدُّ لك أنبوبًا من المرهم لكي تدهن ساقها منه. وإذا بك تشعر بلسعةٍ مؤذية ومزعجة، أشبه بلسعة بعوضة، من دون أن تسمع شيئاً أو تحس بشيءٍ يعضك، فتبدأ بالحك. والساقي ممشوقة، سمراء من الشمس، ورشيقة لم يشوهها المعدن بعد، ولم تمتليء بالندوب بعد. ثمة لساعات حمراء اللون ومحكوكَة عند أعلى القدم، وعلى الساق وعلى الربلة. تمني أن تقبلها وأن تبلل بلسانك كلَّ مكان لسعت به - لكنها تسحب ساقها: ما بك، إنها متسخة! تلتقطها من عقبها وتبدأ بتقبيل الكاحل؛ راحت إيزولدا تقهقه، انطلقت تقفز علىِ رجل واحدة، وهي تضربك بأنبوب المرهم على كتفيك وعلى رأسك، تفقد توازنها وتهاوي، فتمسك برقبتك، تقفز الفرشة الهوائية وتنتصب فترمي كما كلاماً على العشب. كانت السماء تحمل سروابل داخليَّة وجرابات ومناديل أنفية، زوجاً من كل منها، وقد علقت لكي تجف تحت أشعة الشمس بعد الطوفان، فيما بعد وفي مختلف الأيام كان الضياء والحداد يملآن الأرض، وكان ثمة برد وقيظ، صيف وشتاء، نهار وليل من دون توقف. بعد ذلك ذهبتما لكي تشاهدا جداريات لوبي سيوريللي. كانت الطريق تتمايل بأفخاذها. وكان نهر التير في مكان ما عند الأسفل. كان النهر يظهر أحياناً من بين الأشجار، فتقول إيزولدا: «انظر، يا له من قارب غريب!». أما أنت فتنتظر إلى الطريق. كان ثمة زنجيات يجلسنَ على قارعة الطريق بين

1- الحضارة الإتروسكانية هي الاسم الحديث لحضارة عاشت في إيطاليا القديمة في منطقة توسكانا الحالية وأطلق عليهم الرومان القدماء اسم إترو斯基 أو تو斯基. اسمهم الروماني هو أصل تسمية توسكانا. المترجم

تودي وأورفيتو بمعدل كل كيلومتر واحد. كنَّ ينظرنَّ إلى العابرين من تحت أيديهم الموضوعات على الجبهة. كانوا يقومون بتوزيعهن على الطريق في كل صباح، ليقوموا بجمعهن في المساء. تعلن إيزولدا عن استيائها وتذمر لأنهم يرغمون النساء الفقيرات على بيع أجسادهن، كما لو أنهنَّ كلاب، بالقرب من الأجرمات. فتقول لها من باب المزاح: إنهنَّ موسمات. فتردد عليك: لا موسمات في الأساس. وعند المنعطف تقوم فتاة زنجية بتشييع سيارتكم بنظرها. وفي أورفيتو كانت جميع مواقف السيارات محجوزة، ولكن الحظ يساعدكما - كانت ثمة سيارة تغادر في تلك اللحظة. تذهبان إلى الكاتدرائية، ولكن الوقت كان وقت القدس وسرَّ التثبيت<sup>(١)</sup> - ولذلك كانت الكنيسة الصغيرة التي فيها النقوش الجدارية مغلقة. كان يجب عليكم أن تنتظرا ريثما تنتهي تلك الطقوس، فضلاً عن أن ثمة احتفالاً - لقد جئتما في يوم عطلة أو عيد الحمَّام. كان واضحًا من فوق رؤوس الحاضرين، كيف أن راهبَيْن كانتا تقودان جوقة موسيقية أمام المذبح في عمق الكاتدرائية. كانت فتيات الجوقة يلبسنَ فساتين زهرية وبيضاء. وكن ينشدن أغاني مرحة، كما لو أنهنَّ يؤدين مشهدًا أو مقطعاً من حفلة أو فيلم موسيقي أمريكي - كانت الفتيات يتمايلن على إيقاع الموسيقى ويصفقن بأيديهم ويرفعن أيديهم تارة إلى هذه الجهة وتارة إلى الجهة الأخرى، وهنَّ يهززنَ أصابعهنَّ. سوف ينطلق الاحتفال في الساحة عما قريب. ثمة سحب رقائقية الشكل فوق رؤوس الحشد - ومن هناك يجب أن تطير حمامات وأن تعلن شيئاً هاماً لا يمكن أن تقوم الحياة من دونه. ثمة هدير وطقس رد التحية. دويُّ لرعد. تنطلق ألعاب نارية بالقرب من تمثال مريم العذراء مع الصليب. تختفي ماريَا مع الصليب في دخان القذائف. وفي الطرف الآخر للشارع، يهبط قفص مربوط إلى جبل ممدود يرافقه صخب وفرقة نارية، تاركاً بعده ذيلاً من الدخان الأزرق. هناك في أسطوانة شفافة ترفف وتحقق بجناحيها حمامات بائسة، وقد أصبت بالذعر لدرجة الموت. راح الإيطاليون يصفقون بأيديهم

1- أو التأكيد (من اللاتينية confirmation). وهو طقس في الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية يتعلّق بقبول متسبيّن أو شباب في الإيمان. المترجم

ويصيرون من الابتهاج والفرح. يمكنكم انتظار انتهاء الاحتفال في مطعم مجاور. راحت تدوي من خلال النوافذ المفتوحة للمطعم أصوات رعد، حقيقي هذه المرة. يجب أن تكون الحمامات قد طارت بعد أن تم إطلاق سراحها من الأسطوانة، إلى العجفة المطلوبة والصحيحة. اضررهم! وها هي العاصفة تنطلق والبرد ينهمر. راح البرد يطرق على سقف المطعم من الصفيح. كتما تجلسان قرب النافذة وتراقبان كيف راحت كتل هائلة من البرد تتشظى على أسفلت الشارع ثم تقفز إلى ارتفاع أعلى من حافة النافذة. يركض الناس من الساحة إلى المطعم وهم يصرخون ويقهقرون. تقول لها: المهم ألا تكسر حبات البرد الكبيرة زجاج السيارة، أما إيزولدا فتحسّر بشأن تلك النسوة اللاتي يجلسن على الطريق: يا لهنَّ من بائسات، كيف سيكون وضعهن الآن، بين الأجمة! تطير قطع من الجليد عبر الباب المفتوح. فيرميها النادل إلى الشارع بواسطة مكنسة، يبتسم للكما ويغمز كما وهو يمثل دور لاعب هوكي يريد أن يسدّد الكرة إلى المرمى. ثم يتوقف هطول البرد، فتخرجان إلى الشارع حيث بات الجو مشمساً والأبخرة تتلاشى. كان حجم حبة البرد بحجم بيضة، وها هي الآن تصبح بحجم حبات الحمّص الصغيرة. تقول مازحاً: انظري، كم أسقط البرد من الأوراق عن أغصان الأشجار! لم يبق الكثير من الوقت حتى نهاية الحياة. وهذه هي القاعدة والمبدأ دوماً. لأنك كنت بالنسبة إليها تريستان بالفعل، ولكنك لم تكن تعني ذلك. قيامة الجسد. البشر من لا شيء، من فراغ، من جصّ أبيض، من ضباب سميك، من حقل ثلجي، أو من ورقه بيضاء، يظهر فجأة بشّر، أجساد حية، يقومون لكي يبقوا إلى الأبد، لأن الاختفاء من جديد، والغياب ببساطة بات مستحيلاً - طالما أنّ الموت سبق أن وقع. تنشأ في البداية حدود، مخطط أساسيات وشكل عام. نقطة، نقطة ثم فاصلة. كانت النتيجة أن الوجه أوجع. مرحلة وضع العلامات. يمتد الإنسان من هذا الصدع في الجدار حتى تلك اللطخة الشمسية. وسوف يتراكمى من الأظفار وحتى الأظفار. يدان، ورجلان، ورأس، وصدر، وبطن - تم العثور على كل ذلك في الثلج، وفي الضباب، في صفحة ورق بيضاء، وها هي الآن قد تم عرضها للتعرف عليها. لا تزال

الأجساد شفافة، مثل ظلٌ تتركه كأس فارغة على الحائط. أما الواقع فمرن وقابل للتعديل. أما البدن فمتدرج - ما زال أحدهم من دون ذراع، وأخر بلا رجل، مثل ذلك التمثال في متحف الفاتيكان، أما ما بين الفخذين - فقد تم تحطيمه بواسطة مطرقة. يتقلل المستوى المسطّح إلى حجم ممتليء في ذلك المكان من الظهر، حيث يبرز لوح الكتف إذا ما فلتت اليد إلى الخلف. لعبه العضلات التي لم تكتسِ بالأنسجة الضامّة وبالجلد بعد. تزحف من دون أن يكتمل رسماها وتوصيفها وتصعد نحو الركبتين. تنفس أجيـش، وغمـمة غير مفهومـة. ثم تعود إلى مكانها تحت الجلد. ما زالت تجول بأعين عمياء. تتشـمم. تتسلـق من العـدم إلى هنا. وعند تقاطـع العـدران ثـلـج وضـباب وورـقة تسقطـ في هـوـة الزـمن: أـكل رـمانـاً مع ما فيها من خـيوـط وأـغـشـية مـرـّة وراـح يقول إنـ هذا يـسـاعد في عـلاـج تـكـلـس الأـسـنان؛ فـتـحـت الـبـاب - لكنـ الـبـاب لم يستـجـب، لأنـ الـرـيح رـاحـت تـضـغـطـ عـلـيـهـ منـ الـجـهـةـ الـأـخـرـى؛ رـحـناـ نـشـرـبـ فيـ الشـارـعـ منـ أـكـوابـ بـلـاسـتـيـكـيـةـ خـفـيفـةـ الـوزـنـ - وـكـانـ لاـ بدـ أنـ نـمـلـأـهاـ بـشـيءـ ماـ كـيـ لاـ يـطـيرـهاـ الـهـوـاءـ. المـؤـخـرـةـ تـكـتـسـيـ بالـصـوـفـ منـ جـدـيدـ. ثـمـةـ شـخـصـ يـؤـمـنـ بالـخـرـافـاتـ وـقـدـ رـاحـ يـلـبـسـ حـذـاءـ الـصـيفـيـ (الـصـنـدـلـ)ـ فيـ قـدـمـهـ الـيـسـرىـ فيـ الـبـداـيـةـ وـمـنـ ثـمـ فيـ قـدـمـهـ الـيـمـنـىـ. وـفـيـ كـلـ صـبـاحـ يـسـكـبـ فيـ جـوـفـهـ وـهـوـ يـقـطـبـ حاجـيـهـ كـأـسـاـ منـ حـلـيـبـ الـفـرـسـ الـذـيـ وـصـفـهـ لـهـ الطـيـبـ - الـحـلـزوـنـ لـعـلاـجـ أمـرـاـضـ الـصـدـرـ. وـأـمـاـ ذـاكـ الـذـيـ تـتـفـخـ أـوـدـاجـهـ بـسـبـبـ الغـنـاءـ، فـهـوـ مـسـافـرـ إـلـىـ بيـتهـ حـامـلـاـ مـئـةـ شـيـكـلـ منـ الفـضـةـ لـزـوـجـتـهـ وـيـنـدـنـ، أـمـاـ الـحـصـانـ فـيـحـدـجـ بـعـيـهـ الزـرـقـاءـ الـبـرـقـاتـ معـ الـضـرـعـ الـمـلـوـثـ بـالـرـوـثـ، بـيـنـماـ الـذـيـ يـسـيرـ فيـ اـتـجـاهـهـ وـالـذـيـ يـمـتـلـكـ مـعـلـومـاتـ كـيـفـ رـاحـتـ الدـجـاجـاتـ وـالـخـنـازـيرـ تـبـخـتـرـ فيـ الـمـنـفـضـةـ وـهـيـ تـقـفـ مـعـ صـرـاخـ طـفـوليـ، لـتـسـقـطـ فيـ الرـمـادـ الـحـارـ، وـماـ زـالـ فيـ الـأـمـامـ حـوـاليـ مـنـتـصـفـ الـطـرـيقـ - كـانـ قدـ خـرـجـ باـكـراـ فيـ الصـبـاحـ إـلـىـ الشـاطـئـ، بـعـدـ أـنـ أـحـسـ بالـلـوـحـشـةـ أـثـنـاءـ اللـيـلـ، وـلـمـ يـكـنـ هـنـاكـ سـوـىـ عـدـدـ قـلـيلـ مـنـ النـاسـ عـلـىـ مـقـرـبةـ مـنـهـ، وـكـانـ قدـ تـشـكـلـتـ عـلـىـ الرـمـلـ قـشـرةـ صـلـبةـ بـعـدـ هـطـولـ الـمـطـرـ - تـعـرـّضـ قـدـمـهـ فـسـقـطـ وـكـسـرـ سـاقـهـ. وـهـاـ هـيـ ذـيـ تـلـكـ الـتـيـ أـرـغـمـتـ بـرـجـلـ مـتـزـوجـ. قـامـتـ بـتـغـطـيـةـ الـأـيـقـونـةـ بـمـنـدـيلـ فـيـ أـوـلـ لـيـلـةـ يـقـنـىـ عـنـدـهـ لـلـمـبـيـتـ -

ومن ثم بدأت تنزع الغطاء عن الأيقونة. راحت تعain وتفرز الأشياء، وثقبت بإصبعها شرفة. قامت بتنظيف الأرضية - فراح يصدر من خرقه المسع بخار. عندما غادرت ماماً قالت لها فقط: يجب أن تفصلي البراد لكي يذوب الجليد - بدلاً من أن تقول لها كلمات مهمة عن الحب. راح شعرها يصبح دققاً جداً، وبدأ يتتساقط. الزوج الغريب يحتضنها وهو يقول إنَّ لديها موهبة مذهلة مثل القبط في تحويل آية نقطة من الفضاء إلى منزل، وأن تخلق راحة وأن تمنع بالحب تiarات الهواء البارد، ثم يقوم هو نفسه بالشرح: هذا لأنَّ في قلب المرأة تiarات هواء بارد، لأنَّه ليس لديها بيت في الداخل، بل إنها غريبة هناك حتى عن نفسها ولا يمكنها أن تسدَّ ذلك الفراغ إلَّا بواسطة ما هو ذكوري ومتيقن. كانت تحبَّ أن تشمَّ لحيته الكتانية الشكل. سبق لها أن قرأت في مكان ما: لا يمكن الإمساك بأحد والتثبت به نهاراً عن طريق ما حدث ليلاً. كانت تجلس في المستوصف بانتظار دورها وهي تتأمل ساقيها وتفكر في نفسها: مثلث مختلف الأضلاع مشطوف الزوايا. ماذا يمكن أن يقول لها الطبيب؟ قال لها إنَّ الأمراض تنشأ من جراء الأسى والكدر والإهانات، ولكنها تعالج بالحب. سألهَا: هل قامت والدتك بقتل الأجنحة لديها؟ نعم. هكذا، إذن، لقد قتلت الحبَّ،وها أنت الآن تحملين مسؤولية أفعالها وتدفعين الثمن على ما اقترفته. شرب جارُهم العجوز الشاي وهو يستعدُّ للمغادرة، لذلك راح يدُسُّ لحيته خلف المعطف من الفرو، وقد رأته يخفى سرورها التحتاني في جيده، لكنها لم تقلْ له شيئاً، وإنما قامت باستبدال السروال بوحد غير مغسول من دون أن تلفت انتباها. وأمّا ذلك المحارب الذي عاد من الحرب حيَاً، ولكن أصابته شظية في حنكه فشققته، ولذلك راح يعيش مع أنبوب فضي للتنفس. وأما الجندي المقابل فقد جاء إلى أمَّه لكي يشكوا لها وكانت في تلك اللحظة تقوم بغسل الملابس الداخلية. تركت الغسيل من يدها وقالت له بصوت مثير للشفقة: أبني الفقير! ومن ثم عصرت سروال والده بكل طاقتها وصفعته به على ظهره بكل ما أوتيت من قوة: لا تأتي أبداً إلَيَّ لكي تشكو! لم يكن في بولاتها أشجار شوح - فكانوا يجلبون بمناسبة رأس السنة الجديدة شجرة صنوبر. الطفل - عبارة عن دفء تکور

بالقرب، ومن السهل جدًا أن يكون مجروهاً. ما من شيء مؤقت - قد تكتب شيئاً ما خطر ببالك صدفة على الماء بواسطة شوكة بينما أنت تسحب كرة سقطت في البركة، ولكنك تعتقد أنك إنما تكتبه للأبد. يقوم جارك ذو العينين الجاحظتين بتهديسك بأنه سوف يضربك بخرطوم غسالة الثياب، لأن زوجته تعاني من تضخم في الغدة الدرقية (سلعة درقية) وهي تبرز من فتحة ضخمة جداً مثل إجاصة هائلة. شق بطن صندوق بواسطة شفرة حلاقة وراح يراقب كيف ينبض قلبه الصغير. كما أنه قرر أن يعمل للصندوق حقنًا - فامسك يده وثقب بواسطة ريشة القلم جلد الصندوق مصدرًا صوت تمزق، وبعد ذلك دفع بالحبر تحت الجلد. ثمة بنات صغيرات يلهون في ظلال شجرة مايو<sup>(1)</sup> بالقرب من دورة المياه، حيث يقمن بتحضير وجة غداء - يمكن تحضير ثلاثة أطباق من الهدباء البرية: معكرونة، وبهض مقلبي، وسمك مملح. راحت بتلات زهرة القرمزية<sup>(2)</sup> تلتتصق، وإذا ما التصقت بالأظفار فسوف تترك لوناً أشبه بصبغة الأظفار manicure. يهربن إلى المرحاض لكي يجلسن فوق الفتحة التي يهب من خلالها هواء بارد. يقومون باستمرار بسرقة البيت الصيفي، لذلك كتبوا ورقة وتركتها على الباب: «أيها الرفاق اللصوص! لقد تحققت من أننا لا نحتفظ هنا بأي شيء ثمين أو بمشروبات روحية. من فضلكم، لا تكسروا شيئاً ولا تكسروا النوافذ، لأننا أناس فقراء». وصلت في أيام العطلة، اجتزت عند المساء الدرب الجليدي والمشور بالنجوم، والممدد من البوابة وإذ بي أرى أن كل شيء في البيت محطم ومحروق، وكانت الرسالة مرمية على الأرض وقد سقطت فوقها كومة حطام. راحت أنظف الركام بواسطة مجرفة، ولكن الكومة كانت متجلدة

1- أو سارية مايو هي سارية مصنوعة من جذع خشبي طويل أو من عمود معدني تنصب وتزين وذلك عند بعض شعوب أوروبا الشمالية، وخاصة ألمانيا، أثناء عدة احتفالات دينية، أهمها يوم مايو أو عيد العنصرة، أو في عيد متصف الصيف خاصة عند الدول الإسكندنافية. تعدد سارية مايو جزءاً من الفلكلور الأوروبي المسيحي، الذي يحتفي بشهر مايو بعدة مناسبات دينية. المترجم

2- استعارة من حكاية شعبية روسية بنفس الاسم «The Scarlet Flower» للكاتب الروسي أساكوف وقد ظهرت لأول مرة عام 1858 المترجم

وتصدر رينينا. الإنسان أشبه بالحرباء: إذا كان يعيش بين المسلمين - يصبح مسلماً، ومع الذئاب - يكون ذئباً. لا يأكل الروس لحم الحمام، لأنَّ الروح القدس ظهر على شكل حمامٍ بيضاء. جاءت شكوى من مدينة كوريشوس<sup>(١)</sup>: وافقوا على نقل راكب في باخرة، فتبين أنهنبي، وقد قام بإعادة الحياة إلى سمكة مملحة راحت تقفز عن ظهر السفينة الزلق ونزلت إلى الماء، وكان الأمر سيكون حسناً لو أنَّ الأمر اقتصر على سمكة واحدة، بل وصل به الأمر إلى أنه أعاد الحياة إلى برميل كامل من السمك، وهذا ما جعل طاقم السفينة يبقى من دون تموين. كلوا من دون أن تجوعوا، وعيشو من دون أن تموتوا. علمنا هرقلطيتس<sup>(٢)</sup> أنَّ الأرواح تنشأ من الماء، ولكنها مع ذلك معرضة للجفاف. نضطر لأن نقول للأشرار وللغرباء - بلـ، أما جماعتنا وأحبـنا - فنقول لهم لاـ. وكيف يمكنـك أن تكونـ واثـقاً من أمرـ ما، طالـما أنَّ إلهـ البرق والرعد سوفـ ينهـض في يومـ غـد لاـ علىـ تلكـ الرـجل ولـذلكـ سوفـ تكونـ مضطـراً لأنـ تضـحي بيـتكـ العـزيـزـ مقابلـ سـفـينةـ بـثـلـاثـةـ مجـادـيفـ Trireme<sup>(٣)</sup>ـ، أوـ أنـ تـرـحلـ إـلـىـ عـمـتـكـ فيـ سـيرـاكـوزـيـ<sup>(٤)</sup>ـ منـ أـجـلـ الحصولـ عـلـىـ الفـطـائـرـ، وـإـذـ بكـ تـقـعـ فـيـ قـبـصـةـ قـرـاصـنـ الـبـحـرـ أوـ سـيـقـوـمـ عـبـدـ هـارـبـ بـذـبحـكـ بـيـنـماـ أـنـتـ نـائـمـ؟ـ يـاـ عـابـرـ السـبـيلـ، إـلـىـ أـيـنـ أـنـتـ ذـاهـبـ؟ـ هلـ تـظـنـ أـنـيـ ذـاهـبـ إـلـىـ إـسـبـرـطـةـ<sup>(٥)</sup>ـ؟ـ

- 1 كوريشوس مدينة يونانية تقع في وسط جنوب البلاد ويقع فيها معبد أبوابو... المترجم
- 2 فيلسوف يوناني في عصر ما قبل سocrates. كتب بأسلوب غامض، يغلب طابع الحزن على كتاباته، ولذا، عُرف بالفيلسوف الباكى. تأثر بأفكاره كل من سocrates وأفلاطون وأرسطو. قال إن النار هي الجوهر الأول، ومنها نشأ الكون. وقال أيضاً بـ التغيير الدائم. يصعب تحديد تاريخ حياته بدقة، وقد وضع كتاباً وحيداً، لم يصلنا منه غير شذرات. ولا يعرف المؤرخون عن حياته إلا القليل. ولا يكاد يُعرف عنه غير أنه كان من الأسرة المالكة في مدينة أفسس بمنطقة آسيا الصغرى. المترجم
- 3 ثلاثة المجاديف هي سفن حربية مصنوعة من الخشب بطول 150 قدماً، وعرض 150، ويحركها 170 مجدهفاً، والطاقم الكامل يصل إلى 200 رجل، كانت مزودة بمجاديف في المقدمة. المترجم
- 4 واحدة من المستعمرات الهيلينية الأولى على الساحل الشرقي لجزيرة صقلية وقد أسسها أهالي كورينثيون في عام 734 ق. م. المترجم
- 5 إسبرطة أو سبارتا مدينة يونانية كانت تعرف بأنها دولة مدينة في اليونان القديمة تقع على جانب نهر يوروتاس في جنوب شرق إقليم بيلوبونيز. ظهرت على أنها كيان سياسي

ومن جديد راح الثلوج يهطل بكثافة لدرجة أنَّ حافلات الترامواي لم تعد تعمل. قيامة الجسد. باشماتشكين - روح، أما المعطف - فجسد. دع له المعطف، وهو لن يستمر في مطاردة المارة. دعوا كلَّ شيء، وهيا بنا نذهب إلى روما - هناك المكان قريب جدًا من السماء! كان مؤرًّقاً جدًا! كثيرًا ما جاء إلىَّي في غرفتي، بعد أن استلقيت مع شمعة مطفأة، فيجلس على الأريكة الضيقة والمجدولة من القش، يستند برأسه إلى يديه ويقضي مدة طويلة ناعسًا. ومع طلوع الفجر كان يفكك فراشه كي لا تشعر الخادمة بالقلق ولكي ترى أنَّ القاطن هنا أمضى الليل بصورة طبيعية. كان يخاف أن يموت أثناء النوم ولذلك كان يسعى كي لا يغفو في الليل. ما هذا الهواء! يُخيّل لك وأنت تتنشق بعمق، كما لو أنَّ 700 ملاك على الأقل يطيرون إلى خياشيمك. كونوا على ثقة، أنه كثيرًا ما تسيطر علىَّ رغبة قاهرة بأن تحول إلى أنف فقط، وبحيث لا يكون هناك أي شيء آخر - لا عينان ولا يدان، ولا ساقان، بل مجرد أنف فقط وله منخران بحجم سطرين كبيرين، يسمحان بأن تسحب إلى داخلك أكبر قدر من الرائحة العابقة ومن الربيع. عندما اقتربت من جسد غوغول<sup>(١)</sup> لم يبدُّ لي أنه ميت. لأنَّ الابتسامة التي على ثغره، وعينه اليمني التي لا تغمض بشكل كامل دفعتاني إلى التفكير بحالة النوم المرضي Lethargy<sup>(٢)</sup>، ولذلك لم أحسم أمري فورًا بنزع الكمامه عن أنفي. كان يخاف ألا يموت. كما أنه يجب إحياء تلك القارورة المحاطة بسلة مجدولة: كانوا

- حوال القرن العاشر قبل الميلاد، عندما غزاها الدوريون خلال 650 قبل الميلاد، أصبحت التزعة العسكرية مهيمنة على السلطة في اليونان القديمة. تأسست حوالي عام 900 قبل الميلاد، وانتشرت إسبرطة بمجتمعها العسكري الذي ينشئ أبناءه بصفة أساسية على القتال. المترجم
- 1 المقصد هو نيكولاي فاسيلييفتش غوغول كاتب روسي يُعد من آباء الأدب الروسي 1809-1852. من أعماله الأكثر شهرة رواية النفوس الميتة وقصته القصيرة المعطف، بالإضافة إلى المسرحيتين الكوميديتين المفترش العام وزواج - المترجم
- 2 في الاصطلاح الطبي، هو حالة من النعاس لفترة طويلة بسبب أمراض معينة. Lethargy وهو حالة تظهر في الكثير من الأمراض العصبية المختلفة والأمراض المعدية أو السامة وتتميز بحالة عميقه وطويلة من الكسل والخمارات والنعاس والخذر واغتراب العقل لأسباب متعلقة بتلك الحالة بوصفها سلوكاً لجسمنا ليرتاح جسمنا كله. المترجم

يشربون نبيذاً أبيض أثناء اللعب، وكان غوغول يسكن بمهارة الطبقة العلوية من زيت الزيتون الذي كان يقوم بدور السدادة ويحمي النبيذ من أن يفسد، وذلك من تلك القارورة ذات الكرش الكبير والموضوعة في سلة مجدولة من القصب. لأن الأشياء أيضاً هي الأخرى من جسد. وذلك الحجر القرميدي المطحلي في أجمة نبات قبس في البيت الريفي الذي تحته كثيرة الأرجل. وألة الموسيقى تلك المربوطة برباط من الشريط الأزرق العازل، والموجود في القبو في حي ستاركونيوشني. وأيضاً الصقبح الذي كان حدث قبل سنوات كثيرة عندما غطى الجليد محطات مترو الأنفاق، فراح العامل في البلدية ينشر الملح المخلوط بالرمل من سطل، وهذا ما جعل البرودة تزداد أكثر - هو الآخر من جسد. والألوان. وأقلام التلوين الموجودة في كأس على حافة النافذة - جميعها من اللون الأسود المضاد للضوء. وصندولق المياه في المرحاض - أصفر اللون من جراء الماء الملوثة بالحديد أو بسبب الأنابيب الصدئة. اللثة تنزف - وفرشاة الأسنان في زيد زهري اللون. وتلك الرسوم بلون عسلٍ. والأصوات. وفجأة أصبحت دقات الساعة مسموعة - كما لو أنها فقست، كما لو أنها كانت صامتةوها هي الآن تعمل، في البداية راحت تعمل ساعة الحائط، بدقائق غير عجلة، ومن ثم لحقت بها متسرعة الساعة - المنبه على الطاولة. أسطوانات قديمة تتكسر مثل الخشب في موقد نار. راحت قنينة فارغة تتدحرج في صالة السينما. كما أنه يجب إحياء ذلك الضحك في مصنع المطاط، عندما كان لا بدّ من إيقاف خط الإنتاج. وأيضاً الهدوء والفراغ. وطيش الناس وسخافاتهم الذين تم العثور عليهم في بومبيو. والبقاء على التواصل. والموسمات الالاتي لم يعدن موجودات. فالغياب هو الآخر جسد أيضاً. إذ إنَّ الصمت هو أيضاً شيء تافه جرى خلقه بواسطة الكلمة، مثله مثل الفراغ المسجون ضمن غرفة، أو مثل لمعان ضوء المصايد على حجارة الشارع المبلل ليلاً، ذلك اللمعان الذي يتکاثر بطريقة لا تزاوجية (التبرعم)، على طريقة غريسات الأشجار. أو مثل بصمات هذه الأصابع على السماء، بل الأدق أنها مجرد طيور انقسمت للتو

إلى عدد من الأسراب بكل بساطة. أطلقوا على الرجل اسم مُران<sup>(1)</sup> والمرأة دعوها صفصافة. كان آدم يمتلك الجهتين الشرقية والشمالية من النعيم، أما أنا فقد رحتُ أحرس الجهتين الغربية والجنوبية. أصبح آدم هو السيد والمتحكم بالذكور من الحيوانات، بينما استلمتُ أنا قيادة الحيوانات من الإناث. في يوم الحساب العظيم سوف يقومون بمعاقبة وتعذيب العاهرات والميكانيكيين. ورأيتُ نهرًا مشتعلًا، وكان هناك عدد من الرجال وزوجاتهم، أشبه ببزار الخردل، كانوا مزروعين في النهر حتى مستوى الركبة، ومنهم من كان مغروساً فيه حتى الخصر، وأخرون حتى الشوارب، وأخيرًا كانوا غارقين في النهر حتى قمة شعرهم. سؤال: من هم هؤلاء، الموجودون في المياه النارية؟ الجواب: هؤلاء هم أولئك الذين لا يشعرون بالبرودة ولا بالحرارة. لأنهم لم يكونوا في عداد الصالحين، على الرغم من أنهم أكملوا حياتهم في الأرض، لأنهم إنما قضوا جزءاً من حياتهم وفق مشيئة الله، في حين أنهم أمضوا باقي أيام حياتهم وهو يرتكبون الآثام والزناء، وهكذا تابعوا حياتهم على الدوام. سؤال: لماذا أنت عار؟ الجواب: وهل أنت لا تعرف أنك أنت أيضاً عار؟ ذلك أنت ترتديجلود خراف الدنيا، وهذه الجلود تتعرف بالتواري مع جسده؟ أما أنا، وإذا نظر إلى السماء، فإني أرى وجهي وملابسني كما هي، في شكلها الحقيقي والفعلي. سؤال: كم جزءاً في الروح؟ الجواب: ثلاثة: كلامي، وانفعالي وشهواني. سؤال: كم يبلغ عدد الآلهة في حقيقة الأمر؟ الجواب: سبعمئة وسبعة وسبعين. سؤال: وكم العدد بشكل أكثر دقة؟ الجواب: مئة وخمسون. سؤال: وفي حقيقة الأمر؟ الجواب: واحد. سؤال: قل الحقيقة! الجواب: أقل من واحد. سؤال: هل يجب أن أخبر الوالدة أن ابنها غريق في البحر، أو أن أقول لها إنه سافر إلى مكان بعيد ولم يعد؟ سؤال: هيا قل لي، يا شدرخ<sup>(2)</sup>، كم يبلغ عدد قطرات المطر التي سقطت

1- المُران (Fraxinus) جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة الزيتونية ويضم حوالي 45-65 نوعاً. يسمى خطأ بالدردار وهو جنس مختلف تماماً. المترجم

2- هو الاسم الذي أطلقوه في بابل على حنبلا وهو كان أحد ثلاثة (شدرخ وميشع وعبدنغو) واسماؤهم الحقيقة حنبلا وميشائيل وعزريا هم ثلاث شخصيات يهودية ذكرت في الكتاب المقدس في سفر دаниال وقد كانوا أصدقاء لدانيال حيث إنهم جاءوا معاً في

على الأرض منذ اللحظة التي خلق الكون وخلال جميع العصور وكم سوف يسقط في المستقبل؟ سؤال: وطالما أنّ الكثبان تملأ المكان - فماذا يكون ذلك الشريط الأحمر الناتج عن مطاط السروال الداخلي - إن لم تكن نباتاً متسلقاً؟ الجواب: لن يكون هناك أي يوم حساب عظيم أبداً. لذلك لا داعي للخوف من أي شيء. لن يكون هناك شيء ما لم يسبق أن حدث مثله. إنهم يرهبون فحسب! وكيف يمكن إخافة وترهيب امرأة عجوز في مرآة عمياً؟ كيف يمكن معاقبتي أكثر، أنا التي أكثر ما أخاف منه أن أصبح عجوزاً، والتي عوقبت على ذلك بحياة طويلة؟ حسناً، أضفت العدسة، رحت أبحث عنها طوال النهار، بينما كانت تلك المحتالة والسارقة تنظر إلى من البلطة وانقلبت إلى عجوز شمطاء وبلهاء. لقد حرم صعود التلال الفرس الأصيلة من قوتها وجمالها<sup>(١)</sup>. تشوّهت الأصابع بسبب التهاب المفاصل. وراح الجلد يتذلّى مثل ستارة مجعدة. أصبحت ضئيلة الحجم، وقصرت قامتي لأصبح أقرب إلى قرد فاطس. رحت أغيب في الفراش فلاأشغل فيه مكاناً يُذكر. كما أصبحت أفضي الليالي الطوال في نبش ذكريات الماضي. أنقُب في طرودة التي لم تكن في حقيقة الأمر موجودة قط. الرمل، والمواد المتعفنة - بالرفش. لمع فجأة شيء ما من الخزف - هنا بات واجباً الحذر، ولذلك رحت أعمل بالفرشة. بعد أن نقبت من حوله بما فيه الكفاية، رحت أتأمل وأعاين الشيء الذي عثرت عليه، من مختلف الزوايا، في ضوء الشمس، كما شممته وحكته بظفري. أول الحبّ كان عبارة عن جرو من خزف. قادني ببابا إلى غرفة البو فيه وقال لي إنه جرو غير عادي، وإنما سحري. إنه يحبّني، وسوف يقوم بتقديم حبة شوكولاتة لي كلّ يوم في حال أنني أحسنت التصرف. أخذ الجرو، وقطع له رأسه - فتبين أن الرأس فارغ،

---

السي البابلي الأول في سنة 605 ق.م، وقد ذكر أنهم كانوا يعملون في البلاط الملكي لنبيخذن نصر الثاني. وفقاً للكتاب المقدس أن مجموعة من البابليين أرادوا التخلص منهم فقاموا ببناء تمثال لإله بابلي من الذهب وأموروا بالسجود له - فرفضوا وصدرت الأوامر بإحراءهم ولكن إلههم اليهودي أنقذهم... المترجم  
- وردت في النص الأصلي عبارة هي قول روسي مأثور مفاده أن العمل الشاق وتسلق التلال جعلا الحصان الأصيل والقوى يفقد نشاطه وجماله وحيويته... المترجم

وكانت هناك قطعة شوكولاتة. سعيت بكل ما أوتيت من قوة لكي أتصرف بشكل حسن، و كنتُ أستلم كل يوم حبة شوكولاتة ساحرة من كلبي الخزفي الغالي، حبة شوكولاتة مذهلة وغير عادية، ولا يمكن أن تقارن، وهي الألذ في الدنيا. وفي يوم من الأيام دخلت إلى الغرفة راكضة فرأيت كيف أن أبي كان جالساً القرفصاء، وكان يحمل بيده بوقاً ورقىً، والكلب الخزفي إلى جانبه من دون رأس. رأني أبي فاضطراب وناولني حبة الشوكولاتة التي كان يستعدُّ لوضعها داخل الرأس. أخذتها ووضعتها في فمي، فوجدتتها غير لذيذة. كنت أعاني من حساسية على القبط، وقد ظهرت عندي منذ أن كنتُ في السادسة من عمري بصورة مفاجئة، من دون أن يعرف أحد أساس المشكلة. أما أنا فكنت أعرف، لكنني لم أخبر أحداً. أو كنتُ أعتقد أنني أعرف. كانت لدى في صغرى هرّة، وعندما شاخت وأصبحت ضعيفة جداً هربت لتموت في الحقل. فالقطط تخبيء عندما توشك على الموت. وأما أنا فكنتُ أختنق في حال كانت في الغرفة قطة. ولهذا السبب، ولأنه كان يجب أن يحدث ذلك لأول مرة مع الإنسان الذي كنتُ أحبه، بينما كان هو متزوجاً، بدأت عندي نوبة حساسية واحتناق. كنا قد جئنا أنا وهو إلى منزله. كانت زوجته مع الأطفال خارج المدينة. راح يقبلي، وإذا بي أبدأ بالعطس بعد لحظات. سأله: هل عندكم هرّة؟ أجابني: كلا. ولكنني كنتُأشعر بوجودها. فقد كانت لديهم قطة بالفعل، ولكنهم أخذوها إلى البيت الصيفي في الريف، بيدها ويرها كان في كلّ مكان من البيت. فقلتُ له: أنا لا أستطيع، وأناأشعر بالسوء، أما هو فظنَّ أنني أتدلل وأتفتح، وأنني أخترع مبررات سخيفة وأشاكش. بدأ يخلع عني ثيابي، أما أنا فلم أعد قادرة أن أتنفس. لم أكن أدرك من قبل كيف يمكن أن يحدث مثل ذلك في وقت واحد معاً: ها أنا هنا الآن، مع عدسه في يدي، وفي الوقت نفسه أنا هناك، أضمهُ إلى صدرِي وأشعر أنني أفقد وعي، أكاد أموت ولا أستطيع أن أتنفس. أما الآن فأنا أدرك أنَّ كل شيء كان بمتنهى البساطة. وأنَّ كل شيء يحدث في الوقت نفسه في آن واحد معاً. ها أنت تكتب الآن هذا السطر، وأما أنا ففي هذه اللحظة أقوم بقراءته. أنت سوف تضع الآن نقطة في نهاية الجملة، أما أنا فسوف أصل

إليها في الوقت المناسب تماماً. وحتى أنَّ المسألة لا تتعلق بعقارب الساعة! إذ يمكن تحريكها في كلا الاتجاهين. بل إنَّ القضية تكمن في المناطق الزمنية. في خطوات ميناء الساعة. كل شيء يحدث في وقت واحد، إلا أنَّ العقارب في مختلف الساعات راحت تعمل بشكل منفصل وكل واحد منها في اتجاه وبسرعة أكبر. ومن جراء ذلك ينمو بقدونس رائع بحيث إنَّ الشمس تشرق في نافذة المطبخ، ولكنها تغيب في نافذة أخرى، خلف ليمونة على الحافة أيضاً - كنت قد زرعتُ في أصيص ممتلئ بالتراب بذرة، وإنْ بها الآن تترعرع وتنمو شجيرة بقدونس كاملة. هذا أشبه برأس السنة الجديدة - ففي الوقت الذي تمدّ فيه المائدة في لندن، يكون الناس في اليابان قد أصبحوا جميعهم ثملين. ها أنا أنتظر قبض الراتب التقاعدي في يوم الجمعة، ولكن السحب في أيام الجمع غالباً ما تكون في أنبوب الصرف الصحي بعد. ذاك في الزنزانة يبدأ للتو بحُكَّ جدار القارب - وفي نفس الوقت يهبط نحو أسفل مجرى نهر التiber باتجاه أورفيفيتو. هأنذا أقول لكم، أيها الأحبة، وفي الحصة الدراسية، إن العجائز وحدهم يؤمّنون بالله، وفي الوقت نفسه أهمّس في الوسادة: إلهي، في السماوات - وأفكِرْ كم جميل القول: في السماوات... وأشكره على كُلِّ يوم معاش، على ذلك الحب الذي عشته ذات يوم. وأرجو المغفرة لأنني كنت أؤكِّد لكم أنه لا براهين ثبت وجود رب. هراء! محض هراء! المعجزة - هي البرهان. والموت - معجزة. أنا سوف أموت. فأية براهين ضرورية يلزم أكثر؟ إنهم يرسمونه على ذلك الشكل - مع لحية، وفي رداء يطرح على الكتف. أما الحقيقة فقد لا يكون هذا عجوزاً رهيباً يمتطي السحب الجمعية في أنبوب الصرف الصحي، بل لعله في متاجع للاستجمام - يتسبّع على شاطئ بحر البلطيق حاملاً علبة أعماد ثقاب، وهو يحدّق في الأعشاب والطحالب المرمية على الشاطئ، يبحث عن العقيق وعندما يمر بمحاذاته، يتكسر الصدف تحت صندله. أو تلك البائعة التي قالت لي ذات يوم: أيتها المرأة، ها هو موز أفضل، هيا خذني من هذا الموز، مالك تختررين الموز المتعفن! أو ذلك الضال الذي كان يخلط في البداية كُلَّ شيء في الدنيا، ومن اقتحم غرفة الضيوف وراح يلتهم فطيرة التفاح. وربما ليس هذا

ولا الثاني ولا الثالث - وإنما شيء آخر بسيط، مجرد عشب ما. عشب أخضر وناعم. ينمو من تلقاء نفسه. يرسل جذوره في أي شقّ. يوماً كانوا يعرفون أنه هو الرب من عائلة المتزوجين في السرّ، ولكنهم أغفلوا ذلك فيما بعد. وها هم الآن يعاينون الآثار والأطلال في المعابد القديمة، ولكنهم لا يلاحظون ما هو جوهري: كانت المعابد مجرد إشارة إلى مكان وجود الجبل المقدس أو الخميلة المقدسة، إذ إنّ الشيوخ الرهيبين والمصطففين والضالين لم يكونوا يعيشون بالقرب من المذبح، وإنما كانوا يعيشون في أجوف الشجر، وفي الريح وفي العشب. لبُّ المسألة برمتها يمكن في العشب الأخضر والطري. إذا ما كفوا عن الإيمان بالإله الخالق البديهي، فهذا لن يجعله يختفي ويتلاشى، بل سوف يستمر في كينونته في مكان ما على الهاشم، من دون أن يثير الانتباه ومن دون أن يكون مرئياً. هل تتذكر البيت الذي قامت جميع الآلهة ببنائه؟ بما أنَّ كلَّ شيء يجري في نفس الوقت، فهذا يعني أنك ما زلت إلى الآن تمشي إلى جانبها ومعها - مع ندوب على الساق أو من دونها، هذا غير ذي شأن - في شارع (في باستيني) ومن ثم ستصلان إلى ساحة الروطن<sup>(1)</sup>، وهذا هو ذلك المعبد، معبد المعابد، وقد ضاع في زحمة المباني، حيث قام بدفعه عن الواجهة وبالتجطية عليه من جميع الجهات صعاليك الهندسة المعمارية. هناك، بالقرب من قاعة الأعمدة يتحرّش الرومان القدامى وهم يلبسون دروعاً بلاستيكية بالسياح - في لباس رماة أسلهم من الساحة الحمراء. عندما تمرّون من خلال شق ضيق في بوابات ضخمة من البرونز، وقد استحال لونها إلى الأخضر بفعل الزمن، يجري تيار هواء بارد على الجلد المترعرع المكسوف، كما لو أنَّ أحداً ما مسرعاً من بين الأرجل، ربما هرّة غير مرئية أو إله القبط. تعبرون من مكان قائظ إلى مكان معتم وبارد ورطب. يشدُّ جميع الأنظار هناك oculus<sup>(2)</sup>. يسندها شعاع منحرف من

1- الروطن من الإنكليزية Rotunda ويدورها من اللاتينية rotundus - أي مبني دائري الأرضية وفي بعض الأحيان تعلو قبة (مثال ذلك البانيون في روما بإيطاليا)، وكذلك يطلق على الغرف الدائرية في المباني (مثال ذلك كابيتول الولايات المتحدة في واشنطن العاصمة بالولايات المتحدة الأمريكية). المترجم

2- الروشن أو أوكلوس (لاتيني Oculus)، أي العين - فتحة دائيرة تقع في وسط القباب

الضوء - عمود من الغبار والدخان. ثمة حشرات ما تطير تحت سقف القبة وهي تتلألأ في الشعاع. هناك صورة قديمة جدًا على الجدار - عليها قوارب تمخر عباب الماء في المعبد أثناء الفيضانات أو إله السفن. تنشأ رغبة لا تقاوم بالنظر إلى الأعلى بصورة دائمة - إلى حدقة العين. ففي مكان هناك، عال فوق الرأس، تحت القبة المرربعة للقبة، اختفى أولئك الذين قرر ثيودسيوس<sup>(١)</sup> الساذج أن يقصيهم بقرار منه، مضيقاً عليهم لكي يخفىم تماماً لوحة للسيدة العذراء مع الشهداء - أعطى الأوامر بنقل ثمان وعشرين عربة من العظام والرفات من سراديب الموتى. بمعنى، أنه لا داعي لكم أن تبقوا هنا و «تسمنوا». يا لهم من ملوك! نحن نكُّد، وأما أنتم فستنتمون! كان الأمر لكم، وقد أصبح لنا! المكان ضيق، لذلك لا تعتبا علينا! لا يمكنك أن تبني قصوراً حجرية عن طريق العمل الصالح! ولماذا كان يجب أن تغسلوا طالما أنه ما من أحد لكي تقوموا بتقبيله؟ أحِبْ كروح، ولكن هَذِ المحبوب مثل إجاجة! هنا مذكرة بشأن الطرد من مكان السكن، ولكن كيف يمكن طرد تلك الأرواح الشريرة وغير المرئية؟ فقد تكون هنا في جميع الزوايا معلقة من أرجلها، بينما يتدلّى الرأس عندها إلى الأسفل، مثل وطاويط. اكتسوا بالأجنحة ونفسوا ريشهم، وقد تکوروا في مِزق حيَّة، ثم راحوا يتظرون ساعة حظّهم السعيد. أما ذاك الرئيسي، كلي القدرة، فلا يتظرون أحداً أو شيئاً، ولذلك فهو عبارة عن عشب أخضر نضر. ولكنه لا يُرى على الفور ولا يُلحظ بسرعة. بل يجب العثور عليه. هيا بنا نذهب، سوف أدلّك عليه. سوف تذهب أنت في المقدمة، وأما تلك المرأة التي لديها وفي الوقت نفسه

---

أو الجدران، نشأت في العصور القديمة، وهي سمة من سمات العمارة البيزنطية وكذلك العمارة الكلاسيكية الجديدة، حيث تُعتبر قبة البازيليون في روما من أهم الأمثلة التي تم تنفيذ الروشن فيها. المترجم

1- الإمبراطور ثيودسيوس الكبير ثيودسيوس الأول 395-347 م. آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة حيث انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين بعد وفاته. عُين ثيودسيوس الأول إمبراطوراً للدولة الرومانية 378. تبنى الإمبراطور ثيودسيوس الأول المسيحية في عام 380، وجعل منها ديناً وحيداً للإمبراطورية في عام 391. المترجم

ليس لديها ندوب على ساقها، فسوف تنتظرها هنا، خلف هذا الباب إلى أن تعبر مجموعة السياح التالية. وبينما أنت تقف وسط الأعمدة وتنتظر ريثما تخرج تلك المجموعة - وقد يستغرق ذلك لحظة أو جميع هذه السنوات - سوف تبقى واقفًا وتنتظر إلى أن يمروا جميعهم، وذلك كي لا يحدث ازدحام في الباب، أثناء هذه المدة سوف أريك ما هو أكثر أهمية على الإطلاق في هذا المكان، هناك حيث يتكون كل من الجدار الجانبي والخلفي من القرميد، وإذا بها تحل فجأة صخرة من الكلس الزهري اللون، وعليها قواعد الأعمدة وحطام اللوحات الجدارية مع الدلافين، وكل هذا مغطى بالطحلب وقد اكتسى، كما ترى، باليه خفيف وذي شعر أجعد. لا يمكن لنبات الزينة في الغرفة لدينا، أن يعيش من دون دفء إنساني، وأما هناك مجرد عشبة ضارة. هذا ما يعني، في اللغة الميتة، ما هو حي: *Adiantum capillus veneris*<sup>(1)</sup>.  
 هذا هو العشب النضر الناعم من فصيلة أديانثوم<sup>(2)</sup>. شعرة العذراء. إله الحياة يكفي أن يتمايل بفعل أقل نسمة هواء. كما لو أنه يومئ، بلـى - بلـى، هذا ما يجب أن يكون: هذا هو معبدى، وهذه هي أرضي، هذه هي رياحي وهذه هي حياتي. عشبة الأعشاب. نموت هنا قبل أن تظهر مديتها الأبدية وسوف أنمو لاحقاً. وأما أولئك الملتحون في عباءات إغريقية قديمة، الذين اخترعوا فكرة العجل الدنس، فيمكنكم أن ترسموا منهم وأن تتحتوا منهم إلى ما لا نهاية. أنا سوف أبزغ وأبرز من خلال جميع لوحاتكم، وسوف أخترق من خلال أي لوح رخامي عندكم. أنا موجودة في كل أثر من آثار الميدان «الفوروم» وتحت كل بلاطة قائمة تحت القبس نبات. وحيث لا يمكن

- 1- كزيرة البذر أو البرشاوشان الشعيري الزهري (الاسم العلمي *Adiantum capillus-veneris* بالإنكليزية MAIDENHAIR FERN) - نوع من النباتات يتبع جنس البرشاوشان من الفصيلة الديشارية. وهو نبات رقيق ذو جزء قاعدي أسود لامع، الساقان أيضاً سوداء لامعة، أما شبه الأوراق فريشية متضاغعة وهي مستديرة إلى حد ما وذات حافة مستنة قليلاً، مقلوبة، النبات في مجمله في شكله العام يشبه المروحة وبه عرق يأخذ الشكل الشعاعي ويببدأ من القاعدة. وهو نبات مهم في الطب الشعبي. المترجم
- 2- البرشاوشان (من الفارسية پرسياوش) أو شعر الغول أو (الأديانثوم) الاسم العلمي (*Adiantum*) - جنس من النباتات يتبع الفصيلة الديشارية من رتبة السرخسيات.
- المترجم

رؤيتي، لا بدَّ أن هناك حبات طلعي. لقد كنت وسوف أكون هناك، حيث أنا غير موجودة. أنا موجودة هناك حيث أنتم موجودون. في حال أنكم كتمتُم في ساحة الأعمدة - سوف أكون أنا أيضًا هناك. ارتدى المتظاهرون أردية يضاء وراحوا يصرخون عبر مكبرات الصوت: *Morire con dignità*<sup>(١)</sup>!. كان هؤلاء الأطباء العاملون في مشفى الأورام يهددون بالإضراب عن العمل ما لم ترفع رواتبهم. راحوا يتحرسون بالمارة مع نداء طويل جدًّا في أيديهم، طالبين منهم المساعدة في التلويع به، إذ إنكم عاجلاً أو آجلاً سوف تخضعون لفحص وقائي من الإصابة بالسرطان! هل لديك، أيها الرجل هناك، كل شيء على ما يرام بخصوص البروستات؟ حسناً، حسناً، سوف نلتقي! وحتى هنا، في كورسو<sup>(٢)</sup> حيث الازدحام والتدافع بين أصحاب ربطة العنق الرخيصة، إلى درجة أنك تشتهي أن تعضمهم - ثمة سباق يهودي أيضًا. يجب أن يركضوا عراةً. مثلما صلبوا ربنا عاريًا كما ولدته أمُّه. كرنفال. الكرنفال الرئيس. يمرح ويتهجد الشعب بأكمله. يقوم آخر رجل أعزب لا يجد ما يرتديه، بقلب سترته، ثم يدهن وجهه بالسخام ويركض في نفس الاتجاه وسط الحشد الأرقط. يبدو ذلك الفرح من صلب طبيعته. كل واشربْ وابتھجْ، وتزوجْ من آنسة فاتنة! كان واضحًا أنَّ اليهود دفعوا بدلاً نقدِّيَا، فلم يق سوى ذلك «الأوروتش»<sup>(٣)</sup> وحده. خياط، من دون سترة، ولا وسادة، لكن لديه زوجة وأولادًا وما يلزم من حزن وغم. وهكذا راح التونغوس يقودون هذا الأوروتش إلى هنا، إلى كورسو، أما زوجته وأطفاله فيتحجبون بقوة، يودّعون الوالد لأنَّه لن يستطيع اجتياز المسافة المقررة للجري حيًّا. يقومون بتوزيع *Spitsrytēn*<sup>(٤)</sup> على الجمهور. يخلف الأوروتش سرواله، فينفجر كلَّ من في الشارع من الضحك. ها هو يقف عاريًا تماماً،

-1 الموت بكرامة (إيطالي) - المترجم.

-2 شارع - شريان رئيسي في مدينة جنوة الإيطالية. المترجم

-3 مفرد أوروتش - جمعها أوروتشي - أقلية عرقية على وشك الانقراض - أقل من 2000 شخص

لإحصاء عام 1995 - تعيش في إقليم خباروفسك وبريمورسك الروسي... المترجم

-4 ألماني - قضيب طويل ومن لإنزال العقوبة بال مجرم أو بالجندي - كانت أداة شائعة في القرون الوسطى. المترجم.

وهو يستر عورته بيديه، ويقول: سوف يقتلونني الآن، ولذلك أريد أن أعلن أنني أحبكم، أحبك يا جينيتكشكا، وأحبك أنت أيضًا يا أليوشَا، وأحبك يا فيتينكا<sup>(1)</sup>! استعدوا للانطلاق، اتباه! وها هو يركض، وهم يضربونه. ارحموني، يا إخوتي! هو يركض، وهم يضربونه. أرافقوا بحالٍ، يا إخوتي. يركض ويضربونه. أشفقوا علىّ، يا إخوتي! كفى، لم يعد قادرًا أن يجري. سقط. سوف يموت الآن. وإذا به يرى فجأة أن ثمة شخصاً آخر، نحيلًا، عاريًا أيضًا، يركض خلفه. من هذا، يا ثُرى؟ مجرد جلد وعظم، عرق ودم، واللحية تهتز. يبدو أنَّ أمره هو الآخر سيئة وسوف يموت. ولكن أنفه لا يشبه أنفي - راح الأوروتش يقول في نفسه - هذا يعني أنني لست أنا. علمًا أنَّ هذا الأوروتش كان يعرف جميع اليهود في روما. لا بدَّ أنه شخص غريب. من أين أنت؟ - سأله الأوروتش - كما لو أن وجهك مألوف بالنسبة لي، ولكن من أين لي أن أعرفك؟ فأنا لم أغادر روما، ولم أطل برأسِي أبعد من سور القرية. ما أعرفه فقط هو أنَّ شجرة البتولا البيضاء قرب نافذة بيتي غمرها الثلج كما لو أنها تغطت بالفضة. ولماذا أنت تركض؟ إذ إنَّ هذا السباق هو لي، وأنا محكوم علىَّ بالموت! لعلَّي أصبحت ميتًا؟ ويجيبه ذاك: لا يمكنك أن تعرفي، لأنني سبق أن متُّ منذ زمن بعيد، وأما أنت فما زلت حيًّا. أبدو معروفاً لك لأننا جمِيعاً خلقنا على الصورة والشكل: يدان، ساقان، خيارة صغيرة، وأما الروح فهي مثل البدن، تعق برأحتها الخاصة وبما تتناوله من غذاء. المهم هو أن تذكر إلى أين امتدت يدي - إلى الأعلى أم إلى الخلف، إلى ما وراء الرأس. ييدَّ أنني لا أذكر ذلك أبداً، بكل تأكيد. إلا أنَّ هذا لا أهمية له بالنسبة لك الآن. بل يجب عليك أن تحيا، لأنَّ لديك جينيتشكا، وأليوشَا وفيتينكا. سوف أركض خلفك. دُهش الأوروتش: ولكنك لست يهوديًّا! فيجيب ذاك مع ابتسامة: وهل أنت لا تعرف أنه «لَيْسَ يَهُودِيًّا وَلَا يُوَنَّانِيًّا»<sup>(2)</sup>

1- صيغة التحجب من أسماء علم: جينادي وألكسي وفيتالي - المترجم

2- من رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية 3: 28 (لَيْسَ يَهُودِيًّا وَلَا يُوَنَّانِيًّا. لَيْسَ عَبْدًا وَلَا حُرًّا. لَيْسَ ذَكَرًا وَأُنثِي، لَا تَكُونُ جَمِيعًا وَاحِدًا فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ). المترجم

في مملكة الملك ماتيوس<sup>(1)</sup>? اذهب إلى بيتك، تناول طعام العشاء، ثم قم بتشغيل التلفاز، والعب قليلاً مع الأطفال، كما يمكنك أن تقرأ لهم قبل النوم شيئاً ما عن أورفين جويس ورجاله الخشبيين<sup>(2)</sup>، وبعد ذلك اربط المنبه واذهب للنوم بكل هدوء وراحة بال، وأما أنا فسوف أركض هنا بالنيابة عنكم جميعاً. بالنيابة عن اليهود، وعن السارمانتين، وعن الأوروتشي والتونغوس، وأيضاً نيابة عن الأباطرة وال فلاسفة. هيا، اذهب، إنهم ينتظرونك في البيت! وكن حذراً! اتبه وراقب الطريق جيداً! فالجميع يركضون هنا مثل المجانين. ثم تابع جريه هرولة. راح يتجاوز المارة والمجموعات السياحية. وهو يقفز فوق الفتحات التي يختبئ تحتها مجلس الشيوخ والشعب في روما. راح يركض في شارع كوروسو باتجاه ساحة البندقية، حيث يستحيل اجتياز الشارع قبل أن يندفع الدليل السياحي مع عصا الخيزران، كما لو أنها سيف، ليقف معترضاً سيل السيارات. إذا ما صعد المرء الدرجات والتفت إلى الوراء فسوف يلاحظ أنه يمكن رؤية ذيل حصان فيكتور - إيمانويل<sup>(3)</sup>، وبعديستي الحصان المعلقين تحت الذيل والمرتفعين فوق روما. من جديد راحت الطيور فوق الكابيتول تغط في أنف غوغولي الشكل - حيث كان يدخل 700 ملاك إلى المنخرin الواسعين الشبيهين بسطلين. كان الكهان - الآغفور<sup>(4)</sup> يراقبون طيران الملك لكي يتبعوا بالأحداث المرتقبة. ثمة هرة

- 1 بطل قصة الكاتب وعالم التربية البولندي اليهودي يانوش كورجالك (اسمها الحقيقي هنريك غولدشميت) 1878-1942 قضى نحبه في معسكر الاعتقال النازي في بولندا... والقصة استمرارية لقصته الأولى «الملك ماتيوس في جزيرة صحراوية» المترجم
- 2 أبطال سلسلة حكايات خرافية للأطفال للكاتب الروسي م. فولكوف. المترجم
- 3 الملك فيكتور إيمانويل 1820-1878 حمل فيكتور إيمانويل الثاني لقب ملك إيطاليا ليصبح أول ملك لإيطاليا الموحدة منذ القرن السادس، وظل يحمل هذا اللقب حتى وفاته وقد منحه الإيطاليون لقب أبي الوطن Padre della Patria - كان محظ آمال الوطنين في سardinia، حيث كان مريراً للوحدة الإيطالية وميالاً إلى مبادئ الإصلاح والعمان. وزاد تعلق الإيطاليين به أكثر عندما قام باستدعاء الزعيم الوطني كافور عام 1852 حيث سلمه رئاسة الوزراء. المترجم
- 4 كان دوره الرئيسي ممارسة الشاعة: تفسير إرادة الآلهة من خلال دراسة رحلة الطيور - سواء كانت تطير في مجموعات أو بمفردها، وما الضوضاء التي تحدثها أثناء طيرانها، واتجاه الطيران، وأي نوع من الطيور كانت. كان هذا يعرف باسم «أخذ الرعاية». المترجم

بعين واحدة تسرع باتجاه المتندي (الفوروم). تحشر البلاطات بعضها في عربة الاحتفال بالمتنصر كان يجب أن تهتز بقوّة وهي تعبر الطريق. وأما البحيرة المقدسة كورسيا - *Lacus Curtius* - في وسط المتندي، ف فهي أصغر بكثير من بركة مطر ربيعي في سوق فريازينسك عندها. سوف أجلس على قرمة حجر تحت قوس سيبتموس سفرونس<sup>(2)</sup>، وسوف ألتهم هناك فطيرة. وهذا هو سجن ماميرتينوم - *Carcere Mamertino*<sup>(3)</sup>. قُلْ لِي، وأين قتلوا يوليوس قيصر؟ ترى ثُمَّ لا بد أنك مستعجل جدًا، فتحن لم نصل إلى ذلك بعد، ولم يقوموا بقتله بعد، بل إنه ما زال حيًّا. هكذا إذن، كان ذلك السجن الرئيسي للسجناء السياسيين في الإمبراطورية. ولكن السجن يبدو صغيراً بالنسبة لنا - مجرد مهجعين، واحد في الطابق العلوي، والثاني في الطابق السفلي. وبحيث لا يمكن الدخول إلى القسم السفلي إلا عن طريق فتحة في القسم العلوي. وفي القسم العلوي مذبح مكرّس لبطرس، الذي تقول الأسطورة، إنه سُجِّن هنا قبيل إعدامه، يبدأ أن ذلك لم يتم تأكيده بواسطة أية وثائق، في حين آتَنا نقرأ في كتاب «الحوليات» لباتسيتس<sup>(4)</sup> كيف جرت عملية قتل سيهانوس<sup>(5)</sup> هنا، الذي كان قائداً للحرس البريتورياني وقد حاول تنظيم

- 
- 1 الطريق المقدس - الطريق الرئيسي للمتندي الروماني، الذي يؤدي من الكابيتول إلى المتندي. المترجم
  - 2 الإمبراطور لوشيوس سيفتموس سيفيروس أو «سيفرونس الأول»، الإمبراطور الروماني الحادي والعشرون. المترجم
  - 3 سجين قديم يعود إلى أيام روما القديمة واعتباراً من القرن الرابع ق. م. كان السجن مخصصاً للمجرمين ولحكام الدول العسكريين الأسرى... المترجم
  - 4 الحوليات كتاب ألفه تاتسيتس المؤرخ والسيناتور الروماني. يتناول الكتاب تاريخ حقبة الأباطرة الرومان تiberيوس وكلوديوس ونيرون من الفترة (68-14) ميلادية. وبعد الحوليات مصدراً رئيسياً لفهم الحديث لتاريخ الإمبراطورية الرومانية خلال القرن الأول. كان كتاب الحوليات هو آخر أعمال تاتسيتس، والمؤرخون المعاصرون يعتبرون الكتاب أعظم أعماله. المترجم
  - 5 كان لوسيوس أيليوس سيهانوس *Lucius Aelius Sejanus*، جندياً طموحاً وصديقاً ومقرباً للإمبراطور الروماني تiberيوس. وكان قائداً للحرس البريتوري من 14 م حتى وفاته في 31 م. المترجم

مؤامرة ضد طيباريوس<sup>(1)</sup>. وقد قاموا برمي جثة المتمرد - المزعج والمثير للقلق، إلى الجمهور الغاضب لكي يمثل بها في بداية الأمر، وبعد ثلاثة أيام يتم رمي الجثة في نهر التiber. بيد أن ذلك كان قليلاً بالنسبة إليهم. فجلبوا أطفاله إلى هناك. لم تكن ابنته الصغرى تفهم أو تعي شيئاً وكانت تسأل طوال الوقت عن الذنب الذي ارتكبه لكي يقوموا بمعاقبتها، وراحت تؤكد أنها لن تفعل مثل ذلك بعد الآن أبداً، وتسأله ما إذا كان ممكناً أن تُعاقب كما يُعاقب الأطفال - أن تُساط مرتين بالقضيب. وبما أن الحقوقين لفتوا الانتباه إلى أنه لم يحدث في تاريخ روما أن تم إعدام طفلة صغيرة قبل أن تبلغ وتصبح امرأة ناضجة، فقد قام السفاحون باغتصابها، وذلك قبل أن يقوموا بخنقها. إلا أنه ما من أحد فكر أو قرر أن يصنع مذبحاً باسم تلك الفتاة الصغيرة. لأنّ بطرس لم يكن حينذاك في روما، ولكن الفتاة كانت هناك. لأنّه في حال كان ثمة ما هو حقيقي، فإنهم يبحثون عنه في روما، وليس في المكان الذي أضاعوه فيه، أي في روما التي أصبح فيها ما هو غريب بمرور الزمن - ثمة أمر لا يزول، بل على العكس يتضاع ويشتد ويملاً هذه المدينة حتى أعلى حوافها، كما لو أن أحداً ما قام بسد بالوعة الكوليسيوم<sup>(2)</sup> بسدادة. لأنّه في حال كان ثمة حبٌ ما، فما من شيء سوف يجعله غير موجود سابقاً. كما أنه من المستحيل أن تموت إذا كنت مغرماً. وهأنذا أقضى ليلة مؤرقة وأتذكري جميع أولئك الرجال

1- أوتيريوس قيصر هو الإمبراطور الروماني الثاني (37-14 م). كان ابنًا لأوغسطس بالتبني وصهرًا. وفي ملوك حكم اليهودية كوالين إليريوس كراتوس وبيلاطس البنطي. وقد أبعد اليهود وقتاً ما عن رومية ولكنه ألغى أمره فيما بعد وعوض عليهم بسبب قساوة حكام الأقاليم. وقد بنى هيرودس انتياس طيرية على بحر الجليل إجلالاً له وقد عجل بموته (37 م) كاليعولا الذي خلفه. وفي أيام طيباروس صلب المسيح. المترجم

2- الكوليسيوم أو الكوليسيوم مدرج روماني عملاق يقع في وسط مدينة روما، تم تشييده إلى شرق المنتدى الروماني، ويرجع تاريخ بنائه إلى عهد الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول ما بين عامي 70 و72 بعد الميلاد تحت حكم الإمبراطور فلافيو فسبازيان، وتم الانتهاء منه بشكل أساسي عام 80 في عهد تيتوس، إلا أنه قد أضيفت له بعض التعديلات في عهد دوميتان. تم بناء المدرج الأكبر في العالم من الخرسانة والحجارة، وبعد المدرج العمل الأكبر الذي شيدته الإمبراطورية الرومانية، حيث يعتبر واحداً من أعظم الأعمال المعمارية والهندسية الرومانية. وطبعت صورة الكوليسيوم على قطعة خمس الستونات من النسخة الإيطالية. المترجم

الذين أغرتُ بهم ذات حين. وعلى الرغم من أنني عمياً، فإني أراهم كمالوا  
 أنهم واقفون أمام ناظري تماماً. لهذه الدرجة باتت الحياة صعبة في الفترة  
 الأخيرة حيث أعيش وحيدة. وكم كنتُ أتمنى أن يكون لدى طفل! إذ إنَّ  
 ذلك الطفل الذي كان في أحشائي آنذاك، في متحف أوستانكينو، من دون أن  
 ألدّه، قد تحول إلى سمكة وسبع بعيداً. ولهذا السبب صلّيتُ وتوكّلتُ: أيتها  
 العشبة الناعمة، امنحيوني طفلاً من جديد! فتجيئني: ولكنك أصبحت عجوزاً!  
 أنا: وماذا في ذلك؟ هي: أحكمي بنفسك، لقد توقف كلّ ما هو أنثوي لديك  
 منذ مدة طويلة جداً! أنا: وما الغريب في ذلك؟ وما علاقة ذلك هنا؟ سارة  
 أيضاً كان قد انقطع عندها كلّ شيء، ومع ذلك منحتها طفلاً! أصنعي معجزة  
 لي، لن يكلفك الأمر شيئاً! عندئذ قالت لي العشبة الناعمة: حسناً، لا قدرة لي  
 عليك، سوف يكون كما تشاءين! اذهبي إلى متجر الخبز من أجل رغيف خبز  
 من نوع بورودينسكي<sup>(١)</sup>، وسوف يكون عندك حبة بازلاء! وهكذا انطلقتُ  
 إلى متجر الخبز في حينها، وأنا أتعكّز على عصا، محدودة ومحنة، وإذا  
 أصادف في طريقي امرأة غجرية وكان لديها ثلاث أيادٍ. كانت مبللة تماماً،  
 كما لو أنها عبرت نهرًا للتو سباحةً. كانت تحمل في يدها طفلاً، أيضاً مبللاً،  
 يسيل منه البول بشكل مباشر وصريح، وفي اليد الأخرى كانت تحمل إجاصة  
 جرى قضمها. راحت تمسح بيدها الثالثة على رأسِي وهي تقول لي: لقد  
 نجوتُ من اللصوص للتو، ولذلك أنا مبللة على هذا النحو. لا تعيري انتباهاً  
 كوني غجرية، فأنا لست امرأة عادية، وإنما أنا امرأة شريفة وظاهرة، ولم يبقَ  
 أي أثر، ولا حتى درز أو جرح، بل إني طاهرة مثل البحر الأسود الذي انشقَّ  
 ومن ثم التأم وختم. بصقت على الإجاصة ثم مدتها إلى قائلة: خذني،  
 اقضمي! قضمتُ منها وكان مذاقها لذيذاً لم يسبق لي أن ذقتُ مثله. ثم  
 أكملتُ طريقي وأنا أجرجر قدمي من أجل الخبز وإذ بيأشعر بشكل مباغت  
 - أنا حامل. شعرتُ بالغثيان. أمسكتُ بالسور، ثم تقىأتُ فرحتُ أمسح فمي

1- خبز بورودينو - يعرف في روسيا بالخبز الأسمر - ويكون بالإضافة إلى طحين الجاودار  
 والقمح العادي خميرة معينة مع ملح وكزبرة وسكر وشعير ودبس. وهو غني بفيتامين  
 ب١ وب١٢. ويتم تحضير الخبز بطريقة التخمير. المترجم.

بلغ زغبي سريع الذوبان. استيقظتُ في صباح اليوم التالي وبدأت أقول لنفسي - لا بدّ أنني كنتُ أحلم. نظرتُ إلى نفسي في المرأة ولم أصدق ما تراه عيناي - أصبحتُ شابةً! تضخم الثديان عندي. كما أنّ بطني أصبح كبيراً. لقد عادت حبة البازلاء إلىَّ! شعرتُ بالخوف: ماذا سيقول الجيران عنِّي! لقد فقدت عقلها هذه العجوز الشمطاء! رحتُ أختبئ عن أنظار الجميع وأخفي بطني عنهم. ولكن هيهات، كيف يمكن إخفاؤه؟ راح الجنين ينمو ويكبر بالساعات وليس بالأيام! وكان كلّ شيء في داخلي ينبض بالحياة. بطن حي نشط. لقد عادت إلىَّ حبة البازلاء خاصةً! رحتُ أصيح السمع، وسمعت كيف أنَّ الطفل يتحرّك. وهكذا رحتُ أخفي ح ملي عن أنظار الجميع، كما ربطتُ بطني بحزام ولكنه مع ذلك ازداد حجمه على رغم كل ذلك وبحيث لم يعد ممكناً كتمان الأمر. وفجأة بدأ المخاض ليلاً. كفى - لم أعد أتحمل. آلام المخاض. آلام فظيعة ومبكرة. رحتُ أعااني وأتألم، ولكنني كنت أخشى أن أطلب المساعدة من أحد. وإذا بالجنين ينطلق من داخلي بطريقة سريعة وقوية، كما لو أنه قذيفة مدفوع. صبي؟ أم بنت؟ لم أكن أرى شيئاً، ولا بدّ من إشعال الضوء. رحتُ أفتّش في العتمة بيدي على المنضدة الليلية قرب السرير، فاصطدمت بشرط المصباح، وإذا بهذا الأخير يهوي على الأرض! حاولتُ أن أنهض ولكن قواي لم تطاوعني. انزلقتُ على شيء ما وسقطتُ، فاصطدم رأسياً بالأرض. بقيتُ ممددة ورحتُ أصيح السمع وأرى كلّ شيء، ولكن بطريقة غريبة نوعاً ما، كما لو أنني أنظر من خلال الزجاج، وكما لو أنني لا أتمدد على الأرض، بل أقف على الشرفة ومن هناك أنظر إلى الغرفة فأشاهد نفسي - قرب سرير وسط بركة، بالقرب من مصباح محطم. في هذه اللحظة يأتي أحدٌ ما مسرعاً ويقول: وأخيراً، لقد انتهت آلامك! ومن حولي ظلام دامس. والكلُّ نائم. حتى إن الريح نائمة. وجميع الأحذية والصنادل والكنادر أيضاً نائمة. كما أنَّ السمك غفا ونام في الحديقة. والطيور نامت في البركة. وروما تنام، مدينة الأموات، حيث بات الجميع أحياء. استكانت، وغرقت في سبات عميق. كان الضوء مشتعلًا في نافذة واحدة فقط، حيث راح الملازم الذي جاء من ريزان والعاشق الكبير لصنوف

الجزمات، يقيس زوجين جديدين من الأحذية، فكان تارة يقترب في الجزمة من السرير وذلك لكي يخلعها ويستلقي للنوم، ولكنه لم يكن ينجح في خلعها: يرفع إحدى رجليه ومن ثم يبدأ بالاستمتاع بالكعب المصقول إلى حد الإتقان وبشكل رائع جداً. المعدة تهضم مدينة برن. رغيف الخبز يتلاأ. إذا ما شدّت الشعرة التي التصقت بقطعة الصابون، سوف تنقلق اليابسة. إنَّ أمعاء «ديدان» الأرض نائمة. والفتيات نائمات أيضاً، كما لو أنهنَ يسبحن، اليد اليمنى إلى الأمام، تحت الوسادة، وأما اليسرى فإلى الخلف مع راحة مقلوبة نحو الأعلى. النوافير تصبح أقوى صوتاً في الليلي. لا أحد قرب نافورة باركاتشيو. وما من أحد قرب نافورة تريفي. وحدها نافورة النوافير، النافورةالأميرال، والنافورة القائد - تقود خلفها أسطول النوافير عبر عباب البحر الحجري النائم. من دون أن يتناثر الغبار المائي على جلد أحد. وما من أحد يشرب مياه العذراء<sup>(١)</sup> Aqua Virgo اللذيدة، وما من أحد يرمي قطعة معدنية من فوق كتفه، بمعنى أنَّ أمسك، يا من تنقل الخراف والذئاب، ورؤوس الملفوف، فلسك فقد أصبح ديناً في عنقك! ومن فتحة في قبة البانيون تنطلق الوطاويط مع حلول الليل وراحت تحلق وتغطُّ. كما راح قارب - فارغ - منقوش على حجارة جدار يسبح في نهر التiber عابراً تحت الجسر الذي يوصل بين كاستيللو وسانت أنجيلو. وفي الميدان (الفوروم) يسود هدوء وخواء، وحدها القلط تجلس من دون أن تشيح بنظرها عن الأيدي المحطمّة. سوف يطلع الفجر عما قريب. سوف يمسك المهندس في السماء بالمقصّ، وسوف يقصُّ من «المتدى» كلَّ ما هو زائد وغير ضروري: قاعة الأعمدة باسم القديس بطرس، والجسر مع الملائكة. وهو أيضاً المشوش الذهن - سوف يقصُّ الملائكة، ولكنه سيكون هناك بدلاً منها في المحصلة ضباط من سيفاستوبول، وهؤلاء يريدون أن يبحروا

- 1 - كانت Aqua Virgo واحدة من إحدى عشرة قناة رومانية كانت تزود مدينة روما القديمة. سقطت القناة مع سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، ولكن تم ترميمها بالكامل بعد ما يقرب من ألف عام في عصر النهضة الإيطالية لتأخذ شكلها الحالي باسم أكوا فيرجين. المترجم

ويطفو، فيندفعون نحو الأعلى وهم مربوطن، فإذا بمزق قمصانهم ترفرف مثل أجنحة. لعله برنيني، هو الذي اخترط عليه كل شيء في هذا الكون! فقد كانوا طلبوا منه أن ينحت من المرمر امرأة عجوزاً واحدة، لم يسبق لها هي ذاتها أن حبكت ولم تسمع لغيرها بذلك، وقبل أن تموت زمت أنفها قائلةً: لقد أزفت الساعة المنتظرة طويلاً، يا إلهي! وهكذا حان الوقت لكي نلتقي ونرى بعضنا، يا عريسي وبأموتي! ولكن المشوش في ذهنه نحت بدلاً عنها عروساً شابةً. وكان عريسها شعرة العذراء. إنها تتلاًّا. ثمة أكواام من القمامات من يوم أمس على درجات السلم الإسباني. هناك من يصرخ من جهة تل بيتشتو<sup>(١)</sup>: إلهي! إلهي! لماذا تركتني؟<sup>(٢)</sup> جمَدَ الملاك الأسود عند زاوية ساحة دل بوبولو<sup>(٣)</sup>، ثم فرد جناحيه المصنوعين من الحقائب. وهذه هي غالبيتها، تجري في شارع كورسو، دافعة طلائع المارة الصباخين، غالبيتها تلك ذاتها، صاحبة ورقة المرحاض - ذات الشوارب، والعارية، وهي تلوّح بنهددين كبيرين بحجم رطل للواحد منهمما، وتحمل حبة بازلاء في بطنهما. كانت مستعجلة، ت يريد أن تلحق بذلك الذي راح يجري في المقدمة هرولة باتجاه مملكة الملك ماتيوس، وتنديه: انتظرنـي، خذـني معـكـ، لـكي أـعدـوـ بالـنيـابـةـ عنـ الجـمـيعـ، دـعـنـاـ نـركـضـ مـعـاـ! وفيـ نـهاـيـةـ الشـارـعـ كانـ الدـلـيلـ السـيـاحـيـ يـقـفـ وـحـيدـاـ وـقـدـ رـفـعـ عـالـيـاـ مـظـلـةـ مـطـوـيـةـ رـيـطـتـ بـهـ جـديـلـةـ شـعـرـ بـلـونـ الـفـجرـ، بـمـعـنـىـ، اـحـذـرـواـ أـنـ تـضـيـعـواـ أـوـ أـنـ تـضـلـلـواـ الـطـرـيقـ، بلـ اـتـبـعـونـيـ، وـأـنـ سـوـفـ أـرـيـكـمـ مـاـ هـوـ أـكـثـرـ أـهـمـيـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ الـعـابـرـةـ وـغـيرـ الـخـالـدـةـ! إنـهاـ تـلـ

- 
- 1 تل روماني يقوم إلى الشمال من هضبة كيرينال حيث القصر الكيرينالي - مقر رئيس دولة إيطاليا. وتل بيتشتو لا يدخل في عداد التلال السبعة الكلاسيكية لمدينة روما وذلك على الرغم من أنه محاط بالأسوار الأوريلية. أسوار تحيط بمدينة روما بنيت بين 275-271 خلال عهد أورليان وبروبوس. وهما من الأباطرة الرومانين. المترجم
  - 2 جملة آرامية: إيلي! إيلي! لم شبقتنـي؟ هذا ما صرـخـ بهـ الرـبـ يـسـوعـ المـسـيحـ بصـوتـ عـظـيمـ وأـسـلـمـ الرـوحـ (متى 27:46-50) المـتـرـجمـ
  - 3 بياتزا ديل بوبولو تلفظ بياتزا دل پوپولو، ساحة حضرية كبيرة في العاصمة الإيطالية روما. اسم الساحة في اللغة الإيطالية المعاصرة يعني حرفيًا «ساحة الشعب»، لكن هذا الاسم مشتق تاريخيًا من الكلمة الحرور (populous) في اللاتينية و pioppo في الإيطالية) تيمناً بكنيسة سانتا ماريا ديل بوبولو التي تقع في الركن الشمالي الشرقي من الساحة. المترجم

المسلة المصرية<sup>(١)</sup> مع قيمة زهرية اللون مربوطة بها تصرخ: أين أنت؟ هيا، اتبعوني! فأنا سوف أجعلكم ترون العشب - الأخضر الندي والناعم.

زيوريخ - روما  
2004-2002

مكتبة

[t.me/soramnqraa](https://t.me/soramnqraa)

---

1 - لعل المؤلف يقصد (وهذارأي يخص المترجم وحده وحسب هنا) مسلة تحتموس الثالث هي مسلة الفرعون تحتموس الثالث وهي موجودةاليوم في إسطنبول في ميدان السلطان أحمد والذي كان سابقاً مضماراً لسباق الخيول. وقد نقلت المسلة من مصر إلى إسطنبول على يد الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول. المترجم

# telegram @soramnqraa

يشمل مسرح الأحداث في رواية ميخائيل شيشكين الحائز على جائزة البوكر فترات زمنية مختلفة وبلدانًا مختلفة: إيان الحرب الأهلية، وأوروبا الحالية، وحتى بلاد فارس القديمة. تتقاطع مصائر أبطال السرد، تحدث عملية استحالة متبادلة فيما بينهم، ويقودهم الحب في دروب حياتهم - حبٌ سعيد ودرامي ومختلف. «في حال كان ثمة حب، فلن يستطيع أحد أن يجعله غير موجود» - هذه هي الفكرة الرئيسية للرواية التي نالت جائزة «الرواية الوطنية الأكثر رواجاً National bestseller».



ولد ميخائيل بافلوفيتش شيشكين عام 1961 في موسكو. أنهى كلية اللغات الرومانية والألمانية في المعهد التربوي الاجتماعي في موسكو. عمل معلماً للغة الإنكليزية في المدرسة. نشر أول أعماله التراثية بعنوان «درس في فن الخط» في مجلة «زناميا - الرأي» (العدد 1 لعام 1993) ليصبح أحد كتاب المجلة الدائمين. كانت مجلة «زناميا» أول من نشر روايته «الجميع تتظاهر ليلة واحدة»، والقصة الطويلة «الموسيقي الأعمى» وأيضاً رواية «الاستيلاء على إسماعيل» التي حازت على جائزة البوكر للرواية في عام 1999. يعيش في زيوريخ، حيث قام بإصدار دليل أدبي تاريخي «سويسرا الروسية».

ISBN 978-9933-6173-2-5

9 789933 617325

مكتبة  
t.me/soramnqraa